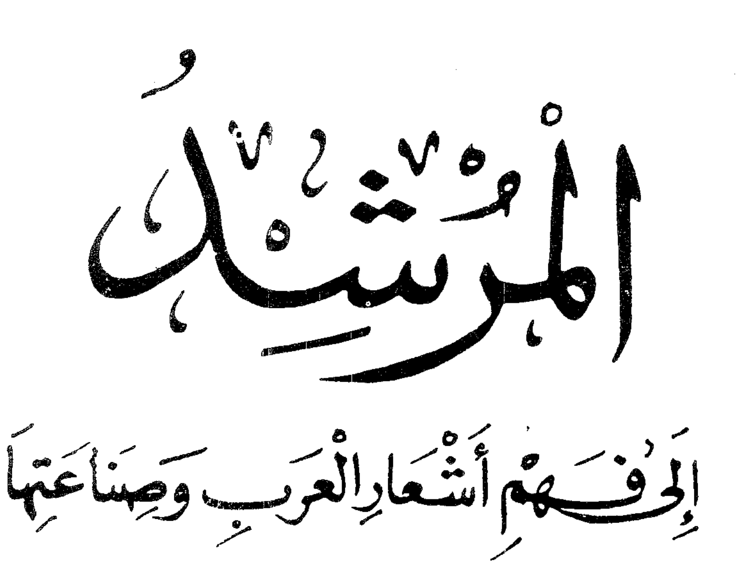
عبد الله الطيب



المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها

في الأغراض والأساليب

الجزء الرابع (القسم الثانى)



الإهداء

إلى جميع من أعانوا على خلق هذا الكتاب ، بما تَوَلَّوْهُ من إرشادي وتعليمي ونَقْدِي ، أَوَّلُهم أبي رحمه الله .

عبدالله الطيب



بسم الله الرحمن الرحيم
القسم الثاني

مدح الرسول صلى الله عليه وسلم

قال تعالى جل من قائل في كتابه المحكم العزيز: « إنا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون . »

ومما حفظ به كتاب الله عرفان العربية وتذوق جزالة أساليبها ، وكان من كبار علماء اللغة والنحو والأدب حفظة لكتاب الله أخذت عنهم القراءة والرواية والتفسير كأبي عمرو بن العلاء والكسائي وقالون فقد ذكروا أنه كان نحوي المدينة على زمانه وهو تلميذ نافع والأصمعي ، وكان من رواة قراءة نافع ، والفراء وأبي عبيدة ومكانهما في معاني القرآن ومجازه وتفسيره غير خاف . وكان الطبري محمد بن جرير مقدما في النحو والعربية وهو من حفظة الكتاب العزيز قراءة وتفسيرا . وكان ابن جني صاحب الخصائص وراوية أبي الطيب هو أيضا صاحب المحتسب الذي إنما هو حاشية وشرح موجز جيد وتعليق على كتاب السبعة لابن مجاهد . والأمثلة في هذا الباب أكثر من أن تحصر وتحصى .

ولأمر ما كثر استشهاد أهل التفسير بالشعر الصحيح من لدن ابن عباس رضي الله عنهما إلى زمان أبي عبيدة والفراء ومن بعدهما . من ذلك أن الشعر الصحيح الجزل فيه روح البيان العربي . وقد نزل القرآن بلسان عربي مبين . وقال تعالى : « إنا أنزلناه قرءانا عربيا لعلكم تعقلون » (يوسف) وقال تعالى : « إنا جعلناه قرءانا عربيا لعلكم تعقلون » (الزخرف) وقال تعالى : « نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين » (الشعراء) .

وبعض أهل السفسطة ربما زعم أن من ألفاظ القرآن ما ليس بعربي وهذا هو الضلال المبين . ولو سلمنا جدلا أن امثال استبرق من ألفاظ القرآن لسن عربيات ، فماذا عسى أن يستنتج من ذلك مستنتج أورود كلمة الون في شعر الأعشى يجعله فارسيا ، وذلك حيث قال :

بالون يضرب لي يهز الإصبعا

أو مجيء كلمة الكرد في قول الفرزدق

وكنا إذا الجبار صعر خده ... ضربناه فوق الأنثيين على الكرد

أي العنق يجعل شعر الفرزدق غير عربي ؟

أم لا يزيد أحيانا في بلاغة الكلم البليغ ان يجاء فيه بكلمة ذات دلالة واضحة في لغة أخرى لكي تنتقل بعض الوان تلك الدلالة إلى السياق الذي هي فيه ؟

ذلك واضح سائغ في كل اللغات إلى الآن .

على أنه ينبغي أن نذكر أن مكة كانت ملتقى تجارة العالم كلـه آنئذ فكم من كلمة صهرتها ألسن العرب فيها فصارت عربية ـ هذا على تقدير التسليم أن العرب استعارت أمثـال قنطار ودينـار لتديـر به تجارتها ، وقـولـه تعالى : «والقنـاطير المقنطرة من الـذهب والفضة» يدل على اطمئنان الكلمة في بحبوحة العربية .

على أن العربيـة لغة قديمـة الأصول والروم والفـرس واليونـان كل أولئك أحدث عهدا في الوجود الحضاري من العرب ـ عادهم وثمودهم وجرهمهم وقطورائهم وأميمهم وطسمهم وجديسهم وعماليقهم بله حمير وسبأ واليمن الأقدمين .

قال أبو عبيدة (وقد ذكروا أنه كان شعوبيا واتهموه بمذهب الخوارج وهلم جرا)[1] قال في أوائل كتـابه بعد البسملـة : قالوا إنما أنـزل القرآن بلسان عـربي مبين ، وتصداق ذلك في آية من القرآن وفي آيـة أخرى «وما أرسلنا من رسول إلا بلسـان قومه »فلم يحتج السلف ولا الـذين أدركوا وحيه إلى النبـي صلى الله عليه وسلـم أن يسألوا عن معـانيه لأنهم كانـوا عرب الألسن فاستغنوا بعلمهم بـه عن المسألة عن معانيه ، وعما فيـه مما فى كلام العرب مثله من الوجوه والتلخيص . وفي القرآن مثل ما في الكلام العربي من وجوه الاعراب ومن الغريب والمعـاني . وقال رحمه الله في فصل تال : «نزل القـرآن بلسان عربي مبين ، فمن زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول ، ومن زعم أن " طه " بالنبطية فقد أكبر، وإن لم يعلم مـا هو، فهـو افتتاح كلام وهـو اسم للسورة وشعـار لها ، وقد يـوافق اللفظ ويقاربه ومعناهما واحد وأحدهما بالعربية والآخر بالفارسية أو غيرها . فمن ذلك الاستبرق بالعـربية وهو الغليظ من الديبـاج والفرند وهـو بالفارسية استبره وكـوز وهو بـالعربيـة جوز وأشبـاه هـذا كثير. ومن زعم أن«حجارة من سجيـل » بالفـارسية فقـد أعظم ، ومن قال إنه سنك وكل ، إنما السجيل الشديد . »

---

(١) راجع مقدمـة محقق مجاز القرآن الاستاذ محمد فـؤاد سزكين ـ قال تحت عنـوان مذهبه فى مقدمتـه ص ١٠/ ١ (الطبعة الثالثـة سنة ١٤٠١هـ = ١٩٨١م بيروت)تكاد تتفق كلمتهم على أن أبـا عبيدة كان من الخوارج وانـه كان يكتم ذلك ولا يعلنه إلخ ـ قلت فقـد قالوا فيه بالظـن . ثم يقول الاستاذ سزكين (ص١١) ونسـبة أبي عبيـدة إلى مذهب الخوارج تارة وإلى القول بالقدر تارة أخرى تكشف عن صلته بمعاصريه وتدل على أنه لم يكن محبوبا بينهم إلخ ـ نقول كان من علماء العربية واعتمد على ما قاله جماعة من كبار علماء أهل السنة كمحمد بن جرير ومحمد بن اسماعيل رحمهم الله أجمعين .

وقد اهتم جار الله محمود بن عمر الزمخشري بأمر البلاغة العربية عامة، وبلاغة القرآن خاصة، ومهد لتفسيره الجليل بعمل معجمه البلاغي النادر المثال «الأساس - أساس البلاغة». ؟ مما يدلك على أنه مهد به تفسيره لقوله تعالى: «إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون» فقد قال إن المرأة لا يقال لها مفندة لأنها لم يكن لها عقل وهي شابة وهذا الوجه بعينه جاء في عبارة "الأساس" ولعل "الفائق" مما مهد به أيضا. وقد ألف تفسيره وهو مجاور بمكة. وقد اعتمد على ابن جرير. إلا أن مذهبه في بيان البلاغة القرآنية كأن قد انفرد به. واستشهاده بالشعر غزير. وكان مما ذهب اليه الاستشهاد بشعر حبيب وأبي الطيب، يجعل مايقولانه بمنزلة ما يرويانه. وما سوغ له ذلك إلا ما أحسه بجودة ذوقه من تمكنهما من جزالة القول. وما كل علامة راوية بمستطيع جزل الكلام إن رام قوله. ماعدا الزمخشري أن استأنس بما أورد من شعر فحول المحدثين إذ لم يكن خافيا عليه أنه لا يصح الاستشهاد بكلامهم على شيء من نحو أو صرف أو لغة. وقد سلك مسلك الزمخشري رحمه الله جماعة منهم مثلا صاحب "مغني اللبيب" ومن الأوائل من تشدد أحيانا فكره الاستشهاد بمن لا شك في فصاحته كالذي ذكره أبو الفرج من طعن يونس في ابن قيس الرقيات مثلا.

علم الأوائل كله كان مداره على صحة الرواية عن مشافهة. وكان الحديث ادق العلوم رواية وأعوصها طريقا فيها. وكان سيبويه شيخ النحاة رحمه الله قد طلب الحديث أول الأمر. ثم لما خطأه حماد بن سلمة في حديث "ليس أبا الدرداء" عدل الى درس النحو. فلم يكن ليستشهد على مسائل النحو بما لم يكن على معرفة حقة بوجوه صحة روايته من علوم الحديث. وقد عدل عن متابعتها كما ترى. وقد كان قرأ القرآن على حفظته ورواته ويذكر اسماءهم في كتابه. وقد روى الأشعار وسمع مشافهة من العرب. فعول على هذا الذي كان يعلمه ويعلمه علماؤه. وقد كان عاصم بن أبي النجود، أحد شيوخ أبي عمرو [وهو شيخ سيبويه] حجة في القرآن جلس يعلمه بالكوفة اربعين سنة بعد أبي عبدالرحمن السلمي وهذا جلس من قبل يعلمه اربعين سنة وعن الصحابة الاجلاء أخذ - وذكروا أن عاصما لما أدركته الوفاة كان يردد قوله تعالى «ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق» يحقق القاف تحقيقا حتى قبض الله روحه. مع هذا لم يكن عاصم بحجة عند أهل الحديث مع إجماعهم على قرآنه وصلاحه وعلمه فتأمل.

ليس الأمر أن الحديث كان يروي بالمعنى فلذلك لم يستشهد به النحويون كلا. كان من رواة الحديث رجال هم من جيل من يستشهد بكلامه بلاريب. كالشيوخ الذين عنهم اخذ الإمام مالك. وقد قيل ذلك في مالك نفسه وزعموا أن دجاجلة جمع

دجال لم يعرفه أهل اللغة إلا منه في خبر يذكرونه له فيما بينه وبين ابن اسحاق، وابن اسحاق ممن وثقه مسلم والبخاري. فلعل هذا الخبر ألا يصح والله تعالى أعلم. إنما ذكرناه استيفاء للحجة فيما ذكرناه من فصاحة أهل رواية الحديث الأولين الذين عنهم أخذ أمراء جرحه وتعديله ومعرفة صحيحه من ضعيفه.

وما أرى إلا أن سيبويه رحمه الله كان يعلم أحاديث كثيرة. ولكن تحرج ان يستشهد بما لم يجز عليه مشافهة. وكان في القوم دقة في التحصيل، ومراقبة لله فيه، وحرص على تجويد ما يقبلون عليه من عمل.

واقتدى بسيبويه من أخذوا الكتاب عن سعيد بن مسعدة وكان صدوقا.

هذا ـ قدمنا أن عرفان العربية وتذوق جزالة أساليبها مماحفظ الله به كتابه. وقد وعد ووعده الحق أنه حافظه. والقصيدة المحكمة هي المفتاح الأول لعرفان العربية وأهدى المسالك الى تذوق جزالة أساليبها. من أجل هذا ما استأنس الزمخشري بشعر أبي تمام وأبي الطيب وهو في معرض الإرشاد الى نكت بلاغة القرآن. وقد تعلم قوله أن المعري إنما برى لقول الله تعالى «إنها ترمي بشرر كالقصر» حيث قال هو :

حمراء ساطعة الذوائب في الدجى	ترمي بكل شرارة كطراف

والمقامة على فضلها، بين يدي القصيدة جارية تخدمها.

وأبى الله، وهو اعلم بمراده ودقائق حكمته. أن تزول القصيدة المحكمة ومكانها فيما وعد به من حفظ كتابه مكانها، ولا سيما حين جعلت تحيط بدار الإسلام الغوائل، وأشرعت الصليبية إليها الأسنة من رومها وروسها وفرنجتها وصقالبها وبلغارها وأصناف من عددهم أبو الطيب في شعره كقوله :

وكيف ترجى الروم والروس هدمها	وذا الطعن اساس لها ودعائم
وقوله: يجمع الروم والصقالب والبلـ	ـغار فيها وتجمع الآجالا
وتوافيهم بهم في القنا الصمـ	ـم كما وافت العطاش الصلالا

وسددت التتار إليها سهامها، وخيف عليها كل الخوف من الاجتياح.

في معركة بغداد سنة ٦٥٦ هـ وهي التي كانت القاضية على دولة بني العباس، سقط بقريته صرصر وهي من سواد بغداد شهيدا مقبلا غير مدبر على ما كان من ضرره

وما أعفاه الله به من مباشرة القتال، الإمام يحيى الصرصري[1]، رحمه الله، وجعل الجنة متقلبه ومثواه ـ وهو الذي يقول:

ركب الحجاز ومنك الخير مأمول — هل عندك اليوم للمشتاق تنويل
علل بما طاب للبطحاء من خبر — ذا الوجد إن كان يشفي الصب تعليل
هل ربة الستر بعد النأي دانية — أم حبلها بعد طول القطع موصول
أم هل تحل مطايانا بساحتها — وربعها الرحب بالأحباب مأهول
ونقتضى بالمصلى والصفا ومنى — دنيا تصرم حين وهو ممطول
وهل تجد بنعمان الأراك لنا — من المواهب أسهال رعابيل
وهل تخب بنا بين العقيق الى — سلع رواحل تحدوها الأراجيل
مضبرات القرى كوم كرائم لا — يسأمن من دأب قود مراقيل

رعابيل أى مزق ينظر فيه الى قول كعب:

تفرى اللبان بكفيها ومدرعها — مشقق عن تراقيها رعابيل

والأراجيل ينظر الى قوله:

منه تظل سباع الجو ضامرة — ولا تمشي بواديه الأراجيل

وقوله مضبرات بالضاد المعجمة من التضبير وهو القوة والقرى الظهر وتأمل جودة رنين قوله "كرائم" مع سبق راء القرى من قبل ومجيء "مراقيل" من بعد وهي جمع مرقال والإرقال ضرب من العدو وبه سمى هاشم بن عتبة المرقال إذ كان يرقل بالراية في صفين وهو يرتجز

أعور يبغى أهله محلا — قد عالج الحياة حتى ملا
يتلهم بذي الكعوب تلا — لا بد أن يفل أو يفلا

وقال النابغة في البائية:

إذ استنزلوا عنهن في الحرب أرقلوا — إلى الموت إرقال الجمال المصاعب

مراقيل أى مسرعات

بالنقى أعظمها والدر حالية — ومن كلال ومن هزل معاطيل

---

(١) أبو زكريا يحيى بن يوسف الصرصري ـ ذكر صرصر ياقوت في البلدان أنها من سواد بغداد.

هكـذا في طبعة المجمـوعـة وأحسبه خطأ وقـد فسره الشـارح بأن النقي هو المخ والـدر الحليب وأعظمها ضبطه ضبط اسم التفضيل بفتح الظاء بعـد عين ساكنه وهذا كله لا يستقيم إذ لا معنى لأن تكون حالية بالحليب عظامها، ثم معاطيل لأنها جمع لا تصلح خبرا لأعظمها إلا علي أن نـؤول أن "أعظمها" عدده أكثـر من واحدة أو تقدمـه مبتدأ الوجه عندي أن البيت صوابه هكذا إن شاء الله.

بـالنقى أعظمهـا والـدو حـاليـة ومن كـلال ومن هـزل معـاطيل

فالهزل مقـابل للنقى وهو المخ وكون أعظمها بضـم الظاء أي عظامها فيهـا النقي دلالة على أنه لا هزل بها. والكلال مقابل الدو وهـو القفر والصحراء واذا كان الدو لها حليا مع مخ عظامها دل ذلك على مواصلتهـا للسير وهي قادرة عليه غير ذات كلال ـ فهي عاطلة من الكلال ومن الهزل.

خـوص لها أرب تحت الـدجى وإذ اشـــ ـــتد الهجير وضم القســـور الغيل

القسور الأسـد، وكانت في طـريق الحج السباع والمخاوف، فـانظر كيف كـان حرص المسلمين على أداء شعائرهم فكيف أساء المعري حيث قال ما قال

تحكين نفـث نعـــام راعهن ضحـى زعـــر ويثفــرن والصـــوان مبتـــول
يلبـــزن صم الحصى لبـزا ومـــدرجهـا خط عليـــه فمنقـــوط ومشكـــول

كلا هـذين البيتين فيهما تحريف من ناسخ ــ تحريف كثير ولعل الصواب هكـذا إذ هو أشبـه بالمعنى والـرسم يحتملـه كالـذي مر من "الـدو" لما بين الـواو والراء من شبـه:

يحكين نفـــر نعـــام راعهـن ضحى ذعـــر وينفـــذن والصـــوان مبتـــول
ينبـذن صـم الحصى نبـذا ومـــدرجها خط عليـــه فمنقـــوط ومشكـــول

ذلك بأن النفاذ يماثله البتل أى القطع والنفر يشاكله الذعر ويناسبه واللبز باللام بعيدة لأن الحصى لا يلبز ولكن ينبذ أى يقذف ويرمى به

إذا الحداة بسلع عـرضـوا فلهـا على الـوجى ودوام السير تبغيل
تحن شـوقـا وأنـى لا تحن إلى حمى الـرسـول النجيبـات المراسيل

فهذه المقـدمة التي مرت ليست من قـرى صناعة المقـامات والبديع وأوصـاف الشموع وضروب العبث بالمحسنات واللعب اللفظي والمعنوي، ههنـا أنفاس فحولة من الشعر شبيهة بأنفاس فحول صدر الإسلام والمحدثين المشهود لهم بالتقدم، وكالقدماء لا يجد الشاعـر عسرا في الاستهلال بالديـار والنسيب، إذ الديار التي تيمت قلبه ذكـراها هي الكعبة الشريفة والمشـاعر والمعرف ومنى ورباع مكـة المقدسات والقبر الزكـي والروضة والمسجد والحرم وأحد والبقيع وقبا ومشاهد دار الهجرة العظام.

تأمل هذا التعبير النبيل الجزل:

هل ربـة الستر بعـد النأي دانيـة أم حبلها بعـد طـول القطع مـوصـول
وهـل تجد بنعمان الأراك لنـا مـن المواهـب أسمال رعـابيـل

والشاهـد قولـه «من المواهب أسمال رعابيل» ــ فالأسمال الـرعابيل من صفـة الثياب، والأسمال أيضا بقايا الماء في الركايا، وكل هذه الظلال من المعاني مرادة ههنا

قال المعري:

جلبت من الشـامين أطيب جـرعـة وأنـزرهـا والقـوم بـالقفـر ضـلال
يلـوذ بأقطـار الـزجـاجـة بعـدمـا هـريقـت لما أهـديت في الكثـر أمثال

يصف قبلتهـا أنها أطيب جـرعة على قلتهـا حتى إنها لا تـزيد على مـا تبقى في أقطـار الزجاجة بعد أن يراق ما فيها

فـإن زعمـوا أن الهجير استشفهـم إليهـا فمنهـا في المزايـد أسمال

أى بقـايا، ومـا أرى إلا أن الصرصري رحمه الله يشير الى مـا ذكره أبـو العلاء ههنـا من معنى المواهب، وكان لأولى الضرر خاصة بأبي العلاء فرط ولع وإن اختلفت مذاهبهم

لاتفـاقهم في بـاب التعمق في اللغة وآدابها ، فهـذا الـذي صنعـه الصرصري من خفي التضمين وبارعه .
وجلى أن الصرصري رحمه اللـه يجارى "بانت سعـاد" وتستنير بصيرتـه بضـوء قوافيهـا ومعـانيهـا ، غير أن مجاراة الصرصري لـ «بـانت سعـاد" ههنـا ومجاراة غيره من مـداح الرسول صلى الله عليه وسلم لها ، كالبوصيري في لاميته :

الى متى أنت بـاللـذات مشغـول   وأنت عن كل ما قدمت مسئول

وابن جابرالأندلسي في لاميته :

بـانت سعـاد فعقد الصبر محلـول   والدمع في صفحات الخد مبذول

وجماعة غيرهم أورد من نظمهم في مجاراتها صاحب المجموعة النبهانيه رحمه الله ـ وفيهم الزمخشري صاحب الكشاف والفيروز ابادى صاحب القاموس ـ كل ذلك أريد به أول من كل شيء التبرك ، وذلك أن كعب بن زهير رحمه الله نال بها عفوا وجائزة وذكرا حميدا وقد ضاهى في الجودة مذهب أبيه مع ما لـه من حرارة أنفاس الشباب ـ على أن أباه كما يعلم القارىء الكريم أصلحه الله ، شديد الأسر ، قوي الروح ، متين الأنفاس .
ولقد أحسن الإمام يحيى الصرصرى إذ يقول في أخريات لاميته

يـاسيـد النـاس في الـدنيـا وسيـدهم   يـوم القيـامـة منك الخير مأمـول
حبرت فيك قصيـدا حسـن مـدحك في   رؤوس أبيـاتها الحسنى أكـاليـل

رؤوس الأبيـات عنى بها الـروى ، كما يقـال للفـواصل رؤوس الآى ، وجعل القـوافي كالأكـاليل لمقاطع الأبيـات هنا ، لمكان هـذا القري في مـدحة كعب ، وقـد فصل هذا المعنى ووضحه في ما بعد :

نظمتهـا وزن مـن قـد قـال مبتـدئا   " بـانـت سعـاد فقلبي اليـوم متبـول "
تبركـا بـاتبـاعي مـا نحـاه ولم   أبغ المضـاهـاة أين الطـوْل والطـول
لقـد عـلا كعب كعب كـل ممتـدح   فمن يفـاضل يـومـا فهـو مفضـول

لعلها "فمن يفاضله" ومن جازمة ويجوز ما ههنا على معنى والذي "يفاضل" فهو مفضول وما أشبه أن تكون هاء الضمير قد غفل عنها في الطبع والتصحيح أو أخطأها الناسخ وذلك أن الرنة بها أقوى وأشبه بنغم الصرصري الفحل :

لقد علا كعب كعب كل ممتدح   فمن يفاضله يوما فهو مفضول
سبقا وفضلا وإنشادا مشافهة   وبردة قصرت عنها السرابيل
لكنني إن يك التسويف قصر بي   وقيل إنك مبعوث ومسئول

يشير الى قول كعب : "وقيل إنك منسوب ومسئول"

أقول للواعظ المهدي نصيحته   أقصر فلي شافع في الحشر مقبول
محمد خير مبعوث بمرحمة   وجاهه الغمر للراجين مبذول

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

ونلفت القارىء الكريم الى قوله : « سبقا وفضلا وإنشادا مشافهة » ثم ذكر البردة فكل هذا شاهد كما ترى بمعنى التبرك .

وقد نهج البوصيري نهج الصرصري في الإقرار لكعب بن زهير بالسبق المطلق لأن كلامه عربي جزل أصيل - غير أنه أعطى نفسه فضيلة المشابهة له في أمرين ، أولا مدح الرسول صلى الله عليه واله وسلم خالصا فيه وثانيا رجاء العفو عند الله سبحانه وتعالى بجاهه عليه الصلاة والسلام ، وذلك أن كعبا قد استحق القتل قبل أن يتقدم بمدحته هذه فنال بها العفو والرضا والجائزة : قال :

ها حلة بخلال منك قد رقمت   ما في محاسنها للعيب تخليل
جاءت بحبي وتصديقي إليك فما   حبي مشوب ولا التصديق مدخول

أي كما حب كعب وتصديقه كانا غير مشوبين ولا مدخولين إذ وفد معتذرا وفي الناس من يتهمه بذلك كما يدل عليه قوله :

أنبئت أن رسول الله أوعدني   والعفو عند رسول الله مأمول
فقد أتيت رسول الله معتذرا   والعذر عند رسول الله مقبول
مهلا هداك الذي أعطاك نافلة الـ   قرءان فيها مواعيظ وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم   أذنب وقد كثرت في الأقاويل

كذلك أنا حبي غير مشوب وتصديقي غير مدخول وما سلكت مسلك كعب في الروي والبحر وأنا أبغي انتحال كلامه أتزين به . أو مباراته أباهي بذلك ولكني وجدتك

غفرت له وحقنت دمه ففاز بمكانة الصاحب فهو لى بذلك قدوة وحسبي شافعا أني أرمي إلى غرض كغرضه وهو صدق المدح فيك والتماس العفو من الله بجاهك :

هـا حلـة بخـلال منـك قـد رقمت ... مـا في محاسنهـا للعيب تخليـل
جـاءت بحبي وتصـديقي اليك ومـا ... حبي مشـوب ولا التصـديـق مـدخـول
ألبستهـا منـك حسنـا فـازدهـت شرفـا ... بها الخواطـر منـا والمنـاويل

فتح التاء من ألبستها أجود وأشبه بمعنى البيت إذ منه الخواطر والمناويل (جمع منوال) التي تم بها نسج القصيد وقد لبست حسنا من مدح الرسول صلى الله عليه وسلم فالنية هي التي أكسبت خواطره وملكته الشرف الذي ازدهاها فازدهت به ـ وهذا المعنى ينظر الى قول الصرصري

حبرت فيك قصيدا حسن مدحك في ... رؤوس أبياتها الحسنى أكاليل

والتشابه في أن مدحه صلى الله عليه وسلم هو المستمد منه الحسن ثم يقول البوصيري، وهذا يقوي به معنى صدق حبه :

لم انتحلهـا ولم أغصـب معـانيهـا ... وغير مـدحك مغصـوب ومنحـول
ومـا على قـول كعب أن تـوازنـه ... فـربما وازن الـدر المثـاقيـل

أى المثقال وزن بعينه وليست موازنته لمقدار من الدر بجاعلته مماثلا له في القيمة والحسن ـ وقد فسر مراده من بعد أن تقصيره عن كعب ليس في صدق المدح وجودته ولكن عند كعب من الجزالة والفصاحة والأصالة في ذلك ما ليس عنده :

وهل تعادله حسنا ومنطقها ... عن منطق العرب العرباء معدول

وليس المولد مهما يسم قدره في هذا المدى ببالغ مبلغ العربي.

وما غاب عن الإمام شرف الدين فضل كعب بالصحبة والمشافهة والإنشاد، فهذا على أنه ضمنه معنى عروبته الأصيلة وأنه نال العفو بما قال من رسول الله صلى الله عليه وسلم عفوا مباشرا عن لقاء، قد ذكره صريحا من بعد، ولم يفصل فيه تفصيل الصرصرى لما أغنى به هذا بوضوحه فيه عن كل مزيد ـ رحمهما الله الرحمة الواسعة.

ثم يقول البوصيرى :

وحيث كنا معا نرمي الى غرض ... فحبذا ناضل منا ومنضول

الناضل كعب وهو المنضول كما تقدم من قوله :

إن أقف آثـاره إني الغـداة بها ... على طـريـق نجـاح منك مـدلـول

لما غفـــرت لـــه ذنبـــا وصنت دمـــا لـــولا ذمـامك أضحـى وهـو مطلـــول
رجـوت غفـران ذنب مـــوجب تلفي لـــــه من النفس إمـــلاء وتســـويل
وليس غيرك لي مـــــولى أؤملـــــه بعـــد الإلــــه وحسبي منك تـأميل
ولي فـــــؤاد محب ليس يقنعـــــه غير اللقـــــاء ولا يشفيـــــه تعليـل

فهذا شاهد قولنا إنه ذكر فضل كعب باللقاء صريحا

متى تجوب رســـول اللـــه نحـــوك بي تلك الجبـــال نجيبـــات مـــراسيل
فأنثني ويـــدى بـالفـــوز ظـافـــرة وثـــوب ذنبي مـن الآثـام مغســـول

أما قـوله رحمه الله «لم انتحلها» فقد نبه بـه على اختلاف الـوجه الذي سلكـه في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وجه قصيدة كعب وإن تشابها في حسن الثناء عليه وطلب العفو من عنـده صلى الله عليه وسلم . وقد جعل البـوصيري مكان النسيب في أول قصيدته طلب سبيل التوبة والاعتراف بالندم على ما فرط فيه :

الى متى أنـت بـــاللـــذات مشغـــول وأنت عن كـل مـــا قـــدمـت مسئـول
في كل يـــوم تـــرجي أن تتـــوب غـــدا وعقـــد عـزمـك بـالتســـويف محلـــول

ومما يعجب في مطلع هذه القصيدة قوله :

فجـــرد العـــزم إن الموت صـــارمـــه مجرد بيــــد الآمــــال مسلــــول
واقطع حبـــال الأمـــاني التـي اتصلت فإنما حبلهـــا بـــالـــزور مـــوصـــول

هذا كقول كعب « ان الأماني والأحلام تضليل »

أنفقت عمـــرك في مـــال تحصلـــه ومــــا على غير إثم منك تحصيـل
ورحـت تعمـــــر دارا لابقـــــاء لها وأنت عنهـــا وان عمـــرت منقـــول
جـاء النـــذيـــر فشمـــر للمسير بـــلا مهـل فليس مع الإنــــــذار تمهيـل
وصن مشيبـك عن فعل تشــــان بـــه فكل ذى صبـــوة بـــالشيب معـــذول
لا تنكـرنـــه ففي الفـودين قـــد طلعت منـــه الثـــريـــا وفـــوق الـــرأس إكليل

والثـريا والإكليل كـلاهما كما تعلم من نجـوم السماء ثم أخذ البـوصيري في طريق هـو خريته ولنا الى ذلك أوبة إن شاء الله تعالى .

وقال ابن جابر الأندلسي الضرير:

وقد أتيت بضعفي ما أتاك به كعب على أن باعي ماله طول

هـــذا يقتـــدي فيـــه بيحيى الصرصرى

فإن قبلت ونــالتنى مــراحـم قـــد نـالتــه لم يبق لى من بعــدهــا ســول
وإن كعبـا علينـا إذ غـدا سببـا لكعب خير بيمـن اللــه مشمـــول

ولبرهان الدين القيراطي رحمه اللـه (توفى سنة ٧٨١ هـ) لامية كعبيـة الروي نظمها نظم علماء الفقـة سنة ٧٦٤ هــ يقضى بها حق ما علمـه اللـه بجهد منـه يلتمس به الأجـر ويكون فيه زكاة له ، أولها :

جرح الجفون بقذف الدمع تعديل والحب شاهده المجروح مقبول

تأمل الجرح والتعديل ـ هاتان عبارتان من اصطلاح أهل الحديث . ثم القذف والقاذف لاتقبل شهادتـه لكن الجفون إذا قذفت الدمع فجـرحها قذفه حتى صـارت تبكي دما فذلك لها تعـديل ـ وآخر هـذا الاجتهاد الفقيري الـوقيري بعد أبيات زدن على مـائة ما يدل على أن الشيخ الصـالح لم يكن الشعر له فنا ولكنما اقتحم طـريقه يرجو بـه لنفسه صلاحا بمديح رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قال :

يا سيد الرسل قد قدمت من كلمي مدحا محياه من ذكراك مصقول
صيرت لفظي لألفاظ الورى ملكا لتـاجـه بلآلى الـزهـر تـكلـيل

لا يريد هنـا افتخارا على الشعراء بأن لفظه كالملك بين ألفاظهم فـالشيخ رحمه الله أوقر نفسا وأكرم تواضعا من ذلك . يقول كلفت لفظي أن يصير ملكا على هذه الألفاظ التى يستعملها الناس فينظمها فتكون له تا جا من لآلىء النجوم الزهر ـ بضم الزاي وسكون الهاء ـ وأخذ المعنى من قول الآخر:

ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها عقود مدح فما أرضى لكم كلمى

إن كان أخذه .

بكم هديت سبيلا للمديح لكم أمسي امرؤ القيس عنه وهو ضليل

أى ضل عنه امـرؤ القيس بشعر قالـه في الباطل وحمل به لواء الشعـراء الى النار ـ قـالوا وكان يكثر من وأد البنات خوفا من العار إذ كان محاربا محاربا فعل هذا هو سبب ترديه في النار والله أعلم وعل هذا من شنيع صنيعه يصحح أن البيتين :

فقد اختلـس الطـعنة لا يدمـي لهـا نصـلى
كجيب الدفنس الورهاء ريعت وهي تستفلي

له لا لامرىء القيس الكنـدي الآخر ـ (ابن عابس) لما فيهما من الدلالـة الخفية أن هذه الدفنس هي الموؤودة .

وقـد قـدمت بأبيـاتي عَسَى سبب   أنجـو بــه محكم الإبـرام مفتـول

السبب الحبل والإحكام والإبـرام من نعوت الحبال لا من قولهم محكمـة النقض والإبرام فهذا من استعمالات عصرنا

لـولاك يأيها البحـر البسيط نـدى   مـاطـاب لي في بحـور الشعـر تفعيل

وكأنه رحمه الله كان يترنم بكل بيت ويقطعه ويناظر ذلك بتفعيل

والقول ما قـاله كعب وان حسنت   من المعـارض في المدح الأقـاويل

أي مدح رسول الله عليه الصلاةوالسلام

لكعب القـدم الأعلى ففـاضلنـا   في جنب مـدحتـه الغـراء مفضـول

ولى وإن فـاق حسن النسج منـه على   أذيـال بـردتـه العليـاء تـذييل

رحمه الله وأثابه خيرا

وقال شمس الـدين النواجي من رجـال المائة التاسعة (تـوفى ٨٥٩هـ) وشعـره متوسط يذكر كعبا في أخريات كلامه:

قـدمت بين يـدي نجـواي من كلمى   هـديـة فضلهـا لى منك مبـذول

لاميـة راق معنى مـدحهـا ولها   من بحـر جـودك يـوم العـرض تنـويل

فبحـرهـا وقـوافيهـا اذا انتظمت   كأنـه منهل بـالـراح معلـول

في بعض أوصاف خير الخلق قد قصرت   بـاعي وان كـان نظمـى فيـه تطـويل

هذا من اتباع للصرصري

ولم أعـارض بقـولي مـن تقـدمني   منهم وان عـذبت مني الأقـاويل

لايعنى أنها عـذبت فيمـدح بذلك نفسـه، ولكن على معنى على تقـديـر التسليم بأنها عذبت منها الأقاويل

كعب لـه في مـديـح المصطفى قـدم   سبـاقـة وبخير الخلق تفضيـل

يعنى بلقـائه وإنشـاده أمـامـه ومشـافهتـه لـه صلى اللـه عليـه وسلم.

وروضـة ابن زهير طـاب مغـرسهـا   فـزهـرهـا بنـدى كفيـه مطلـول

وإن نسجت على منـوال بـردتـه   طـراز مـدح لـه بـالـدر تكليل

فإنـه كـان مفتـاحـا لبـاب هـدى   لنـا بـه في ديـار الخلـد تـأهيل

إن لم أفـز بقبـول في متـابعتي   «بـانت سعـاد» «فقلبى اليـوم متبـول»

ولانريد بعد أن نستقصي ذكر كعب في ما جوريت به لاميته المباركة. غير أنه عسى ألا نغفل في هذا الباب ـ باب مجاراة الفقهاء ومشايخ اللغة لكعب رضي الله عنه ـ عن لاميات الزمخشري وأبي حيان الأندلسي وصاحب القاموس مجد الدين الفيروز ابادي. وثلاثتهم لم يشيروا الى كعب اكتفاء بظهور ذلك من ركوبهم بحره ورويه أما الزمخشري فمطلع كلمته:

أضاء لي باللوى والقلب متبول ... نجدي برق بنار الحب موصول

ولم يسلم في أولها رحمه الله من جهد عمل واستقام له الروي فى آخرها، لإفصاحه عما تضمنه فؤاده من حماسة وغضب للحق ـ قال:

يا خاتم الرسل إن الطَّوْل منك على ... راجي الشفاعة يوم الحشر مأمول
فهل يجيب فتى لا حبل ذمته ... واه ولا عقده في الصدق محلول
ولااشتكت دخلا منه مناصحة ... و لا مناصح إلا وهو مدخول

فهذا تعريض بالخصوم كما ترى.
ثم مضى غاضبا على سبيل التعريض وشكوى الخصوم الى الرسول صلى الله عليه وسلم:

مامست الكأس يمناه ولاصدمت ... فاه وكلهم بالراح معلول
والعرض ريط يمان في الصوان وإن ... تملك يداه مصونا فهو مبذول

قوله والعرض ريْط يمانٍ عبارة فصيحة ومعها صدق يصل إلى القلب ينبيء به عن حال نفسه في العفاف.
ثم يقول:

وإن يَلِ العمل المسخوط آونة ... فبينها العمل المرضي معمول

وعجيب ممن يلتمس الشفاعة أن يعتذر بهذا الاعتذار الذي تخالطه أرواح اعتزاز عما بدر منه من الذنوب. ولا يخفى أنه يضمن قوله هذا نوعا من الإشارة الى قوله تعالى: «وءاخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وءاخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم» [التوبة] وقوله تعالى: «إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين» [هود].

ومكان الاعتزاز أنه جعل ذلك له حقا. وكان أشبه بها هو بسبيله من التعبد بالمديح النبوي أن لو غلب التواضع والتسليم لله، والتعويل كل التعويل على تأميل النجاة من طريق الشفاعة، لا من طريق أن ما عمله من مسخوط سيمحوه أن ذلك قد وقع منه«بينها العمل المرضي معمول». وإنما يذهب العمل المرضي بالعمل المسخوط إن صحبه القبول من المولى تعالى وصحب هذا العفو. وعل قوله«المرضي» يحتمل شيئا من الدلالة على القبول والله تعالى أعلم.

وطاء أعقاب قوم ما لهم عمل ... في نصرة الدين والإسلام مجهول
لهم ضمائر للتفكير قارعة ... وألسن كلها بالذكر مشغول

عنى بهؤلاء المعتزلة أنهم أهل فكر في خلق السماوات والأرض. وأنهم أهل ذكر بما أتقنوا من أبواب علوم الكلام. وأصل هذه المعاني من الجاحظ أن المعتزلة كانوا هم الحارسين للدين الذابين عنه بما انتضوا دونه من سيوف حجة الكلام.

موحدون إلاها أنت صفوته ... مصدقوك فلاغالتهم غول

يشير الى مقالة المعتزلة أنهم أهل العدل والتوحيد. وقوله«أنت صفوته» رجع فيه الى مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم ولايخلو في هذه الالتفاتة من إدلالة بتوحيده مخالطها حب لنبيه صلى الله عليه وسلم. وله في ذلك صوت بالصدق الصارح جهير، جهارة جانب الخطابة والمقولة العقلية أقوى فيها من جانب الحرارة الشعرية. وقوله. «فلا غالتهم غول» من قول عبدة بن الطبيب:

ان التى ضربت بيتا مهاجرة ... بكوفة الجند غالت ودها غول

ولا يصلح«غالتهم غول» في الموضع الذي وضعها فيه الزمخشرى كصلاح«غالت ودها غول» ههنا ــ على ما احتال به الزمخشري من مذهب الدعاء وما عناه من الاشارة والتضمين.

أم لا يخلو رحمه الله في مجيئه بقوله: «فلا غالتهم غول» ــ بما فيه من دعاء وإشارة وتضمين ـ ههنا من نوع اعتذار عن هذا الاعتزاز بالاعتزال والدفاع عن الفرقة القائلة به؟ وكأنه ههنا يلتفت من خطاب النبي صلى الله عليه وسلم والتقرب إليه، إلى هذا الاعتذار ذي الاعتزاز والافتخار معا، ذي المظهر المتحدي بالاعتزال لسائر من حوله من أهل السنة، المتراجع، أو كالمتراجع عن التحدي بهذا الدعاء:

. . . . فلا غالتهم غول

في نفس الوقت.

هل كان الزمخشري معتزلا حقا؟ أم هذا الاعتزال حلة جعلها مظهرا لقوة شخصيته وحرية فكره واعتداده بخلافته سيبويه وجهابذة لغة العرب وفحول البيان المتقدمين؟

إن زال عن رمى أغـراض الهدى فـرق   تلهـو مضللـة قـالت لهم زولـوا

هل عنى أهل السنة؟ استبعد ذلك. وأشبه أن يكون عنى أعداءه الذين تسببوا في أخذه بسبيل الهجرة. وقد ضمن ههنا قافيته من قول كعب:

في فتيـة مـن قـريش قـال قـائلهم   ببطن مكـة لما أسلمـوا زولـوا

إلا أنه قد انحرف بـالتضمين شيئا عن وجهه، إذ قائلو القولة«زولـوا» في بيته هم الفرقة المضللة وعند كعب هم أهل الهدى

فقـوس قـومي بـالتقـوى مـ وتـرة   وسهمهم بـاتبـاع الحق منصـول

وفي هذين البيتين اللذين جعلهما خاتمة القصيدة، على جـودة معناهما وملاءمته لأن يكون من بـاب حسن المقطع، تعب تكلف في الصياغـة. يشهد بذلك أنـه احتاج إلى وصف الفـرق وهي في آخـر صـدر البيت: «إن زال عن رمي أغـراض الهدى فـرق» بجملتين أولاهما وصف ثالث هو الحال ـ مضللة ـ والجملة الثانية«قالت لهم زولوا» غير واضحة ملاءمة الصياغة لما قبلها. وكأن أصل المعنى: «ان زال عن رمى أغراض الهدى فرق قالت لهم زولوا فإنهم لم يزولوا عن ذلك لأن أقـواسهم موترة بالتقوى ولها نصول من اتباع الحق» ثم جاءت الجملة«تلهو مضللة» معترضة. وهو مذهب خطابي مستقيم في جدل الكلام، ولكنه ذو تعسف وتكلف في طريقة الشعر.

لاريب أن الزمخشري بعيد كل البعد عن التقية. إلا أن يكون قد اتخذ من مظهر الاعتزال سترا لبعض التشيع.. بعض يسير، ربما، ـــ لا كما صنـع ابن أبي الحديـد من بعـد إذ يزعم أنه من أهل العدل والتوحيد وهو محتب في بحبوحة من الرفض.

أبو العـلاء ذو التقية والتهيب أشعر شـاعرا بمـدى بعيد من الزمخشري، مع قـوة الشبه بينهما في علم العربية واللغة وفهم أسرار البيان. وزمان ما بين الرجلين غير جد بعيد.

ولعل القارىء الكـريم ذاكر ههنا في هذا الموضـع ما كنا قلناه من أن قضيـة الصدق في الشعر ـــ أو قل الصدق الشعـري ـ من أعسر القضيات وأعـوصها لمن يـروم لها شرحا وتوضيحا. لا يكفى في وصف الصدق الشعري أن يقال إنه حماسة وطرح تهيب وغرف من تجارب النفس.

لابد مع ذلك من طرب وترنيم إيقاع وذهول عن هذه النفس التى بها الصدق ولها طرح التهيب وعنها التعبير. من هذا كله عند المعرى ذي التقية والدهاء والمراوغة قدر عظيم هو الذي به تفوقه شاعرا ومزاحمته للفحول .وفي مثل قوله :

خليليَّ لا يخفى انحساري عن الصبا　　فحلا إساري قد أضر بي الربط
ولي حاجة عند العراق وأهله　　فإن تقضياها فالجزاء هو الشرط

وفي مثل قوله :

تمنيت أن الخمر حلت لنشوة　　تجهلني كيف اطمأنت بي الحال
فأذهل أنيّ بالعراق على شفا　　رزيُّ الأماني لا أنيس ولا مال
مقل من الأهلين يسر وأسرة　　كفى حزنا بين مشت وإقلال

من صدق الشاعرية (ترنُّمها وطرح تهيبها وغرفها من تجاربها وذهولها) ما ليس شيء مثل شيء منه عند الزمخشري رحمه الله. شعر الزمخشري رحمه الله شعر العلماء والمعري شاعر أولا، على تبحره في العلم وبين العلماء.
هذا: وكان أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي نزيل مصر (توفي ٦٨٤ هـ) ممن يرون كالزمخشري من قبل أنهم آلت إليهم خلافة سيبويه وعلم كتابه. وكان صاحب تفسير ذا بسط فيه وهو البحر المحيط. وفيه من النحو مسائل وأقاويل. ولكثير من معاصرينا به شغف ولأصحاب رسائل الجامعات الآن عليه أيُّما عكوف. وجامع البيان أملأ بغرائب مسائل النحو من البحر المحيط لما عند ابن جرير من قوة ميل إلى طريقة الكوفيين مع حذقه أقاويل نحاة البصرة، الخليل والأخفش وسيبويه وأصحابهم انظر مثلا وقفته عند الآية: «قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة آية الأنعام» فإن له فيها تفصيلا أكثر مما في معاني الفراء، جاء فيه بمقالات من سيبويه ومن أبي زيد الأنصاري وغيرهما. وما خلا أبو حيان رحمه الله من بعض غفلات سذاجة العلماء، كما في تفسيره قوله تعالى من سورة: "والضحى": «ووجدك ضالا فهدى» إذ زعم أن تفسير «وجدك ضالا فهدى» قد أهمه ثم إنه غفا فرأى في المنام قائلا يقول له إنها على تقدير حذف مضاف أي وجد رهطك ضالا، فصحا فكتب ذلك على الفور أو كما قال، وله قصيدة طويلة يذكر فيها علمه بسيبويه ويعرض ببعض معاصريه من أهل مصر. وقد كان له بأندلسيته اعتزاز ـ وكانت الأندلس ثغر جهاد، فمن شرَّق منها يريد الحجَّ كان بذلك جامعا بين الغزو وأداء الفريضة فتانك فضيلتان يزيد بهما على أكثر

قصّاد البيت من أهل المشرق. قال في اللامية التي جارى بها كعبا رضي الله عنه:

وإذ قضيت غـــزاة فأتنف عمـــلا · للحج فــالحج لـــلإســـلام تكميل
واصل سراك بسير يـــا ابـن أنـــدلس · والطــرف أدهم بــالأشطــان مغلــول

يعني السفينة ـ ينظر بعض النظر إلى قول أبي الطيب يصف سفن سيف الدولة:

دهم فـــوارسهـــا ركـاب أبطنهـــا · مكـــدودة وبقـــوم غيرهـــا الألم

وأصل دهم أبي الطيب من دهماء علقمة التي حاركها بالقتب محزوم.
ثم يقول في نعت سفينته التي هي طرف أي حصان أدهم مغلول بالأشطان أي الحبال:

يـــلاطـم الـــريح منـــه أبيـض يقق · لــــه مـن السحب المربــــد إكليـل
يعلـــو خضـــارة منـــه شـــامخ جلل · ســـام طغى وهـــو بـالنكبـــاء محمـــول

أحسب أن الصواب «سام طفا» بالفاء أخت القاف لا الغين المعجمة أخت العين المهملة ـ حتى يقول من بعد:

مـــا زالت الموج تعليـــه وتخفضــــه · حتى بـــدا من منـــار الثغــر قنـــديل
فكبّر النـــاس إعظـــامـــا لـــربهم · وكلهم طـــرفـــه بـــالسهـــد مكحـــول
وصـــافحـــوا البيدَ بعـد اليـم وابتـدروا · سبـــلا بها لجنـــاب اللـــه تـــوصيل

ثم يقول:

يســـوقهم طـــرب نحـــو الحجـــاز فهم · ذوو ارتيـــاح على أكـــوارهـــا ميل
شعـــث رؤوسهم يبس شفــــاههــم · خـــوص عيـــونهم غـــرث مهـــازيل

لأبي حيان كما للزمخشري شخصية قوية. غير أنه دون الزمخشري حدة ذكاء ووقدة حماسة صدق ألا أن عنده نشوة طرب وليست نشوة الطرب وحده ببالغة مبلغ إيحاء رنات حاق الشعر ههنا أيضا أمر فيه استعصاء على الشرح والتوضيح كأمر الصدق الشعريّ.
هذا وأول قصيدة أبي حيان فيه نظر إلى أول كلمة ابن زريق:

لا تعـذليـــه فإن العـذل يـــولعـه · قد قلت حقـا ولكن ليس يسمعه

وهو قوله:

لا تعـــذلاه فما ذو الحب معـــذول · العقل مختبـل والقلب متبـــــول

وكانت عينية ابن زريق كأنما نظمت بالأندلس[1] وقول أبي حيان: «فما ذو الحب معذول» ضعيف جدا. إذ أكثر ما يعذل أهل الحب ـ ولله در البوصيري إذ يقول:

يا لائمي في الهوى العذري معذرة | مني إليك ولو أنصفت لم تلم

وقول ابن زريق «فإن العذل يولعه» تتمة حسنة لما بدأ به. ومما يعجب من عينيته، وكلها معجب، مقالته هذه الحزينة جدا في أولها:

جاوزت في نصحه حدا أضر به | من حيث قدرت أن العذل ينفعه
فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلا | من عنفه فهو مضنى القلب موجعه
قد كان مضطلعا بالخطب يحمله | فضلعت بخطوب البين أضلعه
يكفيه من روعة التفنيد أن له | من النوى كل يوم ما يروعه
ما آب من سفر إلا وأزعجه | عزم إلى سفر بالرغم يزمعه
تأبى المطالب إلا أن تكلفه | للرزق سعيا ولكن ليس يجمعه
كأنما هو في حل ومرتحل | موكل بفضاء الله يذرعه
وما مجاهدة الإنسان واصلة | رزقا ولا دعة الإنسان تقطعه
قد قسّم الله بين الناس رزقهم | لم يخلق الله مخلوقا يضيعه
لكنهم كلفوا حرصا فلست ترى | مسترزقا ومدى الغايات يقنعه
والحرص في الرزق ـ والأرزاق قد قسمت | بغي ألا إن بغي المرء يصرعه
والدهر يعطي الفتى من حيث يمنعه | عفوا ويمنعه من حيث يطمعه
أستودع الله في بغداد لي قمرا | بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه

وكان موضع ذكر هذه الأبيات في مكان مما تقدم أو مكان أنسب مما يلي وعسى أن يكون موقعها ههنا بين أشعار هؤلاء العلماء، قبل أن نصير إلى حاق شعر المديح النبوي عند مجيديه، مما يستراح إليه، عملا بمذهب أمير الأدباء وشيخ أهل التأليف أبي عثمان رحمه الله.

(١) وإنما نظمت ببغداد وألحقت بها أسطورة أندلسية وأحسبها في طبقات السبكي بسند قوي.

هذا وعلى ما كـان بين الزمخشري وأبي حيان من شبه، كان بينهما نوع من تنـافر، كأن أبا حيان، وزمانه متأخـر عن زمان الزمخشري بنيف ومائة سنة، كان يغـار من سمعة هذا وما أحـرز من منزلـة في مراتب أهل اللغـة والتفسير والنحو. وقـد تتبعه في مـواضع مما جسر به كتلحينه قـراء أبي عمرو بإدغام الراء في اللام، وتخطئتـه أبا شعيب السوسي في مفصله حيث أدغم الضـاد في الشين في آية النـور. وما عدا الـزمخشري في الذي صنع مـذاهب القـدماء. ونقـد القـراءات عنـد ابن جـرير كثير لا يـرى بأسـا في أن يصرح باستحسـان ما يستحسن منهـا وكراهيـة ما لا يستحسن. وغلب على المتأخـرين اتباع سبعة ابن مجاهد والثلاثة المكملي العشرة. ولأبي حيان تسليم ورع في هذا الباب. وعنده رحمه اللـه من بـركـة أهل السنة وانكسـارة تـواضعهم. اختـلاط ذلك بما لعلماء اللغـة والنحو من شراسة تبـاه أحيانا كثيرة من العجب. ثم كانت لأبي حيان جمحـات شاعر ربما خـرجت به من طـريق التعبد بـالمدح النبوي إلى المألـوف من أساليب الشعـراء في الوصف والنسيب ـ قال مثلا في أوائل القصيدة:

لا تعـــذلاه فما ذو الحب معـــذول ... العقـل مختبـل والقلـب متبـــــول
هـزت لــه أسمـرا من خـوط قـامتهـا ... فما انثنى الصـب إلا وهـــو مقتـــول
جميلـــة فصل الحسـن البـــديع لها ... فكـم لها جمل منـــــــه وتفصيـل
فـــالنحــــر مـــرمـــرة والنشر عنبرة ... والثغـــر جـوهـــرة والـــريق معســول
والطـــرف ذو غنـج والعـــرف ذو أرج ... والخصر مختطـــــف والمتـــن مجدول
هيفـــاء ينبس في الخصر الــوشـــاح لها ... درمـــاء تخرس في الســـاق الخلاخيل
من اللـــواتي غـــذاهن النعيـم فـــلا ... يشقين آبـــاؤهـــا الصيـــد البهـــاليل

ثم يقول بعد أن استمر به الغزل شوطا رحمه الله:

فعـــد عـن ذكـــر لبنى إن ذكـــر كهـــا ... على التنـــــائي لتعـــــذيب وتعليـل

ولعل الغزل الذي مر مناسب لما صار إليه بعـد من ذكر الجهاد ـ ثم هو مناسب لما كان عليه آخر الأندلس من قتال الكفرة المستمر:

فشق حيـــزوم هـــذا الليـل ممتطيـــا ... أخـــا حـــزام بـــه قـــد يبلغ الســـول
أقب أقـــود يعـــزى للـــوجيـــه لـــه ... وجـــه أغـــر وفي الـــرجلين تحجيل
حفـــر حـــوافـــره معـــر قـــوائمـــه ... ضمـــر أيـــاطلـــه والـــذيل عثكـــول

أما صاحب القاموس مجد الدين الفيروز آبادي [1] فقد كان من معرفة غريب اللغة لدى ذروة شاهقة إلا أنه كان عظيم الثّقة بما يقول كثير التعقّب للجوهري وقد لهج بنقد صاحب الصّحاح لهجاً، والعلماء مجمعون على تقديم الصّحاح على سائر ما صنّف بعده من المعاجم، والقاموس من أنفس المراجع واخصرها وأوضحها وأكثرها فوائد وغناء.

من شواهد عظيم ثقة الفيروز ابادي بما يقول مقدّمته التى يقول فى تحميدها «الحمد الله منطق البلغاء باللغى في البوادي ومودع اللسان ألسن اللسن الهوادي ومخصص عروق القيصوم وغضى القصيم بما لم ينله العبهر والجادي»، ثم بعد سجعات إنما هن كقواف لالتزامه رويا واحدا قال في ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم: «باعث النبي الهادى، مفحما باللسان الضادي كل مضادي[2] مفخما لا تشينه الهجنة واللكنة والضوادي، محمد خير من حضر النوادي وأفصح من ركب الخوادي[3] وأبلغ من حلب العوادي[4]، بسقت دوحة رسالته فظهرت على شوك الكوادى[5] واستأسدت رياض نبوته فعيت فى المآسد الليوث العوادي صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه نجوم الدآدي إلخ»

فمما قاله فى نسيب القصيدة وأولها:

هل حبل عزة بعد البين موصول أو بارق الوصل بين البين مأمول

وهذا كمطلع كلمة عبدة بن الطبيب

هل حبل خولة بعد الهجر موصول أم أنت عنها بعيد الدار مشغول

وكأنه يوهم بمجاراتها دون لامية كعب وجاء منها بقوله:

والمرء ساع لأمر ليس يدركه والعيش شح وإشفاق وتأميل

ولكنه اقتدى بكعب بلا ريب ـ إذ جاء له:

إن الصبابة بعد الشيب تضليل

(١) ولد بفارس سنة ٧٢٩ هـ في ربيع الثاني وتوفي باليمن بزبيد في ٢٠ من شوال سنة ٨١٧ أو ٨١٦ هـ.

(٢) مضادي، مخالف

(٣) الخوادى: الإبل من خدى البعير يخدي.

(٤) العوادي: الإبل

(٥) الكوادى هى الكدى أى الأراضي الصلبة. عيت: أعجزت وأعيت. الدآدي الليالى المظلمة وهي ليالى آخر الشهر وهكذا فسرها صاحب القاموس فى باب الهمزة مفردها دأداء ودئداء ودؤدؤ بتثليث الدال الأولى وفتح الثانية أو ضمها.

فهذا من كلام كعب، وله:

والأمر من ربه لا شك مفعول

وهذا من كلام كعب ـ وقال:

وقال حيهلا قد رام جابركم ... سؤرا فسيروا إليه يا عياهيل

وهذا من قول كعب: «قال قائلهم ببطن مكة»، والحديث هنا فى كلام مجد الدين رحمه الله عن شاة جابر رضى الله عنه

وقوله: «إلا وفيها حصاة منه زهلول» من قول كعب: «أقراب زهاليل» وهذا باب يطول فمما قاله في نسيب القصيدة وأغرب:

وليلة بت ذا حزن وذا قلق	والدم والدمع مطلول ومهطول
وخامر النفس من ترداد زفرتها	هول وخبل وعلعول وعقبول
أما وعيني في الهجران تسلفها	بالدمع دجلة والسيحون والنيل
قد حفلتها حفولا طفلة كملت	فى الحسن قد صانها لطف وتحفيل[1]
رقراقة بضة حوراء هيكلة	دعجاء بلجاء زانتها الأكاليل
رعبوبة رئدة لفاء هيضلة	شنباء لمياء مثواها البراغيل[2]
نجلاء برجاء هيفاء مخصرة	شماء قنواء بين الغيد عطبول
خود مهفهفة عطا هبنكة	هركولة وثناياها معاسيل[3]
والخلق ذو بهج والخلق ذو غنج	والطرف ذو دعج والثغر معسول

(١) حفلتها ملأتها بالدمع

(٢) الهيضلة النصف كما فى القاموس وينبغى أن يكون عنى بها أنها جسيمة كأنها نصف والبراغيل قرى الريف واحدها برغيل بكسر الباء.

(٣) عطا أى عطاء بتشديد الطاء المهملة أى طويلة. هبنكة بتشديد النون أى ذات كسل.

والـــوجـــه ذو بلـج والثغـــر ذو فلج ... والـردف ذو رجج والطـرف مكحـول
والخصر فى زعـج والقلـــب فى دمـــج ... والعين في خمج والشعـــر مـــرطـــول[٤]
ميـاسـة لـــو تمشت عـرقلى نــزلت ... عـــرقـــال قلبى فتضنيـــه العــراقيل[٥]
إن الحماطيط من صـدغيك قـد لسعت ... حماطتى فأحـــاطت بي الـــزعـــابيل[٦]
لبـانـــة منك يـا لميـاء لـــو قضيت ... لبـــــان للبين إبــــــدال وتحويـل

فتأمل أصلحك الله .

ولصاحب القامـوس ولع بذكر ما له معان من الإحماض ـ ذلك جلي فى القاموس قلت كلمة تخلو مما يمت إليه كل الخلو

وقال فى مدح النبي صلى الله عليه وسلم :

وأبلج الـوجـه هلقـام لــه شمم ... وأدعج العين مـــــزدانٌ بها الميـلِ

الميل المرود . الهلقام الأسـد . والإغراب فى الهلقام كما ترى . أبيـات المدح على الجملة أقل إغـرابـا ممـا قبلها ونظم فيهـا من أسماء النبـى صلى الله عليـه وسلم عـددا . وأسلـوب القصيدة شعر علماء . وسط . فرحمه الله وأثابه .

هذا ـ

واعلم أيها القارىء الكريم أصلحك الله أن نقادنا أهملوا باب المديح النبوي وقسمتهم لأطوار الشعر العربي بعد زمان صدر الإسلام هكذا :

(١) العصر العباسي الأول
(٢) العصر العباسي الثاني
(٣) العصر العباسي الثالث
(٤) عصر الإنحطاط
(٥) النهضة
(٦) العصر الحديث

(١) قوله فى دمج أراه تحريفا صوابه رهج والخمج هنا مقارب لمعنى الغنج . مرطول مدهون .

(٢) العرقلى كالخيزلى . العرقال فى القاموس من لا يستقيم على رشده ويمكن حمل المعنى هنا عليه وهو بعيد وأراه محرفا من عرقاة أى أصل عروق القلب : «عرقاة قلبى»

(٣) الحماطيط جمع حمطيط بفتح الحاء أى الحية وأراد عقـارب الصدغ اذ الحية تلـدغ والعقرب تلسع ومثل هذا جـائز فقد سموا القدم حافرا فى ضرورة الشعر والحماطة سواد القلب ، ذكرها المعرى فى أول رسالة الغفران .

ولا يخفى أن هـذه القسمـة تتضمن عنصرا من الـرغبـة المريضـة أن ينتسب النـاس إلى أوروبا وحضارتها وأن يكونوا امتدادا منها وجزءاً لا يتجزأ. الأوربيون يؤرخون عصورهم هكذا:

(١) العصر الكلاسيكي وينتهى بسقوط رومة سنة ٤٧٦ م
(٢) العصر المظلم من ٤٧٦ م إلى القرن التاسع الميلادى
(٣) العصر الأوسط من القرن التاسع الميلادى إلى القرن الخامس عشر الميلادى
(٤) النهضة القرن الخامس عشر إلى القرن السادس عشر الميلادى
(٥) العصر الحديث، القرن السادس عشر الميلادى

فالحافظو بيت الشاعر وهو السهروردي:

فتشبهـوا إن لم تكـونـوا مثلهم　　　إن التشبـه بـالكـرام فـلاح

أو معنـاه، شبهـوا سقـوط بغـداد سنـة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) بسقـوط رومـة. ثم ران الظلام. ثم جاءت النهضة. ثم هانحن أولاء في العصر الحديث.

والتأريخ الإسلامي والعربي معا يكذبان هذه التصنيفة الخاطئة لعصورنا.

لقد كان أخذ التتار بغداد وإخرابهم لها كارثة.

ولكنه قـد قامت بعد بغـداد دول إسلامية قويـات. وامتدت رقعة الإسـلام. ونبغ فيها العلماء والأدباء. مـا بني التاج محل ولا مراصد سمـرقند إلا بعد سقوط بغـداد. وازدهر الاسلام. بتمبكتـو في القرن التاسع والعاشر الهجـرى. وازدهرت بلاد المغرب بـالمعارف والعلوم وضروب مـا ينسب إلى الحضارة وتنسب الحضارة إليـه من القرن الخامس إلى أن تغلبت أوربة بدفعة الاستعمار في القرن الماضـى الميلادى. وانتشر الإسلام فى بلاد جاوة والماصين وقرع العثمانيون أبواب فينا بصلاصل الحديد.

وفى هذا العصر الـذي يقال لـه عصر الانحطاط بـرز السيوطي وابن حجـر وابن تيمية وابن القيم وابن الخطيب وابن خلدون وهذا بعد باب واسع.

وفي الشعر كان في هذه الفترة شعراء المديح النبوي المفلقون. وهؤلاء أهملهم المستشرقون عمدا وهم في ذلك معذورون. من يلوم مستشرقا على ألا يؤرخ لمن يقول:

جـــاء المسيح مـن الإلـــه رســـولا　　　فـأبي أقـل العــــالمين عقـــــولا
قـــوم رأوا بشراً كـــريما فـــادعـــوا　　　من جهلهـم للـــه فيـــه حلـــولا

ولكن المسلمين غير معذورين إذ أهملوا درس هذا الشعر. ونحن هاهنا إنما نريد أن ننبه على مكانه. ثم هو جزء جوهـري من تأريخ الشعر العربي، إهماله خطأ فى باب الدرس

عظيم . ورحم الله الدكتور زكى مبارك وأسكنه فراديس الجنان ، فقد نبه على مكان المديح النبوى بكتاب له فيه . ورحم الله شوقيا والبارودي وجيلهما رحمة الله عليهم ورضوانه فقد انتفعوا بالمديح النبوي ونفعوا به ، على من قيل فيه أفضل الصلاة والتسليم .

أطوار المدحة النبوية وبعض أمرها :ـ

أطوار المدحة النبوية على وجه التقريب لا الحصر أربعة ، طور الدعوة ، طور السياسة ، طور التعبد الممهد ، طور النضج الذى جعلها سيدة القصيد بعد أن ذهب بهاء قصيدة المدح وما يمت إليها .

أما طور الدعوة فقد كانت قصيدة المدح النبوي فيه جزءا لا يتجزأ من الشعر العربي آنئذ ومن أقدم ما وصلنا من قصيد الدعوة ما نسب إلى أبي طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأشهر ذلك جميعه القصيدة اللامية التى يقول فيها :ـ

كذبتم وبيت الله نبزى محمدا ولما نطاعن دونه ونناضل
ونسلمه حتى نصرع دونه ونذهل عن أبنائنا والحلائل (١)

ومنها وهو بيت مشهور:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

مقال ابن هشام إن أكثر أهل العلم ينكرونها له لا ينفيها به كلها ولكن أكثرها إذ هي ذات طول . ولا بد لذلك من أصل وقد رواها ابن اسحاق عن مصادر روايته وابن اسحاق وثقه الشيخان . والذين روى عنهم ابن اسحق من جيل العرب الخلص ومن أخذوا عنه صحيحه ومنحوله يستدل به بلا ريب .

ومن شعراء العرب ممن لم يسلم ومدح رسول الله صلى الله عليه وسلم الأعشى الكبير وكلمته مشهورة :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا

وأدخله بها أبو العلاء فردوس رسالة الغفران .

ووفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشعر والرجز جماعة . وممن كان مع المشركين يهجو المسلمين ثم أسلم وحسن إسلامه ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم جماعة كأبي سفيان بن الحارث وعبدالله بن الزبعرى وكعب بن زهير صاحب اللامية الغراء .

---

(١) أولها فيما ذكروا :

خليلى ما أذنى لأول عاذل بصغواء فى حق ولا عند باطل

وأوردها البغدادي مشروحة في الخزانة (طبعة بولاق)ج١ ـ ٢٥٢ واعتمد على شرح السهيلى فى الروض الأنف .

أما الأنصار فمع ما قدمناه من أن شعرهم جزء لا يتجزأ من شعر العرب فى أول الإسلام فإنه كان مختلفا عن شعر الأيام والنقائض والمفاخرات بأنه كان ملتزما بالقرآن والدعوة ـ كقول عبدالله بن رواحة رضى الله عنه :

إني تفرست فيك الخير أعرفه ... والله يعلم أن ما خانني البصر
أنت النبي ومن يحرم شفاعته ... يوم الحساب فقد أزرى به القدر
فثبت الله ما أتاك من حسن ... تثبيت موسى ونصرا كالذى نصروا

ومما ينسب إلى حسان رضى الله عنه :

نبي أتانا بعد يأس وفترة ... من الرسل والأوثان في الأرض تعبد
فأمسى سراجا مستنيرا وهاديا ... يلوح كما لاح الصقيل المهند
وأنذرنا نارا وبشر جنة ... وعلمنا الإسلام فالله نحمد
وأنت إله الخلق ربي وخالقى ... بذلك ما عمرت فى الناس أشهد
تعاليت رب الناس عن قول من دعا ... سواك إلاها أنت أعلى وأمجد

وقد اضطر شعراء قريش والمشركين إلى مواجهة الدعوة بما ينقضونها به . وقد نهى الإسلام فى أيام بدئه عن رواية أشعارهم ، ثم لما ضرب الإسلام بجران تذوكر منها ، من ذلك فإن مثلا مما قيل في رثاء قتلى بدر (وقد مر الاستشهاد به أو ببعضه وهو من الرثاء المبدوء بنوع من النسيب) :ـ

ألمت بالتحية أم بكر ... فحيوا أم بكر بالسلام
ألا يا أم بكر لا تكرى ... على الكأس بعد أخى هشام
وبعد أخي أبيه وكان قرما ... من الأقوام شراب المدام

فجعل شرب المدامة فضيلة وكان الإسلام آنئذ قد ذمها إلا أنها لم تحرم إذ قيل هذا الشعر وحمزة سيد الشهداء رضى الله عنه حي وببدر فعل بالقوم الأفاعيل .

ألا من مبلغ الرحمن عنى ... بأني تارك شهر الصيام

فإن صح هذا البيت له فقد جاء بالرحمن سخرية ومغايظة ـ قال تعالى ، «وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله الا هو عليه توكلت وإليه متاب» ـ وكان رمضان قد فرض

إذا مــا الــرأس زايل منكبيــه　　　فقــد شبع الأنيس من الطعــام

هذا على مذهبهم . قال تعالى : «وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت»

أيــوعــدنــا محمــد أن سنحيــا　　　وكيف حيــاة أصــداء وهــام

هكذا روايـة البخارى للبيت وكنـت أحسب أن رواية البيت مـا فى رسالـة الغفران «أيوعـدنا ابن كبشـة» وأن أصحاب الحديث حـوروه تأدبا ، وبعد التـأمل أرى أن رواية أصحـاب الحديث هي الصحيحـة ، وكـانـوا أهل دقـة ، وقـد رووا من كـلام المشركين ألفاظا . ولم يكن اسم الرجل الذي نبزوا بمشابهة أقواله نبينا عليه الصلاة والسلام كبشة ولكن أبـو كبشة ولا يستقيم الـوزن بـابن أبي كبشـة ، فيكون الشـاعـر جاء بـه كما رواه البخاري وكما في السيرة . كان أبـو كبشة فيما رووا يعبد الشعرى . وفي كتـاب الله : «وأنه هو رب الشعـرى» ـ فشتان مقـال النبي صلى الله عليـه وسلـم إذ دعا قومـه ومقال أبي كبشـة . وقيل أبـو كبشة كنيـة السعـدى زوج حليمـة ، ويجوز ، وهـذا ليس مما ينبـز بـه أحد ، وإيثـار أبي العلاء هـذه الروايـة مما ينبس ببعـض ما كـان يخامره رحمه اللـه وعفا عنه ، فقد مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم في رسالة الغفران على لسان جنيه حيث قال :

مكــة أقــوت مـن بني الــدربيس　　　فما الجنــي بها مــن حسيــس
وكسرت اصنــامهــا عنــوة　　　فكـل جبـت بنصـل رديــس (١)
وقــام في الصفــوة مـن هــاشم　　　أزهــر لا يغفـل حـق الجليس
يسمع مــا أنــزل من ربــه الــ　　　ـقدوس وحيـا مثل قـرع الطسيس (٢)
يجلــد فى الخمــر ويشتــد فى الـ　　　أمــر ولا يطلق شرب الكسيس (٣)
ويــرجم الــزاني ذا العــرس لا　　　يقبل فيــه ســؤلــة من رئيس

وقال حسان رضي الله عنه :

---

(١) كل جبت أى كل صنم مردوس أى بفأس

(٢) أى مثل قرع النحاس

(٣) الكسيس : النبيذ ، كأن المعري ينكر بهذا على من أجاز شرب النبيذ.

عـــدمنـــا خيلنـــا إن لم تـــروهـــا   تثير النقع مـــوعـــدهـــا كـــداء
ينـــازعـن الأعنـــة مصغيـــات   على أكتـــافهـــا الأسـل الظهاء
تظـل جيـــادنـــا متمطـــرات   تلطمهـن بـــالخمـــر النســـاء

قالوا لما دخلت خيل المسلمين مكـة جعلت النساء تلطمهن بخمرهن (جمع خمار المفرد بكسر الخاء وفتح الميم بعدها الف والجمع بضمهما)فكان هـذا مما نظر فيه حسان بعين البصيرة والكشف والهمزية التى منها هذه الأبيـات من جيد شعره ومشهوره ـ قال رضي الله عنه :

فإمـــا تعـــرضـــوا عنـــا اعتمـــرنـــا   وكـــان الفتح وانكشـف الغطـــاء
وإلا فـــاصبروا لجلاد يـــوم   يعـــز اللـــه فيـــه من يشـــاء
وجبريـل رســـول اللـــه فينـــا   وروح القـــدس ليس لـــه كفـــاء
وقـــال اللـــه قـــد أرسلت عبـــدا   يقـــول الحق إن نفـع البـــلاء
شهـدت بـــه فقـومـــوا صـدقـــوه   فقلتـم لا نقـــوم ولا نشـــاء
وقـــال اللـــه قـــد سيرت جنـــدا   هم الأنصـــار عـــرضتهـــا اللقـــاء
ألا أبلـغ أبـــا سفيـــان عنـى   فـأنـت مجوف نخـب هـــــواء

عنى أبا سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب وهذا قبل إسلام أبي سفيان هذا

هجـــوت محمـــدا فـأجبت عنـــه   وعنـــــد اللـــــه فى ذاك الجزاء

ويمكن أن يعتبر شعر الأنصار من حيث التزامه بدعوة الإسلام ودفاعه عنها مقدمـة وتمهيدا لما افتن فيـه الشعراء من بعد من ضروب أساليب الشعـر المدافع عن مذاهب الفرق والجماعة وهلم جرا

ثم أمر آخر كان شعر الأنصار به مختلفـا عن أشعار الأيام والمفاخرات ولم تكن شعراء الكفرة قادرة على أن تجاريهم فيه ، وإن جارتهم فى الدفاع عـن قضايا كفرها ، وهو التعبد ، وذلك لصدق إيمان الأنصار، واعتقـادهم بحق أن ما يقولونه ينصرون بـه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مقربهم إلى الله ، وهو عبادة .

شعر الجوارى الذي استقبلن به الرسول صلى الله عليه وسلم يقلن :ـ

نحن جـــوار من بني الأنصـــار   يـــاحبـــذا محمـــد من جـــار

مـراد به التعبـد لا اللهـو إذ لا يخفى آن استقبالـه صلى اللـه عليـه وسلم والابتهاج بـه عبادة. وكذلك قول النساء والصبيان في استقباله بالنشيد:

طلع البـــــدر علينـــــا　　مـن ثنيـــــات الـــــوداع
وجب الشكـــــر علينـــــا　　مـــــا دعـــــا للـــــه داع
أيها المبعـــــوث فينـــــا　　جئت بـــــالأمـــــر المطـــــاع

وقد سبقت الإشارة إلى وضـوح معاني التعبد في شعر عبد الله بن رواحـة رضى الله عنه نحو قوله:

لاهم ان الأجـــر أجـــر الآخـــرة　　فـارض عـن الأنصـار والمهـاجـرة
ونحـو: لاهم لـولا أنت مـا اهتـدينـا　　ولا تصـــدقنـــا ولا صلينـــا
ونحـو: خلـوا بني الكفـار عن سبيلـه　　خلـــوا فكل الخير في رســـولـــه

وقد حفظ له رجز بمؤته وبيده الراية حتى استشهد:

أقسمت يـــا نفس لتنـــزلنـــه　　طـــائعـــة أو لتكـــرهنـــه
إن أجلب القـــوم وشـــدوا الـــرنـــة　　مـــالى أراك تكـــرهين الجنـــة

وكما قدمنا لم يكن شعـراء المشركين ليستطيعوا هذا المسلك، وإنما كانـوا ينطقون بلسان الملإ من قريش، وهـؤلاء كانوا أهل حمية لا دين. قـال تعالى: «وما كان صـلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون» [الأنفال].
إلا مـا كان من أمـر أمية بن أبي الصلت الثقفـي، وكان امـرأ منافقـا، كفر قلبـه وآمن لسانه. وشعره الذي يتدين به، من أجل ذلك، خال من حرارة انفاس الإيمان الصادر عن القلب. ولعل آخر كلمة له مما رووه من كلامه:

إن تغفـــر اللهم تغفـــر جما　　وأي عبـــــد لـــك لا ألما

وإنما قالها على حين لا تقبل توبة، على الأرجح.
قال تعـالى: «إنما التوبة على اللـه للذين يعملـون السوء بجهالـة ثم يتوبـون من قريب فأولئك يتـوب اللـه عليهم وكـان اللـه عليماحكيما. وليست التـوبـة للـذين يعملـون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الـذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليما.»

وقال تعالى: واتل عليهم نبأ الذي ءاتيناه ءاياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بئاياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون. ساء مثلا القوم الذين كذبوا بئاياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون.» [الأعراف] فيذكر أن هذه الآيات نزلت في أمره وقيل غير ذلك. فإن تكن في أمره فهو خبر قاطع في هلاكه وما كان قوله الذي قال إلا لهثا لهث به، كما يلهث الكلب، ونعوذ بالله من سوء المنقلب.

طور السياسة

هذا هو الطور الثاني من أطوار المدحة النبوية. وغير خاف أن الطور الأول منه جانب سياسي - إلا أن جانب التعبد والجهاد لإعلاء كلمة الدين هو المعنى والمقصد الأول، وما سواه فرع [illegible] إذ لا تكون السياسة نفسها آنئذ إلا فرعا من إقامة الدعوة. ومما يشهد بهذا ما مر من كلام حسان رضي الله عنه في الهمزية وكلام ابن رواحة رضي الله عنه. ونحو قول كعب بن مالك وهو أحد الثلاثة الذين تاب الله عليهم في سورة التوبة، رضي الله عنه:

نطيع نبينا ونطيع ربا ... هو الرحمن كان بنا رؤوفا
فإن تلقوا إلينا السلم نقبل ... ونجعلكم لنا عضدا وريفا
وإن تأبوا نجاهدكم ونصبر ... ولا يك أمرنا عشا ضعيفا

واختلاف هذا الطور عما قبله كامن في أن مدح الرسول صلى الله عليه وسلم مراد به جانب [illegible] دعوة سياسية بعينها، هي دعوة آل البيت وشيعتهم الذين كانوا يرون أن الإمامة [illegible] غصبا إذ هم أهل الحق.

[illegible] فإن هذا كان مطلوبا به مطلب الاستجهاد [illegible] ضيعوا آله حقهم، فهذا جانب ديني [illegible] المسلمين لرعاية حقه ومن حقه أن [illegible] في أنه إذ قال سبحانه وتعالى: «قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى» - وأن يحاربوا من حاربهم، وألا يروا أحدا صالحا للإمامة غيرهم وهلم جرا. [illegible]

الكميت بن زيد الأسدي صاحب الهاشميات أبرز من مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا الوجه السياسي. ولعل من رثاء حسان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما يكون مما مهد له ولمن سبقوه كأبي الأسود الدؤلي وقد روي له قوله:

يقـــول الأرذلـــون بنـــو قشير | طـــوال الـدهــر مـــا تنسى عليـــا
أحب محمـــدا حبـــا شـــديـــدا | وعبـــاســـا وحمزة والـــوصيـــا
فـإن يك حبهـم رشـــدا أصبـــه | ولست بمخطـىء إن كـــان غيـــا

فقد شمل بحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم حبه لعميه ولعلي رضى الله عنهم. ولم يكن حسـان رضى الله عنـه ممن عرف لـه تشيع، وكان فيـه حب لعثمان أمير المؤمنين رضى الله عنه، وقد رثاه بقوله المشهور:

ضحـوا بأشمط عنـوان السجـود بـه | يقطع الليـل تسبيحـــا وقـــرآنـــا

غير أنه في رثائه رسول الله صلى الله عليه وسلم تجد له أنفاس حزن شديد لعله مستمد من شعور الأنصار أنهم قد غلبتهم قـريش على أمر رياسة الدولة الاسـلامية وسياستها بعد بيعة سيـدنا أبي بكر رضى الله عنه يوم السقيفـة وانصراف الناس عن سيد الخزرج سعد بن عبادة رضى الله عنه ـ قال رضى الله عنه :ـ

مـــا بـــال عينك لاتنـــام كأنما | كحلت مـــآقيهـــا بكحـل الأرمـــد
جـزعـا على المهـدي أصبح ثـاويـا | يـــا خير من وطـىء الحصى لاتبعـــد

المهدي هنا هو رسـول الله صلى الله عليه وسلم وهذا البيت من أقدم مـا جاء فيه هذا اللفظ، وهو ليس في القرءان، ولكنه ورد في بعض الحديث

وجهـــي يقيـك الترب لهفـــي ليتنـــي | غيبت قبلك في بقيـع الغـــرقـــد

البقيع فيه قبور أهل المدينة وفيه من قبور الصحـابة عدد رضوان الله عنهم أجمعين وفيه قبر فاطمة الزهراء وقبر العباس وقبر عثمان بن عفان رضى الله عنهم وأرضاهم.

فظللت بعـــد وفـــاتــه متبلـــدا | متلـــددا يـــا ليتني لم أولـــد

هذا الشعر شديد انفعال العاطفة لمتأمله. وحسان الذي يقول «يا ليتني لم أولد» كان إذ قال هذا ابن سبعين سنة أو زاد عليها

أأقيم بعـــدك بـــالمدينـــة بينهم ... يـــا ليتني صبحت سم الأســـود
أو حل أمـــر اللـــه فينـــا عـــاجـــلا ... في روحـــة من يـــومنـــا أو في غـــد
فتقـــوم ســـاعتنـــا فنلقى طيبـــا ... محضـــا ضرائبـــه كـــريـم المحتـــد
يـــا بكـــر آمنـــة المبـــارك بكـــرهـــا ... ولـــدتـــه محصنـــة بسعـــد الأسعـــد
نـــورا أضـــاء على البريـــة كلهـــا ... من يهد للنـــور المبـــارك يهتـــد
يـــارب فـــاجمعنـــا معـــا ونبينـــا ... في جنـــة تنبي عيـــون الحســـد

فهذا تعريض بمن يكون حديث عهد بالإسلام وفي ضميره للأنصار عداوة، وقد حف أهل الردة بالمدينة بعد وفاته صلى الله عليه وسلم بقليل فلولا ما هدى الله إليه سيدنا أبا بكر من التشمير، ولكن الله سلم، وما النصر إلا من عند الله، إن الله عزيز حكيم.

في جنـــة الفـــردوس فـــاكتبهـــا لنـــا ... يـــا ذا الجلال وذا العلى والســـؤدد
واللـــه أسمع مـــا بقيت بهالـــك ... إلا بكيـت على النبـي محمـــــد
يـــا ويح أنصـــار النبي ورهطـــه ... بعـــد المغيـب في ســـواء الملحـــد
ضـــاقت بـــالأنصـــار البـــلاد فأصبحـــوا ... ســـودا وجـــوههم كلـــون الإثمـــد
ولقـــد ولـــدنـــاه وفينـــا قبره ... وفضـــول نعمتـــه بنـــا لم تجحـــد
واللـــه أكـــرمنـــا بـــه وهـــدى بـــه ... أنصـــاره في كل ســـاعـــة مشهـــد
صلى الإلـــه ومن يحف بعـــرشـــه ... والطيبـــون على المبـــارك أحمد

هذه القصيدة من نفيس شعر حسان وجيده. والأسى على ما صار إليه أمر الأنصار جلي كما ترى. وفي شرح نهج البلاغة شعر سياسي ذو لهجة شديدة منسوب إلى حسان ـ تناول رجال قريش ونسب بعضهم إلى نوع من حمية الجاهلية كقوله:

وعكرمة الشانى لنا ابن أبي جهل

وهذا الشعر منحول. ومما يكون جرأ على انتحاله وانتحال أمثاله ما في هذه المرثية (١) من مستكن معاني السياسة مع ما هي مشتملة عليه من اللوعة والحزن العميق. روى أبو عبيدة بيت يا ويح أنصار النبي إلخ هكذا:

(١) لا نعني أن المرثية منحولة. كلا. ولكن صحتها جرأت من ينتحل ما ينتحله محذوا على نموذجها.

وقيل أفرطت بل قصدت ولو عنفني القائلون أو ثلبوا
إليك ياخير من تضمنت الـ أرض ولو عاب قولي العيب
(أي العائبون بفتح العين المهملة والياء)
لج بتفضيلك اللسان ولو أكثر فيك الضجاج واللجب
أنت المصفى المحض المهذب في النـ سبة إن نص قومك النسب

ولو كان لم يقل فيه عليه السلام إلا مثل قوله:

وبورك قبر أنت فيه وبوركت به وله أهل بذلك يثرب
لقد غيبوا برا وحزما ونائلا عشية واراك الضريح المنصب

فلو كان لم يمدحه عليه السلام بهذه الأشعار التي لا تصلح في عامة العرب لما كان ذلك بالمحمود، فكيف مع الذي حكينا قبل هذا؟!» ا. هـ كلام الجاحظ.

قلت وماخفي عن الجاحظ مراد الكميت وهو القائل:

يشيرون بالأيدي إلى وقولهم ألا خاب هذا والمشيرون أخيب
فطائفة قد كفرتنى بحبكم وطائفة قالوا مسيء ومذنب

فالكميت لايعني أنهم يعيبون مدحه المصطفى عليه الصلاة والسلام ولكن حبه آل البيت وغلوه في ذلك وهو بعد القائل:

أهوى عليا أمير المؤمنين ولا ألوم يوما أبا بكر ولا عمرا
ولاأقول وإن لم يعطيا فدكا بنت النبي ولا ميراثه كفرا
الله أعلم ماذا يحضران به يوم القيامة من عذر اذا اعتذرا

فهذا الذي كان ينكره الناس على الكميت لاحبه النبي صلى الله عليه وسلم ولامدحه له، ومراده غير خاف، فالذى عابه به الجاحظ على هذا فيه نظر. وأما عيبه عليه «لقد غيبوا برا إلخ» أنها كما يمدح به الرجل الكريم من عامة العرب، فهو أيضا فيه نظر، لأن الكميت ما عدا أن اتبع حسان في مرثيته الجيدة حيث قال:

فبوركت ياقبر الرسول وبوركت بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد
وبورك لحد منك ضمن طيبا عليه بناء من صفيح منضد
تهيل عليه الترب أيد وأعين عليه وقد غارت بذلك أسعد
لقد غيبوا حلما وعلما ورحمة عشية علوه الثرى لايوسد

وراحـــوا بحـــزن ليس فيهم نبيهم   وقـد وهنـت منهم ظهـور وأعضـد
يبكـون من تبكي السمـوات يـومـه   ومن قـد بكتـه الأرض فـالنـاس أكمـد
وهل عـدلت يـومـا رزيـة هـالك   رزيـة يـوم مـات فيـه محمـد

صلى الله عليه وسلم.

والعجب لابن قتيبه قال: «وهذه عندي قصة الكميت في مدحه بني أمية وآل أبي طالب فإنه كـان يتشيع وينحرف عن بني أمية بالرأي والهوى وشعـره في بني أمية أجود منه في الطالبيين. ولا أرى علة ذلك إلا قوة أسباب الطمع وإيثار النفس لعاجل الدنيا على آجل الآخرة» ا. هـ

وزعم ابن قتيبة أن الكميت شـديد التكلف في الشعر كثير السرقة. ولـو كان هذا حقـا مـا كان شعـره ليعجب الفـرزدق في الخبر الـذى رووه، اللهم إلا أن يكـون الخبر مكذوبا وهذا بعيد. ومما يعجب لأمره من كلام ابن قتيبة أول شييء قوله «آل أبي طالب» وقوله «في الطالبيين» والكميت نفسه يقول:

يـاويـح أنصـار النبي ونسلـه   بعـد المغيب في سـواء الملحـد

استشهد بـه في موضعين أو ثـلاثة من مجاز القـرآن. ونسله ورهطـه كلتاهما روى ومتقاربتا المعنى إلا أن نسله أخص والمعنى يـاويح أنصاره وويح نسله أو رهطه ويجوز ياويح أنصار نسلـه أو رهطه. وإن يكن أبو عبيدة قـد كان كما زعم بعضهم به ميل إلى رأي الخوارج فرواية نسله أشبه إذ ذلك لايتجاوز فاطمة رضي الله عنها وكان بقاؤها بعد الرسول صلى الله عليه وسلم قليلا. ومـا كان أبو عبيدة ليستشهد بهذا البيت في تفسير القرآن وينسبه إلى حسان إلا وهو من ذلك على ثقة.

كان في أكثر الأنصار ميل إلى علي كرم اللـه وجهه وقد أصيب المسلمون على أيام يزيـد بن معاوية بمقتل الحسين رضي اللـه عنه وبوقعـة الحرة. وقد جعل الكميت من صلة ما بين الأنصار وآل البيت حجة يجادل بها ـ قال:

وقـالـوا ورثنـاهـا أبـانـا وأمنـا   ومـا ورثتهـم ذاك أم ولا أب
ولكن مـواريث ابن آمنـة الـذى   أقـر لـه بـالفضل شرق ومغـرب
بك اجتمعت انسـابنـا بعـد فـرقـة   فنحن بنـو الإسـلام نـدعى وننسب
يقـولـون لم يـورث ولـولا تـراثـه   لقـد شركـت فيهـا بكيـل وأرحب
ولانتشلت عضـوين منهـا يحابـر   وكـان لعبـد القيـس عضـو مـؤرب

عـــلام إذن زرنـــا الـــزبير ونـــافعـــا ... بأسيـــافنـــا بعـــد القـــانـب مقنب
وشـــاط على أرمـــاحنـــا بـــادعـــائهـــا ... وتحويلهـــــا عنكـم شبيب وقعنـب
وإلا فقـــولـــوا غيرهـــا تتعـــرفـــوا ... نـــواصيهـــا تـــردى بنـــا وهي شـــزب
ولم يكن الأنصـــــار عنهـــا بمعـــزل ... ولاغيب عنهـــا إذ النـــاس غيب
هم رئمـــوهـــا غير ظأر وأشبلـــوا ... عليهـــا بأطـــراف القنـــا وتحدبـــوا
فـإن هي لم تصلـح لحي ســـــواهـم ... فإن ذوي القـــربى أحق وأقـــرب

في هذه الأبيـات من البائيـة«طربت وما شوقا إلى البيض» بعض البيـان لما تقدم ذكره من أمر المزج بين مدحه صلى الله عليـه وسلم وقضايا السياسية التي كانت تحترب عليها الفـرق آنئذ ـ الزبير ونـافع وشبيب وقعنب هؤلاء من زعماء الخوارج ، وكانـوا يرون تقديم الصالح من المسلمين للإمامة لايشترطون كونه قرشيا . ومكان مدح الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله«بك اجتمعت أنسابنا» لايخفى . وهذا يشبه قول [illegible]

دعـى القـــوم ينصر مـــدعيـــه ... ليلحقـــه بـــذي الحسب الصميم
أبي الإســـلام لا أب لي ســـواه ... إذا افتخـــروا بقيس أو تميم

قال الجاحظ في كتابه الحيوان :

« ومن المديح الخطأ الذي لم أر قط أعجب منه قول الكميت بن زيد وهو يمدح النبي صلى الله عليه وسلـم ، فلو كان مديحه لبني أمية لجاز أن يعيبهم بذلك بعض بني هاشم ، ولو مدح به بعض بني هاشم لجاز أن تعيبه الشيعة أو لو مدح به رجلا من الشيعة لجاز أن يعيبه المخالف ، ولو مدح المهلب لجاز أن يعيبه أصحاب الأحنف ، فأما مدح النبي صلى الله عليه وسلم فمن هذا الذي يسوؤه ذلك حيث قال :...

فـاعتتب الشـوق في فـؤادي والشعـ ... ـر إلى من إليه معتتب
إلى الســـراج المنير أحمـــد لا ... يعدلني رغبة ولا رهب
عنـــه إلى غيره ولـــو رفع النـــا ... س إلي العيـــون وارتقبوا

(ههنـا كما تـرى ضرب من التضمين)

بنـي هـــــاشـم رهـط النبي فـإننـي بهم ولهم أرضـى مــــرارا وأغضـب

فلم يقسمهم إلى طالبيين وغير طالبيين وقد ذكر سيدنا العباس «عم نبينا» - صلى اللـه عليه وسلم - فقـد أساء ابـن قتيبة في هـذا التخصيص الـذي الـكميت بـريء منه، ولا ريب، كـان الكميت يدافع عن قضيـة آل البيت ويرى عليـا كرم اللـه وجهه احق الصحابـة بالخلافة فهذا قد مـرد سادة بني العباس الخلفاء مـن بعد المنصور على إنكاره وحمل من استطاعوا حمله على القول بذلك فقالوا:

أني يكـــون وليس ذاك بكـــائن لبنـي البنـــات وراثـــة الأعمام

فصار شعر الكميت ولا سيما هـاشمياته مرغوبا عنه لـديهم. فهل جاء ابن قتيبة بمقاله هذا مصانعة لأهل الدولة؟

والذي صنعه الجاحظ قريب منه، والجاحظ أقوى عذرا إذ كان من رجال الدولة أقرب.

ومما يـزيد العجب عجبا أن ابن قتيبـة حين استشهد بما قال هو إنـه يستجاد من شعر الكميت، لم يجيء بشيء مما قاله في بني أمية إلا قوله في هشام:

مصيب على الأعـواد يـوم ركـوبـه لما قـال فيهـا مخطيء حين ينـزل

وهذا يذمه به من اللامية الهاشمية التي ذم فيها بني أمية فقال:

تحل دمــاء المسلمين لـــديهم ويحرم طلـع النخلـــة المتهـــدل

وجاء بأبيات من البائية فقال ويستجاد له قوله في ذكر النبي صلى الله عليه وسلم:

يقـولـون لم يـورث ولـولا تـراثـه لقـــد شركت فيـــه بكيـل وأرحب
ولانتشلت عضـوين منهـا يحابـر وكـان لعبـد القيـس عضـو مـؤرب
فـإن هي لم تصلـح لحي سـواهـم إذن فـذوو القـربي أحق وأقـرب

الهجرة. وكتاب الإمامة والسياسة إن كان حقا من تأليف ابن قتيبة يشعر بميل فيه إلى علي كرم الله وجهه. فيكون ما ذكره عن الكميت من باب التقية والله أعلم.

واستشهد على سرقة الكميت بأبيات من رائيته في بني أمية ـ وقد زعم آنفا أنه كان يجيد مدحهم، وأي جودة لما هو سرقة بينة ـ فتأمل. وآفة الرأي الهوى.

كان الكميت شاعرا مجيدا وهاشمياته في آل البيت من روائع شعره، وقد كن مما اندكت به صروح ملك بني أمية. وقد قتل من أجلها وتذرع إلى ذلك بعصبيته لمضر وهجائه لقبائل اليمن في الكلمة النونية التي يقول فيها:

فما أعنى بذلك أسفليكم ... ولكني عنيت به الذوينا

وقد صرح بعض شعراء الشيعة بعد الكميت بهجاء الصحابة، فعل هذا مثلا السيد الحميري فكان ذلك مما جعل الناس ينفرون من رواية شعره، إلا من كان له في ذلك هوى.

وقد حببت الهاشميات الناس في الشعر الحزين الذي يذكر مقاتل أهل البيت وما أصيبوا به من قبل طغيان بني أمية. فصار القول في ذلك كأنه طرف من مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كالذي اشتهر من أمر تائية دعبل الخزاعي:

مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحي مقفر العرصات
ديار علي والحسين وجعفر ... وحمزة والسجاد ذي الثفنات

قال عبدالله بن المعتز «وهو صاحب القصيدة:

مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحي مقفر العرصات

وهي أشهر من الشمس ولا حاجة بنا إلى تضمينها ولا تضمين شيء منها. وهو صاحب التائية الأخرى التي أولها:

طرقتك طارقة المنى ببيات ... لا تظهري جزعا فأنت بدات
في حب آل المصطفى ووصيه ... شغل عن اللذات والقنيات

إن النشيـــد بحب آل محمـــد	أزكـي وأنفـع لي مـن القينـــات
فـاحش القصيـد بهم وفـرغ فيهم	قلبـا حشـوت هـواه بـاللـذات
واقطع لبـانـة من يـريـد سـواهم	في حبـه تحلـل بـدار نجـاة

وهي أيضا طويلة مشهورة فتركنا إيرادها».

ولم يكن ابن المعتز يخلـو من نصب ما ولم يسلم من لهوجة وتمريض ما في ترجمته لدعبل، وهـو معذور إذ هجا أجداده. وزعم المعـري أن دعبلا كان في تشيعه كـاذبا. فالله أعلم أي ذلك كان.

وعلى طريق دعبل في التائية سلك ابن الرومي في الجيمية:

أمامك فانظر أي نهجيك تنهج

وفيهما معا أمل التبرك والنفس السياسي، وكأن المعري يزعم أنـه كان كاذبا إذ قال إنه على مذهب غيره مـن الشعراء وهذا أخف من مقاله في دعبـل إذ قال: «ما يلحقني الشك في أن دعبل بن علي لم يكن له دين، وكان يتظاهـر بالتشيع». [ص ٤٢٠ رسالة الغفران]

الطور الثالث

وهو طور التعبـد الممهد. نعني بالممهد أنـه قد كان توطئـة لطور نضج القصيدة النبوية، وصار حينئذ التماس التعبد بها طريقا مهيعا.

ويدخل في مجال شعر التعبد أصناف كثيرة كلها يصح أن تعتبر من قبيل التمهيد لقصيدة المدح النبـوي الناضجة. منهن مـا كان في الصدر الأول. وقـد أورد صاحب أنساب قريش شعرا كثيرا لعباد قريش، مما يشهد بأن أمر الروحـانيات في شعر العرب قديم.

وفي النقـاد ولع أن يجعلوا بـدايـة الفكر العـربي والإسـلامي كلـه من عند القـرن الثالث، يحاكون في هـذا المستشرقين. وإنما أتي المستشرقون من إصرارهم على أن يجعلوا أمر تطـور حضارة المسلمين شبيهـا بما كان من تأريخ النصـارى، إذ مرت مـائتان من السنين قبل أن يتلثب أمر النصرانية وأناجيلهـا على نهج واضح. فلزم عندهم أن يكون أمر المسلمين وحضارتهم كذلك.

فمن ههنا مثـلا جاءت قصـة التفرقـة بين الزهد والتصـوف والأوصاف المعنـوية والأوصـاف الحسية إلى آخـر البـاطل الذي يسرف فيـه المسرفـون. ولماذا يطلب المسلم معاني الروحـانية وشهود أنوار الحق عـز وجل من الهند ومن اليونان ومـن الفرس وعنده

كتاب الله سبحانه وتعالى يقرأ فيه: «ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك، قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا» ويقرأ فيه: «وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا» ويقرأ فيه: «سبحان الذي أسرى بعبده» ويقرأ فيه: «فوجدا عبدا من عبادنا ءاتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما. قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا. قال إنك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا» ويقرأ فيه «قال الذي عنده علم من الكتاب أنا ءاتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رءاه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني ءأشكر أم أكفر». ويقرأ فيه: «إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون» ويقرأ فيه: «ما كذب الفؤاد ما رأى. أفتمارونه على ما يرى. ولقد رءاه نزلة أخرى. عند سدرة المنتهى. عندها جنة المأوى. إذ يغشى السدرة ما يغشى. ما زاغ البصر وما طغى. لقد رأى من ءايات ربه الكبرى».

وقال تعالى: «ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا».

يدخل في مجال التعبد نحو قول الراجز:

الحمد لله الذي أعفاني وكل خير صالح أعطاني

رب المثاني الآي والقرآن

وقول الآخر:

حلفت بالسبع اللواتي طولت وبمئين بعدها قد أمئيت
وبمثان ثنيت فكررت وبالطواسيم التي قد ثلثت
وبالحواميم التي قد سبعت وبالمفصل اللواتي فصلت

وزهديات أبي العتاهية على ما قيل فيه وزهديات أبي نواس وأشعار أهل العقائد والتصوف كشعر الحلاج ومما يروى له:

يـــــــاسر سر يـــــــدق حتى ... يجل عـــن وصـــف كـــل حـــي
وظـــاهـــرا بـــاطنـــا تبـــدى ... مـــن كـــل شيء لكـــل شي
يـــــاجملـــــة الكل لست غيري ... فما اعتـــــــــــذاري إذا إلي

وقد فشت أساليب أهل التصوف التي في أشعارهم وأدعيتهم حتى تظرف باستعمالها الشعراء قبل زمان الحلاج وبعده وقد جاءت من أشعار المولدين في شعر أبي نواس مثل قوله:

خلقت لآدم قبل طينتـــــه ... فتقـــــدمتـــــه بخطـــوة القبل

وقد عاصر الجاحظ أبا نواس وذكر أنه أسن منه وقد ورد ذكر المتصوفة في كلامه مرات.

وفي شعر حبيب:

لا تسقني مـــــــاء الملام فإنني ... صب قد استعذبت ماء بكائي

وتقدم الحديث في هذا وما بمجراه، وقد ذكرنا من قبل نار الأحبة التي كانت تشاهدها بصائر القلوب، قلوب العشاق من لدن امريء القيس إلى جميل إلي أبيات عبيد الله حيث ذكر حب عثمة فقال:

تغلغـــل حيـــث لم يبلـــغ شراب ... ولا حـــــــزن ولم يبلـــغ سرور

وفي أبيات الحلاج الحلول. وأصاب المعري إذ لم يعد أن في أبيات الحلاج معنى جديدا حقا إذ الناس كما قال قد عبدوا الحجر. فهذا بلا ريب من عنصر توهمهم حلول الإله فيه. ويلحق بهذا الضرب مقال فرعون: "أنا ربكم الأعلى".

واكتفى أبو العلاء بوقفة عند صياغة الأبيات، قال: فلا بأس بنظمها في القوة ولكن قوله "إلي" عاهة في الأبيات يعني "إلي" بكسر الياء، وأبو العلاء يعلم أن هذه قراءة حمزة في: «وما أنتم بمصرخي» فانصرف بشيء من خبث خفي من نقد الحلاج إلى الطعن في قراءة من السبعة التي اختارها ابن مجاهد والقراءة كما قال شيخ النحو في

كتابـه هي السنة، فهـذا يجعلها بـلا ريب يحتج بها لا عليهـا. أحسب أن لو كـان أبو العتاهية حلى زهدياته بشيء من مدح الرسول صلى الله عليه وسلم مع إدمانه قرع باب الديانـة من طريق التذكير بالموت لكانت دخلتها من ذلك بـركة ونور، ولسلم إذن من تهمة الزندقة التي اتهمـه بها بعضهم، ذلك إذ رجحوا أنه بذكره الموت دون البعث كأنما أسر في نفسه كفرا به ـ وقد احتاط أبو نواس في زهدياته إذ يقول:

لا يجتلى الحوراء مـن خـــدرهــــا إلا أمـــرؤ ميـــزانـــه راجـح

جعل مكـان المديح النبـوي يقـوي في النفـوس متصـلا بـالعبـادة مستقـلا عن السياسة والتشيع. ومما قواه أن أساسـه ودعامته حب النبي صلى الله عليه وسلم، وأمر ذلك من أمـر الكتاب والسنـة قريب. قـال تعـالى: «قل إن كنتم تحبون اللـه فاتبعـوني يحببكم الله ويغفـر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم» والاتبـاع لا يصح بلا حب، وحب رسول اللـه صلى الله عليـه وسلم هو الطريـق للمعرفة، والمعـرفة لا تتم إلا بعـون الله وتوفيقه، ورأس الحكمة مخافة الله، واتقـوا الله ويعلمكم الله، ولا يعرف الإنسان نفسه إلا بالحكمة، فإذا عرفها أحبها الحب الذي يرضاه الله سبحانه وتعالى، فلم تستول عليه شهواتها فيصرفه هواها عن سبل الرشـاد. وسبيل الرشاد السنة. ومن زعم أنه يتبع السنة وليس في قلبـه حب الـذي سنهـا فهـو غير صحيح الإيمان. لأن الاتبـاع بـلا محبة هواء. فنسأل الله الهدايـة إنه سميع قريب مجيب. ومما يشهد بأن أمـر المديح النبوي قد قوي جدا وأن تعلق النـاس به قد كان شـديدا على زمان أبي العتاهيـة وأبي نواس مقال الجاحظ الذي أنكر به ما أنكـر على الكميت بن زيد حيث قال «فأما مدح النبي صلى الله عليه وسلم فمن هذا الذي يسوءه»؟

ويذكر أن أبـا الطيب سئل لم لم يمدح رسول الله صلى اللـه عليه وسلم أو ليم في ذلك فـاعتذر بأن قـدر رسول الله صلى اللـه عليه وسلـم أعلى من أن يبلغه مـدحه أو بشيء من هذا المعنى، وقد رأيت في أحد دواوين أبي الطيب بيتين له في مدحه صلى الله عليه وسلم أو الاعتذار عن ذلك وند عني موضعهما من بعد.

وقال الشيخ يـوسف النبهاني رحمه اللـه في مقدمة المجمـوعة النبهـانية في المدائح النبوية (طبعة بيروت فى المطبعة الأدبية سنة ١٣٢٠هـ) في مقدمته لها في الفصل الثامن (ص١٧): «قـال بعض العلماء إن سبب عـدم مــدح البعض من مشـاهير الشعـراء كالمتنبـي وأبي تمام والبحتري للنبي صلى الله عليه وسلـم إنما هو علمهم أنهم عـاجزون

عما يليق به صلى الله عليه وسلم من المدح فتركوا مدحـه أدبا معه عليه الصلاة والسلام اهـ أقول لا شك في عجـزهم عما يليق به صلى الله عليه وسلـم من المدح وعجز الناس كافـة عن ذلك بل عجز الخلق أجمعين عن معـرفة فضائل سيـد المرسلين وكنه كمالات حبيب رب العالمين صلى الله عليه وعلى آلـه وصحبه أجمعين، ولا يعلم حقيقة ذلك إلا الله تعـالى فلا يقدر على وصف هـذا العبد الكريم إلا سيده العظيم عز وجل. ولكن ذلك لا يمنع الشعـراء من مدحه للتقـرب إلى رضاه ورضـا مولاه سبحـانه وتعـالى بقدر استطاعتهم فإن الله تعالى شرع لنا على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم أن نحمده تعالى ونشكره ونثنى عليه مع عجزنا كمال العجز عما يجب له ويليق به سبحانه وتعالى كما قال صلى الله عليه وسلم وهو سيد الحامدين والشاكرين والمثنين على الله تعالى، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك. وكم مدح النبى صلى الله عليه وسلم نظما ونثرا من أئمة أمتـه من الصحابة فمن بعـدهم، سادات أجـلاء الواحد منهم أكثـر أدبا مع رسـول اللـه صلى اللـــه عليـه وسلم ومعـرفـة بما يليق بــه من ملء الأرض مثل المتنبي وأمثاله، ولكن السبب الصحيح الـذي أراه لعدم مدحهم له عليـه الصلاة والسلام أن مدحه من جملـة الطاعات والعبادات فيحتاج للتوفيق من اللـه تعالى للعبد حتى يتيسر له فعلـه، وهؤلاء وأشباههم لم يـوفقوا لهذه الطاعـة العظيمة لعـدم تأهلهم لها بسبب ما اتصفوا به من أخلاق الشعراء من نحـو توغلهم في الكذب بأبلغ العبارات في المدح إن رضـوا والذم إن غضبـوا، فضلا عن تعـديهم على أعراض النـاس وقذفهم المحصنـات والتشبيب بمعين النساء والغلمان ونحو ذلك من السفاهات وكفى بذلك مانعا لهم من مدح النبي صلى الله عليه وسلم، ما لم يتـوبوا إذ الظلام والنور ضدان ففى آن واحد لا يجتمعان وكـونهم من أكـابر الشعراء لا يقتضي تـأهلهم لعبادة اللـه بمدح عبـده ونبيه وحبيبه الأكرم صلى الله عليه وسلم، فإنا نرى كثيرا من الأغنياء لا يحجون ولا يزكون ولا يتصدقـون، ونرى بعكسهم كثيرا من الفقـراء كما نرى كثيرا من الأقويـاء لا يصلون ولا يصومون ولا يقومون الليل، ونرى بعكسهم كثيرا من الضعفاء وما ذلك إلا بسبب توفيق الله تعـالى لكثير من الفقراء والضعفـاء، وعدم توفيقـه لكثير من الأغنياء والأقـوياء، فكذلك يقال هنـا يحرم المتنبى وأمثاله من الشعراء من هـذا الخير العظيم في مدح النبي الكـريم صلى اللـه عليه وسلـم ويرزقـه كثير من العلماء والصلحـاء ممن بضـاعتهم في الشعر قليلة بتوفيق الله تعالى لهم. اهـ. الفصل الثامن (ص ١٩).

مقال الشيخ يـوسف النبهاني رحمه الله في جملته لا غبار عليـه. غير أنه ربما صح عليه الاستدراك في أشيـاء، سوي الذي سبق من زعمنا أن المديح النبـوي طور خلص

إليه خلوصا اخر الأمر بعد أن خبت جذوة القصيدة المادحة وما أشبهها مما هو من سنخها كقصيدة الفخر وشكوى الحال والمراثي الحسان: من ذلك أن طاعة الله في غير عزائمه التي جاء بها الكتاب وهدت إليها السنة واتلأب عليها أمر العبادة والعمل الصالح، باب واسع. وأن هؤلاء الشعراء الثلاثة الذين ذكرهم، أبا تمام وأباد عبادة وأبا الطيب، كانوا أهل جد على وجه العموم، وأمرهم في دينهم أعلم به خالقهم، ولعلهم فائزون برضاه. وقد خدموا بشعرهم رؤساء وأمراء من أهل الجهاد والذود عن حياض الإسلام. وروح الجهاد في بائية أبي تمام:

السيف أصدق أنباء من الكتب

جلية لا تحتاج إلى دليل - وفيها يذكر وقعة عمورية:

أبقيت جد بني الإسلام فى صعد	والمشركين ودار الشرك في صبب

وفيها مما فيه توكيد لمعني الجهاد:

لو كان بين صروف الدهر من رحم	موصولة أو ذمام غير منقضب
فبين أيامك اللاتي نصرت بها	وبين أيام بدر أقرب النسب

والمدح المستكن لرسول الله صلي الله عليه وسلم هنا كما ترى
وقال في مدح الخليفة وما مدحه إلا بالجهاد هنا:

أجبته معلنا بالسيف منصلتا	ولو أجبت بغير السيف لم تجب
حتى تركت عمود الشرك منعفرا	ولم تعرج على الأوتاد والطنب

وقال في كلمة مدح بها عمرو بن طوق فصرح في أثناء مدحه بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم يذكره أن له به - لو اقتدى بسنته أسوة حسنة:-

لك في رسول الله أعظم أسوة	وأتمها في سنة وكتاب
أعطى المؤلفة القلوب رضاهم	كملا ورد أخايذ الأحزاب

فقوله «أعظم أسوة» هو شاهدنا ههنا.
وقال في رائية مقتل الأفشين:

هذا الرسول وكان صفوة ربه	ما بين باد فى الأنام وقاري

وقال في إحدى مدائحه:

سـلام اللـه عـدة رمـل خبت ... على ابـن الهيثـم الملـك اللبـاب

وأرى أنه أخـذ هذا الأسلوب في التسليم من طـريقة الصلاة والسـلام في المديح النبوي وأن ذلك في النبويات المتعبد بها كان معروفا شائعا في زمانه. على أن هذا المذهب له في العربية أصـول قديمة كما في قول الآخـر «ألا فاسلمى ثم اسلمي ثمت اسلمى» ولكن قولهم عدة كذا وعدد كذا مذهب نبوي والله أعلم.
وقال البحتري:

إن لم يبلغك الحجيـج فـلا رمـوا ... في الجمـرتين ولا سقـوا فى زمـزم

فهذا دعـاء من قلب مسلم وقد سبق منـا القول أن نفس هذه الـديباجـة للبحتري مما اقتدي به مداح الرسول صلى الله عليه وسلم فيما بعد ـ وقال:

ذكـروا بطلعتك النبـي فهللـوا ... لما بـرزت مـن الصفـوف وكبروا

وإنما ذكـرهم النبي صلي الله عليـه وسلم أن المتـوكل برز في بـرد النبي صلي الله عليـه وسلم ـ وذلك قوله:

وبـرزت في بـرد النبي مـذكـرا ... بـاللـه تنـذر تـارة وتبشر

فالقصد من البحترى ههنا إلى مدح النبي صلى الله عليه وسلم ضمنا، كما تري، وإنما جعل مدحه الخليفة فرعا من ذلك وطرفا
وقال أبو الطيب في سيف الدولة:

فمن كـان يـرضى اللـؤم والكفـر ملكـه ... فهـذا الـذي يـرضي المكـارم والـربـا

وقال:

هنئيـا لضرب الهام والطعـن فى العـدا ... وراجيـك والإسـلام أنـك سـالم

وقال:

أرى المسلمين مع المشركيـــــــن إما لعجـــز وإمـــا رهب
وأنـت مع اللـــــه في جـــانب قليـل الـــــرقـــاد كثير التعب
كـأنك وحـــــدك وحــــدتـــه ودان البريـــــة بـــــابـن وأب

وقال:

فبـــاتـــوا لخالقهم سجـــدا ولـــو لم تغث سجـــدوا للصلـب

وشعـر المتنبي في الجهـاد المقصود بـه رفع رايـة الإسـلام وإعلاء كلمـة الشهـادة كثير، وصدق روحـه فيه يشهـد بانه مـا أراد به الدنيـا ـ وذلك وإن لم يصرح فيـه بمدح النبي صلي الله عليه وسلم فقد صرح فيه بنصر دين اللـه، وذلك نصر لرسول الله صلي الله عليـه وسلم ـ فنأمـل أن يدخلـه ذلك في زمـرة من عزروه ونصروه. وإن يكن إسـاء في بعض أمـره، كـالـذي اتهم بـه من دعـواه في صبـاه، وكقـولـه يمـدح أحـد الأشراف العلويين:

وأبلـغ آيـــات التهـــامى أنـــه أبـــوك وأبهى مـــالكم مـن منـاقب

مما اضطرته إليه مذاهب المبالغة المفرطة، فقد أحسن في جهادياته كل الإحسان:ـ
مثلا قوله

تخلى لـه المرج منصـوبـا بصـارخـة لـه المنـابـر مشهـودا بها الجمع

وهل تشهد الجمع إلا بإعلان النداء وفيه الشهادتان اللتان هما ركن الإسلام الأول؟
وبعد فقيمة الإنسان ما يحسنه. وهؤلاء الثلاثـة قد فرغوا بأنفسهم للشعر وأبلغ ما قالوه مستمد من صميم بيان العربيـة الذي يدرك به أمر معجزة بيـان القرآن ولئن كان الذي وقع لهم من الحكم والأمثال ـ وما منهم إلا له قول يتمثل به ـ من باب الحكمة التي من يؤتها فقد أوتي خيرا كثيرا، فلهم بهذا إن شاء الله فضل بين.
وقد جاء أبو العلاء بقطعة نبوية في لزومياته أولها:

دعـــاكم إلى خير الأمـــور محمـــد وليس العـوالي في القنـا كـالســوافل

وأغلب الظن أن قومه كانوا يعجبون من أمرو شاعرا يتحدث في ذم الدنيا ولا يمدح رسول الله عليه الصلاة والسلام ـ فقد مدحه في رسالة الغفران وههنا ونونيته في سقط الزند :

علـــلاني فإن بيض الأمـــاني ... فنيت والظـــلام ليس بفـــاني

فيها من روح المديح وإن كان جرى به على وجه من وجوه الميل إلى التشيع وهو قوله :

أحـــد الخمسـة الـــذين هم الاغـــ ... ـــراض في كـل منطق والمعـــاني

ومن أقدم مدائح التعبد رائية الزمخشري (توفي رحمه الله سنة ٥٣٨ هـ) التي مطلعها :

قـــامت لتمنعني المسير تماضر ... أني لها وغـرار عـزمي بـاتـر
شـامت عقيقـة عـزمتي فحنينهـا ... رعـد وعينـاهـا السحـاب الماطـر

وهي في جملتها من فصيح الكلام وفيها أبيات جياد وعواطف طيبة وصدق تجود معه المعاني .

والزمخشري قد عزم على هجرة أوطانه إلى بيت الله الحرام لا لأداء الفرض وحده ولكن للمجاورة عند البيت الحرام بعد أداء الفريضة وزيارة القبر الشريف . بدأ الزمخشري كلمته بحماسة أعلن بها تحديه لتماضر وفخر عليها بأنها إن تك ظبية فهو ليث العرين . ثم أمرها أن تصبر. ثم خلي سبيلها غير مبال ما تقول عنه في شكواها . وما يخلو الزمخشري من أن يكون ضمن تماضره هذه معني الدنيا وزهرتها غير أنه رحمه الله ما كان يخلو من جانب خشن الى النساء والرفق بهن مما أمر به المولي عز وجل وذلك قوله سبحانه وتعالي :

«وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا» من تخشين الزمخشري لتماضر، وينبغي أن نحملها معنى الدنيا، حتى يتم عندنا إن شاء الله معني إعراضه وتخشينه :

حني رويـــدا لن يـــرق لظبيـــة ... وبغـامهـا ليث العـــرين الـــزائر

سيأكلها إن كان جائعا وإلا فإنه سيرق ـــ فلعلك ان تلمح في المعني هنا بعض الاضطراب

أرخي قناعك يا تماضر وامسحي عينيك صابرة فإني صابر

هذا البيت تخالطه رقة، ومصدرها قوله «أرخي قناعك» فإنها إن تكن ممن يحل له فكشفها قناعها أشبه بحال الطبيعة، فما يكون أمره إياها بإغداف القناع ـ وإرخاؤه إغدافه ـ إلا أن وجهها وعينيها أثرتا فيه، فلاذ بهذا الأمر الذى ظاهره خشونة وباطنه رقة. وإن تكن محرما فهو زجر دفعته إليه رقة مستكن الحب، حب الأخت والأم والمحرم، والعرب كانت مما تذكر بناتها وما إلى ذلك في باب السفر كقول الراعي:

قالت خليدة ما عراك ولم تكن أبدا إذا عرت الشئون سئولا
أخليد إن أباك ضاف وساده همان باتا جنبه ودخيلا

وقال الأعشى:

تقول ابنتى حين جد الرحيل أرانا سواء ومن قد يتم

والزمخشري من أعلم الناس كان بالعربية وبالشعر

لو أشبهت عبرات عينك لجة وتعرضت دوني فإني عابر

أخذ هذا من رائية وضاح اليمن، ولكنه أخذ جيد وجانب العاطفة فيه قوي

إنى لذو جد كما جربتنى صلب وبعض الناس رخو فاتر

وقع في الطبع خطأ إذ هو هناك «إنى لذو وجد كما جربتنى صلب» وهذا لا يستقم به المعنى وإنما هو لذو جد وهذا البيت كأنه أراد به أن يستمر في معنى ليث العرين ومضاء العزم، ولو كان تنبه للأمر رحمه الله لكان قد تبين له أنه قد فرغ من المعنى كله عند قوله «فإني عابر» فإن رام زيادة بعد ذلك فإنما تحسن إن جاءت غنائية محضة، وهذا باب قل من يحسن طرقه، بله أن يؤذن له ـ مثلا قول البحترى:

إنى وإن جانبت بعض بطالتى وتوهم الواشون أني مقصر
ليروقنى سحر العيون المجتلى ويشوقنى ورد الخدود الأحمر

البيت الأول تام معناه، ولكن الشاعر احتال على التغنى بجعله شرطا يحتاج إلى جواب، ثم لما أتم المعنى والغناء معا صرف شعره إلى المدح إذ لم يبق في الذي كان بصدده من زيادة لمستزيد ـ وقال أبو تمام:

إن كـــان مسعـــود سقى أطـــلالهم   سيل الشئـــون فلست مـن مسعـــود

فهذه نهاية تشعرك أنها آخر الكلام، ثم إذا بالشـاعر يزيد معنى آخـر يتغنى به ويترنم ويفتن

رحلـوا فكـان بكـاي حـولا بعـدهم   ثم ارعـــويـت وذاك حكم لبيـــد

فهو من لبيد لا من مسعـود، وعنى به ذا الرمة أو عنى به أخاه لقـول ذى الرمة، كما مر بك أيها القارىء الكريم من قبل :ـ

قـــد عجبت أخت بني عبيـــد
وهـــزئت منى ومـن مسعـــود
رأت غـــلامي سفـــر بعيـــد
يـــدّرِعـــانِ الليـل ذا السـدود
مثـل ادراع اليلمـق الجديـــد

وقد جاء الزمخشري بعد البيت الذي زعم فيه أنه صلب وبعض الناس رخو فاتر بأبيات وسط هن قوله :

إن عـن لى أمـــر فلي عـن رفضـــه   نـــاه وبـــالإقـدام فيـــه آمـــر

وعنى أمرا من الجد ولكن عبارته كما ترى عامة فلا تفيد الدلالة القاطعة على معنى الجد الذى هو مراده إن شاء الله . هـذا وبعض الأمور مما يجب على العاقل رفضه وألا يقدم عليه . قال تعالى : «وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعـوا به» ـ استشهدنا بالآية للدلالة على أن الأمر يقع على الشىء وعلى ضده ونقيضه .

فإذا عـــزمت على تقـــارب نهضتي   أمضى العـــزيمـــة حـــدي المتنـــاصر

أى الذي ينصر بعضه بعضا وفي القافية كما ترى قلق

والجد شيمـــة مـن لـــه عـــرق إذا   عـــدت عـــروق ذوي المرائر طـــائر

قال الشـارح الشيمة الطبيعة والعـرق أصل كل شىء والمرائر جمع مريرة وهي العـزيمة وأصلها الحبل المفتول والطائر المرتفع ـ انتهى قلت لا يظهر المعنى على هذا الوجه، وقد

ذكر الشارح رحمه الله أنه نقل القصيدة من ديوانه الخط (ج٢ - ص١٣١ - ١٣٥) - هل يريد إذا استمر ذوو المرائر في سيرهم الجاد فإن له عرقا يطير به طيرانا ؟ يجوز هذا الوجه على بعد ويكون يعني بالطيران هنا منتهى الغلو في السرعة وقد يسوغ هذا التأويل ذكره المهري من بعد وهو الجمل السريع النجيب، منسوب إلى مهرة التي تنسب إليها الإبل المهرية النجب.

مـــا فضـل المهـــري إلا أنـــه   بـــالجد فى طي المراحـل مـــاهـــر

ذهب هنا من مذاهب أهل البديع إلى حسن التعليل ــ ثم بعد هذه الأبيات التي كما قدّمنا لم يزد بها كبير شىء على قوله يفتخر «إنى لذو جد» رجع إلى حديث تماضر:

سيرى تماضر حيث شئت وحـــدثي   إني إلى بطحــــاء مكــــة ســـــائر

تماضر اسم الخنساء. وما ذهب الزمخشري إليه ولكننى أحسبه ذهب إلى معنى تماضر سلمى بن ربيعة حيث يقول ؛

حلت تماضر غـــربـــة فـــاحتلت   فلجـــا وأهلـك بـــاللـوى فـــالحلـة
وكـأن في العينين حـب قـــرنفـل   أو سنبـــلا كحلت بـــه فـــانهلت
زعمـت تماضر أننـى إمـــــا أمـت   يســـدد أبينـوهـــا الأصـــاغـــر خلتى
تـــربت يـــداك وهــل رأيت لقـــومـــه   مثلى على يسري وحين تعلتـــــــــى
رجـــلا إذا مـــا النـــائبـــات غشينـة   أكفـى لمعضلـــــــة وإن هـي جلـت

والأبيات من مشهور الفخر وجيده وهي مما اختاره أبو تمام في الحماسة فإلى هناك نظر جار الله رحمه الله - أما قوله: «سيرى تماضر» فقد جارى به قول الضبي «تربت يداك» وكأنه أخذه من قول الحطيئة:

سيرى أمـــام فإنـــا الأكثـــرين حصى   والأكـــرمين اذا مـــا ينسبـــون أبـــا

فجعل مكان أمامة تماضر وهي المزجورة في قول الضبي، وجعل مكان الحث في قوله سيرى معنى الزجر الذي في «تربت يداك» وإنما دعا عليها ومراده زجرها لا أن تصب عليها لعنة ما.

فاختيار تماضر لم تمله عليه القافية بل فيما أرى من أجله جعلت القافية هكذا إذ قد تقمص الزمخشري رحمه الله شيئا من نفس هذه الكلمة المختارة

سيري تماضر حيث شئت وحدثي إني إلى بطحاء مكة سائر

ضبط في المجموعة بفتح همزة أن على أن هذا حديثها والوجه القوي وهو المقصود إن شاء الله الكسر أي اذهبي أنى شئت وحدثي الناس أني فارقتك - إني سائر إلى بطحاء مكة، هذا عزمي وأنا به صارح. يدلك على أن هذا كلام مستأنف تعلق ما بعده به:

حتى أنيخ وبين أطماري فتى للكعبة البيت الحرام مجاور

متعوذ بالركن يدعو ربه يشكو جرائر بعدهن جرائر

يشكو جرائر لا يكاثرها الحصى لكنها مثل الجبال كبائر

ظاهر الشكوى أنه يشكو جرائر جرها عليه غيره، إذ لم يعين أنه صاحبها. ثم كأنه في البيت التالي لبيت الركن يلوم نفسه مع بقاء الإيهام بجواز كون الجرائر من غيره، والذي يشعر بلوم نفسه قوله لا يكاثرها الحصى لكنها مثل الجبال - فكأن هذا تأمل منه لنفسه وفيه بعض نفس انكسارة. يقوى هذا الوجه الذي نذهب إليه قوله من بعد:

والله أكبر رحمة والله أكبر نعمة وهو الكريم القادر

وأحق ما يشكو ابن آدم ذنبه وأحق من يشكو إليه الغافر

فدل بهذا أنه قد عنى نفسه وان كان قد بدأ بما يوهم شكوى ذات عموم

فعسى المليك بفضله وبطوله يكسو لباس البر من هو فاجر

يلاحظ على صياغة الزمخشري الصحة وقصد الفصاحة ولكنه بالتزامه ذلك ربما جاء بالكلام جافا غير عذب الرنين - قوله "لا يكاثرها الحصى لكنها مثل الجبال" فيه تعب صناعة وتكلفها لأنه لما شبه الذنوب في الكثرة بالحصى بالغ فكبر هذا الحصى فجعله جبالا لأن الذنوب كبائر وفي كبائر هنا معنى الكبر الذي في الجبال لا معنى الكبر الذي يجعل صاحبه في منزلة بين المنزلتين على رأي المعتزلة، فكأن قوله حصى كبائر أي كبار مثل الجبال يحترس به ان تظن كبائر من نوع الفواحش اللواتي هن من كبائر الإثم.
وقوله يكسو لباس البر من هو فاجر فالفاجر ضد البر بفتح الباء فمن لبس لباس البر بكسر الباء فهو بر بفتحها. ههنا أيضا عمل وتعب. وقوله: «وأحق من يشكو إليه الغافر» إن أراد بالغافر المولى سبحانه وتعالى وهذا من أسمائه لقوله تعالى: «غافر الذنب

وقابل التوب» فهو لا بأس به، وإن أراد أحق من يشكو إليه من يغفر ذنبك ففيه نظر. والعرب تقول: أمر مبكياتك لا أمر مضحكاتك. والذي يصح به المعنى ويستقيم أن يريد بالغافر الله عز وجل، وإيهام قصد عموم المعنى يدخل في سنخ صياغة هذا البيت نوعا من ضعف

يامن يسافر في البلاد منقبا | إني إلى البلد الحرام مسافر

عجز البيت حسن لأنه تغن بتكرار المعنى الذي سبق «إني إلى بطحاء مكة سائر» ولكن الصدر ضعيف، أولا لأن النداء خارج عن السياق، إذ السياق يقتضي أن يكون ينادي تماضر وما يشبه معناها. فقد ترك زجرها ليزجر غيرها وهذا تشويش - ويمكن أن يعتذر له بما تقدم ذكره من أن تماضر رمز للدنيا وزهرتها وطلب متاعها الفاني، فقوله:

يا من يسافر في البلاد منقبا

كأنه يقول به: «يا من غرته تماضر» أي الدنيا فخرج يطوف في الآفاق يريد المال والجاه.

إن هاجر الإنسان عن أوطانه | فالله أولى من إليه يهاجر
وتجارة الأبرار تلك ومن يبع | بالدين دنياه فنعم التاجر
تالله ما البيع الربيح سوى الذي | عقد التقي وكل بيع خاسر

نظم هذه الأبيات مستقيم، إلا أنها قليلة الرونق وذلك أنها لم تعد أن نظمت بعض معاني آي الكتاب كقوله تعالى: «فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم» ونظم معاني الآي مسلك مزلة، والحاذق من يقصد قصد الاقتباس والإشاره، إذ ان المصباح لايضيء في الشمس، وبلاغة القرآن ضوء شمسها غامر باهر، ولا ريب أن الزمخشري قصد إلى معنى الاقتباس، فسلك بما سلكه من نظم المعاني القرآنية مسلكا يجعل شعره تعليمي المعدن، فذلك يكسبه من الجفاف ويذهب ببعض الرونق. ثم يقول رحمه الله، يشكو الذنب، بانكسارة عابد، على أنها انكسارة فيها جانب من شدة نفس العالم اللغوي التي لا تفارق الزمخشري رحمه الله:

خربت هذا العمر غير بقية | فلعلني لك يا بقية عامر
وعهدتني في كل شر أولا | فلعلني في بعض خير آخر
في طاعة الجبار أبذل طاقتي | فلعلني فيها لكسرى جابر

تأمل الطباق في كل بيت - ولكنه سهل سائغ، ونفس شاعر ينتظم هذه الأبيات فيه

روح من أدب وصدق في حضرة المولى سبحانه عز وجل :

سأروح بين وفود مكة وافدا   حتى إذا صدروا فما أنا صادر

هذا كأنه يخاطب به نفسه، ولذلك حسن شيئا موقع العزم والجزم به، إذ لو كان مراده مخاطبة غيره لكان لزمه الاحتراس بذكر الأمل والمشيئة، وقد جاء بهذا المعنى فيما بعد، فدل بذلك أنه ههنا إنما يخاطب نفسه - غير أنه قبل أن يصل إلى موضع ذلك أطال في تفسير قوله « فما أنا صادر » أنه يريد به المجاورة، وقد سبق أن قال ذلك، وهذا كما لا يخفى مذهب نثرى يصير به ناظمه في طريقة الشعر إلى ما وسموه بالإخلاء - غير أن في اطناب الزمخشري الذي أطنبه نغمة حزن خفية، كأنه بها يعزى نفسه على فراق تماضر، هاته التي تحتمل الكناية عن الوطن وزهرة الدنيا جميعا

بفناء بيت الله أضرب قبتي   حتى يحل بي الضريح القابر

يعني حتى أحل به، والعبارة فصيحة في مذهب العربية ولا ريب أن الزمخشري تعمدها

ألقى العصا بين الحطيم وزمزم   لا يطبيني إخوة وعشائر

عنى بالحطيم البيت كله

ضيفا لمولى لا يخل بضيفه   ويريه أقصى ما تمنى الزائر

حسبي جوار الله حسبي وحده   عن كل مفخرة يعد الفاخر

لا يخفى أن ههنا تطويلا ونفسا خطابيا ما عدا به تكرار الفكرة التي تقدمت ومع أن هذا التوكيد يخاطب به نفسه قد عدا به الاعتدال المؤثر حقا.

سأقيم ثم وثم تدفن أعظمى   ولسوف يبعثنى هناك الحاشر

هذا مما عجل به الزمخشري في طلبه توكيد المعنى، معنى الجوار الذى بدأ به، فغفل من حيث لم يشعر - أم قد شعر - من قوله تعالى : « وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير »وهي مما لا يغفل عنه، فكأن قد تذكر وتنبه، فمن أجل ذلك قال من بعد ذلك مباشرة :

ياليت شعري والحوادث جمة   والغيب فيه للحكيم سرائر

هذا كما ترى كالاستدراك والتذكر

والعبد يحرص أن ينفذ عزمه   ووراء عزم العبد حكم قاهر

هل في قضاء الله أني قادم   أم القرى وإلى البنية ناظر

والنظر إلى الكعبة عبادة

فمقبل الحجر الممسح ملصقا   خدى به وعليه دمعي قاطر

وإنما يقبل الناس الحجر اقتداء بسنة النبي صلى الله عليه وسلم وهو الذي وضعه في موضعه بعد أن أوشكت قبائل قريش أن تقتتل حرصا منها ألا تنفرد واحدة منها بشرف وضعه ـ فكفاهم الله ذلك بمحمد الأمين، إرهاصا بما أعده له من وحيه وإكرامه بأن يكون خاتم الأنبياء المرسلين الداعي إلى توحيد الله لا نشرك به شيئا " إليه أدعوا وإليه مئاب " ـ صلى الله على نبينا وسلم تسليما وعلى آله وصحبه

ثم أخذ الزمخشري يصف نفسه حاجا قائما بما يقوم به الحاج

فبــذلك البيت المطهــر طــائف ... في ثــوبي الاحــرام أشعث حــاسر

فمبــادر للسعي مــابين الصفـا ... والمروةوالعبــد المجــد مبــادر

التعبير مستقيم غير أن في نظم البيت عناء وقلة رونق في الديباجة ـ كأنها إلى تخشين النظم التعليمي أقرب. ويعتذر لذلك بما يخالطه من أرب التعبد.

فمراقب نفـر الحجيج إلى منى ... فإلى منى قبل المعـرف نـافـر

أي نافر إلى منى قبل يوم عرفة والمعرف بضم الميم وفتح الراء مشددة

بهم يبـاهي اللـه في ملكـوتـه ... أهل السمـوات العلى ويفـاخـر

حتى إذا دلكت بــراح فطــارق ... جمعـا فمنـه إلى المحصب نـافـر

جمعا: أى مزدلفة. طارق أي آتٍ بليل ليذكر الله عند المشعر الحرام ويجمع فيها بين المغرب والعشاء جمع تأخير. دلكت براح بكسر الباء وراح جمع راحة وفيه قولان ذكرهما الطبري عند تفسير آية الإسراء فمن قال غربت قال إن المأمور بصلاتها المغرب ومن قال مالت عن الزوال قال إن المأمور بها صلاة الظهر ورجح الطبري القول الأول وبكليهما قيل وبراح بوزن قطام قيل اسم للشمس وبراح بكسر الباء من مسح العينين لمعرفة الزوال أو المغيب يدلك المرء عينيه لاتقاء الشعاع والذي هنا براح بفتح الباء إذ ليس في الحاء تنوين وأنشدوا ـ ذكره الطبري والقرطبي وصاحب المجاز جميعا:

هــذا مقــام قــدمي ربــاح ... ذبـب حتى دلكـت بــراح

وآية الإسراء هي « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرءان الفجر إن قرءان الفجر كان مشهودا».

والوقوف بعرفة الواجب الذي الإخلال به فيه الدم هو ما بين الزوال إلى الليل ولا يجزىء الوقوف قبل الزوال ـ هذا في مذهب مالك، أعنى كونه واجبا، والوقوف الذي هو أحد أركان الحج التي لا حج للمرء بدونها هو عند مالك ما يكون في جزء من الليل فإن نفر قبل الغروب فلا حجة له وعند غيره يجزئه الوقوف بعد الزوال.

وقـوله « بهم يبـاهى » ، أخـذه من الحديث ومعنى المباهـاة جلي أي يـرى الله الملائكـة حجاج بيته شعثا غبرا وهم بذلك أبهى منهم ، إذ لايخفى أن الملائكـة لا يباهون الله عز وجل إذ هم عبيده "يخافون ربهم من فـوقهم ويفعلون ما يؤمرون" . ويفـاخر اضطرت الزمخشري إليها القافية ويمكن تأويلها على قريب من نفس المعنى في عسر.

فمجمـــر فمقصر أوحــــالق نحـر النهـار فللنسيكـة نـاحـر

وفي الجناس « نحر ـ ناحر » عمل كعمل المعري وجهد علماء وكـان المسلمون إلى زمان قريب يؤثرون الحلق على ترك الشعر سـائبا كما يفعل الناس اليـوم . وإنما سبب الناس شعـورهم بتقليـد الافـرنج ، ثم إذا بعضهم يفطن ويفطنهم إلى أن ذلك كـان من عمل العرب .

وكان بدو البجاة عنـدنا ولايزال ذلك دأبهم يتركون شعرهم ينمـو على الرؤوس ويسقونه الدهن .

وقال ابن الطثرية يصف شعره :

فيهلك مـدرى العاج في مـدلهمة إذا لم تفـرج مـات غما صـؤابها

والصؤاب صغار القمل[1].

وكان ثور أخـوه قد عاقبه بحلق رأسـه إذ تعدى مرارا على إبله فنحر منهـا فقال في هذه الكلمة :

فأصبح رأسي كـالصخيرة أشرفت عليهـا عقـاب ثم طـارت عقـابها

وقال الشنفري :

ويـوم من الشعـرى يـذوب لـوابـه أفـــاعيـــه في رمضـــائه تتململ
نصبت لـــه وجهي ولا كـن دونـــه ولاستر إلا الأتحمـــي المرعبـــل
وضـــاف إذا هبت لـــه الـريح طيرت لبـــائد من أطـــرافـــه مـــا تـــرجل
بعيـد بمـس الـدهن والفلي عهـــده لـــه عبس عـــاف مـن الغسل محول

نحر النهار أوله

وحلق الرأس الذي كان يفعله الرجال في أكثر بلاد افريقية تبركا بعمل الحج بالنسبة إلى حـال أكثرهم أصح وأدخل في حـاق النظافـة ، ومن سبب عملا بما كـانت عليه عـادة العرب في غير الحج وجاءت به السنة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان أفرع فوجه الصواب والبركة في ماقصد إليه ظاهـر ومثل هذا لاريب يلتزم بالنظافة التي سن الشرع

---

(١) راجع التياسة عزاء بين الشعراء للمؤلف ص ١٣٥ ـ ١٣٧

وإنما الأعمال بالنيات ، وفي خبر الحديبية ما يشعر بتفضيل الحلق على التقصير في العمرة ثم جعل الله سبحانه وتعالى لهما معا الفضيلة في قوله تعالى : لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون (الفتح) .
وقال الزمخشري من بعد فأخذ في مدح النبي صلى الله عليه وسلم جاعلا الزيارة تتمة لما كان من أداء الفريضة ، وكأن الحاج حين يقصد المدينة يقفو أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ هاجر ، وبعض أهل الفضل والعزم الصحيح يتعمدون سلوك طريق الهجرة يتبركون بذلك :ـ

ومتى تضم قتود رحلي ضامرا ... يهفو به نحو المدينة ضامر

عنى بالضامر الأول نفسه وبالضامر الثاني بعيره

ماض على الظلماء يخبطها إلى ... بلد أضاء به السراج الزاهر
يهوى إلى قبر النبي محمد ... خببا كما زف الظليم النافر

أما يهوى فقرآنية (سورة ابراهيم) وأما "الظليم النافر" فجاهلية ـ وكان ينبغي أن يلتمس تمام البيت بغير قوله «كما زف الظليم النافر» إذ كأنه غير تام الملاءمة لما سبق ، لأن الهوي تناقضه حركة النفار ، فتأمل .

لله ميت بالمدينة قبره ... قصر مشيد والقصور مقابر

المراد من المعنى ظاهر ولكن الاداء قاصر، اذ من القبور ما يبنى كالقصور كتاج محل . ولكن مراده أنه قصر في القلوب والأرواح معمور بالمحبة النابعة من صدق التقوى والإيمان ، ولا معنى للموازنة من بعد إذ شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم من ذلك . ويأبى الزمخشري رحمه الله إلا أن يقحم بعض ما كان يشعر به من تبرم ممن لم يكن عنهم ذا رضا .

لله ميت كل حي لم يكن ... بهداه حيا فهو عظم ناخر

هذا البيت بحمد الله جيد ومعانيه من القرآن ـ قوله تعالى : أوَمَنْ كان ميتا فأحييناه (الانعام) وقوله تعالى(ائذا كنا عظاما نخرة) [النازعات] وقرأ الكسائي "ناخرة" وقال الطبري إنها أعجب القراءتين إليه ، وكان الزمخشري رحمه الله كثير الاتباع للطبري في تفسيره جزاهما الله عن هذا العمل الحميد خيرا .
ثم أخذ الزمخشري بعد هذا البيت الجميل في ذكر معنى قريب من نفسه ، وذلك أنه كان اعرج فلا يقدر على الغزو وكان ذلك زمان جهاد لإبراز الصليبيين أنيابا

عصلا، أخذوا بها بيت المقدس، فما اشبه اليوم بالبارحة، إن الله على كل شيء قدير .

إن لم أنلــــه ولم يكن مني لـــــه بسنـــان رمحي أو لســـاني نـــاصر

يعني إن لم أكن من أهل ذلك الـزمـان فأسعـد بنيل رؤيـاه كما سعد الصحـابـة الأبرار، فأجاهد كما جاهدوا بالسنان واللسان .

فأنـــا النصـــور لـــوحيـــه بـــدلائل وجـــــه اليقين بهن أبلج زاهــــــر

ثم من ههنا رجع إلى أمر نفســه وترك ما كان فيه من المديح، وهـذا اشبه بمذهب القصيدة، إذ كلها مبنيـة على ما عزم عليه من هجرة الأوطـان والمجاورة بالبيت الحرام - غير أن ههنـا التفاتـا من باب التعبـد المحض الـذي كان ينبغي أن يـرومه الى نـوع من مقارعـة الخصوم . وقـد يعتذر له في هـذا بأنه قد استفـاد من ذكر النبي صلى اللـه عليه وسلم نشوة واريحيـة وشجاعة فؤاد، وقد صـدق في هذا الذي ذكره عـن تفسيره وما هو ملحق بالتفسير من علوم اللغة والأدب، أساسه، وفائقه، ومفصله فكل اولئك ذو فوائد جمة تمت إلى فهم التنزيل والسنة بسبب متين .

مـن يلقهـن بفهمـــــــــه فكـأنما في مسمعيـــه الـــوحي غض نـــاضر

غض فيها إشارة إلى قول ابن مسعود رضي الله عنه .

ويهز مـن أملي إذا جـن الـــــدجى أملى كما هـــز الجنـــاح الطـــائر

التشبيه هنا ضعيف البنية غير متناسب مـع ماقبله، وذلك ان الطير لا ترفرف اذا جن الـدجى ولكنها تفعل ذلك عنـد اقتراب الصبـاح وإنما يذكـر من الطير مع الليل البوم وما أشبه مما يكره ان يشبه به المرء نفسه .

والجن من سراء الليل . فأعجب لما روي من قول الآخر :

أتــــوا نـــاري فقلـت منـــون انتم فقــالـوا الجن قلت عمـوا صبـاحـا

في أبيات، والراجح أن يكـون هذا مصنوعا، لان النار لاتـوقد مع الصباح والجن ليليون، وإنما حذي هذا على قول الآخر :

ونـــار قـــد حضأت بعيـــد وهن ... بـــدار لا أريـــد بها مقـــامـــا
ســـــوى تحليل راحلـــــة وعين ... أكـــالئهـــا مخافـــة أن تنـــامـــا
اتـــوا نـــاري فقلت منـــون قـــالـــوا ... سراة الجن قلت عمـــوا ظـــلامـــا
وقلـت الى الطعـــــام فقـــال منهـم ... زعيم نحســـد الإنس الطعـــامـــا

وزعم أهل الكتاب فيما سطروا من كتابهم أن الملائكة أكلت من العجل الحنيذ لما أرسلوا وهم في طريقهم إلى تدمير قوم لوط . فتأمل .

قال الزمخشري :

واللـــه أكـــرم أن يـــرى متجـــردا ... من حلتـي نعماه عبـــد شـــاكـــر

جعلهما حلتين تشبيها بكساء الحج . يدلك على ذلـك قوله "متجردا" ، إذ الحاج يتجرد من المخيط والمحيط :

يـــارب إني أستجيرك في الـــذي ... نطت الـــرجـــاء بـــه وأنت الخائر

هكـذا استجيرك في المطبوعـة ومـا أرى إلا أنـه أستخيرك بالخاء المعجمـة أي أنـا استخيرك وأنت سبحانك تختار لي .

وإليـك أرغب في النهـــوض بهمتي ... حتى أفي بجميـع مـــا أنـــا نـــاذر

وهذا مقطع حسن للقصيـدة ، ومقطعه على قـول من قال إن المقـاطع هي أواخر الأبيات ، أيضا حسن .

وقـريب من زمان الـزمخشري ، سابق لـه إذ هو من رجـالات آخر القـرن الخـامس (توفى سنة ٥٠٧هـ) الأبيوردي الشاعر، الأموي السفياني نسبا وكان يقول في نسب نفسه المعاوي نسبة الى معاوية رحمه الله . وله في المجموعة النبهانية قصيدة جاري بها "بانت سعاد" ، نبويـة ، عمد فيها الى الفاظ ضخام ، ولم يخل من أنفـاس أموية إذ نسب النبي صلى الله عليه وسلم قـرشيا ليدخل بذلك بنو أمية وأجـداده منهم في حيز هذا الشرف ، ولا ريب أنهم كـانـوا في قريش يعـاسيب ، إلا أنهم لم يكـونـوا من أهل البيـت ، إلا أم حبيبة رضي الله عنها وما كان لمعاوية رحمه الله من جهة الصهر ، وقد رام يزيد أن يعتذر عن قتل الحسين صلوات الله عليه ولا عذر له حيث قال :

بيني وبين حسين الله والرحم

ولم يرع لا الرحم ولا الله سبحانه عز وجل فقصمت عنقه وهو في أوج ما كان يظن لنفسه من نصر ـ وأول كلمة الأبيوردي :

خاض الدجى ورواق الليل مسدول ... برق كما اهتز ماضي الحد مصقول
أشيمه وضجيعي صارم خذم ... ومحملي برشاش الدمع مبلول

وصدق من نعت الأبيوردي بأنه صاحب الفاظ لا معان فأول هذا البيت من أبي الطيب وآخره من امريء القيس .

ومن غزلها بعد أن ذكر السير ـ وإنما جاء بالغزل بعد السير لجعله المحبوبة ذكرى وطيفا ـ

واعتاده من سليمي وهي نائية ... ذكر يؤرقه والقلب مبتول
ريا المعاصم ظمأى الخصر لا قصر ... يزري عليها ولا يزرى بها طول
فالوجه ابلج واللبات واضحة ... وفرعها وارد والمتن مجدول
كأنما ريقها والفجر مبتسم ... فيما أظن بصفو الراح معلول

فهذا منهج كعب ، وقال النبهاني في مقدمة مجموعته [1]: «والذي عليه الاكثرون أن التشبيب بمعين غير من يحل له من زوجة أو جارية ، وبغير معين ، جائز لأن المقصود منه تحسين الشعر وترقيقه على عادة الشعراء ، وسماعه جائز أيضا ان لم يفتتن به سامعه بان يهيجه الى المعصية أو يطبقه على من يحرم تمتعه به ، هذا في مطلق الغزل ، وهو في المدائح النبوية غير مستحسن مطلقا ، لأن الغزل ولو في غير معين ، المشتمل على وصف الخدود والقدود والارداف وما أشبه ذلك من اوصاف النساء والغلمان التي من هذا القبيل ، وما يجري للعاشق مع المعشوق من السفاهات والترهات هو مما يأبى ذكره الذوق السليم ، والطبع المستقيم ، في مقدمة قصيدة يمدح بها احد العلماء العاملين ، والأولياء العارفين ، فضلا عن سيد الأنبياء والمرسلين ، وصفوة خلق الله أجمعين ، صلى الله عليه وسلم أما قصيدة "بانت سعاد" التي اتخذها دليلا بعض من سلك هذا المسلك واستحسنه وهو في نفسه غير حسن فهي لا تصلح دليلا لذلك لأن ناظمها كعب بن زهير رضي الله عنه كان قبل اسلامه شاعرا جاهليا.فنظمها على طريقتهم قبل ان يجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم ويسلم على يديه ويعرف اداب الاسلام ، وما ينبغي ان يخاطب به سيد الأنام عليه الصلاة والسلام واقرار النبي صلى الله عليه وسلم له ولغيره على ذلك لعله لهذا السبب وقرب عهدهم بالجاهلية وعوائدها مع علمه صلى الله عليه وسلم انهم لم يقصدوا بغزلهم معينا ، وانما هو شيء جرى على

(١) مقدمة النبهاني ـ الفصل الخامس .

قاعدتهم فلا يترتب عليه محذور ، وحينئذ لا حاجة الى الجواب بان سعاد هي زوجته ابنة عمه وقد طالت غيبته عنها ، لان تشبيب الرجل بزوجته وان كان جائزا الا انه مخل بالمروءة كما هو ظاهر ونقله في الزواجر عن بعض الفقهاء . ولو صدرت منه هذه القصيدة بعد اسلامه واجتماعه بالنبي صلى الله عليه وسلم ومعرفته احكام الدين وآداب المسلمين ، ولزوم كمال التأدب في خطاب سيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ، لربما كانت تصلح ان تكون دليلا لمن سلكوا هذا المسلك ويدل على ما قلته انه رضي الله عنه لم يحصل منه مثل هذا التشبيب بعد اسلامه ولا من احد من شعراء النبي صلى الله عليه وسلم كحسان وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وغيرهم من شعراء الصحابة رضي الله عنهم في مقدمة شعر مدحوا به النبي صلى الله عليه وسلم إلا مع قرب عهدهم بالجاهلية وعوائدها . اما بعد ذلك فلم يرو عن أحد منهم شيء من هذا القبيل . وكيف يكون ذلك وهم أوفر الناس عقولا واعظم الناس ادبا مع الله ورسوله(صلى الله عليه وسلم) وقد قال الله تعالى : «يآيها الذين ءامنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة » أتراهم بعد ان سمعوا هذا يضعون سفاهات الغزل بالنساء واوصافهن المتهجنة موضع الصدقة في مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، حاشاهم ثم حاشاهم ، ونحن مع ما بيننا وبينهم من الفرق العظيم في كل وصف جميل عقلا وشرعا ، ندرك بالبداهة عدم استحسان ذلك . ا . هـ »

وقد حذف الغزل من همزية حسان وأثبت نعت الخمر فلم يجيء من غزله إلا بقوله :

لشعثاء التي قد تيمته ... فليس لقلبه منها شفاء
كأن سبيئة من بيت رأس ... يكون مزاجها عسل وماء
إذا ما الأشربات ذكرن يوما ... فهن لطيب الراح الفداء

ولا يمكن أن يزعم زاعم أنه قال هذه القصيدة وهو حديث عهد بإسلام فقد قيلت في فتح مكة ومسلمو المدينة قد أسلم منهم العدد الصالح على يد أوائل الأنصار من أهل البيعة الأولى كأسعد بن زرارة رضي الله عنه .

ولحسان في ميمية بدر غزل منه قوله :

بنيت على قطن أجم كأنه ... فضلا إذا قعدت مداك رخام

فهذا من نعت الجسم لا يخفى . وفي الأبيات الهمزية قول حسان رضي الله عنه :

كأن سبيئة من بيت رأس ... يكون مزاجها عسل وماء

على أنيـــــابها أو طعـم غـض من التفـــــاح هصره اجتنـــــاء
على فيهـــا إذا مـــــا الليل قلـت كـــواكبـــه ومـــــال بها الغطـــاء

فإن يكن النبي صلى اللـه عليه وسلـم سمع هذه الأبيـات من حسـان رضى الله عنـه فليس بصواب أن نحرم سماعها، إلا أن يكون الشيخ يوسف رحمه الله قد ثبت عنده أنه لم يسمعها الـرسول عليـه الصلاة والسـلام. ويعذل رحمه اللـه إن يكن حذفهـا ليقوي بذلك حجتـه المتقدمة: ولعلـه قرأ الهمزيـة في نسخة ليست هـذه الأبيات فيها ــ قال المعرى في رسالـة الغفـران يخاطب حسـان رضي اللـه عنـه على لسـان ابن القـارح: «ويحك، أما استحييت أن تذكر مثل هذا في مدحتك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقول كان أسجح مما تظنون إلخ»

قـال تعالى جل من قـائل: « فبما رحمة من اللـه لنت لهم ولو كنت فظـا غليظ القلب لانفضوا من حولك»

ونقل النبهاني عن ابن حجة في الفصل الرابع من مقدمته بعد أن مهد بأنه يستحسن لمن يمدح النبي صلى الله عليه وسلم أن يشبب بذكر الديار الحجازية ومعالمها إلخ قال:

«قال العـلامة تقي الـدين بن حجة في خـزانة الأدب في شرح البيت الأول من بـديعيته وهنا فائدة وهو ان الغزل الذي يصدر به المديح النبوي يتعين على الناظم أن يحتشم فيه ويتأدب ويتضاءل ويتشبب مطربـا بذكر سلع ورامة وسفح العقيق والعـذيب والغوير ولعلع وأكناف حاجر ويطرح محاسـن المرد والتغزل في ثقل الردف ورقة الخصر وبياض الساق وحمرة الخد وخضرة العـذار وما أشبه ذلك وقل من يسلك هـذا الطريق من أهل الأدب. ا، هـ

عابوا أبا الطيب لقوله:

إني على شغفي بما في خمرها لأعف عما في سراويلاتها

فقيل ما معناه أى عفاف هذا الذى يذكر السراويلات؟

ولقد أعجب من هذين الفاضلين اذ ينهيان عن ذكر الخدود والقدود والأرداف ولا يخلو كـلامهما من بعض الأنس إلى ذكـر ذلك، ولاسيما ابن حجـة إذ لم يكد يـدع شيئـا من صفة ما يشتهي وتأمل قوله « وبياض الساق وحمرة الخد ».

وأحشم من ذلك، وحق لـه ذلك قول البـاعونيـة: « ويتعين في غزل المديح النبـوي أن يحتشم فيه ويتشبب بـذكر الجهات الحجازية من سلع ورامـة والبان والعلم وذي سلم وما في معنـاها ويطرح ذكـر التغزل في الردف والقـد والخد ونحو ذلك فإن سلـوك هذا

(١) راجع كتـاب التماسة عـزاء ص ٢٢٨ وهامش خـزانة الأدب لابن حجـة طبعة مصر ١٣٠٤ هـ تصوير بيروت ص ٣١٢.

الطريق في المدح النبوي مشعر بقلة الأدب، وحسب العاقل قول الله تعالى: «ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه» ا. هـ

على أن الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله كأن قد رجع عما قطع به من أن الغزل في المدائح النبوية على الوجه الذي نصه، سوء أدب إذ قال في الفصل السادس: «كنت عزمت أن لا أضع في هذه المجموعة شيئا من القصائد التي وقع التشبيب فيها بوصف الولدان والنساء الحسان لئلا أكون شريكا لناظميها فيما يلحقهم من الملام بتغزلهم بما ذكر في مقدمة مديح النبي عليه الصلاة والسلام ثم رأيت ذلك في كثيرمن غر القصائد فلم تسمح نفسي بحرمان المجموعة من ذلك الدر النظيم وحرمان اولئك الأفاضل من هذا المقام الكريم والفضل العظيم بإدخالهم هنا في جملة مداح هذا النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم. ولئن أساءوا رحمهم الله وعفا عنهم من تلك الجهة بعض الاساءة، فقد أحسنوا من جهة مديحهم للنبي صلى الله عليه وسلم كل الإحسان. وقد قال صلى الله عليه وسلم أتبع السيئة الحسنة تمحها. وفي حديث آخر: رفع عن أمتي الخطأ والنسيان. ولا يخلو أمرهم من إحدى هذين.
وعلى كل حال فقد فازوا بأعظم الحسنيين، مع أن مقاصدهم في تغزلهم بتلك الحبيبة وذلك المحبوب لا يطلع عليها إلا علام الغيوب. بل الظاهر المتعين أنهم ليس مرادهم ما يتبادر للأفهام من ذلك الكلام. مع أنا نعلم أن تغزلات الشعراء منذ عهد الجاهلية إلى الآن هي جارية هذا المجرى بدون أن تعاب من أحد من أهل هذه الصنعة بل يعدون ذلك من محاسنها وإنما جاءها العيب الذي شرحناه من جهة رعاية الأدب اللازم مع النبي صلى الله عليه وسلم ولولا ذلك لجاءت على القياس، ولم يكن فيها بأس وقد غلبت عليهم رعاية الصنعة الشعرية فجروا على قاعدتها بدون سوء قصد ولا فساد نية ولذلك رجعت عن عزمي الأول وأدخلتها في هذه المجموعة كغيرها راجيا من الله تعالى ثم من النبي صلى الله عليه وسلم العفو عني وعنهم والقبول مني ومنهم ان الحسنات يذهبن السيئات وإنما الأعمال بالنيات. ا. هـ»

قلت قولنا بعد أبيات الأبيوردي الأربعة فهذا منهج كعب ربما أغنى عن الإطالة، غير أن كلام الشيخ يوسف النبهاني رحمه الله في غاية الأهمية، لما فيه من تقرير قوة الصلة بين القصيدة القديمة وهذه النبوية التى خلفتها، ولا يخفى ما في الرجوع الذي رجعه من سماحة النفس ومن استشعار بركة الأرب الذي من أجله صمم مجموعته النفيسة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم

هذا :

ونقف يسيرا عند قول الأبيوردي رحمة الله عليه :

كأنما ريقها والفجر مبتسم — فيما أظن بصفو الراح معلول

فقوله والفجر مبتسم يشير به إلى المعنى الذي يكرره الشعراء من ذكر طيب رائحة الفم بعد الرقاد عند الفجر والغالب أن تتغير رائحة الفم ائنئذ ـ قال اليشكري يصف ثغر رابعته :

أبيض اللون لذيذا طعمه — طيب الريق إذ الريق خدع

قال الشارح [1] يقال خدع ريقه إذ تغير

وقوله فيما أظن احترس به من ناقدي الغزل وفيه نظر إلى دفاع المعرى عن حسان في رسالة الغفران واستمر يعتذر عن غزله فقال :

صدت ووقرني شيبي فما أربي — صهباء صرف ولا غيداء عطبول ،

وحال دون نسيبي بالدمى مدح — تحبيرها برضا الرحمن موصول ،

أزيرها قرشيا في أسرته — نور ومن راحتيه الخير مأمول ،

هنا مع مجاراة كعب ومحاكاته (نظر إلى «النور يستضاء به» أو « لسيف يستضاء به» وإلى «والعفو عند رسول الله مأمول»)، مع هذا نظر شديد إلى الكميت وأخذ منه .

قوله : وقرني شيبي ، من قول الكميت : ولا لعبا مني وذو الشيب يلعب

وقوله : « فما أربى صهباء صرف ولا غيداء عطبول»

من كلمات الكميت : «طربت وما شوقا ـ ولا لعبا ـ ولم يلهني دار إلخ»

وقول الأبيوردى : «أزيرها قرشيا إلخ»

من قول الكميت :

ولكن إلى أهل الفضائل والنهى — وخير بني حواء والخير يطلب

بني هاشم رهط النبي فإنني — بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب

فجعل الأبيوردى قرشيا مكان قول الكميت بني هاشم ، فهذا ما قدمناه من معنى أمويته .

على أنه رحمه الله قد سار في سائر المدحة على منهج منبىء بأن القصيدة النبوية على زمانه قد ائتلأبت على منهاج واضح : النسيب الرمزى أو ما بمجراه وقد يستغنى عنه ، التخلص إلى مدحه صلى الله عليه وسلم ، الاختتام بالصلاة عليه وذكر أصحابه ...

---

(١) شرح الأنبارى الكبير ص ٣٨٣ .

قال الأبيوردي :

يا خاتم الرسل إن لم تخش بادرتي ... على أعاديك غالتني إذن غول
والنصر باليد مني واللسان معا ... ومن لوى عنك جيدا فهو مخذول
وكل صحبك أهوى فالهدى معهم ... وغرب من أبغض الأخيار مفلول

هذا من الحديث : أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم . ثم خلص إلى الخلفاء الأربعة ومضى على منهج أهل السنة أنهم خير الصحابة أو كما قال اللقاني في الجوهرة :

وخيرهم من ولي الخلافة ... وأمرهم في الفضل كالخلافة

ثم خصص الشيخين بجمعهما معا ومفهوم ضمنا أن أبا بكر رضي الله عنه هو المقدم ، وأحسب أن سبب هذا التخصيص أراد به الطعن في الروافض على وجه من التعريض :

وأقتدي بضجيعيك اقتداء أبي ... كلاهما دم من عاداه مطلول

وهل عنى بقوله «أبي» آبائي أم كان أبوه ذا موقف في هذا الاقتداء عرف به ، فأراد الأبيوردى أن يدل على مكان قدم هذا الاعتقاد عنده؟

ومن كعثمان جودا والسماح له ... عبء على كاهل العلياء محمول
وأين مثل علي في بسالته ... بمأزق من يرده فهو مقتول

أى من مثل علي في الشجاعة وخوض المآزق التي يخاف فيها الهلاك ووارد ها مقتول . الكلمة بلا شك مأزق ميم وألف بهمزة وزاي وميم لا ألف بلا همزة وذال معجمة ، فهذه لا معنى لها . وينظر الأبيوردى إلى قول أبى تمام :

والحرب قائمة في مأزق لحج ... تجثو الكماة به صغرا على الركب

وفي عبارة الأبيوردي على قوة تبدو في صناعة لفظه قصور عن أداء المعنى على تمامه . وآخر القصيدة :

إني لأعذل من لم يصفهم مقة ... والناس صنفان معذور ومعذول
فمن أحبهم نال النجاة بهم ... ومن أبى حبهم فالسيف مسلول

والمعنى المراد حسن إلا أن اللفظ مقصر عنه ، إذ القسمة في كلا البيتين غير صحيحة إذ ليس الناس صنفين : معذور ومعذول ولكن معذور وغير معذور؛ أو معذول وغير معذول فيدخل في (غير معذور) من هو ملوم ومن هو ليس بحاجة أن يعذر إذ لم يقع منه ما يوجب ذلك ، (على أن أكثر ما يستعمل «غير معذور» للدلالة على الملوم ولكن قصدنا إلى معنى القسمة المنطقية الصحيحة .) وهذا أظهر فى معذول وغير معذول إذ يدخل في(غير المعذول) من كان معذورا ومن لم تكن به حاجة لأن يعذر أو نحو ذلك مما يشعر بسبق خطأ أو ذنب .

وقوله فالسيف مسلول لا يقابل (نال النجاة بهم) لأن السيف قد يسل ولا يقع ، والمعنى الصحيح أن من أحبهم نـال النجاة بهم ومن أبى حبهم لم ينل النجاة وكان مصيره الهلاك .

ورحم الله الأبيوردي فقد رام بما صنع سبيل الثواب ، وإنما الأعمال بالنيات ، وهو بعد من أقدم كبار الشعراء فى زمانه ، نظم قصيدة خالصة فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ومدح أصحابه رضى الله عنهم أجمعين .

ويقوى ما ذهبنا إليه من أن مدحة الأبيوردي قد سار بها على نهج قد استقامت عليه بنية القصيدة النبوية ما صنعه المعري وهو أسبق من الأبيوردي فى القطعة اللزومية

دعـاكم إلى خير الأمـور محمـد	وليس العوالى فى القنا كالسـوافل
حـداكم على تعظيم مـن خلق الضحا	وشهب الـدجى من طـالعـات وآفل
وألـزمكم مـا ليس يعجـز حملـه	أخـا الضعف من فـرض لـه ونـوافل
وحـث على تطهير جسـم وملبـس	وعـاقب في قـذف النسـاء الغـوافل
وحـرم خمرا خلت ألبـابَ شربها	من الطيش ألبـابَ النعـام الجوافِلِ
يجرون ثـوب الملك جـر أوانس	لـدى البـدو أذيال الغواني الـروافل
فصلى عليـه اللـه مـا ذر شـارق	ومـا فت مسكـا ذكـره فى المحـافل

هذا البيت الأخير من صميم أسلوب القصيدة النبوية . و ما قبله سار به أبـو العلاء على مذهب الخطباء الوعاظ إذ لا يخلو قوله دعاكم وحداكم و ألزمكم من جفاء ؛ وكان أدخل في المدح لو قال : دعانا ، حدانا ، ألزمنا ، فلم يبد كأنما قصد إلى أن يخرج نفسه . والوجه ما قدمنا أنه ذهب مذهب الخطباء الوعاظ ، وكمذهب أبى العتاهية في نحو :

لـدوا للمـوت وابنـوا للخـراب	فكلكـم يصير إلى ذهـاب

ولكن أبا العتاهية كان نديما داهية يعرف كيف يتأتى إلى القبول لـدى نفوس ملـوكه الـذين يعظهم ــ فسرعان مـا تـرك الخطاب إلى ضمير المتكلمين الجماعـة ثم إلى ضمير المتكلم الواحد :

لمن نبنـى ونحـن إلى تـراب	نصير كما خلقنـا من تـراب
ألا يـا مـوت لم أر منك بـدا	أبيـت فـلا تحيف ولاتحابى
كـأنك قـد هجمت على مشيبى	كما هجـم المشيـب على شبـابى

ويـــا دنيـــاي مـــالى لا أرانـى أســومك منـــزلا إلا نبـــابى

وعلى كثرة مـا يبدأ بحمد اللـه وبسبحان الله لا تجد أبا العتـاهية يذكـر النبي صلى الله عليه وسلم أو يصلى عليه بعد أن بدأ بالحمدلة

قصيدته ذات الأمثال بدأها بالحمد فبلغ به تسعة أبيات فيما بلغنا منها :

الحمـــد للــــه على تقـــديـــره وحسـن مـــاصرف من أمـــوره

الحمـــد للــــه بحسـن صنعـــه شكـــرا على إعطـــائه ومنعـــه

يخير للعبـــد وإن لم يشكـــره ويستر الجهـل على مـن يظهـــره

خـــوف مـن يجهل مـن عقـــابـــه وأطمـع العـــامل في ثـــوابـــه

وأنجـــد الحجـــة بـــالإرســـال إليهـــــم فى الأزمــــن الخوالي

نستعصـم اللــــه فخير عـــاصم قـــد يسعـــد المظلـــوم ظلم الظـــالم

فضلنـــا بـــالعقـل والتـــدبير وعلـم مـــا يـأتـى من الأمـــور

يـــا خير من يـدعى لـدى الشـدائد ومن لـــه الشكـــر مـع المحـــامـــد

أنـت إلهى وبـك التـــــوفيـق والـــوعـــد يبـــدى نـــوره التحقيق

ثم يجيء بعد :

حسبك ممـــا تبتغيـــه القـــوت مـــا أكثـــر القـــوت لمن يمـــوت

إن كـــان لايغنيـك مـــا يكفيكـــا فكـل مـــا فى الأرض لايغنيكـــا

الفقـــر فيما جـــاوز الكفـــافـــا من عـــرف اللــــه رجـــا وخـــافـــا

ولو صلى على رسول الله صلى اللـه عليه وسلم بعد الحمدلة لكان ذلـك لكلامه زينا .
وقوله وإن لم يشكـره مذهب في العربية جيد، أى لم يشكـره بسكون الراء وضم الهاء ثم نقل ضمة الهاء إلى الراء ومن شواهد سيبويه :

عجبت والـــدهـــر كثير عجبـــه مـن عنـــزى سبنـي لم أضربـــه

وقوله :

فضلنا بالعقل والتدبير وعلم ما يأتي من الأمور

عجزه فيه نظر، إذ المعنى مقبول إن أراد به التفكر فى العواقب وليس التفكر في العواقب علما بالغيب وإن اتفق فيه الحدس الصائب أحيانا ، إذا لا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى .

فهذا موضع مأخذ على قول أبي العتاهية :ـ

وعلم ما يأتي من الأمور

وموضوع آخر قوله :

وأنجد الحجة بالإرسال   عليهم في الأزمن الخوالي

كان عليه أن يتبع ذلك ما منَّ الله به على خلقه أجمعين وعلينا نحن معشر المسلمين خاصة من إتمام نعمته بإرساله بعد تلك الأزمن الخوالي سيدنا محمدا على فترة من الرسل ، هاديا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، صلى الله عليه وسلم تسليما .

هذا ومن قديم المدح و أنضجه ويقوى ما قدمناه ذكره اللامية الشقراطيسية أوردها النبهاني في ص١٣٨ في قافية اللام(المجلد الثالث) وهي من مائة وخمسة وثلاثين بيتا

رصينة السبك صريحة في المدح النبوية عميقة الفهم للسيرة ، كثيرة البديع والشقراطيسي المغربي من رجال الخامس الهجري توفي سنة٤٩٦هـ. وقد أورد هذه اللامية أيضا صاحب المنهاج الواضح[١] في آخره ، ومطلعها :

الحمد لله منا باعث الرسل   هدى بأحمد منا أحمد السبل

خير البرية من بدو و من حضر   وأكرم الخلق من حاف ومنتعل

توراة موسى أتت عنه فصدقها   إنجيل عيسى بحق غير مفتعل

وقد أفاض مادحو الرسول صلى الله عليه وسلم من بعد في أمر البشارة ومن أوسعهم وأجودهم قولا في ذلك الامام البوصيري رحمه الله .

أخبار أحبار أهل الكتب قد وردت   بما رأوا ورووا في الأعصر الأول

ثم ذكر خبر المولد النبوي والمعجزات ثم ذكر المعراج فمما قال فيه :

عرجت تخترق السبع الطباق إلى   مقام زلفى كريم قمت فيه على

وفي القافية هنا جهد ما وقل مثل ذلك في هذه القصيدة

ومما قال في قتلى بدر:

غادرت جهل أبى جهل بمجهلة   وشاب شيبة قبل الموت من وجل

---

(١) المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح ألفه أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن أحمد بن محمد صالح بن نيصارت الماجرى المغربي طبع مصر ١٣٥٢ هـ ـ ١٩٥٢م.

لأنه لقي حمزة أسد الله وسيد الشهداء رضي الله عنه

وعتبــة الشرك لم يعتب فتعطفــه   منك العـــواطف قبل الحين في مهل
وعقبــة الغمـر عقبــاه لشقــوتــه   أن ظل من غمــرات الموت في ظلل

أي عقبة بن أبي معيط ووصفه بالغمر جيد بالغ والغمر الذي لا تجربة له ومن أهل الطيش لذلك.

وآخر القصيدة قوله:

وصل رب وواصل كل صـــالحة   على صفيك في الإصبـــاح والأصل
عليــه صل صــلاة لا انقطــاع لها   عد الحصى وعـديد الرمل ثم صل
واحفظ على القلب مني حسن خلتـه   واغفـر لعبـدك عبـد اللـه وابن علي

فهو أبو محمد عبد الله بن علي أبي زكريا الشقراطيسي المغربي رحمه الله.

يدخل في باب طور التمهيد الذي صارت بعده مدحة الرسول صلى الله عليه وسلم هي القصيدة الحقة ومادحه صلى الله عليه وسلم هو الشاعر الحق ما جعل بعض مداحه عليه الصلاة والسلام يفتنون فيه من البديع. مع العلم بأن افتنانهم هذا قد جاء بعد أن قطع البديع أشواطا من فرط التكلف والتصنيع نجد لديهم من الأريحية إلى ما يفتنون فيه ما يذكرنا بنشوة البديعيين الأوائل. ولا ريب أن مرد ذلك إلى روح التعبد وسماحة النفس فيه ببذل الجهد التماسا للأجر.

فمن ذلك صنيع الوزير أبي زيد الفازازي الأندلسي من رجال أوائل القرن السابع الهجري صاحب العشرينيات، وهي قصائد من عشرين بيتا كل منها، نظمها على حروف المعجم، يبدأ البيت بالحرف ويختمه به، فهو مطلع البيت ومقطعه ـ مثلا من الكلمة التي اختارها له النبهاني في المجموعة:

سلام كعرف الروض أخضله الندى   على خير مخلوق من الجن والإنس
سليل خليل اللـه خاتم رسلـه   وفي الختم منع للزيادة في الطرس
سبوق بلا أين قريب بلا مدى   عليم بلا خط حفيظ بلا درس
سري المزايا طاهر البأس والندى   كريم السجايا طاهر الجسم والنفس
سريرته والجهر نور وحكمة   وقد سبق التطهير للقلب في الحس

يعني خبر شق الصدر كما في حديث المعراج وحديث أيامه صلى الله عليه وسلم عند حليمة السعدية

سرى نحو مولاه وجبريل صاحب فناهيك من قدسين في حضرة القدس

وذكر النبهاني في مقدمته لهذه القصيدة أنه أي الفازازي أنشأ ديوانه سنة ٦٠٤هـ وحدث به في الحرم المكي سنة ٦٢٤هـ ـ فذلك قبل سقوط بغداد كما ترى.

قال النبهاني في مقدمته في الفصل السابع: «اعلم أن مداح النبي صلى الله عليه وسلم في كل عصر ومصر كثيرون لا يحصيهم عد، ولا يحيط بهم حد ولو جمعت مدائح أهل عصر واحد منهم لبلغت عدة مجلدات، وكثير منهم نظموا في ذلك دواوين على أنحاء مختلفة وبعضهم التزم في شعره أمورا لا تلزمه كالوتري والطرائفي والفازازي ومن تبعهم كالشهاب أحمد المنيني الشامي فقد نظموها عشرات وعشرينيات على حروف المعجم والتزموا أن يكون أول حرف في كل بيت كحرف القافية وبعضهم جعل جميع القصيدة حروفا مهملة والبعض جعلها على عدة قواف وغير ذلك من تفننات الشعراء فجاءت قصائدهم في الغالب غير سالمة من وصمة التكلف» ا. هـ.

والوتري من رجال القرن السابع في النصف الثاني منه وتأريخ وفاته لعله سنة ٦٦٢هـ (الذي في وترياته المطبوعة بالدار البيضاء ٦٦٢هـ وأغلب الظن أن هذا مراد لتقرأ المثين فيه من جهة اليمين) وفي المجموعة النبهانية أنه أكمل نظم وترياته بالأندلس سنة ٦٥٢هـ واكملها تهذيبا بمصر سنة ٦٦١هـ وإنما سميت الوتريات لأنه زاد على عدد الفازازي واحدا فجعل كل قصيدة من واحد وعشرين بيتا وبهذا التوتير سمي الوتري وهو مجد الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الواعظ البغدادي. وقد أورد النبهاني وترياته كلها في مجموعته مع ما فيها من ظاء وشين وغين في القوافي ـ قال: «قال وقد ظهر لي الآن أن أذكرها جميعها لقوله في خطبتها أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم بعد فراغه منها وهي في يده الشريفة ومعه جماعة من أصحابه عرف منهم أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال فلما رآني قام إلى ضاحكا مستبشرا إلخ ما قاله في ص٢٨٧ من الجزء الأول من المجموعة. وهي تسع وعشرون قصيدة جعل فيها لام الألف قافية وكان حقه أن يجعلها مقصورة وقد تنبه الشيخ النبهاني لهذا، وله بعد وجه إذ مراده إظهار مكان الألف التي ليست بهمزة ولو كان قد جعلها ألفا مقصورة لسلمت من أن يلتبس أمرها باللاميات وهي التي أولها[1]:

(١) طبعة دار الفكر، الدار البيضاء غير مؤرخة ص٣١.

لأحمد فضل لا يعـــــد ولا يحصى ومن ذا يعـد القطر أو يحصر الـرملا
لأعظم رسل اللـــه قـــدرا ومنـــزلا وأوفـــاهم عـــزا وأعـــلاهم فضـــلا

ومن أشهر الوتـريات، ما كان ينشـده المداح عندنا إلى زمان غير جـد بعيد سينيته التي أولها[1]:

ســـــلام ســـــلام لايحد انتشـــــاره على من لــه نـور يـزيـد على الشمس
سلـوا زمـرة الأمـلاك عـن عـرس أحمد وكيف جلـــوه في السماء على الكـرسي
سماء وأفــلاكــا وحجبــا يجوزهــا ومـا زال حتى بـاشر العـرش بـاللمس
سرى وسما يبغـى السمـــو على السما فأكــرم بـالإيحاء في حضرة القـــدس
سليل خليـل اللــه للــه قــد دنــا وخص من الـــرحمن مـولاه بــالأنس
سقـــاه بكأس الـــوحي فـــوق سمائه فســـاد على الأمـــلاك والجن والإنس
سعـــادتنـــا إذ رد بـــالبشر راجعـــا ومن بعـد خمسين الصـلاة إلى الخمس
سماويـــــة أمست فضـــائل أحمد فـــواللـــه مـــا تحصى بحفظ ولا درس

وفي كتاب أزهار الـرياض في أخبار عياض للمقري رحمه اللـه كلمات عدد ملتزم فيها ما لا يلزم على طريقة المعري، نظمن في التبرك بمثال نعله عليه الصلاة و السلام، وكان شكل المثال ربما رسم وتبرك به على نحو من كتابة التمائم والمعوذات.

ومن أقرب المهملات من المنظومات عهدا:

ألا واصل الله السلام المرددا

من نظم العلامـة الفاهـاشم الفلاتي من رجـال النصف الأول من القرن المنصرم (الهجـري) وشطرهـا الشيخ ولـد الشيخ الطاهـر المجـذوب رحمهم الله أجمعين فصـار المطلع المشطر:

ألا واصـل اللـــــه الســـــلام المرددا لأكـــرم رسل اللـــه طـــرا وأسعـــدا

وقد خلص اسلوب النظم على حروف المعجم من الفصيحـة إلى الدارجة فاقتدى بديعيوها بمشابه منه، مثل كلمة المادح:

يـــــانــــاس لنصـل على نبينـــا كـــونـــه علينـــا اشفق مـن أبينـــا

---

(1) نفسه ص٢٧ واعتمدنا على النبهانية الجزء الثاني ص٢٦٢.

بـــالألف ابتــــدينـــا ومـــا غبينـــا وهلم جرا

ومن أغرب أنواع الالتزام صنيع ابن جـابر الأندلسي في رائية نسجها على روي أبي قردودة :

يـــا جفنـة كإزاء الحوض قـــد هـدمـوا ومنطقـــا مثل وشي اليمنـــة الحبرة

فجاء فيها بسور القرآن تباعا، قال في أولها :

في كـل فـــاتحة للقـــــول معتبرة حق الثنـــاء على المبعـوث بـــالبقـــرة
في آل عمـران قـدمـــا شـاع مبعثـه رجـالهم والنسـاء استـوضحـوا خبره
قـــد مـد للنـــاس من نعماه مـــائدة عمت فليست على الأنعـــام مقتصرة
أعـــراف نعماه مـــا حل الـــرجـاء بها إلا وأنفـــــال ذلـك الجود مبتـــــدرة
بـــه تـــوسـل إذ نـــادى بتـــوبتـــه في البحـــر يـــونس والظلماء معتكـــرة
هـــود ويـوسـف كم خـــوف بـــه أمنـــا ولن يـــروع صـوت الـــرعـد من ذكـــره
مضمـــون دعـــوة إبـــراهيم كـــان وفي بيت الإلـــه وفي الحجـــر التمس أثـــره

وهكذا حتى يقول :

والكـــافـرون إذا جـــاء الـورى طـــردوا عن حـــوضــه فلقـــد تبت يـد الكفـــرة
إخـــلاص أمـــداحـــه شغلي فكم فلق للصبح أسمعت فيـه النـــاس مفتخـــره
أزكي صـــلاتي على الهادي وعترتـــــه وصحبـــــه وخصـــوصـــا منهم العشرة
صـــديقهم عمـــر الفـــاروق أحـــزمهم عثمان ثـم علي مهلـك الفجــــــــرة

وهكذا. وكـان ابن جابر (توفى سنـة ٧٨٠هـ) مولعـا بالبديع والتزام مـا لا يلزم مفتنا في ذلك وله المقصورة التي التزم فيها قبل الألف حروف المعجم أولها :

بــــادر قلبي للهـــــوى ومـــــا أرتأى لما رأى من حسنهـــــا مـــا قـــد رأى

ثم بعد عشرة أبيات انتقـل إلى الباء بعدها الألف اللينة ثـم إلى التاء وهكذا حتى استوفى حـروف المعجم الثمانية والعشرين فبقى له التاسع والعشرون وهـو الألف اللينة ولا تستطاع قبل مثلهـا فجاء بلام الألف جـريا على عادة تعليم الهجـاء، ليست ألفها ألف إطلاق ولكن ألف لين هكذا :

والآن قد أكملتها في مدحه مقصورة يقصر عنها من خلا

ثم بعد أربعة أبيات من هذا الضرب جاء بتسعة قبل الألف فيهن راء ثم بسبعة قبل الألف فيهن دال .

وفي المقصورة أبيات حسان، وهي طويلة تدل على تمكن من اللغة واقتدار على النظم، وقد فخر في أوائلها فقال وذكر شوقه إلى وطنه :

لولا اشتياقي لديار كرمت لبعدها يرثى لنا من قد رثى
ومدح من أرجو بأمداحي له إصلاح ما قد عاث منى وعثى

عنى الرسول عليه الصلاة والسلام :

لم أجعل الشعر لنفسى خلة ولم يجش فكرى به ولا غثا
ياضيعة الألباب في دهر غدا فيه فتيت المسك يعلوه الخثى

أى بعر البقر - ثم يقول :

أنا الفتى لا يطبينى طمع فأبذل الوجه لنيل يرتجى
لا أسأل النذل ولو أنى به أملك ما حاز النهار والدجى
حسبي بنو عبد مناف بهم يغنى من استغنى وينجو من نجا

فإن يكن عنى ببني عبد مناف آل البيت فيجوز أن يكون مراده بني هاشم وبني المطلب، على أنه لو قال بنو هاشم و يمكن أن يستقيم بذلك الوزن كأن يقول مثلا "إذهم بهم" لفهم أن بنى المطلب متضمنون فيهم، وإن يكن عنى كل بنى عبد مناف فقد دخل فيهم بنو أمية، ولعله كان لهم بحكم أندلسيته ذا هوى -

ومما فيه أنفاس أندلسية قوله في مقدمة النسيب :

يارب ليل قد تعاطينا به حديث أنس مثل أزهار الربا
في روضة تعانقت أغصانها إذ واصلت ما بينها ريح الصبا
نادمت فيها من بنى الحسن رشا يصبو له من لم يكن قط صبا
أيام كان العيش غضا حسنه عذب الجنى ريان من ماء الصبا
أي زمان ومحل للمنى ما ضاق مغناه بنا ولا نبا

ومن جيد مدحه للمصطفى عليه الصلاة والسلام :

صلى عليك الله يامن جاهه يوم الحساب ملجأ لمن عصى
يامن جرى من كفه الماء ومن حن له الجذع وسبح الحصى

وقوله :

إن يقض يعـــدل أو متـى يسأل يهب وإن يقل يصـــدق وان يعـــد وفى
مـــا لي لا أضفى لــــه المدح وقـــد أضحى بــه الحق علينــا قــد ضفــا

ومما فخر به فى مقدمة القصيدة :

أنـــا الفتى لا يطبينى مطمـع فأبـــذل الــوجــه لنيل يــــرتجى

فهذا فى معنى ما قدمناه من أن أصحاب الملكات الجيدة أحسوا كساد سوق التكسب بالمدح فانصرفت همم كثير ممن هدى الله منهم إلى التماس الأجر عند الله بمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان مما حثهم وقوى عزمهم فى هذا الباب داعي الجهاد الذي كان يدعوهم ليذودوا عن دار الإسلام بالمال والأنفس والسنان والبيان، إذ قد أحدق بها فى المشرق والمغرب بأس أعدائها من الصليبيين وغيرهم من الكفرة، فكانت القصيدة النبوية مما تستثار به الهمم وتعزى به النفوس، وتنشرح لنشيده الصدور، وتعرف بوجوه بلاغته وجوه بلاغة الكتاب العزيز، وذلك من أهم ما حباه الله عز وجل من أسباب حفظه. «والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.»

طور النضج

وصلت القصيدة النبوية أوجها ونضجها على أيدي جماعة من مداح الرسول عليه الصلاة والسلام كانوا شعراء مطبوعين لهم فى الشعر باع طويل، ومع ذلك انصرفوا بقوى ملكاتهم كلها إلى تجويد المدح النبوي دون غيره من سائر أغراض الشعر يدفعهم إلى ذلك حب عميق لرسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرة على الدين الحنيف إذ دعاهم داعي الجهاد وتيسير من الله سبحانه وتعالى وتوفيق (١).

الوترى والفازازى وابن جابر ومن سلك سبيلهم يمثلون جانب البديع واللزوميات من مداح الرسول عليه الصلاة والسلام. والزمخشرى وأبو حيان والفيروز آبادى يمثلون جانب العلماء الغالب على منهجهم أسلوب العلماء من مداح الرسول عليه الصلاة والسلام. وهؤلاء قد تصفو ديباجة أساليبهم حينا ولكن الغالب عليهم نظم العلماء وقد مرت بك أمثلة ذلك في أبيات من لامية الفيروز آبادي وغيره ومما لا بأس بالاستشهاد به فى هذا المجرى دالية الحافظ ابن حجر التى أولها :

يـــاسعـــد لــو كنت امــرأ مسعــودا مـــا كــان صبرى فى النـــوى مفقــودا
وسهـــرت أرتقـب النجـــوم كـأننى فى الأفـق أطلب للحبيـب عهـــودا

---

(١) ينبغي أن ننبه هنا على مكان الوزير ابن أبى الخصال الأندلسى (٤٦٥ ـ ٥٤٠هـ) بين كبار مداح الرسول صلى الله عليه وسلم وقد نوقشت بآخرة رسالة عنه بجامعة سيدى محمد بن عبدالله بفاس تدل على أن بخزانة القرويين من شعره مجموعة صالحة.

فإنه خلص فى اخرها إلى باب تعليمى محض حيث قال بعد ذكره الآل والصحابة رضى الله عنهم والإشارة إلى تابعيهم بإحسان :

من كل حبر تابع سنن الهدى ولى على أثر الهداة حميدا
مثل البخارى ثم مسلم الذى يتلوه فى العليا أبو داودا
فاقت تصانيف الكبار بجمعه الـ أحكام فيها يبذل المجهودا
قد كان أقوى ما رأى في بابه يأتى به ويحرر التجويدا

فهذا فصل في علوم الحديث ونقدها كما ترى .

وقد نظم الوزير ابن الحكيم وابن زمرك تلميذ ابن الخطيب وعدوه الموقع به من بعد وابن خلدون صاحب التأريخ والجاه الديواني بالمشرق والمغرب ولسان الدين بن الخطيب وغيرهما من أهل الجاه ووزراء الملوك ومن بمنزلتهم في المدح النبوي تبركا وتعبدا وتقوى أو تزينا بذلك وتقية كل من وجهته التى هو موليها بحسب النية التى كان ينويها . وقد كان ابن خلدون رحمه الله شاعرا لطيف الديباجة والبائية التى أوردها له النبهاني من الكلام الحسن ، مطلعها :

أسرفن في هجرى وفي تعذيبى وأطلن موقف عبرتى ونحيبى
وأبين يوم البين وقفة ساعة لوداع مشغوف الفؤاد كئيب

وهي تسعة وثلاثون بيتا أربعة عشر منها في مقدمة النسيب فيها وشى من بديع كقوله :

غربت ركائبهم ودمعى سافح فشرقت بعدهم بماء غروبي

فهذا من قول البحترى « بالأمس تغرب من جوانب غرب» وأحسبه على بائية البحترى«كم بالكثيب من اعتراض كثيب» حذا قوله ههنا .

كقوله : يستعذب الصب الملام وإننى ماء الملام لدي غير شريب

والقافية قلقة وأول الكلام يشير به إلى قول حبيب :

لا تسقنى ماء الملام فإننى صب قد استعذبت ماء بكائى

وماء البكاء ذو ملوحة ونسج أبي تمام دقيق

ما هاجني طرب ولا اعتاد الجوى | لولا تذكر منزل وحبيب

يشير إلى «قفا نبك» ـ

ويقول في المدح :

ياسيد الرسل الكرام ضراعة	تقضي مني نفسي وتذهب حوبي
عاقت ذنوبي عن جنابك والمنى	فيها تعللني بكل كذوب
هب لي شفاعتك التي أرجو بها	صفحا جميلا عن قبيح ذنوبي
إن النجاة وإن أتيحت لامرىء	فبفضل جاهك ليس بالتشبيب

هل يعتذر بهذا عن تشبيبه في أول هذه القصيدة أو عن سائر ما اعتاده الشعراء من البدء بالتشبيب؟ أحسب هذا أشبه بما كان يغلب على ابن خلدون رحمه الله من التأمل الناقد، وقد بسط من ذلك في مقدمته ما بسط

إني دعوتك واثقا بإجابتي	ياخير مدعو وخير مجيب
قصرت في مدحي فإن يك طيبا	فبما لذكرك من أريج الطيب

كان لسان الدين بن الخطيب [1] وابن خلدون متعاصرين، وكأن قد كان بينهما من أشياء الغيرة وهنواتها ما يكون بين المتنافسين غير أن ابن الخطيب كان أعمق بحراً في فنون البلاغة والشعر، وهو صاحب التوشيح المشهور:

جادك الغيث إذا الغيث همى	يازمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما	في الكرى أو خلسة المختلس

وقد كان، مع كونه من أهل الوزارة والكتابة والتصنيف في مختلف العلوم والفنون، من أدخل هؤلاء في حاق زمرة جماعة مداح الرسول صلى الله عليه وسلم الذين خلصوا بذوات أنفسهم إليه، جيد المذهب فيه، ومن جياد مدائحه، وذكر النبهاني أنها لم

(١) توفي ابن الخطيب سنة ٧٧٦هـ وابن خلدون سنة ٨٠٦ هـ وابن الحكيم الرندي كانت وفاته في أوائل القرن الثامن وزار المدينة سنة ٦٨٤ هـ وكانت وفاته قتيلا رحمه الله وقتل معه شاعره ابن خميس التلمساني رحمه الله.

يوردها صاحب نفح الطيب :

تـــرك العـــرارة والكثيب شمالا وحـــدا إلى ذات اليمين ومـــالا
ودعـاه داعي العـز فـابتـدر الفـلا سعيـا لـدعـوتـه وخـاض الآلا
يتخير المرعـى ويفترع الـــربـى ويجر أذيـــال الـــوشيج طـــوالا
حتى تـــوسـد أبـــرد الظل الـــذي كنـف العفـــاة وأحسب الآمـــالا

أى أعطاها كفايتها ثم يقول :

من مبلـغ قـــومي على بعـــد المدى والبين بينهـم وبينى حـــــالا
أنى قطعـت البحـر للبحـــر الـــذى أغنى وأقنى واجتبى وأنـــالا
فإذا نفضت جـــوانحى عـن مطمع لم ألـــف للطمـــع المخـــل مجالا
إلا رضـا اللـه الـذى هـــو غـايـة لأولى النهى سبحـــانـــه وتعـــالى

ثم يقول في لوم النفس وروم سبيل الحج والزيارة:

كم مـــركب أنضيت في طلب الهوى وظـــلام مسعى تهت فيـــه ضـــلالا
وقفت بـــه قـــدمي على نـــدمى أسى مـن رام غير اللـــــــه رام محالا
إن ســـامحت بنعم ونعمـى همتـى غـــارت بي الـــدنيـــا فقـــالت لالا
همـــا بشمطـــاء المفـــارق لم تـــزل خـــرقـــاء تخلـط بـــالنفـــار دلالا

عنى بالشمطاء الدنيا . وفى خرقاء نوع من إشارة إلى صاحبة ذى الرمة التي قال فيها :

تمام الحج أن تقـف المطـــايـــا على خـــرقـــاء واضعـــة اللثـــام

وقوله «تخلط بالنفار دلالا» دل به على أنها غير خـرقاء في فتنة ذوي الألباب حتى تعزب بهم عنها أو كما قال :

غطى على الألبـاب منـــا سحـرهـــا فنـرى الحقيقـة في الـوجـود خيـالا

ولابن الخطيب أحيـانا ولـع بعبارات الفلسفـة والمنطق ، فـربما كدر ذلك بعض صفـاء ديباجتـه شيئا وقـد يعلم القارىء الكريم أصلحـه الله طعن ابن خلـدون على تعاطى مـذاهب الفلاسفـة في الشعر حتى لم يعف من نقـد بها قـاله أبـا الطيب المتنبى بله أبـا العلاء فهل ضمن مقاله في ذلك بعض التعريض بابن الخطيب؟

يـاليت شعـرى هـل أرى متـوسـدا ... كـومـاء تخبط سبسبـا ورمـالا
من كل حـاليـة الطلى تفـرى الفـلا ... ظلمان جـو مـا عـرفن كـلالا
صـارت قسيا بـالضمـور وفـوقهـا ... أنضـاء صيرهـا النحـول نبـالا

مـا أرى إلا أنه (وفـوقها الأنضـاء) إذ ليس هذا ممـا يمنع من الصرف ويناسب مكـان الألف واللام هنا مكانهما من قوله (بالضمور)

مـا زلن في تعب وشـدة لـوعـة ... حتـى بلغن بنـا النبي فـزالا

ثم أخذ فى مدحه عليه الصلاة والسلام فقال :

خير الأنـام ومعـدن النـور الـذي ... نسخ الضـلالـة بـالهدى وأزالا
وغيـاث أهل الأرض يفـرج عنهم ... ربق الـذنـوب ويـرفع الأغـلالا
وطبيـب أدواء النفـوس إذا شكـت ... داء يعـز على النفـوس عضـالا
يـا من إذا ركـض الجواد بمـدحـه ... ملء الأعنـة لا يقـال تغـالى
يـا من مـلائكـة السماء بـه اقتـدت ... هـديـا وصلـت خلفـه أرسـالا
إني وصلت بجـاهـك الأحمى يـدي ... وتخذت حبـك عـروة وثمالا
أنت العـزيـز حقيقـة وبضـاعتى ... قـد أملت أن تـوفي المكيـالا
حـاشـا جـلالك أن تخيب قـاصـدا ... حـاشـا نـوالـك أن تـرد سـؤالا
وعليك يـا خير الأنـام تحيـة ... كـالـروض صـافـح عـارضـا هطـالا
تختص أربعـك المعطـرة الشـذى ... والصحـب والملأ الـرضـى والآلا

ثم ذكـر الخلفاء الأربعـة وأعانتـه الملكة الجيـدة وانـدفاعـة صدق الإيقـاع فأتقن نظم أسمائهم مع ما يناسب من حسن ثنائهم :

وعلى أبي بكـر خليفتـك الـذي ... كشف الخطـوب ودافـع الأهـوالا
وعلى أبي حفص خليفتـه الـذي ... فتـح الفتـوح ونفـل الأنفـالا
وعلى أبي عمـرو بـن عفـان الـذي ... أغـرى بجيش العسرة الأمـوالا
وعلى على خير مـن صرع العـدا ... يبغى رضـاك وجنـدل الأبطـالا
مـا فجـر الفجـر النهـار فخلتـه ... نهرا على مـرج الـدجنـة سـالا
مـا لاح إصبـاح وأشرق كـوكب ... وتعـاقبت ريـح صبـا وشمالا
مـا غـردت ورقـاء حتى أطـربت ... ألحانها غصـن الـريـاض فمالا

لعلك فطنت إلى نفس طبيعة الأندلس ههنا

يـــا هل يبلغنى السرى أم القـــرى	فـأهل مـن ميقـــاتها إهـــلالا
لعقيلـــة الـــدين التـي قـــد أطلعت	من مسكـــة الحجـــر المقبـل خـــالا

يعنى الكعبة، فجعل الحجر كأنـه بخدها وهي عقيلة كريمة، خـال ـ وقد كان الخال مما يستحسن في خدود البيض الملاح

للـــه مـن حلل تشـــوق وأربـع	تهدي بطيب نسيمهـــا الضـــلالا
مـا استنشقت نفحـات هبـات الصبـا	إلا لأن جـــرت بها الأذيـــالا
طـابت معـاهـدهـا بأكـرم مـرسل	فـــاق الأنـــام شمائلا وخـــلالا
صلى عليـه اللـــه مـا ذكـــر اسمـه	فجـلا السنـا وكسـا الـوجـود جمالا

فهذه كما ترى ديباجة جزلة عليها من البديع رونق، مع حرارة نفس ونصوع بيان وجودة رنين.

ويذكر عن أحد أمراء الافرنج الإسبـان أنه عجب من سادة المسلمين كيف أقدموا على قتل ابن الخطيب مع فضلـه الباهر وبيـانه السـاحر؟ وقد كـان رحمه الله من أخـريات إشراقات الأندلس، ومن أشدها وهج ضياء، وفخراً لغرناطة ما أحسبها أخرجت بعده من يضاهيه أو يدانيه، وما كان ابن زمـرك على تجويده لصناعته إلا انعكاسة ضوء لمحة من بارقه ـ تأمل مثلا قوله:

إليك رســول اللـــه دعـــوة نـــازح	خفـــوق الحشـــا رهـن المدامع هيمان
غـــريب بأقصى الغـــرب قيـد خطـوه	شبـــاب تقضى في مـــراح وخسران
يجد اشتيـــاقـــا للعقيـق وبـــانـــه	ويصبـو إليـــه مـا استجـد الجديـدان

فهذا يحاكي فيه ابن الخطيب، وليس فيه نفحات صدقه. وله همزية جارى بها:

أرج النسيـم سرى مـن الــــــزوراء	سحـــرا فـأحيـــا ميت الأحيـــاء
أهـــدى لنـــا أرواح نجـد عـــرفـه	فـــالجو منـــه معنبر الأرجـــاء

وكان أمر ابن الفارض آنئذ معروفا، وعنـدى أن شعر ابن الفارض وسط إلا ما ندر وفيه بعد نظـر، ثم ليس فيه من المديح النبوي شيء ومن عجب الأمـر أن الجزالة إنما تعطى

قيادها مع المديح وما بمجراه فتأمل. وقد يجوز أن يكون ابن زمرك نظر إلى ما ثم من همزيات مجرورة الروي قديمة ككلمة حبيب:

قدك اتئب أربيت في الغلواء كم تعذلون وأنتم سجرائي

ومهما يكن من ذلك فإنه ما جاوز نهجا خطابيا قليل الرونق، أشبه شيء بمنظومات المناسبات التي لا يكون لها قوة تأثير بعد مناسبتها الأولى. ومطلعها:

زار الخيال بأيمن الزوراء فجلا سناه غياهب الظلماء

وأكثر أبيات القصيدة على غرار هذا المطلع لا تكون أجود منه ان لم تكن دونه.
وللسان الدين بن الخطيب شعر نبوي قاله على لسان سلطانه ملك غرناطة الغني بالله من بني الأحمر محمد بن سلطان بن الحجاج ربما ضمنه من خاص شعوره وصدق محبته مع الذي اعتذر به على لسان سيده من التقصير عن قضاء واجب زيارة القبر الشريف بما كان يعدوه من واجب المرابطة وجهاد العدو، وإنما قصد لسان الدين وسلطانه إلى وجه من الاستغاثة بالرسول صلى الله عليه وسلم. من ذلك بائيته التي مطلعها:

دعاك بأقصى المغربين غريب وأنت على بعد المزار قريب

والضمير يخاطب به رسول الله صلى الله عليه وسلم والمستغيث هو لسان الدين على لسان سلطانه كما تقدم وجلي أيضا أنه مستغيث بلسان نفسه أيضا:

مدل بأسباب الرجاء وطرفه غضيض على حكم الحياء مريب
يكلف قرص البدر حمل تحية إذا ما هوى والشمس حين تغيب
لترجع من تلك المعالم غدوة وقد ذاع من رد التحية طيب
ويستودع الريح الشمالى شمائلا من الحب لم يعلم بهن رقيب

لعلها الشمال بفتح الشين وهو أشبه من أن تقع في بيته شبه ضرورة إذ حق الياء هنا ظهور الفتحة عليها. وفي الأبيات التالية لهذا البيت أخطاء نسخ أو طبع يشبن ما لا ريب فيه من روائها واستوائها وصفائها
ومنها:

وما هاجني إلا تألق بارق يلوح بفود الليل منه مشيب
فبت وجفنى من لآلى دمعه غني وصبرى للشجون سليب

ومنها

أيـا خـاتم الـرسل المكين مكـانـه حـديث الغـريب الـدار فيك غـريب
عـدت عن مغـانيك المشـوقـة للعدا عقـــارب لا يخفى لهن دبيـب
حـراص على إطفـاء نـور قـدحتـه فمستلـب مـن دونـــه وسليـب
بنصرك عنـك الشغل مـن غير منــة وهل يتســاوى مشهـــد ومغيـب

أى شهودى لا بد منه لمباشرة الجهاد، فإن غبت للزيارة ناب عنى غيري فليس ذلك في القيام بواجب الجهاد كما لو أشهـد. ولعل القارى يفطن إلى جانب البديع في الاستعارة والطباق والتـورية ــ قولـه غريب من قـولهم حديث غـريب أي نادر نفيس مـن طرق إسناده وقوله مستلب وسليب تضمين من بائية علقمة وإشارة إلى قوله:

رغـا فـوقهم سقب السماء فـداحض بشكتـــــه لم يستلـب وسليـب

يريد بالإشارة معنى عذاب الله الذى صبه على ثمود.

ولـولاك لم يعجم من الـروم عـودهـا فعـــود الصليـب الأعجمي صليب
وجـاهك بعـد اللـه نـرجـو فإنـه لحظ ملىء بـــالـــوفـــاء رغيـب
عليك صـــلاة اللـه مـا طيب الفضـا عليك مطيل بـــالثنـــاء مطيب
ومـــا افتر قـــد للغصـــون مـــرنح ومـــا افتر ثغـــر للبروق شنيـب

على جـزالة ابن الخطيب فيـه تصنيع ووشى كثير ولـه غرام بـذكـر النسائم والأغصان والغيث، مما هو، على أصـالته في العربية، ذو نفحـات اندلسية مغربيـة. ومن بديعه المصنوع فى هذه البائية قوله:

فقـــول حبيب إذ يقـــول تشـوقـا عسى وطـن يـدنـــو إلى حبيب

يعنى حبيب بن أوس في أول البيت. وقوله:

ويـا قادح الـزند الشحـاح ترفقـا عليك فشـــوقـي الخارجي شبيب

أى الذى لا أستطيع رده قد شب ـ ويشير إلى شبيب زعيم الخوارج على زمان الحجاج.
ومما قاله على لسان سلطانه الغنى بالله:

إذا فـــاتنى ظـل الحمى ونعيمـــه فحسب فـؤادي أن يهب نسيمـه

وهى أجود وأصفى ديباجة من البائية وأحر أنفاسا وأخفى صناعة بديع

ويقنعنى أنـى بـــه متشبــه فـزمزمـه دمعي وجسمي حطيمـه

المطلع مشعر كما ترى بأرب الشاعر، وهو ما تقدم من شوقه إلى الحجاز، وما يعدو دون ذلك من أمـر الجهاد. وجعلـه دمعـه زمزمـا للـوحة الـدمع وجسمـه حطيم بالشـوق والحطيم من أسماء البيت الحرام تسمية كل بجزء

ومنها:

ولم أر شيئـــا كـــالنسيم إذا سرى شفى سقـم القلب المشـوق سقيمـــه
نعلل بـالتـذكـار نفسـا مشـوقـة نـديـر عليهـا كـأسـه ونـديمـه
ومـــا شفنى بـــالغـور قـد مـــرنح ولا شـاقنى مـن وحش وجـرة ريمـه
ولا سهــــرت عينى لبرق ثنيـــة من الثغـر يبـدو ومـوهنـا فأشيمـه

تأمل رصانة هذه الأبيات مع عذوبة لفظها. وما خلا ابن الخطيب من نظر إلى قول أبي العلاء:

ومـا شاق قلبي بـارق نحو بـارق ولا هـــزني شـوق لجارة هـــزان

والمعرى يشير لخبر الأعشى مع الهزانية وقد جاء بـه في رسالة الغفران. والذى أخذه ابن الخطيب نهج الصياغة وصدى إيقاعها ومنها:

ألا يـا رسـول اللــه نـاداك ضـارع على النأى محفــوظ الـــوداد سليمـــه
مشـــوق إذا مـــا الليل مـــد رواقـــه تهم بـــه تحت الظـــلام همومـــه
إذا مـا حـديث عنك جاءت بـه الصبا شجـاه من الشـوق الحثيث قـديمـه
أيجهـر بـــالنجـوى وأنـت سميعهـا ويشرح مـــا يخفى وأنـت عليمـــه
وتعـــوزه السقيـــا وأنت غيـــاثـــه وتتلفـــه الشكـــوى وأنت رحيمـــه

تأمل انسياب هذا الكـلام وما فيه من شبه بأنفاس فحول المولـدين حبيب والوليد وأبي الطيب

بنـورك نـــور اللــه قـــد أشرق الهدى فأقماره وضـــاحـــة ونجـــومـــه
لك انهل فضل اللـه بـالأرض سـاكبـا فأنــــواره ملتفـــة وغيــــومـــه

فى قوله «فأنواره» معنى الأزهار

ومن فوق أطباق السماء بك اقتدى خليل الذى أوطاكها وكليمه

هنا إشارة إلى المعراج

لك الخلق الأرضى الذى جل ذكره ومجدك في الذكر العظيم عظيمه
يجل مدى علياك عن مدح مادح فموسر در القول فيك عديمه

ويقول على لسان الغنى بالله معتذرا عن تقصيره عن الديار المقدسة :ـ

عدتنى بأقصى الغرب عن تربك العدا جلالقة الثغر الغريب وروهه

تأمل تسميته الأندلس الثغر الغريب، وقد سبقت الاشارة إلى أن ابن زمرك من طريقة لسان الدين أخذ

أجاهد منهم في سبيلك أمة هى البحر يعيى أمرها من يرومه

لا يخفى ما ههنا من تنبه إلى أن نصر المسلمين بالأندلس لا يتأتى لمن يريد نصرهم إلا بقوة البحر. وابن الخطيب قوي الإحساس بأن سبيل الاندلس، ما بقي منها، إلى ضياع، وكذلك كان إحساس ابن خلدون. ولمن قبلهما أحس أبو مروان بن حيان على حين لم تزل قرطبة وطليطلة واشبيلية كل اولئك تحت سلطان الإسلام، ولكن الفتنة التي طوحت بالخلافة الاندلسية وما تبعها من تفرقة دامية العراك هو الذي أوقع في نفسه هذا الحدس، وإلى الله تصير الأمور

ويقول فى آخرها يخاطب الرسول عليه الصلاة والسلام:

وأنت لنا الغيث الذي نستدره وأنت لنا الظل الذي نستديمه
ولما نأت داري وأعوز مطمعى وأقلقني شوق يشب جحيمه
بعثت بها جهد المقل معولا على مجدك الأعلى الذي جل خيمه
وكلت بها همى وصدق قريحتى فساعدنى هاء الروي وميمه

فهذه طربة حبيبية النشوة

فلا تنسنى يا خير من وطىء الثرى فمثلك لا ينسى لديه خديمه
عليك صلاة الله ما ذر شارق وما راق من وجه الصباح نسيمه

وهنا ما تقدم ذكره من النفحة الأندلسية ـ شاهد ذلك أنك تحس نوع أحساس من

الشاعر بهذا النسيم الذي راق، لا أنه يقصد إلى تكثير عدد الصلاة بذكر النسيم ليس غير.

وللسان الدين عدا ما ذكرنا مدائح يعرفها حذاق المنشدين وما زالوا يتغنون بها مع ما يتغنى به الذاكرون منهن على سبيل المثال رائيته التي يذكر فيها زيارته القبر الشريف:

الله أكبر حبذا إكباره — لاح الهدى وبدت لنا أنواره

لاحت معالم يثرب وربوعها — مثوى الرسول وداره وقراره

هذا النخيل وطيبة ومحمد — خير الورى طرا وهأنا جاره

هذا المصلى والبقيع وههنا — ربع الحبيب وهذه آثاره

ومنها:

هذي مواضع مهبط الوحي الذي — تشفي القلوب من الحمى أسراره

والروضة الفيحاء هب نسيمها — والبان بان ونم عنه عراره

وتعطرت سلع بساطع طيبها — لم لا يطيب وحوله مختاره

بشراك يا قلبي فقد نلت المنى — وبلغت ما تهوى وما تختاره

ومنها:

أيخيب من قصد الكريم وعنده — حسن الرجاء شعاره ودثاره

أيؤم بابك مستقيل عاثر — فيرد عنك ولا يقال عثاره

حاشا جلالك أن يؤمله امرؤ — فيعود صفرا خيبت أسفاره

رسمت حاشا بالألف بعد الشين في المطبوعة ولا أدري ما وجهه والعرب تقول حاشاك وحاشي لك وفي كتاب الله: "حاش لله ما هذا بشرا"، تعجب فيه معنى الإكبار قال أبو عبيدة: وقلن حاش لله الشين مفتوحة ولا ياء فيه وبعضهم يدخل الياء في آخره كقوله:

حاشي أبي ثوبان إن به — ضنا عن الملحاة والشتم

ومعناه معنى التنزيه والاستثناء من الشر. قلت أحسب أن من جاء بالألف بعد الشين في الرسم توهمه من قول أبي عبيدة ولا ياء فيه إذ عني أبو عبيدة ياء اللين التي لرسم الألف اللينة، وذلك أن رسم المصحف العثماني في هذا الحرف بالشين ليس بعدها شيء وكل القراء إلا أبا عمرو يقرأون بشين مفتوحة فهو المشار اليه بقوله بعضهم من كلام أبي عبيدة وذلك أن أبا عمرو اذا وصل مد فتحة الشين فجاء بألفها اللينة وتكتب ألفا حمراء بعد الشين وأهل الاداء يعلمون ثباتها عند أبي عمرو وصلا لا وقفا

وليس بموضع وقف لكن من اضطر فوقف عنده سكن الشين، فأحسب رسم النبهاني لها «حاشا جلالك» أو رسم النساخ من قبل إن يك هكذا مراعاة لرسم المصاحف .
ومن هذه الرائية قوله في أواخرها :

فـــامنن علي وكـن شفيعي والتفـت مستنصرا بجـــلالـك استنصـــاره

وكأن تأويله والتفت إلى مستنصر ونصب بنـزع الخافض وهو«إلى» وعندي انـه قد وقع خطأ من الناسخ ههنا وأن الصواب :

فـــامنن علي وكـن شفيعي ولتغـث مستنصرا بجـــلالـك استنصـــاره

أي ولتكن مغيثا لي، وزعم بعضهم أنه لا يجوز مجيء لام الأمر مع المضارع المبدوء بتاء الخطـاب بحجة أن فعل الأمر قد أغنى عن ذلك وليس هـذا بشيء لقراءة أبي «قل بفضل الله وبرحمتـه فبذلك فلتفرحوا » وهي عشرية في حـرف يعقوب عن رويس ذكره صاحب النشر.

صلى عليك اللــه مــاحيــا الحيــا روض الـــربــا وتــرنمت أطيــاره

وتأمل نفحة الاندلس في تحية الحيا روض الربى، وترنم الأطيار .
كان لسان الدين بن الخطيب رحمه الله شـاعرا مفلقا ولعل النبهاني يشير إليه والى ابن نباته المصري وحازم وابن جـابر إذ قال في مقدمته أنه يبـدأ كل حرف بمديح الأئمة الثلاثة الأبوصيري فالبرعي فالصرصري «ان كان لهم كلام لأنهم أشهر مداحه صلى الله عليه وسلم وان كان قـد أتى من أئمة المشارقة والمغـاربة من هو مثلهم أو أعلى نظما من بعضهم كما سنقف على ذلك من كلامهم إن شاء الله تعالى .١. هـ»
قلت لعل هذا من قول النبهاني رحمه اللـه أن يكون قد احترس به، ومن اجود من بالمجموعة ابن الخطيب وهو على براعته وصفاء ديباجته وما يتأتى له من الجزالة لا يبلغ مبلغ الثلاثة الأئمة في حاق المدح النبوي، إذ على صـدقه فيه، لا يخلو من شائبة بعض أنفاس الدنيا خلاف ما عليه نظم الثـلاثة، وقال تعالى جل من قال : «نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم . »

أحسب أن هذا ترتيبهم إن شبهناهم تشبيها لا نريد به حقيقة المماثلة ولكن نريد به نحوا من التقريب بثلاثة المولدين الكبار، أبي تمام وأبي عبادة وأبي الطيب . أشبههم بأبي تمام الصرصري . وأشبههم بأبي عبادة البرعي ، وأشبههم بأبي الطيب البوصيري ، وهو المقدم المجمع على تقديمه وتفضيله ، والبرعي أشهر من الصرصري والذاكرون بالمديح النبوي أكثر لقصائده إنشادا . وقد كان الصرصري من رجال السابع الهجري في نصفه الأول قتل ببلدته صرصر سنة سقوط بغداد . قتله التتار شهيدا رحمه الله . وكان البوصيري من رجال نفس القرن ولد سنة ٦٠٨هـ مات في آخره سنة

٦٩٦هـ . وكان البرعي من رجال الثامن والتاسع كما في البدر الطالع وأشار اليه شارح القاموس في مادة برع ولم يذكر تأريخ مولده أو وفاته وذكر وفاته صاحب البدر الطالع أنها سنة ٨٠٣هـ وذكرها الزركلي في أعلامه عند عبدالرحيم بن أحمد بن علي البرعي ولكن ذكر أن الذي بأيدي الناس هو ديوانه الصغير وكنت اصبت تأريخ مولده ووفاته من الاستاذ المجمعي المفضال الشيخ محمد علي عقبات . من علماء مدينة صنعاء ثم ند عني موضع القصاصة وذكر الشيخ النبهاني رحمه الله أنه من رجالات القرن الخامس ولا احسبه صحيحا لوضوح ما في البدر الطالع وقوته .

للصرصري مقصورة نظم فيها عقيدته ، وهي ما كان قائما عليه إجماع أهل السنة وأحسب أن اللقاني في جوهرته المشهورة وغيره من معروفي أصحاب المتون المنظومة في العقائد لم يخلوا من استفادة بها ونظمها أمتن من نظمهم بلا ريب كقوله :

ومعجزات الانبياء كلها ... ثابتة كيد موسى والعصا
ثم كرامات الولي ما بها ... ريب ولو قيل على الماء مشى
وأفضل العالم ممن امنوا ... في كل عصر وزمان قد خلا
أمتك الزهراء خير أمة ... وخيرها القرن الذي بك اقتدى
وخير هذا القرن كل سابق ... وخيرهم اربعة هم الفرا
من «كل الصيد في جوف الفرا»

وكل من كان ببدر حاضرا ... لوقعة ففضله لا يرتقى
وبيعة الرضوان من يشهدها ... فهو عظيم الفضل محروس الحمى
والكف عما كان بينهم به ... أدين لا أقبل من واشٍ وشي
وإن أزواجك كلهن في الـ ... ـجنة يفضلن على شمس الضحى

ثم أخذ في نظم ما يدين به من الشرع مما كان عليه أشهر قول أهل السنة .

والصـوم والصـلاة والـزكـاة والـ ـــعمرة والحج وبيع وشرا
والنصب والخمـر وكـل مسكـر وكل مـزمـار وتحريم الـزنـا
والأمـر بـالمعـروف والنهي عـن الـ ـمنكر والعـرف وتحريم الـربـا
والسمع والطـاعـة لـلأمير في الـ ـجور وفي العـدل وحـرب من بغى
شرع صحيـح ثـابـت يبقـى إلى أن ينقـض العلـم وينقضي المدى

فهـذه عقيـدتي نظمتهـا أجعلهـا عنـدك ذخـرا يـرتجي
يعـرضهـا يـوم الخميس ملك عليك يـا جـابـر كسر قـد هفـا

في المطبوعة الخميس بالخاء المعجمة ومـا ارى إلا انه الحميس بالحاء المهملة وهو يوم القيامة لما فيه من الحر والعرق .

فـاسأل لي الـرحمن أن يميتني غير مغير إذا الـوقت انقضى

فقد مات ـ ان شاء الله ـ شهيدا رحمه الله

عسـاه أن يغفـر لي خطيئتي بفضلـه ذو الملكـوت والغنى
حتى تكـون لي بهذا شـاهـدا عنـد الـذي يعلم سري ويـرى
صلى عليك اللـه ذو الجلال مـا هبت مع الاسحـار أنفـاس الصبـا

لاحظ الفرق بين طريقة الصرصري في ذكر هبوب الصبا وما مر من ارتياح ونشوة للطبيعة في كلام ابن الخطيب . ألا ترى هنـا أن الصرصري أشد اهتماما بأن هبوب الصبا في الأسحار وازن بين هذا وبين قول ابن الخطيب مثلا :

عليك صـلاة اللـه مـا ذر شـارق ومـا راق من وجـه الصبـاح نسيمـه

وقوله :

صلى عليك اللـه مـا حيـا الحيـا روض الـربى وتـرنمت أطيـاره

وقوله :

عليك صـلاة الله مـا طيب الفضـا عليـك مطيل بـالثنـاء مطيب
ومـا افتر قـد للغصـون مـرنح ومـا افتر ثغـر للبروق شنيب

وأول المقصورة استهلال عذب حسن الانسياب وهوقوله :

مـــا بين قـــرب وبعـــاد وقلى — وبين ليـــت ولعـــل وعســـى
ضـــاع زمـــاني ووهت شبيبتي — وصـــوح المخضر منهـــا وذوى
واهـــا لأيـــام شبـــاب مـــا لها — من أوبـــة بعـــد الشبـــاب تـــرتجي
لكنهـــــا تمضي وتبقى حسرة — تثبت مـــا بين الضلـــوع والحشى
من لم يكـن في غـــرة الـــدهـــر لـــه — عـــزم كغـــرب السيف حين ينتضى

فـــقلمـــا ينجب في آخـــره — أيـن البطـيء والمغـــذ في السرى

لو قد كـان جاء بجواب الشرط (من لم يكن) في عجز البيت لأشبـه مذهب ابن دريد في المقصورة، ولكنـه بجعله الجواب في بيت تال قد بـاين ذلك المذهب، وهذا أدل على سماحة طبعه وأنه لم ينصب من نفسه مجاريا لابن دريد وإن يكن قد أخذ ببحره ورويه

يـــاويح عبـــد ذهبت أوقـــاتـــه — مستغـــرقـــات في جهـــالات الهوى
يسعى إلى الآثـــام جـــذلان وقـــد — أحصى عليـه الكـاتبـــان مـا سعى

ثم سلك الصرصرى من بعد سبيلا من الوعظ أصـاب فيها من النظر إلى ذكر الحساب واليوم الآخـر. ونظم معاني القرآن والحديث عسر ومنزلة أقـدام، وقد تعلم كيف تكلف أبوتمام وقارب شفا الاساءة حيث قال :

ثـــانيـــه في كبـــد السماء ولم يكن — لاثنين ثـــانيـــا اذ هما في الغـــار

أصاب الصرصرى رحمه الله شأوا بعيدا من الإجادة في بعض ما تناوله في هذا المجال.
مثلا ما جاء من صفته للنبي صلى الله عليه وسلم إذ قام بلواء الحمد للشفاعة :

مـــالى مجير ذلك اليـــوم ســـوى — محمـــد خير الأنـــام المجتبى
أول مـن ينشـق عنـــــه قبره — ومـــا عليـــه من سبيـل للبلى
يـــزفـــه سبعـــون ألف ملـك — وهـــو على البراق ســـاطع السنـــا

وهذه الصورة مأخوذة من قصة الاسراء والمعراج

بيـــده اللـــواء تحت ظلـــه — آدم والأشراف مـــن أهـــل البهـــى
وهـو شفيـع النـاس يـوم العـرق الطـ — ـــاغي وفيـه كل وجـه قـد عنـا

جمع هنا بين معاني الحديث والقرآن ـ قال تعالى : وعنت الوجوه للحي القيوم

وضـــوعفت سبعين ضعفـا شمســـه — حـــرا وقـــدر الميـل جـــرمهـا دنـــا
واشتـــد فيـــه غضـب اللـــه على — من صـــد بغيـــا وتعـــادى وطغى

يـــوم يقـــول الأنبيـــاء كلهـم نفســـى إلا الهاشمـــي المرتضـــى
يقـــول وهـــو صـــادق أنـــا لها في مـــوقف فيـــه الخليـل قـــد خشى

خشى بوزن سعى على لغة طيء في باب فرح وسمع الناقص

يجيـــز من كـــان مصـدقـا بـــه على صراط مـــزلـق من اعتــــدى
أعـــد للعـــاصين من أمتـــه شفـــاعـــة تنقـــذ من حـــر لظى
ومـد حـوضـا قـدر شهـر عرضـه ينقع غلـة الصـدى عـذبـا روى
أكـــوابـــه من ذهـب وفضـــة مثـل النجـــوم عـــددا ومجتلى
أنقـى بيـــاضـــا مـن صريح لبـن ومـن مصفـى عسـل أحلى جنـى
يـــرده الشعث الـــرؤوس أولا ورد عنـــه كل فـــاجـــر غـــوى

فهذا كما ترى نفس حلو الانسياب، سهل الديباجة، جميل طريقة القصص.

ومن جياد شعر الصرصرى رحمه الله رائيته التي جعل أولها تشبيبا بالكعبة المشرفة، وأعطاها صورة المحبوبة الحسناء التي يوافي طيفها فيهيج دوافع الشوق. وقد أخذ أصل المعنى من قوة علاقة الدار بالمحبوبة في قديمات قصائد العرب، وأخذ معنى خلع صورة الإنسان على الدار من طريقة أبي تمام فمزج جميع ذلك وولد منه ما صار هو إليه من المعانى الحسان، لا أشك أن محيي الدين بن عربي أخذ تغزله بالكعبة من ههنا، لأن شعر الصرصرى رحمه الله كان ذا سيرورة مشهورا. وتغزل ابن العربي الذي جاء به في الفتوحات ليس بجيد حقا، وكان النظم أغلب على طريقته نظما قليل الماء:ـ

ونعود بعد إلى ذكر رائية الصرصري، قال رحمه الله ورضي عنه:

حيتك ألسنـــة الحيـــا من دار وكستك حلتهـــا يـــد الأزهـــار

هذا المطلع كما ترى طنان رنان، فيه روح من طنانة أبي تمام:

الحق أبلج والسيوف عوارى

وقد سبقت منا الإشارة إلى أن في الصرصري رحمه الله أنفاسا حبيبية

وتعطـرت نفحـات تـربك كلما فض النسيم لطيمـــة الأسحـــار

فهذه الاستعارة حبيبيةِ المعدن.

فـــلأنـت معهـدي القـديم ومألفي وبك انقضت محمـــودة أوطـــارى
للـــه مـــا أبقى الأحبـــة مـــودعـــا بثـــراك للمشتـــاق من آثـــار
لأصرحن اليـــوم فيك بلـــوعـــة كلفـت بهاء في الطلـــول ونـــار
مـــاكنت بـدعـــا في الصبابـــة والأسى حتـى أوارى زفـــرتـى وأوارى

مـــا الحب إلا لـــوعـــة تلج الحشـــا أو مـــدمع جـــار لفـــرقـــة جـــار
ومصـــونـــة حـــوت البهـــاء ستـــورهـــا سمـــــراء يطـــرب وصفهـــا سماري

تأمل أصناف الجناس التي مرت ــ ثم تأنيث الكعبة ههنا وجعلها عقيلة مصونة معشوقة :

عـربيـة الأنسـاب قـام بحسنهـا عذرى وطاب عليـه خلع عذارى

جعله الحسن عذرا فيه كالإشارة إلى قول امرأة العزيز: « فذلكن الذي لمتننى فيه » لما قلن لها : « حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم »ثم أخذ بعد في ذكر الطيف :

زارت على بعـد المسـافـة بعـدمـا هـوت النجـوم ولات حين مـزار

يشير هنا إلى قول جرير:

طرقتك صـائدة القلوب وليس ذا وقت الـزيـارة فـارجعـى بسـلام

وأراد جريـر أن عليه أن يصلى الفجر ويـواصل السير فهذا سبب طرده الخيـال ، إذ هو طـرد للنـوم . ويروى أن السيـدة سكينـة بنت الحسين بن على رضي اللـه عنهم أجمعين أخـذت عليه ، ومـا أحسب أنه غـاب عنها مـراده ، ولكنها لعلهـا أخذت عليـه بعض مذاهبه في المدح والهجاء .

أو اخترع الخبر بعض الحذاق

زارت على بعـــد المســـافـــة بعـــدمـــا هـــوت النجـــوم ولات حين مـــزار
أنى طـــوت شقق الفـــلا وديـــارهـــا بحمى الحجـــاز وبـــالعـــراق ديـــارى
أهـــــلا بطيف زائر أهـــدى لنـــا ريـــــا ممنعـــــة الحمـى معطـــــار

دل ببيته هـذا أنه لم يطـرد الخيال ، فجـرى قولـه « ولات حين مزار » مجرى الـدلالة على الوقت

جـــادت بـوصل وانثنت ومحبهـــا عارى المعـاطف من ملابـس عار

فهذه قرينـة مانعة من أن تكون المتغـزل فيها امرأة ـ على أنـه ليس في وصال الطيف من عار. ولا يخفى بعد مكان الجناس .

هل وقفـــة للـــركب في عـــرصـــاتها ولـــــه جـــؤار في أعـــز جـــوار
فأقبـل الحصبـــــاء منهـــا مطفئـــا جمر الغضـى منـى بـــــــرمي جمار

فهذا يكشف أن المتغزل بها هي الكعبة

فهنـاك لا حجــر ولا عــار على ذي الحجـر في التقبيل للأحجـار

ذو الحجر أي ذو اللب

أم عـائد منى بأجـدر تـربـة ... بـالقصـد في أكنـاف خير جـدار
ربع بـه غـرر العـلا مبـذولـة ... للمشترى والأري للمشتـار

الأرى هو العسل ومشتاره جانيه والتربة عنى بها قبره صلى الله عليه وسلم

وبـه يبين للقلـوب حقائق الـ ... أسرار بـدر لم يشـن بسرار

ومن ههنا أخذ في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام :

هـو أحمد المختـار أحمد مـرسل ... قتـال كل معـانـد ختـار
نـدب إذا بث الجيـاد مغيرة ... علقت بحبل للثبـات مغـار
بيمينـه في الحرب حتف الممترى ... وحيـاتها في السلم للممتـار

هكذا وعندي أن ههنا خطئا من الناسخ وأن الصواب : وحيا بها أي وبها حيا أي غيث في زمن السلم لطالب جدواها ممتارا، لأن الغيث يتبعه الخصب والميرة

غمـر النـدى جـلاء أغمار الـورى ... متكفـل بهدايـة الأغمار
جعل المهيمـن في مسـامع خصمـه ... وقـرا وزان صحـابـه بـوقـار
وهـو المظلـل بـالغمائم من أذى الـ ... أسفـار والمنعـوت في الأسفـار

يعنى أسفار أهل الكتاب

وبـه تنشر حين سـار مهـاجـرا ... للغـار ذكـر فـاق نشر الغـار
وانهل إكـرامـا لـه صـوب الحيـا ... والقطـر محتبس مـن الأقطـار
فضل البريـة كلهـا ورسـا بـه ... طـود العـلا في هـاشـم ونـزار

وما أرى إلا أنه عنى بنزار العرب أجمعين .

والمدح هنا خالص لا يشوبه تباه بشيء من عرض الدنيا أو التفات إليه، وهذه مزية مداح الرسول صلى الله عليه وسلم الذين انصرفوا بفنهم كله إلى مدحه عليه الصلاة والسلام، لا يشوبونه بغيره، ووازن بين ما ههنا وما مر بك من كلام الزمخشري وابن الخطيب والأبيوردى والفيروزابادي مثلا .

يـاهـاديـا شـد الإلـه بـدينـه ... أزرى وشـد على العفـاف إزاري
يـا مـن بـه إن عـذت في سنـة حمى ... أو زار في سنـة محى أوزاري
يـا من حبـاء يـديـه محلـول الحبى ... لحبـا يسـار أو لفك إسـار
لـو لم يكن مـدحيك من عـددى لما ... أضحى شعـارى صنعـة الأشعـار

وازن بين هذا وبين قول ابن جابر في المقصورة

أنا الفتى لا يطبيني مطمع فأبذل الوجه لنيل يرتجى

وقوله :

لـولا اشتياقي لـديـار كـرمت لبعدهـا يـرثي لنـا من قـد رثى
ومـدح من أرجـو بـأمـداحي لـه إصـلاح مـا قـد عـاث مني وعثى
لم أجعل الشعـر لنفسي خلـة ولم يجش فكـري بـه ولا غثـا
يـا ضيعـة الألبـاب في دهـر غـدا فيـه فتيت المسك يعلـوه الخثى

فإن ههنا خشونه مع جانب تعزز شخصى ذاتى ، وازن بين هذا وبين شعور النشوة والفرح النفسى بما حباه الله هذه الهبة حتى جعلها لنفسه صنعة وشعارا إذ مدح النبي صلى الله عليه وسلم من عدده للدنيا والآخرة .

لـو لم يكن مـدحيك من عـددى لما أضحى شعـارى صنعـة الأشعـار
نشر الثنـاء عليك أطيب نفحـة من مسك دارين تفـوح بـدارى

أرى أن الثناء فاعل لنشر وهو فعل وأطيب مفعول به وأصله صفة لمحذوف ونفحة تمييز أى نشر ثنائى عليك نفحة طيبة أطيب من مسك دارين ، فهي بدارى فائحة . ومن جعل « نشر» مصدرا والثناء مضاف إليه وأطيب خبر المبتدأ جاز ذلك وأحوج إلى تأويل النشر بمؤنث وليس فى جودة ما ذكرنا ، ورنة ما ذكرنا أجود ان شاء الله

ملأ المهيمن مذ قصدتك مادحا بيساره يمناى ثم يسارى

تأمل هذا الشكر والحديث بنعمة المولى وصدقه وأريحيته

ونفى بجـاهك يـا أعـز وسـائلى قتر الهوى عنى مع الإقتـار
فتخـذت سنتك المنيرة حجـة ومحجـة تهدى لخير منـار
وغدوت محروس الحمى من ضيقة الإعـ ـسار عنـد تـواتـر الأسعـار

كأنما أطل على هذا البيت ظل من أبي تمام وذلك قوله :

وتباشروا كتباشر الحرمين في قحم السنين بأرخص الأسعار

وكأن الصرصرى يتعمد نوعا من الإلماع بالإشارة إلى هذا البيت ، لأن هؤلاء تباشروا بالخليفة وابنه الواثق والصرصرى بشراه وتباشره بهذا الشعار النبوي الذى نفعه وحماه وتتبع قتر ذنبه فمحاه .

حسبى رجـاء أننى من أمـة بك أصبحت مـوضوعـة الآصـار
أنت الـزعيم لها وأنت سفيرهـا ان أقبلت من أطـول الأسفـار

وذلك ما بين المحشر والممات

ويزيد فيك رجاء قلبي قوة أن صار بي نسب إلي الأنصار

هذا المعنى حاوله من بعد لسان الدين بن الخطيب على لسان سلطانه ولم يجيء به سهلا جيدا كما ههنا

قوم حللت بدارهم فتدرعوا بيدارهم لرضاك ثوب فخار
فاسأل إلهك لي بعشر محرم جبرا لقلب واجف الأعشار
وشهادتي حق قبيل شهادة فيها الوفاق لأهلك الأطهار

إذ قد استشهد منهم من قد استشهد في أول الإسلام ومن بعد، كسيدنا حمزة وعبيدة وجعفر وزيد بن حارثة وعلي والحسين وزيد ويحيى رضى الله عنهم أجمعين. وقد أجيبت دعوته. وحسن أولئك رفيقا.

جئنا بهذه القصيدة كاملة لم نحذف منها شيئا ليرى القاريء الكريم كيف أنفاس هذا النمط الروحي الخالص.

وقد كان في الصرصري وصاحبيه طول نفس، وقديما قال أبو الطيب في ممدوحه الذي هو علي مجده من سائر أفراد الملوك:

وقد وجدت مجال القول ذا سعة فإن وجدت لسانا قائلا فقل

وقد سبقهم من صناعة أبي تمام والبحتري ما مهد لطول النفس عندهم، وكان أبو الطيب أميل إلى الإيجاز وبذلك تبريزه. وقد سبقهم أكثر من هذين أسلوب تطويل ابن الرومي الذي كان يتأتى إليه بتشقيق المعاني وتفريعها. غير أنه كان يهمل جانب تجويد اللفظ والإيقاع كما قدمنا.

وفي مادة السيرة النبوية من خبر الجهاد والصبر أيام نبل الهجرة وبعدها والمعراج وما كان فيه من الأسرار والتجلي وكشف الحجب مجال خصب للقصص وإطالة النفس من غير ما حاجة إلى التشقيق المعنوي والاحتيال إلى تفريعه. فأتاحت طبيعة هذه الخصوبة في مادة السيرة إمكان الجمع بين متانة الأسر وجزالة اللفظ مع انسياب السرد ولا يخلو صدر القصيدة مع ما جبلت عليه بنيتها من إيثار الإيجاز من اتساع لطول النفس متى تهيأت أسبابه ومن أجل ذلك طالت المعلقات وبعض قصائد الأوائل كجرير والفرزدق. إلا أن الإيجاز كما تقدم هو القاعدة الأولى في بيان الشعر وبلاغته. وأحسب أنه من أجل هذا قال صاحب العمدة في باب اللفظ والمعنى: «والفلسفة وجر الأخبار باب آخر غير الشعر، فإن وقع فيه شيء منها فبقدر، ولا يجب أن يجعلا

نصب العين فيكون متكئا واستراحة ، وإنما الشعر ما أطرب وهز النفوس ، وحرك الطباع فهذا هو باب الشعر الذي وضع له وبنى عليه لا ما سواه » ا . هـ والعجب لابن رشيق مع هذا كاد يميل الى تقديم ابن الرومي على أبي تمام في باب الغوص على المعاني . هذا ، ولمادح الرسول صلى الله عليه وسلم عذر واسع إذ السيرة كلها لذي الإيمان مطربة ، وليس شأن المديح فيها كشأن المديح لمن يكون من ملوك هذه الدنيا الفانية «متاع قليل ولهم عذاب أليم . »

من جياد الصرصرى ذوات الطول رائيته

ذكر العقيق فهاجه تذكاره	صب عن الأحباب شط مزاره

وأول القصيدة تغزل بالديار الحجازية كنى به عن البيت الحرام والقبر الشريف والحج والزيارة ومشاهد الحرمين ثم خلص الى ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فوصف خلقه وخُلُقه ومولده وما صاحبه من الإرهاصات ووصف تقواه وسكينته ونبوته وشريعته وما خصه الله به من التشريف والمعجزة وما جاء في الكتب من قبل من التبشير بمقدمه ثم ختم بما كنى عنه في البداية فصرح به في النهاية من نية قلبه أن تجوز به ناقة كوماء الى حيث الرباع المقدسة ذات الهدى والسناء ، ويبدو أن نظم هذه الرائية قد كان قبل نظمه التي قبلها إذ يذكر في تلك يسارا ويذكر في هذه عسرة يرجو أن يمن الله عليه بعدها بميسرة .

أما النسيب فقوله :

ذكر العقيق فهاجه تذكاره	صب عن الأحباب شط مزاره
وهفت إلى سلع نوازع قلبه	فتضرمت بين الجوانح ناره

هذه الديار بناحية المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام

كلف برامة ما تألق بارق	من نحوها إلا بدا إضماره
يشتاق واديها ولولا حبها	لم يصبه واد زهت أزهاره
شغفا بمن سلك الفؤاد بأسره	وبوده أن لا يفك إساره
لولا هواه لما ثنى أعطافه	بان الحجاز ورنده وعراره

والضمير هنا للنبي صلى الله عليه وسلم والذات المحمدية

يا من ثوى بين الجوانح والحشا	مني وان بعدت على دياره
عطفا على قلب بحبك هائم	إن لم تصله تصدعت أعشاره
وارحم كئيبا فيك يقضي نحبه	أسفا عليك وما انقضت أوطاره

لا يستفيق من الغـــــرام وكلما حجبـــوك عنـــه تهتكت أستــاره
مـا اعتـاض عن سمـر الحمى ظـلا ولا طـــابت بغير حـــديثكم أسماره

والسمر بفتح السين وضم الميم من شجر الحجاز وبنواحى مكة وكانت بيعة الرضوان تحت سمرة .

هـل عـــائد زمـن تضـــوع نشره أرجـا ورقت بـالـرضـا أسحـاره

هذا البيت يدل على أنه حج من قبل ويريد العودة . وذكر الأسحار كما مر بالقارىء الكريم من قبل مما يتكرر عند الصرصرى ، وإنما خص الأسحار لمكان صلاة الفجر ولمجافاة أهل الصلاح خاصة للنوم في ساعات السحر المباركة . قال تعالى : «الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار» . وللأسحار في الحرمين بركة وأسرار.

في مـــربع بقبـــاب سلع مـــونق بـــالأنس تهتـف بـــالمنى أطيـــاره
فـــاق البسيطـــة عـــزة ومهـــابـــة فسما وعـــز من البريـــة جـــاره

ومن هنا تخلص إلى المديح النبوي في يسر حسن التدفق والانسياب :ـ

يحمى النـــزيل وكيف لا يحمى فقـــد حفت بجـــاه المصطفى أقطـــاره
أضحى ثـــرى عـرصـاتـه مـذ حلها يشفى مـن الـــداء العضـــال غبـــاره
سبحـــان من جمع المحـــاسن كلهـــا فيـــــه فتم بهاؤه وفخـــــاره
محاسن المنظر ومحاسن المخبر
جبلـت على التشريف طينتــــــه فما نشـأت على غير العلى أطــــــواره
وصفت خـــلائقـــه وطهـر صـــدره فـــزكـــا وطـــاب أديمـــه ونجـــاره

فذكر هنا كرم العنصر وشرف النسب ثم أخذ في قصة المولد وفي صفة الرسول صلى الله عليه وسلم فاستقام له ذلك على ما بدأ به من حسن تخير اللفظ وسلامة رنين الإيقاع :

حملتــــه آمنـــة الحصـــــان فلم تجد ثقـــلا إلى أن حـــان منـــه بـــداره
ورأت قصـــور الشـــام حين تشعشعت أنــــــواره وتبـــاشرت حضـــــاره
وضعتــه مختـونـا وأهـوى سـاجـدا وكســـاه حسنـــا بـــاهـــرا مختـــاره
لا بـــالطـويـل ولا القصير وإن مشى بين الطــــوال علتهم أنــــــواره
هذا البيت جيد ، وذلك أنه كان صلى الله عليه وسلم مربوعا ، فكان يطول الطوال ببهاء الشخصية وقوة حضورها وبهجة نورها .

وإذا تكلل كالجمان جبينه   عرقا لأمر عظمت أسراره
فأريجه أذكى وأطيب مخبرا   من ريح مسك فضه عطاره
وإذا بدا في حلة يمنية   قد زان دائر طوقها أزراره
فالشمس بعد الصحو مشرقة السنا   والبدر في فلك الكمال مداره

ثم انتقل إلى صفة خلقه السني عليه الصلاة والسلام:

متقلدا بالسيف ليس مباليا   بمن التقى عزت به أنصاره
حلل السكينة والثبات لباسه   والبر والإخلاص فيه شعاره

وذلك أن الشعار هو ما يباشر الجسد من الثياب، وهذا من شريف المعاني أن يكون الثبات والسكينة هو الحلة الظاهرة والإخلاص والبر هو الكساء الباطن.

وضميره التقوى وأوتي حكمة   فازداد منها عقله ووقاره
والصدق منه والوفاء طبيعة   والعرف والصفح الجميل دثاره
والعدل سيرته وحق شرعه   وسبيله نهج الهدى ومناره
وشريعة الإسلام ملته وبالـ   ـحق المبين إلى الورى إظهاره

ومن هنا أخذ في مدح الإسلام وقصة أول ظهوره على الشرك وما كان بجزيرة العرب من أديان.

ختم النبوة فهو درة تاجها   وطراز حلتها الثمين خياره
أبقى لسنته طريقا واضحا   رحبا سواء ليله ونهاره

اعلم أصلحك الله أن سواء تفيد التسوية فإذا جاءت بعدها الهمزة كانت المعادلة بأم وإن لم تجيء الهمزة جيء بالعطف بالواو. ولا تصلح أو ههنا لأنها للتخيير لا للمعادلة ولا للجمع. قال تعالى: "سواء علينا أجزعنا أم صبرنا". وقال تعالى: "سواء العاكف فيه والباد" وقال تعالى: "سواء محياهم ومماتهم". ومن الأغلاط الشائعة الآن جعل أو في مثل هذا الموضع.

يمحو سنا الشمس الكسوف وينقص الـ   ـبدر المحاق ويعتريه سراره
وشموس شرعة دينه محروسة   من حادث يمحو الضياء شعاره
تبع الصواب بجده وبجده   بعد الرشيد تجددت آثاره

تكرار الدال والجيم هنا فيه نظر إلى طريقة القدماء كذي الرمة وزهير كما فيه نظر إلى طريقة أبي تمام.

واستعلن الحق المبين بنوره بجبال فاران وقر قراره

جبال فاران هي جبال مكة بدليل أن أسفار التوراة تزعم أن إسماعيل ترك هو وأمه هاجر يجولان في صحراء فاران (انظر سفر التكوين ٢١/٢١ ـ وسكن في برية فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر). والذي عندنا أن الماء الذي أصابته هاجر بجناح الملك هو ماء زمزم فتكون فاران هى أرض مكة وتزوج إسماعيل من جرهم ولا يستبعد أن تكون جرهم قد كانت مثل قريش تتاجر إلى مصر والشام والحبشة. وعند أهل الكتاب أن فاران بناحية سيناء، ولو كانت بناحية سيناء لم يكن أمر إسماعيل ليكون على بعد من سارة وابنها، وقد أرادت سارة ابراهيم على أن يبعد اسماعيل حتى لا يشارك ابنها فى الميراث.

وجلا ظلام الحرتين ضياؤه وبه سما نور وأشرق غاره

عنى بالحرتين المدينة

فخرت به خير القبائل هاشم وحوى به المجد الأثيل نزاره

قد يدخل في معنى نزار العرب كلهم ولا يبعد أنه نظر هنا إلى قول ابن الرومي:

كم من أب قد علا بابن ذرا شرف كما على برسول الله عدنان

واجعل بيت ابن الرومي هذا من ضمن ما مهد لمجيء القصيدة النبوية لتخلف قصيدة المدح وما إليها. ثم أخذ الصرصري في ذكر الجهاد وما تبعه من ظهو شمس الدين على الدين كله ولو كره المشركون:

زهرت نجوم السعد في بدر به وتبلجت يوم الرضى أقماره
وشموسه في فتح مكة أشرقت فانجاب عن وجه العلاء قتاره

القتار بفتح القاف عنى بها القتر بالتحريك أي الغبار وظاهر كلام الأخفش في القوافي يفيد أن ذلك مما كانت تفعله العرب وعند سيبويه أن الإشباع في الضم والكسر

وقال الآخر:

خذا بطن هرشى أو كلاها فإنه كلا جانبي هرشى لهن طريق

ثم انتشى الأمام الصرصري الى مدح سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم فقال:

سعــدت بــه أولاده ونســاؤه وصحــابــه وزكت بــه أصهــاره
وسمت بــه غلمانــه وإمــاؤه وجــــــــواده وبعيره وحماره

ولعل مكان الحمار أن ينكره السمع، على أن السياق مستقيم بـه، ولعله مما يسوغها ما يلابسهـا من روح السذاجة وقصد الاستيعاب. ويعتذر للصرصرى بأنـه مع الإطالة قد يقع في القصيـدة أن يختل موضع البيت والأبيات ولا يقدح ذلك في جـودة القصيدة كلها. وقد أخذوا على المتنبي قوله:

إنـى على شغفي بما في خمرهــــا لأعـف عما في سراويــــــلاتها

ولم يمنع ذلك من استجادة هذه التائية وعدها أبو منصور من إحسانه وجاء بقوله:

ذكــر الأنـام لنـا فكـان قصيــدة كنت البــديع الفــرد مـن أبيــاتها

فقال إن هذا هو البديع الفرد من أبيات القصيدة.

وحـوى الفخـار سريــره وفـراشــه وخيـــامــه وقبـــابــه وجـداره
وتضــوعت أردان بــردتــه بــه طيبـــا وطـــاب رداؤه وإزاره
شهــد الكتــاب الموســوي بفضلــه وتحققـت وتيقنـت أحبـــــاره

وقد كان احتـدام الحروب الصليبية مما شحذ أذهـان المسلمين إلى النظر في مقالات أهل الكتاب ونقـد ما ذهب إليه ذاهبـوهم من باطل التأويل وبيان مكـان البشارة فيما جـاء من مقـالات أنبيـاء بنى اسرائيل وكتبهم. من ذلك بشـارة مـوسى عليـه السـلام به، وحملها أهل الكتاب على أن المبشر به هو عيسى عليه السلام، وذلك صنعوه بتأويل بعيد.

وقد تناول هذا البحث جماعة من المحققين.

هـــو شـــاهـــد متـــوكل ومبشر هـــو منـــذر متيقن إنـــذاره
أضحى لـــلأميين حـــرزا مـــانعـــا وضعت بـــه عـن وقتـــه آصــاره

عن وقته أي عن أمته إذ هي التي آمنت به حين جاء وقت رسالته.

بالشام دولته ومكة ربة الـ ... حرمات مولده وطيبة داره
علم اليهود الحق ثمت أنكروا ... حسدا فأفسد علمهم إنكاره

هذا البيت جيد بالغ، إذ ان العلم إنما يصح ببيان الحقائق، فمتى كتمت أو غيرت وجد الهوى السبيل إلى الرأي وهو آفته.

تبا لمن علم اليقين وصده ... لما استبان له الصواب نفاره
نفاره أي نفوره
وكذاك في انجيل عيسي وصفه ... في كل عصر تجتلى أخباره
عجبا لذي لب راه وكيف لا ... ينبت عنه لوقته زناره

كان النصارى يشدون الزنار وهو سير يجعلونه حزاما يشدون به أوساطهم أي عجبا لهم لماذا يستمرون على كفرهم ولايطرحون هذا الزي إلى زي المسلمين.

والبعير وشده إلى البيت الحرام من شعار المسلمين ـ قال أبو الطيب يذكر الروم وجهاد صاحبه سيف الدولة:

فكلما حلمت عذراء عندهم ... فإنما حلمت بالسبي والجمل

وترك الصرصري حث النصارى على ترك دينهم وعجبه من ذلك وأقبل على ما يرجوه لنفسه من سبيل النجاة:

وعذافر حرف أمون ترتمي ... مرحا كهيق هاجه ذعاره

قد يبدو أول الأمر هذا الانتقال بعيدا مفاجئا. ولكن متأمله يجد عند التأمل ما يجمعه بما تقدمه من قوة الصلة من طريق تداعي المعاني على حسب الوجه الذي قدمنا ذكره. ثم لعل القارىء الكريم يرى كما نرى أنه حين جعل هذا المادح البارع مقدمة قصيده نسيبا وشوقا إلى الذات الشريفة، ثم أناله الله كريم الوصال حينما حاز شهود كمال الذات المحمدية أخذ في المديح الصرف حتى خلص إلى ذكر أهل الكتاب وعنادهم، ثم بعد ذلك سلك سبيل الشعراء إذ يتبعون معاني النسيب الارتحال إما إلى المحبوب وإما عنه، وهنا الرحلة إلى ديار المحبوب كما لا يخفى، إلى البيت الحرام وإلى حرم المدينة الشريف.

وعذافر حرف أمون ترتمي ... مرحا كهيق هاجه ذعاره [1]
كوماء يرفعها السراب كأنها ... فلك على بحر طمي تياره

---

(١) عذافر أراد عذافرة وهي الناقة القوية وكذلك الحرف والأمون المأمونة العثار والهيق الظليم والذعار بضم الذال وتشديد العين المخوفون جمع ذاعر

يطـــوي بها شعـب الفـــلاة مشمـــر ... كـــالسيف للغمـــرات سن غـــراره
شهـم إذا رام الخطير مـن العــــــلا ... لم يثنــــه عما يـــــروم خطــــاره

هذا الفخر في هـذا الموضع حسن ، لأنه هنا لا يطلب شيئا من معـالي الدنيا وإنما يـريد العـلا عنـد اللـه بأداء الفريضـة ثم الـزيـارة ، وقد كـان الحج محفـوفـا بالمشقـة والمخـاوف . وكان الصرصري رحمه اللـه من أولى الضرر فـوازن بين قولـه هذا وقـول أبي العلاء :

قـالـــوا كبرت ولم تقصـــد تهامــة في ... مشـــاة وفـــد ولا ركـــاب أجمال
فقلت إني ضريـــــر والــــذيـن لهم ... رأي رأوا غير فـــرض حج أمثـــالي

شتان ما بين اليزيدين :

يتجشم الـوعـر المخـوف ليأمن الـــ ... ـخـوف الـذي بـالمرء يلحق عــاره

وهو خوف النار وعذاب الله عز وجل .

يسرى مع الـوفـد الكـرام ليشهـد الــ ... ـجمع الـــذي شرفـت بــــه أقطــــاره
فيي مـــــوقف جم المواهـب زاهـــر ... وضعـت عـن الجاني بـــــــه أوزاره

هذا يوم عرفة وموقفه ولذلك ذكر بعده المأزمين والمشعر الحرام .

والمأزمين ومشعـــــرا ذا حـــرمــــة ... ومحصبـــــا بمنى تعـــــد جماره

والمأزم المضيق قـال صـاحب القامـوس المأزم (بكسر الـزاي [1]) ويقال المأزمـان مضيق بين جمع وعرفة وآخر بين مكة و منى .

ويطـوف مضطبعـا طـواف قـدومـه ... سبعـــــا ببيت عظمـت أستــــاره

الاضطبـاع هيئة جـد من لبس الـرداء في الحج وذلك يمكن الحاج من الـرمل في الأشواط الثلاثة .

أبهى من الـــديبـــاج رونـق حجــره ... وعلى الــــلآلى فضلـت أحجـــاره
ويسير بعـــد قضـــاء مفترضـــاتـــه ... ليـــزور ربعـــــا كـــرمـت زوارة
ربعـــا بـــه نـــور النبي محمـــد ... متـــلالىء نضرت بـــه نظـــاره

وقد أنبأنـا في آخر القصيدة أنه لم يحج ذلك العـام ولم يزر وإنما تذكر تلك الـربـاع المطهرة وحن إليها وها هو هذا يهدي إليها المدحة والسلام :

نـاديتــه بـاللــه يـا مـن أسفـرت ... عن بشر وجــه نجـاحــه أسفــاره

وإسفار وجـه النجاح عن البشر والبشرى مذهب في الاستعارة حبيبي وهـو هنا

(١) الذي في القاموس ضبط القلم وما بين القوسين لنا .

يخاطب الحاج

بلغ هديت إذا وصلت سلام من ... قامت بشيب عذاره أعذاره

فلم ير الضرر عذرا كما ترى ولكن الكبرة والضعف.

وقل السلام عليك من متعرض ... لعظيم فضلك رثة أطماره

يا من جلا قتر الضلال ومن إذا ... ما أمه العافي انجلى إقتاره

يا من تساوى في المكارم والندى ... كلتا يديه يمينه ويساره

أخذه من قول الآخر:

كلتا يديه غياث عم نفعها ... تستوكفان وما يعروهما عدم

وهذا البيت يذكر في قصيدة للفرزدق يمدح زين العابدين رضي الله عنه، وفي قصيدة للحزين الكناني يمدح بعض بني أمية ويجوز أن أصله للحزين فأخذه الفرزدق

أنت المليء بكشف ضر مخلف ... ذي عسرة بندى يديك يساره

وبين اليسار هنا وفي البيت المتقدم مجانسة تامة. وهذا عذر آخر جاء به مع الكبر والضعف. وتأمل حذق الصناعة وخفاء البديع وجودته في قوله «بكشف ضر مخلف ذي عسرة». فهو من أولي الضرر. وقد تخلف بعذر صحيح. ثم هنا إشارة على الذين خلفوا عام غزوة جيش العسرة وهم الذين ذكروا في قوله تعالي: «وعلى الثلاثة الذين خلفوا آية براءة».

جعل الثناء على علاك شعاره ... فحلت به وتعطرت أشعاره

يرجو النجاة بفضل جاهك في غد ... في موقف يخشى التقي أوزاره،

أشار هنا إلى حديث الشفاعة، حين يقول كل الأنبياء نفسي نفسي وما منهم إلا يذكر ذنبا أو يعتذر حتى نوح وإبراهيم وموسى وحتى عيسى إذ اعتذر ولم يذكر ذنبا عليهم السلام أجمعين ثم يصار إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فيقوم بالشفاعة ويسجد لربه ويفتح الله عليه من محامده ومن حسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبله ويقول له الله عز وجل «ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع فأرفع رأسي فأقول أمتي يارب» - هذه القطعة من لفظ الحديث كما رواه البخاري في الصحيح في التفسير في تفسير سورة بني اسرائيل. وفي الحديث الصحيح «فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود» وفي الصحيح: «من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة»

اللهم اجعلنا بشفاعته صلى الله عليه وسلم من الناجين.

وقد أوردنا هذه القصيدة كاملة بأرب التنبيه إلى صحة ما نزعمه من استواء ديباجة هذا المديح وقوة أسره وتمام معانيه وما فيه من روحانية الصدق ونوره.

وللصرصرى كلمة رائية طويلة من مجزوء الرجز ذات طرب وإيقاع جوريت من بعده على سبيل الاستحسان والتبرك أولها:

جـــرت نسيم السحــــر على متـــــون الغـــــدر
فجعـــــــدتها وانثنـت أعطـــاف بسط الـــزهـــر

وقد ترى ذكر السحر هنا. وفي الأبيات أنفاس ربيعية سرعان ما صرفها إلى الحجاز وبانه وشيحه وعرعره.

وضمـــخت ملابـــس الروضـــ بنشـــر عطـــر
كـأنما فضت بـــــه ختـــام مسك أذفـــر
أظنهـــا مـــرت على سمار ذات السحـــر

وذات السحر كناية عن ربوع الحجاز فهذا سبب طيبها لا أنها مرت على الغدران والأزهار

فطـــــــارحتهم وأتـت مـــن نحـــــوهـم بخبر
تسنـــــده عن أرج الشـــــ يح وريـــا العــــرعــر
أملت على بـــان النقـــا مـــاعنـــدهـــا من أثـــر
فـــرنحتـــه طـــربـــا بـــرمـــزهـــا المعر

فصرح ههنا بذكر الرمز وأنه إنما يريد الكعبة والزيارة والذات المحمدية الباهرة

أذعـت يـــاريـح الصبـــا سر هــــــوى مستتر
فـــرددي مـــا شئت من حـــديثهـم وكـــرري
فـــذكـــر سكـــان الحمى تعلـــــة المستهتر
آه لعيش مـــــر لي بين اللـــوى والأجفـــر
وزمـن كـــان بنعـــــ ـــمان ربيع العمـــر

ثم أخذ في الحنين إلى ليالى الحج ـ وموقف عرفة ومبيت مزدلفة وتلك الساعات القدسية من زاد العمر

يـــاليت شعـــري هـل تعـــو د ليلتـي بـــــالمشعـــــر
وهـل تــــزول حسرة الـــــ ـــــفؤاد في محسر

بضم الميم وفتح الحاء وكسر السين مشـددة وبطن محسر قرب مـزدلفة يسرع فيـه الحاج عندما يجاوز موقف عرفة في سبيله إلى مزدلفة

وهــل لأيــــــام منـى مـن بـــــائع فـأشترى
ولـــو بـأيــــام الحيـــا ة لمحـــــة بـــــالبصر
فما على مـن ســـامهـــا بـــروحـــــه مـن غـــرر
وهــل إلى ذات الستـــــو ر أوبـــــة في عمـــــرى
فـأجتلى نـــور الـــرضـــا في روض حجــــــر نضر
وأجتنـــــى جنــــى العلى بلثـم ذاك الحجـــــر
يـــا لـك من ليـــلات قـــر ب طـــال فيهـــا سمـــرى

ولعلها " طاب فيها سمرى " فمثل هذا قد يقع فيه التحريف

لـــو سمح الـــدهـــر بها قضيـت فيهـــا وطــــرى
جـــاد شعـــاب الأبطح الـــ ـــمكي صـــوب المطـــر
وبـــــارك الـــرحمن في صبـــــاح ليـل مقمــــر

فقـد جـد في السفـر بعد النفـر ليصل إلى المدينـة في ليـال مقمـرات يطيب بهن السري :ـ

يسفر عن وادي العقيق لقرين السفر

ووادي العقيق بالمدينة

مبشرا بطـــــالـع الســــــ ـــــعد بخير البشر
بـــــالعـــــربي الهاشمي ذي الجبين الأزهـــــــر

فقولـه العربي هنـا هو الذي يـرجح عندنا أنـه عنى بنزار في الـرائيتين كل العرب وذلك أن بني اسماعيل كلهم راجعـون مع نسـب أبيهم إلى نسب أمهم أيضـا وهي من جرهم من العرب الأولى .

ثم اندفعت القصيدة من بعد في مدح محض لا ريب كان كأصلح ما يكون مثله للتغني العذب الصدوح الخفيف النغم، ذكر فيه خلق النبي صلى الله عليه وسلم وصفة خلقه ومحاسنها ومقامه السامي يوم المحشر فمن أمثله ذلك:

محمد بن هاشم بن غالب بن مضر
السيد المفضل المعزز الموقر
الطاهر المنصور والمؤيد المظفر
أجود بالمعروف من منبجس مثعنجر
منتخب من معشر أكرم بهم من معشر
وهم لعمري سادة الناس بكل الأعصر
ولا سعت أقدامهم إلا لكسب مفخر
طلق المحيا نوره يكسف ضوء القمر
صورته الجميلة الأوصاف أبهى الصور
ليس بفظ عابس جاف ولا منتهر
ميسر مؤلف وليس بالمنفر

سهل القياد قابل عذر الفتى المعتذر
أرسله الله العظيم بالهدى والنذر
وخصه مشرفا بمحكمات السور
ولم يزل مجاهدا كل غوي ممترى
حتى انجلى بنوره عنا حجاب القتر
وقهرت أمته أهلا الفلا والأبحر

ليس له في أول الخلق ولا في الأُخَّرِ

مناظر أنى وقد فضله بالنظر

الأخر بضم الهمزة والخاء مفتوحة مشددة جمع آخر أي ليس له في الأولين ولا في الآخرين مناظر إذ فضله الله بالمعراج والنظر إلى وجهه الكريم

وبالوسيلة التي لغيره لم تخطر
وبالشفاعة التي خص بها والكوثر

وباللواء في المعاد والمقام الأكبر
حتى إذا حان قيام كل ميت مقبر

فإنه أول من يخرج عند المنشر

بضم الميم أو فتحها فالضم من أنشر قال تعالى: «ثم إذا شاء أنشره». والفتح من الثلاثي، قال الأعشى: "يا عجبا للميت الناشر"

وليس تفتح الجنان قبله للبشر
عليه أزكى صلوات البارىء المصور

ثم ذكر الصحابة الكرام رضي الله عنهم

ثم على صاحبه المبجل المصدر
صديقه الأتقى أبي بكر وزين المحضر

لعلمه بتأريخ العرب وأخبار قريش وأنسابها مع ما خصه الله به من الايمان والتصديق والسبق المبين

ثم على المحدث الـ ـمفهم المبصر
ذي النظر الثاقب والقلب الصدوق عمر
ثم علي البر الشهيد الثابت المصطبر
عثمان ذي النورين من جهز جيش العسر
ثم على ابن عمه البحر الخضم حيدر
دلت على تفضيله الراية يوم خيبر
ثم على من كان طوع أمره المبتدر
من آله وصحبه الغر الكرام الصبر
وتابعيهم بالهدى من آثر ومؤثر

ثم صار إلى حنين نفسه إلى الحج والزيارة والاستغفار ورجاء الشفاعة لتكون كلمته خالصة في التقوى والعبادة وحب النبي صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه :

يا مزجي الخوص النواجي في الشسوع المقفر
إن جزت عن وادي العقيق نحو سلع فانظر
تلك القباب البيض إن عاينتها فكبر
وقف تجاه الحجرة العلياء خير الحجر
وحي من خيم في ذاك الجناب الأطهر
تحية طيبة عن العبيد الأصغر
يحيى بن يوسف بن يحيى المذنب المقصر
وقل عبيد بركم ثاو بأرض صرصر

فقد نسب نفسه كما ترى وهو مذهب للمداح قديم ـ وقد يعلم القارىء الكريم قول عمير بن شييم القطامي :

من مبلغ زفر القيسى مدحته عن القطامي قولا غير إفناد

وقال عمران بن حطان في كلمته النونية «من بعد ما قيل عمران بن حطان» ـ وقد سن مداح الرسول صلى الله عليه وسلم الأولون ذكر أسمائهم وأنسابهم ، فعل ذلك حسان في كلمته التي قال فيها

ان جدي خطيب جابية الجَوْ لان عند النعمان حين يقوم
وأبي في سميحة القائل الفا صل حين التقت عليه الخصوم

وفعل ذلك كعب حيث قال :

تسعي الوشاة جنابيها وقولهم إنك يا بن أبي سلمى لمقتول

فبذلك اقتدى مداح الرسول صلى الله عليه وسلم فيما بعد .

ياصاحب الجاه المديد الشامل المنتشر
نحن وإن كنا ذو جرم عظيم خطر
من زمرة منسوبة إليك دون الزمر

فغر عليهـا وإحمها وإن جنت فـاستغفر
وإن وهت فقـوهـا أو قهـرت فـانتصر

وكأنما نظر بهذا ببصيرة كاشفة إلى ما اقترب من خطر هولاكو، ثم ما من الله به من بعد من هداية أمم التتار والمغل ومن جاورهم جميعا إلى الإسلام فانتشر في آفاق الأرض كما لم ينتشر من قبل ، والله غالب على أمره وهو على كل شيء قدير.

قال البرعى رضى الله عنه :ـ

ضربـوا الخيـام على الكثيب الأخضر — مـا بين روضـة حـاجـر ومحجـر
وتفيئـوا فى الأثل ظـلا وارتـووا — مـن مـائه المتسجم المتفجـر
واخضر فـردوس الخمائل اذ غـدا — وسرى عليـه حيا العـريض المطـر
فكأن لـؤلـؤ طلـه رأد الضحي — درر متـى تسر النسـائم تنثـر [1]

هذا من قول أبي الطيب «دنانيرا تفر من البنان»

ولع البشـام بنفحـة نجـديـة — تغشى الـريـاض بعنبر ومعنبر

تأمل هذه الديباحة البحترية

إن النفـوس على اختـلاف طبـاعهـا — طمعت مـن الـدنيـا بما لم تظفـر
وعلى الكـريـم دلالـة عـذريـة — بصرت بـه فأرتـه مـا لم ينظـر

أي للحب العذرى طريق إلى قلب الكـريم يعرفه ويراه فيرى به الكريم مـا لم تنظر إليه عينه ولكن يراه قلبه

يـا نـازلا بـربـا الأراك عـداك مـا — مـا حملت من ولهى وطـول تـذكـرى
سل جيرة الجرعـا غـداة غـدت بهم — بـزل الـركـائب في الفـريق المصحـر

لا تزال كلمة الفـريق مستعملة في اللغة الدارجـة بمعني يقارب معنى الخليط والأصل كما ترى واحـد إذ هو ممن يخالطون في المرعي ثـم يفارقون. وللبرعي رحمه اللـه إحساس دقيق بالطبيعة. وكما الطبيعة التي نحس نفحاتها من ابن الخطيب أندلسية مغربية فيها نعومة ربيع إقليم البحر المتوسط فالطبيعة التي عند البرعي يمنية عربية ، أثلها الأخضر

وبشامها من أودية اليمن وأخياف جبالها وشعابها ، وفيها من أسر شدتها ما ليس عند ابن الخطيب . ثم مع إحساس البرعي رحمه الله بجمال الطبيعة قد أذابها كل الذوبان في نسيب المديح النبوي

سل جيرة الجرعا غداة غدت بهم   بزل الركائب في الفريق المصحر
هل جددوا عهدا بمعهد رامة   أم طنبوا بالشعب شعب العرعر
لله در العيس وهي رواسم   بمروح ومصبح ومهجر
يخرقن من حجب السراب سرادقا   ما بين طيبة والمقام الأكبر

هنا هذا النمط بحتري وبحتريته آخذة من مذهب ذي الرمة بنصيب

ويلجن في لجج الظلام ضوامرا   شوقا إلى المزمل المدثر

صلى الله عليه وسلم

الأبطحى المنتقى من غالب   والطاهر الطهر البشير المنذر
الصادق الهادي الأمين المجتبي   والسابق المتقدم المتأخر

متقدم لما سبق من ذكره أنه أول من ينشق عنه قبره ومتأخر لمقام الشفاعة للمذنبين من أمته عليه الصلاة والسلام

وابن العواتك من سليم إنه   ذو الفخر إجماعا وإن لم يفخر
ملأت محاسنه الزمان وأشرقت   بوجوده الأكوان فاسمع وانظر
وتتابعت نعم به وتطاولت   رتب تناهت في عراض المشترى

على بحترية البرعي في الديباحة تجده كثير النظر إلى معاني أبي الطيب كما ههنا :

منـــازل صعـــدت والفكـــر يتبعهـــا　　فجـــاز وهـــو على آثـــارهـــا الشهبـــا

ومن بعد يأخذ البرعي في بعض الإلماع إلى أخبار السيرة النبوية الشريفة.
وللمنشدين كلف بالبرعي، ولولا اشتهـار البردة والهمزية حتى ليس كمثل شهرتهما بين العـوام والخواص شيء من المديح لكان البرعي أشهـر المداح قاطبـة وأسيرهم كلمات، لكثرة ما ينشـد المنشدون من ديوانه وهـو الذي زعم صاحب التاج أنـه ديوانه الصغير. والبرعي مجهول تماما عند من يـرون أنهم من الخاصة من المشتغلين بالآداب وتعليمها في المدارس في عصرنا هذا. وابن الفارض وحده هو المعروف عند هؤلاء بفضل

شربنـــا على ذكـــر الحبيب مـــدامـــة　　سكـــرنـــا بها من قبـل أن يخلق الكـــرم

والكلمة اللامية:

مـــا بين بـــان المنحنى وظـــلالـــه　　ضل المتيـم واهتـــدى بضـــلالـــه

والفائية:

قلبـــي يحدثنـــى بـــأنـــك متلفـــي　　روحى فـــداك عـــرفت أم لم تعـــرف

وفيها البيت:

وعلمـت أن المستحيل ثـــلاثـــة　　الغـــول والعنقـــاء والخل الـــوفي

وهو مـا يجرى كبعض مجرى الحكمة. على أن هـذه القصائد ليست معـروفة حقـا عند المنشدين إلا أبيات الخمرية وأعرف منها الرائية القصيرة.

زدني بفـــــــرط الحب فيـك تحيرا　　وارحـم حشـــا بلظى هـــواك تسعـــرا
وإذا سـألتـك أن أراك حقيقـــــــة　　فـــاسمح ولا تجعل جـــوابى لن تـــرى
يـــا قلب أنت وعـــدتنـى في حبهم　　صبرا فحـــاذر أن تضيق وتضجـــرا
إن الغـــرام هـــو الحيـــاة فمت بـــه　　صبـــا فحقـك أن تموت وتعـــذرا
قل للـــذيـن تقـــدمـــوا قبلي ومن　　بعـــدي ومن أضحي لأشجـــاني يـــري
عنى خـــذوا وبي اقتـــدوا ولى اسمعـــوا　　وتحدثـــوا بصبـــابتي بين الـــوري

وفي هذه الأبيـات كما ترى صنـاعة وتفكير. وكأن في قولـه "يا قلب أنت وعـدتني" ما يناقض ما زعمه بعـد في قوله "قل للذين تقدموا" . ومثـل هذا قد أخذوه على كثير في قولـه : « أريد لأنسي ذكرها » فقـالوا وما له يـريد أن ينسي حبها. وقولـه "فاسمح ولا تجعل جوابي" هـو الذي حبب الناس في هـذه الكلمة لما تضمنـه من معني الإشارة إلى القرآن وتجلي الحق سبحـانه وتعـالي للجبل فجعله دكـا وخر موسـى صعقا. وإن يكن موسى عليه السلام قد قيل لـه : «لن تراني ولكن . . » فالشيخ أولى أن يقال ذلك له إلا على تأويل الرؤية بعد الفوز في الدار الآخرة على حسب اعتقادنا :

ومنـــه أن ينظـــر بـــالأبصـــار   لكـن بـــلا كيـف ولا انحصـــار

هذا في اليـوم الاخر. وقـوله "ومن أضحي لأشجـاني يري" ليس بخال مـن قلق وتتمة الأبيات إذ قد استطردنا بذكرها :

ولقـــد خلــوت مـع الحبيب وبيننـا   سر أرق مـــن النسيـــم إذا سري

وهذا بيت القصيدة

وأبـــاح طـــرفي نظـــرة أملتهـــا   فغـــدوت معـــروفـــا وكنت منكـــرا

رجع إلى الصناعة والاستعانة بباد هواك

فـــدهشت بين جمالـــه وجـــلالـــه   وغـــدا لســـان الحال عنـــه مخبرا

هذا ضعيف لما في قوله غدا لسان الحال من صناعة وعمل

فـأدر لحاظـك في محاسن وجهـــــه   تلقى جميـع الحسن فيـــه مصـــورا

أصل هذا قول ابي نواس

ليـس على اللـــــه بمستنكـــــر   أن يجمـع العـــالم في واحـــد

ونبه إليه شراح أبي الطيب ونقاده أنه أخذه منه في قوله :

نسقـوا لنـا نسق الحسـاب مقـدمـا   وأتي فـــذلـك إذ أتيت مـــؤخـــرا

وآخر رائية ابن الفارض

لــــو أن كـل الحسن يكمـل صـــورة ورآه كـــــــان مهلــــــــــلا ومكبرا

قال الشارح : " هذه القصيدة مع شهرتها بين المنشدين في غـاية المتانة وفي نهاية البلاغة وقد نظم كثير منهم على موازنتها ، قال الشيخ شرف الدين بن عنين الدمشقى رحمه الله تعالى :

مـاذا على طيف الأحبـة لـو سرى وعليهم لـــو ســاعوني بــالكـرى

وقال الأديب الوزير أبوبكر بن عمار رحمه الله تعالى :

أدر الـزجاجـة فالنسيم قـد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى

وقال الشيخ برهان الدين القيراطي رحمه الله تعالى :

لم ينقلـــوا عنى الغــرام مـــزورا مـــا كـــان حبكم حـديثـا يفترى

وقلت مطلع قصيدة في دمشق حرسها الله من الآفات :

خـذ قصـة الأشـواق يـا حـادى السرى ان كنـت مـن أهـل الغــــــرام مخبرا
وأقـــرأ صحيفـــة وجنتي مصفـــرة تـدرى الحديث فمن قـرى خبرى درى

وأما قصيدة الشيخ رضه فإنها غاية لا تدرك وطريقة لا تسلك وعقيلة لا تملك " .ا. هـ كلام الشيخ حسن البوريني الشارح (ص ٢٥٧ طبعة مرسلية ١٨٥٣م)ـ
قلت ان يكن أراد ابن عمار الأنـدلسي قتيل المعتمـد بن عباد فإن زمـانـه كان في القـرن الخامس الهجري قبل معـركة الزلاقـة وزمان ابن الفارض القرن السـابع الهجري لوفـاته ٦٣٢ هـ وإنما جـارى ابن عمار أبا الطيب وهـو الأصل وإنما أوردنا كـلام ابن الفارض للتنبيه على ما منى لذكره من اشتهار بين معاصرينا لا لشيء إلا أن المستشرقين كتبوا عنه ومـا كتب المستشرقون من كتب منهـم عنه – وأحسب من اولئك نيكلسـون المستشرق الانجليزي -إلا التماسـا لبعض معاني الحب التصوفي شريطة خلـوه من ذكر المصطفى عليه الصلاة والسلام لنفور القلوب الصليبية من ذلك ، ولله در ابن الخطيب إذ يقول :

ولـولاك لم يعجم من الـروم عـودهـا فعـــود الصليب الأعجمي صليب

وقد كنت أعجب لم لا يذكر معاصرونا البرعي عبدالرحيم وهو أرق رقة من ابن الفارض وأطبع ملكةوأسلم متنا وأجمل ديباجة. والسبب أن أكثر ترتيب مواضيع مناهج تأريخ الأدب عندنا منحو فيه نحو ما وضعه المستشرقون، وهؤلاء ربما اعترفوا بفضل شاعر كالمعري أو فيلسوف كابن سينا من أبناء الإسلام وببعض المتصوفة ممن عسى أن يجدوا عنده أنفاس حلول وما أشبه من مذهب وحدة الوجود، أما ما كان إسلاميا حقا فهم منه شديدو النفور. لذلك نفر من نفر منهم عن أبي الطيب. وكان هؤلاء عن أمثال البرعي من مداح الرسول صلى الله عليه وسلم أشد نفورا. وصدق الله العظيم. قال تعالى جل من قائل: «يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» [براءة].

رجع الحديث إلى رائية البرعى

هذا منارك يا محمد قد سما	طلعت طلائعه بنور النير
كم نازعتك الفخر سادة مكة	حسدا وهل صدف يقاس بجوهر
وفضلتهم بغبار نعلك إنما	ينمي بطيب العرق طيب العنصر

هذا جيد بالغ، لوضوح المعنى، وتخير اللفظ وقوة رنين الإيقاع وجزالة السبك.

ما نازعتك يد لنيل فضيلة	إلا وقال لها علا يدك اقصرى
أو وازنتك أكابر العرب انثنت	مرجوحة بقلام ظفر الخنصر

هذان البيتان تكرار لما قبلهما. على سلامتهما هما دون ما تقدمهما. وأحسب أن البرعى رحمه الله أتي من جهة قصده إلى الاستيعاب والشمول، إذ قد ذكر سادة مكة فبدا له، والله أعلم، أن المعنى يتم بذكر أكابر العرب، وهذا ما عليه ظاهر القياس، ولكن المعنى قد تم فلا يحتاج إلى مزيد وإن كان في قوله "مانازعتك يد" بعض التوكيد. وقوله بغبار نعلك أقوى من قلام ظفر الخنصر، أم ليس قلام الخنصر فسيطا كغيره والفسيط قلامة الظفر أم هو شر مكانا من قلام غيره؟ - وأقصى ما يؤخذ على الشاعر هنا التطويل لا الضعف ان أخذ ذلك.

ولأنت سر المرسلين وخير من	وطىء الثرى من منجد ومغور
ضربت رواق العز دونك هيبة	قصمت عرى المتكبر المتجبر

أحسبه يشير هنا إلى خبر الإراشى وأبى جهل، وقد جاء البوصيرى بالخبر أتم في الهمزية حيث قال:

وأبــو جهل إذ رأى عنق الفحــل إليــه كأنــه العنقــاء
واقتضــاه النبــي دين الإراشي وقــد ســاء بيعــه والشراء

والبوصيرى أمد باعا وأقدر على النظم وجر الأخبار لا من البرعي وسائر المداح النبويين وحدهم ولكن من كثير من كبــار من تقدموا من الشعــراء . والذي جاء بــه البرعي هنا أشبــه بطريقتــه في الترنم . وكلما أمكنــه الترنم مع النظم جاء بــه سلســا سائغــا . ومتى اضطر إلى تكلفــه مسه به ضعف . ومثل ذلــك تحسه أحيانــا عند الصرصري . وقل من كبار شعراء المولدين من لا يقع له ذلك وقد تتبع النقاد مواطن الضعف عند أبي الطيب وأبي عبادة وأبي تمام جميعا كما تعلم .

وسمت نجومك بالسعود وأشرقت　　　شمس الــوجــود لحظــك المتــوفــر

لحظك المتوفــر تتمة لما بدأ به من ذكــر النجوم والسعود . ومن أخذ عليــه رحمه الله ذكر نجوم السعــود والحظ المتوفــر مع سيرة من أكذب قــول أصحاب اليتجــوم ، وهوت على السرقة لمولده الرجوم ، فقد يجد معتذر له مخرجا بقول حسان رضى الله عنه :

يــا بكــر آمنــة المبــارك بكــرهــا　　　ولدته محصنة بسعد الأسعد

وإنما هي طريقة كلام حسن ألفتها فصاحة منطق العرب

وأرتك أنــــوار النبــوة مــــا انطــوى　　　في الكـــون من مكنــون سر مضمــــر
ووقتــك مــن لفح السمـــــــــوم غمائم　　　مبســـوطــة من فـــوق بـــدر مـــزهــر

هذا المعنى بديع ، إذ لما جعل الغمام ظلا ، التمس جعل من تحت ظل الغمام نورا ، فهو وجه الذى ظلله الغمام عليه الصلاة والسلام .

وعليك سلمت الغــزالة مــذ رأت　　　بك من بديــع الحسن أكمل منظر

وذلك أن الغزالة من رموز الحسن :

وأوابد الوحش الكــوانس في الفلا　　　نــادتك بــاســم معترف لم ينكــر

فقد انتقل هنا ما ترى من السيرة المكية وأخبارها إلى ذكر النبوة والمعجزات

وببطــن كفــك سبحــت صــم الحصــى　　　وكــــــذاك حن الجذع يــــــوم المنبر
وبنت عليــك العنكبــوت بنسجهـــا　　　في الغـــار تــوهــم أن منهجــه بـــرى

في قــولــه«أن منهجــه برى» بعض التعب والصنــاعة والمعنى أن العنكبــوت بنسجها قــد

أوقعت في وهم قفاة الأثـر أن المنهج المدخل إلى الغـار بـرىء من أثر النـاس . وأخـذ الصدر من قول الفرزدق في هجاء جرير:

ضربت عليك العنكبوت بنسجها وقضى عليك بـه الكتـاب المنـزل

أى أنت وشعـرك كنسج العنكبـوت وقد تعلـم قول اللـه في ذلك " وإن أوهن البيـوت لبيت العنكبـوت " أو إن بيتك لبيت عنكبـوت فـالـذى ضرب عليك ليس ذا عماد وطنب . وقـد أحسن البرعي إذ غير أول ألفـاظ البيـت فجعل مكـان «ضربت عليك» قولـه «وبنت عليك» إذ البناء سقف ، فأفـاد بهذا ما صنعتـه العنكبوت عنـد فم الغار ونقل نسج الفرزدق العنكبوتى من هجائه إلى معنى لا ريب فيه من المدح .

وغـدت مغيرة لإثـرك في الثـرى ورق الحمام فعـاد غير مـؤثـر

ضبطها الطابع بشدة الثاء مع كسر وما أرى إلا أن الثـاء مفتوحة مشددة أى عاد الثرى غير ذي أثر باد عليه .

وجعلت شـق البـدر معجـزة لمن في الحي مـن بـدو رأوه وحضر
ولمدحك الـوحي المنـزل فصلت آيـاتـه بفضـائل لم تحصر

كقوله تعالى : «وإنك لعلى خلق عظيم» وقوله تعالى : «فبما رحمة من الله لنت لهم» وقوله تعالى : «فأنزل الله عليه سكينته»

ومكـارم قـد عمت الـدنيـا نـدى وهـدى وأخـرى أخـرت للمحشر

وهي : «مقاما محمودا» الذي وعده الله تعالى .

حـزت الجلالـة والمهـابـة والعـلا وشفـاعـة العقبى وحـوض الكـوثـر
يـا بهجـة الـدنيـا وعصمـة أهلهـا من كـل خطب عـابس متنكـر
كن مـن أذى الـداريـن نصرى واحمنى ولنيل مـا أرجـوه مـوسم متجـرى
واجعل مـديحى فيك حبل تـواصل بينـى وبينك يـا رفيع المفخـر

فهذا توسل أخذ به في سبيل الختام

قل أنت يـا عبـد الـرحيم وكل من واليتـه في ذمـة لم تخفـر
ولمن يلينى صحبـة ورحـامـة بـالخير يـا خير الخلائق بشر
وادرأ بصـولك في نحـور حـواسـدي أبـدا وقـم بي حيث كنـت وشمـر

ومما يدني مدح البرعي من القلوب حرارة توسله بالنبي صلى الله عليه واله وسلم، واستغاثته به واستنصاره على أعدائه

وعليك صلى الله يا علم الهدى ما لاح مبتسم الصباح المسفر

الصرصري يستبشر بالأسحار ونسيمها إذ كان رحمه الله أعمى يشم اقتراب الوقت. والبرعي منفتح البصيرة والبصر على جمال طبيعة الكون حوله، فهذا الصباح يميط له عن وجهها الحجب.

وعلى قرابتك الكرام وسادة الـ إسلام صحب الخير للمتخير

صلى الله عليه وسلم.

والبرعي رحمه الله كثير الجياد الحلوات السائرات بين المنشدين الى اليوم، بين من لا يزالون تهش أسماعهم وتطرب قلوبهم لأنغام المديح النبوي على نهجه القديم الأصيل. ومما يحبب البرعي قرب مأتاه من عقائد العامة ووضوح معانيه مع جهارة رناته. وسنورد له كلمات ربما استوفينا بعضها بتمامه كهذه التي تقدمت وربما اخترنا من بعضها ـ قال رحمه الله:

بانت عن العدوة القصوى بواديها واستنشقت ريح نجد في بواديها

والبرعي من حسناته أن ليس يفرط في تعاطي البديع وله ولع بالجناس التام أحيانا وربما اتفق ذلك له في أول بيت من القصيدة كما ههنا وكما في نونيته:ـ

سمعت سويجع الأثلات غنى على مطلولة العذبات غنا

أي غناء وغنى الأولى فعل ماض

بزل دعاها الصبا النجدي فانطلقت والشوق في البيد هاديها وحاديها
حنت وأنت لمغنى طيبة طربا كأن في طيبة صوتا يناديها

الحنين والنسيب والشوق هنا للزيارة الشريفة صريح به القول لا كناية فيه

وعللتها غوادي الشام حاملة ماء معينا يروي غل صاديها
ولم تزل لغبار الارض خائضة نحو الرياض التي نور الهدى فيها

تأمل حسن هذا البيت :

محمـــد سيـــد الســـادات من مضر ... خير البريـــة قـــاصيهـــا ودانيهـــا
بـــدر سرى فـــوق أطبـــاق السماء لـــه ... قـــد دان من رتب العليـــاء ســـاميهـــا
والرســـل تشهـــد بـــالفضل العظيـــم لـــه ... دنيـــا وآخـــرة واللـــــه هـــاديها
نـــال الـــذي لم ينلـــه قبلـــه أحـــد ... في ليلـــة طـــاب مسراهـــا لســـاريها

وهي ليلة المعراج والإسراء .

أمسى يخفـف مـن أوزار أمتـــه ... ثقـــلا ويشفـع إكـــرامـــا لعـــاصيهـــا
بـــانـت عن المسجـد الأقصى ركـائبـه ... تسري إلى العـــرش لا فخـــرا ولا تيهـــا
والنـــور يقـــدمـــه مـن كل نـــاحيـــة ... والحجب تـــرفـع عن أنـــوار بـــاريها

هل بلغت تـوهمات المتصـوفـة مبلغـا أعظـم من هـذا؟ وأصـول هـذا في القـرآن والحديث كما يعلم القارئ ـ أصلحه الله وإيانا ـ فلماذا يتعب بعض الباحثين ويجهدون ليبرهنوا أن للتصوف أصـولا استعارها المسلمون من الهند ومن النصـارى ولم يعرفوه إلا منهم . نعم لم ينحرف عـن وجه الصواب إلا بما استعـار من مذاهب غير الإسـلام . أما أصول روحـانيته الحقـة فمن ههنا . ليس فيها من أخـذ عن أهل الملل . وما يغمـر هذه الابيات من نور روحاني شعشعاني لا يحتاج إلى دليل .

لما رأى الآيـــــة الكبرى وأدرك مـن ... أسرار حكمتـــه أسرار خـــافيهـــا
بـــانت حظـــائر قـدس اللـــه مشرقـــة ... بنـــوره إذ تمنتـــه يـــدانيهـــا

ههنا صدى من مطلع القصيدة .

والحجب والعرش والكـرسي ما افتخرت ... إلا بـأحمد خير الخلـق راقيهـــا

الضمير في راقيهـا يعود على الحجب والعـرش والكـرسي وأجود عنـدي أن تجعل راقيها حـالا، أخفيت الفتحة فيه كإخفـاء الضم والكسر للثقل على ياء المنقـوص وهو مذهب للعرب ولك أن تجعل (راقيها) صفة متبعـة بعد(خير الخلق) وعلى الوجه الذي قدمناه يكون المراد أنها افتخرت به إذ هو يرقاهـا وعلى الوجه الثاني "بعد أن رقاهافصار أنه رقاها نعتا له عليه الصلاة والسلام

ذاك الـــذي لـــو أعـــار المزن راحتـــه ... مـــا كف واكـف غـــاديها وســـاريها

يشير إلى خبر استسقاء الأمة به عليه الصلاة والسلام

ولــو مشى في بــلاد غير مخصبــة لجادهــا المزن واخضرت نــواحيهــا
ولــو أشــار إلى النــار التـي سعــرت أضحى ســلامـا وبـردا حـر حـاميهـا
كم مــزقـت حسراتي من مــواهبــه يـــد وكم من ملمات كفــانيهــا
يـا صفــوة اللـه يـا أعلى الــورى شرفـا يـا خــاتم الـرسل يــا مـولى مــواليهـا

أي يا سيد ســادات الناس والضمير في مواليها يعـود الى الناس على معني الجمع المؤنث أي أنت السيــد حقـا لا هــؤلاء الـذين يقــال لهم إنهم ســادتها ومــواليهـا .

يـا منتقى مضر الحمـراء يـا يـدهـا الــ ــعلياء يـانـورهـا يـا رشـد غـاويها
يا صـاحب النصر يا مردى القنـا قصدا يـا ضيغم الحرب يـا مــروي مـواضيهـا

وللبرعى نشــوة عنـد ذكـر الجهــاد وربما نظـر إلى طـريقــة أبي الطيب في نعت القتال ، وذلك من إحسانه الذي نبه عليه ابن الأثير.

يـا فـاضح القطـر والبحـر المحيط يـدا يـــا من جنى نعما حلـــو مجانيهـــا

أو حلوا مجانيها

إليـك حبرت من نيـــابتي بـــرع مــدائحــا فيك زانتهــا قــوافيهــا
عــرائس كــريــاض المسك رائقــة زهــر محاسنهــا غــر لئــاليهــا
مـا أنشـدت يـا رسـول اللـه في مــلأ إلا وسر قلـــوب النـــاس راويها

والغناء هنا عذب جهير مشرق :

ولا تجلت معـــانيهــا لـــذى أدب إلا وحــاز نصيبــا مـن معــانيهــا
فصل بمــرحمة عبــدالــرحيـم ومن يليــه أهـــلا وأرحــامــا يعـانيهـا

وتستـوقف قولتـه «يعانيهـا» . وهي بلا ريب جيـدة حيث وضعها ، لأن بـر أولي الأرحام ربما اتفقت فيه المشقة . قال تعالى جل من قـائل : «واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا» فهذا مما يقوي ما ذهب إليه ان شاء الله

والطف بنفس تـريـد الفضل منك ودم من صـولـة المكـر والمكـروه تحميهـا
عـــاشت بفضلك في أمن وفي دعــة وأنت مـن محن الــدارين كــافيهـا
صلى عليـك إلهي كـل آونـــــــة يـا سيـدي مـا تـلا الآيـات تـاليهـا
وعم صحبـك يــا بن الطيبين ومـن والاك مستقبل الــدنيــا ومـا فيهـا

بكسر باء مستقبل أي والاك مستقبلا هذه الدنيا بما فيها، لا يبالي إذ والاك ما يلقاه من خطوبها ولا معنى لفتح الباء وهو الذي في الطبع

وجاد أرضا حوتك الغيث ما سجعت ... ورق الحمام وغنت في نواحيها

وكما يرجع ابن الخطيب الى طبيعة الأندلس يرجع البرعي الى طبيعة اليمن، وله ولع بذكر الحمائم كقوله.

سجعت بأيمن ذي الأراك حمائمه ... وهمت على عذب الغوير غمائمه

وكقوله: فياحمامات وادي البان شجوك في ... ظل الأراك شجاني ياحمامات

وكقوله: سمعت سويجع الأثلات غنى ... على مطلولة العذبات غنا

وكقوله: ومن لي بأن أروي من الشعب شربة ... وانظر تلك الأرض وهي مطير

وأسمع في ظل البشام عشية ... بكاء حمامات لهن هدير

وللبرعي ولع بالبشام والأثل. وهذه الراء من مدحة له منسابة تدفق الوزن والروى، مفعمة بصبابة المحبة الروحية، جيدة المدح، متينة الأسلوب ـ كقوله:

ومدح رسول الله فآل سعادتي ... أفوز به يوم السماء تمور

نبي تقي أريحي مهذب ... بشير لكل العالمين نذير

إذا ذكر ارتاحت قلوب لذكره ... وطابت نفوس وانشرحن صدور

وكيف يسامي خير من وطيء الثرى ... وفي كل باع عن علاه قصور

وكل شريف عنده متواضع ... وكل عظيم القريتين حقير

وقال في ذكر معجزاته صلى الله عليه وسلم:

لئن كان في يمناه سبحت الحصى ... فقد فاض ماء للجيوش نمير

وخاطبه جذع وضب وظبية ... وعضو خفى سمه وبعير

ودر له الشدي الأجد كرامة ... كما انشق بدر في السماء منير

ومثل حنين الجذع سجدة سرحة ... وأنس غزال البر وهو نفور

وباض حمام الأيك في إثره كما ... بنت عنكبوت حين كان يسير

أى حين كان يسير إلى المدينة مهاجرا. واعلم أن أهل العصر قلوبهم منكرة وهم مستكبرون.

وليست معجزة من المعجزات بعسير أمرها على من له الخلق والأمر. وإذ الرسالة من عنده سبحانه وتعالى فدعمها بالمعجزة مما يناسبها. وقد يخيل إلى قوم أن أمر الرسالة

المحمدية يكون أوقع فى الأنفس حين تجرد من المعجزات. وأوشك الدكتور محمد حسين هيكل أن ينحو منحى من هذا الباب فى كتابه الحسن «حياة محمد» ـ على أن العنوان هكذا، «حياة محمد»، لايخلو من جفوة، كأنما كتبه افرنجى غير مسلم والذين يرغبون أن يباهوا بمحمد نبينا صلى الله عليه وسلم من غير إيمان بنبوته و بمعجزاته منافقون يستعاذ بالله من شرهم.

والمسلمون حقا فى كل بلاد الله يهشون لسماع القرآن ويخشعون لذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب. وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومعجزاته للقلوب شفاء وقد خلص ذكرها من المديح الفصيح إلى المديح بالدارجة الذى قد ظل دهرا طويلا مما تطرب له أبناء الأمة الإسلامية وبناتها فى المشرق والمغرب. من ذلك مثلا قول الحاج الماحى بلساننا الدارج:

القصير ا ب د م يـا محمـد
قـال لـه فيَّ سم يـا محمـد
الصـلاة وسـلام لى محمـدا
وخـاتـم الكـرام سيـدى أحمدا

ثم أخذ البرعي بعد ذكر المعجزات في ذكر الجهاد:

وان الغمام الهاطـلات تظلـه ... بـروح نسيم إن ألم هجير
ويـوم حنين إذ رمى القـوم بـالحصى ... فـولـوا وهم عمـى العيـون وعـور
وجنـد في بـدر مـلائكـة السما ... فجبريـل فيهـم قـائد وأمير
ومن قـومـه في البئـر سبعـون سيـدا ... قتيـلا ومثـل الهالكين أسير
ومن عـزمـه تخريـب خيبر مثلهـا ... قـريظـة قـرض والنضير نظير

مكان الجناس هنا أوضح في النطق اليمني إذ الضاد مقاربة للظاء. والحق أن أكثر نطق الضاد عندنا الآن بعيد عن الأداء الصحيح الجيد، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك عند الحديث عن القوافي فى أوائل هذا الكتاب فى جزئه الأول. و لا يخلو هذا البيت من لطائف بديعية على اقتصاد البرعي في البديع فلا يسرف في زخرفة بل نفس الجزالة المطبوعة أحب إليه، ولهذا ما زعمنا أن ديباجته بحترية الرنة والصفاء. على أن مكان البحترى في دقة الصناعة كما قد قدمنا. قوله قرض، يشير به إلى ما وقع بها من هلاك وانقراض. وقوله نظير يشير إلى ما وقع بالنضير من نظرة حتى إذ جاء زمان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أجلوا عن جزيرة العرب. وفي ذكر القرض والنظير ملاحة تعبير لما

في ذلك من الإيهام بالقروض والنظرة إلى ميسرة.

ومن أعجب أبيات هذه الرائية إلى كاتب هذه الأسطر ما في مقدمتها من صدق الصبابة والحب الروحي الخالص:

فــؤادي بــربـع الظــاعنين أسير ... يقيم على آثــــــارهم وأسير

في المجموعة ويسير وليس بصواب والذى في الديوان هو الصواب. أى فؤداى عند ربع الأحباء الذين ظعنوا، هو الواقف الجازع، المقيم ثم يبكى ويشجى وأنا أتقلب في البلاد

ودمعي غـزيـر السكـب في عـرصـاتهم ... فكيف أكف الـدمع وهو غـزيـر
وإن تبـــاريحي بهم وصبـــابتي ... لهن رواح في الحشـــا وبكـــور
أحـــن إذا غنـــت حمائم شعبهـــم ... وينـــزع قلبي نحـــوهم ويطير

فقد جعل قلبه حمامة من الحمائم. وعلى هذا الوجه تصح رواية من روى

يقيم على آثارهم ويسير

يقيم، باكيا على الربوع، ويسير نازعا إليها، ولكن السير والطيران لا سواء.

وأذكـــر من نجـد فـــوارس بـأسهم ... فتنجـــد أشـــواقي بهم وتغير

إما الرواية هكذا: «فوارس بأسهم» و هو مستقيم مع الإنجاد والإغارة والإغارة من حلول الغور ومن الغارة، و إما كما في المجموعة «جواري بأنسهم» وما أرى إلا أنه تحريف لتشابه رسم الأحرف، ثم فى العبارة «جواري بأنسهم» ضعف لايشبه سائر هذه الديباجة الناصعة. وقوله «فوارس بأسهم» يناسب معنى النسيب سواء أريد به الكناية أم التصريح.

فيـا ليت شعـري عـن محاجر حـاجر ... وعـن أثـــــلات روضهـن نضير
وعن عـذبـات البـان يلعبن بـالضحى ... عليهن كـــاســات النعيم تـدور

ههنا نشوة بالطبيعة من غير خروج بذلك عن روحانية الشوق وحنين النسيب.

ومن لي بـأن أروى من الشعب شربـــة ... وأنظـــر تلك الأرض وهي مطير
وأسمـع في ظل البشــــام عشيـــة ... بكـــاء حمامـــات لهن هـديـر

ثم صار إلى محض الحنين في قوله:

فيـــا جيرة الشعب اليماني بحقكم ... صلـوا أو مـروا طيف الخيـال يـزور
بعـــدتم ولم يبعــد عن القلب حبكم ... وغبتم و أنتم في الفـــؤاد حضـــور

فأصبحوا هم الذين ساروا وحبهم مقيم

أغـــار عليكم أن يـــراكـم حـــواســـدي وأحجب عنكم والمحب غيـــور

هـذا البيـت عجيب . هل زار المدينـة بعض مـن لم يكن أمـر ودهم إليـه إلا ضعيفـا وتعذرت عليه الزيارة فحز ذلك فى نفسه؟

أحيبــــاب قلبي هل ســـواكـم لعلتي طبيـب بـــــداء العـــاشقين خبير

فجـودوا بـــوصل فـــالــزمـــان مفـرق وأكثـــر عمــــر العـــاشقين قصير

و لاتغلقـــوا الأبـــواب دوني لـــزلتى فأنتـم كـــرام و الكـــريـم غفـــور

ومن ههنا صار إلى المديح صريحا . ثم يقول في آخر القصيدة :

أمـــــولاي قم بي في الخطــــوب فـإن لى تجارة مــــــدح فيـك ليس تبـــــور

عـــرائس لا تـــرضى بغيرك صـــاحبـــا لهن عـــزيـــزات المهــــور مهــــور

على هذا الوجه تأول بعضهم قول حبيب :

ولقد خطبت قليلة الخطاب

و لكن الأظهر فى هذا أنه أراد ذم أهيل زمانه ، كما صرح بذلك أبوالطيب فيما بعد

علـت وغلـت إلا عليــك فـأرخصـت ليرخص حـــورا في القصـــور قصـــور

فسر الشارح القصور بالعجز و لا يستقيم عليه المعنى إذ قال من قبل«عرائس لاترضى بغيرك صاحبا» فأين القصور بمعنى العجز مع هذا . و الوجه أن القصور الأولى بمعنى الجمع للقصر و هذا واضح و القصور هنـا قصور الجنة . والقصور الثـانية من القصور من قصره يقصره(باب ضرب) وقصر المرأة أي حبسها فـلا تخرج أي عرائس من مديحى فيك علت وغلت إلا عليك ، من أجل أن يكـون قصورهـا عليك سببا إلى الجنـة و أن تـرخص لقـائلها بـذلك الحور المقصـورات فى قصـور الجنة . ولك أن تقـول إن كلتـا الكلمتين القصور الأولى والثانية بمعنى واحد ـــ يرخص قصورهن عليك الحور اللاتى في القصور ـ أي المقصورات

مــــؤلفهـــا عبـــد الـــرحيم كأنها كـــــواكب في جـــــو السماء تنير

فهذا يمنع من تأويل القصور بمعنى العجز

لبسن معـــانيهـا بمـــدحك بهجـــة فـــــلاح لها نـــور وفـــــاح عبير

لعبدالـرحيم رحمه الله ولع بالنون فى جمع غير العـاقل يعطيه بذلك صفة العـاقل وهذا المذهب جيد في العربية، وسلكه حبيب في قوله :

و لـو كـانت الأرزاق تجري على الحجا   هلكـن إذن من جهلهـن البهــــائم

ثم يقول رحمه الله :

فقل أنت في الـدارين في حزبنـا ومن   يليــك صغير سنـــــــــه وكبير
وصلى عليك اللــــه واختـص واجتبى   فأنـت هـــدى للعـــالمين ونـــور
وعـم رضــــاك الآل والصحـب إنهم   لـــدينك يــاشمس الـزمـان بـدور

ومن جياد البرعي المشهورات :

بـــالأبــرق الفـرد أطـــلال قـديمات   لآل هنـــــد عفتهـن الغمامـــــات
وملعب لعبت هـــوج الـريـــاح بــه   كأنهم فيــه مــا ظلـــوا و مــا بــاتــوا
تنكــــــر العلم الغـــربي من إضـم   وأقفــرت بعـــد بين الــركـب رامــات
إذ الركب قبل ظعنهم كانوا هم ربيعها
تشتيتهم جمع الأحـــــزان في كبـــدي   فـــالهم مجتمع والــــركب أشتـــــات
فإن أنسـت غيـــابـــات الفـــؤاد بهم   فهم أحبيـــاب قلبي يـــا غيـــابـــات

قراءة نافع وأبي جعفر غيابات بـالجمع هذا في سورة يوسف واستعار البرعي اللفظة من هناك

فيــا حمامـات وادي البــان شجـوك في   ظل الأراك شجـــاني يـــا حمامـــات
ويـا أثيــلات نجـد مــا لعبت ضحى   إلا لعبـت بقلبي يــــــا أثيـــلات
تهيج لـــوعـــة قلبي المستهـــام إذا   هبت بنشر الصبــا النجــدي هبــات

ثم صار بهذا الحنين إلى ذروته حيث جعله شوقا إلى زيارة القبر الشريف :

فكيف حــال بعيــد الــدار مغترب   لـــه إلى الشــام حنـــات وأنـــات
يهدي التحيــــة من نيــابتى بـــرع   إلى نبي عطـــايـــاه جـــزيـــلات

الشام عنى به المدينة لأنها بالنسبة إلى اليمن شـام، ثم هي طريق التجارة إلى الشام أيام الرحلتين

محمـد سيـــد الخلــق الــذي امتلأت   من نـــوره الأرض والسبع السمـــوات

بالمعراج الذي عرجه صلى الله عليه وسلم وقد ذكر ذلك من بعد :

أسرى بـه اللـه من أرض الحجـاز إلى ... أن قبلت نعلـه الحجـب الـرفيعـات
أدنـاه من قـاب قـوس حين كلمـه ... بـالغيب مـن بعـد مـا قـال التحيـات
وزاده منـه تشريفـا وشفعـه ... في الخلق لاعـدمت منه الشفـاعـات

ومعنى الشفاعة لو تأمله المتأمل عظيم

فـالبـدر والبحـر والقطـر الملث حيـا ... والفضل والفخـر فيـه والكـرامـات
تـاللـه مـا ارتفعت للـدين مـرتبـة ... لـولا مـراتبـه الشم الـرفيعـات

وبـذلك شهـادة القـرآن العظيم : « فبما رحمة من اللـه لنت لهم ، ولـو كنت فظـا غليظ القلب لانفضوا من حولك » ـ « وإنك لعلى خلق عظيم »

أحيـا الـزمـان فـأيـام الـزمـان بـه ... يـومـان في اللـه إنعـام وغـارات
وفل شـوكـة أهل الشرك مـرتضيـا ... للـه ربـا فما العـزى ومـا الـلات
فـالخيل تصهـل والأرمـاح شـاجـرة ... والبيض والبيض مسراهـا العجـاجـات

البيض السيوف والبيض المغـافر وذكرهـا يدل على الدروع وفي روايـة والنبل أى السهام ولا يستقيم مع العجاجات لأن النابل يرمي من بعد ويتحرى أن يرى ما يرميه

ما استمطـرته ثغـور المشركين حيـا ... إلا سقتهـا القنـا والمشرفيـات

وكما تقدم مما ذكرناه تحس في أبيات الحرب هذه روح مشاركة في الجهاد

منى السـلام على القبر الـذى اعتكفت ... فيـه العـلا وانتهت فيه النهـايـات
وجـاد طيبـة مـرفض يلـوح بـه ... زهـر الـريـاض وتخضر البشـامـات

هذا منتزع من طبيعة الجزيرة العربية إذ هي قفار فإذا جادها الغيث كستها حلة الخضرة وابتسمت ثغور الأزاهير .

أرض سمـت برسـول اللـه أشرف ... من تشرفـت فيـه آبـاء وأمـات

هذا هو المعنى الذى فتقه على بن العباس وعسى أن ينال به الشفاعة لما فيه من صدق ، وإن يكن جاء به على سبيل توليد المعاني :

كم مـن أب قـد سما بـابن ذرا شرف ... كما سما بـرسـول اللـه عـدنـان

ولعمرى لو قد كان جعل القصيدة كلها نبويـة لكان ذلك خيرا له من مدحه أبا الصقر ثم كما تعلم قد اضطرته خيبة الأمل إلى هجائه .

متى أرى النور من أرجاء قبته ... متى تباشرنى منه البشارات

وهو نور تراه القلوب ـ قال الشيخ محمد المجذوب بن قمر الدين رحمهما الله :

لقد طال شوقي يا أميني لطيبة ... أشخصها طورا وطورا أناظر
تذكرت يا خلي ليالي مبيتنا ... بمسجدها والقوم باك وذاكر
تذكرت تردادي أخي بين روضة ... وبين دكاك الزيت وهي أواخر
يشاهد قلبي قبة النور وهي في ... ضياء له العافون شاموا وسامر
وإن لها نورا إلى العرش ساطعا ... تشاهده أبصارنا والبصائر

والشيء بالشيء يذكر والشيخ محمد المجذوب رضى الله عنه قريب العهد، في أوائل المائة الثانية عشرة ـ ولاريب أنه تأثر بشعر الشيخ عبدالرحيم رضى الله عنه وأرضاه.

ونعود بعد إلى الأبيات التائية :

فإن ولهت إلى قبر ابن آمنة ... فهو الذي ختمت فيه الرسالات

لأنه ليس بعد الرسول صلى الله عليه وسلم رسول

ذاك الحبيب الذي يرجو عواطفه ... وبره الخلق أحياء وأموات

ثم أخذ في ذكر المعجزات وحسن الثناء

البدر شق له والغيم ظلله ... من الهجير وسبحن الحصيات
وشاة جابر يوم الجيش معجزة ... نعم النبي ونعم الجيش والشاة
وكان في الشمس نورا لا يقوم له ... ظل بذلك جاءتنا الروايات
له فخار وتعظيم ومرتبة ... ومعجزات كثيرات وآيات

ثم أخذ في الاستغاثة :

مولاي مولاى فرج كل معضلة ... عنى فقد أثقلت ظهرى الخطيئات
وعد علي بما عودتنى كرما ... فكم جرت لى بخير منك عادات
وامنع حماي وهب لى منك تكرمة ... يا من مواهبه خلد وخيرات

الخلد الجنة والخيرات الحور يشير إلى قوله تعالى : « فيهن خيرات حسان »

واعطف علي وخذ يا سيدي بيدى ... اذا دهتنى الملمات المهمات

أى المسببات للهموم

فقد وقفت بباب الجود معتذرا ... والعفو متسع والعذر أبيات
وقل غدا أنت من أهل اليمين إذا ... زخرفن للداخلين الخلد جنات

تأمل نون النسوة هنا وقد أشرنا إلى هذا الوجه من المجىء بها عنده من قبل

فلا يخف بعدها عبدالرحيم ومن يليه أهل وصحب أو قرابات

وإن مدحتك بالتقصير معترفا فمدحك الوحي والسبع القراءات

الوحى القرآن والسبع أراد المثانى ووضع القراءات مكان المثانى لأن معنى المثاني الآيات والسبع المثاني تخصيص من عموم وهي الفاتحة، ويجوز أن يحمل مراده على الوحى أى القرآن والقراءات السبع أى الأحرف السبعة للحديث أن القرآن نزل على سبعة أحرف. ولعل هذا الوجه أقوى لظهوره

صلى عليك إلهي يا محمد ما لاحت لنورك من بدر علامات

بدر في طريق المدينة فمن أراد مكة بعدها وهو قافل من المدينة ساحل وهو الطريق الذى سلكه أبو سفيان

والآل والصحب والأزواج كلهم فهم لسادات أهل الفضل سادات

فهذه القصيدة كما ترى في قوة الصياغة ونصوعها ووضوح المعاني وتوهج روح الصدق من خلال الأبيات وحلاوة النغم وجودة تتابعه مع اليسر البالغ وسهولة الطبع وعدم التكلف فسبحان الواهب المعطى.

ومن أعجب مدائح البرعي إلى من سمعنا من المنشدين ، وهي من جياده كلمته القافية التى أولها:

أراني ما ذكرت لك الفراقا

واستعان فيها ببعض ما للمتنبى فى هذا الروى كقوله:

تظل رماحه فوق الهوادي وقد ضرب العجاج لها رواقا

وله فيها البيت السائر:

نبي أنزل الرحمن فيه تبارك والضحى والانشقاقا

وكلمته التي أولها:

قل للمطايا اللواتي طال مسراها من بعد تقبيل يمناها ويسراها

ماضرها يوم جد البين لو وقفت تقص في الحي شكوانا وشكواها

وكلمته التى أولها :

خل الغــرام لصب دمعــه دمــه	حيران توجـده الذكرى وتعـدمه[1]

والتى أولها :

يـــا راحلين إلى منى بقيـــادى	هيجتمـو يـوم الـرحيـل فـؤادى

والتى أولها

سمعت سويجع الأثلات غنى

وفيها قوله :

رعى اللــــه الحجــاز وســـاكنيــه	وأمطـــره العـــريض المرجحنـــا
وأخصـب روضـــة ملئت وفـــاء	ومـــرحمة وإحســـانـــا وحسنـــا
وقبرا فيـــه من مـــلأ النـــواحي	هـــدى ونـــدى وإيمانـــا ويمنـــا
إمـــام المرسلين ومنتقـــاهـم	وأكثـــر غيثهـم طـــلا ومـــزنـــا
وأسرعهـم على الملهـــوف عطفـــا	وأسمعهـم لـــداعـي الخير أذنـــا
وخير مغـــارس الأكـــوان أصـــلا	وأطيـب منبتـــا وأتـم غصنـــا
نمتـــه دوحـــة قـــرشيـــة من	فـــوائحهـــا ثمار الخير تجنـى

قوله : طلا ومزنا ، جعل المزن بمعنى الوابل فى مقابلة الطل وسوغ ذلك أنه ههنا جمع مزنة وهي المطرة ومن معانى المزن أنه السحاب ذو الماء فهذا يكون وابلا .
ومما لا ريب أنه كـان مما يطرب له المسلمون الموازنة بين نبينـا صلى الله عليه وسلم وبين الأنبيـاء صلوات اللـه عليهم ، وأحسب أن الحروب الصليبية وجـدل أهل الكتاب ممـا حرك ذلك ـ قال البرعي رحمه الله :

ولـــو وزنـت بـــه عـــرب وعجم	جعلت فـــداه مـــا بلغـــوه وزنـــا
متـى ذكـــر الخليـل فـــذا حبيـب	عليـــه اللـــه في التـــوراة أثنـى
وإن ذكـــروا نجي الطـــور فـــاذكـــر	نجـي العـــرش مفتقـــرا لتغنـى
وإن اللـــــه كلم ذاك وحيـــــا	وكلـم ذا مشـــاهــــدة وأدنـى

وقـد تكلم العلماء في مسألـة الـرؤية وليـس ههنا مكـان التفصيل . ومن شـاهـد بعين البصيرة فقد شاهد . ولله در البوصيرى إذ يقول :

فإن فضل رســول اللـه ليس لـــه	حــد فيعــرب عنــه نــاطق بفم

---

(١) وقد خمسها طيب الله ثراهما استاذنا الشيخ مجذوب جلال الدين وصديقه الشاعر حسن كردي رحمهما الله .

ثم بعد أن ذكر عددا من الأنبياء والمرسلين وفضلهم وما زيد به نبينا صلى الله عليه وسلم عليهم أخذ في ذكر الشفاعة والتوسل.
ثم يقول في أخريات القصيدة:

حججت ولم أزرك فليت شعري ... متى بمزارك الجاني يهنا
وثم صويحب يرجوك مثلي ... بعادك عنه أمرضه وأضنى
يكاد يذوب إن ذكروك شوقا ... إليك فهل بجاهك منك يدنى

تأمل عذوبة الروح الإنسانية التى قرنها باعتذاره هذا عن نفسه وعن صاحبه إذ يبدو أنه هو أيضا حج ولم يزر

عسى عطف عسى فرج قريب ... فقد وصل الأحبة وانقطعنا
فشرفنا بوطء تراب أرض ... بزورتها يحط الوزر عنا
وقل عبدالرحيم ومن يليه ... معى يوم الخلود يحل عدنا
عليك صلاة ربك ما تناغت ... حمام الأيك أو غصن تثنى

ومن أعجب قصائد الإمام الصالح المحب عبدالرحيم رضى الله عنه، القصيدة اللامية التي ذكر فيها مرض ابنه، وقد توسل بها إلى الشفيع صلى الله عليه وسلم، فشفي ابنه، وعسى أن يستفاد من سياق هذه اللامية أنه قد أتيحت له الزيارة فيما بعد. والشائع بين العامة عندنا أن البرعي رحمه الله لم يزر، وأنه لما عزم على الزيارة غلبه الشوق وهو متجه إليها فانشق حنينا وفاضت نفسه من غلبة حرارة الشوق والمحبة عليه، وأحسب أن صاحب البدر الطالع قد ذكر تأريخ وفاته ان كان ذكره فليراجع[1].
قال رحمه الله:

هم الأحبة إن جاروا وإن عدلوا ... فليس لى معدل عنهم وإن عدلوا

تأمل مناسبة هذا الاستهلال لما سيذكره في آخر القصيدة من مرض ابنه

وكل شيء سواهم لي به بدل ... منهم ومالى بهم من غيرهم بدل
إنى وإن فتتوا في حبهم كبدي ... باق على ودهم راض بما فعلوا
شربت كأس الهوى العذرى من ظمإ ... ولذ لي في الغرام العل والنهل

---

(١) توفى رحمه الله سنة ٨٠٣ هـ وقبره في طريق المدينة.

فليت شعري والدنيا مفرقة   بين الرفاق وأيام الورى دول
هل ترجع الدار بعد البعد آنسة   وهل تعود لنا أيامنا الأول

تأمل أنفاس هذه الصبابة ، وعذوبة هذا التعبير، ورقة هذا الحنين

يا ظاعنين بقلبي أينما ظعنوا   ونازلين بقلبي أينما نزلوا
ترفقوا بفؤادي في هوادجكم   راحت به يوم راحت بالهوى الإبل

ومع أن ظاهر هذا الكلام نسيب تجد مكان الكناية فيه غير جد خاف لأن الشاعر المحب الصالح يهيجه شوقه إلى الزيارة كلما جاء الموسم ورأى الركب اليماني قد جعل يستعد للحج ـ ألا تجده يقول بعد :ـ

فوالذي حجت الزوار كعبته   ومن ألم بها يدعو ويبتهل
لقد جرى حبكم مجرى دمي فدمي   بعد التفرق في أطلالكم طلل

أي كأن قدمت بعد التفرق لأن قلبي قد أقام لدى أطلالكم فهو جزء منها .

لم أنس ليلة فارقت الفريق وقد   عاقوا الحبيب عن التوديع وارتحلوا

كأنه يشير هنا إلى أن عزم رفاقه على الرجوع اضطره إلى الرجوع معهم فكأنهم بالذي صنعوا عاقوا الحبيب عن وداعه . والله أعلم .

لما تراءت لهم نار بذي سلم   ساروا فمنقطع عنها ومتصل

أخذ هذا من معنى تنور الشعراء لنار الأحبة . وقد تنورها امرؤ القيس بيثرب فتأمل .

لا در در المطايا أينما ذهبت   إن لم تنخ حيث لا تثنى بها العقل
في روضة من رياض الجنة ابتهجت   حسنا وطاب بها للنازل النزل

ثم تخلص إلى المدح النبوي في سهولة ويسر

حيث النبوة مضروب سرادقها   وطالع النور في الآفاق يشتعل
وحيث من شرف الله الوجود به   فاستغرق الفضل فرد ما له مثل
محمد سيد السادات من مضر   سر السيادة شمس ما له أفل
شوارد المجد في مغناه عاكفة   وريق رأفته غض الجنى خضل

تأمل عجز هذا البيت وما فيه من حسن التشبيه للرأفة بالريف وما لابس ذلك من النعت لطبيعة اليمن السمحة التي كأن طبيعة المدينة بخصبها ونخيلها والجبال المكتنفة لها جزء منها. هذا على تقدير أن عبدالرحيم رحمه الله لم يصل المدينة. على أن سياق هذه الأبيات ينبيء عن مشاهدة. وليس بمستبعد على من يكون في مثل صفاته أن يشاهد بقلبه ما قد تعجز عن دركه المشاهدة بالعيان.

تثني عليـــه المثـــاني كلما تليت	كما استنارت به الأقطار والسبل

المثاني آيات القرآن والسبع المثاني فاتحة القرآن

بحـــر طـــوارفه بـــر ومكـــرمـــة	بـــدر على فلك العليـــاء مكتمل
مـازال بـــالنـــور من صلب إلى رحم	من عهـــد آدم في الســـادات ينتقل
حتى انتهى فى الـذرى من هـاشم وسما	حلا وطفـــلا ووفي وهـــو مكتهل

يعني أنه عرف بالأمين لما صار إلى سن الاكتهال وذلك بعد الشباب وأخذ هذا من قوله تعالى "وابرٰهيم الذي وفى". ثم أخذ البرعي في ديباج خسرواني من المدح حتى صار إلى ذكر الشفاعة. وفرق ما بين هذا المدح وما كان يمدح به الشعراء الملوك ظاهر، إذ فيه المحبة الصادرة من صدق الإيمان وشعور العزة بالانتماء إلى الإسلام:

حتى انتهى في الـذرى من هـاشم وسما	حلا وطفـــلا ووفي وهـــو مكتهل
فكـان في الكـــون لا شكل يقـــاس بـه	ولا على مثلـــه الأقطـــار تشتمل
بـه الحنيفـة مـرسـاة قـواعـدهـا	فـوق النجـوم ونهج الحق معتـدل
وخلفـــه ليلـــة الإسرا على قـــدر	صلى النبيـون والأمـلاك والـرسل

ثم صار إلى ذكر الشفاعة والمقام الرفيع حين يبعثه ربه مقاماً محموداً ويفتح عليه بالثناء عليه ويشفعه في أمته، صلى الله عليه وسلم:ـ

وذلك الشـافـع المقبـول عصمتنـا	بــه إلى اللـــه في الـــداريـن نبتهل
ومنـه ظل لـواء الحمـد يشملنـا	إذ العصـــاة عليهم من لظى ظلل
وإنـه الحكم العـدل الـذى نسخت	بـــدين ملتـــه الأديـــان والملل

واعلم أصلحك الله أن اليمن لم تكن بمعزل من خطر الصليبيـة، فقد كان البرتغاليون محدقين بها من جوانب البحر المحيط ثم كفى الله شرهم.

يـا خير من دفنت في الترب أعظمـه	فطـاب من طيبهـن السهل والجبـل
نفسي الفـداء لقبر أنـت سـاكنـه	فيـه الهدى والنـدى والعلـم والعمل
أنت الحبيب الـذي تـرجي شفـاعتـه	عنـد السراط إذا مـا ضـاقت الحيل
نـرجـو شفـاعتـك العظمى لمذنبنـا	بجـاه وجهك عنـا يغفـر الـزلل

ثم صار إلى التوسل الخاص وذكر مرض ابنه

يـا سيـدى يـا رسـول الله خـذ بيـدى	في كل حـادثـة مـا لى بها قبل
قـالـوا نـزيلك لا يـؤذى وهـأنـذا	دمى وعـرضـى مبـاح والحمى همل

فهـو كما ترى يشكـو ضيما حل بـه خاصـة. ولا أحسب أن هنـا مبـالغة، بل التجـاء بالشكوى صادق. وهذا البيت يدل على أنه إمـا بالمدينة وإما في الطريق إليها بين مكة وبينها حرسهما المهيمن بعينه التى لا تنام.

وذا المسمى بـك اشتـد البـلاء بـه	فـارحم مـدامعـه في الخد تنهمل

ويروى وابنى المسمى بك وهو الذى في المجموعة والذي أثبتنا هو الذي في الديوان وكما سمعناه ينشد اعتمادا على نسخة الديوان الخطية وحفظا عن ظهر قلب "وذا" أحب إلى وأدل على الاستعطـاف لما في ذلك من الـدلالـة على القـرب والحضـور والشفقـة والتمريض، وذكر الـدموع المنهملة على خدى الطفل فيه معنى المعـاينة لحال ضعفه. وقد سمجت كلمة «التصوير» لكثرة ما يجاء به عند المتعاطين للنقد هذه الأيام، فكرهنا استعمالها في هذا الموضع. وكأن الغـلام المسكين قد أصيب بلذع من ذات الـرئة بدليل بكائه أن تنحل عقدة السعال وهي لا تنحل.

وذا المسمى بـك اشتـد البـلاء بـه	فـارحم مـدامعـه في الخد تنهمل
وحل عقـدة هم عنـه مـا بـرحت	واشرح بـه صـدر أم قلبهـا وجل

جعلها عقـدة هم ـ لأنه هـو مهتم لما به من مـرض، فالدعـوة بحل العقدة تسرى على المريض وتسرى على والده المهموم لـه، فإذا انحلت عقدة مرضه وجـاء شفاؤه انحلت

عقدة همه هو، وانشرح صدر أمه. وهذا البيت غاية في الرقة والإنسانية: وفي قوله: «عقدة هم عنه ما برحت» عموم يدخل فيه الشاعر وسائر أفراد الأسرة ومن يعنيه أمرها وإن كانوا في طريق المدينة فيدخل فيه الرفقة المعاونون أيضا. وذكر الأم بعد تخصيص لها ثم أتبع ذلك ذكر نفسه وهو داخل في العموم الذي سبق ثم هنا ليجعل اسمه فى المدحة وليرجع إلى ما كان قدمه من ذكر الشفاعة ورجاء الغفران والرحمة:

وصل بمرحمة عبد الرحيم ومن ... يليه لا خاب فيك الظن والأمل
صلى وسلم ربي دائما أبداً ... عليك يا خير من يحفى وينتعل
والآل والصحب ما غنت مطوقة ... وما تعاقبت الأبكار والأصل

قوله «يا خير من يحفى وينتعل» كأنه من قول القطامى:

أما قريش فلن تلقاهم أبدا ... إلا وهم خير من يحفى وينتعل

فسيد قريش عليه الصلاة والسلام أولاهم بهذا الوصف، والبيت من كلمة القطامى:

إنا محيوك فاسلم أيها الطلل ... وإن بليت وإن طالت بك الطيل

وهذا من المطالع الفخمات، نبه عليه ابن رشيق. والمعنى الذي تقدم لم يكن القطامى هو السابق إليه، وكأنما نظر إلى قول الأعشى.

إما ترينا حفاة لا نعال لنا ... إنا كذلك ما نحفى وننتعل

فأخذ القطامى «يحفى وينتعل» من ههنا.

وشعر الشيخ عبدالرحيم البرعي در نفيس وفي هذا الذي استشهدنا به من شعره، ومنه قصائد جئنا بها بتمامها ما يشهد بما زعمنا من متانة أسره وصفاء ديباجته، وما يقوم ببعض حجتنا في إنكار هذا الذي فشا به القول بيننا الآن من أن الفترة التى تلت القرن الخامس الهجرى فما بعده كانت فترة انحطاط للشعر ولغيره من جوانب الفكر والفن والحضارة الإسلامية. فقد سبق التنبيه منا إلى بطلان هذه المقالة. ولعل المصنف يعترف أن عصر الانحطاط هو عصرنا هذا، نسأل الله سبحانه وتعالى الفرج والنجاة.

إذا رجعنا بالقارىء الكريم إلى ما قدمناه من قبل من تشبيهنا على وجه التمثيل والتقريب للصرصرى بحبيب والبرعي بأبي عبادة والبوصيرى بأبي الطيب، فإننا نريد،

مع الذى لا نشك فيه من أن القارىء حفظه الله لا يرى أن مرادنا محض التشبيه حتى كأن المشبه والمشبه به مدرسة واحدة كما يقال، بلغة هذا الزمان، أن نحتاط لما مثلنا به البوصيرى بأبي الطيب بأن وجه المشابهة بينهما هو في أمر واحد، وهو أن كليهما ذو إقدام على ما يقول، وثقة بالقدرة على الإفصاح والبيان وجودة الشعر. مع هذا في ديباجة البوصيرى متانة نسج تذكرك أبا تمام وامتداد نفس يذكرك ابن الرومي، و لالتزامه جانب العبادة والخشوع في مخاطبة محاسن الذات المحمدية، تجد ثقته لا يخالطها ما سماه الثعالبى في حديثه عن المتنبى "إساءة الأدب بالأدب" وإنما عنى بذلك فرط التحدى وجهارة قوة التعبير مما ينفر عنه الملوك ومنادموهم وصنائعهم والمتنطسون بالقرب منهم والتقرب إليهم. مع هذا ليس البوصيرى غير ذي جهارة أو تحدى (١). كلا ذينك لديه، إلا أنهما قد جعلا عنده بعض أساليب قتاله أهل الكتاب. ذلك بأن الحروب الصليبية ما زالت محتدمة نارها على زمانه على انتصار كان من المسلمين بالمشرق وإيذان بقرب انهزام الفرنجة إذ كان جلاؤهم عن عكا وصور قبيل وفاة البوصيرى وانتصر المسلمون على التتار على أيدى حماة مصر حرسها الله تعالى، كما انحسرت غمرات الكفر عن المشرق. إلا أن الحال كانت حال جهاد. وقد اشتدت شوكة أهل الصليب بالمغرب على مسلمى الأندلس.

كنا قد قلنا في الجزء الأول من هذا الكتاب في معرض الحديث عن همزيات البحر الخفيف حين صار الحديث إلى همزية البوصيرى (توفي رحمه الله سنة ٦٩٦ هـ): «وهي تفصح بحجة الإسلام كما تفصح قصيدة دانتى بحجة المسيحية». [ص ٢٠٣ من طبعة ١٩٧٠م]. وكان الرجلان كالمتعاصرين إلا أن البوصيرى أسبق، إذ تاريخ دانتى ١٢٦٥ - ١٣٢١م - [أى ٦٦٢ - ٧٢٠هـ] وتاريخ البوصيرى ٦٠٨ هـ مولده و ٦٩٦ وفاته - ١٢١٢ - ١٢٩٨ م ولعل البحث إن جد فيه أصحابه أن يكشف لنا أن دانتى تأثر بالبوصيرى وحاكاه وبمداح الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد ذكر أسين الإسباني في رسالته عن دانتى أنه تأثر بالمعراج وأحاديثه وبرسالة الغفران المعرية. وعندى أن يكون قد تأثر بالمديح النبوي أقرب. لأن المديح النبوى كان شيئا ظاهرا، ويترنم به المسلمون في أعيادهم وجماعتهم وزواياهم ويترنمون به عند الأفراح وعند التعازى. وفي

(١) جئنا بالياء خطا للتوضيح ويجوز الوقف بالياء وبذلك قرأ ابن كثير أحد السبعة.

ليلات الجمعة مساء كل خميس وليلات الاثنين مساء الأحد. قال الصرصري رحمه الله في إحدى استغاثاته:

ففي النفس حاجات وما لقضائها   سواك إلى رب البرية شافع

أخذ قوله «وفي النفس حاجات» من أبي الطيب: «وفي النفس حاجات وفيك فطانة» من أبيات بائيته في كافور «منى كن لي إلخ».

ومجموع حالي عنده وهو عالم   بتفصيل خافيه وما هو ذائع
وفي كل يوم اثنين أو في خميسنا   رسولي بأعمالي إليك يطالع
عني منشدي مدائحه
فكن جابرا نقصي بجاهك إنه   لجاه مديد عند ذي العرش واسع
وسل ربك النصر العزيز لأمة   تكنفها قرن من النحس سابع.

يشير هنا إلى حروب التتار وحروب الصليبيين وجعل القرن كأنه قرن ثور يهجم به وأرخ لزمانه كما ترى

أضربها سحر وخلف وفتنة   لها كل عام في القلوب قوارع

فكان ذلك سبب الهزيمة.
وكتب مسلمو الأندلس المغلوبون على أمرهم إلى سلطان آل عثمان في أوائل القرن العاشر قصيدة تائية يستنصرونه ويشكون إليه ما وقع بهم من غدر وبلاء. فمما قالوه(١)

سلام كريم دائم متجدد   أخص به مولاي خير خليفة
سلام عليكم من وجوه تكشفت   على جملة الأعلاج من بعد سترة
سلام عليكم من بنات عواتق   يسوقهم اللبساط قهرا لخلوة

(١) راجع مجلة الاندلس (مدريد وغرناطة) ـ ١٩٦٦ Andalus vol. XXXI ـ المجلد ٣١ ـ ١٩٦٦م مقال منرو Monroe ص ٢٨١ وله فيه خلط مؤسف.

اللباط أي القسيس

سلام عليكم من عجائز أكرهت   على أكل خنزير ولحم الجيفة

أحسب لحم الجيفة هو الثور الذي يقتل في المصارعات وإلى الآن يقول الاسبان (أوليه) تشجيعا للمصارع. فهل كان هذا محاولة من البائسين المسلمين آنئذ أن يذكروا اسم الله على هذه البهيمة التي كان عليهم أن يأكلوا من لحمها من دون ذكاة؟

وقد أمرونا أن نسب نبينا   ولا نذكرنه في رخاء وشدة
وقد سمعوا قوما يغنون باسمه   فأدركهم منه أليم المضرة [1]

وهذا البيت هو موضع استشهادنا، إذ فيه الدليل على تغني المسلمين بالمديح النبوي. هذا بعد سقوط غرناطة. فقس عليه حال بقية المسلمين بصقلية وجنوب إيطاليا بعد هلاك فردريك الثاني (١٢٥٠م) وكان به عطف ما عليهم، زعموا أنه كان من أسباب عداوة البابوية له ولأسرته حتى أبادوها. وهؤلاء المسلمون الذين كانوا يتغنون بالمدائح والأدعية وبالقرآن بلا ريب ذكرت التائية التي مرت منها الأبيات السابقة أن منهم أهل بلدة:

بجامعهم صاروا جميعا كفحمة

ولئن صح مانرجحه من أن دانتي تأثر بالمديح النبوي وأغلب الظن بالبوصيريّ لاشتهار هذا شهرة واسعة على ذلك الزمان بقصيدتيه الهمزية والبردة على وجه التخصيص [2]، فإنه يترتب على ذلك أن يكون شعراء الأشعار الدينية الافرنج قاطبة قد تأثروا به. والمتأمل لأصناف أشعار الدينيين في الأدب الانجليزي واجد ما يدل على ذلك، مثلا قصيدة الأرج The Odour لجورج هربرت George Herbert (١٥٩٣ ـ١٦٣٣م)وهذا باب واسع. والشاهد هنا تشبيه جورج هربرت قوله: "ياسيدي" بأريج العنبر والعطور الشرقية ـ فهذا لقولهم: "فت مسكا" ـ وتضوع طيبا" ـ وفاح عرفا

(١) منه أي من الغناء

(٢) ولد دانتي بعد نصف قرن وزيادة من ميلاد البوصيري فأمر البوصيري يكون قد بلغ الآفاق في هذه المدة. ولابن أبي الخصال (٤٦٥ ـ ٥٤٠هـ) قصيدة في المعراج كانت مشهورة عند المادحين بلغنا أن نسخة خطية منها موجودة بخزانة القرويين بفاس وقصائد نبويات أخر.

وما أشبه ممـا يذكر في باب الصلاة على النبي صلى اللـه عليه وسلم . ومن عجب الأمر أن مناهج درس الانجليـزية يتلقى فيهـا طلابنـا ما يتلقـون عن الشعر الـديني في لغة القوم . ويظلون يجهلون كل الجهل شعرنا الديني . وربما خيل إلى بعضهم أنه ليس بشعر وإنما هو أوراد عبادة مما كان يعكف عليه جيـل الرجعية أو الماضي المنقرض . «ويابؤس للجهل ضرارا لأقوام . »

همزيـة البـوصيرى أوشكـت أن تبلغ أربعمائة بيت إذ هي نيـف وستـون وثلثمائة من الأبيـات ، قل فيهن بيـت سـاقط . وذلك أنـه اجتمع لـه مـع الملكـة والصـدق والعلم والافتنان ، مجال قول واسع . وقد نظم السيرة من غير أن يعمد في ذلك إلى منهج تعليمي أو قصصي سردي . ولكنه سلك مسلك التأمل والموعظة الحسنة وأتبع الأمر مايناظره أو يقـابله أو يمت إليـه بنـوع صلة من غير التـزام بالتسلسـل التأريخي ، ثقة بأنـه لن يقع التبـاس من هـذه الجهـة ، إذ مصـادر السيرة من حيث هي تأريخ معـروفـة تلتمس في مظـانها من كتب السير والتأريخ . ثـم أكثـر أخبـار سيرة النبي صلى اللـه عليـه وسلم معروفة عنـد العوام والخواص فالشاعر الفحل الـذي يتغنى بها لا يجد نفسه مضطرا إلى عمل وصناعـة إلا أن يتعمد إيثار السرد بغـرض أن يستوعب أحداث السيرة ، وهـذا ما صنعه الشيخ يوسف النبهاني في همزيته الألفية ، وفيه عناء ، مثلا نظمه الغزوات التي لم يكن فيها قتال :

غطفـــان ذات الـرقـــاع بـــواط   دومــــــة ذو العشيرة الأبــــــواء
بـــدر الأولى بـــدر الأخيرة بحــــرا   ن سليـم لحيـــــان والحمـــــراء

ومـا أراد النبهـاني أن يـربي على البـوصيري على الأرجح ولكن أن ينظم السيرة نظما على غرار همزيته من أجل التبرك .

ويلفتنا في همزية البوصيري أولا مطلعها :

كيـف تـــرقـى رقيك الأنبيـــــاء   يـــاسماء مـــا طـــاولتهـــا سماء

لما يقرع به السمع من صيغة الاستفهام الإنكاري والنداء المؤكد والتفضيل المشتمل على روح من التحدي والقتال . ولا عجب فقد كان زمان البوصيري رحمه الله زمان الحروب الصليبيـة والمسلمـون بـالمشرق مقبلـون فيهـا على نصر وقـد كشف اللـه عنهم غماء التتار، وكان البوصيرى من أهل الجهاد بـالبيان إن كانْ غيره يباشره بالسيف والسنان . غير أنه رحمه الله هل غلا شيئا فى قوله بعد هذا البيت .

لم يســـاووك في عـــلاك وقـــد حـــا ل سنـــــا منك دونهم وسنــــــاء
إنما مثلـــوا صفـــاتك للنـــا س كما مثل النجـــــــــــوم الماء

السنا الضوء والسناء الشمس والبيت جميل الصياغة متينها ومنه هذا التجنيس والتشبيه بتمثيل الماء لضوء النجـوم بانعكـاس أشكالها فيـه بليغ مذهل أول الأمـر، غير أنه ربما أحست فيه نبـوة لما يوهم من أن التمثيـل لا حقيقة له، ولايجوز ذلك في حق الأنبياء، وليس هو مراد البوصيرى، بلا أدنى شك، إذ معنى لا حقيقية تمثيل ضوء النجوم الذى في الماء أمر استفـدناه نحن من اصطـلاحات علوم الفيـزياء المعـاصرة حيث تسمى ما ينعكس على المرآة ونحوهـا لا حقيقيا (١)، ولاريب أن الضـوء المنعكس على الماء ومنه ضوء حقيقي وكأن البـوصيرى قد عمد إلى تـلافي ما قد يتبـادر إلى الوهم من قولـه هذا وليس بمراده، بالأبيات التاليات:

أنت مصبـــاح كل فضـل فما تصـــــ ـــدر إلا عن ضـــوئك الأضـــواء
لك ذات العلــوم مـن عــالم الغيـــ ـــب ومنهـــــا لآدم الأسماء
لم تـــزل في ضمائر الكـــون تختـــا رُ لَـكَ الأمهـــــات والآبـــــاء
مـــامضـت فترة من الـــرسـل إلا بشرت قـــومهـــا بك الأنبيـــاء

فـالبيت «أنت مصبـاح كل فضل» أشار بـه إلى مقـام الشفاعـة إذ كل الأنبيـاء عليهم السلام يقول نفسى غيره صلى الله عليه وسلم ثـم يشفع الشافعون بعده حتى إن خيار المؤمنين ليشفعون لمن يعلمون إيمانه ممن يتردى بـذنبه عند عبور الصراط. والبيت «لك ذات العلوم» إلخ أشار بـه إلى قوله تعالى: «وإنه في أم الكتـاب لدينا لعلي حكيم.» أي القرآن وقد نزل على محمد صلى الله عليه وسلم. والأسماء التي لآدم عليه السلام حقيقة لا خيال، فهـذا قولنـا إن البوصيري لم يـرد بقولـه «إنما مثلوا صفـاتك» إلخ أن ذلك لا حقيقة له وانه قد عمد من بعد إلى تلافي مايتبادر من توهم هذا المعنى. والبيت «لم تزل في ضمائر الكـون» إلخ واضح غير مشكل بشيء. والبيت «ما مضت فترة من الـرسل» يقوي معنى «لك ذات العلوم من عـالم الغيب» لأن تبشير الأنبياء صلوات الله عليهم بـه صلى الله عليـه وسلم سببه مـا أوحى به اللـه سبحـانه وتعـالى إليهم به من سـابق علمـه. وفي حديـث عربـاض بن سـاريـة ـ بكسر العين وسكـون الـراء وأصل معنى العرباض الرجل الطويل وكان رضي الله عنه من أهل الصفة ومن السابقين وممن نزلت

(١) هذا في باب الظلال (الظل الحقيقي) Real Image كظل الشيء من العدسات والظل اللاحقيقي Virtual Image كظل الشي من المرآة والظل يكون بالضوء.

فيهم آية براءة: « ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون » .. ما يفيد مثل هذا المعنى، إذ ذكر أن رؤيا آمنة من معنى البشارة وكذلك ترى أمهات الأنبياء. قال في المسند للإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ج٤ ص١٢٧ س١٨: «حدثنا عبدالله حدثني أبي ثنا عبدالرحمن بن مهدي ثنا معاوية يعني ابن صالح عن سعيد بن سويد الكلبي عن عبدالله بن هلال السلمي عن عرباض بن سارية قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إني عبدالله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته وسأنبئكم بأول ذلك دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى بي ورؤيا أمي التي رأت وكذلك أمهات النبيين ترين»ا . هـ حدثنا عبدالله حدثني أبي ثنا أبو العلاء وهو الحسن بن سوار (١) قال حدثنا ليث عن معاوية عن سعيد بن سويد عن عبد الأعلى ابن هلال السلمي عن عرباض بن سارية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إني عبدالله وخاتم النبيين فذكر مثله وزاد فيه أن أم رسول الله صلى الله عليه وسلم رأت حين وضعته نورا أضاءت منه قصور الشام. وفي ص ١٢٨ س ٢٦ حدثنا عبدالله حدثني أبي ثنا أبو اليمان الحكم بن نافع ثنا أبو بكر عن سعيد بن سويد عن العرباض بن سارية السلمي قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إني عبدالله في أم الكتاب لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته وسأنبئكم بتأويل ذلك دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى قومه ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام وكذلك ترى أمهات النبيين صلوات الله عليهم»ا. هـ. سعيد بن سويد المذكور في السند هو الكلبي ذكره البخاري في الكبير (٢) رقم ١٥٩٣ ص٤٧٦ طبعة ١٣٨٣هـ ١٩٦٣م - القسم الأول من ج٢ يروى عن عبد الأعلى بن هلال وعنه أبو بكر بن أبي مريم وذكر سعيد بن سويد آخر ونص على أن الأول شامي ولكن كما لاحظ المحشي هذا الثاني مرادي كوفي أو يروى عن كوفي (راجع هامش٤٧٧) وذكر البخاري اخرين كلاهما سعيد بن سويد وذكر في ميزان الاعتدال سعيد بن سويد. وعن بخاري أنه لا يتابع في حديثه وإنما علق البخاري بقوله لا يتابع على سعيد بن سويد الآخر رقم ١٥٩٤ فوجب التفريق بين الثقة وغيره والحكم بن نافع ثقة. وحديث المسند صحيح والذي في ميزان الاعتدال (٣) وهم والله تعالى أعلم.

---

(١) في الطبع طمس والصواب سوار سين مهملة بعدها واو مشددة مفتوحة وألف بعده راء مهملة افاده الثقة ا. هـ المسند للإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه الطبعة السلفية المصورة ج٤ ص١٢٧/١٢٨.

(٢) التأريخ الكبير للإمام البخاري.

(٣) ميزان الاعتدال للذهبي طبع القاهرة ١٣٢٥هـ ٣١٥٣ ج١ ص٣٨.

هـذا وإنما استشهدنـا بالحديث فى وجـوه روايتـه الثلاثـة كما في المسند فى هـذا الموضع للتنبيه على أن البوصيري فى ربطه بين البشـارة وبين «لك ذات العلوم من عالم الغيب» إنما نظر إلى ما في هذا الحديث من قوله «وسأنبئكم بتأويل ذلك» والله تعالي أعلم.

تتبـاهى بك العصـور وتسمـو ... بك عليـاء بعـدهـا عليـاء
وبـدا للـوجـود منـك كـريم ... من كـريم آبـاؤه كـرمـاء

أي بدا بعد أن كان في عالم الغيب، في أم الكتاب، وفي علم الله سبحانه وتعالي، وكما قال عـز وجل: «الذين يتبعـون الرسـول النبي الأمي الذي يجدونـه مكتوبـا عندهم في التوراة والإنجيل» وكما قـال تعالي: «وإذ أخذ ربك مـن بني ءادم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلي شهـدنا» فهذا كله من عالم الغيب والله أعلم.

نسـب تحسب العـلا بحـلاه ... قلـدتها نجـومهـا الجوزاء

وذلك أن نجوم الجوزاء كـأنها وشاح. وزعم قوم أن امـرأ القيس إنما عني الجوزاء حيث قال: "إذ ما الثـريا في السماء تعرضت"، والثريا لا تتعرض وليست كـالوشاح المفصل وأن هذه صفة الجوزاء والبيت من إحسان امرىء القيس.

حبـذا عقـد سـؤدد وفخـار ... أنـت فيـه اليتيمـة العصماء

واليتيمة والعصماء من صفة الدر وفيها إلماع إلى يتمه صلي الله عليه وسلم وإلى عصمته صلي الله عليه وسلم. ثم تجيء أبيات المولد ومناسبتها لقوله "بدا للوجود" بعد "عالم الغيب"، ومناسبتها أيضا للنسب فى قوله "نسب تحسب العلا".

ومحيـا كـالشمس منك مضيء ... أسفـرت عنـه ليلـة غـراء

هـذا من النظم الـذي لايتأتى إلا بتـوفيق وإلهام. ونعت محيـاه عليه الصـلاة والسـلام بإشراق الشمس وبهجـة ضوئهـا وارد في الحديث الصحيح، وإذ كـان مـولده في ليلـة أسفرت بوجهه جعلها الشاعر غراء وهي التي يكون فيها البدر المضيء فجمع بين محياه الشمسى الإشراق وليلـة مولـده التي صارت بـذلك غراء بـدرية ولا يكـون الكلام إلا

هكذا إذ لا توصف الليلة بأنها مشمسة وأحسب أن لو أراد أبو تمام هذا المعني لجعلها مشمسة بدليل محاولته البديعة أن يجعل النهار مقمرا حيث قال :

تــريـــا نهاراً مشمسـا قــد شــابــه نبت الـــربـــا فكأنما هـــو مقمـــر

والشيء بالشيء يذكر

ليلـة المولـد الـذى كـان للـديـــ ـــن سرور بيـــومـــه وازدهـــاء
وتـــوالت بشرى الهواتـف أن قـــد ولــــد المصطفي وحق الهنـــاء

وهذا البيت في المذهب القصصي ذروة لما في الذي سبقه من التمهيد ولما يجيء بعده من الالتفات إلى ما حول هذه الذروة من الآفاق كتداعي الإيوان وخمود النار وغيض البحيرة مما ينبيء ببروز الإسلام وانقماع الكفر وزوال دولة الشرك والجاهلية.
ولهذا البيت تخميس حسن :

حيث جبريل في السمـــوات مجد يعلـــــــن البشر فى ولادة أحمد
سمعـت أمـــه ابشرى بمحمـــد وتـــوالت بشرى الهواتـف أن قـــد
ولــــد المصطفى وتـم الهنـــاء

وحسن هـذا التخميس من أن صاحبـه مازاد على محض الترنم، إذ لـو عمد إلى زيـادة شيء من معنى أو وشي لفظى لفسد بـذلك إيقاع الكـلام واتساقه. أبشرى أشهـر فيه قطع الهمزة من الربـاعي من قولك بشرته، فأبشر أى فرح، وجاء بـه ههنا من الثلاثي فـلا يحمل على الضرورة والعجب لشـوقي إذ حاكي همزيـة البـوصيرى فى "همت الفلك واحتواها الماء (وقـد سبق منا القول فى الجزء الأول في باب همزيات الخفيف أنـا لا نراها من جيد شعره) فـذكر مولد المسيح عليـه السلام كأنه يضاهي بـذلك صفة البوصيرى ليلة مولد رسولنا عليه الصلاة والسلام، وذلك قوله :

ولـــد الطهـر يــوم مــولـــد عيسى والمروءات إلـــــــــــــخ

في أبيات اختارها أحد أصحاب الاختيارات من المسيحيين من شعر شوقى مع كلمة فى الصليب الأحمر وجعل الكلمة الثالثة المختارة :

خفـت الأذان فما عليـك مـــــؤذن يـــدعـــو ولا الجمـع الحسـان تقـام

فانظر إلى هذا من إسرار البغضاء وإظهارها كأن لم يجد في الكثير الطيب من شعر شوقي غير هذا السياق . وكلمة «المروءات» من قوله لا تخلو من ضعف في هذا الوضع إذ الشهير الفصيح إفراد هذه الكلمة كما قال أبو الطيب :

وترى الفتوة والأبوة والمروة في كل مليحة ضراتها

وموضع قوله «المروءات» مع ما تقدمه من ذكر الطهر ومولد عيسى عليه السلام كأنه مقحم وسائر الأبيات سرقة ومحاكاة للبوصيري وهذا المسلك عند شوقي رحمه الله كثير ومما يؤخذ عليه ــ وقد حاكى أبيات المولد هذه أيضا في قوله ، في قصيدته التي من بحر الكامل يذكر فيها مولد نبينا صلى الله عليه وسلم :

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء

قوله وفم الزمان إلخ صياغة أخرى لقول البوصيري «المولد الذي كان للدين سرور بيومه وازدهاء» حذف شوقي الدين وجعل اليوم زمانا . على أنه حين عدل عن خفيف البوصيري ورويه اللذين جاراهما في «همت الفلك واحتواها الماء» إلى الكامل وروي أبي الطيب :

أمن ازديارك في الدجى الرقباء إذ حيث أنت من الظلام ضياء

وما خلا من أخذ منه ، إنما اتبع حقا طريق الشهاب محمود الحلبي (رئيس دواوين الإنشاء بالشام المتوفي سنة ٧٧٥ هـ رحمه الله في ما ذكره النبهاني عند تقديم مدحته الهمزية) ، حيث قال :

ما آذنته ببينها أسماء فنقول ثاو مل منه ثواء
لكنه ذكر الحمى فتقاسمت أحشاءه الأشجان والبرحاء

ونأمل أن يتيسر لنا ذكر شيء منها إن شاء الله تعالى

قال البوصيري يذكر تداعي الايوان وما إلى ذلك

وتداعى إيوان كسرى ولولا آية منك ما تداعى البناء
وغدا كل بيت نار وفيه كربة من خمودها وبلاء
وعيون للفرس غارت فهل كا ن لنيرانهم بها إطفاء

قوله « فهل كان لنيرانهم إلخ » من باب البديع المعنوي .

فهنيئا به لآمنة الفضـ ـل الذي شرفت به حواء

من لحواء أنها حملت أحـ ـمد أو أنها بـه نفساء
يوم نالت بوضعه ابنة وهب من فخار ما لم تنله النساء
وأتت قومها بأفضل مما حملت قبل مريم العذراء
شمتته الأملاك إذ وضعته وشفتنا بقولها الشفاء

قوله «وأتت قومها» ، فإبنة وهب وضعته في مكة وكانت الشفاء قابلتها وهي من قراباتها بني زهرة رهط سيدنا عبدالرحمن بن عوف الزهري أحد العشرة وصاحب الشورى التي أسفرت عن خلافة عثمان رضي الله عنهم أجمعين والشفاء بفتح الشين وتشديد الفاء مفتوحة أمه . يجوز أن يكون من مراده بقومها في هذا الموضع أخواله بني النجار بالمدينة إذ جاءتهم به وهو غلام صغير وتوفيت بالأبواء في طريق عودتها . شمتته الأملاك من تشميت العاطس أي دعت له .

رافعا رأسه وفي ذلك الرفـ ـع إلى كل سؤدد إيماء
رامقا طرفه السماء ومرمى عين من شأنه العلو العلاء

فهذه صفة مولده إذ وضعته أمه صلى الله عليه وسلم . ثم أخذ البوصيري في ذكر ما حف ذلك من معجزات . وتأمل جودة الصياغة وسهولة انسيابها وما معها من خفي البديع ، البيت : «فهنيئا به لآمنة» تكررت فيه الفاء ـ فهنيئا ـ الفضل شرفت والبيت الذي بعده تكررت فيه حواء عند قوله (به حواء) (من لحواء) ثم جاء بحاءات متتابعات ـ حملت ـ أحمد . ثم أخذ بطريق النون ـ أنها ـ نفساء ـ نالت ـ ابنة ـ وهب ـ تنله النساء ـ ثم البيت «وأتت قومها» في صدره قاف وفي عجزه وكلمة أفضل تناغي الفضل التي مرت من قبل وتأمل الميمات قومها ـ مما ـ حملت ـ مريم ـ والشينات في البيت الذي بعده والراءات والسينات من بعد . ثم قص ما رأت أمه من إشراق أضاءت له قصور الشام ـ جاء بذلك في صياغة رشيقة صدر فيها البيتين اللذين ذكر فيهما هذه المعجزة بفعلين متقاربي الوزن مبدوءين بالتاء مع شيء من الجناس الحرفي والمتشابه :

وتدلت زهر النجوم إليه فأضاءت بضوئها الأرجاء
وتراءت قصور قيصر بالرو م يراها من داره البطحاء

ثم لما أراد ذكر الرضاعة ، جاء بصيغة أخرى ، بفعل ثلاثى مجرد فى صدر جملة قصصية موجزة جعلها صدرا للبيت التالى ومهد بها لعجز البيت المشعر بقصد إلى تفصيل يجىء بعده

وبدت فى رضاعه معجزات ليس فيها عن العيون خفاء
إذ أبته ليتمه مرضعات قلن ما في اليتيم عنا غناء

فأتتــــه مـن آل سعـــد فتـــاة ... قــد أبتهـا لفقـرهــا الـرضعــاء
أرضعتـــه لبـــانها فسقتهـــا ... وبنيهـــا ألبـــانهن الشـــاء
أصبحت شـــولا عجـــافـا وأمست ... مـــا بها شـــائل ولا عجفـــاء

الشائل التى لا لبن لها .

أخصب العيش عنــدهــا بعــد محل ... إذ غـــدا للنبي منهـــا غــــذاء
يــا لها منـــة لقــد ضـوعـف الأجـ ... ـــر عليهـــا من جنسهـــا والجزاء
وإذا سخـــر الإلـــه أنـــاســـا ... لسعيـــــد فإنهم سعـــــداء

والشعر الجيد أبدا فيه الحكمة . والبوصيرى موهوب فى هذا الباب . وهذا أيضا من أوجه الشبـه بينـه وبين أبي الطيب وأبي تمام ، وصيـاغته للحكم أقـرب فى إيجازهـا وقـوتها إلى مذهب أبي الطيب وصياغته . ثم ينهى هذا الفصل من معجزات الرضاعة بقوله :

حبـــة أنبتت سنـــابل والعصـــ ... ـــف لـديــه يستشرف الضعفــاء

وهـذا كأنـه صـدى من بيت الحكمـة الـذى مـر وتعليل لـه مـا يبرره من الإشـارة إلى الآية : «كمثل حبة أنبتـت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة» . ومعنـى قوله والعصف إلخ قال النبهانى رحمه الله العصف هو ورق النبات اليابس . قال علقمة :

تسقى مـذانب قد مالـت عصيفتها ... حــدورهـــا مـن أتِيِّ الماء مطمـــوم

وقال فى القـاموس العصف بقـل الزرع وقد أعصف الـزرع وكعصف مأكـول أي كزرع أكل حبـه وبقي تبنـه فأحسب النبهـاني جـاء بـاليبس من ههنـا وقـال فى مجاز القـرآن كعصف مأكول وهـو ورق الزرع وهو العصيفـه . فمعنى بيت البوصيرى أن هـذه الحبة أنبتت سنـابل سبعا رحمة من اللـه أسبغهـا على آل حليمة فلما طـال الزرع ولاح سنبلـه استبشر به منتظرو حصاده فهذا معنى قوله والعصف لديه يستشرف الضعفاء أي حين يعلو الزرع بسوقه وتلوح سنابله كثيرات جيدات هنالك يتطلع الضعفاء إلى يوم حصاده فإن كانوا أصحابه فهو لهم خصب وإن كـان أصحابه سواهـم فإن خصبه يعمهم حتى ولـو أقبلـوا يلتقطـون ما يبقى بعـد الحصـاد . ولا معنى لأن يستشرف الضعفـاء لـورق يابس . ومعنى البيت كما ذكرنا إن شاء الله والله أعلم .

ثم لما فـرغ من ذكـر معجـزة الخصب صـار إلى قصـة شق الصـدر وهي معجـزة أخرى . ويذكر شق الصدر أيضا في قصة المعراج .

وأتت جـــده وقـــد فصلتـــه   وبها من فصـــالـــه البرحـــاء

على تقـدير الفـرض أن قـارىء هذه القصيـدة ليس لـه سابـق علم بالسيرة فقـد أنبأه البوصيرى بيتـم النبي صلى الله عليـه واله وسلم إذ أبتـه المرضعات. ثم أن الـذي تولى كفالته جـده ههنا. ولعلم القارىء بأمر اليتـم وكفالة جده عبدالمطلب لـه، فإن سياق الخبر من أجل الذكر والعظة الحسنة والبشرى.

إذ أحاطت به ملائكة الله فظنت بأنهم قرناء

وبعض جهلاء أعداء الإسلام يبنون على خبر شق الصدر مزعما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مصـابا بالصرع ويجعلون مـا يشابه من شدة الـوحى من ذلك. ولا خفاء أن هذا من سوء الأدب. ولـو قد كان بالنبي صلى الله عليه وسلم هـذا الذى زعموه لكان رواة سيرته أول من يخبرنا به إذ لم يكتمـوا من خبره شيئا. وما ذكر عن نبي ولا عن عظيم من تفصيل الخبر كما ذكر عن نبينا صلى الله عليه والـه وسلم. ولقد صحبه أصحابه فى الحضر والسفر فما غادروا من أمره شيئا. والأطبة فى عصرنا هذا لا ينطقون قاطعين برأي فى مرض مريض، أي مـريض، إلا بعد أصناف من الكشف الدقيـق. فقد حسن سوء الأدب وضلال الرأي وسخافته لهؤلاء السفهاء أن يقـدموا على تشخيص مرض ينسبونه إلى نبينـا على الظن وبالتحـامل والبغضاء وبغـرض الطعن والسب وعلى وجه خـلاف منكـر لكـل مـا ورد من خبره، أنـــه كـان أيقظ النـــاس وأصبرهـم على مكـــاره السفـر والحرب، شج في أحد وكسرت رباعيتـاه فما انتابه ضعف ولا خور. وفر عنـه الناس يوم حنين وهو مكانه لا يريم. وكان قواما صـواما. وتحامل فى مرض وفاته فصلى وأصحابه برؤيته مستبشرون.

ورأى وجـدهـا بـه من الـوجـــ   ـــد لهيب تصلى بـــه الأحشـــاء

أى رأى عبدالمطلب حب حليمة له صلى الله عليه واله وسلم وتعلقها به.

فـارقتـه كـرهـــا وكـــان لـديها   ثـــاويـــا لا يمـل منـــه الثـــواء

وقد أحسن تضمين كلام اليشكرى ههنا. وقد رام نحو هذا الشهاب فى همزيته الكاملية في المطلع.

مـــا آذنتـــــه ببينهــــا أسماء   فنقـــول ثـــاو مل منـــه ثـــواء

والصناعة هنا على سلامة الأداء . ثم يقول البوصيري :ـ

شق عن قلبه وأخرج منه مضغة عند غسله سوداء
ختمته يمنى الأمين وقد أو دع ما لم تذع له أنباء
صان أسراره الختام فلا الفـ ـض ملم به ولا الإفضاء

وينتقل البوصيرى فى براعة قصصية من خبر الشق إلى بلوغ النبي صلى الله عليه واله وسلم أشده واشتغاله بالذكر والعبادة والتحنث وما كان عند مبعثه من ظهور الشهب تطرد الشياطين عن استراق السمع ثم يجمع بين هذا وبين تزوجه خديجة رضي الله عنها . ولو كان صاحب سرد همه تتابع الأحداث لكان ذكر بعد الرضاعة والفصال أحداثا أخر ثم أتبع ذلك ذكر الزواج ثم جاء من بعد بخبر المبعث . ولكن براعة البوصيرى تتجلى في ربطه الدقيق بين التحنث والوحي وخديجة رضي الله عنها وتثبيتها النبي صلى الله عليه وسلم وأنها كانت له وزير صدق :

ألف النسك والعبادة والخلـ ـوة طفلا وهكذا النجباء
وإذا حلت الهداية قلبا نشطت في العبادة الأعضاء

صدق . وهذا من أبيات الحكمة .

بعث الله عند مبعثه الشهـ ـب حراسا وضاق عنها الفضاء
تطرد الجن عن مقاعد للسمـ ـع كما تطرد الذئاب الرعاء

وأحسب أنه يشير بإلماع خفي إلى الكهان بقوله كما تطرد الذئاب الرعاء ، أليس الأعشى يقول :

ما نظرت ذات أشفار كنظرتها حقا كما نطق الذئبي إذ سجعا

عنى بالذئبي كاهنا بعينه هو سطيح فيما ذكروا والتى نظرت هنا زرقاء اليمامة والأشفار أراد بها أجفان العين المفرد شفر بضم فسكون وهو أصل منبت شعر الجفن وللشفر معنى آخر وليس المراد ههنا ، أعنى بيت الأعشى إذ لم يقصد إلى معنى التأنيث ولكن إلى معنى النظر . هذا ويقوى ما ذهبنا إليه من الإلماع إلى الكهانة قوله من بعد :

فمحت آية الكهانة أيا تٌ من الوحي ما لهن امحاء

ومع ذكر المبعث أتى بذكر زواج خديجة لمناسبته له من حيث مؤازرتها رضي الله عنها وإن كان الزواج قبل البعثة بخمسة عشر عاما

ورأته خديجة والتقى والزهد فيه سجية والحياء
وأتاها أن الغمامة والسرح أظلته منهما أفياء
وأحاديث أن وعد رسول الله بالبعث حان منه الوفاء

في سورة الصافات قوله تعالى يذكر تمني قريش أن ينزل عليهم كتاب فلما جاءهم تنكروا له: «وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكرا من الأولين لكنا عباد الله المخلصين فكفروا به فسوف يعلمون» وفي سورة البقرة قوله تعالى يذكر ما كان يستفتح به أهل الكتاب من يهود إذ يترقبون خروج نبي يقتلون به العرب قتل عاد وإرم، وكانوا لغرورهم لا يرون إلا أنه سيكون يهوديا منهم: «ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين»

فدعته إلى الزواج وما أحسن ما يبلغ المنى الأذكياء

وليس ذكاء مكر دنيوي ولكن ذكاء توفيق وكيس ودين:

وأتاه في بيتها جبرئيل ولذي اللب في الأمور ارتياء

عنى بذي اللب خديجة والارتياء هنا من رؤية العقل، وذلك أنها ثبتت النبي صلى الله عليه وسلم وأقنعته بالبرهان أن الذي رأى ليس برئي من الجن ولكن ملك الحق المنزل بأمره من عنده:

فأماطت عنها الخمار لتدري أهو الوحي أم هو الإغماء
فاختفى عند كشفها الرأس جبريل فما عاد أو أعيد الغطاء

أي الخمار ـ لتتأكد من أن كشفها رأسها هو سبب ابتعاد الملك فلم يعد رسول الله صلى الله عليه وسلم يبصره

فاستبانت خديجة أنه الكنز الذي حاولته والكيمياء

قد تبدو هذه القافية أول الأمر مجتلبة ولكنها بعد تأمل قليل تتضح قوة مناسبتها،

وذلك أن الكنز فيه معنى الذهب، وكانت الكيمياء في ذلك الزمان إنما يجتهد أصحابها فيها من أجل أن يحولوا التراب وما أشبه ذهبا ـ أي هو الكنز وهو المنى والمعجزة وهو الإكسير.

وانتقل البوصيري إلى نفس الدعوة وما لقيه النبي صلى الله عليه وسلم من إباء من أبى وعنادهم. وعلل هذا الإباء بالرغم من المعجزات، وعدد من المعجزات ثم ذكر انتصار الدعوة وظهور الحق ـ هذا الانتقال السريع من أول الدعوة إلى معجزاتها فانتصارها أفعل من حيث التأثير الشعري.

ثم قام النبي يدعو إلى اللـ ـه وفي الكفر نجدة وإباء
أمما أشربت قلوبهم الكفـ ـر فداء الضلال فيهم عياء
ورأينا آياته فاهتدينا وإذا الحق جاء زال المراء

هذا من باب الحمد والشكر لله أن لم يجعلنا ممن حضروا الكفر فأشربوه، وانتقال الشاعر من زمان أبي جهل إلى زمانه هو جيد بالغ.

رب إن الهدى هداك وآيا تك نور تهدي بها من تشاء
كم رأينا ما ليس يعقل قد ألـ ـهم ما ليس يلهم العقلاء

وعلل هذه الحكمة بقوله:

إذ أبى الفيل ما أتى صاحب الفيـ ـل ولم ينفع الحجا والذكاء

وإباء الفيل معجزة كانت عند مولده عليه الصلاة والسلام. ثم ذكر تحية الحجر له وحنين الجذع وأمر الغار والعنكبوت والحمامة فصار إلى ذكر الهجرة:

والجمادات أفصحت بالذي أخـ ـرس عنه لأحمد الفصحاء
ويح قوم جفوا نبيا بأرض ألفته ضبابها والظباء
وسلوه وحن جذع إليه وقلوه ووده الغرباء

قلوه: أبغضوه، وقد وده أهل المدينة وآووه صلى الله عليه وسلم

أخرجوه منها وآواه غار وحمته حمامة ورقاء
وكفته بنسجها عنكبوت ما كفته الحمامة الحصداء

أي ذات الجناح والريش وفيه معنى الرأي السديد من قولهم رأي محصد وجاء بهذا النعت من قولهم شجرة حصداء أي كثيرة الورق ودرع حصداء أي محكمة النسج

ومعنى الدرع مستكن في نسج العنكبوت في هذا الموضع، ومعنى كثرة الورق مستكن في لفظ الورقاء وإن يك معناه الرمادية اللون.

واختفى منهم على قرب مرآ ه ومن شدة الظهور الخفاء

واتلأب من بعد طريق السير الى المدينة:

ونحا المصطفى المدينة واشتا قت إليه من مكة الأنحاء
وتغنت بمدحه الجن حتى أطرب الإنس منه ذاك الغناء

يشير إلى خبر السيرة أن الناس أصبحوا يسمعون صوتا عاليا ولا يدرون من صاحبه ينشد:

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين قالا خيمتي أم معبد

خيمتا أم معبد موضع سمي بذلك من بعد وأم معبد هذه ضيفت النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه رضي الله عنه إذ درت شاتها. ثم يجيء خبر سراقة:

واقتفى إثره سراقة فاستهـ ـوته للأرض صافن جرداء

الصافن الفرس والجرداء الملساء ليست بشعراء وهذا ينبىء عن جودتها

ثم ناداه بعد ما سيمت الخسـ ـف وقد ينجد الغريق النداء

هذا تشبيه انتزعه من بيئة نيله وكان رحمه الله شديد الإحساس بالنيل وطبيعة أرض مصر وجمالها؛ هذا وذكر فرس سراقة كأنما دعا ذكر البراق على وجه من تجاوب المعاني وتداعيها. ومع أن المعراج كان قبل الهجرة، جاء به البوصيري هنا بعد خبر الهجرة لما في ذلك من المناسبة الروحية، إذ المعراج قد كان إيذانا بظهور أمر الدين وعلوه.

فصف الليلة التي كان للمخـ ـتار فيها على البراق استواء
وترقى به إلى قاب قوسيـ ـن وتلك السيادة القعساء
رتب تسقط الأماني حسري دونها ما وراءهن وراء

هذا مولد من قول أبي الطيب «مراتب صعدت والفكر يتبعها. البيت»

ثم وافى يحدث الناس شكرا إذ أتته من ربه النعماء
وتحدى فارتاب كل مريب أو يبقى مع السيول الغثاء

أراد هنا تحدي القرآن . وما أراه جمع بين التحدي والمعراج إلا لأن سورة الإسراء فيها مع ذكره أنه أسري به صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى قوله تعالى : «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرءان لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

وهو يدعو إلى الإله وإن شق عليه كفر به وازدراء

يشير بقوله «وازدراء» إلى خبر الطائف إذ أغروا به سفهاءهم

ويـــدل الـــورى على اللــــه بــالتـــو	حيـــد وهـــو المحجـــة البيضــــاء
فبما رحمة مـن اللـــــــــه لانـت	صخـــــرة مـن إبـــــائهم صماء

من براعة البوصيري فطنته إلى أن نظم آي القرآن جهد يضيع سدى لمكان القرآن من البلاغة في الذروة . فالوجه الإشارة والتضمين فمن ذلك الإشارة إلى قوله تعالى : «فاحتمل السيل زبدا رابيا» وإلى قوله تعالى : «فبما رحمة من الله لنت لهم» وإلى قوله تعالى : «لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم» فرحمة الله التي ألانت قلبه لهم ألانت قلوبهم فلم ينفضوا ، ومن حسن تأتي البوصيري أنه لما نسب تليين رحمة الله إلى قلوبهم جعلها صخرة صماء فلانت والآية «فبما رحمة من الله لنت لهم» فيها الدلالة على أن الله سبحانه وتعالى فطره برحمته لين الجانب رحيم الفؤاد على خلق عظيم ، صلى الله عليه وسلم ، ثم ختم البوصيري هذا الفصل بالإشارة إلى النصر وسورة الفتح :

واستجـــــابت لــــــه بنصر وفتـح	بعــــــــــد ذاك الخضراء والغبراء
وأطـــاعت لأمـــره العـــرب العـــر	بـــــاء والجاهليـــــة الجهــــلاء

الخضراء والغبراء أي كل مكان والخضراء السماء والغبراء الأرض ولكن المعنى الأول هو المراد إذ الأرب الدلالة على الشمول والعرب العرباء اليمن والجاهلية الجهلاء كل من كان على الشرك من العرب ـ أي كل العرب . وقد يكون المراد من العرب العرباء تأكيد بمعنى العرب الصرحاء أهل الشكائم .

وذكر العرباء والجهلاء جر إلى ذكر الجهاد والمصابرة والبلاء :

وتــــوالت للمصطفى الآيـــة الكبـــ	ـــرى عليهم والغـــارة الشعــــواء
فإذا مـــا تـــلا كتـــابـــا من اللـــ	ـــــه تلتـــــه كتيبــــة خضراء

أي تـامة عتـاد الحرب خضراء بالـدروع . هـذه الكتيبة ليست هي فقط كتيبـة الجيش المقـاتل بـالأسنـة والأعنـة والصوارم . ولكن للـه جنـودا لم تـروهـا . من ذلك مـا حل بالمستهزئين من غضب الله عليهم وذلك قبل الهجرة . قـال تعالى : «فاصدع بما تـؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين . »

وكفـــاه المستهـــزئين وكم ســـا ء نبيـــا مـن قـــومــه استهـــزاء
ورمـــاهم بــدعــوة مـن فنـاء الـــ ـــبيت فيهـــا للظـــالمين فنـــاء

صناعة البـوصيري لا تكاد تحس لجودة الأداء ورصانته وهيمنة جـانب المعاني عليه مع نصوع الألفـاظ ـ تأمل «فنـاء» بكسر الفاء وفتحهـا ـ والكـاف والسين في البيت قبله ـ ومن قبل ، الكبرى ، كتابـا ، كتيبة . ومن قبل حمتـه الحمامة ، ولوضـوح هذا وتـواتره لا ينبغي أن نزيد على مجرد الإيماء إليه .
ثم نظم البـوصيري نظم الخرز أسماء المستهـزئين . ونحـن الآن مع أحـداث مـا قبل الهجرة . وجعل في مقابلتهـا اسماء من تواطئوا على نقض صحيفة القطيعـة التي كتبتها قريش :

خمســة كلهـم أصيبـــوا بـــداء والـــردى من جنـــوده الأدواء

إي بداء قاتل

فدهى الأسود بن مطلب أى عمى ميـت بـــه الأحيـــاء

فكان عماه من أسباب انكساره حتى قضى نحبه . وقـوله« ميت به الأحياء» أشار به إلى قول الكوتي بن الرعلاء

ليس مـن مـــات فـــاستراح بميت إنما الميت ميـت الأحيـــــــــــاء
إنما الميـت مـن يعيش كئيبـــــــا سيئـــا بـــالـــه قليل الـــرجـــاء

هكذا كان ابن مطلب

ودهى الأســـود بن عبـــد يغـــوث أن سقـــاه كـأس الـــردى استسقـــاء
وأصـــاب الـــوليـد خـدشـــة سهم قصرت عنهـــا الحيـــة الـــرقطـــاء

هو الوليـد بن المغيرة و هو الذي نزلت فيه : « إنه فكـر و قدر» و في عجز البيت شيء .

وقضت شـــوكـــة على مهجـــة العـــا ص فللـــه النقعـــة الشـــوكـــاء

أي القتلة الخشنـة . وفي هذا البيت بعض القلق على حـذق المجانسة بين أولـه و آخره

و على الحارث القيـــوح و قـــد ســـا ل بها رأســـه وســـاء الـــوعـــاء

هو الحارث بن الطلاطلـة وبئس الوعاء رأسه . والوعـي بفتح الواو هو القيح فمن فتح الـــواو ومــــد المقصــــور جـــاز على هــــذا المعنى و لكـن الكسر أجـــود

خمســـــة طهـــــرت بقطعهـم الأر ض فكـف الأذى بهم شـــــــلاء

اذ كانوا من ملأ قريش ودهاتها

ثم ذكر الخمسة الذين عملوا على نقض الصحيفة الظالمة :

فـديت خمســة الصحيفــة بــالخمـــ ـــسة إن كـــان بـــالكـــرام فـــداء

أي لـو أمكن أن يفدى الكـرام فهؤلاء الخمسـة الـذين وقع بهم عذاب اللـه في الدنيـا ولعذاب الآخرة أشق فداء لخمسة الصحيفة .

يـــا لأمـــر أتـــاه بعـــد هشـــام زمعـــــة إنـــــه الفتـى الأتـــــاء

وزهير والمطعـم بـــن عـــــــــدي وأبـــــو البختري من حيث شــــاءوا

نقضـــــوا مبرم الصحيفــــة إذ شـــــ ـــــدت عليهم مـن العـــدا الأنـــداء

اذكـــــرتنـــا بأكلهـــا أكل منســـا ة سليمان الأرضــــــة الخرســــــاء

بنقل فتحة الهمزة إلى اللام . و قصة أكل الأرضة منسأة سليمان مذكورة في سورة سبأ وقد أكلت الأرضة الصحيفة إلا مـوضع اسم الله تعالى ، و مكان التشبيـه أن المشركين كانوا على ثقة بسلامـة الصحيفة وما تضمنته من البغي ، فكان أكل الأرضـة لها مما خذل من كان رأيهم التمسك بها و قد أخبر النبي صلى اللـه عليه وسلم بأمرها فـوجدوه كما ذكر عليه الصلاة والسلام !

وبها أخبر النبـي وكم أخـــــــــ ـــــرج خبأ لـــه الغيـــوب خبـــاء

والخبء هنا تشير إلى خبر سيـدنا سليمان في سورة النمل إيماء ـ وذلك في مقـال الهدهد عن قـــــوم بلقيس«ألا يسجـــــدوا للـــــه الـــــذي يخرج الخبء . الآيــــــة . »

لاتخل جـــــــانب النبـي مضيما حيث مستــــه منهم الأســــواء

في المطبـوعة «مضـاما» و لا يصح إذ الفعل ثـلاثي أجـوف يائي واوى ضـامه يضيمـه ويضومه

كل أمـــر نـــاب النبيين فـالشـــد ة فيـــه محمـــودة والـــرخــــاء

ثم علل هذه الحكمة :

لـو يمس النضار هـون من النا ر لما اختير للنضـار الصـلاء

وتعليل الحكمة أشبه بمذهب أبي تمام والصلاء النار والنضار الذهب . ثم ذكر ما حف النبي صلى اللـه عليـه وسلم من عنـايـة اللـه سبحـانـه وتعـالى ووقـايتـه

كم يـد عن نبيـه كفهـا اللـ ـه وفي الخلق كثـرة واجتراء
إذ دعـا وحـده العبـاد و أمست منـه في كل مقلـة أقـذاء
هم قـوم بقتلـه فأبى السيـ ـف وفـاء وفـاءت الصفـواء

تأمل الفاءات و الجناس في«وفاء» ـ«وفاءت»ـ والقـاف في«مقلة» ـ «أقذاء» ـ «قوم» ـ «بقتله» . وأشار إلى خبر الذي أراد قتله ثم هداه الله و إلى ذلك الإشارة في سورة المائدة : «يأيها الذين ءامنـوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطـوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم» وقـال تعالى : «يأيها الـرسول بلغ ما أنـزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته و اللـه يعصمك من الناس» و الصفواء الحجر و قـد همت حمالة الحطب أن ترميه بحجر فلم تره ، و بعد الهجرة همت اليهـود أن يلقوا عليه حجرا فكفاه الله عز وجل شرهم .

ثم ذكر خبر أبي جهل إذ هاب النبي صلى الله عليه وسلم لما جاءه يقتضيه دين الإراشي ـ رجل من بني إراشـه لوى أبوجهل دينـه فلم يؤده فدلـه الناس على الرسـول صلى الله عليه وسلم ليستعين به ، و مـا أرادوا إلا أن يسخروا به ، فكان ذلك سببا لنيلـه ما لوي عنه ظلما

و أبـوجهل إذ رأى عنـق الفحـ ـل إليـه كأنـه العنقـاء
واقتضـاه النبي ديـن الإراشـ ـي و قـد سـاء بيعـه والشراء
و رأى المصطفى أتـاه بما لم ينج منـه دون الـوفـاء النجـاء
هـو مـا قـد رآه من قبـل لكن مـا على مثلـه يعـد الخطـاء

وذلك أنه هم بالنبي صلى الله عليه وسلم فـرأى دونه فحلا و هو عين الفحل الذي رآه لما جـاءه النبي صلى الله عليـه و سلم يقتضيـه دين الإراشي ـ فهـذا من خبر أبي جهل عدو الله كما ترى . ثم ذكـر خبر حمالة الحطب و هي أم جميل بنت حرب زوج أبي لهب بن عبد المطلب بن هاشم

وأعـدت حمالـة الحطب الفهـ ـر و جـاءت كـأنها الـورقـاء

و ذلك أن الحرم فيه الحمام الورق- و الحمامة خفيفة الخطا ونعت البوصيري أم جميل أنها جاءت كحمامة، نعت جيد، لما فيه من صفة هيئة دخولها، ثم كأن ههنا إشارة لقصة الحمامة التي دخلت على سيدنا داود في مصلاه إذ كان دخول أم جميل في الحرم، ثم الحمامة علامة سلم و الحمام بالحرم آمن، و قد جاءت أم جميل بمظهر الحمامة المسالمة وما جاءت إلا لحرب. قالوا وكان أبولهب و أم جميل كلاهما على حظ من جمال الصورة مع ما كان من سوء الطوية

يوم جاءت غضبي تقول أفي مثـــ ـــلي من أحمد يقـــال الهجـــاء

تشير إلى الآية. وقالت: «مذمما أبينا و دينه قلينا»، تهجو بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما صنعت شيئا إذ لم يكن اسمه مذمما فمنعت من هجائه صلى الله عليه وسلم كما منعت من رميه بفهرها:

وتـــولــت ومـــا رأتـــه ومـــن أيــــ ـــن ترى الشمس مقلة عمياء

ثم إذ الشيء بالشيء يذكر جاء بخبر امرأة أخرى همت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بشر و هي زينب بنت الحارث اليهودية و العجب للأستاذ المستشرق ألفريد غيوم Alfred Guillaume ترجم خبرها عن ابن هشام على صحته في ترجمته The life of Muhammad-A Translation of Sirat Ibn Ishaq's Sirat Rasul Allah- London 1955-p. 516:

حيث ذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم صفح عنها و نص ترجمته:

So the Apostle let her off

ثم جزم بأنه قتلها في الكتيب الصغير الذي كتبه عن الاسلام وهو Islam by Alfred Guillaume من طبع بنجوين سنة١٩٥٦ ــ ١٩٧٨ في صفحة٤٩ حيث قال بها ترجمته «وطبعا أعدمت زينب»

Of course Zaynab was put to death

و هذا الذي جزم به لا يبرره نقله و ان تك قد وردت به بعض الروايات(انظر الروض٦/ ٥٧٠):ـ

ثم سمت لــه اليهــوديــة الشــا ة و كم ســام الشقــوة الأشقيـــاء

فأذاع الــذراع مـــا فيـــه من شر بنطـق إخفــــاؤه إبـــــداء

و بخلـق مـن النبي كــــــريـم لم تقــاصص بجـرحهــا العجماء

فهذا هو الخبر الصحيح و جعلها عجماء إذ كانت يهودية و ذكروهـا في الصحابة وأنها أسلمت :

من فضــلا على هــوازن إذ كـــا ن لـــه قبل ذاك فيهم ربــاء

وأتى السبي فيـــه أخت رضـــاع وضع الكفـر قـدرهـا و السبـاء

فحبـاهـا بـرا تـوهمت النـا س بـــه أنها السبـاء هـــداء

هذه قصة الشيماء أخته من الرضاعة و ذلك أنها عرفته بنفسها فلما عرفها صلى الله عليه وسلم أكرمها إكراما توهم به من لم يكن قد عرف خبرها أنه صلى الله عليه وسلم أرادها زوجة وذلك أنه بسط لها رداءه ولاطفهـا برا بحقها وكانت سببا في إطـلاق السبايا والمن الذي منه اللـه و رسوله على هوازن ، حتى إن مالك بن عوف النصري قـائد هوازن وفد إلى رسول اللـه صلى الله عليـه وسلم من بعد وأستأمن وأسلم وحباه رسول اللـه عليه الصلاة والسلام حبـاء المؤلفة قلـوبهم و مدحـه صلى الله عليـه وسلم بكلمة منهـا :

مـــا إن رأيت ولاسمعت بمثلــه في النـــاس كلهم بمثل محمـــد

أوفى وأعطى للجــزيـل اذا اجتــدي ومتـى يشـأ يخبرك عما في غـــــد

يعني الحدس والألمعية والكشف لا علم الغيب فذلك أستأثر به الخالق سبحانه وتعالى وفي سورة الأعـراف : «قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء اللـه ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء . »

بســـط المصطفـــى لها مـــن رداء أي فضـل حـــواه ذاك الـــرداء

فغـــدت فيـــه وهي سيـــدة النســـ ـــوة والسيـــدات فيـــه إمـــاء

أي كالإماء بالنسبة إليها لما نالته من عظيم الحرمة .

وهنا التفت البـوصيرى إلى محض الثناء الحسن عليه صلى اللـه عليه وسلم فجعل ذلك فصلا خلص منـه إلى الترنم بذكر بعض المعجزات ، ثم اتبع ذلك تغنيـا يتمنى به الحج ورؤية البيت الحرام ولثم تراب تلك الـرباع القدسية من مكة والمدينـة حرسهما الكريم

القديم الجبار.

فتنـــزه في ذاتـــه ومعـــانيــــ ـــه استماعـا إن عـز منهـا اجتـلاء
وامـــلإ السمـع من محاسـن يمليـــ ـــها عليك الإنشـــاد والإنشـــاء

وهنا وصف جيـد لطريقته في النظم أنـه يتغنى به وينشـد وينشيء ويصوغ مع ذلك، وهذا منهج الفحـول من الشعراء أهل الملكـة والتجويـد. وكذا روي عن أبي الطيب. وقـريب منه عـن أبي تمام، وكذلك في خبر الأحـوص إذ جعل يـروض النغم على اسم موضع واسم رجل هم بهجائه. والذي وصى به ابن طباطبا - وقد مر ذكره - منهج أهل الصناعة والنحت. ورنة الإيقاع جليـة في نمط البوصيرى ولهذه القصيدة صلاة يفصل بها المنشدون بين فصولها، وإنما ينشدون منها الفصل والفصلين على سبيل الاختيار، لا كلها في المرة الواحدة لطولها، وهي:

صل يـــا رب ثم سلـم على من هـــو للخلـق رحمة وشفـــاء

وطريقـة التغنى بها متشابهة على مـا يكون من اختـلاف وجوه النغم والغنـاء في مختلف أقطار الإسلام.

كل وصف لـه ابتـدأت بـه استـو عب أخبـار الفضل منـه ابتـداء

هذا البيت أيضا فيه تنبيه على طريقته هو رحمه الله في صوغ القريض وقد ذكرنا من قبل أن من الشعراء من يوصد بـاب القول على نفسه فلا يترك لنفسه عندمـا يبتدىء ما يدع مجالا للقول يلي. وكأن البوصيرى قد فتح الله عليه فتحا خاصا بأن كل ابتداء في مدح الرسـول فالصفـة التي يذكرهـا فيه تستـوعب كل فصل، ولكنه يستطيع أن يبـدأ بدءا جديـدا، فكل بداية نهايـة، لأن كل فضيلة من فضائلـه صلى الله عليه وسلم شـاملة لكل الفضائل، ثم ليس لفضائله حصر، فتأمل هذا الحذق

سيـــد ضحكـــه التبسـم والمشـــ ـــى الهوينـا ونـــومـــه الإغفـــاء
رحمة كلـــه وحـــزم وعـــزم ووقـــار وعصمــــة وحَيـــاء
لا تحل البأسـاء منـه عـرى الصبـ ـــر ولا تستخفــــه السراء
كـرمت نفســه فما يخطـر السـو ء على قلبـــه ولا الفحشـــاء

هذا بيت عزيز دقيق المعنى. أي معدن نفسه صلى الله عليه وسلم وجوهرها شريف كريم فهو بطبيعة شرفه وكرمه مناف وناف لكل دنس

عظمت نعمة الإله عليه فاستقلت لذكره العظماء

وذلك أن العرب وهم ما هم قد أحبوه حبا لم يحبوه أحدا قبله ولا بعده وما ملك قلوبهم إلا بتلك النعمة التي أنعمها الله سبحانه وتعالى عليه صلى الله عليه وسلم وبه عليهم. ومما يعجبني هذا الخبر الذي نقله صاحب المجموعة (ج ـ ١ ـ ٥٦): عن زيد بن أرقم قال خرج عمر رضى الله عنه في خلافته ليلة يحرس فرأى مصباحا في بيت عجوز تنفش صوفا وتقول:

على محمد صلاة الأبرار صلى عليه الطيبون الأخيار
قد كنت قواما بكى بالأسحار يا ليت شعرى والمنايا أطوار

هل تجمعنى وحبيبي الدار

تعنى النبي صلى الله عليه وسلم فجلس عمر يبكي ثم قام فسلم عليها وقال لها أعيدي على قولك فأعادته بصوت حزين فبكى وقال لها: وعمر لا تنسيه[1] يرحمك الله فقالت:

وعمر فاغفر له يا غفار

ورووا في الحديث ما معناه أن عمر رضى الله عنه ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم حبه له أكثر من كل شيء إلا نفسه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معناه أن لا يستثنى نفسه حتى يتم بذلك إيمانه ففعل رضى الله عنه وهو بذلك صادق وهو الصواب لأن المسلم لا يعرف نفسه المطمئنة إلا بمعرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه باب الإيمان بالله ولا يعرفه صلى الله عليه وسلم إلا بحبه إذ الحب باب الاتباع وباتباعه يكون حب الله للعبد الصالح

جهلت قومه عليه فأغضى وأخو الحلم دأبه الإغضاء
وسع العالمين علما وحلما فهو بحر لم تعيه الأعباء

قوله لم تعيه الأعباء مناسب لذكر البحر ههنا وما أرى إلا أنه أخذ هذا من صورة النيل

---

(١) أي لا تنسيه أن تجمعه هو أيضا الدار مع الحبيب صلى الله عليه وسلم.

وحركة السفن الدائبة عليه وأهل النيل يسمونه البحر وهو لفظ صحيح في العربية وجاء بمثله القرآن الكريم

مستقل دنياك أن ينسب الإمـ ـساك منها إليه والإعطاء

قوله دنياك هنا جيد، أي دنياك يا أيها الدنيا إذ لم يكن هو صلى الله عليه وسلم من طالبي زهرتها

شمس فضل تحقق الظن فيه أنه الشمس رفعة والضياء

هذا عاد به إلى قوله قبل «سنا منك دونهم وسناء» وجعله نهاية لهذا الفصل ليتخلص منه إلى ما قدمنا ذكره من ترنمه بالمعجزات

فإذا ما ضحا محا نوره الظل وقد أثبت الظلال الضحاء

فكأن الغمامة استودعته من أظلت من ظله الدفعاء

يقول إن نور النبي صلى الله عليه وسلم يمحو ظله عند ارتفاع النهار والضحاء ارتفاع النهار فكأن الغمامة التي كانت تظله صلى الله عليه وسلم قد جعلت النبي صلى الله عليه وسلم مستودعا من جانبها عند هذا النور فصار هذا النور ظلا له كما كانت هي ظلا له. الهاء في استودعته ضمير يعود على (نوره) في البيت المتقدم. ومن مفعول ثان لقوله استودعته ويريد به النبي صلى الله عليه وسلم والدفعاء أي الذين دفوا على أثره من أصحابه من بعده لأنهم بظله صلى الله عليه وسلم قد أظلوا الناس، أبوبكر وعمر وعثمان وعلى الخلفاء الراشدون المهديون من بعده والصحابة الكرام وتابعوهم بإحسان رضي الله عنهم. قال النبهاني الدفعاء المراد بهم أصحابه صلى الله عليه وسلم وعلى هذا البيت كلام كثير يراجع في الشروح قلت ما تقدم ان شاء الله فهو الصواب ودفعاء جمع دفوف مبالغة من ذاف بتشديد الفاء من دف يدف

خفيت عنده الفضائل وانجابت به عن عقولنا الأهواء

أي خفيت فضائل كل شيء بالنسبة إلى فضائله وذهب حب كل شيء بالنسبة إلى حبنا له وسلمت عقولنا بذلك من هوى النفوس أهواءها وذلك للرأي آفة

أمع الصبح للنجوم تجل	أم مع الشمس للظلام بقاء
معجز القول والفعال كريم الـ	ـخلق والخلق مقسط معطاء
لا تقس بالنبي في الفضل خلقا	فهو البحر والأنام إضاء
كل فضل في العالمين فمن فضـ	ـل النبي استعاره الفضلاء

لأنه موصوف بالخلق العظيم في القرآن والقرآن في أم الكتاب ـ على هذا يخرج هذا القول والله أعلم

شق عن صدره وشق له البدر ومن شرط كل شرط جزاء

ههنا بديع الاستخدام لأن الشرط هو القطع والشق وهو أيضا في النحو معروف، وكل جرح فله جزاء يكون تعويضا عنه، فعن شق الصدر تعويض له بملئه علما وحلما وعن شق البدر ضياء عمه وعم أمته. ولكل شرط في النحو جزاء والمراد المعنى الأول وهذا الثاني ورى به وتجوز إرادته فيكون قد جاء بكلمة الشرط على معنيين لها وهذا هو الاستخدام، وجعلوا منه عند من قال ذلك قول الله تعالى: «فمن شهد منكم الشهر فليصمه» أي الهلال وعدة أيام الشهر.

ورمى بالحصى فأقصد جيشا ما العصا عنده وما الإلقاء

عاد رحمه الله إلى الموازنة وحرب أهل الكتاب. وكما قدمنا ينبغي أن يحمل هذا على ما كان بين المسلمين وخصومهم من عراك البيان والجدل. والعصا عصا موسى عليه السلام والإلقاء إشارة الى قصته مع السحرة إذ القوا ثم القى عليه السلام في سورة الأعراف: «وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فاذا هي تلقف ما يأفكون» هذا في خبر سيدنا موسى عليه السلام وقد تكرر ذكره في الآيات المحكمات وفي سورة الأنفال: «فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى» وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ حفنة من حصباء ورمى بها وقال شاهت الوجوه وأمر صحبه أن شدوا فكان النصر وذلك يوم بدر الكبرى.

ودعا للأنام اذ دهمتهم سنة من محولها شهباء
فاستهلت بالغيث سبعة أيا م عليهم سحابة وطفاء

الوطفاء التي لها وطف كأهداب الجفون لكثرة مائها وثقلها وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعله الله غيثا غدقا طبقا فكان وإلى هذا المعنى أشار البوصيري بنعته السحابة بأنها وطفاء، وكأن في ذلك إشارة إلى قول امرىء القيس

ديمة هطلاء فيها وطف طبق الأرض تحرى وتدر

وقد جاء البوصيري بتتحرى في البيت التالي:

تتحرى مواضع الرعي والسقي وحيث العطاش توهى السقاء

أي تصب الأسقية وكأنها واهية أفواهها حين يشتد العطش وكذلك يرسل الله

سبحانه وتعالى السحاب مدرارا حين يشتد المحل ويجأر الناس إلى ربهم بالسقيا .

وأتى النـــاس يشتكـــون أذاهـــا ورخـــاء يـــؤذي الأنـــام غـــلاء
فـــدعـــا فـــانجلي الغمام فقل في وصف غيث إقـــلاعـــه استسقـــاء
ثم أثـــرى الثـــرى فقـــرت عيـــون بقـــراهـــا وأحييت أحيـــاء

فهـذه صورة انتـزعهـا من غمـر النيل الأرض وإقـلاعه عنهـا فيعم بـذلك الخير ويخضر الريف

فترى الأرض غبـــه كساء أشرقت في نجـومهـا الظلماء

والـذي يحدث في الصحراء عمـوم النوار مع الخضرة فـالصورة التي يصف أشبـه بزروع النيل ونواويره إذ هي التي تشبه الظلماء بشدة خضرتها

تخجل الـدر واليواقيت من نـو ر ربـاهـا البيضـاء والحمـراء

وأزهار الصحراء غب المطر أكثر اصناف ألوان ، والبياض والحمرة في ألوان نواوير زروع النيل أكثـر ، وليس بعسير على شـاعـر تخيـل منظـر النبـات أنى كـان ، وقـد رأى البوصيري جوانب الحجاز ورأى مكة والمدينة فليس ببعيد أن يكون رأى نحو ذلك منها غب مطر . وبيئة الشاعـر كما تكون أصلا لما يقوله ، كذلك خيـاله وتجاربه كل ذلك له بيئة . ومـن تجارب الشعراء علمهم بـالأشعار ومذاهـب القول فيها ، ثـم إن البوصيري يرتاح عنـد هذا الفصل إلى تمنى رؤيته صلى الله عليـه وسلم يجعل ذلك تمهيدا لموضوع الحج والزيارة فيما بعد ولذكر الجهاد فيما يلي مباشرة .

ليتـــه خصنـي بـــرؤيـــة وجـــه زال عـن كـل مـن رآه الشقـــــاء
مسفـــر يلتقي الكتيبـــة بســـا مـــا إذا أسهـم الـــوجـــوه اللقـــاء

عرف كعب بن مالك رضي الله عنه عيني رسول الله صلى الله عليه وسلم تزهران تحت المغفر ساعة اشتـداد البلاء يوم أحد فبشر المسلمين فأشار إليـه الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينصت .

جعلت مسجدا له الأرض فاهتز به للصلاة فيها حراء

يقال له الآن جبل النور وهو من أجمل جبال مكة

مظهـر شجـة الجبين على البر ء كما أظهـــــر الهلال البراء

أي أول الشهر

ستر الحسن منه بالحسن فاعجب لجمال له الجمال وقاء

أي صارت شجة الجبين على وجهه الحسن هي نفسها حسنا

فهو كالزهر لاح من سجف الأكمام والعود شق عنه اللحاء

هذه الصورة نيلية بلا ريب . ويسمى خروج الكباسة من النخلة شق العود وهو أيضا موسم إزهار للجروف والبساتين والمزارع .

كاد أن يعشي العيون سنا منه لسر فيه حكته ذكاء

أي حكته الشمس، وقد وصف صلى الله عليه وسلم بإشعاع الوجه والهيبة وصفه بذلك واصفوه من الصحابة رضي الله عنهم

صانه الحسن والسكينة أن تظ هر فيه آثارها البأساء

وتخال الوجوه إن قابلته ألبستها ألوانها الحرباء

لأن وجهه شمس، ولعل هذا البيت فيه مأخذ على استقامة معناه وسلامة لفظه وسبب ذلك أن تلون الحرباء أكثره أنه لا يحمد . غير أن البوصيري كأنه جيء إليه من جهة بيت كعب بن زهير رضي الله عنه :ـ

يوما يظل به الحرباء مصطخدا كأن ضاحيه بالشمس مملول

وكأن البوصيري رحمه الله لم يخل أن أحس ببعض ما في البيت من قلق فالبيت الذي يلي كأنه اعتذار منه بما فيه من تفسير له .

فإذا شمت بشره ونداه أذهلتك الانوار والأنواء

فخرج عن صورة الشمس هنا الى صورة السحاب والبرق والمطر ــ ثم رجع فرد الكلام الى قوله من قبل «ليته خصني برؤية وجه» :

أو بتقبيل راحة كان للـ ـه وبالله أخذها والعطاء

تتقي بأسها الملوك وتحظي بالغنى من نوالها الفقراء

لا تسل سيل جودها إنما يكـ ـفيك من وكف سحبها الأنداء

درت الشاة حين مرت عليها فلها ثروة بها ونماء

نبع الماء أثمر النخل في عا م بها سبحت بها الحصباء

أحيت المرملين من موت جهد أعوز القوم فيه زاد وماء

فتغدى بالصاع ألف جياع وتروي بالصاع ألف ظماء

لا ريب في اتساق عقد هذه الأبيات ـ وبعض مرد ذلك إلى حسن تتابع الأفعال ـ درت ـ مرت ـ نبع ـ أثمر ـ سبحت ـ أحيت

ووفى قــدر بيضــة من نضــار دين سلمان حين حــان الــوفــاء
كــان يــدعى قنــا فأعتق لما أينعت من نخيلــه الأقنــاء

القن العبد المعرق في العبودية والأقناء جمع قنو بكسر فسكون وهو غصن النخلة المثمر وجمعه ايضا قنوان كصنو والجمع صنوان وكلتاهما في القرآن قال تعالى: «ومن النخل من طلعها قنوان دانية »[الأنعام] وقال تعالى «ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد»[الرعد] .

أفــلا تعــذرون سلمان لما أن عرتــه من ذكــره العرواء

أي ارتجاف الحمى . سلمان الفارسي رضي الله عنه ، في الحديث أن بلالا سابق الحبشة وصهيب سابق الروم وسلمان سابق الفرس ورسول الله صلى الله عليه وسلم سابق العرب .

وأزالــت بلمسهــا كــل داء أكبرتــه أطبــة وإســاء
وعيــون مــرت بها وهي رمــد فأرتها مــا لم تــر الــزرقــاء

هي زرقاء اليمامة ومر خبرها

وأعــادت على قتــادة عينــا فهي حتى مماتــه النجلاء

ثم بعد تعداد هذه المعجزات عاد الى الوصف وقدم له برد الكلام إلى ما كان تمناه من قبل برؤية وجه، أو بتقبيل راحة . . .

أو بلثم التراب من قــدم لا نت حيــاء من مسهــا الصفــواء
حظي المسجــد الحرام بممشــا هــا ولم ينس حظــه إيليــاء

أي بيت المقدس

ورمت إذ رمى بها ظلم الليل إلى الله خوفه والرجاء

هذا البيت جيد، وقد جاء بمعناه أتم في بردته الميمية حيث قال :

ظلمت سنــة من أحيــا الظــلام إلى أن اشتكت قــدمــاه الضر من ورم
وشــد من سغب أحشــاءه وطــوى تحت الحجــارة كشحــا مترف الأدم
وراودتــه الجبــال الشم من ذهب عن نفســه فأراهــا أيما شمم
وأكــدت زهــده فيهــا ضرورتــه إن الضرورة لا تعــدو على العصم
وكيف تــدعو إلى الــدنيــا ضرورة من لــولاه لم تخرج الــدنيــا من العــدم
محمــد سيــد الكــونين والثقليــ ــن والفريقين من عــرب ومن عجم

نبينـا الآمـر النـاهـي فـلا أحـد أبـر في قـول لا منـه ولا نعم
هـو الحبيب الـذي تـرجى شفـاعتـه لكل هـول من الأهـوال مقتحم
وأخذ بعضهم عليه قوله: « لولاه لم تخرج الدنيا من العدم » ـ ولعمرك إن تحجير الواسع لضـلال والمسارعـة إلى تخطئة المصيبين من الخطـل، وقد بين البـوصيري حقيقة مـراده بقوله:

هو الحبيب الـذي ترجى شفـاعته لكل هـول من الأهـوال مقتحم

فبرر خروج الـدنيا به من العـدم وفسره بأمرين بأنه هـو الحبيب، وبأنه هو الـذي جاء بالدين وبالبشرى ويرجو شفاعتـه المؤمنون. وقال تعالى جل من قائل: « أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا لـه نورا يمشي به في الناس كمن مثلـه في الظلمات ليس بخارج منها » فالكفـر وظلماته موت وعـدم كما ترى. وقال تعالى: « كيف تكفـرون بالله وكنتم أمـواتا فأحياكم » فالعدم موت كما ترى. وقال ابن الرعلاء:

ليس من مـات فـاستراح بميت إنما الميت ميت الأحيـاء

أضف إلى هذا ما ذكرناه من أن البوصيرى عاش في زمان جهاد بين مجاهدين لا في زمان استقرار الخلافة والملـك الذي سبق حين كان أصحاب مثل ملكتـه القوية مقبلين على مدح الملوك وأهل الجاه ويتنافسون على ما عندهم من حطامها ويتقاتلون ولا بآخرة من الوقـت كزمـاننا هذا الـذي ضعف فيـه أمر البيان والإيمان والجهـاد جميعا فنسـأل الله الهداية والتوفيق ونعوذ به من الخذلان وأن تزيغ القلوب.
وقال في ورم قـدمي رسول الله صلى اللـه عليه وسلم من قيـام الليل وقيامه مـذكور في القرآن:
«إن ربك يعلم أنك تقـوم أدنى من ثلثي اليل ونصفـه وثلثـه وطائفـة من الـذين معك الآية»:ـ
ورمت إذ رمـى بها ظلم الليـ ـل إلى اللـه خـوفـه والـرجـاء

خوفه فاعل رمي وهذا موضع الجودة. ويجوز أن يكون خوفه مبتدأ خبره شبه الجملة قبله وفاعل رمى ضمير مستتر والأول هو الجيد

دميت في الـوغى لتكسب طيبـا مـا أراقت من الـدم الشهـداء

تكسب متعد لاثنين ثلاثيا وربـاعيا ومنه الحديث " وتكسب المعدوم أى تكسب من لا مال له مالا، أى الدم الذى سال منها يعطر به ما أريق من دم الشهداء في سبيل الله

فهي قطب المحراب والحرب كم دا رت عليهـا في طـاعـة أرحـاء

هـذا المعنى نفيس، جعل قـدمـه لقيامـه قطبـا لـرحى المحـراب وثم جهاد في طـاعـة الله، وجعلهـا لثباته المعـروف شأنه حين يفـر الناس قطبا لـرحى الحرب، وثم جهاد في طاعـة الله، فكم دارت على قـدمه وهي قطـب للحرب وللمحـراب من أرحاء طـاعة وعبادة وقتال في سبيل الله.

وأراه لــــو لم يسكن بها قبــــــ ــــل حـراء هــاجت بها الـدأمـاء

الدأماء البحر، أي لو لم يسكن حراء بقدميه فسكن لزلزلت الأرض زلزالها، ولهوى الجبل في البحر، وكأن قد نظر رحمه الله إلى قول الشريف

جبل هـوى لـو خـر في البحـر اغتـدى مـن وقعـــــه متتـــــابع الإزبـــــاد

ولقعقعة هذا البيت أبهة تلفت النظر

عجبـــا للكفـــار زادوا ضـــلالا بـــالــذى للعقـول فيـــه اهتـــداء

والـــذى يسألـــون منـــه كتـــاب منـــزل قـــد أتـــاهـم وارتقـــاء

أو لم يكفهـم من اللـــــه ذكــــر فيـــــه للنـــاس رحمة وشفـــاء

يشير إلى آيتى الإسراء: « وننـزل من القـرءان مـا هـو شفاء ورحمة للمـؤمنين ولا يـزيـد الظالمين إلا خسارا » وقوله تعالى: « أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنـزل علينا كتابا نقرؤه الآيـة». أي هم سألوا النبي أن يرقى إلى السماء وأن يأتيهم بكتـاب فقـد جـاءهـم الكتـاب، وقـد جـاءهم الارتقـاء. «ومنـزل» ههنـا بالتخفيف لا من أجل الوزن فقط ولكنها قراءة معتمدة قرأ بها في مواضع غير واحد من السبعة ومن العشرة وعليها قراءة أبي عمرو إلا في حرفين في الأنعام «إن الله قادر على أن ينزل آية» وفي الحجر «وما ننزله إلا بقدر معلوم» وهي قراءة الجمهور في هذا الموضع وقد ذكـر صـاحب النشر تفصيل قـــراءة أبى عمرو وابن كثير ويعقـوب وحمزة [النشر ٢/٨/٢١٨ــ٢١٩] فقول البـوصيرى مُنزل بـالتخفيف جاء بـه على القراءتين المكيـة والبصرية واللـه أعلم ثم أخذ البوصيري في تفصيـل معجزة القرآن والنـاس في هذا تبع لكعب بن زهير حيث قال رضى الله عنه:

مهلا هداك الذى أعطاك نافلة الـ ـــقرآن فيهـا مـواعيظ وتفصيل

وقد أبدع البوصيرى حيث قال:

أعجـز الإنـس آيـة منـــه والجن فهــلا تأتـى بها البلغــاء

يشير إلى آية البقرة: « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبـدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا

شهداءكم من دون اللـه إن كنتم صادقين» مشفـوعة بآيـة الإسراء : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن الآية» .

كل يـوم تهدي إلي سـامعيـه ... معجـزات من لفظـه القـراء

يشير ههنا إلى أن نظم القرآن أي صياغته ذلك معجز

تتحلى بـه المسـامع والأفـ ... ـواه فهـو الحلى والحلـواء

هو في المسامع أقراط وفي فم القارىء حلوى

رق لفظـا وراق معنى فجـاءت ... فى حـلاهـا وحليهـا الخنسـاء

أى الجميلة إذ الغزالة هـي الخنساء وتشبه الحسناء بالغزالة ، فكـأن غادة حسناء جاءت في زينتهـا وحـلاها . ولم يكـرر لأن الحلى بضم الحاء جمع حليـة المرأة بكسر أولـه والحلى بفتح فسكون كما تكـون بمعنى الزينة تكـون بمعنى جمال الخلقة وهـو المراد هنا . ثم في البيت مع هذا بديع رشيق إذ الخنساء اسم الشاعرة المشهورة ولها صحبة رضي الله عنها ولكنهـا تعد من شـواعر قبل الإسـلام إذ رثاؤهـا لأخويها كـان قبل الإسلام منهـا ومن قومها ، وخفـاف بن ندبة صاحب رايـة بنى سليم يوم حنين كان مع أخيها معـاوية يوم قتل وكـان مقتله قبل مقتل صخـر . وكانت الخنسـاء من جميلات النسـاء وإياهـا عنى دريد بن الصمة (وقتل يوم حنين كافرا) حيث قال :

مـا ان رأيـت ولا سمعـت بـه ... كـاليـوم طـالي أينـق جـرب

متبـذلا تبـدو محاسنـه ... يضـع الهنـاء مـواضع النقب

وكان رآهـا تطلى إبلا لها جـربا فخطبهـا ولذلك قصـة والعباس بن مـرداس الصحابي الشاعـر ابنها ، رضي اللـه عنها وعنـه وعن خفاف وأسفـا على دريد إذ لم يكتـب له كما كتب لهم من نعمة الإسلام ، وكأنما أصيب بسهم من إعراض الخنسـاء عنه وهجائها أو تعريضها به .

وأرتنـا فيـه غـوامض فضـل ... رقـة من زلالها وصفـاء

إنما تجتلى الـوجـوه إذا مـا ... جليـت عن مـرآتها الأصـداء

سـور منـه أشبهـت صـورا منـ ... ـا ومثـل النظـائر النظـراء

أى كما صورنا في أحسن تقويم فكذلك سوره. ثم ههنا إشارة إلى أن سورة وصورة لهما جمع متشابه فتقول سور بضم مشبع وصور كذلك وبه فسر "فإذا نفخ في الصور" بعض أهل التفسير. والنظير يشبهه النظير ثم سور القرآن فيها الروح والوحي، كما نحن في صورنا الحياة والروح. والأقاويل التي يتباهي بها الناس والتي رام أهل مكة أن يضاهوا بها القرآن فقد كانت كالتماثيل وليست في التماثيل حياة ولا روح. وأقاويل كل من رام مضاهاتها من بعد كذلك، فلا يخدعنك مظهر بلاغة من بليغ

والأقاويل عندهم كالتماثيـ ـل فلا يوهمنك الخطباء

أى لا تتوهم أن لكلامهم روحا لمجرد تفيهقهم به. ثم ذكر ما فتح الله به على المسلمين من العلوم والتبحر فيها من طريق درس القرآن وجمعه والمحافظة عليه:

كم أبانت آياته من علوم عن حروف أبان عنها الهجاء
فهى كالحب والنوى أعجب الزر اع منه سنابل وزكاء

إذ هي الأصل الذي تفرعت منه كل معارف المسلمين ومعارف من أخذوا منهم وقلدوهم من بعد.
في البردة تناول البوصيرى هذه المعاني التي ذكرها ههنا من معجزة القرآن تناولا مختلفا. وهذا من نادر ما يتفق من الإجادة لشاعر واحد في الغرض الواحد، قال رحمه الله:
دعني ووصفي آيات له ظهرت ظهور نار القرى ليلا على علم
فالدر يزداد حسنا وهو منتظم وليس ينقص قدرا غير منتظم

وبراعة البوصيري من محاسنها أنه لا يتملكه القصد إلى النظم السردى التعدادي كما قد يقع لكثيرين آخرين. فهو كما قال هنا يذكر من المعجزات ويترك إذ هي در يزينها نظمها ولا يشينها نثرها

فما تطاول آمال المديح إلى ما فيه من كرم الأخلاق والشيم
آيات حق من الرحمن محدثة قديمة صفة الموصوف بالقدم

قوله محدثة من قوله تعالى: «مايأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون» [الأنبياء] أي هم قريبو عهد بها. وقوله قديمة بعد محدثة بليغ، وذلك أن «محدثة» تدل

على جدة التذكير لهم وقديمة تدل على حقيقة وصفها أنها منزلة من عند الله القديم الأول فهي قديمة وهذا قوله «صفة الموصوف بالقدم» . وهذه عقيدتنا وقول المعتزلة بخلق القرآن من أخطائهم .

لم تقترن بزمان وهي تخبرنا عن المعاد وعن عاد وعن إرم

فالمعاد وعاد وإرم كل ذلك أزمنة ، وقوله لم تقترن بزمان هو حجة أهل الدين على الفلاسفة القائلين بقدم العالم وأنه لم يوجده الخالق من العدم وأتوا من جهة اعتقادهم اتصال الزمان بالخلق والخالق وقد وضح الغزالي رحمه الله في تهافت الفلاسفة أن الزمان شيء نسبي له وجود بالنسبة إلينا وما نفهمه من حركة الفلك وأبعاده . وما أشك أن كلمة النسبي والنسبية خلصت إلى مفهومها العصري من أصل يمت إلى الغزالي ، وكم من أمر في العلوم الحديثة ادعى اليهود السبق إليه ومن نقب عسى أن يجد أنهم اغترفوه من بحار العلوم الإسلامية والعجب لبرتراند رسل في كتابه عن تأريخ الفلسفة حيث تنقص الغزالي من دون حق معرفة بقدره . ولم يخل ما قاله . على ما يزعمه لنفسه من التحرمن روح تعصب ديني فتأمل .

دامت لدينا ففاقت كل معجزة من النبيين إذ جاءت ولم تدم

وقد حصر قوم إعجاز القرآن في نظمه ، والقرآن كله معجز وبحره لاغَوْرَ له . وفيه من قيم العدل والنور المبين ماليس في شيء غيره .

ماحوربت قط إلا عاد من حرب أعدى الأعادي إليها ملقي السلم
ردت بلاغتها دعوى معارضها رد الغيور يد الجاني عن الحرم

أى بقوة وبلا تفتير ردا رادعا على الفور.

لها معان كموج البحر في مدد وفوق جوهره في الحسن والقيم
قرت بها عين قاريها فقلت له لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم
إن تتلها خيفة من حر نار لظى أطفأت حر لظى من وردها الشبم

أى من مائهـاذى البرد المطفىء للحر، ومن شرابها السائغ العذب اللـذيذ إذ الماء البارد على العطش وحره من النعيم.

كأنها الحوض تبيض الوجوه به   من العصاة وقد جاءوه كالحمم

أى حين تسود وجوههم من الذنوب ويتردون فى النار من عبور السراط ثم تدركهم رحمة المولى فيخرجـون من النار ويغمسون في الحوض فـالقرآن فى هـذه الدنيا حـوض غاسل لسواد المكروه من المعاصى والذنوب وكآبات العمر.

وكالصراط وكالميزان معدلة   فالقسط من غيرها في الناس لم يقم

قـال تعـالى: «إن هـذا القـرءان يهدى للتي هـي أقـوم ويبشر المؤمنين الـذين يعملـون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا».

لا تعجبن لحسود راح ينكرها   تجاهلا وهو عين الحاذق الفهم

يدلك على ذلك حرص الأوربيين أيام نهضتهم على تـرجمة علوم القرآن وقد سبق التنبيه على أن وليم بدويل من مستشرقي الانجليز في أوائل القـرن السابع عشر قد نقل معاني القرآن لقومه. [1]

قـد تنكر العين ضـوء الشمس من رمـد   وينكـــــر الفـم طعـم الماء من سقـم

وهذا من أبيات الحكمة وقد ولده من كلام أبي الطيب ـ قال:

وإذا خفيت على الغبي فعاذر   ألا تراني مقلة عمياء

وقال: ومن يك ذا فم مر مريض   يجد مرا به الماء الزلالا

وقال: بذى الغباوة من إنشادها ضرر   كما تضر رياح الورد بالجعل

ونعود بعد إلى أبيات الهمزية ـ
بعد أن فصل ما فصله عن معجزة القرآن خلص إلى أمر أهل الكتاب. قوله

---

(١) راجع ترجمته في الأعلام للزركلي.

مهد لـذكرهم لأنهم بغـوا من بعد ما جـاءتهم البينات ، ورد ذكـر ذلك في القرآن في غير مـوضع ـ مثـلا في سورة يـونس : «ولقد بـوأنا بنى اسراءيل مبـوأ صدق ورزقنـاهم من الطيبـات فما اختلفوا حتى جـاءهم العلم . . . . الآية» وفي سـورة الجاثية : وءاتينـاهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم . . . . الآية» .
ومهد لذلك بذكر عناد مشركي قريش ومن إليهم ـ قال :

فهي كـالحب والنـوى أعجب الـز راع منـه سنـابـل وزكـاء
فأطـالـوا فيـه التردد والـريـ ـب فقـالـوا سحـر وقـالـوا افتراء
وإذا البينـات لم تغـن شيئـا فـالتماس الهدى بهن عنـاء
وإذا ضلـت العقـول على علـ ـم فماذا تقـولـه النصحـاء

فسر قوله تعالى : «غير المغضوب عليهم ولا الضالين» بأن المغضوب عليهم اليهود وبأن الضالين النصارى ، وقد بدأ بهم الإمام البوصيرى ههنا :ـ

قوم عيسى عاملتم قوم موسى بالذى عاملتكم الحنفاء

ومن ههنا حمى البوصيرى بحماسة روح الجهاد .

صـدقـوا كتبكم وكـذبتـم كتـ ـبهم إن ذا لبئـس البـواء
لـو جحـدنـا جحـودكم لاستـوينـا أو للحق بـالضـلال استـواء
مـالكم إخـوة الكتـاب أنـاسـا ليس يـرعى للحـق منكم إخـاء
يحسـد الأول الأخير ومـازا ل كـذا المحـدثـون والقـدمـاء

وهذا من أبيات الحكمة ، عميق الدلالة .
ثم فرع مـن هذه الحكمة نظـرات ضمنها إشـارات علمية وكـان رحمه الله غـزير العلم حـاضر المذاكرة لـه . وهو في إشـاراته مـن حيث المذهب الفني أشبه بأبي تمام منـه بأبي الطيب ، لأن الغالب على طريقة أبي الطيـب ألا يشير أو يكون خفي الإيماء جدا فكأنه

لا إيماء فيه مثل قوله:

تخالف النـــاس حتى لا اتفـــاق لهم إلا على شجب والخلـف في الشجب
فقيـل تخلـص نفـس المرء ســـالمة وقيـل تشرك جســم المرء في العطـب

ونحو: فإن يكن المهدي من بان هدية فهذا والإ فالهدى ذا فما المهدى
وقلما تكون إشارته بارزة نحو قوله:

أشمت الخلف بـالشراة عـداهـا وشفـا رب فـارس من إيـاد
وتـولى بنى اليـزيـدي بـالبصـ ـرة حتى تمزقـوا في البـلاد
وإذا كـان في الأنـابيب طيش وقـع الخلـف في رؤوس الصعـاد
وإشارات أبي تمام معروفةمن مذهبه نحو:
فإذا ابـن كـافـرة يسر بكفـره وجـدا كـوجـد فـرزدق بنـوار
وإذا تـذكـره بكى فكأنـه كعب زمـان بكى أبـا المغـوار

واتبعه ابو العلاء وأكثر من ذلك، وأجوده ما في سقط الزند نحو:
وانى تيممت العراق لغير ما تيممه غيلان عند بلال

ولم يكن غيلان من مشاهير المداحين وإنما كان مفتنا في تصوير الجمال وفي أساليب الاستعارة والتشبيه وقد مر بعض الحديث عن ذلك وإنما أخذ أبو العلاء من قول حبيب:

ما ربع مية معمورا يطيف به غيلان أبهى ربا من ربعها الخرب

وكان لحبيب بغيلان ولع وله منه في مذهبه أخذ كثير.
أشار البوصيري أول شيء إلا أمر ابني آدم عليه السلام ثم إلى أبناء يعقوب عليه السلام:

قد علمتم بظلم قابيل هابيـ ـل ومظلوم الأخوة الأتقياء

بنقل كسرة الهمزة إلى لام الإخوة ويشير إلى آية المائدة «إنما يتقبل الله من المتقين»

وسمعتم بكيد أبناء يعقو ب أخاهم وكلهم صلحاء

إذ ركبوا ما ركبوا من الظلم وهم أحداث وقد هموا بقتل أخيهم فنهاهم كبيرهم فيما رووا في تفسير «قال قائل منهم . . . . الآية» وعند من ذكر ذلك أنه روبيل . وقد ، اعترفوا بالخطأ واستغفر لهم يوسف واستغفر لهم أبوهم عليهم السلام . وأشار بقوله «وسمعتم بكيد إلخ » إلى الآية : «وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون» [سورة يوسف]

حين ألقوه في غيابة جب ورموه بالإفك وهو براء

ولو قلت في " غيابات " جب لاستقام الوزن وجاء بها البرعي في قوله :

فإن أنست غيابات الفؤاد بهم فهم أحباب قلبي يا غيابات

وغيابات قراءة نافع في السورة وقال رموه يعني امرأة العزيز وقومها معها قال تعالى : «ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين» . ويجوز أن يكون نسب الرمي إلى إخوته لأنهم تسببوا فيه بفعلهم إذ ألقوه في غيابة الجب أو الإفك أنهم : «قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل» [يعنون يوسف] «فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم ، قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون» .

فتأسوا بمن مضى إذ ظلمتم فالتأسي للنفس فيه عزاء
أتراكم وفيتم حين خانوا أم تراكم أحسنتم إذ أساءوا

أي اعتبروا يأيها الذين أوتوا الكتاب بما تتلون من مواعظه ، هل تفعلون كفعل قابيل وقد تعلمون أنه قد ظلم ، أم تفعلون كفعل إخوة يوسف وقد تعلمون أنهم قد أساءوا قبل أن يستغفر لهم ، فهل ترون أنكم أوفياء وأنكم لم ترتكبوا سوءا؟

بل تمادت على التجاهل آبا ء تقفت آثارها الأبناء

أي آباؤهم الذين لم يؤمنوا حين دعاهم داعي الهدى للإيمان .

بينتـــه تـــوراتهم والأنـــاجيـــ ـــل وهم في جحـــودهم شركـــاء

أي اليهود والنصـارى يجحدون نبوة محمد صلى اللـه عليه وسلم وقد بينتـه التوراة والأناجيل ومـا جاء البوصيري بـالجمع خطئا أو وهما ، فهـو يعلم أن خبر عيسى عليه السـلام وما وصى بـه بني اسرائيل ممـا أوحى الله إليـه تعـددت رواياتـه ، وقد اعتمـد النصارى الملكانيون ومن حـولهم أربعة أناجيل هي متى ومرقس ويوحنـا ولوقا وأنكروا انجيل برنابا وفيه أن المسيح لم يصلب وقد أنكرت اليهود الأناجيل كلها ولهم كتاب عن المسيح الذي ينتظرونه ينكره النصارى فتأمل .

إن تقـــولـــوا مـــا بينتــــه فما زا لـت بها عن عيـــونهم غشـــواء

أي هذه الإنكارة منهم لا تزول بها الغشاوة التي على أبصارهم

أو تقـــولـــوا قـــد بينتـــه فما للـــ ـــأذن عما تقـــولـــه صماء

هذا يقال لـه في المنطق قياس الإحراج ، إذ لا بد من أحد الأمـرين . وهم يقولون إن ثم بيـان نبي منقذ من عنـد اللـه يأتي ، قال ذلـك أنبياء بني اسرائيل وعيسى عليـه السلام ، فما قالـه موسى عليه السلام ومن بعـده وما قاله إبراهيـم عليه السلام من قبل تأولوه عيسى وإن كان لا ينطبق عليـه ، وما قاله عيسى لم يتأولـوه محمدا ولكن التمسوا له وجهـا لا يخرجه عن عـودة عيسى ، ويأبى رين الأهـواء إلا أن تطغى غاشيـة صدئه فتعمى لها القلـوب . وصلى الله على أنبيـائه الأبـرار فما البشارة التي بشروا بها عن نبينـا صلى الله عليه وسلم بباطل .

عــــرفـــــوه وأنكــــروه وظلما كتمتـــه الشهـــادة الشهـــداء
أو نـــور الإلـــه تطفئـــه الأفـــ ـــواه وهـــو الـــذي بـــه يستضـــاء
أو لا ينكـــــــرون من طحنتهـم بـــرحـــاهـــا عـن أمـــره الهيجـــاء
وكســاهـم ثـوب الصغـــار وقـد طلـــ ـــت دمـــاء منهم وصينـت دمـــاء

أما طحن الهيجاء لهم فما كان من هلاك يهود وإجلائهم وما كان من هزيمة الروم وجلائهم وأمـا الصغار فما كتب الله عليهم من الجزيـة . قال تعالى : «قاتلـوا الذين لا

يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون» .

كيف يهدي الإلــه منهم قلــوبــا   حشــوهــا مـن حبيبــه البغضــاء

وصدق رحمه الله . ثم أخذ في محاجة أهل الكتاب ، وسبق أن استشهدنا ببعض ما يلي من قبل .

خبرونـا أهل الكتـابين من أيـن أتـاكم تثليثكم والبَـداءُ

وذلك أن اليهود تزعم أن اللـه بدا له في كذا وندم على كذا ، سبحـانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا .

مــا أتى بــالعقيــدتين كتــاب   واعتقــاد لا نص فيــه ادعــاء

هـذا أصل ، وهو أن العقـائد عن وحي فما قيل واعتقد ولم يكن ورد بـه نص من وحي أو كتاب منزل فهو دعوى باطل .

والــدعــاوى مــا لم تقيمــوا عليهــا   بينــات أبنــاؤهــا أدعيــاء
ليت شعــري ذكــر الثـلاثــة والــوا   حــد نقص في عــدكم أم نماء

أي أنقص أم نماء ، حذف الهمزة لظهور المعنى وعليه قول ابن أبي ربيعة :

ثـم قــالــوا تحبهــا قلـت بهرا   عــدد النجـم والحصـى والتراب

وزعم بعضهم أن عـدد النجم ليس بكثير إنما هو بضعـة آلاف . ولعمري لـو قد قال ألفا مكان بهرا لكان عددا كثيرا .

كيف وحـدتمو إلها نفى التـوحيـد عنـه الآبـاء والأبنـاء

والحجة قائمة بالرغم من قولهم ثلاثة في واحد . وزعم ابن عربي في بعض ما زعم أن أول العـدد الثلاثـة فأوشك رحمه اللـه أن يزل . أتي من المقـدمـة الخامسة في كتـاب

الشهرستاني وقد أحجم الناس عن شرحها. والذي فيها خلاصته أن الأعداد أجناس وتبويب للأمور لا حقائق في ذواتها ويؤيد ما ذهب إليه أشياء في معادلات الرياضيات لا يمكن تأويلها إلا على هذا الوجه. وفي كتاب الشهرستاني في المقدمة المذكورة وفي ترجمة إبراهيم النظام أشياء من باب الرياضيات وعلوم الآليات مذهلة وتفصيل شرحها واجب وعسى أن تكون فيه غير ما ذكرنا مواضع يوقف عندها عدد.

أإلــــه مــــركب مــــا سمعنــــا بإلــــه لــــذاتــــه أجــــزاء

الأب والابن والروح القدس وأضيف إلى هؤلاء بآخرة الأم العذراء، وفي الطبعة الأولى للقاموس المنجد في شرح العذراء أنها أم الإله المتجسد فتأمل.

ألكم منهم نصيب من المــــــلك فهــــلا تميــــز الأنصبــــاء
أتــــراهم لحاجــــة واضطــــرار خلطــــوهــــا ومــــا بغى الخلطــــاء

في هذين البيتين مع الإشارة القرآنية - إذ يشير إلى قوله تعالى: «وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين ءامنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم». - مع ذلك أنفاس من بيئة حياة الريف المصري فإن الطين يورث ويختصم عليه وفيه قضايا الإفراز التي بغيرها يطول اشتباه الأمور وتضيع الحقوق للغالب من بغي الخلطاء بعضهم على بعض.

أهــــو الــــراكب الحمار فيــــا عجــــز إلــــه يمســــه الإعيــــاء

إذ لو صح أنه إله لبطل أن يمسه تعب وأن يحتاج إلى ركوب الحمار، ولا يمكن أن يعتذر لذلك أو يفسر بأنه على وجه الهداية، إذ لما أراد الله أن يتجلى بألوهيته للبشر نزل بينهم في صورة بشر، إذ هو قادر سبحانه على أن يرسل إليهم بشرا رسولا. ثم أن يحمل الحمار إلها مشكل، إلا أن نزعم حلول الإله في الحمار تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. وبهذا حجة البوصيري:

أم جميع على الحمار لقــــد جل حمار بجمعهم مشــــاء

أم ســـواهم هـو الإلــه فما نسبـة عيسى إليـــه والانتماء

أي أنه لا بد من تقدير إله مدبر غير عيسى والثالوث الذي معه، إذ من كان إله الكون ومدبره في اللحظة التي مات فيها يسوع وهذا اسم عيسى عندهم؟ إذن لا بد أنه للكون إلـه دبره في تلك اللحظة. وإذ هـو غير يسوع، فما نسبة يسوع ومـا انتماؤه إليه؟ براءة لسيدنا عيسى عليه السلام مما يصفونه به، قال تعالى: «وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم ءأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قـال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق».

وقد جـاء البوصيري بالحجـة التي أدلى بها ههنا بتفصيل وتوضيح أكثر في لاميته المنصوبة من الكامل التي أولها:

جـــاء المسيح مـن الإلـــه رســـولا   فـأبى أقـل العـــالمين عقـــولا

وسنذكر منها بعد يسير إن شاء الله؛ ثم يقول البوصيري رحمه الله:ـ

أم أردتم بها الصفـــات فلم خصـــ   ـــصت ثـــلاث بـــوصفـــه وثنـــاء
أم هـــو ابن للـــه مـــا شـــاركتـــه   في معـــاني البنـــوة الأنبيـــاء

أي هذا التثليث لا يمكن التعبير عنه بأنه صفـات إذ صفات الله عز وجل أكثر من ذلك وليست هي بذاته فيضاف إليهـا ما أضفتم من معاني التركيب والحلول. ومن حمل البنوة على معنى المجاز لزمه أن يعمم فيجعل كل الناس بنين لله سبحانه وتعالى، فالزعم بمجازية منفردة مخصصة به وحده باطل.

قتلتـــــه اليهـــــود فيما زعمتـم   ولأمـــــواتكم بـــــه إحيـــــاء

هذا ما وضحه أبو الطيب حيث قال:

ويستنصران الـــــذي يعبـــــدان   وعنـــــدهما أنـــــه قـــــد صلـب
ليـــــدفع مـــــا نـــــابـــــه عنهما   فيـــــا للـــــرجـــــال لهذا العجـب

وأخذه المعري فقال :

وقـــد زعم النصـــارى أن عيسى — تـــوختـــه اليهـــود ليصلبـــوه
ومـــا أبهوا وقـــد جعلـــوه ربـــا — لكيـــلا ينقصـــوه ويجدبـــوه

أي وما فطنوا ليتجنبوا نسبته إلى مـا يعيبه وينقص من قدره بهذا الذي زعموه من قتله وصلبه . وفي الطبعة المصورة حديثا من اللزوميات :

وقـــد أبهوا وقـــد جعلـــوه ربـــا — لكيـــلا ينقصـــوه ويجدبـــوه

وهذا تحريف كأن الذي دسه أراد أن يبرر به عقيدة النصارى ، وليس هذا التغيير بمغير في المعنى من شيء إذ يصير المعنى عليه وقد فطنـوا ليجنبوه العيب والنقص بـالـذي نسبـوه إليه من القتل والصلب فجعلـوه ربا ، كأن دعـوى الربـوبية تستر هـذا العيب وليست بساترته . فتأمل .

قتلتـــــه اليهـــــود فيما زعمتم — ولأمـــــواتكم بـــــه إحيـــــاء
إن قـــولا أطلقتمـــوه على اللــــ — ـــه تعـــالى ذكـــرا لقـــول هـــراء

وهذا فصل ختم به الهجوم على النصارى ثم أخذ في مناقشة اليهود

مثل مـــا قـــالت اليهـــود وكل — لـــزمتـــه مقـــالـــة شنعـــاء
إذ هم استقـــرئوا البـــداء وكم سـا — ق وبـــالا إليهـم استقـــراء
وأراهم لم يجعلـــوا الـــواحـــد القهْـــ — ـهّار في الخلق فـــاعـــلا مـــا يشـــاء

مثلا في الأصحاح السادس من سفر التكوين من عند أوله كما في الترجمة التى أصدرتها دار الكتاب المقدس طبعة كوريا سنـة ١٩٧٦ ص ١٠ ـ ١١ : «وحدث لما ابتدأ الناس يكثـرون على الأرض وولد لهم بنـات ، أن أبناء اللـه رأوا بنـات الناس أنهن حسنـات . فاتخذوا لأنفسهم نساء مـن كل ما اختاروا . فقال الرب لا يـدين روحي في الإنسان إلى الأبد لـزَيغانه هـو بشر وتكون أيامـه مئة وعشرين سنة . كـان في الأرض طغاة في تلك الأيام و بعد ذلك أيضا إذ دخل بنو اللـه على بنات الناس وولدن لهم أولاداً . هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم .

ورأى الرب أن شر الإنسـان قد كثر في الأرض وأن كل تصـور أفكار قلبه إنما هـو شرير كل يوم . فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وأسف في قلبه . فقال الرب أمحو عن

وجه الأرض الإنسـان الذي خلقته. الإنسـان مع بهائم ودبابـات وطيور السماء، لأني حزنت أني عملتهم. وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب.»
والشاهد أن لله بنين كآلهة اليونان الـوثنيين. وأنه كان في الأرض طغاة كما يبدو ليسوا في طاعة الله ولعلهم بل هو الظاهر أنهم ليسـوا من خلقه. ثم حزن الله وندمه لأنه عمل الإنسان ـ فهذا أمر بدائي وثني كما ترى.

جـــــوزوا النسخ مثلما جـــــوزوا	المسخ عليهم لـــــو أنهم فقهـــــاء
هـــو إلا أن يـــرفع الحكـم بـالحكـــ	ـــم وخلق فيـــه وأمـــر ســواء
ولحكم مـن الـــزمـــان انتهـــاء	ولحكم مـن الـــزمـــان ابتـــداء
فسلـــوهم أكـــان في مسخهم نســـ	ـــخ لآيـــات اللـــه أم إنشـــاء

أى إذ رووا جواز المسخ كمسخ الحية فمشت على بطنها بعـد أن «كانت أجمل حيوانات البرية التى عملها الرب» [الأصحاح ٣] ـ فإذا كان المسخ جائزا فإن النسخ جائز وهم ينكرون علينا النسخ وما النسخ إلا رفع حكم بحكم آخـر. فهو نسخ أمر بأمر آخر من تصريف اللـه. كما أن المسخ رفع هيئـة وخلق بخلق آخـر. سلـوهم هل المسخ الـذى أوقعه اللـه تعالى أهـو نسخ لآيات اللـه التى سبقت بصنعه مـا صنع أم إنشاء جـديد أنشأه؟ أيها القولين قالوه ألزموا به قبول النسخ. قوله هو إلا أى هو سواء إلا إلخ كما مر التفصيل.

أو مـــا حـــرم الإلـــه نكـــاح الـــ	أخت بعـــد التحليل فهـــو الـــزنـاء

أى إن كان الذي سبق من نكاح الأخوات على عهـد آدم ومن بعد قبل التحريم حلالا فـالتحـريم نسخ وان لم يكن حـلالا فقد كـان زنـاء وهـذا محال إلا أن يقولـه زنـديق، وينسب إلى المعرى، ومـا أشبه أن يكـون افتراء عليه؛ أنه قـال فيما قالـه من شعر «وان جميع الناس من طينة الزنا»

لا تكـــــذب إن اليهـــود وقـــد زا	غـــوا عن الحق معشر لـــؤمـــاء

قولـه: وقد زاغـوا عن الحق يعنى نقضهم ميثاقهم، وجهـلاء اليهود يحسبـون أن الأمر عنصرية أو قبليـة وأن الله كأنه رأس قبيلتهم، وكـلام أنبيائهم يدل على خـلاف هذا، لأن الله معهم ما دامـوا على الميثاق. قال تعالى: «فبما نقضهم ميثـاقهم لعناهم» وقال تعالى: «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم»

جحـــدوا المصطفـى وآمن بـــالطـــا غـــوت قـــوم هم عنـــدهم شرفـــاء

وذلك أن حيى بن أخطب وصحبه فضلوا لقريش شركهم على الإسلام والتوحيد « ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل » ـ قال تعالى : «ألم تر إلى الـذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين ءامنوا سبيلا»

قتلـــوا الأنبيـــــاء واتخذوا العجـــــــــــــل ألا إنهم هم السفهـــــــاء

انظر إلى الاقتباس القرآني ويسره

وسفيـــه من ســـاءه المن والسلـــــــــوى وأرضـــاه الفـــوم والقثـــاء

نهج البوصيرى نهج الحارث في الخصومة وإحكام الجدل ، إلا أنه لم يجعله كسلم يصعد على درجه إلى مـا يقول ، أو مغترفا يأخـذ منه بـاحتيال وتوليـد . بل على اقتدائه بمنهج الحارث الجدلى خالفه في أمر هام ، وهو أنه آثـر الهجوم على الدفاع . وقد أخذ الجاحظ على الحارث فرط دفاعه حتى كأن قومه لا ينتصفون من تغلب . وما أرى إلا أن الحارث تعمد هذا ليكون الملك إلى جانب قومـه ، وهذا أدخل في باب الدهاء ، ولئن صح خبر قتل عمـرو بن كلثـوم عمرو بن هنـد ، فإن الحارث يكـون قـد انتصف لقومـه في مجال السيـاسـة والكيـد بـالذى قـالـه . وقـد كـانت بكـر هي التى أجـارت آل ملك الحيرة وانتصفت من فارس في يوم ذي قار وإنما آثـر البوصيرى منهج الهجوم ونفسه لأن ذلك كان أشبه بموقف فروسيته البيانية المجاهدة .

فى البردة سلك نهجا غنائيا في نقد النصـارى وفي تفضيل الإسلام والتنويه بفضل رسول الله صلى اللـه عليه وسلـم والمنهج الذى في الهمـزية خطابـى محتدم . والغنـاء بعد لا ينفصم عن الشعر لما فيه من الإيقاع وهذا أمر قـد قدمنا ذكره ، كما قد سبق الاستشهاد بجانب من أبيات البردة المشار إليها هنا وهى قوله رحمه الله :

محمـــد سيـــد الكـــونين والثقليـــــن والفـريقين من عـــرب ومن عجم

نبينـــا الآمـــر النـــاهـي فـــلا أحـــد أبـــر فى قـــول لا منـــــه ولا نعم

هـــو الحبيب الـذى تـرجي شفـاعتـه لكل هـــــول من الأهـــــوال مقتحم

دعـــا إلى اللـــه فـــالمستمسكـون بـــه مستمسكــــون بحبل غير منفصم

كان أهل الاعتقـاد فى بركة البردة المبـاركة لا يشكـون أنك إذا أنشدت هذا البيت ثـلاثا وأنت تريد عبور النيل ، لم يفتك المركب ولو في أيام الفيضان .

فـــاق النبيين في خلـق وفي خلـق ولم يــدانـــوه في علم وفي كـــرم
وكلهم مـن رســول اللـــه ملتمس غـرفـا من البحـر أو رشفـا من الـديم

اللفظ هنا رشيق لمزاوجته قولـه «غرفا مـن البحر» بقولـه « رشفا من الـديم» ، والغرف يناسب البحر وأهل النيل يعرفون ذلك والـرشف ينـاسب الديم عقـلا ولكن قل من يعترض المزن يرشف من قطراته ـ على أن المعنى الذى رامـه الشاعر من المناسبة والعموم حسن ، وليس الرشف من الديم بأبعد من قول ذي الرمة :

فيها الضفادع والحيتان تصطخب

ومن قول زهير:

على الجذوع يخفن الغم والغرقا

عند من أخذ عليهما ذلك ولا نقول به .

وواقفـــون لـــديـــه عنـــد حـــدهم من نقطـة العلم أو من شكلـة الحكم

لا يخفى حسن الاستخدام في النقطة والشكلة

فهـو الـــذى تم معنـاه وصـــورتـــه ثم اصطفـــاه حبيبـــا بـــارىء النسم

بنى البوصيرى هذا التفضيل على مـا تقدم ذكره من قبل من حديث الشفـاعة يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وعلى ما وعـده الله عز وجل« مقامـا محمودا »وعلى حديث ابن حنبل رضى الله عنـه المروي بسنده إلى عرباض رضى اللـه عنه إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

منـــزه عـن شريـك في محاسنـــــه فجـــوهـــر الحسن فيـــه غير منقسم

إذ هو حسن خَلْقٍ وخُلُقٍ

دع مـــا ادعتـــه النصـــارى فى نبيهم واحكم بما شئت مـدحـا فيه واحتكم

لما قـال منـزه عن شريك خشى أنْ يظن بـه الغلـو غير الحق وإنما عنى شركـة الأشبـاه والنظائر من البشر مثله ، فدفع كل شبهة بقوله« دع ما ادعته النصارى» ، ومع أن ههنا خفي جدل وخصومة لمذهب النصارى بقوله دع إلخ ، فيه مع ذلك انصراف إلى التغنى والإعراض عن قصـد المجادلة ، أيضا ذلك يستفـاد من قوله : دع إلخ كما يستفـاد منه نفى كل شبهة أو إشعار بتأليه وقدسية فوق ما ينبغى أن يكون للبشر.

وانسب إلى ذاتـــه مـــا شئت من شرف وانسب إلى قـــدره مـا شئت من عظم
فإن فضـل رســـول اللـــه ليس لـــه حـــد فيعـــرب عنـــه نـــاطـق بفم

لــو نــاسبت قــدره آيــاتـــه عظماً أحيا اسمه حين يـدعى دارس الـرمم

لا ريب أن آياتـه ناسبت قـدره، وحسبنا معجزة القـرآن إلا أن المعني الذي قصـد إليه حسن، إذ يلمح فيـه معني أنه لا ينبغي أن يعـد إحياء الموتى درجـة ميز بها غيره عليـه صلى الله عليه وسلم. أما زعمنا المنـاسبة فإن معجزة كل نبي، والله أعلم حيث يجعل رسالاته، تشابـه ما برز فيه أهل زمانه، فموسى عليـه السلام قهر أهل السحر وعيسي عليه السلام أعجز الأطباء وكان أهل زمانه برعوا في الطب ومحمد صلى الله عليه وسلم أرسل إلى البلغاء اللـد فبهرهم وقهـرهم. على أن مراد البوصيري أن منـاسبة معجـزاته كانـت على أقدار من أرسل إليهم وقـدره صلي الله عليـه وسلم فوق كل مقـدار. والله تعالي أعلم.

أعيـا الـوري فهم معنـاه فليس يـرى في القـرب والبعـــد منــه غير منفحم

كـالشمس تظهـــر للعينين من بعـد صغيرة وتكـل الطـــــرف مـن أمـم

أي من قرب

وكيف يــدرك في الــدنيـا حقيقتـه قــوم نيــام تسلــوا عنــه بــالحلم

هل أراد رحمه الله بهذا قـول من كانوا يذكـرون رؤيته صلى الله عليه وسلم ويبـاهون بها على طريق التصوف؟

المعني أن حقيقة الـرسول صلى اللـه عليه وسلم في خلقـه العظيم ومقامـه الجسيم وما خبأ الله له من الشفاعة وما أعطاه في أم الكتاب من المجد وما أشرب القلوب من محبته وألـزم أهل اليقين من التزام شرعـه وصدق الإيمان بما أنـزل إليـه ـ فهـذا لا بد معـه من التقوى والعلم الذي يعلمه الله بها من يتقيه، وذلك لا يدرك في منام ولا بأحلام ـ على أن الرؤيا الصـادقة جزء من أربعين جزءًامن النبـوة، وليست الرؤيا الصادقـة من باب محض أحلام المنام، فأحسب أن هذا قد يدخل فى مراده رحمه الله، والله أعلم.

فمبلـغ العلم فيـــــه أنــــــه بشر وأنـــــه خير خلق اللــــــه كلهـم

هـذا بيت القصيد، ومحتـو على حجة على القـائلين بألوهيـة عيسي عليه السـلام وبأن عـزيرا ابـن الله تعـالى اللـه عن ذلك. ثم أخـذ رحمه الله من بعـد في رجعـة إلى معنى الشفاعة والمقام المحمود ثم إلى تغن خالص محض عذب.

وكل آي أتي الـــرسـل الكـــرام بها فـإنما اتصلـت مـن نـــــوره بهم

هذا في معنى البشارة ويلابسه معني عالم الذر وما سطر في أم الكتاب

فإنـــه شمـس فضل هم كـــواكبهــا يظهــرن أنــوارهــا للنـاس في الظلم

هل أراد رحمه الله بهذا قول من كانوا يذكرون رؤيته صلى الله عليه وسلم ويباهون بها على طريق التصوف؟

المعني أن حقيقة الرسول صلى الله عليه وسلم في خلقه العظيم ومقامه الجسيم وما خبأ الله له من الشفاعة وما أعطاه في أم الكتاب من المجد وما أشرب القلوب من محبته وألزم أهل اليقين من التزام شرعه وصدق الإيمان بما أنزل إليه ـ فهذا لا بد معه من التقوى والعلم الذي يعلمه الله بها من يتقيه، وذلك لا يدرك في منام ولا بأحلام ـ على أن الرؤيا الصادقة جزء من أربعين جزءًامن النبوة، وليست الرؤيا الصادقة من باب محض أحلام المنام، فأحسب أن هذا قد يدخل فى مراده رحمه الله، والله أعلم.

فمبلغ العلم فيه أنه بشر ... وأنه خير خلق الله كلهم

هذا بيت القصيد، ومحتو على حجة على القائلين بألوهية عيسي عليه السلام وبأن عزيرا ابن الله تعالى الله عن ذلك. ثم أخذ رحمه الله من بعد في رجعة إلى معنى الشفاعة والمقام المحمود ثم إلى تغن خالص محض عذب.

وكل آي أتي الرسل الكرام بها ... فإنما اتصلت من نوره بهم

هذا في معنى البشارة ويلابسه معني عالم الذر وما سطر في أم الكتاب

فإنه شمس فضل هم كواكبها ... يظهرن أنوارها للناس في الظلم

كان المسلمون يعلمون من أمر الهيئة كثيرا وعنه أخذ الآخذون ممن يدعي لهم السبق في هذا المجال مثال كوبر نكس البولندى

أكرم بخلق نبي زانه خلق ... بالحسن مشتمل بالبشر متسم
كالزهر في ترف والبدر في شرف ... والبحر في كرم والدهر في همم

وهذا التقسيم جيد، إلا أن قوله والدهر في همم دون الأقسام الثلاثة التي قبله وأتي فيه والله أعلم من جهة النظر إلى أبي الطيبٰ فى نحو قوله

تجمعت في فؤاده همم ... ملء فؤاد الزمان إحداها

فعلى هذا المعني يمكن توجيه قوله. والزهر المترف والبدر ذو الشرف والبحر الغيداق كل أولئك من طبيعة النيل، ولك أن تقول فالدهر اختلاف الفتيين (أي الليل و النهار) وذلك أيضا من طبيعة النيل لعل الذى جاء به هو الوجه الجيد، ووجوه القول أحيانا مما تشتبه وتلتبس ومهما يكن فهذا التقسيم المليح خاتمة حسنة لهذا الفصل من

قوله فانتقل منه إلى وصف مجلسه عليه الصلاة والسلام ثم حديثه ثم ذكر قبره الشريف فجعل وفاتـه صلي الله عليـه وسلم مدخـلا لذكر مـولده ومـا كان معـه من معجزات وإرهاصات

كأنـــه وهـــو فـــرد في جـــلالتـــه ... في عسكـــر حين تلقـــاه وفي حشم
كأنما اللـــؤلـــؤ المكنـــون في صـــدف ... من معـــدني منطق منـــه ومبتسم
لا طيب يعـــدل تـــربـــا ضم أعظمـــه ... طـــوبي لمنتشق منـــه وملتثم

وإنما أوردنا أبيات البردة هذه بمعرض الحديث عن أسلوبه في الجدل ، ولا تتم لنا صورة واضحة عن مقدرة البوصيري في هذا الباب إن لم نشر ولو قليلا إلى لاميته .

جـــاء المسيح مـن الإلـــه رســـولا ... فـأبى أقـل العـــالمين عقـــولا

وهي من روائع هذا الحرف ، ينبغي أن يجعل لها مكان مع :

مـــا بـــال دفك بـــالفـــراش مـــذيـــلا

ومع :

في الخد أن عـــزم الخليـط رحيـــلا

وفيها مع الرصانه التي وهبها اللـه البوصيري رحمه الله نفسه الطويل من غير ضعف أو إسفاف ، وذلك أمر قصر عنه مقدرة علي بن العباس على رسوخ قدمه في البـلاغة ولم يتهيأ إلا قليلا لابن دراج وبعض فحـول أندلس . وأبياتها نيف وتسعون ومـائتان . ولنا إلى أمر هذا الطول عودة إن شاء اللـه . وإذ نحن بصدد الحديث عن البوصيري ومكانه بين مداح الرسـول صلي الله عليه وسلم ، ولايتسع مكان هـذا الفصل من هذا الكتاب لإيفاء الحديث عنـه ، فعسي أن يحسن ذكر شيء منها ، هـو من باب ما تقـدم من أمر احتجاجه للإسلام ودفعه دعاوى أهل الكتاب خاصة وأهل الكفر عامة .

وقـد ألف بعض فضـلاء العصر من مسلمـي الهنـد وبـاكستـان وغيرهما ومن مسلمي العرب فصولا حسنة في هذا المعني . ولعله لو انتبه منهم منتبه إلى هذه القصيدة أن يجد فيها كنـوزا وروائع . ولا بد لإنصافهـا من إيرادهـا كلها مع الإشارات والشروح الـوافية وذلك ما لا نستطيعه في هذا الموضع . ولم تشتهر هـذه القصيدة اشتهار البردة والهمزية لما تضمنته من علـوم أهل الكتاب ، فكان بعض العلماء ربما نفـروا من ذلك لما عندهم من أن كتب أهل الكتب شـاملها التحـريف وأن ينقبض عنها المسلم أفضل . والـذى مضي عليـه الإمـام شرف الـدين أدخل في بـاب البحث والتحقيق . ومـا أشك أن من تناولوا الموضوعات التى طـرقها من مستشرقي أهل الكتاب ومن إليهم لم يخلوا من قصد الرد عليه ومن حاق الانتفاع بما أورده . وفضلاء المسلمين وعلماؤهم أولى بأن يغترفوا من

هـذا البحـر الخضم العجـاج . ونكتفي في هـذا الموضع بإيـراد أمثلـة من منهج هـذه القصيدة ومحاسن أدائها ومعارفها ثم نعود بعد إلى مـا كنا فيه من أبيات الهمزية إن شاء الله تعالي :

بدأها بمجاهـرة النصاري بالخصومة ، وقد سبق التنبيـه على أن ذلك كان زمان حروب الصليب فمما نختاره مما قال في ذلك من عند أولها :ـ

جـــاء المسيح مـن الإلــــه رســــولا	فـأبى أقـل العــــــالمين عقـــــــولا
قـــوم رأوا بشرا كـــريما فــادعــــوا	من جهلهـم للــــه فيـــه حلـــولا
أسمعتـم أن الإلــــــه لحاجــــــــة	يتنــــــاول المشروب والمأكــــــولا
ويمســــــه الألم الـــــذي لم يستطـع	صرفـــا لــــه عنــــه ولا تحويــــلا
يـا ليـت شعـري حين مـات بـزعمهم	من كــــان بـالتـــدبير عنـه كفيــلا

إن قالوا دبره أبوه فقد جزئوا الإله وقالوا بألوهية غيره

هل كــان هـذا الكـون دبـر نفسـه	من بعــــــده أم آثـــر التعطيـــــلا

التعطيل هو عدم الإله وهو مذهب الملاحدة

شهـد الـزبـور بحفظـه ونجـاتـه	أفتجعلـــون دليلـــه مـــدخـــولا
أيكـــون مـن حفظ الإلــــه مضيعـــا	أو مـن أشيـــــــــد بنصره مخذولا
ومضـى بحمل صليبـــــــه مستسلما	للمــوت مكتــوف اليــدين ذليـــلا

يشير بقـولـه « أيكون مـن حفظ الإله مضيعـا » إلى مـزامير داود فمنهـا (١٨) رقم ٥٠ «الصانع رحمة لمسيحـه لداود ونسلـه إلى الأبد» في النص الانجليـزي نص نسخة الملك جيمز ... and showeth mercy to his anointed ففسروا المسيح من مسـح الملك بـالزيت وكـان المسيح عليـه السلام من نسـل داود والمسيح في النص المتقدم هـو داود نفسه عليه السلام وفي ٢٠ رقم ٦ : "الآن عـرفت أن الرب مخلص مسيحه يستجيبه من سماء قدسه بجبروت خلاص يمينه هؤلاء بالمركبات وهؤلاء بالخيل أما نحن فاسم الرب الهنا نذكر" . ومعني المسيح كما في الطبري الممسوح بـالدهن ، هذا من بعض ما فسروا بـه المسيح في آيـات القـرآن . أيضا في النص الانجليـزي وهـو أدق وأقـدم من الترجمة المتقدمة Now know that the Lord anointed; he will hear him from his holy heaven with the saving strength of his right hand. Some trust in

chariots, and some in horses: but remember the name of the Lord our God.

ضل النصــارى في المسيح واقسمــوا   لا يهتــدون إلى الــرشــاد سبيــلا

ثم اليهود يقول فيهم :

والعــابــدون العجـل قـد فتنـوا بـه   ودوا اتخاذ المرسلين عجــــــولا
فـإذا أتت بشرى إليهـم كــذبــوا   بهوي النفــوس وقتلــوا تقتيــلا
أبنــــاء حيـــات ألم تــــر أنهم   يجدون تــريــاق السمــوم قتــولا

وترياق سم الكفر هو الإسلام وهو القرآن وقد أبوه إباء. وقوله أبناء حيات من كلمات سيدنا يحيى عليه السلام. والنص الذي اطلع عليه البوصيري من الانجيل أجود عربية من النص العصري وفي هذا في انجيل متى ٣ رقم ٧ والقصة عن يوحنا المعمدان وهو سيدنا يحيى صلوات الله عليه «فلما رأى كثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون إلى معموديته قال لهم يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي.» وفي نص انجيل الملك جيمز But when he saw many of the Pharisees and Saducees come to his baptism, he said unto them, O generation of vipers, who hath warned you to flee from the wrath to come?

وقوله أبناء حيات سب لهم لما سبق من فساد الحية ولا تلد الحية إلا حية في معنى الشر والسموم. ورهط الفريسيين والصدوقيين من متحذلقى يهود بمظهر العبادة وقد شحنوا نفاقا

وكفــاهمو أن مثلــوا معبــودهم   سبحـــانــه بعبــاده تمثيــلا

ثم أخذ يضرب الأمثلة لذلك كما ضرب الأمثلة من قبل في أمر النصارى، وقد أوردنا نماذج من قوله وهو أكثر تفصيلا وأشمل وأدل على تبحر وعظيم اطلاع :

وبأنهم دخلــوا لــه في قبــة   إذ أزمعــوا نحـو الشــآم رحيــلا

يشير إلى سفر الخروج ٣٣ رقم ٧ «وأخذ موسى الخيمة ونصبها له خارج المحلة ودعاها خيمة الاجتماع» — الضمير له يعود على الخالق سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا والعرب تسمى الخيمة قبة - قال النابغة :

أصــم أم يسمــع رب القبــــــــة
يـــا أوهـب النــــاس لعنس صلبــة
ضرابـــة بـــالمشفـــر الأذبـــة

يشير بهذا إلى اسمه اسرائيل أنه من صراعه إيل وهذا الذي صنع فيه المثال ابستين تمثاله الذي سماه يعقوب والملاك Jacob and the Angel وفي التكوين ٣٢ رقم ٢٤ إلى ٢٩ :ـ «فبقى يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه وقال أطلقني لأنه قد طلع الفجر فقال لا أطلقك إن لم تباركني فقال له ما اسمك فقال يعقوب، فقال لا يدعي اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله وقدرت. وسأل يعقوب وقال أخبرني باسمك فقال لماذا تسأل عن اسمي وباركه هناك. فدعا يعقوب اسم المكان فنئيل قائلا لأني نظرت الله وجها لوجه ونجيت نفسي. وأشرقت له الشمس إذ عبر فنوئيل وهو يخمع على فخذه إلخ» والشاهد قول الخبر: "لأنك جاهدت مع الله وقدرت" وهذا في الترجمة أغمض مما ذكر البوصيري أنه صارع ربه ورمى به، والذي جاء به البوصيري هو عينه الذي في النص الانجليزي ـ رقم ٢٨

And he said, Thy name shall be called no more Jacob, but Israel: for as a prince hast thou power with God and with men, and hast prevailed -

أي من حيث كونك أميرا لك قوة مع الله ومع الناس ـ أي تقوى على الناس وكذلك تقوى على الله وهذا شرح للرمز أن الذي صارعه يمثل الإله والبشر معا وقوله hast prevailed أي تغلبت وهذا هو المعنى الذي جاء به البوصيري

والذي يدل على أن الذي صارعه هو ربه قوله فدعا يعقوب المكان فنئيل ــ أي وجه الله.

وبأنه من أجل آدم وابنه ضرب اليدين ندامة وذهولا
وبدا له قوم نوح وانثنى أسفا يعض بنانه مذهولا

وقد مر الحديث في البداء ـ ثم ذكر بعض ما حرفه اليهود على أنبيائهم:

لم ينتهوا عن قذف داؤد ولا لوط فكيف بقذفهم روبيلا

إذ زعموا أن داود أرسل زوج الجميلة لميدان القتال حتى قتل وكان خالفه إلى زوجته وهي عندهم أم سليمان وأن سليمان هكذا لغير رشدة (صموئيل الثاني ١١ ــ وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم وكانت المرأة جميلة المنظر جدا فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد أليست هذه بثشبع بنت أليعام امرأة أوريا الحثي فأرسل داود رسلا وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها ثم رجعت إلى بيتها وحبلت المرأة........»

وتمضي القصة فيرسل داود زوج المرأة في وجه الحرب الشديدة حتى مات وكان هذا قصده فتأمل (انظر ص ٤٦٦ ـ ٤٦٩) من رقم ٢ إلى رقم ١٧.

وأما قذفهم لوطا فزعمهم أنه أحبل بنتيه وهو ثمل، أحبل الكبرى ثم أحبل الصغرى وذلك أنهما ائتمرتا وخافتا أن ينقطع نسل أبيهما وذلك بعد هلاك قوم لوط وخراب دورهم ـ «التكوين ١٩ رقم ٣١ ـ ٣٢ ـ ٣٣ ـ ٣٤ ـ ٣٥ ـ ٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨ وهو آخر الاصحاح التاسع عشر ـ من ذلك فسقتا أباهما خمرا في تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها . . . . إلى قوله . . . وقامت الصغيرة واضطجعت معه إلخ»

وأما قذف روبيل وهو كبير أبناء يعقوب عليه السلام فزعموا أنه فسق بسرية أبيه وهي له أي لأبيه أم ولد ولدت له دانا ونفتالى وكانت قد وهبتها له فيما زعموا راحيل لما ولدت أختها ليا ولم تلد هي (تكوين ـ ٣٠ (الثلاثون رقم ٤ إلى ٨). هذا وخبر بلهة وقذف روبيل في الخامس والثلاثين من التكوين رقم ٢٢ حيث قال وحدث إذ كان اسرائيل ساكنا في تلك الأرض أن رأوبين ذهب واضطجع مع بلهة سرية أبيه وسمع اسرائيل.

ولولا أن البوصيري أشار إلى هذا القذف لنزهنا الطرس عنه إذ هذا من الذي لا يجوز ذكره في حق الانبياء عليهم السلام وهو مما حرف به القوم كتابهم فخلطوا أساطير الأولين بأنباء من لا شك فيهم أنهم أولو عصمة.

وليا وراحيل ابنتا لابان تزوجهما يعقوب، عندهم أنه تزوج ليا أولا ولم تكن حسنة وكان يحب راحيل فخدعه أبوها ثم تزوج عليها راحيل وهي أم سيدنا يوسف عليه السلام فيوسف وروبيل ابنا خالة. وزعموا أن راحيل كانت عقيما حتى ولدت أختها ليا أربعة أبطن وهي عقيم وجاريتها بلهة بطنين وهي عقيم والذي ذكره الزمخشري أن يعقوب عليه السلام صارت إليه راحيل بعد موت ليا وهذا أشبه بسياق القصة وبحق نبي الله يعقوب وبنيه عليهم السلام وقد أشار البوصيري إلى هذا الخلط والتحريف في قوله:

لووا بغير الحق ألسنة بها	قالوه في ليا وفي راحيلا
وجنوا على هارون بالعجل الذي	نسبوا له تصويره تضليلا

وعندنا أن صاحب العجل هو السامري وعندهم أن هرون جمع حليهم وقذفها في النار فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار أو كما قالوا ـ انظر الأصحاح الثاني والثلاثين من سفر الخروج Exodus من ١ — إلى ٦ فما بعد، ومن ذلك (رقم ٣ ـ ص ١٤٠) «فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا إلى هارون فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل وصنعه عجلا مسبوكا فقالوا هذه آلهتك يا اسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر إلخ»

وقد نفى القرآن هذه الفرية عن سيدنا هارون عليه السلام. في سورة طه: «قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي. أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا. ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري .... الآيات»
وكذلك في سورة الأعراف: «وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين. قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين.»

ظنوا بربهم الظنون ورسله ... ورموا إناثا بالأذى وفحولا
ومن الغبينة أن يجازى إفكهم ... صدقى ولسنا فى الكلام شكولا

أي لسنا أشباها

الله أكبر إن دين محمد ... وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لا تذكر الكتب السوالف عنده ... طلع الصباح فأطفىء القنديلا
تخبركم التوراة أن قد بشرت ... قدما بأحمد أم إسماعيلا

يشير إلى مقال التوراة «التكوين ٢١ ـ ص ٢١/١٧ فسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها مالك يا هاجر لا تخافي لأن الله قد سمع صوت الغلام حيث هو قومي احملي الغلام وشدي يدك به لأني سأجعله أمة عظيمة وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية وكان ينمو رامي قوس وسكن في برية فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر».
وفي سفر التكوين أيضا في الأصحاح السادس عشر رقم ١١/ ١٢ «وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى فتلدين ابنا. وتدعين اسمه اسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك. وإنه يكون إنسانا وحشيا يده على كل واحد ويد كل واحد عليه وأمام جميع أخوته يسكن».
ووردت مباركته وختانه في الأصحاح ١٧ رقم ٢٠ و٢٢.

ودعته وحش الناس كل ندية ... وعلى الجميع له الأيادي الطولى
طوبى لموسى حين بشر باسمه ... ولسامع من قوله ما قيلا
وجبال فاران الرواسي إنها ... نالت من الدنيا به التفضيلا

وحش الناس لسكناه الصحراء وذلك بمشهد من إخوته كما في الترجمة الانجليزية And he shall dwell in the presence of all his brethren. وكل ندية أي في كل مجلس يختلفون معه ويختلف معهم ويقاتله الناس ويقاتلهـم وزعم النبهاني رحمه الله أن هذا مذكور في كل مجلس تقرأ فيه التوراة وليس بوجه قوي . وبشارة موسى عليه السلام في سفر التثنية ١٨ في رقم ١٤ ـ ٢٢ «ويقيـم لك الرب نبيا مـن وسطك من إخوتك مثلي لـه تسمعون حسب كل مـا طلبت من الـرب إلهك في حـوريب يوم الاجتماع قـائلا لا أعـود أسمع صوت الرب إلهي ولا أرى هذه النار العظيمة أيضا لئـلا أموت قال لي الرب قد أحسنوا في مـا تكلموا أقيم لهم نبيـا من وسط إخـوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمـه فيكلمهم بكل ما أوصيه به إلخ» في النص الانجليزي from the midst of thee, of thy brethren, like unto me; ثم مرة أخـرى في رقم ١٨ I will raise them up a Prophet from among their brethren. وعند البـوصيري أن هذا المبشر به ينبغي أن يكـون من أصل إبراهيم لا

من اسرائيل ـ قال رحمه الله :

من مثـل مـــوسى قـــد أقيم لأهلـــه	من بين إخــــوتهم ســـواه رســـولا
أو أن إخــــوتهم بني العيص الـــذي	نقلـت بكـــارتـــــه لإسرائيـــــلا

باع العيص (عيسو) بكارته (بكوريته) لأخيه يعقوب بخبز وطبيخ عدس (التكوين ٢٥ رقم ٢٤) «فأعطى يعقوب عيسو خبزا وطبيخ عدس فأكل وشرب وقام ومضى فاحتقر عيسو البكورية» .
وأما حـرمان العيص من البركة فكان بسبب أن أبـاه كان يحبه وأمه كـانت تحب يعقوب وكان كما قـالت القصة التـي ذكروها قـد عمى اسحق أو ضعف بصره فجـاءه يعقوب بصفة العيص وذلك بتدبير أمه رفقـة ـ (الأصحاح السابع والعشرون والخبر كما في هذا الأصحاح ذو أحـزان) ـ فباركـه أبوه وحرم مـن البركة العيص انظر رقم ٢٨ ـــ : «فقال عيسـو لأبيه ألك بـركة واحـدة فقط يا أبي بـاركني أنـا أيضا يـا أبي ورفع صوتـه وبكى إلخ» .
وجبال فاران بين علماء المسلمين وعلماء أهل الكتاب في بيـانها اختلاف وأوضح الوجوه أنها المراد بها جبال موحشـة لمطابقة هذا للفظ فـرا وهو الموصوفة به الـوحشية والذي في خبر اسمعيل ، فإن كان ذلك كذلك فمن قال إنها جبال مكـة لم يباعد لقوله تعالى على لسان سيدنـا إبراهيم الخليل عليه السلام : «ربنـا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي

زرع عند بيتك المحرم» وزعم البكري أن فاران معدن حديد ببلاد بني سليم وأنشد

متى كـــان للقينين قين طميـــة	وقين بلي معـــدنــــان بفـــاران

وفران بوزن سحاب في أنساب بلي، وقيل فرعـون موسى عليه السلام كان من بلي. وفي خبر اسماعيل في التوراة أنـه وأمه عـاشا ببريـة فاران فتأمل. هـذا، وتفاصيل مـا ذكره البـوصيري من كلام أهل الكتـابين كثيرة عنـده، دقيقة معـرفتـه بها، وإنما هذا الـذي أوردناه لمع ونتف وأمثلة.

ومن جيد مديحه في هذه اللامية:

إن أنكـــــــروا فضـل النبـي فـإنما	ألقـــوا على ضـــوء النهـــار ســـدولا
واسمـع كـــــــلامهـم ولا تجعـل على	مـــا حـــرفـــوا مـن كتبهم تعـــويـــلا
لــــــولا استحـــــالتهم لما ألفيتنـي	لك بـــالـــدليل على الغـــريـم محيـــلا

وصدق.

ومجاملة أهل الكتاب ومجادلتهم بالتي هي أحسـن ذلك هو الواجب في حقنا وحقهم، ولكنـه في المبشرين بغى وفـرط طعـون في عصرنـا هـذا لاتقل عما كـان لأسـلافهم من أصحـاب محاكم التفتيش، أولئك بسطـوة عذابهم، وهـؤلاء بتـزيد أقـلامهم وضروب أساليب دعايتهم ودعاواهم.

والذي ذكره البوصيري من تحريف كتبهم هو مـا عليه اعتقادنا فيهم. ومن المعاصرين في زماننا من يلتمس لكثير ممـا جاءوا به التخريجات على وجه من وجـوه علوم العمران والاجتماع وغير ذلك، كأن يقـال إن قصـة العيـص ويعقـوب رمـز لأن أهل الحواضر والنعمة أكثر كيدا ومكرا من أهل الشدة والبـداوة. وليس هذا بمخرجها من أنها محرفة وليست بصفة حق لنبي الله يعقوب عليه السلام. ومسألة بكارة العيص مشكلة لأنهم لم يـذكـروا بين إسمعيل واسحق بكـارة وكان اسمعيـل هو البكـر. ، إلا أن يقـال إنهما كليهما بكـران بـالنسبـة إلى أميهما. وأبنـاء يعقـوب لم يكن لأكبرهم فضل على يـوسف وأخيه وإيثار أبيه لهما دليل على نفي أحقية البكارة. فتكون البكارة شيئا دب تحريفه إلى اليهود من الأمـم التي خالطوهـا، وليس في أصل عرفهم أو عبـادتهم، كما دبت إليهم عبادة العجل، من آبيس، والأصنام التي زعموهـا لراحيل، وحسنا صنع الإمام شرف الدين البوصيري إذ نصح ألا نعول على ما حرفـوا وما أولوا في هذا المجال. ولكن نعول على القرآن والحديث. قال تعالى: «ومـا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى». وقد ورد في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم غضب حين رأى مع عمر رضي الله عنه

صحيفة من التوراة وللعلماء في هذه المسألة خلاف وأقوال وقول البوصيري: «لولا استحالتهم» يفيد الجواز في باب مقارعة الحجة بالحجة. قال الشيخ عبدالحي الكتاني في التراتيب الادارية[1] «وأما النهي عن قراءتها وإن صرح به الفقهاء فليس على إطلاقه لوقوعه في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لكثير من الصحابة من غير إنكار فهو مقيد بمن لم يميز بين المنسوخ والمخرج منها إلخ ص ٤٢٨ ـ ٤٢٩ الجزء الثاني):

أو قد جهلت من الحديث رواية	أو قد نسيت من الكتاب نزولا
فاعدل إلى مدح النبي محمد	قولا غدا عن غيره معدولا
فإذا حصلت على الهدى بكتابه	لا تبغ بعد لغيره تحصيلا

كأنه حذف جواب إذا واستأنف كلاما جديدا، ولك أن تقول حذف الفاء والأول أظهر ـ أي فذاك، وقوله: أو قد جهلت إلخ يشير إلى ما قدمنا ذكره من خبر النهي وما إليه: ـ

إن كنت تنكر معجزات محمد	يوما فكن عما جهلت سؤولا
ما زال يرقى في مواهب ربه	وينال فضلا من لدنه جزيلا
بث الفضائل في الوجود فمن يزد	فضلا يزده بفضله تفضيلا
فاسمع شمائله التي ذكرى لها	قد كاد تحسبه العقول شمولا
إني لأورد ذكره لتعطشي	فإخال أني قد وردت النيلا

استعمل أورد هنا استعمالا استخداميا كما يقال في البديع أي أجعل ذكره يرد وأجعل نفسي ترد ذكره كورود الإبل الماء ـ ثم انظر إلى ذكره النيل وحبه له وقوله إن ذلك فرع من حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، والنيل كما في الحديث من الجنة نابع ومن رأى خشونة الصحراء التي تكتنف نواحي جانبيه تيقن من ذلك

والنيل يذكرني كريم بنانه	فأطيل من شوقي له التقبيلا
الله أعطى المصطفى خلقا على	حب الإله وخوفه مجبولا
أتقنت من إخلاص ودي مدحه	وأخذت منه لبابه المنخولا
إني امرؤ قلبي يحب محمدا	ويلوم فيه لائما وعذولا
أأحبه وأمل من ذكرى له	ليس المحب لمن يحب ملولا

(١) راجع أيضا نفسه ١/ ٢٠٣ حديث الأمر بتعلم كتاب يهود ونفسه ٢/ ٤٢٧ ـ ٤٣٢ وان عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه كان يقرأ التوراة ونقل الكتاني عن الحافظ بن حجر قوله ان كراهية ذلك للتنزيه لا للتحريم وهذا باب للحجة والأقوال فيه طول.

ولأرمين لـــه الفجـــاج بضمـــر كـــالنبل سبقـــا والقسي نحـــولا
مـن كل داميــــة الأيـــاطـل زدتها عنقـــا إذا كلفتهـــا التمهيـــلا
حتى أضـم بطيبــة الشمل الـــذي أنضى إليهـــا العـــرمس الشمليـــلا

العرمس الشمليـل الناقة القـوية السريعـة، جاء أبـو الطيب بالعرامـس جمع العرمس وبالشملال صيغة أخرى للشمليل

وإذا تعسرت الأمـــور فإنني راج لها بمحمـــد تسهيـــلا

صلى الله عليه وسلم تسليما

فـــاجعل لنـــا اللهـم جـاه محمـد فـــرطـــا تبلغنـــا بـــه المأمـــولا
واجعل صـــلاتك ديمـــة منهلـــة لم تلـف دون ضريحه تهليـــلا

هذا من قـول كعب رضي الله عنـه«وما لهم عن حياض الموت تهليل»أي تأخر - أي تصل الى ضريحه صلى الله عليه وسلم لا يثنيها عنه شيء

مـــا هـــزت القضب النسيم ورجعت ورقـــاء في غصن الاراك هـــديـــلا

عني ما هز النسيم القضب بالنصب وهذا جـائز في العربية وفي المطبوعة بنصب القضب وإسكـان الضـاد ويجوز على تأويل النسيم بـالـريح فيكسبـه ذلك تـأنيثا وأستبعده، والذي صنع من رفع القضب مذهب فصاحة وهو أشبه بأسره ورصانته ومنه قوله تعالى : «وءاتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوأ بالعصبة أولي القوة» .

وللبـوصيري من فحل الشعر وطنـانـه في مدح الـرسول روائع ليس الى استكثـار الشواهد منها هنا من سبيل . ونذكر منها على وجه التمثيل لاميته التي على وزن "بانت سعـــاد" ولم يجعـل لها فـــاتحة نسيب وإنما افتتحهـــا بـــالتأمـل والمواعظ .

إلى متى أنـت بـــاللـــذات مشغـــول وأنت عن كـل مـــا قـــدمـت مسئـول
في كل يـــوم تـــرجى أن تتـــوب غـــدا وعقـــد عـزمـك بـالتســويف محلـــول
أمـــا يـــرى لك فيما سر مـن عمل يـــومـــا نشـــاط وعما ســـاء تكسيل
فجـــرد العـــزم إن الموت صـــارمـــه مجرد بيـــد الآمـــال مسلـــول

وبائيته الوافرية التي افتتحها بالمديح مباشرة :

بمـــدح المصطفى تحيـــا القلـــوب وتغتفـــر الخطـــايـــا والـــذنـــوب
وأرجـــو أن أعيش بـــه سعيـــدا وألقـــاه وليس على حـــوب
نبـي كـــامل الأوصـــاف تمت محاسنـــه فقيـل لـــه الحبيب

وفيها :

بـدت للنــاس منـه شمـوس علم — طــوالع مــا تـــزول ومــا تغيب
وألهمنــا بــه التقــوى فشقت — لنــا عما أكنتــه الغيـــوب
خــلائقــه مــواهـب دون كسب — وشتـــان المواهب والكســـوب
مهــذبــة بنــور اللـــه ليست — كـأخـــلاق يهذبها اللبيب
وآداب النبـــوة معجـــزات — فكيـف ينــالها الـــرجل الأديـب

وبائيته التي استهلها بذكر الموعظة والندم من الكامل :

وافــاك بــالــذنب العظيم المذنب — خجـــلا يعنف نفســـه ويـــؤنب
لم لا يشــوب دمــوعـه بــدمــائه — ذو شيبــة عــوراتها مـــا تخضب
لعبت بــه الــدنيــا ولــولا جهلــه — مــا كــان في الــدنيــا يخوض ويلعب
لـــزم التقلب في معــاصي ربــه — إذبــــات في نعمائه يتقلــب
يستغفـــر اللــه الــذنــوب وقلبــه — شرهـــا على أمثـــالها يتــوثـب

تأمل هذا الكلام الصافي الصادق النابع من القلب

يفـري جـوارحه على شهـواتـه — فكأنــه فيها استبــاح مكلب

إذ المكلب مباح له الصيد بما علمه وذكر اسم الله عليه

أضحى بمعترك المنــايــا لاهيــا — فكـأن معترك المنــايـــا ملعـب
ضـــاقت مــذاهبــه عليـه فما لــه — إلا الى حـــرم بطيبـــة مهـــرب
متقطـع الاسبـــاب مـن أعمالـــه — لكنــه بـــرجـــائه متسبب
وقفت بجـــاه المصطفى آمـــالــه — فكأنــه بـــذنــوبــه يتقـــرب
وبـــدا لــه أن الـــوقــوف ببــابــه — بــاب لغفــران الـــذنــوب مجرب
صلى عليـــه اللـــه إن مطـــامعي — في جـــوده قـــد غــار منهـــا أشعب

في شعـر البـوصيري رحمه اللـه كثير من خفـة الـروح ونـادرة الـذكـاء المصريـة المعدن ، وذلك أمر الإشارة إليه تفي إن شاء الله .

لم لا يغـــار وقــد رآني دونـــه — أدركت مـن خير الـــورى مــا أطلب
مـــاذا أخـــاف إذا وقفت ببــابــه — وصحـــائفي ســـود ورأسي أشيب
والمصطفى الماحي الـذي يمحـو الـذي — يحصي الـــرقيب على المسيء ويكتب
صلى عليـــه اللـــه إن صـــلاتـــه — فـــرض على كل الأنـــام مـــرتب
مـــا حن مشتـــاق إلى أوطـــانـــه — مثلي وراح بـــوصفهـــا يتشبب

رحم الله البوصيري فإن شعره جزل ،

ونعود إلى بعض ما كنا فيه من الهمزية : وقد أفاض البوصيري في أمر اليهود وما كان بينهم وبين المنافقين والأحزاب من حلف

خدعوا بالمنافقين وهل ينفق إلا على السفيه الشقاء
وأطمأنوا بقول الأحزاب إخوانهم إننا لكم أولياء
حالفوهم وخالفوهم ولم أدر لماذا تخالف الحلفاء
أسلموهم لأول الحشر لا ميـ ـعادهم صادق ولا الإيلاء

هؤلاء بنو النضير

سكن الرعب والخراب قلوبا وبيوتا منهم نعاها الجلاء

ثم صار إلى ذكر بني قريظة وما كان من مساندتهم للأحزاب في غزوة الخندق

وبيوم الأحزاب إذ زاغت الأبـ ـصار فيهم وضلت الآراء
وتعدوا إلى النبي حدودا كان فيها عليهم العدواء

أي كان فيها عليهم المركب الخشن بضم العين وفتح الدال وكان فيها ما عداهم أن ينالوا منه

ونهتهم وما انتهت عنه قوم فأبيد الأمار والنهاء

كعب بن أسد وحيي بن أخطب ولفهم. وقد تناول العقاد أمر بن قريظة بسداد عظيم وأحسبه وفي القول فيه بأجود مما جاء به هيكل في حياة محمد، جزيا كلاهما خيرا، وذلك أن العقاد لم يدافع بما وقع من خيانة بني قريظة وغدرهم ، ولكن نبه وتنبه إلى أن القوم حكموا سعد بن معاذ رضي الله عنه، وما فعلوا ذلك إلا وهم واثقون بأنه سيرجع في أمرهم إلى عادة حلف الجاهلية ولو لم يرجع إلى ذلك ، فإنه لن يبلغ ان يحكم بما حكمه وإنما جهده أن يقسو عليهم فيحكم بجلائهم مثلا، وكانوا على ثقة من أمرهم لغرورهم واستجهالهم أهل المدينة أن سعدا رضي الله عنه لم يكن له علم بما عليه قانون التوراة في هذا الباب . غاب عنهم لأمر كان مفعولا، أن سعدا رضي الله عنه عميق الايمان ، وأنه مأمور إذ حكم بما أمر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم إذ قال تبارك وتعالى «إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بأياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . »فما كان لسعد رضي

الله عنه إلا ان يحكم بما أنزل الله : «أفحكم الجاهلية يبغون؟» «ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله».

وتعاطوا في أحمد منكر القو ... ل ونطق الأراذل العوراء

أي قبيح القول

كل رجس يزيده الخلق السو ... ء سفاها والملة العوجاء
فانظروا كيف كان عاقبة القو ... م وما ساق للبذي البذاء

ثم افتن في باب من البديع استحسنه أبو منصور في شعر أبي الطيب، أن التشبيه فيه من جنس صناعته مثل:

دون التعانق ناحلين كشكلتي ... نصب أدقهما وضم الشاكل
ونحو: إذا كان ما تنويه فعلا مضارعا ... مضى قبل أن تلقى عليه الجوازم

وهو عند أبي الطيب كثير - وللبوصيري منه بدائع مثل قوله في البردة يذكر المعراج:

سريت من حرم ليلا الى حرم ... كما سرى البدر في داج من الظلم
وبت ترقى إلى أن نلت منزلة ... من قاب قوسين لم تدرك ولم ترم
وقدمتك جميع الأنبياء بها ... والرسل تقديم مخدوم على خدم
وأنت تخترق السبع الطباق بهم ... في موكب كنت فيه صاحب العلم

يذكر هنا صعود جبريل عليه السلام به يستفتح فيلقى الأنبياء نبيا بعد نبي في سماء بعد سماء، وعندنا أن تغني المسلمين بالبردة كان له عظيم الأثر في محاكاتها لا من جانب شعراء المسلمين وحدهم ولكن من جانب شعراء النصارى كدانتي في قصته الإلهية وكان بين ميلاد دانتي (١٢٦٥م) والبوصيري (٦٠٨هـ) أكثر من نصف قرن، وذلك لأمر الأخذ والمحاكاة تمهيد كاف.

حتى اذا لم تدع شأوا لمستبق ... من الدنو ولا مرقى لمستنم
خفضت كل مقام بالإضافة إذ ... نوديت بالرفع مثل المفرد العلم

وهذا موضع استشهادنا.

و قال حيث ذكر الجهاد و فعل الصحابة رضوان الله عنهم:

هم الجبال فسل عنهم مُصادمَهم ... ماذا رأى منهم في كل مُصْطَدَم
و سل حُنينا و سل بدرا و سل أحدا ... فصول حتف لهم أدهى من الوخم
المُصدري البيض حمرا بعدما وردت ... من العدا كل مسود من اللمم
و الكاتبين بسمر الخط ما تركت ... أقلامهم حرف جسم غير منعجم
كأنهم في ظهور الخيل نبت ربا ... من شدة الحزم لا من شدة الحُزُم

أخذ هذا فأحسن الأخذ و أخفاه من أبي الطيب حيث قال:

فكأنها نتجت قيـــامـــا تحتهـم　　و كـأنها ولـــدوا على صهـــواتها

كأن الخيل ربا و هم نباتها يرف عليها، و المجانسة سهلة حيث جاء بها لا يكاد السامع يتنبه إلى أنه ملابستها صنعة وحذق

طـارت قلـوب العـدا من بأسهم فـرقـا　　فما تفـــــرق بين البَهْـم و البُهَـم

البهم صغـار المعزى بفتح فسكـون و البهم بضم ففتح جمع بهمة بضم فسكون و تـاء مربوطة بعد الميم و هو الشجاع الذي لا يدرى قرنه من أين يأتيه

و من تكـن بـرســول اللـه نصرتـه　　إن تلقـه الأسـد في آجـامهـا تجم

أي يصيبها الوجوم. و هذا البيت يقولون من أنشده أمن مما يخاف، و لو لقيه الأسد.

و لـن تـــرى مـن ولي غير منتصر　　بـــه ولا مـن عـــدو غير منقصم
أحـل أمتـــه في حـــرز ملتـــه　　كـــالليث حل مـع الأشبـــال في أجم
كم جـدلـت كلمات اللـه من جـدل　　فيـه و كم خصم البرهـــان من خصم

و جاء بالبرهان من بعد:

كفــاك بـــالعلم في الأمـي معجـــزة　　في الجاهليـــــة و التـأديب في اليتـم.
خـــدمتــــه بمـــديح أستقيـل بـــه　　ذنـوب عمـر مضى في الشعـر و الخدم

بكسر الخاء و فتح الدال أي خدمـات الناس من ذوي الجاه و أشباه ذلك و لك فتح الخاء و يكون كأنه ينظر إلى قول أبي الطيب:

بكل منصلـت مـــازال منتظـــري　　حتى أدلـت لـــه مـن دولـــة الخدم

ولا تستبعدن هذا

خـــدمتـــه بمـــديح استقيـل بـــه　　ذنـوب عمـر مضى في الشعـر و الخدم

وشعـر البوصيرى في غير المديح النبـوي لايبلغ شيئـا من جـودته فيـه فسبحـان الموفق القدير، من يهد الله فهو المهتدي.

إذ قلـــداني مـــا تخشى عـــواقبـــه　　كـأنني بهما هـــــدي مـن النعـم

أي الشعر و خـدمة هـؤلاء قلداني ذنـوبا فصـارت لي كقلائد الإبل التي تقلـد القلائد وتساق لتنحر هديا إلا أنهما يقدماني هديا للشيطان - تأمل هذا الافتنان

أطعـت غي الصبـــا في الحالتين فما　　حصلت إلا على الآثـــام و النـــدم

فيــــا خســــارة نفس في تجارتها لم تشتر الـديـن بـالـدنيـا و لم تسم

و من يبع آجـلا منـه بعـاجلـه يبـن لــه الغبـن في بيع و في سلم

إن آت ذنبـا فما عهـدي بمنتقض مـن النبـي و لاحبلي بمنصرم

فـإن لي ذمـة منـه بتسميتي محمـدا و هـو أوفى الخلق بـالـذمم

إذ هو محمد بن محمد بن سعيد بن حماد الأبوصيري أو البوصيري و هذه أشبه إذ قريته بوصير و أصلها أبوصير و هو عربي مغربي أمه من صعيد مصر ـ و نعود إلى ما كنا فيه من الهمزية حيث ذكرنا استعماله ما هو من جنس صناعة الأدب و الكتابة في باب التصوير و البيان :

فانظروا كيف كان عاقبة القوم و ما ساق للبذي البذاء

و جد السب فيه سما و لم يدر إذ الميم في مواضع باء

أي قد تقلب الميم باء لتقارب المخرج إذ هما شفويان فوجدوا السب الذي سبوه النبي صلى الله عليه وسلم قد انقلبت باؤه سما فقتلهم. و انظر إلى قوله «في مواضع» إلى دقته و رشاقته

كــان من فيــه قتلـه بيـديـه فهـو من سـوء فعلـه الـزبـاء

أي لأن السب خرج من فيه وهو سم فقتله فكأنه قد أخذ سما فمصه كما فعلت الزباء وقد مر خبرها ، و هذا كمذهب أبي تمام في الإشارة .

صرعت قـومـه حبـائل بغي مـدهـا المكـر منهم و الـدهـاء

فـأتتهـم خيـل إلى الحرب تختـا ل وللخيـل في الـوغـي خيـلاء

قصـدت فيهم القنـا فقـوافي الطـ ـعن منهـا مـا شانها إيطـاء

أي كسرت فيهم القنا من جعل القنا قصدا فهو قصيد أي متكسر، قال أبو الطيب :

يطأن مـن الأبطـال مـن لا حملنـه و من قصـد المران مـا لا يقـوم

فالخيل إذ وطئت هذا القنا القصيد فهذا الإيطاء لا يشينه كما الإيطاء يشين قوافي الشعر. و قصدت الخيل فيهم القنا أي نظمته كما ينظم الشعر طعنا سلكي و طعنا مخلوجا متتابعا قاتلا فمنظومات الطعن فيهم لا يشينها أن تتشابه كما يشين ذلك قوافي الشعر. فهنا كما ترى تورية و استخدام .

و قوله فأتتهم خيل . . . البيت ، كأن صياغته تنظر إلى قول أبي الطيب :

فـأتتهم خـوارق الأرض مـا تحـ ـمل إلا الحديـد و الأبطـالا

خـافيـات الألـوان قـد نسج النقـ ـع عليهـا بـراقعـا و جـلالا

ثم إن البوصيري رحمه الله ذكر فتح مكة وعفو النبي صلى الله عليه وسلم :

و أثـــارت بأرض مكـــة نقعـــا　　ظن أن الغـــدو منهـــا عشـــاء

أحجمت عنـده الحجـون و أكـدى　　عنـــد إعطـــائه القليل كـــداء

قال النبهاني ما معنـاه أنه هو كداء بضم الكاف كأن الشاعر مـد المقصور قال رحمه الله أحجمت كفت و أمسكت ، وعنده عند غبار الحرب ، والحجون الجبل المطل على مقبرة مكة المشرفة و هـو كداء بالفتح والمد و منه دخل النبى صلى اللـه عليه وسلم يوم الفتح وأكدى قل خيره و كدى بـالضم والقصر ويمد كما هنا موضع بأسفـل مكة ومنه دخل خالد بن الوليد رضي الله عنه ووقع فيه حرب قليل مع أوباش مكة .

قلت هذا الوجه الـذي ذكره لا بأس به . وعندى أنه لم يرد بـالحجون إلا مكة و الحجون جبل مكة فأنثه لمعناها و كداء بالفتح والمد هو الذي ذكره حسان رضي الله عنه :

عـدمتم خيلنـــا إن لم تـروهـــا　　تثير النقع مـــوعـدهـــا كـــداء

و قد ذكر البوصيري النقع[1]ولا حاجة به إلى قصر الممـدود وعنى بكداء مكة كل ذلك من إطلاق الجزء على الكل . أى أحجمت مكة فلم تقاتل لاستسلام أبي سفيان وسائر السادة وأعطت مـن القتال قليلا ثم تـركته يشير إلى يـوم الخندمـة ، حيث جمع صفوان وعكرمة جمعا قال الراجز:

إنـك لـــو رأيـت يـــوم الخَنْـــدَمـــة
إذ فـــر صفـــوان وفـــر عكـــرمـــة
ولحقتنـــا بـــالسيـــوف المسلمـــة
لهم نهيت خلفنـــا و زمـــــزمـــة
يضربـن كـل هـــامـــة و جمجمـــة
لم تنطقـي في اللـــــوم أدنـى كلمـــة

و يشير إلى قوله تعالى : «و أعطى قليلا و أكدى» أي صار كالحجر لاعطاء عنده

أحجمت عنـده الحجـون و أكـدى　　عنـــد إعطـــائهـــا القليـل كـــداء

أي خلا من كل مقاومـة وهو الموضع الذي دخل منه رسول اللـه صلى الله عليه وسلم

ودهت أوجهـــا بها وبيـــوتـــا　　مل منهـــا الإكفـــاء و الإقـــواء

إكفاء القدور و إقواء الديار أي خلوها وألغز بالإكفاء والإقواء والبيوت إذ ذلك كله من ألفاظ الشعر

فـــدعـــوا أحلم البريـــة والعفـــ　　ـــو جـــواب الحليـم والإغضـــاء

---

(١) ذكره النقع ينظر إلى قول حسان وقول أبي الطيب معا والله أعلم .

ناشدوه القربى التي من قريش قطعتها الترات والشحناء
فعفا عفو قادر لم ينغصه عليهم بما مضى إغراء
وإذا كان القطع والوصل للـه تساوى التقريب والإقصاء

ثم أخذ بعد في باب من المدح من أسنى ما قال وأجوده، جمع فيه بعد طريق الجدل والوصف والقصص والخطابه، طرقا من عذب الغناء ورنانه واستخفه الطرب فركب الناقة وعدد المنازل إلى دار الحبيب وهذا لشعراء العرب منهج، حتى في اللغة الدارجة، وقد اتبعه المتنبي في مقصورة خروجه من مصر «ألا كل ما شية الخيزلى» ومن قبل صنع ذلك أبو نواس حين قصد الخصيب بمصر في «أجارة بيتينا أبوك غيور» ـ وهنا شاعر مصري مغربي مسلم حنيف يفر إلى الله وإلى الحبيب لا من خوف ملك ولكن لخوف الملك الجبار، ورجاء إيفاء طاعة الدين حقها، ويقصد لا صاحب جاه من جاه الدنيا كالخصيب، ولكن صاحب جاه الآخرة، الماحي الشفيع عليه الصلاة والسلام:

وسواء عليه فيما أتاه من سواه الملام والإطراء
ولو أن انتقامه لهوى النفس لدامت قطيعة وجفاء
قام للـه في الأمور فأرضى الـله منه تباين ووفاء
فعله كله جميل وهل ينضح إلا بما حواه الإناء
أطرب السامعين ذكر علاه يا الراح مالت بها الندماء

ثم أخذ في قري غناء مطرب:

النبي الأمي أعلم من أسند عنه الرواة والحكماء

هذا كقوله في البردة «كفاك بالعلم في الأمي معجزة البيت»

وعدتني ازدياره العام وجناء ومنت بوعدها الوجناء
أفلا أنطوي لها في اقتضائيـه لتطوى ما بيننا الفلاء

أي الصحاري جمع فلاة. أنطوى أي أطوى نفسي على طية بكسر الطاء أي نية يعني نية الحج. أي أفلا أصدق النية والعزم في اقتضائي لها أن توفي بوعدها لكي توفيه فتطوى ما بيننا الصحاري

بألوف البطحاء يجفلها النيـل وقد شف جوفها الأظماء

بناقة تألف بطحاء مكة وتجفل عن النيل ولو طالت أظماؤها جمع ظمء بكسر الظاء وهو مدة ما بين الشرابين للإبل. وفي الناقة كناية عن نفسه، إذ حركة شوق الطاعة بالحج وزيارة الحبيب، ثم جعل يعد المنازل، وقد قصد مكة أولا، ليحرم من الميقات ويحج ثم بعد ذلك قصد طيبة لزيارة قبره صلى الله عليه وآله وسلم وحرمه الشريف.

فأقفت على مباركها بـر ... كتهـا فـالبـويب فـالخضراء
فـالقبـاب التي تليهـا فبئـر النخل والـركب قـائلـون رواء
وغـدت أيلـة وحقـل وقـر ... خلفهـا فـالمغـارة الفيحـاء

ثم عد المنازل . فذكر النبهاني أن العارف الصاوى رحمهما الله ذكر في حاشيته على الهمزية أن الناظم ترك منازل خمسة قبل الحوراء . قلت وما أرب الناظم أن يسرد المنازل نظما وإنما تغنى بها كما كان الشعراء يتغنون بمعاهد الديار ومنازل الأحبة لا يعنون بذلك سردا جغرافيا . ولو عد البوصيري عشرة منازل أو أربعين أو ثلاثين أو عشرين ثم قال من بعد كما قال بعد ذكره ما ذكر منها :

هـذه عـدة المنـازل لا مـا ... عـد فيـه السماك والعـواء

لاستقام له المعنى واللفظ والسياق ، إذ ليس قصده المطابقة بين عدد منازل القمر وما يعد من أسماء منازل الحج كما ليس قصده أن يذكر سردا منظوما بكل منازل الحج ولقد تنقص وتزيد بحسب نوع السير وحتى على تقدير ألا تزيد ولا تنقص ، إذ قصده كما قدمنا الطرب والذكر بنغم التغني بهذه المنازل ولقد قال مما يشهد بصحة ذلك :

أطـرب السـامعين ذكـر عـلاه ... يـا لـراح مـالت بها النـدمـاء

ومناسبة قوله :

هـذه عـدة المنـازل لامـا ... عـد فيـه السماك والعـواء

ليست في مطابقة عدد ما ذكره لعدة منازل القمر . ولكنها كامنة في حقيقة تنبيهه على أنه يذكرها للشوق والحب وطربا بها كما كان يفعل فحول الشعراء الأولون ، وقد ترك الشعراء ذلك أو كادوا منذ ماتت القصيدة المادحة الدنيوية القديمة . وقد ترنم أبو الطيب طربا بذكر نجاته من كافور فعدد المنازل إلى العراق تعداد ترنم لا سرد . وقد كان عصر البوصيرى وعصور كثيرة قبله وبعده إلى يومنا هذا لها ولع بالطوالع والنظر في النجوم وطلب معرفة الحظ ومخبوء الغيوب من طريقها ، ليس قول البوصيرى رحمه الله :

هـذه عـدة المنـازل لامـا ... عـد فيـه السماك والعـواء

يخلو من النقد لهذا الولع الخاطىء .
فمن أخذ عليه حذف خمسة مواضع أو نحو ذلك فقد ضيق من فسحة معناه الكبير الواسع

ثم يقول رحمه الله:

فكأني بها أرحل من مكة ... شمسا سماؤها البيداء
موضع البيت مهبط الوحي مأوى الر ... سل حيث الأنوار حيث البهاء
حيث فرض الطواف والسعي والحلـ ... ـق ورمي الجمار والإهداء
حبذا حبذا معاهد منها ... لم يغير آياتهن البلاء

البلى بكسر الباء والبلاء مقصور وممدود لغتان صحيحتان. وهذا البيت يقوي ما ذكرناه من قصده إلى الترنم كالقدماء، فقال حبذا هذه الديار والمعاهد ولكنها على قدمها معمورة لم يغيرها البلى، وكان القدماء يتغنون على الذكرى بديار كانت مأهولة ثم أقوت وأقفرت بعد عهد الأحباب. ولذلك أخذ الخليل على الآخر قوله الذي ذكره ابن قتيبة في مقدمته:

أنبت تفاحا وإجاصا

لأن التفاح والإجاص إنما يكونان في البساتين ومع التعهد بالسقي في المكان الآهل وليس كقول من قال:

أنبت قيصوما وجثجاثا

لأن هذه نباتات برية إنما تنبت بعد خلو الدار من أهلها

حرم آمن وبيت حرام ... ومقام فيه المقام تلاء

المقام معا مفتوحة الميم أو الثانية مضمومتها أو الأولى مضمومتها أو كلتاهما مضمومتها. فعلى الأول فالمقام مقام إبراهيم والقيام فيه جوار وذمة في حرم الله. وعلى الثاني فالمقام مكان الإقامة (اسم مكان رباعي) والمقام بمعنى القيام أو بمعنى مقام إبراهيم أي موضع قيامه والصلاة فيه جوار وذمة عند الله. وعلى الوجه الثالث فالمقام مكان الإقامة (رباعي) والإقامة فيه (مصدر ميمي رباعي) جوار وتلاء بمعنى الجوار ووزن سحاب

فقضينا بها مناسك لا يحـ ... ـمد إلا في فعلهن القضاء

لأن قضاء الصلاة مثلا يكون بعد فوات وقتها وقضاء الدين من هذا المعنى وإن حمد هو فإن الدين ليس في ذاته بمحمود ولذلك قال الشاعر:

يلومونني في الدين قومي وإنما ... ديوني في أشياء تكسبهم حمدا

فلو كان في ذاته أمرا حميدا ما كان قومه ليلوموه فيه

ورمينـــا بها الفجـاج إلى طيـــ ـــبة والسير بـالمطـايـا رمـاء

لأن النـاقـة كـالقــوس وتـرفع رقبتهـا في السير كأنها قـوس وتـرمي بنفسهـا الفجـاج

فأصبنـا عن قـوسهـا غـرض القـر ب ونعـم الخبيئـة الكـومـاء

فـرأينـا أرض الحبيب يغض الطـر ف منهـا الضيـاء والـلألاء

فكأن البيـداء من حيث قـابـ ـلت العين روضـة غنـاء

قولـه نعم الخبيئة أي الذخر. والكـوماء مخصوص نعم وليست صفـة للخبيئة والكوماء عنى بها ناقته.

وكـأن البقـاع زرت عليهـا طـرفيهـا مـلاءة حمراء

وكـأن الأرجـاء تنشر نشر الـ ـمسك فيهـا الجنـوب والجربيـاء

أي نـور وأي نـور شهـدنـا يـوم أبـدت لنـا القبـاب قبـاء

قـر منهـا دمعـى وفـر اصطبـارى فـدمـوعي سيـل وصبري جفـاء

لأن السيل يحتمل زبدا رابيـا "فأما الزبد" كما قـال تعالى في الكتاب العزيـز «فيذهب جفاء» وهنا صار الدمع هو النافع والصبر جفاء فتأمل

فترى الـركب طـائرين من الشـو ق إلى طيبـة لهم ضـوضـاء

هـذه أخذهـا من الحارث وحول معنـاهـا من السخريـة عند الحارث إلى معنى النشـوة والحب ههنا

وكأن الـزوار مـا مست البأ سـاء منهـم خلقـا ولا الضراء

يعني بأساء السفر وذلك من عون الله وتوفيقه

ثم يجيء هذا المدح والانفعال بالعاطفة الرائع ويناسب ما قدمه من أن الشوق قد طار به وكأنه مـا مسه فتور ولا إعياء وقـد نظم ما نظم مما يكل عن مثله الفحـول، وما زالت أنفاسه لهن حرارة واندفاع وصدق ولإيقاعه رنين وزجل وترجيع:

فحططنـا الـرحـال حيث يحط الـ ـوزر عنـا وتـرفـع الحوبـاء

وقـرأنـا السـلام أكـرم خلـق اللـ ـه من حيـث يسمع الا قـراء

وذهلنـا عنـد اللقـاء وكم أذ هـل صبـا مـن الحبيب لقـاء

تقول قرأ عليه السلام وأقرأه إياه أي أبلغه ثلاثي ورباعي ذكره الفيروزابادي وذلك مما يحسن التنبيه عليه لما يقع فيه من النسيان والـوهم وقوله ذهلنا والبيت التالي من جيد وصف زيارة الحبيب عليه الصلاة والسلام.

ووجمنـــا مــن المهـــابـــة حتى لا كـــــلام منـــــا ولا إيماء
ورجعنـــا وللقلـــوب التفـــاتـــا ت إليـــه وللجســـوم انثنـــاء

ثم صار إلى خطابه صلى الله عليه وسلم :

يـا أبـا القـاسم الـذي ضمن أقسـا مي عليـــه مـــدح لـــه وثنـــاء

أقسام جمع قسم بالتحريك

بـــالعلـــوم التي عليـك من اللــــ ـــه بـــلا كـــاتـب لها إمـــلاء
ومسير الصبـــا بنصرك شهـــرا فكأن الصبـــا لـــديك رخـــاء

هي الريح التي سخرت لسيدنا سليمان عليه السلام غدوها شهر ورواحها شهر

وعلي لما تفلـت بعينيـــــــــــــــــ ــــه وكلتـــاهما معـــا رمـــداء
فغـــدا نـــاظـــرا بعيني عقـــاب في غـــزاة لها العقـــاب لـــواء

وهي خيبر

وبريحانتين طيبهما منك الذي أودعتهما الزهراء

هي فاطمة رضي الله عنها

كنت تـــــــــؤويهما إليك كما آ وت مـن الخط نقطتيهـــا اليـــاء

لأن النقطتين تحتها وفي كنفها معـا عند ما تكون متطرفة ، وهـذا من الباب الذي ذكرناه آنفا ونظر في ذكر السبطين والياء إلى قول أبي الطيب :

وكـــان ابنـــا عـــدو كـــاثـــراه لـــه يـــائي حـــروف أنيسيـــان

وهو نظر خفي من باب الحذو اللامح

من شهيـــدين ليس ينسيني الطفـــ ـــف مصـــابيهما ولا كـــربـــلاء
آل بيت النبـــي إن فـــــــؤادي ليس يسليـــــه عنكم التأســـــاء

أي التأسي والتعزية

آل بيت النبي طبتم فطـــاب الـــ ـــمدح لي فيكم وطـــاب الثنـــاء
أنـــا حســـان مـــدحكم فإذا نحـــ ـــت عليكم فإنني الخنســـاء
ســـدتم النـــاس بـــالتقي وســـواكم ســـودتـــه البيضـــاء والصفـــراء

والبوصيري هنا متبع قولنا صلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم فذكر الآل ثم صار إلى الأصحاب فبدأ بالخلفاء ثم العشرة الكرام مع مدح مجمل ومفصل

وبأصحـــابـــك الـــذيـــن هم بعـــ ـــدك فينـــا الهداة والأوصيـــاء
أغنيـــاء نـــزاهـــة فقـــراء علماء أئمـــــة أمـــــراء
رضي اللـــه عنهم ورضـــوا عنـــ ـــه فأني يخطـــو إليهم خطـــاء
مـــا لموسى ولا لعيسى حـــواريـــ ـــون في فضلهم ولا نقبـــاء
بأبي بكـــر الـــذي صح للنـــا س بـــه في حيـــاتك الاقتـــداء
وأبي حفص الـــذي أظهـــر اللـــ ـــه بـــه الـــدين فـــارعوى الـــرقبـــاء
وابن عفـــان ذي الأيـــادي التي طـــا ل إلى المصطفى بها الإســـــداء
وعلي صنـــــو النبي ومـــن ديـــ ـــن فـــؤادي وداده والـــولاء
وبـــاقـــي أصحـــابـــك المظهـــر التر تيب فيـــنا تفضيلهم والـــولاء

ثم ذكرهم طلحة والزبير وسعدا وسعيدا وعبدالرحمن بن عوف وأبا عبيدة ثم ذكر عمي رسول الله صلى الله عليه وسلم وضمن في ذكره الزبير ابنه عبدالله وزوجه أسماء رضي الله عنهم أجمعين.

وبـــــــأم السبطين زوج علي وبنيهـــا ومن حـــوتـــه العبـــاء
وبـــأزواجك اللـــــواتي تشرفـــ ـــن بأن صـــانهن منك بنـــاء
الأمـــان الأمـــان إن فـــؤادي من ذنـــوب أتيتهن هـــواء

هذا جواب القسم

قـــد تمسكـت من ودادك بـــالحبـــ ـــل الـذي استمسكـت بـه الشفعـاء
وأبي اللـــــه أن يمسنـي الســـــو ء بحـــــال ولي إليـك التجـــــاء
قـــد رجـونـــاك لـــلأمـــور التي أبـــ ـــــردها في فـــؤادنـــــا رمضـــاء
وأتينـــــا إليك أنضـــــاء فقـــــر حملتنـــــا إلى الغنـي أنضـــــاء

أي ضعاف من الفقر إلى الغفران تحملنا إلى الغني بنيل شفاعتك إبل أنضاء

وانطـوت في الصـدور حـاجـات نفس مـــالها عن نـــدى يـــديك انطـــواء
فأغثنـــا يـــا من هـــو الغـوث والغيـــ ـــث إذا أجهـــد الـــورى الـــلأواء
اللأواء: الشدة
يـــــارحيما بـــــالمؤمنين إذا مــــــا ذهلت عـن أبنـــائهـــــا الـــــرحماء
يــــا شفيعـــــا في المذنبين إذا أشـــ ـــــفق من خـــوف ذنبــــه البرآء

كأنه يشير بهذا إلى نبي الله عيسى عليه السلام إذ لا يعتذر بذنب، «يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها».

جد لعاص وما سواي هو العاصي ولكن تنكري استحياء
تأمل هذه الرقة مع لمحة الذكاء في العبارة

وتداركه بالعناية مادا م له بالذمام منك ذماء
الذماء بوزن السحاب

أخـــــرتـــــه الأعمال والمال عما قـــــدم الصـــــالحـين والأغنيـــــاء
كل يـــوم ذنـــوبـــه صـــاعـــدات وعليهـــا أنفـــاســـه صعـــداء
أي يتأوه

ألف البطنـــة المبطئـــة السيـــــ ـــــر بـــدار بها البطـــان بطـــاء
كنت في نـومـــة الشبـــاب فما استيـــ ـــــقظت إلا ولمتـي شمطـــــاء
أي خالط سوادها بياض الشيب

وتماديـت أقتفي أثـــــر القـــــو م فطـــالت مســـافـــة واقتفـــاء
صـــاح لا تأس إن ضعفـت عن الطـــا عـــة واستـأثـــرت بها الأقـــويـــاء
إن للـــــه رحمة وأحق النـــــا ـــاس منـــه بـــالـــرحمة الضعفـــاء
فـــابق في العـــرج عنـــد منقلب الـــذو د ففي العـــود تسبق العـــرجـــاء

الذود هنا مصدر، قال تعالي: «ووجد من دونهم امرأتين تذودان» أي عندما تذاد الـواردات راجعة فإن العرج التي كانت أواخـر تكـون أوائل فتلفى العرجـاء سابقـة. (ويجوز أن يكـون الذود الجماعـة من الإبل على بعـد في المعنى عسير) وهـذا يقولـه على التمني وعلله من بعد:

ويحب النبي فـــابغ رضي اللـــــه ففي حبه الـــرضـاء والحبـاء
يـــانبي الهدى استغــاثــة ملهــوف أضرت بحـــالـــه الحوبـــاء

ما أرى إلا أنه عني الحاجة فتكون الحوباء كالحوبة ولا تزال في دارجتنا هذه الثانية بهذا المعنى، والحوباء النفس فلعل المعنى شهوات النفس هنا والله أعلم.

هذه علتي وأنت طبيبي ليس يخفى عليك في القلب داء

هذا يصحح المعنى الثاني أن الحوباء النفس فتأمله.

ومـن الفـــوز أن أبثـك شكـــوى هي شكـــوى إليـك وهي اقتضـــاء
ضمنتهـــا مـــدائح مستطــــاب فيـك منهـــا المديـح والإصغـــــاء

يعني إنشاد المديح والإصغاء إليه

وأعلم أصلحك اللـه أن رنات المديـح هي التي كانت سببـا في معـرفة الأجيـال القريبة من عصرنـا هذا أوزان الشعر الرصين لغلبة الألسن الـدارجة، ولأن أكثر أوزان شعرها يعتمد مواضع الإشباع (ما يسمى النبر الآن) مع المقاطع والغناء. والعروض لا يفي بتعليم نغم الشعر، ولذلك كان العلماء في العصـور القريبة من عصرنا ربما عمدوا إلى تثبيته في أذهان الطلبة من طريق نغم المديح كالذي صنع النبهاني من نظمه البحور نحو:

علمـت اللـــــه ليس لـــــه مثيـل وأن محمـــــدا نعـم الــــرســـول
مفـــاعلـــة مفـــاعلـــة فعـــول بـــوافـــر هـــديـــه اتضـح السبيل

وما عرف شوقي وحافظ وجيلهما والبارودي من قبل أنغام الشعر إلا من طريق ما تعلموه من سماع نغـم المديح النبوي، ومن أجل هذا سـاغت لهم مجاراة البردة. وصنع حافظ عمريته على نهج البرعي رحمه الله في:

بانت عن العدوة القصوى بواديها

وشوقي هَمْزيته على غرار:

ما آذنتـه ببينهـا أسماء

للشهاب.

وقد ناب الإلقاء العصري عن نغم المديح حينا، قالوا وكان حافظ جيد الإلقاء وهو ليس بمنهج عربي الأصل فيما أرجح ولكن أخذ من طريقة الافرنج التي يقال لها Dec-lamation وهي طريقة خطابية تشخيصية. وقد كان يخالط الإلقاء عند علي بك الجارم رحمه الله ترجيع نغم ونشوة غناء.

وقد ذهب الإلقاء وعلى أيامه ـ أعني على أيام الإلقاء الخطابي وبالرغم من حرص المجودين على تجويده ـ جعلت المعرفة بنغم القصيد تقل، والطرب لها يضعف.

وسبب الإقبال على ما يسمي بالتفعيلة والشعر الذي يقال له غير العمودي [وهذا اصطلاح فاسد إلا أن يرجع إلى قول قدامة انه لا مشاحة في الاسماء وزعم برنارد شو في بعض ما زعم أن من شاء أن يسمي منزله الذي يسكن فيه بالبرلمان فعل ذلك ولم يعبه عليه أحد] أن ذهاب المديح إلا من بقايا حلقات الأذكار وهذه لا يرتادها المعاصرون إما عن ضعف دين وإما عن فرط تشدد فيه وإما عن جهل تام وعدم سماع بشيء اسمه الأذكار أو المديح النبوي، أي ذلك كان، هذا الذهاب من المديح ذهب مرة واحدة بمعرفة نغم الشعر وإيقاعه. فالشعر الحر والتفعيلي ليس منشؤه من ثورة على الأوزان العربية عن معرفة، ولكن عن ثورة عن جهل ومن جهل شيئا عاداه، وعن حاجة إلى التنغيم والإيقاع من دون معرفة سبيل إليه غير تقليد أوروبا. حتى لو دخلوا جحر ضب خرب.

قال رحمه الله:

ضمنتها مدائح مستطاب	فيك منها المديح والإصغاء
قلما حاولت مديحك إلا	ساعدتها ميم ودال وحاء

هذا نظر فيه إلى لامية أبي الطيب في أبي شجاع، وقد نبه هو نفسه رحمه الله إلى هذا النظر حيث قال في البيت التالي:

حق لي فيك أن أساجل قوما	سلمت منهم لدلوي الدلاء

فهنا أيضا يقوى ما نقول به من انتقال المدح من قصيدة مدح الملوك وذوي الجاه إلى المدح النبوي فقد أسلمت دلاؤهم فيه إلى صاحب دلوه

إن لى غيرة وقد زاحمتني   فى معاني مديثك الشعراء

يعني شعراء الدنيا كأبي الطيب الذي أشار قبل إلى قول:

تملك الحمد حتى ما لمفتخر   فى الحمد حاء ولا ميم ولا دال

ثم يقول رحمه الله:

ولقلبي فيك الغلو وأنى   للساني فى مدحك الغلواء

أى لا يصح ذلك شرعا كما فعل أتباع المسيح عليه السلام وأهل الكتاب الأول، أو لقلبي غلو فى حبك أكبر من أن يقدر على البيان عنه لساني وهذا المعني الثاني أشبه ويقويه ما يلي، وهو بيت جيد بالغ الجودة:

فأثب خاطرا يلذ له مد   حك علما بأنه اللألاء

أي مدحي لألاء الدر الذى هو فضائلك. وأصل هذا المعني من أبي الطيب

هنيئا لك الدر الذى لي لفظه   فإنك معطيه وإني ناظم

فنحو هذا من المعاني هو ما زعم البوصيرى أنه غار منه

حاك من صنعة القريض برودا   لك لم تحك وشيها صنعاء
أعجز الدر نظمه فاستوت فيـ   ـه اليدان الصناع والخرقاء

وهذا البيت يشهد لما ذكرنا من نظره رحمه الله إلى أبي الطيب

فارضه أفصح امرىء نطق الضا   دفقامت تغار منها الظاء

والضاد والظاء حرفان في العربية كل منهما مستقل بنفسه متميز ونطق الظاء غير مشكل إشكال نطق الضاد فبيان الضاد في النطق الفصيح حتى لا يشتبه أمرها بالظاء مما أغارها إذ النبي صلي الله عليه وسلم سيد الفصحاء، ونطق الضاد عنده لفصاحته لا يختلط بالظاء. وقد مر الحديث عن مقال صاحب المقامات. في هذا الباب.

أبـــذكـــر الآيـــات أوفيك مـــدحـــا   أين منـى وأين منهـــا الـــوفـــاء

يعني المعجـزات والعـلامـات كتظليل الغمام وتسبيح الحصى والبشـارات التي سبقت يدلك على ذلك قوله من بعد:

أم أمـــاري بهن قـــوم نبـي   ســاء مـــا ظنـــه بي الأغبيـــاء

إذ قصدى إظهار الحجة لا المماراة المنهي عنها

ولـك الأمـــة التـي غبطتهـــا   بـك لما أتيتهـــا الأنبيـــاء

هـذا من إحسان البـوصيرى إذ هو قـد ذكر الآل والأصحـاب والندم والتـوبة ورجـاء الشفاعـة ومت بمدحـه النبي صلي الله عليـه وسلم إلى رجائه من ذلـك ـ ثم ذكـر أمة الإسلام وعزتها بما خصها الله به من رشد وعناية وأن رسولنا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وهي خاتمة الرسالات ذات التوحيد الباهر المنير.

لم نخف بعـــدك الضـــلال وفينـــا   وارثـــو هـــدى نـــورك العلماء

وهو منهم إن شاء الله.

ثم يقول رحمه الله:

ليس مـن غـايـــة لـــوصفك أبغيـــ   ـــهاوللقول غـايـــة وانتهـــاء

لم أطل فى تعـــداد مـــدحـك نطقى   ومـــرادي بـــذلك استقصـــاء

غير أني ظمآن وجـــد ومـــالى   بقليـل مـن الـــورود ارتـــواء

وكأنه هنا يعلق على شكوى ابن الرومي إذ قال:

وإذا امـــرؤ مـــدح امـــرأ لنـــوالـــه   وأطـــال فيـــه فقـــد أطـــال هجـــاءه

لـــو لم يقـــدر فيـــه بعـــد المستقى   عنـــد الـــورود لما أطـــال رشـــاءه

هذا في مـدح ملوك الـدنيا وعند طـالبي زهرتها. ثم كأنـه بقوله لم أطـل من أجل قصد للاستقصاء يظهـر عين المعني الذي لاح لنا من طريقته إذ قلنـا إنه يقصد إلى التغني لا السرد واستقصاء الأخبـار ومن أجل هذا ما أخذنـا على من أخذ عليه أنه إذ ذكـر ثمانية وعشرين منزلا وشبهها بمنازل القمر أنه حذف خمسة لو ذكرها ما تمت المطابقة إذ منازل القمـر ثمانية وعشرون. ولقـد أباح النقـاد للشعراء ألا يلتـزموا بتـواتر أحـداث التـأريخ ولأرسطوطاليس الفيلسوف نظريته المعـروفة في الواقع والمحتمل. فكيف نلزمهم بالسرد

والاستقصاء وهذا عمل ناظمي العلوم وما أشبه.

ولقد عجب ابن الأثير فى آخر المثل السائر من شهنامة وأن العرب لا تطيل جر الأخبار والحكايات كما تصنع العجم. وقد اعتذر الشيخ عبدالحي الكتاني رحمه الله في التراتيب الإدارية عن هذا بما طوله المطولون من نظم السيرة، والحق أن العرب قد طولت الأراجيز كما في ذات الأمثال لأبي العتاهية وكنظم كليلة ودمنة لأبان بن عبد الحميد. ولكن لم يكن عندها جر الأخبار والحكايات كما نبه على ذلك ابن رشيق بداخل حقا في حيز الشعر. لأن الشعر إنما وضع للغناء والترنم.

وقد أطال المحدثون مدح الملوك وأولى الجاه يبتغون احتلاب أخلاف الدر البكيء. على أن هذا من صنيعهم كأنما أراده المولى عز وجل تمهيدا وتمحيصا وتوطئة لهذا الإبداع الذي جاء به مداح الرسول عليه الصلاة والسلام من بعد وخاصة البوصيري. وذلك أن اطالة ابن الرومي ومن نحا نحوه كمهيار وغيره روضت القوافي والمعاني على أساليب المدح ومحاولات الإطراب بالبديع والافتنان في الصياغات البيانية. فلما جاء المحبون مادحو خير الورى صلوات الله عليه وسلامه، أصابوا المادة الخصبة من طرق القول ومناحيه، ووفقهم توفيق الله سبحانه وتعالى بما وهبوا من ملكة القريض والغناء والمقدرة على الإطراب وبما ضمنته قلوبهم من نشوات إلى أن يفتنوا في الإطالة ويتيسر لهم مع ذلك أن يجيدوا بلا إعياء ولا كلال ولا ملال. ومن شاء أن يوازن بين صنيع البوصيرى هنا وفي طواله وصنيع المجيدين من مداح الرسول صلى الله عليه وسلم وبين ملحميات أصحاب الملاحم من يونان مثلا ودرامياتهم فعل، فأبيات الهمزية ثلثمائة وستة وسبعون والبيت العربي يساوى سطرين من شعر يونان على أقل تقدير، قياسا على ما نقل إلينا من ترجمة دقيقة، فهذه نحو من ثمانمائة وليست أبيات بعض الدرامة والملاحم بزائدة على ذلك بكثير.

غير أنا لا نعد «الهمزية» والبردة و إلى متى أنت " وجاء المسيح " من باب الملاحم، إذ هن من باب قصيد العرب، وهو فنهم الذى امتازوا به وخصوا. وقد رأيت أنه لا شعر سواه بالغا مبلغه عند الجاحظ وهدك من ناقد.

ولله در البوصيرى إذ لخص معنى الإطراب والطرب والنشوة والإخلاص بصدق الشعر في قوله:

غير أني ظمآن وجد وما لى … بقليل من الورود ارتواء

ثم ختم بالصلاة والسلام على خير الأنام:

فســــــلام عليك تترى مـن اللـــــــــ ـــــه وتبقـى بـــــــه لك البأواء

أي الفخـر. لاحظت في مواضـع أن البوصيري كأنـه آخـذ بقراءة أبي عمـرو رحمه الله . وقد كانت بمصر كثيرة . ومثله كان بالقراءات عالما . وتترى هنا على قراءة أبي عمرو منونة على الأرجح إذ السلام مذكر. أى فسلام عليك متتابعا . وأبو عمرو ينون فى آية «قد أفلح المؤمنون» «ثم أرسلنا رسلنا تترى» أى وترا أي متتابعين متواترين وصارت الواو تاء وهـــو مــــذهب للعـــرب فى القلـب وقـــرأ ابـن كثير وهـــو شيخ أبـى عمـــرو كـذلك . وضبط«تترى» في الهمـزية المطبـوعـة التى رجعنـا إليهـا بلا تنـوين والسيـاق بالتنوين أظهـر وأقوى عندنا ومن لم ينـون حمل تترى على المرات أى سلام عليك مرات تترى أى متتابعـات أو متتابعة متواتـرة . وعلى ما مضى عليه أبـو عبيدة فى تأويل تترى أنها فعل فليس هنا إلا الأخذ بقراءة أبى عمرو والله تعالى أعلم .

وســـــلام عليـك منـك فما غيـــــــ ـــــرك منــــه لـك الســلام كفـــــاء
وســـــلام من كـل مـــا خلق اللـــــ ـــــه لتحيـــا بـــذكـــرك الأمـــلاء

جمع ملأ كجبل وهي من كلمات معلقة الحارث

وصلاة كالمسك تحمله مني شمال إليك أو نكباء

وأصاب صفة الريح هنا إذ ريح الشمال تحمله من مصر وكذلك النكباء أي التي فيها انحراف .

وثنــاء قــدمـت بين يـــدي نجــــ ـــــواي إذ لم يكن لـــدى ثــــراء

وهذا الذى قدمه ثراء أي ثراء

مــا أقــام الصلاة من عبـداللــــ ـــــه وقـــامت بـــربها الأشيــــاء

وهذا آخـر بيت فى الهمزية وقد حـرصنا على اتصال أبيـاتها إلى حيث كان الجدل ومخاصمة أهل الكتـاب ، ثم اختصرنا واخترنا ؛ إذ ذلك يخرج بنا إلى بـاب من شرح وقد أحسن القيام به غيرنا فمن شاء الاستزادة منه رجع إلى ما جودوه فى هذا الباب .

وإحسان البوصيرى الذى ينبغى أن ينبه إليه وعليه كثير. وله قصيدة دالية نظمها سنـة ٦٥٥هـ سماهـا تقديس الحرم من تـدنيس الضرم ، يـذكر فيهـا نار الحجـاز التى

ظهرت بالمدينة وأوردها النبهاني في أول قافية الدال وقدم لها مطلعها :

إلهى على كل الأمــــور لـك الحمـــــد ... فليس لما أوليت مـن نعم حـــــــد
لك الأمــر من قبل الـزمـان وبعـده ... ومـا لك قبـل كـالـزمـان ولا بعـد

وهذا هو المعنى الذى فصله الغزالى رحمه الله من قبل في تهافت الفلاسفة ووسمه بالنسبية .

وحكمك مـاض فى الخلائق نـافـذ ... إذ شئت أمــرا ليس من كـونـه بـد

جملة ليس صفة لأمر

تضل وتهدى مـن تشــاء من الــورى ... ومـــا بيــد الإنســان غي ولا رشــد
دعـوا معشر الضـــلال عنـا حــديثكم ... فـــلا خطأ منــــه يجاب ولا عمــد

ونقول بعد : «وما محاسن شيء كله حسن »
ونختم الحديث عن البوصيرى بهذه الأبيات التى هي أول بردته .

أمن تــــذكــــر جيران بـــذي سلم ... مـزجت دمعا جـرى من مقلة بـدم
أم هبت الــريح من تلقــاء كــاظمـة ... وأومـض البرق فى الظلماء مـن إضـم
فما لعينيك إن قلـت اكففـــا همتـــا ... ومـــا لقلبـك ان قلت استفـق يهم
أيحســب الصــب أن الحب منكتـم ... مـــا بين منسجم منــه ومضطــرم

فالمنسجم ما يترقرق من الدمع والمضطرم ما في الفؤاد من لواعج .

لـــولا الهوى لم تـرق دمعــا على طلل ... ولا أرقت لــــذكـــر البـــان والعلم
فكيف تنكـر حبا بعـد مـا شهـدت ... بـــه عليك عـــدول الـدمـع والسقم

فهذان شاهدان ، وكأن العدول في محاكم المسلمين وعند قضاتهم أشبه بمن يسمون الآن بالموثقين . وأحسب أن «فشر» المؤرخ ذكـر أن من ضمن مـا أفـادتـه أوربـا من الترك العثمانيين التسـامح الـديني وضروبـا من أعمال الحضـارة وفنـونها أحسبهـا ذكـر فيهـا القـوانين ، وإنما هي من الفقه كما لا يخفى . ومكـان الأتـراك في الحضارة لا ينكـر . وإنما أضر بهم الضعف الذي اعتراهم في القرن الماضي حتى زالت الخلافـة وخرج عليها من

خرج وخانها من خان ولله الأمر من قبل ومن بعد .

وأثبت الـــوجـــد خطى عبرة وضنى ... مثل البهـــار على خـــديـك والعنم
نعم سرى طيـف من أهـــوى فـأرقنى ... والحب يعترض اللـــذات بـــالألم
يــالائمى في الهوى العـذري معـذرة ... منـي إليـك ولـــو أنصفـت لم تلـم
عــــدتك حـــالي لا سرى بمستتر ... عن الـــوشـــاة ولا دائي بمنحسم
محضتني النصـح لكن لست أسمعـــه ... إن المحـب عن العـــذال فى صمـم
إنى اتهمـت نصيح الشيب فى عـــذل ... والشيب أبعـــد فى نصـح عن التهـم

إذ هو نذير قرب الأجل

فإن أمـــارتى بـالسوء مـــا اتعظت ... من جهلهـــا بنـذيـــر الشيب والهرم

انظر إلى انسياب الخروج ههنا

ولا أعـدت من الفعل الجميل قـرى ... ضيـف ألم بـــــرأسى غير محتشـم

هذا من قصيدة أبي الطيب ضمنه

لـــو كنت أعلـم أنى مـــا أوقـــره ... كتمت سرا بـدا لى منـــه بـالكتم

وهو مما يصبغ به الشيب ويسوده

من لى بـــرد جماح مـن غـــوايتهـــا ... كما يـــــرد جماح الخيل بـــــاللجم
فــلا تـرم بـالمعـاصى كسر شهـوتها ... إن الطعـــام يقــوى شهـــوة النهم
والنفس كـــالطفل إن تهملــه شب على ... حب الـــرضــاع وإن تفطمــه ينفطم

وهذا نهج عزيز وذهب إبريز. والبردة كما قال ابن المعتز عن تائية دعبل ولا موازنة أشهر من الشمس ، ومثلها باهرة .

فإن فضل رســـول اللــه ليس لــه ... حـــد فيعـــرب عنــه نـــاطق بفم

وفى آخرها يقول وقد صدق إذ لم يجد في شعر كما أجاد فى مدحه صلى الله عليه وسلم

ومنذ ألزمت أفكارى مدائحه ... وجدته لخلاصى خير ملتزم
ولن يفوت الغنى منه يدا تربت ... إن الحيا ينبت الأزهار في الأكم
وهذا نفس من المغرب والأندلس
ولم أرد زهرة الدنيا التى اقتطفت ... يدا زهير بما أثنى على هرم
يا أكرم الرسل مالي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم
يا نفس لا تقنطى من زلة عظمت ... إن الكبائر في الغفران كاللمم
لعل رحمة ربى حين يقسمها ... تأتى على حسب العصيان في القسم
يا رب واجعل رجائى غير منعكس ... لديك واجعل حسابى غير منخرم

وقد كان فى عمل الحساب دهرا رحمه الله فعبارة منخرم من عمل المحاسبين واصطلاحهم.

والطف بعبدك فى الدارين إن له ... صبرا متى تدعه الأهوال ينهزم
وائذن لسحب صلاة منك دائمة ... على النبي بمنهل ومنسجم
ما رنحت عذبات البان ريح صبا ... وأطرب العيس حادى العيس بالنغم

والمادحون المترنمون بالبردة جعلوا صلاتها:

يارب صل وسلم دائما أبدا ... على حبيبك خير الخلق كلهم

وكسر الهاء والميم مذهب أبى عمرو في القراءة وفى هذا الحرف وجوه ذكرها ابن جنى كلها في المحتسب.
والمادحون المترنمون بالبردة يضيفون إلى آخرها:

وهذه بردة المختار قد ختمت ... يا حسن مبتدأ منها ومختتم

فى أبيات يذكرون بها عددها مع طلب المغفرة والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورحم الله الإمام أبا عبدالله محمد بن محمد بن سعيد البوصيرى ونفعنا ببيانه وصدقه وبركته وهذا الشعر الدر النفيس الذي هو من مفاخر العربية وحضارتها ومما حفظت وتحفظ به المعجزة إن شاء الله تعالى.

وقد يحلو الحديث في المديح ويود المفيض فيه ألا يغادر من كبار شعرائه أحداً كابن الجنان الأندلسي وابن نباته المصري والشهاب محمود ولم نظفر بخبر ابن أبي الخصال الأندلسي إلا بآخرة. وقد قام بعض فضلاء المغاربة بالتنويه بأمره بدرسه منذ زمان قريب فوفاه بذلك بعض حقه إن شاء الله تعالى في هذا الباب. وقد أورد صاحب المجموعة النبهانية للشهاب محمود أمثلة كثيرة طيبة. ونكتفي هنا بأبيات من همزيته التي جاراها شوقي.

ما آذنته ببينها أسماء	فنقول ثاو مل منه ثواء
لكنه ذكر الحمى فتقاسمت	أحشاءه الأشجان والبرحاء
متوقد الزفرات تطفىء وجده	إلمامة بلوى الحمى لا الماء

وكأن شوقيا نظر إلى ههنا في الهمزية المفتوحة التي رثى بها عمر المختار حيث قال:

إن البطولة أن تموت من الظما	ليس البطولة أن تعب الماءَ

وبيت الشهاب فيه صناعة حسنة: إلمامة - بلوى الحما - لا الماء جعلنا الحمى بألف للتنبيه على الشبه بينها وبين الماء.

أضحى لقا في الحي ليس يقيمه	إلا اللقاء وما هناك لقاء
يهوى الملام لذكرهم وهو الذي	يشجيه فهو دواؤه والداء

هذا أخذه من أبي الطيب «أأحبه وأحب فيه ملامة» البيت

ويروقه حر الهواجر في السرى	نحو الحمى فلهيبها أنداء
وإذا جرى ذكر العقيق جرى له	دمع حكاه إذ الدموع دماء

وهنا مدخل الخروج إلى المديح لأن العقيق بالمدينة حرسها الله:

يا حبذا وادي العقيق وحبذا	بقبا ظلال الدوح والأفياء
ومسارح بين النخيل تأرجت	منها بعرف نسيمها الأرجاء
فكأنما في كل أرض بالحمى	مغنى غني أو روضة غناء
لا يرتوي صادي الهوى إلا إذا	لحظته منها عينها الزرقاء

العين الزرقاء بالمدينة وهنا تورية بزرقاء اليمامة وبالعين الباصرة كما لاحظ النبهاني رحمه الله في هامشه.

وإذا بـدا بـاب المصلى بـان من تلك القبـاب أشعـة وضيـاء

ثم يقول:

طـوبى لمن أضحى بطيبـة داره ولـه بها الإصبـاح والإمسـاء
دار الهدى والمنـزل الـرحب الـذي كـانت بـه تتنـزل الأنبـاء
ومقـام خير العـالمين بأسرهم عنـد الإلـه ومن لـه الإسراء
هل بـالنهار وقـد جلا ظلم الـدجى للنـاظـرين إذا رأوه خفـاء
ذو المعجـزات البـاهـرات تميـزت عن أن يميـز وصفهـا الإحصـاء
يـا قـاصـدا مـا ليس يـدرك حصره من وصفـه مـا لا ينـال عنـاء
فـاتت مـدائحـه القصـائد فـاقتصد يغنيـك عـن تصريحك الإيماء
هل يبلغ الشعـراء شيئـا؟ قـد أتت بصفـاتـه الأحـزاب والشعـراء

قوله قد أتت مستأنف وليس بصفة لقوله شيئا فتأمله، إذ لا يريد أن يصف النبي صلى الله عليـه وسلم بأنه شيء وصفته الأحـزاب والشعراء وإنما يريد أن الشعـراء لا يبلغون من شيء في نعته، وفي الاستفهام معنى النفي.

الأمـر أعظم أن يحاط بكنهـه مـا ذاك ممـا تبلغ البلغـاء
صلى عليـه اللـه مـا سرت الصبـا فـوق الـربـا وتـلاقت الأنـواء

ولكن الشهاب رحمه الله دون الثلاثة الذين ذكرنا في حاق رنين إيقاع المدح النبوي ودون الوتري وليس له رقة ابن الخطيب، إلا أنه فصيح العبارة قوي نفس الخطابة وله صناعة أحيانا محكمة والله تعالى أعلم.

هذا وقد جمعت المجموعـة النبهانية كثيرا من جياد النبويات وهي عمـل يدل على توفر وإتقان وصحبه توفيق من المولى سبحانه وسداد. غير أنه اعتمد سوى ما اشتهر من أمر البرعي رحمه الله على شعراء الـديار الشامية والمصريـة والعراق ومن جمع منهم صاحب النفح والأزهار. وقد صدق إذ ذكر ما معناه أن مديح النبي صلى الله عليه وسلم في كل عصر وفي كل قطر من أقطار الإسـلام وعصوره وقد نظرت فلم أجد في المجموعـة نونية كنت لي بها عهد وهي من أولها:

إن لمع البرق مـن خيـف منـى جـدد الـوجـد وهـاج الحزنـا
كلما طـرز أثـواب الـدجى لمعـه أحـرم عيني الـوسنـا

وهي لشاعر يمنى محسن.

وقد شارك فى المديح النبوى كل المسلمين ولمحسنيهم في ذلك إحسان ولعل الشيخ النبهاني رحمه الله لو وقع له من جياد ذلك شيء سوى ما ظفر به لنشره وينبغى أن ننبه في هذا الموضع إلى معادن فصاحة وتجويد بالمغرب الأقصى في هذا المجال. وقد كان في بلاد شنقيط علم وتبحر فى العربية وعلومها وأسانيد رجالها وحفظ متقن. وقد كان لمحمود بن التلاميد الشنقيطى أثر كبير علي رواد جيل النهضة بمصر كالشيخ حسين المرصفى صاحب الوسيلة التى قد صارت بعد لدى أهل الأدب إلى ما قدروا عليه من أبوابه وسيلة، حتى إن أصحاب الأفلام ما خلوا فى عصور تلت النهضة الأولى من انتفاع بها، كقصة البراق، التي أخرجتها السينما وكانت بطلتها السيدة بهيجة حافظ رحمها الله وكانت تتغنى ويتغنى لها بالأبيات التى أوردها صاحب الوسيلة:

ليت للبراق عينا فترى	ما ألاقى من عذاب وعنا
حبسونى عذبونى ضربوا	موضع العفة منى بالعصا

أو شيئا من هذا القبيل وليراجع.

وكان فى شنقيط من محسنى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عهد قريب جماعة وأورد الأستاذ محمد الحافظ بن أكاه له في رسالة من رسالات الطلبة بفاس (رقم التسجيل ٧٨ ـ/ ٢١٠٠) للعام الجامعي (١) ١٩٨١ ـ ١٩٨٢ أمثلة حسنة من هذا الباب، نشير هنا إلى بعض مطالعها كبائية محمد والنان بن المعلى:

أعين متى ما ترق فاضت غروبها	ونفس إذا انساحت توالت كروبها
أراح عليها الليل عازب همها	فكادت تباريح الهموم تذيبها

وفى المدح النبوي منها:

رسول الإله المستضاء بنوره	عليه صلاة الله ينفح طيبها
خلاصة فهر بدرها وذكاؤها	وفارسها يوم الوغى وخطيبها

وكلامية ابن المختار:

سقت شآبيب غيث رائح هطل	ديار علوة لو هجت الهوائج لى
وصانها من يماني الوشى ما نسجت	صناع وسميها الدلوي والحمل
حتى ترى ورباها بعد ما عريت	تهتز من حلل من روضها الخضل

وخرج من المقدمة بقوله:

دع ذا وشمر لما ترجى عواقبه	وما به تبلغ الأقصى من الأمل

(١) قدّمت تحت اشراف صاحِب الكتاب وأوصَى بأن تنشر لجودتها في بابها وندرته من حَيْث المادة وعلاجها معا.

ثم يقول:

محمـــد سيـــد الكـــونين سيـــد من — مشى على الأرض مـن حـــاف ومنتعل
محمـــد سيـــد الهاديـن سيـــد من — جـابت بـه البيـــد قـود الأينق الــذلل

وهذا من نفس البردة والروى والبحر للشقراطيسية.
وكنونية أحمد بن محمد سالم

أتـــــذرى عينـــــه فضض الجمان — غـــرامـــا من تـــذكـــره المغـــاني
مغـــــان بـــــالعقيق إلى المنقـى — إلى أحـــد تـــذكـــرهـــا شجـــاني
ومن تـــذكـــار منـــزلـــة بسلع — إلى الجما تعـــاني مـــا تعـــاني
فهل عـــزم يصـــول على التـــواني — وهل بعـــد التبـــاعـــد من تـــدان
وهـل أغـــدو بكـــور الطير رحلى — على وجنـــاء دوسرة هجـــان

أى هل أبكر كما يبكر الطير عند وقت بكوره.

تبـــذ العيس لاحقـــة كـــلاهـــا — وتطـــوي البيـــد مسنفـــة اللبـــان
تـــرى بعـــد الـــدؤوب كأخـــدري — بيمئـــــود أرن على أتـــــان

فهذا نمط الأوائل كما ترى ثم يقول فى المديح النبوي:

ومـــا ذو لبـــدتين ببطن تـــرج — أبـــو شبلين مقـــروح الجنـــان
كصـــــولتـــــه، ولافيـح الجوابي — تشـابـــه مـــا لـــديـه مـن الجفـان
ولا بـــــدر التمام إذا تبـــــدى — بضـــاحى البـــدر ليلـة إضحيـــان
ولا شمـــس الظهيرة فى دجـــن — تحاكـى وجنتيـــه ولا تـــداني
مـــلاحـــة خـــده لما رأتها — لـــدى إسرائه حـــور الجنـــان
صنعن كما صنعـن نســـا زليخـــا — لـــرؤيـــة يـــوسف البهج الحســـان
دنـــا فى ذلك المسرى دنـــوا — من الـــرحمن مـــا يـــدنـــوه دانى
وذاك القـــرب تقـــريب اصطفـــاء — وليس مـن المســـافـــة والمكـــان

ثم يقول:

بجاه المصطفى ادعوك ياذالـ — ـعطايا والحنان والامتنان

بنقل حركة الهمزة

وجـــد لي بـــالهدى وامنن بتـــوب وكفـــر من ذنـــوبي مـــا دهـــاني
وحطنـــا واكفنـــا شر الأعـــادي جميعـــا واضربـن ســـور الأمـــان

وقد علق محمد الحافظ في ما كتب على هـذه النونية بقوله: «كلمة سلسة عذبة الموسيقا سهلة الألفاظ ـ تقريبا ـ واضحة الأفكار ذات انسجام واسترسال في مثل قوله:
بجـاهِ المصطفـى ادعـوك يـا ذا الـــ ـــعطايا والحنـانِ والامتنـان. ا. هـ

وقلت وكان حق هذه الكلمة أن تكون لها صلاة ولعلها لها كأن يقول على طريقة مداح الشيخ عبدالرحيم البرعي رحمه الله:

عليك صلاة خالقنا وغيث من التسليم يهمي كل آن

وقد تـأثر غرب إفـريقية بعلـم المغرب وشنقيط، ففي بـلاد هوسـا وسنغال شعـر نبوي فصيح حسن مثل كلمة الشيخ على حرازم الكشناوي:

قطـوف ريـاض الحب للصب دانيـة وفي قلبـه نـار من الـوجـد حـاميـة
زبـــانيـــة التهيـــام تعتـــاد دفعـــه وليس يطيق الصب دفع الـزبـانيـة
ومـــاذاك الا مـن محبـــة خـــدلـــة عـروب بخنـداة من البيض غـانيـة
بدت لى بـدو الشمس فى رونق الضحى فما بقيت لى مـن جبـــالي بـــاقيـــة
فقلت لها والقلـب عـــاث بـــه الهوى أشـــاميـــة أم أنت ليلى الحجـازيـــة

خفف ياء النسب

فقالت أنا داء القلوب وبرؤها إذا شربت منى كؤوسا سلافية

بالتخفيف أو كئوس سلافية بالإضافة وفي الطبع خطأ كثير وأحسب كئوس سلافيه بياء المتكلم وهاء السكت وإضافة كئوس إلى سلافيه بلا تنوين هو الصواب هنا:

ومن لم يمـت حيـــا فـــذلـك لم يعش بنـــا عيشـــة في جنـة الحب راضيـــة
فقلت وأعطتنـى كتـــابـــا من الهوى فيـــا ليتني لم أوت منهـــا كتـــابيـــه
قوله فيا ليتني مقولٌ القول المتقدم
فـــولت بـــآمـــالي وصرت معـــذبـــا بأنـــواع آلام من الهجـــر نـــاريـــه

اي ناري بأنواع الآم الهجر، بإضافة نار إلى ياء المتكلم بعدها هاء السكت، ولك أن تجعل الياء نسبية مخففة صفة لآلام وما تقدم أصح وأجود. ثم انتقل من هذا النسيب الوجداني إلى المديح النبوي:

ولم يبق لى إلا شفاعة شافع مقاماته في حضرة الله راقية
دعانا لتوحيد الإله وبره بأوضح آيات من الله بادية

وهذه الأبيات مع كلمات أخر للشيخ حرازم وغيره في مجموعة الفيض الهامع في تراجم أهل السر الجامع لأبي بكر عتيق ابن العالم خضر الكشني التجاني[1]. كشنا الآن في بلاد دولة نيجريا في القسم الشمالى. من طريق الإسلام والقرآن وعلوم الدين والشعر النبوي فصاحة جمة في سائر بلاد الإسلام. وقد جعل بحر الفصاحة ينحسر عن أكثر المعاصرين من الجيل المسلم الحديث إلا ما بقي من ذلك عند أهل المحافظة، وعند من جعلوا يفطنون بآخرة إلى أهمية التمسك بالأصول وألا نتيه وراء السراب، والله برحمته وعونه وجوده يوفقنا ويهدينا إن شاء إلى الصواب.

لعل هذا الفصل عن الأغراض قد طال شيئا. ولكنا رأينا أن باب المديح النبوي خاصة كأنه مغفول عنه إلا ما قدمنا ذكره من عمل الدكتور زكي مبارك رحمه الله وعطر ثراه وجعل الجنة متقلبه ومثواه، فنسأل الله أن يكون لهذا الذي قدمناه نفع وقبول، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

حاشية: مما أخذ على البوصيري قوله:

يا أكرم الخلق مالى من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

كأن آخذه عليه ينكر منه هذا التوسل. ولو فطن لعلم أن الحادث العمم إنما هو موقف يوم القيامة والغرق في العرق، إذ لا نعلم حادثا عما سواه وسوى الطوفان على الحقيقة، والطوفان قد مر. وسياق القصيدة، لذكره زلاته التى يخشى بسببها الهلاك ويرجو النجاة من سوء عاقبتها بالشفاعة بعد هذا البيت مباشرة، يبين أن مراده بالحادث العمم يوم القيامة لا حادث سواه وذلك قوله:

يا نفس لا تقنطى من زلة عظمت إن الكبائر في الغفران كاللمم

وهنا أيضا إشارة إلى آية تنزيل «قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم» فهذا يقوى ما قدمنا من أن

(١) طبع مصر، القاهرة، المطبعة المنيرية سنة ١٣٧٦هـ

مراده بالحادث العمم يوم القيامة . وفي الحديث مايفيد أنه صلى الله عليه وسلم هو الملاذ في ذلك اليوم حين يقول كل امرىء نفسي نفسي ، قال تعالى : «يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها» فيعتذر كل من ترجي شفاعته إلا من أنزل الله سبحانه وتعالى فيه «ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا» ـ قال المفسرون كما تقدم إن عسى هنا واجبة . (وحتى على تقدير أن عسى احتمالية أو رجائية غير واجبة وذلك ما لا يقول به أحد ولانقول به . حتى على هذا الوجه البعيد فإن ههنا استثناء من آية النحل «يوم تأتي كل نفس الآية» لأن الله جل شأنه يقول «عسى أن يبعثك» فهذا البعث هو يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ، فاستثناؤه صلى الله عليه وسلم حق حتى على هذا الوجه على وذلك ظاهر والحمد لله . وفي الحديث الصحيح مايفيد أنه صلى الله عليه وسلم هو الذي يقوم المقام المحمود يوم القيامة وذلك اليوم هو المعنى كما تقدم بالحادث العمم . وإنما أتي الآخذ على البوصيرى ما أخذه من جهة حصر معنى الحادث العمم في معنى النازلة التي تنزل بالمرء ، وهذه تكون كالعامة إن كانت بلاء شمل عددا كبيرا من الناس كما يحدث من الأوبئة والزلازل مثلا . ولكن العمومية هنا نسبية ليست مطلقة . وقد تنزل النازلة بالمرء وحده فيسميها حادثا عمما على سبيل المبالغة . وكل ذلك ليس له مثل معنى عمومية الهول يوم الحساب وهو المراد من البوصيرى هنا ويناسب ما تلا البيت من ذكره الزلة كما يناسب ما بدأ به البردة من شكوى التقصير والندم كقوله :

وما تزودت قبل الموت نافلة ... ولم أصل سوى فرض ولم أصم

وعزل البيت عما تقدمه وتلاه وحمل معناه على المجاز دون الحقيقة بقصد الطعن على صاحبه وهو يتقرب إلى ربه بتوقير نبيه صلى الله عليه وسلم وتعزيره ، من الخطأ والله هو العليم بالسرائر وما تخفى الصدور وهو الموفق للصواب .

العنصر الرابع وهو نَفَس الشاعر

مرادنا من قولنا « نفس الشاعر» بفتح النون والفاء هذا الروح الذي يربط بين أول القصيدة وآخرها ، وبين مطالع الأبيات ومقاطعها ، وبين البيت والبيت ، وبين مجموعات الأبيات التي تكون معا في معنى أو دلالة واحدة أو متقاربة ومجموعات الأبيات التي تلى أو تكون قد تقدمت في معنى آخر . وقالوا هذا الشاعر طويل النفس إذا طالت القصيدة وكانت أبياتها وقوافيها تنثال عليه انثيالا . وقولنا «هذا الروح»أردنا به التنبيه على أن أمر نفس الشاعر فيه خفاء ، إذ أمر الروح فيه خفاء . الوزن ، الإيقاع ، القافية ، الأغراض ، الألفاظ ، المعاني ، التشبيه والاستعارة وما

آشبهـا ، كل أولئك أمـور واضحـات ولسن بمنفصـلات عن نفس الشـاعـر ولا هـو بمنفصل عنهن . وليس شيء من خصـال الشعر بمنفصل بعضـه عن كله ، إذ الشعـر كل واحد فيها يكون منه قصائد طوالا أو قطعا قصارا أو غير ذلك . وإنما نعمد إلى تمييز عناصره ومكونـاته بعضها عن بعض بقصد الدرس وإمعان النظـر، كما ذكرنا من قبل . ومع خفاء أمـر نفس الشاعـر من حيث إنه روح من حيـوية رابطـة محركة مـؤثرة معبرة معا ، قد نقدر على استبانة دلائل منه وعلامات ينبئن عنه . من ذلك مثلا قول زياد :ـ

فعد عما مضى إذ لا ارتجاع له | وانم القتود على عيرانة أجد

فهذا ربط به بين ما تلا من نعت الناقة والطريق وما تقدم من نعت الأطلال .
وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه :

إن كنت كـاذبـة الـذي حـدثتنى | فنجـوت منجى الحارث بـن هشـام
تـرك الأحبـة أن يقـاتل دونهم | ونجـا بـرأس طمـرة ولجام

فهذا خروج تخلص بـه من النسيب إلى ذكر خبر بدر وهزيمـة قريش ، وفهم الحارث بن هشام مراده فلم يأت بمقدمة من نسيب ، ولكنه قال :

اللـه يعلم مـا تـركت قتـالهم | حتى علـوا فـرسى بأشقـر مـزبـد
وشممت ريح الموت من تلقـائهم | في مـأزق والخيـل لم تتبـدد
وعلمـت أني إن أقـاتـل واحـدا | أقتل ولا يضرر عـدوي مشهـدي
فصـددت عنهم والأحبـة فيهـم | طمعـا لهم بعقـاب يـوم مـرصـد

وقال كعب بن زهير رضي الله عنه :

أمست سعـاد بأرض لا يبلغهـا | إلا العتـاق النجيبـات المراسيل

فخرج من النسيب إلى الرحلة .
ثم خرج من الرحلـة إلى الاعتذار ومن الاعتذار وإعلان التوبـة إلى صريح المدح ـ وقال أبو الطيب وهو يخرج من النسيب بذلك إلى المدح :ـ

لقيت بـدرب القُلـة الفجْـر لقيـة | شفت كمـدي والصبح فيـه قتيل
ويـومـا كأن الحسـنَ فيـه عـلامـة | بعثت بها والشمس منك رسـول
ومـا قبل سيـفِ الـدولـة اثـار عـاشق | ولا طلبت عنـد الظـلام ذحـول

ولكنـــــه يأتي بكـل غـــريـــــة تـــــروع على استغـــــرابها وتهول
رمى الـــدرب بـالجرد الجيـــاد إلى العـدا ومـــا علمـــوا أن السهـــام خيـــول
شـــوائل تشـــوال العقـــارب بـــالقنـــا لها مـــــرح من تحتــــــه وصهيـــل

فاستعان أبو الطيب بذكر فضل سيف الدولة عليه أنه أتاح له أن يلقى الحبيب بدرب القلة فجعل ذكر ذلك الفضل سبيلا يخرج به إلى المدح. وهذا من رشيق تخلص أبي الطيب وأملئه بالعاطفة وحديث القلب. لعل أبا الطيب ما لقى بدرب القلة إلا تذكرا قويا لجمال الحبيب إذ طلعت الشمس في رونق من حسن الفجر كأنه علامة ممن أحب. وهذا المعنى على براعته وخفائه مولد من قول الأنصاري:

تبدت لنا كـالشمس خلف غمامة بدا حاجب منها وضنت بحاجب

أم لعل أبا الطيب إنما رأى طيفا عند تعريس المسافر؟
واعلم أيها القارىء الكريم أن من علامات نفس الشاعر ودلائله أشياء نذكر منها فيما يلي إن شاء الله :ـ

أولا : التسلسل

وهو ضربـان، ما كان في ضـوء فكرة واضحة ومـا جيء به على سياق عـادة الشعراء ـ ومرادنا بـالتسلسل أن يتتابع الكلام تتابع عقـد السلسلة، آخر ما تقـدم منه منوط بما يليـه، فمن أظهر مـا يجيء من الضرب الأول ما تكـون عليـه صياغـة كثير من القطع والقصائد القصار. فمن أمثلة القطع، قول قيس بن زهير:

تعلـم أن خير النـــــــاس ميت على جفـــــر الهبـــاءة لا يـــريم
ولـــــولا ظلمــــــه لظللت أبكـي عليـــه الـــدهـــر مـــا طلع النجـــوم
ولكـن الفتـى حمل بـن بـــــــدر بغـى والبغي مـــــرتعـــــه وخيم
أظـن الحلـم دل عليَّ قــــــــومي وقـــــد يستجهـل الـــرجل الحليم
ومـــارست الــرجـــال ومـــارســوني فمعـــــــــــــوج علي ومستقيم

وأمر القطع واسع
ومن أمثلة القصيدات القصـار، قول تأبط شرا يصف نجاته من هـذيل على نحو شبيه بما نراه اليوم في مغـامرات رعاة البقر، وكـان تأبط شرا مما يتزيد في أحـاديثه عن نفسه،

وشيء من ذلك كان لدهاة العرب مذهبا، يخيفون به الناس ـ قال:

إذا المرء لم يحتل وقــد جــد جــده أضــاع وقــاسى أمــره وهــو مــدبــر
ولكن أخــو الحزم الــذي ليس نــازلا بــه الخطب إلا وهــو للقصــد مبصر
فــذاك قــريع الــدهــر مــا عــاش حــول إذا ســد منــه منخــر جــاش منخــر

أخذ هذه الصورة من اندفاع مسايل الماء في مخارم الجبال، فإن سد منخر جاش منخر، ومن شاء جعله مأخوذا من تجربة الزكام، وينبغي أن يكون الموصوف هنا منخرا ضخما، والوجه الأول أولى وأشبه.

أقــول للحيــان وقــد صفــرت لهم وطابي ويومي ضيــق الجحر معور

أي وقد هلكت أو كدت ويومي ضيق ومقاتلي بادية ــ قال امرؤ القيس:

وأفلتهن علبــاء جــريضــا ولــو أدركنــه صفــر الــوطــاب

أي قتلناه ـ قال صاحب القاموس وصفرت وطابه أي مات أو قتل، وهو الوجه الذي ينبغي أن يفسر به هذا البيت.

قالوا وكانت مع تأبط شرا أوعية مملوءة عسلا فزعموا أنه قال للحيان إنه يضن عليهم بعسله ولهم أن يأسروه فإن شاءوا منوا وإن شاءوا قتلوا ولن يجمع لهم أن يأخذوه ويأخذوا عسله، فأراق العسل، وفسر بعضهم قوله صفرت لهم وطابي أي خلت وطابي من العسل ووطاب بكسر الواو وطاء مهملة بعدها ألف فباء جمع وطب بفتح فسكون وهو سقاء يكون فيه اللبن. وهذا وجه في التفسير والأول أجود، لأنه إنما أراق العسل بعد أن تظاهر بالاستسلام ويومه ضيق الجحر معور أي ظاهر عورة المقاتل.

هما خطتــا إمــا إســار ومنــة وإمــا دم والقتل بــالحر أجــدر

أي خطتان، حذف نون المثنى تخفيفا، وإسار مرفوعة الراء وللك أن تجعل إسارا مضافة فتكون مجرورة وكذلك منة وعليه فيكون حذف نون «خطتا» من أجل الإضافة والفصل بين المتضايفين بإما كأنه لا فصل لظهور المعنى.

وأخرى أصادي النفس عنها وإنها لمورد حــزم إن فعلت ومصــدر

أي وخطة ثالثةأصادي نفسي عنها، أراودها عنها، وهي أن أريق العسل وانزلق عليه - فهذا يقوي ما ذهبنا إليه آنفا أن مراده من قوله: وقد صفرت لهم وطابي، أي كأن قد صفرت، كأن قد مت وقتلوني لضيق يومي وقلة ناصري وإعوار مقاتلي

فرشت لها صدري فزل عن الصفا ... به جؤجؤ عبل ومتن مخصر

هذه هي المغامرة «السينمائية» - وكان الخبر الممتع ينوب مكان ما ننهمك فيه الآن من معاينات الصور والتشخيص والأفلام.

فخالط سهل الأرض لم يكدح الصفا ... به كدحة والموت خزيان ينظر

تجسيد الموت هنا وإعطاؤه مشاعر الآدمي وصفاته جد بارع. والخزي إنما كان لبني لحيان. وكانوا هم من رسل الموت و أسبابه. وصفة البطولة كما ترى في نعت هذا الجؤجؤ أي الصدر العبل والمتن الضامر وانزلاق هذا الفتى الخفيف انزلاقا ماهرا لم يكدح الحجر به كدحة.

فأبت إلى فهم ولم أك آئبا ... وكم مثلها فارقتها وهي تصفر

أي وهي خالية ليس بها من صافر وإنما تصفر بها الريح، وكأن ههنا سخرية وردا للكلام على قوله من قبل «وقد صفرت لهم وطابي» - صفر الأولى من باب فرح وهذه من باب ضرب.

ومن أمثلة التسلسل في القصار من القصائد، حائية جبيهاء وقد مر خبرها وهي التي أولها:

امولي بني تيم ألست مؤديا ... منيحتنا فيما تؤدي المنائح

ثم استمر في وصف المنيحة إلى آخر القصيدة وهي اثنا عشر بيتا.

ورائية الحارث بن وعلة الجرمي

فدى لكما رجلي أمي وخالتي ... غداة الكلاب إذ تحز الدوابر

وهي أحد عشر بيتا. وذلك من القطع قريب فلا تعجب أن يتلئب فيه تسلسل الكلام على سهولة في ذلك ويسر.

ويائية عبد يغوث أدخل في القصيد إذ هي عشرون بيتا والتسلسل فيها جلي. بدأ بالنهي عن اللوم أن يلومه أحد حيث أخذ أسيرا:

ألا لا تلوماني كفى اللوم مابيا | وما لكما في اللوم خير ولا ليا
ألم تعلما أن الملامة نفعها | قليل وما لومي أخي من شماليا

أي ليس اللوم من سجياتي. وما أحسب المخاطبين إلا شيئا واحدا جرده من نفسه وجعله صاحبين ـ وقد فسر بشار هذا من مذهب الأوائل كما قدمنا حيث قال:

أيها الساقيان صبا شرابي | واسقياني من ريق بيضاء رود

وهذا ما لا يكون إلا على معنى التجريد الذي قدمناه.
ثم خاطب الحارث من حال أسره راكبا أي راكب يبلغ عنه قومه. وبعد أن نهى عن أن يلام هو، أنحى باللائمة على قومه إذ أسلموه، ففسر ما كان من قبل عماه من سبب نهيه عن الملامة، إذ لا خير فيها، إذ يظهر بعد التمحيص خطأ قومه الذين أسلموه لا خطؤه هو ـ فتأمل.

فيا راكبا إما عرضت فبلغن | ندامای من نجران أن لا تلاقيا
أبا كرب والأيهمين كليهما | وقيسا بأعلى حضرموت اليمانيا
جزى الله قومي بالكلاب ملامة | صريحهم والآخرين المواليا
ولو شئت نجتني من الخيل نهدة | ترى خلفها الحو الجياد تواليا

وهذا ما صنعه الحارث بن وعلة إذ فر

ولكنني أحمي ذمار أبيكم | وكان الرماح يختطفن المحاميا

وقد اختطف أسيرا وشد وثاقه:

أقول وقد شدوا لساني بنسعة | أمعشر تيم أطلقوا لي لسانيا
أمعشر تيم قد ملكتم فأسجحوا | فإن أخاكم لم يكن من بوائيا

أي أنا أشرف شرفا من أخيكم الذي تريدون قتلي بواء به والبواء في الثأر أن يقتل امرؤ بمن يساويه. قال ابن الأنباري في شرحه البواء السواء قال أحمد أي لم يكن أخوكم نظيرا لي فأكون بواء له. ـ أحمد هو أحمد بن عبيد بن ناصح من شيوخ أبي محمد القاسم بن بشار الانباري صاحب الشرح ورواه عنه ابنه أبوبكر محمد بن القاسم رحمهم الله

فإن تقتلوني تقتلوا بي سيدا | وإن تطلقوني تحربوني بماليا

وكأنه أحس إجماعهم على قتله فأخذ في البكاء على نفسه

أحقـا عبـاد اللـه أن لست سـامعـا نشيـد الـرعـاء المعـزبين المتـاليـا
وتضحك مني شيخـة عبشميـة كـأن لم تـرى قبلى أسيرا يمانيـا
كأنه قـال لم ترأ بسكون الراء وهمزة مفتوحـة، وحذف حرف العلة ثم ألقـى فتحة الهمزة على الراء نقلا فصارت ترى ـ قال الشارح ويروي كأن لم ترأ قبلي أسيرا. قال الفراء أبقى من الهمزة خلفـا والرواية هي الأولى وقلت وغير ظاهـر مراد الفراء إلا على الوجـه الذي قدمناه أولا والله أعلم

وظل نسـاء الحي حـولى ركـدا يـراودن مني مـا تـريـد نسـائيـا

من الأنس والمفاكهة ونشيد الشعر

وقـد علمت عـرسي مليكـة أنني أنـا الليث معـديـا علي وعـاديـا

هذا مساوق لما تقـدمه. أي نسائي يعلمن غنائي وبلائي فحـديثهن إلى عن إكرام وأما أنتن فما أنا إلا أسير أسيف مهين بينكن فكيف ترمن مني مـا ترومه نسائي. ولعل اسم عرسه لم يكن مليكة ولكنه جعل هذا اسما لها كناية عن مكانها في قلبه

وقد كنت نحار الجزور ومعمل الـ ـمطي وأمضى حيث لا حي مـاضيـا

أراد حيث لا ماضيا وكره الصفة بلا موصوف وهو المذهب الفصيح

وأنحـر للشرب الكـرام مطيتي وأصـدع بين القينتين ردائيـا

فنحر امرىء القيس مطيته لعذارى دارة جلجل كان على هذا الوجه، وبعيد أن ينتحل نحو هذا منتحل إذ هو منتزع من عرف حي

وكنت إذا ما الخيل شمصهـا القنا لبيقـا بتصريف القنـاة بنـانيـا

شمصها أي طعنها وآذاها وطردها كل مطرد

وعـاديـة سـوم الجراد وزعتهـا بكفي وقـد أنحـوا إلى العـواليـا

أي رب محاربين منتشرين انتشار الجراد أقبلوا مشرعين إلى الرماح رددتهم بكفي

كـأني لم أركـب جـوادا ولم أقـل لخيلي كـرى نفسي عن رجـاليـا
ولم أسبأ الـزق الـروي ولم أقـل لأيسـار صـدق أعظمـوا ضـوء نـاريـا

وهذان كبيتي امرىء القيس:

كـأني لم أركب جـــــوادا للــــــذة ولم أتبطن كـــاعبـــا ذات خلخــال
ولم أسبإ الــــزق الـــروي ولم أقـل لخيلي كـرى كـرة بعـــد إجفـــال

قال صـاحب عيار الشعر (ص ١٤٦): "هكذا الـرواية وهما بيتان حسنـان ولو وضع مصراع كل واحـد منهما في مـوضع الآخر كـان أشكل وأدخل في استـواء النسج فكـان يروى:

كـأني لم أركب جـــــوادا ولم أقـل لخيلي كـــرى كـــرة بعـــد إجفـــال
ولم أسبإ الــــزق الــــروي للـــذة ولم أتبطن كـــاعبـــا ذات خلخـــال

وقد بين أبـو الطيب المتنبي فسـاد هذا الرأي، وانتصر للـرواية التي رويت عـن امرىء القيس بقول فصل ذكره راوو أخباره في شرح قصيدته

على قـدر أهل العزم تأتي العـزائم وتأتي على قـدر الكـرام المكـارم

عند قوله

وقفت ومـــا في الموت شك لـــواقف كأنـك في جفن الـــردى وهـــو نـــائم
تمر بك الأبطـــال كلمي هـــزيمـــة ووجهك وضـــاح وثغـــرك بـــاسم

ومن المتوسطـات الطول ذوات التسلسل الواضح مـع شيء من مراعاة عـادة الشعر في البدء بمعنى نسيبي كلمة تأبط شرا:

يـاعيد مـا لك من شوق وإيـراق ومـــر طيف على الأهـوال طـراق

فقد خلص من الطيف وهو يخاطبه إلى ذكر نجاته من بجيلة وذلك حيث قال:

إني إذا خلـــة ضنت بنـــائلهـــا وأمسكت بضعيف الـوصل أحذاق

نجوت منها نجـائي من بجيلة إذ ألقيت ليلـة خبت الـرهط أرواقي

ثم خرج من هـذا إلى صفة الخلة التي يؤثـرها والصديق الذي يرى أن يعـول عليه. ثم عاد إلى ذكر مأثـرة من مآثر نفسه، كما نجا من بجيلة عـدوا على بساط الأرض، صعد مرقبة يرصد من فوقها الأعداء

وقنـــة كسنــــان الـــرمـح بـــارزة ضحيانـة في شهور الصيف محراق

وجعل صفة نفسه وليس على قدمه إلا شرثة يوقى البنان بها متصلة بصفة صاحبه الذي قال في صفته

كـالحقف حدأه النـامون قلت لـه ذو ثلتين وذو بهم وأربـــــاق

لتلبد شعره وكأنه أطباق رمل ندي لبدها الصاعدون عليها . ومن دقيق براعة اتصال بيان الشاعر ههنا أنه خلص من صفة رأس صاحبه الكثيف الشعر المتلبد شعره إلى صفة رأس الجبل الذي صعده وكأن قمته سنان رمح متلهب في حر شمس الصيف وكأن نعامته قزع متفرقات في مقابلة ما تقدم من صفة لبدة الشعر الكثيف ثم انتقل من صفة رأس الجبل ورأس صاحبه إلى صفة عدوه وقدميه هو وهذه النعل الخلق الشرثة الشبيهة بنعامة قنة الجبل المحراق الضحيانة.

ثم عاد إلى خطاب صاحبة الطيف وجعلها عذالة خذالة . ومع اتصال الكلام هنا عنصر من تداعي المعاني إذ النعل من ألفاظ تطلق على الزوجة ألغز بها الحريري في إحدى المقامات ويذكر مع ذلك الوطء - فما يخلو أن شبه العذالة الشرسة بالشرثة الخلق - وقد تعلم قول رؤبة من بعد :

يأوى إلى سفعاء كالثوب الخلق

ومن القصار المتصلات التسلسل نونية المرار في النخل :

وكائن من فتى سوء تراه ... يعلك هجمة سودا وجونا

وقد ذكرناها في باب الصفات وفيها اثنا عشر بيتا

ومن ذوات التسلسل مع توسط دالية عمرو بن معد يكرب الحماسية :

ليس الجمال بمئزر ... فاعلم وإن رديت بردا
إن الجمال معادن ... ومناقب أورثن مجدا
أعددت للحدثان سا ... بغة وعداء علندى

وفيها خمسة عشر بيتا ، والكلام فيها آخذ بعضه برقاب بعض

نهدا وذا شطب يقد البيض والأبدان قدا

يعني فرسه وسيفه الصمصامة

وعلمت أني يوم ذاك منازل كعبا ونهدا

ونهد اسم قبيلة هنا رده على نهد الذي هو فرسه ، ثم وصف عدوه بكمال الاستعداد

قوم إذا لبسوا الحديد تنمروا حلقا وقدا

فالحلق الدروع والقد التروس أو كساء يدرع به من جلد

كل امرىء يجرى إلى ... يوم الهياج بما استعدا

ومن عند هذا الموضع صار إلى ذكر صفة القتال ، وكيف أن خوف النساء وأخذهن في

اهرب خشاة السبى لما راين من تخاذل رجالهن أمام هؤلاء المتنمرين قد أثار حفيظته

لما رأيت نســـاءنـــــا يفحصن بـــالمعـــزاء شـــدا
وبــــــدت لميس كـأنها بـــدر السماء إذا تبــــدى
وبــــــدت محاسنهــــا التي تخفى وكــــان الأمـــر جــــدا

إذ كشفت عن ساقها وهي تعدو، فإما أن تحمى وإما أن تسبى ـ لما كان ذلك :

نــــــــازلـت كبشهـم ولم أر من نــــزال الكبش بـــدا

إذ لو لم ينازله لأخذ النعجة

هـم ينـــذرون دمـى وأنــــذ ر إن لقيت بـأن أشـــــدا

ولا بد في الحرب من مصاب وفجيعة وإن تبع ذلك النصر

كـم مـن أخ لي صـــــالـح بـــوأتـــه بيـــدى لحدا

ويجوز أن يكون المراد ههنا رب من هو صالح أن يكون لى أخا لاكتمال صفات الشجاعة والنجدة فيـه، اضطرني واجب منازلتـه أن أقتله فأبوئه بقتليـه لحدا ـ وهذا يشبـه سياق الحديث وقوله من بعد :

ما إن جزعت ولا هلعت ولا يرد بكاى زندا

وقوله ولا يرد بكاى يشعر أن الذي بوأه لحدا أخ لـه من قومه قتله الأعداء كما قد قتل هو منهم وهذا هو المعنى الـذي قلنا به من قبل :ـ قوله لا يـرد بكاي زندا أي لا يجدي ولا يحرك شيئا ــ الزند هـو زند الذراع وحـركته طبيعيـة يسيرة لا تتطلب كبير جهد، فحتى نحو هذا اليسير لا يصنعه البكاء، يشير بذلك إلى عدم جدواه
وقصيدة الأخنس بن شهاب :

لابنـــة حطـــان بن عـــوف منـــازل كما رقش العنـــوان في الـــرق كـــاتب

من سبعة وعشرين بيتا وتبدأ بالنسيب إلا أنه نسيب في طريق الرحلة التي عليهاموضوع القصيدة وهو ذكر الجد والتشمير والفخر بذلك، وإنما وقف الشاعر على المنازل وهو في طريق تشميره وجـده وإنما هي وقفة ذكـرى مشعرة بـانصراف عن ذلك الماضي واقبال على أمر الرجـولة والحزم الذي قد أخـذ الآن بأسبابه ، وقفة الأخنس هنـا ليست كوقفة امريء القيس في :

إن هذه وقفة حنين وقلب حـزين ـ قال الأخنس ، والقصيدة مفضلية حماسية ، حذف منها أبو تمام أبيات ديار القبائل وإنما بنى أمره على الاختيار لا على محض الرواية :

لابنـــة حطـــان بن عـــوف منـــازل كما رقش العنـــوان في الـــرق كـــاتب

هذا أول القصيدة عند المفضل وروى أبو تمام قبله بيتا وجاء به ثانيا هكذا :

فمن يـك أمسى في بـــلاد مقـــامـــه يســـائل أطـــلالا بها لا تجاوب
فـــلابنـــة حطـــان بن قيس منـــازل كما نمق العنـــوان في الـــرق كـــاتب

وكأن هذا المطلع ينكر البدء بذكر الطلل ثم يرجع إلى ذلك كصنيع عنترة ، فإن صح هذا الذي نراه ، فلعله ممـا يكون أبو تمام قد آثر به هذه الروايـة ، غير أنه لا ريب أن رواية ما روى عن المفضل أجدر أن يعول عليها

هذا وبعـد الوقفـة قليلا ، رجع الأخنس إلى مـذهب ما أخـذ به من الجد والحزم . وإنما وقف لقضاء حق الذكرى وتوديع عهدها ، وداعا كل الوداع :

ظللت بها أعـــرى وأشعـــر سخنـــة كما اعتـــاد محمـــومـــا بخيبر صـــالب

وهذا من جيـد أوصاف الحمى ، وكـان الأستاذ التجاني الماحي رحمه اللـه مما ينشـد هذا البيت ويقرنه بقول عبدة بن الطبيب

رس كـــــرس أخي الحمـى إذا غبرت يـــومـــا تأوبـــه منهـــا عقـــابيل

ويقول إن ذلك من أدق ما وصفت به حمى الـورد وهي التي يقال لها الآن الملاريا ويقرن بذلك أبيات المتنبي من قصيدته الميمية المشهورة

وزائرتي كـــأن بها حيــــــــــــاء فليـس تـــــزور إلا في الظـــــــلام

ومما يحسن أن نستطرد به هنا ما عيب به قوله :

اذا مـــــا فـــــارقتني غسلتنـي كأنـــــا عـــاكفـــان على حـــرام

إذ الغسل واجب على كل حـال . ومقـال أبي الطيب جيـد محكم لأنـه جعلهـا زائرة في الظلام ، فلا يكون وصلها إلا حراما

ثم يقول الأخنس وهذا البيت متقدم في رواية ما اختاره حبيب :

تظل بها ربد النعام كأنها إماء تزجي بالعشي حواطب

والنعامة هوجاء، فعدل عن تشبيه النعام بإماء صاحبته في الزمان الذي تصرم إلى صفة ناقته الهوجاء وصفة ما كان عليه من أمر الصرامة والحزم:

خليلاي هوجاء النجاء شملة وذو شطب لا يجتويه المصاحب
وقد عشت دهرا والغواة صحابتي أولئك خلصاني الذين أصاحب
رفيقا لمن أعيا وقلد حبله وحاذر جراه الصديق الأقارب

فهذا زمان صعلكته وشراسته، ثم لما انجلت عنه عماية الشباب أقبل على ما أقبل عليه

فأديت عني ما استعرت من الصبا وللمال عندي الآن راع وكاسب

ثم أخذ في تعداد ديار القبائل، ليخلص من ذلك إلى ذكر قومه أنهم بارض صحصح لا يحميها حجاز جبال أو سيف بحر ـ وذلك قوله بعد تسعة أبيات هي مرجع في معرفة كثير من حال مواضع القبائل على زمان الجاهلية:

ونحن أناس لا حجاز بأرضنا مع الغيث ما نلقى ومن هو غالب

ثم اخذ في باب الفخر بقومه ومنعتهم. ولا شك أن القصيدة أبياتها متصلة وأن المقدمة النسيبية ملتحمة بما بعدها أشد التحام.

هذا ومن المتوسطات في موضوع واحد متصلة أجزاؤه كلمة السموءل:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

وفيها اثنان وعشرون بيتا وهي مشهورة والنفس الاسرائيلي فيها قوى ـ من ذلك قوله:

وإنا لقوم ما نرى القتل سبه إذا مارأته عامر وسلول

فهذا كأنه يطعن به في العرب.

وقوله:

وننكر إن شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول

وهذا مما يفعلونه

وقوله: تعيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل

ومن هذا الضرب المتوسط نونية العدواني إن لم نعد نسيبها
ومن ذوات التسلسل مع الطول عينية متمم وهي من مشهور الشعر وقد استشهدنا منها بابيات عدد والشعر الجيد مما يعذب على التكرار . والقصيدة كلها متسلسلة الأبيات في ضوء فكرة واحدة هي الفجيعة بأخيه مالك . وفيها واحد وخمسون بيتا . من البيت الأول إلى العاشر عدد متمم فضائل أخيه . أول ما بدأ به أنه كما قال :

لعمري وما دهري بتأبين هالك ولا جزع مما أصاب فأوجعا

فنفى أن يكون مراده محض التأبين أو أنه جزع مع أن المصاب موجع ، ولكن الفقيد قد كان امرأ ذا فضائل يعظم فقده من أجل فقد نظيرهن عند غيره من بعده .

لقد كفن المنهال تحت ردائه فتى غير مبطان العشيات أروعا

وقد عجل إلى ذكر المنهال لينوه بفضيلة ما اسدى من يد الوفاء حيث كفن مالكا ولم يخش أن يؤخذ عليه ما أبدى من المروءة . ثم أخذ متمم أولا في تعداد الجانب السلبي من مآثر أخيه ــ فتى غير مبطان ـ ولا برما وقابل ذلك بجانبه الإيجابي وما يناقضه عند غيره ـ لبيبا خصيبا ـ يهتز للندى

ويوما اذا ما كظك الخصم إن يكن نصيرك منهم لا تكن أنت أضيعا
وإن تلقه في الشرب لا تلق فاحشا على الكأس ذا قاذورة متزبعا

ذو القاذورة هوالذي يترفع عن الناس والمتزبع البخيل السيء الخلق وقالوا ذو القاذورة المتزبع هو الذي فيه فحش وسوء خلق

وإن ضرس الغزو الرجال رأيته أخا الحرب صدقا في اللقاء سميدعا
وما كان وقافا اذا الخيل اجحمت ولا طائشا عند اللقاء مدفعا

ولا بكهام بزة عن عدوه إذا هو لاقي حاسرا أو مدرعا

أجحمت بتقديم الجيم أي جبنت . بزه سلاحه . كهام ، كليل غير قاطع ، مثل هذا خليق أن تبكيه البواكي وذلك لانه سيحس فقده ، زمان الشتاء وعند اجتماع الشرب وفي ساحة الحرب وإذا طرق الضيف وإذا عز فداء الأسير وللأرامل والأيتام وعندما يدعى إلى الميسر

إذا جرد القوم القداح واوقدت لهم نار ايسار كفى من تضجعا

أي أتم العدد واحتمل ما يكون في ذلك من خسارة وغرم

وان شهد الأيسار لم يلف مالك   على الفـــرث يحمي اللحـم أن يتمزعا

وعل شيئا من ذلك كان يصنعه كثير ممن يشهدون الميسر من أهل البخل أو الحرص.
واذ هكذا سيحس فقـد مالك فلماذا يصبر هو ـ أليـس مثل هذا الفقيد مما تنفطـر معه الأفئدة ويستعذب الجزع؟
ثم أليس هو بأولى الناس ألا يصبر على فقده من بعده ؟

أبى الصبر آيـــــات أراهـــــا وأنني   أرى كل حبـل بعـــد حبلـك اقطعـــا
وأنى متى مـــا أدع بـــاسمك لا تجب   وكنت جـديـــرا أن تجيب وتسمعـــا

أخذ من عند البيت السابع عشر الى الثاني والعشرين في حديث فجعه هو خاصة :

وعشنـا بخير في الحيـاة وقبلنـا   أصاب المنايا رهط كسرى وتبعا

ههنا نفس " أيني " يروم سبيل الحكمة والعزاء

فلما تفـــرقنـــا كأني ومـــالكـــا   لطـــول اجتماع لم نبت ليلـــة معـــا
وكنـــا كنـــدمـــاني جـــذيمـــة حقبـــة   من الـــدهـــر حتى قيـل لن يتصـدعـــا
فإن تكـن الأيـــام فـــرقـن بيننـــا   فقـــد بـــان محمـــودا أخي حين ودعـــا

شبه حالهما بندماني جذيمة لأن هذا كـان ملكا وأصاب نديميه بنزوة غضب من نزوات الملـوك. فشبه متمم أمرخـالد بـذلك. ثم تأمل أيها القـاريء الكـريم أنه في الأبيـات المتقـدمات تنـاول أمر المصـاب من جوانبـه التي تعم العشيرة، ثم جعل يخصص حتى صار إلى نفسه وما فجع به من فراقـه بعد طول المودة والاجتماع. ثم بعد أن استوثق من أنه قـد قرر عنـدك فضائل مـالك وعظيم فقده قـرن ذلك بتصريح موجـز جمع فيه بين الحزن والاعتزاز .

فقد بان محمودا أخي حين ودعا

هـو أخي وهو محمـود ـ نعم إنـه قـد بان وقـد فارق وفـارقنـاه ـ وانفـرط عقد البكـاء :

أقـول وقـد طـار السنـا في ربـابـه   وغيث يسح الماء حتى تـريعـــا

بكى الشاعر واسترجع بعد الزفـرات ثم جعل يحيى أخاه بتحية الوداع وهي السقيا تعم البلاد وتخص المكان القفر الموحش الذي هو تربته

سقى اللـه أرضا حلها قبر مـالك   ذهاب الغوادي المدجنـات فأمرعا

ثم يقول

فوالله ما أسقي البلاد لحبها ... ولكنني أسقي الحبيب المودعا
تحيته مني وإن كان نائيا ... وأمسى ترابا فوقه الأرض بلقعا

ولو كانت القصيدة انتهت ههنا لكان في ذلك بلاغ بليغ، ولكن الشعر ربما انبثق من الشعور دفعات.

وقد بلغ الشاعر بفكرة الأسى على مالك من حيث فقد الرجل العظيم الذي كانه مبلغ ما صار به إلى أن يحزن عليه ويعتز بذكراه.

ولكن بقي بعد ذلك ما يعقب الحزن والاعتزاز من عواقب الفقد التي تعظم بها الفجيعة، فقدان النصير، وتضعضع الجاه والوجاهة وانجراح الفؤاد أمام توالي النوائب، ولقاء الشماتة والتجلد للأعداء والحساد، وتعذر الثأر والقصاص وهلم جرا

تقول ابنة العمري مالك بعد ما ... أراك حديثا ناعم البال أفرعا
فقلت لها طول الأسى إذ سألتني ... ولوعة حزن تترك الوجه أسفعا
وفقد بني أم تداعوا فلم أكن ... خلافهم أن أستكين وأضرعا
ولكنني أمضي على ذاك مقدما ... إذا بعض من يلقى الحروب تكعكعا

هنا كرر ما قدمه في أول بيت حيث قال:

..... ولا جزع مما أصاب فأوجعا

ولكنه هناك أجمل وهنا أخذ في نوع من التفصيل - ثم زاد تفصيلا يوضح ما أجمله في جواب صاحبته حيث قال لها:

فقلت لها طول الأسى إذ سألتي

وكأن قد توهمها تسأله عن طول الأسى هذا أن يزيدها فيه بيانا فقال:

وغيرني ما غال قيسا ومالكا ... وعمرا وجزءا بالمشقر ألمعا
وماغال ندماني يزيد وليتني ... تمليته بالأهل والمال أجمعا

فذكر كما ترى فجائع مرت به قبل مقتل مالك، فكان مقتله مما نكأ قرحها وجدد الحزن وزادت به حال الضعف وتضعضع منزلة الحي.

وإني وإن هازلتني قد أصابني ... من البث ما يبكي الحزين المفجعا
ولست إذا ما الدهر أحدث نكبة ... ورزءا بزوار القرائب أخضعا

في هذا البيت السادس والثلاثين أدخل الشاعر عنصرا جديدا زاد به في تتابع تسلسل فكرة الفجيعة ــ وهو هؤلاء القرائب الذين أفادوا منزلة وجاها بعد هلاك مالك. ولن

يقترب هو منهم أو يبدى خضوعا لهم ـ ويلتفت في سياق هذا الحديث إلى امرأته مرة أخرى :

قعيدك ألا تسمعيني ملامة ... ولاتنكئي قرح الفؤاد فييجعا

ثم كأنه يعتذر عن بعض التقصير إذ يقول من بعد :

فقصرك إني قد شهدت فلم أجد ... بكفي عنهم للمنية مدفعا

إنما هو القدر ودول الأيام

ومما ينبه عليه ذكر متمم لابنة العمرى وحديثه إليها والكلمة مرثية كما ترى . والحق أن ذكر النساء في باب الرثاء ليس بشاذ وإن يك الاستهلال به على المألوف من مذهب ظاهر حنين النسيب نادرا كقول دريد :

أرث جديد الحبل من أم معبد

وقد تعلم أن النساء كن هن النائحات ، فقد يخاطبن في أول الرثاء بهذا المعنى كقول كعب بن مالك في رثاء سيد الشهداء :

صفية قومي ولا تعجزى ... وبكى النساء على حمزة

وقد يذكر الشاعر النوائح للإخبار بإدراك الثأر كقول الربيع بن زياد

من كان مسرورا بمقتل مالك ... فليأت نسوتنا بوجه نهار

يجد النساء سوافرا يبكينه ... يلطمن أوجههن بالأسحار

وقد يذكر الشاعر النساء لينبه على أن الفجيعة قد صرمت عهده منهن وأبدلته بطلب أنسهن حزنا وبكاء ـ وإلى هذا المعنى أو قريب منه ذهب الذى رثى قتلى بدر فقال :

ألمت بالتحية أم بكر ... فحيوا أم بكر بالسلام

ألا يا أم بكر لا تكري ... على الكأس بعد أخى هشام

وقال الحماسى :

أرابع مهلا بعض هذا وأجملى ... ففى اليأس ناه والعزاء جميل

ورابعة هذه امرأته وأم ابنه الذى مات وجعلها هي الجازعة ثم أقر من بعد بجزعه هو أيضا

فإن الذي تبكين قد حال دونه ... تراب وزوراء المقام دحول

نحاه للحد زبرقان وحارث ... وفي الأرض للأقوام قبلك غول

وأي فتى واروه ثمت أقبلت ... أكفهم تحثى الثري وتهيل

وظلت بي الأرض الفضـــاء كـأنما تصعــــد بي أركـــانها وتجول

فهذا شاهد بالجزع، وقريب في الدلالة من قول المرقش :

صحـا قلبـه عنهـا على أن ذكـرة إذا خطـرت دارت به الأرض قـائـما

وما أجود قول امرىء القيس في تائيته : "غشيت ديار الحي بالبكرات" حيث قال :

ظللت ردائي فـوق رأسي قـاعـدا أعـد الحصى مـا تنقضي حسراتي

وقال ابن قيس الرقيات وذكر النوائح :

تبكـى لهم أسماء معـــولـــة وتقـــول سلمـى وافجيعتيـــه

وقال الهذلي :

فليس كعهـد الـدار يـا أم مـالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل

وهذا في كلمة رثاء والمعنى قريب مما ذهب إليه متمـم بن نويرة وهو سابق له لأن أبيات هذا الرثاء قيلت بعد حنين وقبل زمان الردة .

وقد جعل الشنفرى مكان خطاب أم مالك وابنة العمرى وما أشبه خطابه للضبع حيث قال :

لاتقـــبروني إن قبـــري محـــرم عليكم ولكـن أبشرى أم عـــامـــر

إذا احتملـــوا رأسي وفي الـرأس أكثـرى وغـــودر عنـــد الملتقـى ثم ســـائرى

هنــــالـك لا أرجـــو حيـــاة تسرني سجيس الليـــالي مبســـلا بـــالجرائر

هذا .

ثم إن متمما يعود فيقرر أنه متجلد ويتبع ذلك معاني من الحزن وجراح الفؤاد

فـلا فـرحا إن كنـت يومـا بغبطـة ولا جـزعـا ممـا أصـاب فأوجعـا

أما قوله " ولا جزعا مما أصاب فأوجعا " فقد مر من قبل ودلالته معلومة ولكن ما مراده من قوله «فلا فرحا إن كنت يوما بغبطة» ـ أين مكان الغبطة هنا ؟ أتراه يرد مقالته هذه على ما كان قال من قبل :

أراك حديثا ناعم البال أفرعا

وذلك في زمان مضى قبل عهد الفجائع ؟

لا ريب أن هذا الكلام مردود على قوله :

. . . . بزوار القرائب أخضعا

هؤلاء القرائب هم الذين بغبطة هذا اليوم، هم الفرحون. وهم لعل منهم الشامت ـ هذا مما يجدد الحزن، وانصرف متمم إلى وصف أحزانه، وجاء بهذا التشبيه:

وما وجْد اظآر ثلاث روائم   أصبن مجرا من حوار ومصرعا

والحوار هو الصغير من الإبل، وروائم جمع رائمة ومنه قولنا أم رءوم أي ترأم ولدها أي ترحمه وتحنو عليه يصف نوقا ثلاثا أصبن صغيرهن قد ذبح وجر

يذكرن ذا البث الحزين ببثه   إذا حنت الأولى سجعن لها معا
إذا شارف منهن قامت فرجعت   حنينا فأبكى شجوها البرك أجمعا
بأوجد مني يوم قام بمالك   مناد بصير بالفراق فأسمعا

التشبيه مألوف، كثير في المراثي ومعاني الأسى والحنين ـ قالت الخنساء

وما عجول على بوٍّ تطيف به   لها حنينان إعلان وإسرار
ترتع ما رتعت حتى إذا ادكرت   فإنما هي إقبال وإدبار
يوما بأوجع مني حين فارقني   صخر وللدهر إحلاء وإمرار

وقد جعلت الخنساء المشبه به ذات البو، فشبهت حال حزنها على بوها بحال حزنها هي على صخر.

وفائدة مثل هذا النوع من التشبيه أنه يحمل مع معنى الحزن معنى العزاء لأن الحزين لا يفطن إلى صورة حزين آخر فيوازن نفسه به إلا وقد ابتعد هو بنفسه عن ملابسة الحزن كل الملابسة بحيث يقدر أن يتأمله من مسافة بعده ثم يصفه. ومن أجل ذلك لم يلزم في مثل هذا الضرب من التشبيه أن يكون مبتكرا ولكن أن يكون مألوفا، إذ الإلف يجري مجرى التذكير والعظة.

ومع التعزي يكون شيء من التسلي ويؤوب الجلد ويفطن المرء لما حوله مما كان شغله عنه وجع الحزن وذهول الجزع ـ

بأوجد مني يوم قام بمالك   مناد بصير بالفراق فأسمعا

تأمل لفظ «بصير» الذي وصف به المنادي وهو السميع المسمع. ثم مع هذا المنادي القادم بمعنى مالك وهو يعلم مرارة وقع الفجيعة على من ستقع به، أخبار أخرى مما يسوء ـ هي أخبار هذا المحل ـ قالوا هو رجل مر بمالك قتيلا فلم يواره وقالوا أعطي

المحل سلب مالك ففرح به وأقبل راجعا. ولعل الذي جاء بمنعي مالك ورفع صوته به وخبر بمقتله هو هذا المحل، يدل على ذلك قول متمم

بمشمتــه إذ صـادف الحتـف مـالكـا ومشهـــده مـا قـــد رأى ثم ضيعـــا
أأثـــرت هـــدمـا بـــاليـا وســويـــة وجئت بها تعـدو بـــريـــدا مقّــزعـــا

فهـذا الرجل قـد حضر مقتل مالك وأظهـر شماتة وأخـذ سلبه ثم جـاء كأنه صـاحب البريد يحمل أخبار الشؤم والمساءة

فـــلا تفـــرحن يـــومـــا بنفسـك إنني أرى الموت وقـــاعـــا على من تشجعـــا

واجعل هذا الشـامت الذي جاء بـه قبيل آخر القصيدة بمنزلـة مقابلة للمنهـال الذي بادر بذكره بعد أول بيت ـ وشتان ما بين الرجلين

لعلك يـــومـــا أن تلم ملمـــة عليك من اللاتي يـدعنك أجدعا

هذا كالدعاء عليه

نعيت امـرأ لو كـان لحمك عنـده لآواه مجمـــوعـــا لـــه أو ممـــزعـــا

وهذا كالشتم

فـلا يهنىء الـواشين مقتل مـالك فقـد آب شـانيـه إيــابـا فـودعـا

أي أما شانيـه فقد آب وأما هو فقد ودع، وهـذه خاتمة مشعرة بالحسرة والتجلـد للأيام معا. وحسبنا هذا القدر في التمثيل للتسلسل المطـرد في ضوء فكرة واحدة. وكثير مثله مما يرد في قصائد الوصايا والحكم

هذا والضرب الثاني من ضروب التسلسل مما جيء به على سياق عادة الشعراء من أجود أمثلته بائية علقمة

طحا بك قلب في الحسان طروب

وهذا الضرب والذي قبله قد يتداخـلان كما قد تدخل فيهما ضروب كثيرة مما سنذكر من بعد ومما قـد لا يتسع المجال لذكره. ولن نفتـأ نكرر للقارىء الكريم ما قـدمناه من أن الشعر كل واحد جميع وإنما نجزئه من أجل الدرس.

وقد جعلنا بائية الأخنس وقافية تأبط شرا من الضرب الأول، لأن البداية النسيبية الإلماع فيهما غير خارجة حقا عن حيـز التسلسل الذي بعدها وإنما هي إلماع وإيماء ليس غير، فوجب حمل الأقل على الأكثر، وهو الفكرة المنتظمة لسائر بيان الشاعر.

ومكان مراعاة عادة الشعراء في بائية علقمة أنه بناها على نسيب ورحلة وخلوص إلى الممدوح، وهو الذي سماه ابن رشيق المبدأ والخروج والنهاية. ومكان التسلسل أنه جعل الأبيات آخذا بعضها برقاب بعض في حيز كل من هذه الأقسام الثلاثة ثم ربط بين أطراف ذلك وأوساطه ربطا محكما. فجاء الكلام كلا واحدا تام الصياغة والترتيب،

في القصيدة سبعة وثلاثون بيتا، وهذا فوق التوسط وأقرب إلى الطول إذ ذات الأربعين بيتا مما تعد طويلة.

الأبيات العشرة الأول في النسيب. والمطلع مشعر بأنفاس من غرض الشاعر. وقد كنا تعرضنا لبسط في هذا المعنى من قبل. وقد تصرمت فيما بيننا وعهود الشعراء الأقدمين مئات من السنين. وقد اختلفت حال الناس بعد الإسلام عما كانت عليه قبل الإسلام اختلافا كبيرا. وعلى أيام الفتنة عما كانت عليه قبلها. وفي زمن معاوية عما كانت عليه أيام الراشدين. وفي زمان المروانية عما كانت عليه من قبل. وهكذا إلى يومنا هذا. ولقد كان القدماء من جاهليين وإسلاميين إلى قريب من زمان أبي الطيب إذا افتتح الشاعر كلامه أحسوا بأنفاس غرضه ووجهة سبيل مقاصده. ولقد كانوا في الجاهلية لطول إلفهم الشعر يعرفون ما لكل مطلع من دلالة، وما لكل نسيب من مكنونات الرمز. ونحن إذ نحاول فهم مقالهم في هذا الصدد نستعين بالحدس والترجيح فينبغي التسليم بأن القدماء كانوا يعلمون كثيرا مما لعله قد أغلق عن علمنا بابه، فيجب علينا من أجل ذلك أن نتواضع.

قوله:

طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

مشعر بأن قلبه يكلفه أمرا ذا بعد ومشقة، وكذلك ما كان هو قد عزم عليه من الوفادة في قصة أخيه شأس قد كان أمرا ذا بعد ومشقة. وقد خلع من تهيبه لقاء ملك غسان بعض الوصف على محبوبته

محجبة ما يستطاع كلامها على بابها من أن تزار رقيب

ولعل القارىء الكريم يذكر وقفتنا من قبل عند قول مزرد بن ضرار أخي الشماخ:

صحا القلب عن سلمى ومل العواذل

أنه منبىء عن بعض أمره.

وقول زهير:

صحا القلب عن سلمى وقد كاد لايسلو

فيه إشعار بتقدم سنه وأنه رجل جد وذلك ابتداء حسن في معرض الصلح بعد حرب داحس.

وقوله:

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله ... وعرى أفراس الصبا ورواحله

فيه أيضا الإشعار بالجد. وأي جد، إذ المدح كان مجال التزيد والكذب، وقد عرف زهير بالصدق فيه وبالحكمة ـ فكأنه بمثل هذا المطلع يقرع الأسماع أن تصيخ لما سيقول مما ليس من سبيل الباطل ولا منحاه ـ قال الدكتور طه حسين في حديث الأربعاء بعد أن أورد الأبيات الثلاثة التي تلى هذا البيت

وأقصرت عما تعلمين وسددت ... على سوى قصد السبيل معادله

وقال العذارى إنما أنت عمنا ... وكان الشباب كالخليط نزايله

فأصبحن ما يعرفن إلا خليقتي ... وإلا سواد الرأس والشيب شامله

«فهو هنا يفسر إعراضه عن اللذة وإقصاره عن اللهو وإقباله على الجد».

وقال بشامة بن الغدير وهو خال زهير وأستاذه الذي علمه الشعر

هجرت أمامة هجرا طويلا ... وحملك النأى عبئا ثقيلا

وحملت منها على نايها ... خيالا يوافي ونيلا قليلا

فأشعر بأمر لا يخلو مما يكره.

قال المسيب بن علس:

أرحلت من سلمى بغير متاع ... قبل العطاس ورعتها بوداع

قبل العطاس أي بخلس قبل أن تستبين العواطس وهي ما يراه المرء مما يكره فيتشاءم به

من غير مقلية وإن حبالها ... ليست بأرمام ولا أقطاع

فدل بهذا المطلع أن رحيله من أجل حاجة يلتمسها، مكسب من مال أو جاه. والمسيب خال الأعشى ومنه تعلم صنعة التكسب بالشعر.

ثم يقول علقمة يثنى على هذه التى طحا قلبه إليها طربا بعد أن شاب لداته :ـ

إذا غاب عنها البعل لم تفش سره ... وترضى إياب البعل حين يؤوب

وهذا أخذه الشنفرى حيث قال:

إذا هو أمسى آب قرة عينه ... مئاب السعيد لم يسل أين ظلت

وقد فصل ما أجمله علقمة ـ ثم يقول علقمة

فلا تعدلى بينى وبين مغمر ... سقتك روايا المزن حين تصوب

الدعاء لها بالسقيا مشعر بالبعد. وقوله فلا تعدلى، فيه رجعة إلى معنى طربه عصر حان مشيب، فإن يكن الشباب قد فاته، فقد فاتت معه عجلته وطيشه وقلة تجاربه، فلا ينبغي أن يخدعها منظر من هو أشب منه ولكنه مغمر لا تجربة عنده يكون معها صلاحها وإسعادها. وفي مثل هذا التقرب نوع من كناية ـ كأنه يخاطب الملك ويقول له إن يكن أخي قد حاربك فهو غِرٌّ غير مجرب، وهأنذا أشفع بتجربتي ومديحي فيه عندك ـ وكرر السقيا إمعانا في التقرب والتحبب

سقاك يمان ذو حبي وعارض ... تروح به جنح العشى جنوب

ومع ذلك البعد ـ

وما أنت أم ما ذكرها ربعية ... يخط لها من ثرمداء قليب

فهذا أول انصرافة عن ليلى التي شط وليها وعدت عنها العوادي. ليست هي من قومك الأدنين ولن تراها حتى تموت، هذا على معنى أن القليب هو القبر. وأظهر من ذلك أن ثرمداء هذه مكان ناء وأنها مقيمة به عند قليب تشرب منه. وكان العرب أهل آبار، لولاها لهلكوا. ثم أتبع هذه الانصرافة عنها لبعدها وعداوة قومها أو بعد علاقتهم وأنها في حجاب ورقيب، انصرافة عن النساء عامة، ورجوعا إلى ما ينبغي لمثل من هو في سنه من اتباع الرشاد:

فإن تسألوني بالنساء فإنني ... بصير بأدواء النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله ... فليس له في ودهن نصيب
يردن ثراء المال حيث علمنه ... وشرخ الشباب عندهن عجيب

وقد أعلمنا من قبل أن شبابه قد ولى وأنه حان عصر مشيبه، وأنبأ هنا من جانب إشارة خفية أن لا مال عنده ـ فعلام التصابي؟

فدعها . . . . .

إلى هـا هنـا ينتهي النسيب، وقـد فتح بـه مجال القـول بما ضمنه فيـه من كنـايـة وإيحاء، ـ ولكن مـاذا يصنع وقد أقلقه قلبـه الطروب بما أقلق، فلا بـد عند الانصراف من وجه ينصرف إليه ويقبل على الانصراف إليه قلبه.

فـــدعهـــا وسـل الهم عنك بجسرة	كهمك فيهـــا بـــالـــرداف خبيب
إلى الحارث الـــوهـــاب أعملت نـــاقتي	لكلكلهـــــــا والقصريين وجيـب

جاء في هذين البيتين بالرحلـة ووسيلتها وهي راحلته التي معناها متضمن بعض معاني نفسه وهمه ـ يدلك على ذلك قوله :

كهمك فيها بالرداف خبيب

ولم يكن معـه عليها رديف على الأرجح، ولكن ظـاهـر المعنى المبالغـة، أي هي تقوى على الخبب بالردف، ثم إذ هي كهو وكهمه فكأنه ردف لها ـ فعلى هذا الرداف بها قوة بلا ريب.

ومع الرحلة ووسيلتها جاء فيهما أيضا بالغرض الذي من أجله ارتحل. وتأمل قوة صلة قولـه : «أعملت ناقتي» مع قوله : «فيهـا بالرداف خبيب» والخبيب اعتمالها، ومع قوله «كهمك» وقوله «أعملت ناقتي» كالتفسير لهذا اللفظ الموجز.

ثم هو هنا قـد خلص من مقدمة نسيبه ذات الطرب والكنايـة والسقيا والفكاهة والأسى والحكمة ـ كل أولئك معا ـ إلى هذا البيان الصريح الواضح الشافي الذي هتك به أستار ما كان قدمه قبل من خوف وتهيب عند قوله :

محجبة ما يستطاع كلامها   على بابها من أن تزار رقيب

لا ريب أن مثل هذه المواجهة المبينة قد قرعت سمع الحارث الملك أيما قرع.

بعد هذه المواجهة رجع علقمة إلى الناقة التي زعم أنه أعملها، وفي هذا استئناف للتهيب، واعتذار للملك بإيجاب بعض الحق عليـه إذ يذكر مـا لقيه وما لقيتـه راحلته من مشقة. ولعلمه أنـه امرؤ ناء من بلد ناء ووافد من قبل دار خصـوم حاربوا الحارث وانتصر عليهم متشفعا في أمر أخيـه الذي كان مع عدوه ملك الحيرة وقـد أسر ـ لعلمه جميع هذا احتاج إلى تقرير لإيجاب الحق بقصد الملـك والمشقة التي تكلفها بعد تقرير، ليؤكد مـراده تأكيدا لا يدع عند الملك مـوضعا لأدنى شك في صدق نيتـه إذ عقد العزم على قصده :

إليك أبيت اللعن كان وجيفها بمشتبهات هولهن مهيب

كما أنت مهيب

هـــداني إليك الفــرقـــدان ولا حب لـــه فـوق أصـــواء المتـــان علـــوب

بها جيف الحسرى فـأمـــا عظـــامهـــا فبيض وأمــــا جلـــدهــــا فصليب

تأمل هذه الوحشة والمناظر المفزعة والضياع بين الأماريت

تراد على دمن الحياض فإن تعف فإن المندى رحلة فركوب

ويروى ترادى أي تدارى وهي رواية كتاب سيبـويه استشهد به في باب حتى قال «لم يجعل ركـوبـه الآن ورحلتـه فيما مضى، ولم يجعل الـدخـول الآن وسيره فيما مضى، ولكن الآخر متصل بالأول، ولم يقع واحد دون الآخر.» ـ قوله السير والدخول يشير به إلى اتصال السير بالدخول في نحو سرت فأدخلهـا. والمندى مصدر ميمي وهو التندية وذلك أن تشرب الإبل قليـلا ثم ترعى قليـلا ثم ترد فتشرب. يقـول إنها تراد على المياه المتغيرة ذات الدمن من بقـايا الحياض فإن عافت فليس لها بعـد ذلك مرعى ولا شراب ولكن الركوب والسير.

ومن تأمل هنا أحس كأن هـا هنا نوعا من كنـاية، جعل فيه الشاعـر راحلته رمزا رمز به لنفسه، أنـه حمل نفسه على أن يرد هذا المورد، فإن عافـه فلا يجد شيئا. والعرب تسمي الحقد والضغينةدمنة. وتتحدث عن حيـاض المنايا ـ وفي شعر منسوب إلى أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه وقيل هو مما صح له:

حياض المنايا تقطر الموت والدما

وقال كعب بن زهير:

لا يقع الطعن إلا في نحورهم وما لهم عن حياض الموت تهليل

فقوله «دمن الحياض» مع الدلالة الظاهرة على الماء وبقايا الروث في الحوض فيه معنى ما كان من حـرب وعداوة وأحقاد وضغائن تركها ذلك وهـو قد أقدم ليشرب من أسآرها موقنا أنه إن لم يفعل فليس بعد ذلك إلا الهلاك.

فلا تحرمني نائلا عن جنابة فإني امرؤ وسط القباب غريب

ثم ليس هو غريبا فقط ولكنه شاعر يعرف كيف يمدح ويفضل سيدا على سيد:

وأنت امرؤ أفضت إليك أمانتي وقبلك ربتني فضعت ربوب

أي أنت الآن سيدي. وكان لي سادة قبلك فأضاعوني.

وقبلك ربى قوم ملكا فأضاعوه وغودر قتيلا في بعض الجنود. وربتك بنو كعب ابن عوف فقد نصروك وانتصروا بك.

فأدت بنو كعب بن عوف ربيبها ‏ ‏ ‏ وغودر في بعض الجنود ربيب

قدمنا تفسير هذا البيت من أجل التنبيه على جانب اللعب اللفظي، حيث صار الشاعر من بعد ذكره "ربتني" بمعنى كانت لي أربابا وسادتني إلى ذكره الربيب المشتق من ربب وربى التي للتربية لا للربوبية والسيادة.

ولا يخفى أن هذا داخل في تسلسل كلام الشاعر واتصال أواخره بأوائل ما يليهن - ثم في ذكر الشاعر بني كعب بن عوف التفاتة ذات أهمية بالغة، إذ عسى بذلك أن يكونوا عونا له في الأمر الذي قدم من أجله أو على أقل تقدير، أن يأمن جانبهم فلا يحذروا الملك منه أو يضعفوا من شأنه عنده.

وأخذ في المدح وصفة الحرب، فأبدع مع الإيجاز، إبداعا عزيز النظير ــ وذلك قوله:

فوالله لولا فارس الجون منهم ‏ ‏ ‏ لآبوا خزايا والإياب حبيب

فارس الجون هو الحارث - خصه بعد أن مدح قومه وجنده وفضله عليهم، وذلك ما ينبغي في مثل ذلك المقام، ثم لم ينس قومه أن يمدحهم بأنهم لم ينهزموا من جبن ولكن قد صدمهم فارس الجون، ولولاه لانتصروا وآب خصومهم خزايا يحمدون النجاة إن وجدوا سبيلها.

تقدمه حتى تغيب حجوله ‏ ‏ ‏ وأنت لبيض الدارعين ضروب
مظاهر سربالي حديد عليهما ‏ ‏ ‏ عقيلا سيوف مخذم ورسوب
فقاتلتهم حتى اتقوك بكبشهم ‏ ‏ ‏ وقد حان من شمس النهار غروب

فدل على أن القتال استمر النهار كله وما فضه إلا إقدام الحارث وانبراء ملك الحيرة له فقتله قبيل الغروب، فكانت الهزيمة وذلك كان يوم عين أباغ - وبعد أن صور هذه الصورة الباهرة للحارث، أتم صفة القتال بتصوير ساحته كلها وما كان فيها من عراك:

تخشخش أبدان الحديد عليهم ‏ ‏ ‏ كما خشخشت يبس الحصاد جنوب
وقاتل من غسان أهل حفاظها ‏ ‏ ‏ وهنب وقاس جالدت وشبيب

قالوا إن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تمثلت بهذا البيت لما رأت مجتلد القوم حولها يوم الجمل، ولله ما كان أعظم تلك من فتنة. ولا ريب أن الذين ثبتوا حول الجمل صنعوا ذلك لعلمهم أن صاحبته زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنها أم المؤمنين ـ فعنه صلى الله عليه وسلم لا عن ذات شخصها كانوا يقاتلون. هذا مكان الفتنة واشتباه الأمر على الناس. ليقضي الله أمرا كان مفعولا. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ثم تجيء من بعد الصورة الفنية الرائعة لمشهد القتال بما فيها من الحركة والهول والمخافة والأحزان.

كأن رجال الأوس تحت لبانه ... وما جمعت جل معا وعتيب

هذا يصف به إشراف فارس الجون و إحداق جنده الراجلين به، كأنهم تحت لبان هذا الحصان المشرف كلهم أجمعين.

ثم مناظر الحرب وغبارها وأصوات المنايا فيها من فارس مجدل وفرس عقير

رغا فوقهم سقب السماء فداحض ... بشكته لم يستلب وسليب

أي هدرت عليهم رعود الحرب وهوت صواعق الأقدار. وسقب السماء فالسقب هو البعير الصغير وههنا إشارة إلى خبر فصيل ثمود وذلك أنهم لما عقروا الناقة صعد الفصيل ورغا ثلاثا ــ فكان هلاكهم بعد ثلاثة أيام. فسقب السماء هنا علم للكارثة ـ قال الشارح قال الرستمي قال يعقوب ضرب ثمود لهم مثلا أي هلكوا أي نزل بهم من الشؤم ما نزل بأولئك.

كأنهم صابت عليهم سحابة ... صواعقها لطيرهن دبيب

أي ما أفلت فلم تصبه الصواعق لم يقدر إلا على الدبيب من هول الصواعق ولم يستطع أن يطير.

فلم ينج إلا شطبة بلجامها ... وإلا طمر كالقناة نجيب

وإلا كمي ذو حفاظ كأنه ... بما ابتل من حد الظبات خضيب

هذا الكمي هو فارس الجون. فتمت صورة القتال. وعاد بنا إلى مشهد إشراف الفارس المنتصر الذي قد كان بدأ به.

وكما أوجب عليه من قبل حق الرحلة حيث قال :

فــلا تحرمني نـائلا عـن جنابــة   فإني امـرؤ وسط القبـاب غـريب

أوجب الآن عليه حق ما أحسن من الثناء عليه

وأنت الــــذي آثـــاره في عــــدوه   من البـــؤس والنعمـى لهن نــــدوب

وفي كل حـي قـــد خبطـت بنعمـــة   فحق لشـأس من نـــداك ذنـــوب

قال الضبي شأس أخو علقمة. والذنوب النصيب. وقال أبو عبيدة فلما سمع الحارث قولـه «فحق لشأس من نداك ذنـوب» ـ قال أذنبـة وأذنبة ثم أمـر بإطلاق شأس وجميع أسرى بني تميم.

ومــا مثلــه في النـــاس إلا أسيره   مــــدان ولا دان لـــذاك قـــريب

وهذا حسن اختتام كما لا يخفى.

وكما رأيت اتصال المعاني وتسلسلها مع براعة التأتي، وجودة التمهيد لفكرة تلى، وجودة رد الكلام على فكرة تقدمت. وسير التسلسل كله في إطار مـا قدمنا لك ذكره من عادة الشعراء أن يبدئوا بالنسيب ثم يرتحلوا ثم يخلصوا بعد ذلك إلى المدح وغيره من الأغراض ـ وغرض الشاعر الأكبر لم يذكره علقمة إلا في آخر بيتي القصيدة ـ ولو وقف بالقصيدة عند قوله :

فحق لشأس من نداك ذنوب

لكان ذلك اختتـاما خطـابيا بالغـا. ولعله كـان الختام، إلا أن الملك لما قـال : وأذنبة، استوجب من الشـاعر مزيـدا من الثناء وتـوضيح مراده من هذا الـذنوب أي النصيب بفتح الذال وأصل معناه الدلو ـ فقال علقمة من أجل ذلك :

وما مثله في الناس إلا أسيره   مدان. . . .

إذ هو يكرم الأسير على أن الأسير لا يمكن أن يكون مثله، ولا يمكن لأحد أن يدانيه أو يقرب من منزلة فضله وجوده ومجده :

ولا دان لذاك قريب

ولا يخفى أن ههنا استراحة من انفعال النفس الخطابي ونهاية طيبة.

ومثال آخر من أمثلة التسلسل الجاري على سياق عادة الشعراء كلمة النابغة :

يـا دار مية بـالعليـاء فـالسنـد   أقوت وطـال عليها سـالف الأمد

وقد يذكر القارىء الكريم وقفتنا من قبل عند هـذا المطلع وقولنا إنه «لأمر ما مثلا اختار النابغة اسمى العلياء والسند في مستهل المطلع ثم زعم أن ذلك قد أقوى ومر عليه زمن بعيد، ولأمر ما وقف عند الدار أُصَيْـلا لأَ بعد أن مضى الضحا والظهر والعصر جميعا ثم لم يجد جوابا ولم يلق في الدار أحدا إلخ»

بنى النابغـة قصيدتـه على أجزاء عـادة الشعراء من نسيب ورحلة وخـروج من ذلك إلى الغرض.

وضمن كل جزء ألوانا من عادة الشعراء فنعت معالم الدار في مقدمة النسيب، ومع أنه جعل عمودها الطلل الموحش، لم يأل أن ضمن ذلك ذكرى عهـد كان معمورا وكانت الوليدة فيه تعمل

ردت عليـــه أقـــاصيـــه ولبـــده   ضرب الـــوليـــدة بـــالمسحـــاة في الثأد
خلـت سبيل أتي كـــــان يحبســـــه   ورفعتـــه إلى السجفين فـــالنضـــد
أضحت خلاء وأضحى أهلهـا احتملوا   أخنى عليهـا الـــذي أخنى على لبــد

وتأمل السجفين هنا، وقد تعلم قوله من قبل في المتجردة

قـــامـت تـــراءى بين سجفـي كلـــة   كـالشمـس يـوم طلـوعهـا بـالأسعـد

فهل الوليدة كناية عن المتجردة؟

وقوله بعد هذا:

فعـــد عما مضـى إذ لا ارتجاع لـــه   وانم القتـــود على عيرانـــة أجـــد

ليس منقطعا عما قبله بل متصل به، إذ قد أخنى على المكان ما أخنى على لبد من الفناء فلا معنى لإطـالة الوقوف عنده، ذلك زمـان مضى فعد عنه وأقبل على زمـان جديد. نظر النابغة بلا ريب إلى طريقة الانقطاع المتصل الذي جاء به علقمة حيث قال:

فـــدعهـــا وسـل الهم عنك بجسرة   كهمك فيهـــا بـــالـــرداف خبيب

ورب قـائل ان هـذا سبيل مطـروق من مذاهـب شعر العـرب، وهـو كـذلك، إلا أن الشعـراء ينظر بعضهـم إلى بعض في الدقـائق من صـور وطـريقة لفـظ و إيقاع وأنـواع أسلـوب. وإضراب علقمة بعـد أن وفى بابـا حقـه من القول فأصبح الانصراف عنـه لازما، وهكذا صنع النابغة وعلقمة سابق فقد اتبعه. ثم جانس علقمة بين الهم وهمك

في قولـه «كهمك فيهـا» ـــ ولم يخل النـابغة من روح مجانسـة خفيـة ـــ أو قل مقـابلـة ـ بين «رفعتـه إلى السجفين» وبين «وانم القتـود على عيرانـة» ـــ ثم أقبل على صفـة النـاقـة فقال :

مقـذوفـة بـدخيس النحض بـازلها لـه صريف القعـو بـالمسـد

والقعو البكـرة . والبئر تكون عنـد الحاضر فصلة هـذا المعنى بالوليـدة ومقام الحيّ كما ترى .

ثم لما أخذ النابغة في وصف الناقة والرّحلة ضمن ذلك ما اعتادَه الشعراء من الاسْتطرادِ إلى نعت الوحش . وصنيعه هنا كصنيع علقمة حيث قال :

ونـاجيـة أفنى ركيب ضلـوعهـا وحـاركهـا تهجـر فـدءوب
وتصبـح عـن غـب السرى وكـأنها مـولعـة تخشى القنيص شبـوب
تعفـق بـالأرطى لها وأرادهـا رجـال فبـذت نبلهم وكليب

إلا أن علقمة جعل المشبه به بقرة وجعله النابغة ثـورا ، وتأمل اختيار النابغة ألفاظه وما يخالط ذلك من روح معاني الغرض الذي هو بسبيله :

كأن رحلي وقـد زال النهـار بنـا بـذي الجليـل على مستأنـس وحـد

والمستأنس الـوحد هو الثـور الوحشى الـذي أحس أو توجس نبأة من الإنـس فخاف والجليل الثمام وذو الجليل مـوضع أو مكان ما فيـه هذا الجليل فأشـار إليه بما فيـه وهو مقبل على أمر جليل وهو وحد ومستأنس

وقـد اختصر علقمة الـوصف لأن أربـه صفة انخـراط سيره وجـده وتشميره حتى يبلغ الحارث الـوهاب . ولكن النـابغة قصـد إلى معنى من الكنـاية وهـو في طريق المعتـذر المتهيب المؤمل الحذر إلى النعمان ـ هـو هذا الثور المستأنس الـوحد . والوشـاة هم هؤلاء الكلاب ، وقد انتصر عليهم :

شك الفـريصة بـالمدرى فأنفـذهـا شك المبيطـر إذ يشفـي من العضـد
كأنـه خـارجـا مـن جنب صفحتـه سفـود شرب نسـوه عنـد مفتأد
فظل يعجـم أعلى الـروق منقبضـا في حـالك اللـون صـدق غير ذي أود

الـذي ظل يعجم أعلى الروق هـو الكلب ضمـران . وتأمل إلى تضـوره هنا . «حـالك اللون» هو قرن الثور الأسود المستقيم كالسنان . غير ذي أود أي ليس به اعوجاج . وقد

قلنا من قبل في أخريات حديثنا عن الأوصاف: «ولكأن الكلب المتضور في دالية النابغة هو أحد هؤلاء الوشاة»

لما رأى واشق إقعاص صاحبه ولا سبيل إلى عقل ولا قود
قالت له النفس إني لا أرى طمعا وإن مولاك لم يسلم ولم يصد

واشق هذا كلب آخر وواش آخر. ولئن صح الخبر الذي ذكروه أن المنخل اليشكري كان يختلف إلى المتجردة، وأنه غار من وصف النابغة لها وكاده عند النعمان، ثم إن أمره هو قد عرفه النعمان من بعد فحبسه ووكل به عكبا فعذبه ورووا أنه قال:

يطوف بي عكب في معد ويضرب بالصملة في قفيا

وقتله آخر الأمر ـ لئن صح هذا الخبر فضمران المتضور المقتول هو المنخل، والروق الذي شك الفريصة فأنفذها هو شعر النابغة. وواشق هذا واش آخر آثر السلامة لما رأى هلاك ضمران.

فتلك تبلغني النعمان إن له فضلا على الناس في الأدنين والبعد

رجع إلى ما كان فيه من أمر الرحلة والناقة وجعل ذلك خاتمة لهذا الجزء الذي أطال فيه ووفاه حق القول فيه. ثم إنه لم يترك اتباع علقمة والنظر الشديد إليه ـ فكما طريقة قوله فعد عما مضى إلخ كطريقة قول علقمة «فدعها وسل الهم عنك إلخ»
كذلك قوله هنا «فتلك تبلغني النعمان إلخ» طريقته مثل طريقة قول علقمة:

إلى الحارث الوهاب أعملت ناقتي لكلكلها والقصريين وجيب

وعجز بيت علقمة تتميم لمعنى قوله «أعملت ناقتي» فوصف حال إعمالها من اضطراب كلكلها ووجيب أضلاعها القصري. وسائر بيت النابغة من عند آخر الصدر إلى آخر عجزه تتميم وتفسير للمعنى المتضمن في قوله «فتلك تبلغني النعمان» إذ هو لم يتبع اسم النعمان وصفا يمدحه به ويغني عن الشرح كما فعل علقمة حيث قال: «إلى الحارث الوهاب» ـ فهذا التفسير المصدر بإن وفيها ما نعلم من دلالة التوكيد، هو بمنزلة قول الحارث الوهاب، وبنظر إليه ومحاكاة خفية له.

ثم بسط النابغة هذا المعنى. وليس أمره كأمر علقمة، فعلقمة قد كان غريبا وافدا، فاهتم بأن يقرع السمع بأنه وافد من بعيد وآمل عظيم الأمل معا. أما النابغة فقد كان ذا قرب وسابق مودة وخدمة للنعمان، فحاجته إلى استئناف تجديد القربى إليه وطلب الزلفى عنده تستلزم أن يسمعه ما يطرب له من حسن الثناء، وأن يضمن ثناءه روح ما يتلمسه عنده من عفو وعطاء وجاه ـ فقال بعد تأكيده أن له فضلا على الناس في الأدنين والبعد :ـ

ولا أرى فاعلا في الناس يشبهه	ولا أحاشى من الأقوام من أحد
إلا سليمان إذ قال الإله له	قم في البرية فاحددها عن الفند
وخيس الجن إنى قد أذنت لهم	يبنون تدمر بالصفاح والعمد
ومن عصاك فعاقبه معاقبة	تنهى الظلوم ولا تقعد على ضمد
الا لمثلك أو من أنت سابقة	سبق الجواد إذا استولى على الأمد

قوله إلا سليمان ـ يجرى مجرى المبالغة، إذ ملك سليمان كان يضرب به المثل لما كان له ولوزيره آصف بن برخيا من الأسرار ومعرفة الاسم الأعظم والمقدرة على تخييس الجن وتسخيرها. ولئن صح أن النعمان قد كانت أمه من يهود، فعن عمد يكون النابغة قد أشار إلى ملك سليمان لما يعلم من حسن موقع ذلك عند النعمان. وقوله «ومن عصاك نعاقبه» يتضمن تبرئة نفسه كما يتضمن التعريض بالوشاة والإشارة إلى ما حل بالمنخل من النكال. وقوله ولا تقعد على ضمد أى على حقد، ولكن انتقم ولا يخلو النابغة من أن يكون قصد إلى معنى الضماد وهو أن يكون للمرأة خليلان أى ولا تقعد على أن يكون لك في أمرك منازع أو شريك. والعاصى منازع وطالب للمشاركة في سلطان من يعصيه ـ وأرى هذا المعنى أقرب، ثم فيه من التعريض بأمر المنخل ما فيه. والضمد بسكون الميم كالضماد معنى والفتح كثيرا ما يعاقب السكون.

ومما ينبىء باستقامة المعنى على ما تأولناه من أن المراد ولا تقعد على عصيان عاص ينازع في السلطان ويروم أن يشارك فيه، قوله من بعد :

إلا لمثلك أو من أنت سابقه

وليس لسليمان مثل. ومن يكون سابقا هو له، فهو وزير وعون كآصف بن برخيا. وما أرى إلا أن النابغة عنى المتجردة إذ هى القريبة من النعمان كقرب وزارة آصف من سليمان. أم هل يا ترى عنى النابغة نفسه؟ أم عنى الأمرين معا؟

عسى ذلك أن يناسب قوله من بعد :

واحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت إلى حمام سراع وارد الثمـــــــد

والثمد بالتحريك الماء القليل وفي دارجتنا "التمد" بصيرورة الثاء تاء، وزعموا أن محمد أحمد المهدى رحمه الله سأله أصحاب الطرق ما يصنعون بطرقهم إن تبعوه فقال لهم ما معناه وبعض لفظه «من كانت له تمده وجاءه البحر الكبير فماذا يصنع ؟»

وفتاة الحي هي زرقاء اليمامة وذكرنا من خبرها. وهذا معطوف على قول الإله قبل: " قم في البرية فاحددها" «وخيس الجن» ، أفعال الأمر ـ أى واحكم بنظر ثاقب بعيد كما صنعت زرقاء اليمامة إذ قالت حين رأت الحمام وقد عرفت عدته:

ليت الحمام ليـــــه
إلى حمامتيـــــــه
ونصفـــه قـــديـــه
تـم الحمام ميـــــه

فحسبوه فألفـوه كما حسبت تسعا وتسعين لم تنقص ولم تـزد

أى تسعا وتسعين بعد إضافة النصف إذ كان عدد الحمام ستا وستين فبإضافة حمامتها يصير مائة، ولعل الرواية الصحيحة «ستا وستين لم تنقص ولم تزد» ولكن هكذا هو في النصوص «تسعا وتسعين» والدلالة واضحة على كل حال.

أم ليس في ذكر فتاة الحي ههنا ظلالا من الوليدة ذات المسحاة في الثأد، ومن مية التي في المطلع، ومن مية التي في:

أمن آل مية رائح أو مغتدى

وهي المتجردة.

ومهما يكن من شيء فعقد الكلام متصل إذ قد رجع النابغة إلى ما بدأ به حيث قال: أعطى لفارهة حلو توابعها» ، إذ سياق الكلام هكذا.

ولا أرى فـاعـلا في النـاس يشبهـه ولا أحـاشـى من الأقـوام مـن أحـد
أعطى لفـارهـة حلـو تـوابعهـا مـن المواهب لا تعطى على نكـد

ففصل بين مفعول الرؤية الأول ومفعولها الثاني بتقديم ما استثناه وهو سليمان عليه السلام وما قصه من أمر الاله، وأقحم فتاة الحي لسببين، للإشارة الخفية إلى المتجردة، وللإلماع بأنه مظلوم، وأن على النعمان أن يحكم فيه هوالحكم المنصف المبني على صدق النظر، وإذ جريرته ما كان فيه من وشاية من وشى به إما في أمر قصيدة المتجردة وإما في ما زعموه أنه هجاه وقال: «وارث الصائغ الجبان الجهولا» يعرض بأمه سلمى بنت

الصائغ اليهودية، فمناسبة خبر سليمان وفتاة الحي لذلك ظاهرة.
ثم زاد النابغة سيده مدحا:

الـــواهـب المائة الأبكـــار زينهـــا ... سعـــدان تـــوضح في أوبـارهـــا اللبـــد
والســـاحبـــات ذيـــول المرط فنقهـــا ... بـــرد الهواجـــر كـــالغـــزلان بـــالجرد
والخيل تمزع غـــــربـــــا في أعنتهـــا ... كـالطير تنجو مـن الشؤبـوب ذى البرد

أى يهب الإبل والخيل والجوارى، وقوله الساحبات ذيول المرط من قول امرىء القيس:

خـــرجت بها أمشـى تجر وراءنـــا ... على أثـــرينـا ذيل مـــرط مـــرحل

فنقها أى جعلهن جواري منعمات.
وذكر الطير الناجية مناسب لما تقدم من صفته الحمام وقوله:

يحفـــه جـــانبـــا نيق وتتبعـــه ... مثل الزجاجـة لم تكحل من الرمد

مثل الزجاجة يريد صفاءها وأنها شفافة وأنها كالمرآة أى عينها ـ

والأدم قـد خيست فتـلا مرافقهـا ... مشـــدودة بـــرحـــال الحيرة الجدد

الأدم إبل وهي البيض هنا، وميزها من المائة الأبكار، إذ المائة الأبكار مال يقتنى، للبن وللنتاج ولـذلك جعلها أبكارا لتطـول مدة الانتفاع بها ويكثـر ما تلد. أمـا هذه الأدم فـرواحل وهي الإبل الصهب الموثوق بقـوتهن على السير وجودتهن ركـائب. وإذ أثمل النعمان بما أحسن من الثناء على سخائه، ثم في ذلك ما يناسب تأميله، أردف بالحلف والتبري، وأشرب حلفه وهو يروم أن يجعله موجـزا قارعا للسمع، نوع تفصيل ملائم لما تقـدم من تفصيلـه في صفـة الدار وفي صفـة الثـور، وفي خبر سليمان وخبر فتـاة الحي منسجم التجاوب مع ذلك كله:

فـلا لعمـــر الـذي قـــد زرتـه حججـــا ... ومـا هـريق على الأنصـــاب من جســـد
والمؤمن العـــائذات الطير يمسحهـــا ... ركبـــان مكـــة بين الغيل والسنـــــد

تأمل ذكر الطير والعياذ والأمن

مـا إن أتيت بشىء أنـت تكـرهـه ... إذن فـلا رفعت سـوطى إلى يـدى

إذن فاقتلني فلا أرجع أحث ناقتي إلى دياري بسوطي، إن كنت حقا تعتقد أني جئت بشيء تكرهه، إنما وصفت كما أمرتني وأما الهجاء فهو قول افتراه على من تعلم، وهو لك حاسد، ولفضلك جاحد.

إذن فعاقبني ربي معاقبة قرت بها عين من يأتيك بالفند

لم يكتف النابغة بقوله «إذن فلا رفعت سوطي إلى يدي» وهو الموت، ولكن جاوزه إلى ما يكون أشد من عقاب المولى الذي يعلم السرائر، وذلك ما لن يكون، كما لن يأتي بالحسد والفند أحد وتقر عينه بأن يرى النابغة حل به عقاب الله، لأن هذا الآتي بالحسد والفند هو نفسه قد حل به عقاب الله.

هذا لأبرأ من قول قذفت به طارت نوافذه حرا على كبدي

ثم مضى في تبرئة نفسه، وعاد إلى مدح النابغة فشبهه هذا التشبيه الرائع بالفرات:

فما الفرات إذا جاشت غواربه ترمي أواذيه العبرين بالزبد
يمده كل واد مترع لجب فيه ركام من الينبوت والخضد
يظل من خوفه الملاح معتصما بالخيزرانة بعد الأين والنجد
يوما بأجود منه سيب نافلة ولا يحول عطاء اليوم دون غد
أنبئت أن أبا قابوس أوعدني ولا قرار على زأر من الأسد

وهذا البيت بارع ـ إن شاء النعمان حمله على أن النابغة قدم إليه على خوف منه لما سمع بوعيده. وإن شاء جعله اعتذارا عن ابتعاده عنه ولجوئه إلى الغساسنة. وقد علم النابغة أنه قد بلغ ما أراد من استلال سخيمة النعمان بهذا القول الصافي والعتاب النبيل والاعتذار المشرق

هذا الثناء فإن تسمع لقائله فما عرضت أبيت اللعن بالصفد

والصفد أي العطاء دليل القبول، فقد عرض به كما ترى. وتأمل مكان هذا البيت، أليس كمكان بيت علقمة:

وفي كل حي قد خبطت بنعمة فحق لشأش من نداك ذنوب

ثم جاء ببيت الختام يرتاح به كما صنع علقمة :

هـا إن تا عـذرة إن لا تكن نفعت　　　فإن صـاحبهـا قـد تـاه في البلـد

وهو يعلم أنه لم يته ولكن بلغ النعمان وأبلغه
وحسبنا هنا هذان الشاهـدان في التسلسل على حسب سياق عادة الشعراء في القصائد ذوات الطول .
وقولنـا عادة الشعراء مأخـوذ من عبارة الجاحظ إذ أشار إلى أن الشعـراء تجعل الكلاب تقتل الثـور في الرثـاء ومـا أشبه وتجعـل الثور يقتلهـا في المدح ومـا أشبه ، وقـد سبقت الإشارة إلى هذا القول من قبل ، وعن الجاحظ أخذه ابن رشيق وهدك من ناقد .
ونحيل القارىء بعد على قصائد أخر فيها مثل هذا التسلسل أو قريب منه ، منهن مثلا لامية عبدة بن الطبيب :

هل حبل خولة بعد الهجر موصول

على ما في آخرها من مشابهة ميمية علقمة
وقصيدتا بشر الميميـة الوافرية وأختهـا الرائية وكلتاهما مفضليـة وقد اختصر الأجزاء في الميمية حتى كأن قـد وثب من جزء إلى جزء والتسلسـل مع ذلك لا يخفى ، وقد اكتفى بحـركة الحرب في الانبـاء عن الـرحلـة في الرائيـة ، وأطـال شيئا في مقـدمـة النسيب ، ومـذهب بشر في كلتا القصيـدتين يشبهه كثيرا مـذهب أصحـاب النقائض ومـذهب جرير والفرزدق من بعد .
ودالية ربيعة بن مقروم المادحة الطنانة :

بانت سعاد فأمسى القلب معمودا

من ذوات التسلسل وقد مر عنها الحديث
وليقس ما لم يقل .

ثانيا : التدرج

التدرج ضرب من التسلسل إلا أن الانحدار درجة درجة أو الإصعاد درجة درجة أظهر فيه من اتصال آخـر حلقة من الكلام بما يليها . ونعيد ما قلنـاه مرارا قبل من أن الشعر تـداخل اصنافـه ، وكما قد رأيت من تـداخل صنفي التسلسل ، كذلك يـدخل فيهما التدرج إن عن لشاعر إيراد ما يقوله عليه عفوا أو عن تعمد .
والتدرج منه محض ومنه ما يساق على طـريقة عادة الشعراء فمن أمثلة التدرج المحض كلمة سلامة بن جندل :

أودى الشباب حميدا ذو التعاجيب أودى وذلك شأو غير مطلـــوب

واعتمادنـا على رواية المفضل. وروى بعضهم لها مقـدمـة نسيب، ومـا كان أغنـاه عن ذلك، وأدخل بعضهم بعد ثالث أبياتها هذه الأبيات

وللشبـــاب إذا دامت بشـــاشتــــه ود القلـــوب من البيض الخراعيب
إنــا إذا غـــربت شمس أو ارتفعت وفي مبــاركهــا بــزل المصــاعيب
قـد يسعد الجار والضيف الغريب بنا والســائلـــون ونغلي ميسر النيب
وعنــدنــا قينـة بيضــاء نــاعمــة مثل المهـــاة من الحور الخراعيب
تجرى الســواك على غـــر مفلجـــة لم يغـــرهـــا دنس تحت الجلابيب
دع ذا وقـل لبني سعـــــد لفضلهم مـــدحـــا يسير بـــه غـــادي الأراكيب

وفي هذه الأبيات الستة قـواف خمس على وزن المفاعيل ومـا بمجراهـا وزنا مـن صيغة منتهى الجموع والمتأمل لـرواية المفضل التي رواها القاسم بن محمـد بن بشار غير واجد فيها ما يشبـه هذه الكثرة من هذه الصيغة. وقـد تكررت الخراعيب كما ترى، وإن يك ذلك في نفسه ليس بعيب كبير، إذ كان الإيطاء مما يرد عند القدماء إذا كان المعنى الجيد يقتضيه مع تجويد النغم.

والأبيات الستة بعـد قلقة الموضع في هذه البائيـة الجيدة تتابع الايقـاع واتساق المعاني. وغير بعيد أن يكون المغنون أدخلوا هذه الأبيات. وهي لشاعر آخر.

تدرج هذه البائية على هذا النحو:

بدأ ببكاء الشباب:

أودى الشباب حميدا ذو التعاجيب أودى وذلك شأو غير مطلـــوب

لاحظ أنـه استعـار قـولـه «شأو غير مطلـوب» من أمـر الخيل والسبـاق، ولـذلك في القصيـدة من بعد مكـان ظاهـر، وهذا وحـده عنـدي مما يبطل روايـة من صدر هـذه القصيدة بنسيب سـوى هذا الذي بكى به سلامـة الشباب ـ ثم مضى في تصـوير هذا الشأو الذي لا يطلب ولا يدرك:

ولي حثيثـا وهـــذا الشيب يطلبـه لـو كان يـدركه ركض اليعـاقيب

أي لـو كان يـدركـه ركض اليعـاقيب لحاولنا أن نـدركـه. قـالوا اليعـاقيب أي الطير، واليعقوب ذكـر الحجل، والـوجه عندي والله أعلم ما قـاله عمارة، أحسبـه عمارة بن

عقيل بن بلال بن جرير الشاعر، إن اليعاقيب هنا الخيل ذوات العقب بفتح فكسر، وهو الجرى بعد الجري، ذلك بأن الركض إنما يقال للخيل لا للطير إلا أن يسمى اندفاع الطير ركضا على التشبيه. ولك في الركض أن ترفع وأن تنصب والنصب رواية أبي عمرو أحسبه الشيباني، أي لركضنا ركض اليعاقيب.

أودي الشباب الذي مجد عواقبه   فيه نلذ ولا لذات للشيب

ههنا درجة ـ أن الذي يجيء بعد الشباب الجاه والمال والتجارب وهذا الذي سماه المجد مما يشمل الجاه والمال والتجارب وقد يزيد ولكن لا لذات هناك، وما طعم العيش بلا لذاذة. ولك في لذات في تائها الكسر والفتح، وأحسب أن أبا الطيب قد نظر إلى هذا البيت إذ قال:

ليت الحوادث باعتني الذي أخذت   منى بحلمي الذي أعطت وتجريبي
فما الحداثة من حلم بمانعة   قد يوجد الحلم في الشبان والشيب

وقد ركب نفس البحر والروي
ثم يقول:

يومان يوم مقامات وأندية   ويوم سير إلى الأعداء تأويب

أي المجد الذي هو عواقب الشباب، هو هذا ـ جد المجالس وجد التشمير للحرب والحرب إنما كانت يحشها الشباب، ولكن الشيوخ مدبروها ورؤساؤها باعثهم إليها الحزم والجد والعرف والواجب. وقد يجد الشباب في عنفها لذة ـ ثم معها الغنيمة والسبي
ولكن سلامة ههنا يؤكد معنى الجد ويلح عليه:
ويوم سير إلى الأعداء تأويب
التنبيه ههنا على قوله تأويب وفيه دلالة على اتصال السير إذ التأويب سير يوم إلى الليل، ثم يكون في الليل السري
هذا في طلب الأعداء. ثم بعد الغزوة الرجوع، وقد أخذ الكلال وما تصنع الحرب من الخيل والرواحل والرجال مأخذها.

وكرنا خيلنا أدراجها رجعا   كس السنابك من بدء وتعقيب

وههنا درجة ـ
انتقل من بكاء الشباب إلى صفة حال المجد
وانتقل من السير إلى العود بالخيل وقد تثلمت سنابكها ـ وتأمل الكافات والسين والراء والجيم وانظر أي مبلغ يبلغه الافتنان في بيان هذه اللغة ورنات إيقاعها

والعاديات أسابي الدماء بها ... كأن أعناقها أنصاب ترجيب
من كل حت إذا ما ابتل ملبده ... صافي الأديم أسيل الخد يعبوب

فانتقل كما ترى إلى نعت الخيل، وحبه لها بين، وكذلك حبه لهذه الأنصاب التي تعظم وتنحر لها وتذبح الضحيات. وجعل بعضهم سلامة من شعراء النصرانية وهذا من قوله يكذبه، وقد فطن إلى ذلك المستشرق البارع ليال ونبه عليه كما ذكرنا لك من قبل، الحت السريع واليعبوب الجواد الواسع الجري كأنه عباب وكأنه بحر وأسابي الدماء طرائقه الواحد إسباءة وقالوا الأسابي ألوان الدم وقريب منها الأساهي بهاء بعدها ياء مشددة وهذه لا واحد لها وجاء بها سلامة في كلمته هذه وقريب منهما الأساوي بلا تشديد، منقوص وهي الدفعات وكأنها جمع لإسوة وجاء بها سلامة أيضا.
ثم أخذ سلامة في نعت الخيل وكان بها عالما، جعل ذكر الجد ثم ذكر السير ثم ذكر الرجوع والعاديات كل ذلك درجات إلى نعتها ـ وقد مر بك قوله أنها رجعت أدراجها فكأن زعمنا أنه تدرج فيه بعض النظر إلى هذا اللفظ ـ

ليس بأسفي ولا أقني ولا سغل ... يعطي دواء قفي السكن مربوب
في كل قائمة منه إذا اندفعت ... منه أساو كفرع الدلو أثعوب
كأنه يرفئي نام عن غنم ... مستنفر في سواد الليل مذؤوب
يرقى الدسيع إلى هادله بتع ... في جؤجؤ كمداك الطيب مخضوب

جعله العنق كمداك العروس وقد وصفه من قبل كأنه أحد الأنصاب المرجبة، ولم ينس ذلك لمكان الخضاب في هذا البيت يقوي معنى ما قدمناه من أن هذا مقال عربي مشرك تقربه الأنصاب إلى ربه زلفى لا مقال نصراني ـ وكان العرب ـ حتى في جاهليتهم لا يخلون من نظر نافر عن النصرانية وبعض ازدراء يدلك على ذلك قول جابر بن حني:

وقد زعمت بهراء أن رماحنا ... رماح نصارى لا تخوض إلى الدم

وما كانت لتقوله بهراء وحدها.

وقد مر شرح الأبيات المتقدمة إذ قد استشهدنا بها في باب الأوصاف من الأغراض عند ذكر الخيل

تظاهر الني فيه فهو محتفل ... يعطي أساهي من جري وتقريب

وقد انتقد الأصمعي قول أبي ذؤيب :

قصر الصبوح لها فشرج لحمها ... بالنى فهى تثوخ فيها الإصبع

وما ذكروا أنه عاب هذا البيت من قول سلامة . وما أشبه أن يكون سبب ذلك أن سلامة لما ذكر الني أي الشحم ذكر معه الرياضة والتضمير الذي يذهب به وهو قوله :

يعطي أساهي من جري وتقريب

ولم يذكر أبو ذؤيب شيئا من ذلك وقال زهير:

غزت سمانا فآبت ضمرا خدجا ... من بعد ما جنبوها بدنا عققا

فذكر مع السمن التضمير

من أجل هذا ما زعم الأصمعي أن أبا ذؤيب لم يكن له علم بالخيل ، وربما تحامل عليه إذ له فيما قال زهير وسلامة عاذر وان لم يحترس كما احترسا . وأخطأ ليال إذ أخذ على سلامة قوله «تظاهر النى» وإنما أتى من مقال أبي سعيد في أبى ذؤيب والأمران لا سواء .

ثم يقول سلامة :

كم من فقير بإذن الله قد جبرت ... وذى غنى بوأته دار محروب

فهذه درجة صار منها إلى خبر الحرب ووصفها ثم إلى الفخر، «وبإذن الله» ليس مما يقوله النصارى . وكانت العرب قبل الإسلام تقوله إذ كانوا مع الشرك أهل توحيد ، وخاصة عند الشدة ، والحرب شدة ، وقد استفتح أبو جهل يوم بدر فحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، وقد جاء وصف الحرب من بعد فقال سلامة يذكر الخيل فهذا متصل بما قبله ثم يذكر الحرب فهذا درجة لما بعده :

مما تقدم في الهيجا إذا كرهت ... عند الطعان وتنجى كل مكروب

وفي هذا أيضا كالرجعة إلى قوله :

والعاديات أسابي الدماء بها

ثم أخذ في الفخر، فهذا زعمنا أنه تدرج

همت معد بنا هما فنهنهها ... عنا طعان وضرب غير تذبيب

بالمشرفي ومصقول أسنتها ... صم العوامل صدقات الأنابيب

يجلو أسنتها فتيان عادية ... لامقرفين ولا سود جعابيب

وقوله «عادية» فيه رجع من صوت " والعاديات " ــ وقوله «فتيان عادية» فيه معنى الشباب إذ الفتوة مع الشباب. وكما الآن هو محارب «قديم» [كما يقال الآن في زماننا هذا] لقد كان من قبل محاربا فتى، فهو يحرك قلوب الفتيان بما يقص عليهم من نبأ أيامه اللاتى مضين.

ولعمرى ما أنصف إذ قال:

ولا لذات للشيب

والجاحظ أدق منه إذ ذكر أن الحديث من لذات أهل السن أو لا لذة لهم سواه، وهذا الذى أقبل عليه سلامة من حر القول ومنخوله أيما لذة ـ

تأمل تجاوب أصوات الألفاظ وألوان التكرار ـ تكرار الطعان وهاءات نهنهها ـ همت ـ هما ـ صم ـ صدقات ـ مصقول ــ وتكراره أسنتها في مصقول أسنتها وفي يجلو أسنتها وهي بقريب من معناها.

ثم انظر إلى قوله: لا مقرفين ولا سود جعابيب

وكان حرص العرب على الأنساب كالجنون بأمرها، وكان السود فيهم غير قليل، وذلك أن عنصرا من السود لهم أصل في جزيرة العرب، وصلة الحبشة باليمن قديمة.

وقال كعب:

إذا عرد السود التنابيل

وقال النابغة:

ليست من السود أعقابا

وقال الأخطل:ـ

فإن نرض عن حمران بكر بن وائل　　فليس لنا سودانها بصديق

فلم يرض لا عن الحمران ولا عن السودان كما ترى

وقال جرير: أراب سواد لونكم أرابا

وقال عقيل بن علفة:

رددت صحيفة القرشى لما　　أبت أعراقه إلا احمرارا

وقال الفرزدق يهجو ابراهيم بن عربي والى اليمامة وكان أسود يلبس ثيابا بيضا

ترى منبر العبد اللئيم كأنه　　ثلاثة غربان عليه وقوع

يعنى وجهه وكفيه. ونحو من هذا هجي به المغيرة بن شعبة، قال الشاعر فيه:

فقل جعل يستن في لبن محض

وقال أبو عرار يعتذر عن سواد ابنه :

وإن عـــرارا إن يكـن غير واضح　　فإني أحب الجون ذا المنكب العمم

وقال الفضل بن العباس اللهبى :

وأنـــا الأخضر من يعـــرفنى　　أخضر الجلـدة من لـون العـرب

ففر من السواد وجعله خضرة

وولشدة عصبية العرب من كان منهم أسود عد عروبة نسبه بياضا ، وعلى ذلك قول عنترة :

إني امـرؤ من خير عبس منصبـا　　شطـرى وأحمي سـائرى بـالمنصل

وقـال عبدالـرحمن بن عـوف وهـو من المبشريـن ومن أهل الشـورى لبـلال وهـو من المهاجرين السابقين الأولين رضى الله عنهم أجمعين في يوم بدر يا ابن السوداء ، وما قال ذلك إلا عن مودة لـه بلا ريب ، وذلك حين رغبـه أمية بن خلف في الفـداء ، وكان من صنـاديد أهل الكفـر، فأبى اللـه أن ينجـو ـ وكـان بنـو جمح رهط أمية خضرا ـــ أصل سوادهم من عرق هندى كما في لامية أبي طالب :

بنـو أمـة محبـوبـة هنـدكيـة　　بنـو جمح عبيـد قيس بن عـاقل

وقد نسبهم أبو طالب هنا إلى سفاح من أصل رق .

ولعصبية العرب في الأنساب والألوان وكثـرة مطاعنها بعضهم في بعض حذرهم الدين من أمر الجاهليـة ونهاهم عن دعواهـا وقال تعالى : « يأيها النـاس إنا خلقنـاكم من ذكر وأنثى وجعلنـاكم شعوبـا وقبائل لتعـارفوا إن أكـرمكم عند اللـه أتقاكم إن اللـه عليم خبير» .

وما قطع كتاب من كتب الحكمة والدين منزل من السماء أو من عمل الفلاسفة فيما بين افلاطن واكويناس وروسو وماركس بمثل مـا قطع به القرآن في هذه الآية من الحجرات وفي آية فاطر « ألم تـر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا بـه ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جـدد بيض وحمر مختلف ألـوانها وغرابيب سـود ومن الناس والـدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء إن اللـه عزيز غفور. » ـ فالنبات والحيوان والجماد والنـاس أصلهم كلهم هذه الأرض وهم سـواسية في الأصول سـواسية فيما يتفرع منهن من الألوان .

هذا وقول سلامة بن جندل :

لا مقرفين ولا سود جعابيب

كأنه يعيب بـالأول ربيعة لمدانـاتهم الفرس والروم وبـالثاني أهل اليمن وتهامـة لمداناتهم بلاد السودان .

ثم استمر في تكرار السين وأسنة والسن

سوى الثقاف قناها فهي محكمة قليلة الزيغ في سن وتركيب
زرقا أسنتها حمرا مثقفة أطرافهن مقيل لليعاسيب

اختلفوا في تأويل اليعاسيب والظاهر أنهم يقتلون بها الرؤساء ويرفعون رؤوسهم ويعسوب القوم سيدهم، ولا يغب عنا الإلغاز الخفي بين اليعاسيب وبين الرماح العواسل أي التي تعسل أي تهتز

وتأمل القاف: قناها ـ الثقاف ـ قليلة ـ زرقا ـ مثقفة ـ مقيل

كأنها بأكف القوم إذ لحقوا مواتح البير أو أشطان مطلوب

قوله " أشطان مطلوب " تخصيص بعد تعميم أي كأنهن حبال الآبار ــ لا بل حبال هذه البئر التي تعلم

كلا الفريقين أعلاهم وأسفلهم يشقى بأرماحنا غير التكاذيب

بعد أن أمتع بصفة الخيل، أمتعنا بصفة القتال، وبعد أن كان الكلام عاما: « يجلو أسنتها فتيان عادية »جعله أخص فدلنا على أنه هو الذي ثقف القناة بين آخرين مثله من قومهم ثقفوا قناهم ثم أشرعوه إذ قاتلوا به ثم لحقوا العدو وقتلوا الرؤساء وكأن أرماحهم أشطان مطلوب

ونستفيد التخصيص من قوله في آخر الصفة

كلا الفريقين أعلاهم وأسفلهم يشقى بأرماحنا غير التكاذيب

فهذه نون الجمع المتكلم وهو منهم بل هو شاعرهم الناطق بلسان حالهم، ثم نعلم أنه كان مشاركا في القتال ومجده كل المشاركة بقوله:

إني وجدت بني سعد يفضلهم كل شهاب على الاعداء مشبوب

وإنما وجد ذلك عن تجربة. وكشف عن أن الذين تحدث بلسانهم هم بنو سعد فأنت ترى كيف هذا التدرج الذي تدرج به هذا الفارس المحارب "القديم" من بكاء الشباب في قوله: «أودى الشباب» وادعاء "أن لا لذات للشيب» الى قصة خبر بلائه أيام شبابه وتلذذه بذلك وطربه إلى مآثر قومه ومجدهم الذي هو من بناته، ثم لما أقر هذا المعنى عند سامعيه، خلص إلى الفخر ببني تميم ثم ببني سعد قومه ثم جعل الفخر بضمير المتكلم الجمعي، كنا وكنا ونحن الآن كذا كذا

إني وجدت بني سعد يفضلهم كل شهاب على الأعداء مشبوب
إلى تميم حماة العز نسبتهم وكل ذي حسب في الناس منسوب

أي كل ذي حسب منسوب في بني تميم وهم الناس كل الناس

قـوم إذا صرحت كحل بيـوتهم   عز الذليل ومأوي كل قرضوب

القرضوب الفقير

ينجيهم من دواهي الشر إن أزمت   صبر عليهـا وقبص غير محسـوب

القبص بكسر القاف العدد الكثير الدثر. غير محسوب أي لا يعد من كثرته

كنـا نحل إذا هبت شـآميـة   بكـل واد حطيـب الجوف مجدوب

مجدوب أي مذموم ، يخافه الناس لخصبه إذ لا يكثر فيه الحطب إلا وهو خصيب ، وهذا كما لا يخفي من اللعب اللفظي أن يكون حطيبا مجدوبـا والجدب لا يكون معه خصب من حطب أو مرعى . وإنما تعمدوا مكان الحطب لكثرتهم يـوقدون ويطبخون ويقاتلون بشوكتهم عما حازوه فمنعوه

وتأمل كيف تدرج الى قوله كنا بعد أن كان الكلام إخبارا عن قوم هم عز الذليل ومأوى الفقير ففسر العز بالقوة على منع أنفسهم . وفسر الإيواء بما في الحطيب من الدلالة على الطعام والطبخ والكرم .

ثم أعطانا صورة هذا الوادي الحطيب الجوف بعد أن أقـاموا به يحمونه ويكرمون نزيلهم باغي قرى الضيف عندهم فيه

شيب المبارك مـدروس مدافعه   هـابي المراغ قليل الـودق موظـوب

أي بعد أن أقام بـه الناس يحتطبون ويرعـون ويقاتلون خلا من كل نبـات فمباركه غبر شيب موظـوبات تتـابع عليهن الوطء والـدياس . وفسر بعضهم شيب المبـارك بالثلج والتفسير قول أبي عمـرو أحسبه الشيبـاني أنه ليس بها كـلأ فهي بيض ، قـال أغبر لبعد أهله ، لا من الصقيع لأن الصقيع معه بلل فلا يكون جدبا .

كنـا إذا مـا أتانـا صـارخ فـزع   كـان الصراخ لـه قـرع الظنـابيب

وهذا كما هـو فخر، هو أيضا تنبيـه على فضيلة النجدة وحث عليها ، «الفـارس الماجد القديم» بذلك جدير . قرع الظنابيب أي التشمير والظنبوب عظم الساق

وشـد كـور على وجناء نـاجيـة   وشـد سرج على جـرداء سرحـوب

هـذه حـال نهوض الى الحرب ، يمتطون الإبل ويجنبـون الخيل ، ثم في الكـلام رجعـة إلى اصـداء من صوت الـوصف والتفصيل والنشوة إلى ذلـك مما مـر من حديثـه من قبل ـ

ولاحظ تتابع الجيم ـ وجناء ـ ناجية ـ سرج ـ جرداء ـ ثم تجيء السين والحاء من بعد ولا ينسى الكاف ولا الخاء ولا الظاء والصاد للسين أخت :

يقـــال محبسهـــا أدنى لمرتعهـــا ... وإن تعـــادى ببكء كل محلـــوب

حتى تـــركنـا ومـــا تثني ظعـــائننـــا ... يأخـــذن بين ســـواد الخط فـــاللـــوب

ما يخشين من أحد . هكذا كنا فمثلنا فكونوا .

ومما تدرج فيه على سياق عادة الشعراء نونية العبدي

أفـــاطـم قبل بينـك متعيني ... ومنعك مـا سـألت كأن تبيني

وقد مر عنها الحديث ولكن ننبه هاهنـا على هذا الجانب من إحكامها ووحدتها وربطها ـ وذلك أن الشاعـر جعل النسيب ثلاث درجـات أخراهن خـروج إلى الرحلـة وجعل الرحلـة ثلاث درجات أخراهن خـروج إلى عمرو، وجعل خاتمة الكلام ثـلاث درجات أخراهن الحكمة وهي التي من أجلها قال مـا قال ، وقد كان المثقب حكيما ، وكانت في عبدالقيس على بعدها ومقاربتها فـارس والهند والنبط فصاحة ، ومن الله عليهم أنهم لم يكونوا من أهل الـردة . لفضيلة الجارود العبدي رضي الله عنه وحزمـه . وهو الذي قال الشاعر في أحد الذين من ذريته :

يـــــا حكم بـن المنـــــذر بـن الجارود

سرادق المجـــــد عليـك ممـــــدود

والشطر الأول من شواهد الكتاب في باب ما يكون الاسم والصفة فيه بمنزلة اسم واحد ينضم فيه قبل الحرف المرفوع حرف وينكسر فيه الحرف المجرور الذي ينضم قبل المرفوع وينفتح فيـه قبل المنصـوب ذلك الحرف وهـو ابنم وامرؤ ـ قلت وهـذا من بـارع تمثيل صاحب الكتاب وأستاذه الخليل إذ هذا مذهبه قالوا إن الراجز من بني الحرماز أحسب أن قائل ذلك أبو عمر الجرمي رحمه الله .

أما درجات النسيب الثـلاث فأن منع فاطمة كبينها فقد بانت فهي ظعينـة فهذه درجة ثم وصف الظعينة في الظعائن معها مع ما يخالط ذلك من غزل ، فهذه درجة . ثم التنبيه على أن الذي بان ليس هو فاطمة بمنعها ما منعت ولكن هو الشاعر بكبريائه وصدوده عمن صد عنه وعزمه رحلة التسلي :

فقلت لبعضهـن وشـــد رحلي ... لهاجـــرة نصبت لها جبيني

فهذا خروج إلى الرحلة كما ترى

ثم يقول في البيت التاسع عشر

فسل الهم عنك بذات لوث عذافرة كمطرقة القيون

هذه ناقته ـ وأقبل على صفة حركتها الهوجاء المستمرة الشديدة الإيجاف وهي ما زالت في أوائل نشاطها وهذه أولي مراحل سيره، وقد بدأه عند الهاجرة لانخراطه وجده ووصل التأويب بالسرى.

بصادقة الوجيف كأن هرا يباريها ويأخذ بالوضين
كساها تامكا قردا عليها سوادي الرضيخ مع اللجين
إذا قلقت أشد لها سنافا أمام الزور من قلق الوضين

لاحظ تكرار الوضين وهو هنا ترنم مقصود. وإنما قلق الوضين لاستمرار هذا الضرب من السير أياما، فضمرت فاحتاج هو إلى أن يشد الوضين باكثر مما شده من قبل

ومن ضمن وصف هذا السير الشديد وصف استراحات التعريس القصار

كأن مواقع الثفنات منها معرس باكرات الورد جون

أي مواقع القطا البواكر لورود الماء، وكلما رحلها بعد هذه الاستراحة القصيرة تنفست الصعداء، نفسا حارا يكاد يقطع الحزام ـ ثم مضت وبها نشاطها

تصك الحالبين بمشفتر له صوت أبح من الرنين

المشفتر المتفرق يعني ما يتطاير من الحصى، تطيره أخفافها

كأن نفي ما تنفي يداها قذاف غريبة بيدي معين
تسد بدائم الخطران جثل خواية فرج مقلات دهين

المقلات التي لا يعيش لها ولد، فأنبأنا بطول السير، وأنها ألقت جنينا بالصحراء. والدهين التي لا لبن لها

وتسمع للذباب إذا تغنى كتغريد الحمام على الوكون

قالوا الذباب هنا حد نابها اذا صرفت بأنيابها أي صوتت ـ فهذا نهاية الدرجة الأولى من الرحلة

ثم الدرجة التي تلي صفة استراحة الناقة بعد هذا الكد، وقد عاد بخياله يصف حالها قبل الرحلة وهي فارهة كأنها سفينة:

فألقيت الـزمـام لها فنـامت كعـادتها مـن السـدف المبين

فهذا يدلنـا على أنه قد استراح من قبل مرات عند هـذا السدف المبين ، وإنما عني آخر الليل عندما يبدو أول ضوء الفجر

كأن منـاخهـا ملقى لجام على معـزائها وعلى الـوجين

وملقى اللجـام ضيق منبيء عن حـال ضمـور والمعـزاء الأرض ذات الحصى والـوجين الأرض الغليظة

كأن الكـور والأنسـاع منهـا على قـرواء مـاهـرة دهين

هذه صفتهـا في أول الرحلـة ، إذ لا يمكنه التعريس بأكثـر من ان يلقي لها الزمـام ، وما زالت بها قوة ، فهذه الصفة تتضمن معنى الإعجاب والرضا

يشق الماء جـؤجـؤهـا ويعلـو غـوارب كل ذي حـدب بطين

هذه صفة السفينة التي شبه بها ناقته

غـدت قـوداء منشقـا نسـاهـا تجاسر بـالنخـاع وبـالـوتين

هذا يدلنا عن أن في الوصف رجعة الى حالها قبل الضمور. وكأنه اذ قال : «غدت قوداء منشقا الخ» قـد قال : «كـانت قوداء سمينـة منشقا نساهـا أي منفلقة لحمتـا فخذيها فيبدو النسا بينهما من سمنهما »

ثم تجيء الـدرجـة الثالثـة ، وفيهـا رجعـة إلى تفسير ما ذكـره من قبل من تنفس نـاقتـه الصعداء .

ـ وقد خلص هنا إلى مناجاة الناقة وجعل حاله وحالها شيئا واحدا :

إذا مـا قمت أرحلهـا بليـل تـأوه آهـة الـرجل الحزيـن

تقـول إذا درأت لها وضينـي أهـذا دينـه أبـدا ودينـي

أكـل الـدهـر حـل وارتحال أمـا يبقى علي أمـا يقينـي

فـأبقى بـاطلى والجد منهـا كـدكـان الـدرابنـة المطين

أي كدكة البوابين ، وذلك أنها تكون قد تأكلت من جـوانبها ، وهذه الصفة تدلنا على أن قوله من قبل :

كأن الكـور والأنسـاع منهـا على قـرواء مـاهـرة دهين

إنما هو رجعة بخياله إلى حالها الأولى . والدهين هنا من صفة السفينة أنها مدهونة بالقار وهي تجاوب قوله من قبل : «خواية فرج مقلات دهين»

وكأن عنترة قد أخذ من قول المثقب هذا حيث قال :

وشكا إلي بعبرة وتحمحم

لو كان يـدري ما المحاورة اشتكى ولكـان لـو علـم الكـلام مكلمي

وقد زاد في المعنى كما ترى

فهذه درجات الرحلة الثلاث ـ ثم يقول :

فـــرحـت بها تعـــارض مسبطـــرا على صحصـــاحـــه وعلى المتـــون

إلى عمـــــرو ومـن عمـــــرو أتتنـى أخي النجـــدات والحلـم الـــرصين

فهذه درجة ــ وهي تجاوب ما تقدم من نشاط نـاقته أول ما وصفها ، ثم الدرجـة الثانية تقابل مناجاته الناقة ومناجاة الناقة له ، كما فيها أصداء حديثه لفاطمة :

فـإمــــا أن تكـــــون أخي بحـق فـأعـــــرف منك غثي أو سميني

وإلا فــــاطـــــرحني واتخذنـي عـــــــــــــدوا أتقيـك وتتقينـي

فهذا كقوله : فإني لو تخالفني شمالي إلخ

ثم الدرجـة الثالثة ، وهي كما قـدمنا ذكره من قبل ذروة القصيدة وغـاية مقاصـدها من الحكمة

ـ عندما قال لفاطمة «كذلك أجتوي من يجتويني» وعندما قال لها :

لعلك إن صرمت الحبـل بعـدي كـذاك أكـون مصحبتي قـروني

كان له مفر إلى الناقة وبها إلى عمرو

وقـد ملت الناقـة وبرمت ، وإنما النـاقة هي نفس الشـاعر ، (بسكـون الفاء هنـا) وذلك أن من تهلك ناقته بالصحراء يهلك هو أيضا .

وقد تغير عمرو عن حاله أو يخشى هو أن يكون قد تغير وإذن فماذا يصنع :

ومـــــا أدرى إذا يممت أرضـــــا أريـــــــــــد الخير أيهما يلينـــي

أألخير الـــــذي أنـــــا أبتغيـــــه أم الشر الـــــذي هـــــو يبتغيني

من تأمل هـــذا علم أن الشر لا بـد بـالـغ مـا يبتغيـه ، والخير إنما هـــو أعـاليل ، والمرء يفر ، يطلب الخير ـ ثم إن أسباب المنايا ، إنهن لبالمرصاد ، هذه مأساة الحياة

هذا والقارىء الكريم واجد بعد في الشعر أمثلة كثيرة مما سيق على منهج النسيب فالـرحلة ومما لم يسق على ذلك والشاعـر يتدرج به تدرجـا من معنى إلى معنى ـ نضرب أمثلة على ذلك مشيرين إليهـا من غير تفصيل لامية العـرب ، فإن الشاعر يـورد المعانى بها درجة بعد درجة وخطوة بعد خطوة على أن فيهـا مواضع مما تتعقد فيه عناصر الربط

من تداعي المعاني إلى المقابلة ـ غير أن الذي ذكرنا أظهر. ولامية تأبط شرا :

إن بالشعب الذي دون سلع ... لقتيلا دمه ما يطل

جيدة الترتيب. بدأ بذكر القتيل. ثم صفة ابن الأخت، يعنى نفسه الذي سيطلب الثأر. ثم وقع خبر مقتل خاله عليه. ثم صفة هذا الخال القتيل. ثم صفة العدو والقتال. ثم غضبات الثائر وإدراك الثأر وشراب الخمر

صليت مني هذيل بخرق ... لايمل الشر حتى يملوا
ينهل الصعدة حتى إذا ما ... نهلت كان لها منه عل
حلت الخمر وكانت حراما ... وبلأى ما ألمت تحل
فاسقنيها يا سواد بن عمرو ... إن جسمي بعد خالي لخل

ثم استراحة الخاتمة :

تضحك الضبع لقتلى هذيل ... وترى الذئب لها يستهل
وعتاق الطير تغدو بطانا ... تتخطاهم فما تستقل

كلتا اللاميتين ـ لامية العرب ولامية الثأر مشكوك في صحتهما، أنهما صنعهما الرواة. ولا ريب أنهما مع ذلك جيدتان. ولا يصح أن يقال إنهما صنعهما خلف الأحمر، فعلى جودة شعره، لا يبلغ جودة هاتين اللاميتين. ولئن صحت مقالة من قال بانتحالهما وهي على الأرجح صحيحة لتواترها عن لامية تأبط شرا ولأن الشك في لامية العرب منقول عن القالي وهو حجة وثقة، فينبغي أن يكون المنتحل أو المنتحلون من رواة العرب وقصاصهم أهل البلاغة والبراعة والخيال ـ ثم ينبغي أن يكون لما انتحلوه أصل من رواية صحيحة.

ومن الكلام المتصل المتدرج ميمية المخبل :

ذكر الرباب وذكرها سقم ... فصبا وليس لمن صبا حلم

ذكر الخيال والدار ومعالمها والمحبوبة إذ كانت بها وهي كالبردية ووجهها كالصحيفة النقية وهي كالدرة ـ وأخذ الشاعر في شيء من صفة الغوص والغواص

ولقد تحل بها الرباب لها ... سلف يفل عدوها فخم
بردية سبق النعيم بها ... أقرانها وغلابها عظم

ويروى «وغلا بها جسم» وهو قريب منه في المعنى إلا أن «غلا بها عظم» أجود لما فيه من الدلالة على حسن التغذية بسبب ما ذكره من أن تنعمها في الصغر جعلها تسبق أقرانها في النماء

وتـريك وجهـا كـالصحيفـة لا ظمآن مختلـــج ولا جهـــم

والتشبيه بـالصحيفة منتزع من عهد العـرب بالتجارة التي كـانت بلادهم معبرا لها، إلى ديار الفرس والروم ومصر والهند والحبشة

كعقيلـــة الـــدر استضـــاء بها محراب عـرش عـزيـزهـا العجم

وهذا من باب المعرفة بأحوال الأمم وأخبارها

أغلى بها ثمنـــا وجـــاء بها شخت العظـــام كـأنـــه سهم

وهذه الصفة غير التي ذكر المسيب حيث جعله كما قال:

فـانصـب أسقف رأســه لبـــد كسرت ربـــاعيتـــاه للصبر

هذا طويل كما ترى

بلبـــانـــه زيـت وأخـــرجهـــا من ذي غـــوارب وسطـــه اللخم

واللخم بضم اللام ضرب من دواب البحر ولعله كان يأكل الناس أو يؤذيهم ثم أعطى الـربـاب صفـة أخـرى فجعلهـا كبيضـة الـدعص وإلى صفتـه الظليم نظـر عبـد بن الحسحاس في أبياته اليائية "وما بيضة بات الظليم يحفها إلخ" قال المخبل وهي أبيات جياد:

أو بيضـة الـــدعص التي وضعت في الأرض ليس لمسهـــا حجـم

أي ملساء

سبقت قـــرائنهـــا وأدفأهـــا قـــرد الجنـــاح كـأنـــه هـــدم

أي هذه الحسناء سبقت قرائنها بالنماء وحسن الغـذاء واكتمال البهجة والرواء ـ يكرر ما قدمه حين جعلها بردية سبق النعيم بها أقـرانها ـ ويعنى أيضا أن البيضة سبقت قرائنها أنها بكر، قال الشارح والشعراء تصف ذلك وأورد بيت امرىء القيس كبكر المقاناة إلخ ـ وأحب إلي أن يكون سبقت قرائنها يعـود على الفتاة وأدفأها يعود إلى البيضة، وإلى هذا الوجه ذهب أحمد بن عبيد بن ناصح

ويضمهـــا دون الجنـــاح ودفـــه وتحفهـــن قـــــــــــوادم قتـم

لم تعتـــذر منهـــا مـــدافع ذي ضـــال ولا عقـب ولا الـــزخـم

قرد الجناح أي كثيفـه ريشه متراكم والهدم الثوب أي كأن جناحيـه ثوب. قتم أي فيهن غبرة وهو من ألوان ريش النعـام. وقوله لم تعتذر منها أي لم تقل ما تعتذر بـه عن معرفة

عهدها فما زالت آثارها باقية بمدافع ذي ضال وبذي عقب وبالزخم موضع بالزاي المعجمة المضمومة أو بالراء المهملة المفتوحة وما أشبه أن يكون اسما على مواضع إن كان بالزاي المضمومة لما في ذلك من رائحة الجمع

وذكر ريش النعام دعا إلى ذكر شعر الفتاة وهذا من باب تداعي المعاني :

وتضل مـــدراهـــا المواشط في جعـــد أغم كأنـــه كـــرم

فأفادنا هـذا الشاعر في ميميته هذه معرفة بالصحيفة والـدرة وبمحراب عرش العجم وبالكرم وهو بدوي جاهل كما يظن بعض الجهلاء فتأمل .

ثم انتقل الشاعـر إلى التسلي بالـرحلة ووصف الناقـة والطريق وجعل لـذلك نحوا من ثلاثة عشر بيتا وليس ذلك بالعدد القليل ، فمن أنكـر على طرفة إطالته فإن داليته أكثر من ضعف ميميـة المخبل في عدد أبيـاتها ، فـلا ينبغي أن ينكر عليـه أن يجيء بضعف عدد أبيات المخبل في صفة الناقة أو يزيد

ثم بعد صفة الناقة والطريق يقول المخبل :

وتقـــول عـــاذلتى وليس لها بغـــد ولا مـــا بعـــده علـم

إن الثـــراء هـــو الخلـــود وإن المرء يكـــرب يـــومـــه العـــدم

وهذه في التدرج وثبة

وكون الشاعر قـد ذكر الرباب وهي لم تعف اثارها وهو مسـافر ذو دأب يفيد أنه بسبيل جد وكسب ــ وأن عذل المرأة لـه أن ماله قليل من بعض مـادفعه إلى هـذا السفر وإذن فالرباب هي العاذلة أو ذلك رمز لها ـ

ثم يصير الشاعر إلى الحكمة وهي الدرجة العليا والغاية التي بلغتها به هذه الوثبة

إنى وجدك ما تخلدنى مائة يطير عفاؤها أدم

والمائة من الإبل مـال دثر وقد تعلم أن الـزكاة من الإبل نفسهـا تجب في خمس وعشرين فالمائة أربعة أمثال ذلك

ولئن بنيت لي المشقر في هضب تقصر دونه العصم

وكان من سادتهم من كذلك يبنون

لتنقبن عني المنيــــــة إن اللـــه ليس كحكمـــه حكم
إني وجـــدت الأمـــر أرشـــده تقـــوى الإلـــه وشره الإثم

لاعدم المال يأيتها الرباب
ومن أجل عذل الرباب وما تكلفه من الكلف التي هي على خلاف مايرى من الحكمة كان قوله
أولا:

ذكر الرباب وذكرها سقم وصبا وليس لمن صبا حلم

وتشبه هذه الميمية في مساوقتها أول الأمر لعادة الشعراء ثم وثبتها إلى أمر من الحكمة ثم ذلك قوى ارتباط المعنى والرمز بما كان استهل به لامية بشامة بن الغدير خال زهير وهي من المفضليات العاشرة، وقد مر عنها بعض الحديث ولا بأس برجعة وبعض تفصيل

هجـرت أمـامـة هجـرا طـويـلا وحملـك النأي عبئـــا ثقيـــلا
وحملـت منهـــــا على نـــأيها خيـــالا يـــوافي ونيـــلا قليـــلا
ونظـــــرة ذي شجـن وامـق إذا مـــا الــركـــائب جـاوزن ميـــلا

من هذه البداية تحس أن ههنا عاطفة ذات عقد ألوان ـ هجر ونأي ومقة وذكرى ـ شوب من كبر المغاضب وأسف المحب وشكـه في صواب مايعزم عليـه ويتكلفه من "واقع" أمر الحياة وقوله« هجرت أمامة هجـرا طويلا» يلفت، إذ المألوف أن تكون المحبوبة هي الهاجرة.
ونسيب هذه القصيدة من أرق النسيب وأدقه
وتأمل بعد كيف تـدرج من ذكر الخيال إلى ذكر لقـاء لم يكن بخيال ـ قصة مما كان من أمره وأمرها ـ ثم أعاد الخيال ذلك كما يعيده أو يسبق به

أتتنا تسائل ما بثنا فقلنا لها قد عزمنا الرحيلا

هـذا تفسير للهجر الطـويل كما ترى ــ بدأ الشـاعر من حيث انتهى علقمـة وغيره من الشعراء حيث يئسوا وقالوا دعها.

هو قد وصل مرحلة اليأس فهي التي يبدأ بها . ثم كما يفعل بعض أصحاب القصص الآن إذ يرجعون بك إلى أشياء مضت من منطلق هو الآن، رجع بنا بشامة إلى ما كان من المقدمات والأحوال التي صارت به إلى اليأس ـ أتتنا تسائل عن أمرنا ما بثنا؟ فماذا كما كان يقول الدكتور زكي مبارك رحمه الله، ولا أعلم من أهل العصر من الجيل السابق من كان يتناول الشعر بسحر بيان بعد الدكتور طه حسين كمثل سحر بيانه ـ أتتنا :

. . . . . .   فقلنا لها قد عزمنا الرحيلا
وقلت لها . . . . . .

تأمل صيرورته إلى قلت بضمير المتكلم الواحد بعد أن كان جمعا، وفي هذا من الخصوصية والمناجاة . . .

وقلت لها كنت قد تعلمين مذ ثوى الركب عنا غفولا

فهذا من أسباب اليأس كما ترى .
قال أحد الشيرازيين أحسبه سعدي الشيرازي ما معناه إنك إذا رأيت صديقك يجلس عند عدوك فاعلم أن وداده قد انتهى واهجره . . .
وما كان لها من عذر غير الدموع :

فبادرتاها بمستعجل   من الدمع ينضح خدا أسيلا

مسكين الشاعر، لايملك إلا أن يتصباه ــ يتصبى جانبا من قلبه هذا الخد الأسيل ينضحه دمع الطرف الكحيل ـ دمع اعتذار ليس بعاذرها حقا وليس بمرضيه حقا

وما كان أكثر ما نولت   من القول إلا صفاحا وقيلا
وعذرتها أن كل امرىء   معد له كل يوم شكولا

فدموعها إذن دموع عزم على وداع، وتقبل افتراق

كأن النوى لم تكن أصقبت   ولم تأت قوم أديم حلولا

أي كأننا لم نكن خليلين وكانت لنا حـال وآل وبيننا ود ووصال . قال أحمد بن عبيد بن ناصح قوم أديم أي مجتمعـون ، أمرهم ، واحد مجتمع فيهم أديم واحد ، فعـزهم الدهر. قلت أى غلبهم الدهر.

وإذن فهذه هي المأساة ، قد تبدلت به آخر ــ هي إذن الهاجرة ، ولابد له إذن من هجرها الهجر الطويل ، إذ ليس إلى غير ذلك من سبيل

فقربت للرحل عيرانة　　　عذافرة عنتريسا ذمولا

ينبغي أن تكون هكذا وأن تكثر صفات قوتها لكي يتسلى من هذه المأساة

مداخلة الخلق مضبورة　　　اذا أخذ الخافقات المقيلا

وهكذا مضى في نعت الناقة ، وصف سنامها كيف اكتنز وما كان من مرعاها وخنزوانتها إذ تسير إذ ما عودت غير الإكرام

لها قرد تامك نيه　　　تزل الولية عنه زليلا

يعنى السنام والولية شيء يجعل تحت الرحل يقى ظهر الدابة من مباشرة الخشب

تطرد أطراف عام خصيب　　　ولم يشل عبد إليها فصيلا

لم يشل لم يناد ولم يدع فصيلا ليرضع منها صونا لها

توقر شازرة طرفها　　　إذا ما ثنيت اليها الجديلا

فهذه خنزوانتها .

وما خلت صفة هـذه القلوص من كبرياء صاحبته التي أحدرت دمـوعها ثم لم تهبه إلا إعراضا ومقالا كإعراض . . .

. . . . . إلا صفاحا وقيلا

ثم وصف عينهـا ـ وفيها أيضـا من حال تلك التي بكت ثم أعـرضت لأنها عين تمتحن وتراقب كعين من يفيض قداح الميسر

بعين كعين مفيض القداح　　　إذا ما أراغ يريد الحويلا

أراغ أراد، الحويل، الاحتيال
ثم وصف الأذن والصدر ثم مرت، وصار بعد إلى الإشعار بالجد والتشمير

وحادرة كنفيها المسيح　　　تنضح أو بر شثأ عليلا

هذه أذنها يسيل منها العرق على وبرها ـ والصورة منتزعة من مبادرة الدموع التي مرت. والأوبر هنا في مقابلة الخد الأسيل، فيالذلك، كما ترى، من بديل:
وصدر لها مهيع كالخليف　　　تخال بأن عليه شليلا

زعم الأصمعي أن بشامة أخطأ. قال الشارح قال الأصمعي: قد أخطأ في هذه الصفة لأن من صفة النجائب قلة الوبر والانجراد، وإنما توصف بكثرة الوبـر الإبل السائمة ولا توصف بالوبر نجيبة عتيقة كريمة.
قلت أصاب الجاحظ إذ أخذ على اللغـويين ما أخذ. وللأصمعي من هـذه مشابه، إذ قد مر عليك مثلا ما أخذه على المرار حيث قال في صفة النخل:

كـأن فـــروعهـــا في كل ريـح　　　جـــوار بـــالـــذوائب ينتصينـــا

ولولا أن الأوائل تعقبوا أبـا سعيد للزمنا أن نتهيب مكانه، قـال الشارح قال أحمد: غير الأصمعي يقول لم يخطىء الشاعـر الوصف لأنه لم يرد الوبر وإنما أراد أن جلـد صدرها يموج من سعته، فلذلك قال شليلا، وهـو كساء أملس ولم يرد الشاعر الوبر، إنما أراد سعة الصدر ولو أراد الوبر لقال: تخال بأن عليه خميلا، فالشاعر قد أجاد والمتأول عليه أنـه أخطأ الوصف هـو أخطأ وهذا مستحب في وصف الإبل والخيل، حتى كأن عليـه شليلا أى كساء يضطرب من سعته. وقال غيره المهيع الواسع الإبط والخليف طريق في المنحنى. قال كـاتب هذه الأسطـر غيره هنا لا يعنى غير أحمد أو غير الأصمعي ولكن يرد ذلك الى قوله في أول الشرح المهيع الـواسع والخليف الطريق ـ (وانظر الشرح الكبير ص ٨٤)

وما أجود ما قال أحمد بن عبيد بن ناصح. وغير الأصمعي حيث قاله لا أحسبه ما عنى به إلا نفسه.

ثم لم يزل الشاعر يقرو بتصويره الناقة أثر ما صور به أمامة التي هجرته وهجرها هجرا طويلا كما زعم ـ وهذا الصدر المتموج كأن عليه شليلا هو صدرها إذ تنخج ببكاء الوداع الهاجر. وهذه الأماكن التي مر هو عليها ومرت ناقته عليها هي أيضا مواضع مرور الظعينة إذ كما هو هاجر هي هاجرة وكما هو مودع هي مودعة.

فمــــرت على كشب غــــدوة　　وحــــاذت بجنب أريك أصيــــلا
تــــوطأ أغلظ حــــزانــــه　　كــوطء القــوي العــزيــز الــذليــلا

وهذا التشبيه يوقف عنده.

الصفة للناقة ولأمامة أيضا. وهي العزيز وهو المسكين الذليل. ولا معنى لوصف وطء الناقة هذه الصفة إن لم يرم الشاعر الى الرمز والإيحاء وأن يضمن هذه الصفة معنى هذا الهجر الطويل والصفاح والقيل.

ثم استمر يصف سير الناقة بعد أن فصل ما فصله في صفة أعضاء منها:

إذا أقبلت قلت مــــذعــــورة　　من الــرمــد تلحق هيقــا ذمــولا

من الرمد أي من النعام ـ وهذا مع انه من صفة إقبال سير الناقة مردود من جهة تجاوب أصداء المعاني على قوله آنفا:

أتتنــا تســائل مــا بثنــا　　فقلنــا لها قــد عــزمنــا الــرحيــلا
وقلت لها كنت قــــد تعلميــــ　　ــن منذ ثــوى الــركب عنــا غفــولا

فهذا فيه معنى المذعورة الجفول

وإن أدبــرت قلت مشحــونــة　　أطــاع لها الــريح قلعــا جفــولا

فقد جاء بالجفول من صفة النعامة وهو هنا يشبه الناقة بالسفينة ـ وهكذا كان إدبار أمامة إذ أدبرت عنه وإذ أعرضت إعراضا.

وإن أعرضت راء فيها البصير مالا يكلفه أن يفيلا

أي مالا يخطىء معه أنه إعراض.

وإعراض الناقة هنا أن تريك جانبها. والبصير إذا أرته جانبها فنظر علم نجابتها،

فهذا ظاهر المعنى، وهو مردود أيضا على ما تقدم من قوله:

صفاحا وقيلا

إذا الشعر ذو خفايا وألوان ـ ثم فصل صفات النجابة وهي أيضا من شواهد الإعراض

يـــدا سرحـــا مـــائرا ضبعهـــا تســـوم وتقـــدم رجـــلا زجـــولا

أى رجـــــــلا تضرح الحصى

وعـــوجـــا تنـــاطحن تحت المطـــا وتهدي بهن مشـــاشـــا كهـــولا

العوج الأضلاع. تناطحن دخل بعضهن في بعض. مشاشا عنى بها رؤوس العظام المركبة فيها الضلوع. كهولا. من قولهم اكتهل النبات، أى رؤوس عظام فيهن قوة وارتفاع ومن تأمل هذه الصفة وجد فيها عودا على قوله:

وصـــــدر لها مهيع كـــالخليف تخال بـأن عليــــــه شليـــــلا

والتناطح فيه حركة أشبه بحركة الشليل الأملس المتموج منها بمحض التداخل إلا أن يكون في هـذا التداخل معنى التمـوج كما يدخل الموج بعضـه في بعض وكذلك حركة الضلوع في الصدر القوي الجيد.

وصفة المرأة التي ذكرها من هذا غير بعيد.

ثم استمر في صفة مشى هذه الناقة، وتشبيهاته لا تنى تحمل معاني من الرمز:

تعـــــز المطى جماع الطـــــريق إذ أدلج القـــوم ليـــلا طـــويـــلا

أى تغلب الإبل الأخـرى وتسبقهـا على الطـريق. وهنـا رجعـه الى قـولـه من قبل:

تـــــوطأ أغلظ حـــــزانـــــه كـــوطء القـــوي العـــزيـــز الـــذليـــلا

ولو نستعير ورقة من كتاب جون كيري John Carey صاحب كتاب النقد المعاصر عن الشاعر جون دون John Donne لذكرنا القارىء أن الوطء والجماع كلاهما يجيء بمعنى المباضعة. والجماع الطريق هنا أى معظمه.

كـــأن يـــــــــــديها إذا أرقلـــت وقـــد جـــرن ثم اهتـــدين السبيـــلا

أى الإبل وأشربهن معنى النساء بهذا الإضهار

يـــدا عـــائم خـــر في غمـــرة قـــد ادركـــه الموت إلا قليـــلا
تلقى حركة الهمزة على الدال .

هنا وصف جيد بارع من حيث حاق تصوير الحركة، إذ الشاعر إنما التقط حركة اليدين والرجلين وفيهما عند إسراع الناقة اضطراب، فتشبيه ذلـك بحركة العائم المجد وقد كاد يغلبه موج أو تيار فبدا من ضرب يديه ورجليه إلحاح منازعة ذات إسراع مفرط مذعور، تشبيه دقيق. على أن حـال الناقة حين تجد وتنـدفع أبعد شيء عن حال الغـريق. وما خلا الشاعـر من تضمين وصفه إيحاء بما كان قاله من قبل من معنى الفـراق على كراهة ذلك وعلى يأس من صلاح الحال، ومن معنى سيقـوله من بعد عن قومه والـذين كانوا لهم جيرانا وحلفاء من قبل والمشعر بالإيحاء قوله :

قد أدركه الموت إلا قليلا

إذ قوله «يـدا عائم خر في غمرة» واف بالصفـة المرادة، ولكن هذه الزيادة مع تـوكيدها وتقويتها لمراده من التشبيه أدل على مكنون من الإيحاء .

ثم في الغمرة شبه من معنى العبرة، وذلك حيث قال :

فبـــادرتـــاهـــا بمستعجـل من الـــدمع ينضح خـــدا أسيـــلا .

ثم من هذه الغمرة تجيء وثبة الشاعر الى معاني الحكمة التي ختم بها قصيدته والتي هي أربه وضالته التي ينشد .

ومع الوثبة شيء من تداعي المعاني وقوة دلالة الرمز.

وقد يـذكر القارىء الحكيم أن الشـاعر إنما رأى في أول القصيـدة من أمامة بعـد هجره إياها الطويل خيالا.

وحملـت منهـــــا على نـأيها خيـــالا يـــوافي ونيـــلا قليـــلا

حتى هذا الخيال لا يزوده ما يزعم الشعراء أنهم يتزودونه . قال عمرو بن قميئة

نأتـك أمـــامـــة إلا ســـؤالا وإلا خيـــالا يـــوافي خيـــالا
خيـــــال يخيل لى نيلهـــــا ولـــو قـــدرت لم تخيل خيـــالا

ولكأن بشامة تعمد الى أن يشير الى مقال ابن قميئة هذا حيث قال :

هجرت أمامة هجرا طويلا

فأمامة كما ترى هي نفس العلم الذي جاء به عمرو بن قميئة من قبل، وكان من أصحاب امرىء القيس، مشهورا من شعراء العرب.
وعند عمرو بن قميئة هي الهاجرة.
وذكر الشعراء تنويل الخيال كثير ومن أشهره قول ابن الخطيم:

ما تمنعي يقظى فقد تؤتينه　　في النوم غير مصرد محسوب

وأخذ هذا المعرى فقال:

تسىء بنا يقظى فأما إذا سرت　　رقادا فإحسان إلينا و إجمال

وقال أبو الطيب، فجعل نفسه ذا عفاف حتى مع الخيال، وكأنه ينظر الى قول اليشكري «من حبيب خفر فيه قدع» فقال:

يرد يدا عن ثوبها وهو قادر　　ويعصي الهوي في طيفها وهو راقد

والمبالغة في هذا القول. وهو بعد جيد بالغ.
وحول الخيال بشامة في تذكره النظرة حيث قال:

ونظرة ذي شجن وامق　　إذا ما الركائب جاوزن ميلا

ثم جعل الأمر قصة بعض ما كان.
ثم هاهنا رجع فجعل القصة طيف خيال كما بدأت. وعدل من الرمز وهو أمامة الى معان من المرموز له. وهذا يناسب عودته فجعله القصة أحلاما وللأحلام تأويل. هاهنا الوثبة. والذي يدلك على أنه جعل ما كان قصة ورمزا، مرة أخرى خيالا وأول ذلك الخيال قوله.

وخبرت قومي ولم ألقهم　　أجدوا على ذي شويس حلولا
فإما هلكت ولم آتهم　　فأبلغ أماثل سهم رسولا
بأن قومكم خيروا خصلتين　　كلتاهما جعلوها عدولا
خزي الحياة وحرب الصديق　　وكلا أراه طعاما وبيلا
فإن لم يكن غير إحداهما　　فسيروا الى الموت سيرا جميلا
ولا تقعدوا وبكم منة　　كفى بالحوادث للمرء غولا

وحشـــوا الحروب إذا أوقـــــدت رمـــاحـــا طـــوالا وخيـــلا فحـــولا
ومن نسـج داود مـــوضـــونـــة تـــرى للقـــواضب فيهـــا صليـــلا
فـإنكم وعطـــاء الـــرهـــان إذا جـــرت الحرب جـــلا جليـــلا
كثـــوب ابـن بيض وقـــاهـم بـــه فســـد على الســالكين السبيـــلا

وهو الجزء الختامي وذروة مقاصد الشاعر.

قوله ولم ألقهم ولم آتهم يقوى مزعمنا أن هاهنا رجعة الى الطيف، لأن القصة التى قصها من قبل يقول فيها « أتتنا تسائل ما بثنا » فهذا إن يكن طيفا، وهو كذلك، فإنه لا إتيان ولا لقاء، ولكن حلم، وقوله: « أجدوا على ذي شويس حلولا » فيه أنفاس من قوله:

فقلت لها كنت قد تعلمين منذ ثوى الركب عنا غفولا

فلم يكن لها اعتذار إلا الدموع، وقوله: « أتتنـا تسائل ما بثنا » يشبه « وخبرت قومي ولم آتهم البيت » لأنه في هذا الـذي جعله خيالا قال: « قـد عزمنا الرحيـلا » فهؤلاء الذين قـال بلسانهم " قـد عزمنـا " هم قـومه. وذو شـويس مـوضع بعينه، جبل في ديـار بني مـرة، قـال ذلك البكـري في معجم مـا استعجم وضبطـه بشين معجمـة بعـدهـا واو مفتوحه، فياء ساكنة فسين مهملة على صيغة التصغير كأنه تصغير شأس خففت همزته والشاس الخشن، وضبطـه ياقوت بفتح فكسر بوزن كـريم وظريف، ويجوز أن بعضهم كـان ينطقه هكـذا، أو أن ذلك كـان النطق على زمانـه. وفي ذكـر شـويس كنايـة عن الصلابـة والخشونة وعن الاعتصـام والمأوى معا إذ هـو جبل، ويجوز أن يكون في ذلك شيء من الإيماء الى الحصين بن الحمام من سادات بنـي مرة، لما استوثق بينـه وبين قوم بشامـة من حلف. وقـوله " فأبلغ أمـاثل سهم رسولا" كقـوله « أتتنـا تسائل مـا بثنا » ـ الشبه في إرسـال الرسول فإنـه في معنى إتيانها تسائل كما أن من معنى مـا بثنا أي شيء بثثناه إن شئت، وأي شيء حالنا. وقوله: « قد عـزمنا الرحيلا» فقد أرسل الى قومه وعزم أن يلحق بهم وذلك قوله: « فإما هلكت ولم آتهم» فما يمنعه من الإتيان إلا أن يهلك.

وقوله: « خزي الحياة وحرب الصديق» في معنى ما بث أمامة وبثته إذ قال لها كنت " عنا غفولا" فبكت ولم تصنع إليه كبير شيء فلم يجد بدا من الهجر.

وقوله: " فسيروا الى الموت سيرا جميلا"

تأويل ما تقدم من قوله: « هجرت أمامة هجرا طويلا»

وقوله: « وكل أراه طعاما وبيلا»وإن شئت وكلا بالنصب تأويل ما تقدم من قوله:

وحملـت منهـــــــــا على نـأيها خيـــالا يـــوافي وعبئـــا ثقيـــلا
ونظـــــــــرة ذي شجـن وامـق إذا مـــا الـركـــائب جـــاوزن ميـــلا

فهذا مع الحرمان طعام وبيل ، والهجر طعام وبيل ، فإن لم يكن بد من إحدي الخطتين فالهجر منه ومنها :

وما كان أكثر ما زودت من النيل إلا صفاحا وقيلا

إي إعراضا وكلاما ـ مغالطة أو نحو ذلك .
وإذن فهي الحرب . ولا بد لذلك من عدته ، رماحا طوالا ، وخيلا جيادا ودروعا وسيوفا . ومن أكمل عدته وأبدى الحزم هيب جانبه ـ ثم نصحهم أن يلزموا جانب العدل حتى لا يجر البغي عليهم وبالا ، وهذا متضمن في زعمه أن الخطتين اللتين خيروا ؛

. . . . . . كلتاهما جعلوها عدولا

أى جورا وعدولا عن الحق . فأنتم ياقوم فلا تعدلوا عن الحق فالبغي مرتعه وخيم .
هذا الروح هو نفسه الذي نجده عند ابن أخته :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفي ومهما يكتم الله يعلم

فهذا قولنا من قبل إن بشامة أستاذ زهير ، وذلك أقرب من أن نقول إن زهيرا من المدرسة الأوسية ، وإن يك أوس تزوج أمه وهو قد روى منه ، ذلك بأن أصل أخذه وتلمذته هو بشامة وعلى هذا قول الرواة
وقوله :

فإنكم وعطاء الرهان إذا جرت الحرب جلا جليلا
كثوب ابن بيض وقاهم به فسد على السالكين السبيلا

تقوية لما تقدم من معنى الاستعداد ولزوم جانب الجد والحزم مع تجنب البغي والجل كساء الجواد ، فجعل مد الحرب غبارها وشرها جلا جليلا ، فإذا حدث هذا فإن الحلف الذي عقدتموه مع الحصين بن الحمام المري والرهان الذي أعطاكموه ، قالوا رهنهم ابنه ، عدة لكم جسيمة لمكان الحصين ومكان بني مرة في غطفان ، فهذا كثوب ابن بيض الذي جعله وقاية له من شر لقمان . وضرب بشامة ذلك مثلا . وزهير كخاله مما يضرب الأمثال .
وهذا اختتام حسن .

وعينية المسيب بن علس

أرحلت من سلمى بغير متاع

انتقال الشاعر فيها من النسيب وصفة الطريق كأنه اقتضاب وإنما هو وثبة درجتها متضمنة في صفة السير الذي بدأه من عند أول النسيب إذ زعم أن سلمى من قلبه بمكان وحباله لم تنقطع، فالرحيل إذن من أجل هذا المديح.

فلأهدين مع الرياح قصيدة   منى مغلغلة إلى القعقاع

جعلها مع الرياح لركوبه وتغنيه وورود المياه بهذه المدحة العصماء

ترد المياه فلا تزال غريبة   في القوم بين تمثل وسماع

هذه مقدمة. ثم تدرج منها إلى المدح نفسه:

وإذا الملوك تدافعت أركانها	أفضلت فوق أكفهم بذراع
وإذا تهيج الريح من صرادها	ثلجا ينيخ النيب بالجعجاع
أحللت بيتك بالجميع وبعضهم	متفرق ليحل بالأوزاع
ولأنت أجود من خليج مفعم	متراكم الآذي ذي دفاع
وكأن بلق الخيل في حافاته	يرمي بهن دوالي الزراع

هذا البيت مع طربه صورة مذهلة ــ ومع ذكره الخيل خطر له ذكر الحرب، وهذا من باب تداعي المعاني

ولأنت أشجع في الأعادي كلها . من مخدر ليث معيد وقاع

ونصير بعد إلى ذكر تداعي المعاني:

ثالثا: تداعي المعاني

حق هذا كان أن نذكره قبل التسلسل وقبل التدرج إذ هو في مادة ربط أول القصيدة بما يليه إلى آخرها أصل أصيل. ويداخله الرمز والإيحاء والتدرج والتسلسل. ولكنا أخرناه عنهما لأن أمرهما كأنه أبين من أمرهَ. وإنما نصل إلى درك ما كان وراء قول الشاعر من تداعي المعاني بالحدس وبالتفكر وبالتخمين كثيرا.

وبعض التداعي عفوي الانسياب آخذ ما يسبق منه بما يلي، متجاوبة أطرافه متساوقة تساوقا واضحا جليا. على ذلك قصيدة امريء القيس "قفا نبك من ذكرى

حبيب ومنزل" ـ ما من فصل منهـا إلا هو مفض إلى ما بعـده، ودعاء المعنى أخـاه له إصبع تشير، وقـد مـر تفصيلنـا ذلك في هـذا الجزء وفي الجزء الثـالث في بـاب الجمال ومقاييسه، فأغنى ذلك عن أن نعيده هاهنا.

وفي تداعي المعاني عنـد طرفة قلق واندفاع دفعات دفعـات. وحركة القلق تنتظم قصيدته من عند أولها إلى آخرها مع نوع من شدة وعنف:

يجور بها الملاح طورا ويهتدي

كما قسم الترب المفايل باليـد

يـنـفـض المـــرد...

تناول أطراف البرير وترتدي

تخـلـل حـر الرمـل.....

لأمـضـى الهـم.....

بعوجاء مِرْ قالٍ تروح وتغتدي

نـصـــأتـــهــا...

تباري عتاقا ناجيات وأتبعت وظيفا وظيفا فوق مور معبد

جنوح دفاق..........

بعيدة وخد الرجل موارة اليد

واروع نباض..........

وجاشت إليه النفس.....

خب آل الأمعز.........

فذالت كما ذالت وليدة مجلس ترى ربها أذيال سحل ممدد

وهلم جرا..... وقد قال يصف نفسه:

خشاش كرأس الحية المتوقد

فهذا في القلق شاهد.

وعكس ذلك حـركة السأم والأنـاة التي تنتظم ميميـة زهير من عند الظعـائن إلى صحيحـات المال الطالعـات بمخـرم ورحى الحرب الثقيلـة الطحون والشيء بـالشيء يذكر.

الوقفة عند الطلل أذكرت بحدوج المالكية. ودعا ذلك ذكر الحي والفتاة التي كما قال:

وفي الحي أحوى ينفض المرد شادن		مظاهر سمطي لؤلؤ بزبرجد

فاللؤلؤ ثناياها والزبرجد لثاتها وشفتاها .

ثم ذكره الشمس أشعره حرها :ـ

وإني لأمضي الهم عند احتضاره		بعوجاء مرقال تروح وتغتدى

ونعلم أن المرقال دعا إليها ذكره الشمس لقوله من بعد :

أحلت عليها بالقطيع فأجذمت		وقد خب آل الأمعز المتوقد

وإنما خب وتوقد من توهج الشمس عليه ـ هذه الشمس التي إياتها قد سقت تلك الثنايا اللامعات العذاب .

ثم إذ ذالت الناقة وشبهها بفتاة الشرب دعا ذلك ذكر فتوته هو:

ولست بحلال التلاع مخافة		ولكن متى يسترفد القوم أرفد

وأبيات القصيدة المشهورات الغر من وصف القينة إلى

وما زال تشرابي الخمور ولذتي

إلى :

ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغى		وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

فإن كنت لا تسطيع دفع منيتي		فدعني أبادرها بما ملكت يدي

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى		وجدك لم أحفل متى قام عودي

الأبيات ـ

ثم بعد إذ أثبت على نفسه ما حقا يصح لمن يهمه أمره أن يلومه عليه قال : "يلوم ولا أدري علام يلومني" ، فقص قصته مع قرط بن معبد ومع ابن عمه مالك

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة		على المرء من وقع الحسام المهند

ثم دعت الشكوى غضبا :

أنا الرجل الضرب

وإذا بهذا الرجل الضرب يعقر عقيلة مال شيخ الحي ، أبيه أو عمه

فظل الإماء يمتللن حوارها		ويسعى علينا بالسديف المسرهد

فإن مت فانعيني بما أنا أهله		وشقى علي الجيب يابنة معبد

وكأنما أرته بصيرة فؤاده أن جرائر طيشه ستر ديه قتيلا

وختم القصيدة بشراسة المقاتل وسفاهة صاحب نار الميسر وإن كانت من مآثر الجاهلية وانتظار الموت ونعى نفسه إلى نفسه وإلى الحي من عدو وصديق :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود
ويأتيك بالأخبار من لم تبع له ... بتاتا ولم تضرب له وقت موعد

ومن تداعي المعاني الذي تحتاج في تتبعه إلى إعمال الفكر ميمية علقمة

هل ما علمت وما استودعت مكتوم ... أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم

وكثير من الاستطراد والرجعة إلى ما تقدم من قول يدخل في باب تداعي المعاني، وفي ما فصلناه من متقدم الأمثلة ما يفي ويغني عن إعادته إن شاء الله تعالى

وقد تتداعي المعاني في حيز إطار عادة الشعراء من طلل ونسيب وما هو محور من ذلك أو مقاربه .

وقد يقدم الشاعر ويؤخر مفتنا في ذلك، فيغلب ما يمليه عليه تداعي المعاني على ما هو مألوف من ترتيب الرحلة بعد النسيب والأغراض بعد الرحلة .

من أمثلة ذلك كلمة المرار:

لا حبذا أنت ياصنعاء من بلد ... ولا شعوب هوى منى ولا نقم
ولن أحب بلادا قد رأيت بها ... عنسا ولا بلدا حلت به قدم
إذا سقى الله أرضا صوب غادية ... فلا سقاهن إلا النار تضطرم

وانتقل من هذا على سبيل المقابلة وهي من عوامل الربط كما سيلي ذكره إن شاء الله إلى مدح وادي أشي بديار نجد والفتيان الذين به :

وحبذا حين تمسي الريح باردة ... وادي أشي وفتيان به هضم

ثم مضى في مدح هؤلاء الفتيان الهضم أي كل منهم هضوم للمال بكرمه وإن شئت فقل هضيم أي ضامر غير مترهل إذ فعل لكلتا الصيغتين جمع

الواسعون إذا ما جر غيرهم ... على العشيرة والكافون ما جرموا
والمطعمون إذا هبت شآمية ... وباكر الحي من صرادها صرم

أي من سحابها البارد قطع ـ ثم كرر هذا المعنى وقرره وأكده :

وشتــوة فللــوا أنيـاب لــزبتهــا   عنهم إذا كلحـت أنيـــابها الأزم

أي الأوازم أي العاضة

حتى انجلى حدها عنهم وجارهم   بنجـوة من حــذار الشر معتصم

هذا كرمهم ثم أخذ في ذكر نجدتهم وفروسيتهم

وهم إذا الخيل حـالـوا في كواثبهـا   فــوارس الخيل لا ميـل ولا قــزم

وهذا كأنه أخذه من قول سلامة :

لا مقرفين ولا سود جعابيب

وقاسه عليه .

لم ألق بعـــدهم حيـا فـأخبرهم   إلا يـــزيـــدهم حبـــا الى هم

وهذا البيت مما يستشهد به النحاة أراد يزيدونني . وعـرض هاهنا بالعودة إلى ما كان فيه من ذم أهل صنعاء ولعمري ما أنصفهم وما أنصف صنعاء ومضى في مدح أقوامه :

كم فيهم من فتـى حلـو شمائلــه   جم الــرمـــاد إذا مــا أخمد البرم

وعني بـالبرم البخيل وأصله الـذي لا يشهد الميسر وكـانت نـار الميسر مما تـوقد لمنفعـة الضعاف

تحب زوجـات أقــوام حـلائلــه   إذا الأنوف امترى مكنـونها الشبم

إي إذا كان البرد وزكامه . ونظر في هذا المعنى إلى قول متمم :

ولا بـرمـا تهدي النســاء لعـرسـه   إذا القشع من حس الشتاء تقعقعا

ثم مضى على هذا النهج

تـــرى الأرامل والهلاك تتبعـــه   يستـن منـــــه عليهم وابـل رذم

ثم وصف جفان هذا الفتى الذي جعله صورة لفتيان وادي أشي الهضم

تـرى الجفــان مـن الشيـزي مكللـة   قـــدامـــه زانها التشريف والكـــرم

ينوبها النـاس أفـواجـا إذا نهلـوا علـوا كما عـل بعـد النهلـة النعم

ثم قفز به تداعي المعـاني من تذكر الفتيان وكرمهم الى تذكـر الفتيات وفتاة بعينها منهن زاره طيفها ـ

زيارة طيفها هي التي أثـارت في نفسه بغض الاغتراب فذم صنعاء ومـا حولها وتمنى لو يعود ـ بدأ بـذكر الفتيان للموازنة بينهم وبين ما كـره من صنعاء، وكان أنسب أن يبدأ بذكر الرجال.

ثم كأن أمر الطعام والجفـان صحبه تداعي المعاني الذي جر إلى ذكـر النساء ثم إلى ذكر امرأة منهن بعينها. ثم إلى أن جـاء بما شأنه أن يكون مقدمة نسيبية في مـوضع الرحلة، لأن الطيف يزور مع الرقاد، وهو قد نزل لتعريس الفجر هنا فطرقه الخيال ـ

زارت رويقة شعثا بعـد ما هجعوا لـدى نواحـل في أرساغهـا الخدم

النواحل هي الـرواحل وقد كـدها السير. والشعث عنى بـه أشعث واحدا هـو نفسه، ولكنه جاء بالجمع ليناسب ما كان فيه من قصة فتيانه الكـرام الذين بوادي أشي. فقد صاروا الآن معه في السفر. ولا يكون هذا الفتى الكريم ذو الجفان المكللة، الذي تحب زوجات أقوام حلائله إلا إياه هو

وقمت للـزور مـرتـاعـا فأرقني فقلت أهي سرت أم عـادني حلم

هذا يبين بـه قوة طروق الطيف وحيويـة ما رأى من شخصه ـ ثم انتقل الى تصـوير من باب أوصاف الغزل، جعله في مقابلة ما كان من وصف الفتى الهمام الكريم:

وكـان عهـدي بها والمشي يبهظهـا من القـريب ومنهـا النـوم والسأم
وبـالتكـاليف تأتي بيت جـارتها تمشى الهوينـى ومـا يبـدو لها قـدم

وهـذا جمع بـه بين صفـة صـاحبـة الأعشى، وصفـة مـا ينبغـي أن تكـون عليـه المرأة المحتشمة، وهذا من جهة الوصف لخلقها وشيمتها فيه من الجمع بين المتباينين، المشي المتأنث حتى إنه ليبهظها والتحفظ الذي يسبغ الستر حتى على القدم، كما بين جمعه في الرائية:

عجب خـولـة إذ تنكـرني أم رأت خـولـة شيخـا قـد كبر

بين صفتي البادنة والهيفاء

ثم يقول، وكأنه جعله رمزا لنجد وللفتيان معا، واستمرارا في ذم صنعاء:

روبق إني وما حج الحجيج له ... وما أهل بجنبي نخلة الحرم
لم ينسني ذكركم مذ لم ألاقكم ... عيش سلوت به عنكم ولا قدم
ولم تشاركك عندي بعد غانية ... لا والذي أصبحت عندي له نعم

وهذه مناجاة رقيقة وشكوى من روح عفيف ذي صدق في المودة. ثم فيها من جهة الصنعة رد لعهده من صاحبته على مثل حال الوفاء التي ذكر في حديثه عن أصحابه الفتيان حيث قال:ـ

لم ألق بعدهم حيا فأخبرهم ... إلا يزيدهم حبا إلى هم

وصدقه في صبابته وقسمه لرويقة أنه لم تشاركه في حبه لها غانية بعد إذ نأى، دعا إلى تمنى العودة ــ فبدأ بذكر الشقراء يجعلها في مقابلة صنعاء ثم عدد مواضع بعدها مما يحب:

ياليت شعري عن جنبي مكشحة ... وحيث تبنى من الحناءة الأطم

مكشحة موضع باليمامة والأطم الواحد والجمع الآطام وأطوم وأحسبه هنا أراد الأطوم ثم أزال الإشباع وكانوا مما يفعلون ذلك، ويدلك على هذا تأنيثه الفعل: «وحيث تبنى» والأطم المفرد مذكر. وأراد التنبيه إلى آطام جنبي مكشحة من اللبن والرمل، ولكن أبنية صنعاء من الحجر. فهو يحن الى حيث «تبنى الأطم» لا من الحجر، وتلك دياره.

ياليت شعري عن جنبي مكشحة ... وحيث تبنى من الحناءة الأطم
عن الأشاءة هل حالت مخارمها ... وهل تغير من آرامها إرم
وجنة ما يذم الدهر حاضرها ... جبارها بالندى والحمل محتزم
الجبار طوال النخيل
فيها عقائل أمثال الدمى خرد ... لم يغذهن شقا عيش ولا يتم

فجعل الأشاءة في مقابلة أشي وأنث وجعل جنتها فيها عقائل حسان كما في جنان الفردوس. وهؤلاء العقائل في مقابلة ما بدأ به من ذكر الفتيان. ثم انتقل الى ذكر

أزواجهن . ثم إلى ذكر الخيل والفتوة ، وجعل نفسه قائد كبة الخيل . ولم يخل ههنا من نظر الى إبل علقمة التي

يهدي بها أكلف الخدين مختبر — من الجمال كثير اللحم عيشوم

وذلك قوله بعد أن قال فيها عقائل ، البيت المتقدم ذكره :-

ينتابهن كرام ما يذمهم — جار غريب ولا يؤذي لهم حشم

كما ذم هو صنعاء وشعوب ونقما

مخدمون ثقال في مجالسهم — وفي الرحال إذا صاحبتهم خدم

فدل على أنهم أو على أن منهم معه في الرحال - فدعاه ذلك إلى أن يتمنى مزيدا من الأوبة إلى دياره ، وكما تمنى رويقة من قبل وبين لها بقاءه على العهد ، حن هنا الى صاحب له من فتيان دياره :

بل ليت شعري متى أغدو تعارضني — جرداء سابحة أو سابح قدم

نحو الأميلح أو سمنان مبتكرا — بفتية فيهم المرار والحكم

أما المرار فالشاعر والحكم هو هذا الصاحب الذي تمناه وجعله في الرجال مقابلا لرويقة في النساء ، وقد أحسن اختيار الأسماء .

ليست عليهم إذا يغدون أردية — إلا جياد قسي النبع واللجم

وكأنه يعيب ما رأى من أردية في صنعاء

من غير عدم ولكن من تبذلهم — للصيد حين يصيح القانص اللحم

قوله «من غير عدم» احتراس كما ترى . وقد قال عبدة بن الطبيب وهو تميمي :

لما وردنا رفعنا ظل أردية — وفار باللحم للقوم المراجيل

وأخذ عبدة من قول امرىء القيس في البائية

فيفزعون إلى جرد مسومة — أفنى دوابرهن الركض والأكم

يرضخن صم الحصى في كل هاجرة — كما تطاير عن مرضاخه العجم

يغدو أمامهم في كل مربأة — طلاع أنجدة في كشحه هضم

فهذا عنى بـه نفسه وقـوله في كشحـه هضم يقوى تفسيرنـا قوله هضـم أنه جمع لهضيم الكشح، فهذا الرجل الضامر صدى من ذلك الفحل العيثوم الذي في ميمية علقمة:
والإشـارة الى مأثـور القول وتضمينـه والإيماء إليـه كل ذلك ممـا يدخل في بـاب الـربط ويكـون مع تسلسل الكـلام وتدرجـه كما يكـون مع تداعي المعـاني ـ قـول بشامـة بن الغدير: «جلا جليلا» دعا فكرة «ثوب بن بيض» وهو إشارة وضرب مثل
وقول زهير في المعلقة:

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله ... رجـال بنـوه من قـريش وجـرهم

دعا قوله من بعد:

ألا أبلغ الأحـلاف عني رسـالـة ... وذبيـان هـل أقسمتـم كل مقسـم
فـلا تكتمـن اللـه مـا في نفـوسكم ... ليخفـى ومهما يكتـم اللـه يعلـم

أي يكتم من الله سبحانه وتعالى.

رابعا، المقابلة

وقد تكـون فرعـا من تداعي المعاني، كما قـد تكون مقـدمة له، ومن المقـابلة مـا دلالته التباين، فالمباين يقابل مباينه، ومنهـا ما يدل على تشابه، فيكون من باب إلحاق الأمر بما يشبهه ويكون من هذه الجهة موازنا له.
فمن بـاب إلحاق الأمـر بما يشبهه أبيـات حصين بن ضمضم في معلقـة زهير، فانـه لما قال:
«هل أقسمتم كل مقسم فلا تكتمن الله إلخ» ألحق بهذا كتمان حصين ما عزم عليه من الخروج
وقول عنترة:

وكأنما التفتـت بجيـد جـدايـة ... رشـأ من الغـزلان حـر أرثـم
نبئت عمـرا غير شـاكـر نعمتي ... والكفـر مخبثـة لنفس المنعـم

فها هنـا تداعي معـان، إذ وجد عنـد الغانيـة التي يصف إسماحا ومنـالة فهـو لذلك شاكر. ولكن عمرا جاحد. عمرو هذا إما أبـوه وإما عمه وإما صديق، وهو هنا يذكر منه نكرانا وجحودا، ويحذر من عواقب ذلك.
وألحق بعمرو هذا حنقـه في آخر القصيدة على ابني ضمضم. والراجـح انهما كانا ذوي شر عارم، فقـد ترى ذكر زهير حصينا منهما، وقـد يكون حصين هذا نفسه هـو الذي شتم عنترة، فنكره عنترة بذكر أخيه معه، وكـأن عنترة يقول أما عمرو فبكفره نعمتي قد خبث نفسي، وأما ابنـا ضمضم حصين وأخوه فقـد قتلت أباهما وكمثل مصرعـه مخبوء لهما عندي لو يجسران فألقاهما.

المقابلة التي تساوق تداعي المعاني وينبعث منها وتنبعث منه مع الموازنة، وحذو الشيء بعد الشيء على مماثل ذي مماثلة ما لـه من قبله أو من بعده، هي أكبر ما عليه الربط والوحدة في معلقة طرفة. وقد نبهنا الى أن حركة الحدوج المهتزة اهتزازا شديدا ــ رمز انفعال الشاعر ذي الحيوية الشديدة ــ تنتظم الكلمة من عند«يجور بها الملاح طورا ويهتدي» الى«تناول أطراف البرير وترتدي» ـ ينفض المرد ــ أتلع نهاض ـ اروع نباض ـ جس الندامى ــ سامي واسط الكور رأسها وعامت بضبعيها ــ كرأس الحية المتوقد ـ كسيد الغضا ـ رجعت في صوتها ـ خب آل الأمعز

كهـاة ذات خيـف جـلالـة　　　عقيلـة شيخ كـالـوبيل يلنـدد

. . . . ذلول بأجماع الرجال ملهد . . . .

وما أشبه من تتابع الصفات ومن ضروب التقسيم

صهـابيـة العثنون مـؤجـدة القـرا　　　بعيـدة وخـد الـرجل مـوارة اليـد

هذا . . .

وعينية أبي ذؤيب صار فيها بعد الدمعة الحارة، من حيث ذكروا عن عمر رضي الله عنه قوله عنه إنه سلا إلى درجات من طلب العزاء وكل صورة فيها مقابلة وموازنة ومشابه مما قبلها.

أول شيء صورة الحمار الوحشي وآتنه وهؤلاء يصيبهن القدر بسهامه عند الورود في لحظة مأساة حاسمة:

فأبـدهن حتـوفهن فهـارب　　　بـذمـائه أو بـارك متجعجع

والصورة على جودتها تنظر الى قول علقمة:

رغا فوقهم سقب السماء فداحض　　　بشكتـه لم يستلب وسليـب

فالداحض هو هذا البارك المتجعجع

ثم صور أبو ذؤيب صراعا أشد ـ الثور والكلاب والصائد ذا الأسهم:

فبـدا لـه رب الكـلاب بكفـه　　　بيـض رهـاب ريشهـن مقـزع

فـرمى لينقـذ فـرهـا فهـوى لـه　　　سهم فـأنفـذ طـرتيـه المنـزع

فكبـا كما يكبـو فنيق تـارز　　　بـالخبت إلا أنـه هـو أبـرع

وهذه الصورة الجيدة، هي أيضا من قول علقمة: فداحض بشكته إلخ

ثم خاتمة القصيدة صراع فارسين مدججين بالسلاح ـ وهذه كما ترى درجة أعلى وأعنف

من درجات القتال. والقدر في جميع ذلك بالمرصاد. وفي الحمار والثور كما في الفارسين كليهما من الحمية والثقة وحسن البلاء

متحـــامين المجـــد كـل واثق   ببـــلائه واليـــوم يـــوم أشنع

ومن عجيب الشعر ميمية المرقش الأكبر. والمرقش جاهلي قديم.
وكأن الرواة لم يظفـروا بكل أبيات هـذه القصيدة. ولم يوفهـا الشراح حقها من الشرح.
وروى عن أبي عكرمة بعـض خبر هذه القصيدة أنها رثي بها الشاعر ابـن عمه ثعلبة بن عوف بن مالك ثم قال في شرح البيت:
ثعلب ضراب القوانس بالسيف وهادي القوم إذ أظلم
ثعلب اسم رجل ولم يرد ثعلبة. فتأمل هذا الاختلاف.
وقال الأستاذان أحمد محمد شاكر رحمه الله والأستاذ عبد السلام محمد هارون في تحقيقهما المختصر من تحقيق المستشرق ليـال لشرح ابن الانبـاري الكبير وهي من نـادر الشعـر الذي بـدىء فيه الـرثاء بالغـزل. قلت ومن تأمل القصيدة وجـد أنها فيها الـرثاء وغير الرثـاء، وليست هي حقا بمـرثية وإنما الذي ذكـر في البدء خبر من خبرهـا. وقد رأيت اضطراب الشـارح في ثعلبة وثعلـب ولولا رواية رواهـا ما وقـع هذا الاضطـراب إذ أمر الترخيم أول ما يتبادر إليك في مثل هذا الموضع. وقال في شرح البيت:

إن يغضبــوا يغضـب لـذاك كما   ينسل مـن خـــرشـــائه الأرقم

الخرشاء جلـد الحية والأرقم الحية قـال أبو جعفر. يغضب يعني الـرئيس الممدوح غيره قشر كل شيء خرشاؤه. قال وكل منتفخ أجوف فيه خروق فهو خرشاء.
قلت فعلى هذا التفسير الثاني: كما ينسل من خرشائه الأرقم أي كما ينسل الأرقم - والمراد بالتشبيه غير واضح إلا أن يقال هو كالأرقم عنده السم والنكاية إذا غضب فسار ولكن سورة الحية وانسلاله ليس أمرا واحدا.
وقال الأستاذ أحمد محمد شاكر رحمه الله والأستاذ عبدالسلام محمد هارون يغضب يعني الممدوح. وهذا كما ترى مخالف لما تقدم من أن القصيدة مرثية.
ومن تأمل سياق أبيات القصيدة الى قوله:

والـــوالـــدات يستفـــدن غنى   ثـم على المقـــــدار مـن يعقـم

وهو البيت السابع عشر، وجد أن الكلام محكم الترابط، وإن تلك الأبيات الستة الأوائل نسيبا، والثلاثة التاليات رثاء، وسائر ما بقي حكمة وعزاء.
وقف الشاعر بمكان قفر. دار كانت دار أحياء فأقفرت منهم.

هل بـــالـــديـــار أن تجيب صمم   لــو كـــان رسم نـــاطقـــا كلم
الـــدار قفـــر والـــرســـوم كما   رقش في ظهـــــر الأديـم قلـم
ديـــــــار أسماء التـي تبلـت   قلبـي فعيني مـــاؤهـــا يسجـم
أضحـت خـــلاء نبتهـــا ثئـــد   نـــور فيهـــا زهـــوه واعتـم

ثئد أى ند وهذا أدل على خلائه إذ لوكان به أهل ونعم وشاء لكان قد بدا ذلك فيه .
صورة النبات والزهر هنا خبر عن أمر واقع، لا وقفة مع سحر الطبيعة . إلا أن الطبيعة أبت إلا أن تفرض على الشاعر الإحساس بجمالها

نور فيها زهوه واعتم

وفطن أبوتمام، وكـان على الشعر مطلعا وبه خبيرا، أن هـاهنا تأملة للجمال فقـال بيته الجيد :

حتى تعمم صلع هـامـات الربـا   من نـــوره وتـأزر الأهضـــام

ثم انتقل المرقش الى التذكر، فتذكر الحبيبة والظعائن اللاتى كن معها وحزن لذلك :

بل هـل شجتك الظعـن بـــاكـــرة   كـــأنهن النخـــل مـــن ملهـــم
النشر مسك والـــوجـــوه دنـــا   نير وأطـــــراف الأكـف عنـم

وصدق ابن المعتز ان البـديع لم يبدأ ببشار ومسلم . ولو أصاب صاحب المقـامات هذا البيت لعده مغنما .
قوله هل شجتك، هو المشعر بالحزن
قد كرره في قوله :

لم يشج قلبي ملحوادث إلا صاحبي المتروك في تغلم

أي كأن قال شجتنى ذكـرى الحبيبة والظعائن عند هـذا المكان المعتم بالنـوار المقفر من الأحباب .
لا بل شجتنى ذكـرى أمض وأوجع ـ صـاحبي المتروك في تغلم قتيلا، ولعلـه إنما وقف بتغلم .
وأتبع ذكر ثعلب بيتا واحدا ينعته به كما من قبل أتبع ذكر الظعائن بيتا واحدا ينعتها به :

ثعلب ضراب القوانس بالسيف وهادى القوم اذ أظلم

فمكـان النشر، لأن الغـانيـات إنما هن تـراء وعبير، اسم ثعلب علم واضح يـدل على شخص رجل شهم واضح . ومكان "أطـراف الأكف عنم» قولـه : "ضراب القوانس بالسيف . " وجعل مكان "الوجوه دنانير" باشراقها وحسنها : "هادى القوم إذ أظلم"

اذ الهداية نور. فهنا مقابلة وموازنة كما ترى.

ثم كرر معنى الحزن:

فاذهب فدى لك ابن عمك لا يخلد الا شابة وأدم

قالوا هما جبلان. ثم اخذ في باب من الحكمة والتعزى:

لـــو كـــان حى نـــاجيـــا لنجـــا	مـن يـــــومــــه المزلم الأعصـم
في بـــاذخـــات مـن عمايـــة أو	يــــــرفعــــــه دون السماء خيـم

خيم اسم جبل بعينه

من دونـــه بيض الأنـــوق وفـــو قـــه طـــويل المنكبين أشـم

الأنوق الرخمة قالوا لا تبيض الا في أبعد ما تقـدر عليه من الأمكنة - أي هذا الجبل بعيد العلو. وانما ضرب المزلم الأعصم وهو الوعل الذي مسكنه في الجبل البعيد مثلا لصاحبه المتروك في تغلم، أنه كان مثل ذلك الوعل في الامتناع ومأمولا له طول البقاء

يرقاه حيث شاء منه واما تنسه منية يهرم

أي إن أنسأته المنايا فلم تعـاجله، عمر العمر الطويل، ولكنها مما تعـاجله أحيانا كما عاجلت هذا الصاحب المتروك قتيلا في ذلك المكان الموحش.

فغاله ريب الحوادث حتى زل عن أرياده فحطم

أى حتى زل عن ارياد الجبل فتحطم

ثم ختم التعزى بقوله:

ليس على طول الحياة ندم

هذامتصل بقوله: «واما تنسـه منية يهرم» فقصارى طول العيش الهرم، وإذن فلا ينبغى أن يندم المرء على فوت طول الحياة - إذ وراء المرء هذا الضعف الذى مع طول العمر ثم الموت.

ليس على طـــول الحيـــاة نـــدم	ومـن وراء المرء مـــــــا يعلـم
يهلـك والـــــد ويخلـف مــــو	لـــــــود وكـل ذي أب ييتـم
والـــوالـــدات يستفـــدن غنى	ثـم على المقـــــدار مـن يعقـم

أى يجدن ما يسد حـاجتهن الى الولد إذ يلدن، هذا غنـاهن، إذ ليس يلزم أن يكون مع الولد غنى المال، ويصحح ما نذهب إليه رواية من روى يستفدن غناء بفتح الغين، ثم من النساء من لا يلدن، بقدر مما قضى عليهن

بعد هذا يأخذ الشاعر في قرى آخر. ولو كان قوله:

مـــا ذنبنـــا في أن غـــزا ملك   من آل جفنــة حــازم مــرغم

من قصيدة أخرى، لصح القول بأن الأبيات السبعة عشر الأولى قصيدة رثاء. وهل يصح أن يقال هما قصيدتان منفصلتان ضمهما الرواة معا لمجرد تشابه الروي والوزن؟
ولقد قطع ابن قتيبة بأن هذه الميمية ليست بأهل أن تختار. واختيار الأشياخ قبل زمانه لها عمن اختاروها من أشياخهم يدفع ما ذهب إليه كل مدفع.
وآخر القصيدة فيه أنفاس الحزن والتفكر والحكمة كأولها وذلك قوله:

لسنـــا كـأقـــوام مطــــاعمهم   كسب الخنـــا ونهكـــة المحـــرم

مع كون هذا فخرا فإنه مداخلته أنفاس حزينة تتأسف على كسب الخنا هذا وتتأسف على نهكة المحرم

إن يخصبـــوا يعيـــوا بخصبهم   أو يجدبـــوا فهـم بـــــه ألأم

وهاهنا مرارة وهجاء. ولا ريب أنه عنى بني تغلب. والمشعر لنا بالحزن أن هاهنا خطيئة وندما

عـــام تـــرى الطير دواخل في   بيـــوت قـــوم معهـم تـــرتم

هل أكلوا الرمم أو أكلوا من لحم ميت؟

ويخرج الدخان من خلل الستر كلون الكودن الأصحم

الكودن رديء من الخيل فجعل الدخان يتسرب بطيئا كمشية هذا الكودن الذي ليس بعربي

حتى إذا ما الأرض زينها النبت وجن روضها وأكم

فهذه هي الصورة التي وصفها حين وجد الديار خلت من أهلها مع عموم الخضرة والنوار لها ـ فهذا الجزء من القصيدة مرتبط بالذي تقدم.

ذاقوا ندامة فلو أكلوا الخطبان لم يوجد له علقم

فهم قد بغوا فأوحشت الديار وذهبت النعمة وقتل الفتيان وجاءت الثارات مكان عيش الائتلاف. والراجح أنه يشير هنا الى ماكان من إسراف المهلهل وتجاوزه مقدار ما يوجبه القصاص

لكنـنـــا قـــوم أهـــاب بنـــا   في قـــومنـــا عفـــافـــة وكـــرم
أمـــوالنـــا نقـى النفـــوس بها   من كـل مـــا يـــدني إليـــه الـــذم

هذا في الفداء. ولكنا نقاتل إذا لزم الحفاظ. ولكن الشاعر يتذكر عهد القتال هنا بمثل

تذكره للظعائن ولصاحبه المتروك في تغلم

لا يبعد الله التلبب والغارات إذ قال الخميس نعم

والخميس هنا جيش الملك الممدوح

والعـــــدو بين المجلسين إذا ولى العشى وتنـــادى العم

قولـه بين المجلسين أي بين مجلس ومجلس وذلك في المشاهـد العامـة وعنـد حلـول الأضياف في أمر جامع والشباب هم الذين يخدمون ويعدون بين المجلسين ـ

يأتي الشبـاب الأقـورين ولا تغبط أخـاك أن يقـال حكم

أي تحل الـدواهي ، دواهي الشيب والضعف بين الشبـاب ومن قيل لـه كن حكما فإنما يقال لـه ذلك بعد ذهـاب شبابـه ، فلا تغبط أخـاك أن يصير حكما فقد فقـد الشباب الذي هو أغلى وأجل قدرا .

هل صار المرقش حكما وهل يبكي شبابه هنا ـ

هذا أدنى ما يستفاد من قوله :

لا يبعـــد اللـــه التلبب والــــ ــــغارات إذ قـــال الخميس نعـم
والعـــــــدو بين المجلسين إذا ولى العشـى وتنـــــادى العـم
يـأتي الشبــــاب الأقــــوريـن ولا تغبـط أخــــاك أن يقــــال حكـم

وبقيت الأبيات من قوله :

مــا ذنبنـا في أن غــزا ملك من آل جفنـة حـازم مـرغم

الى قـولـه : لسنـا كـأقــوام مطاعمهم كسب الخنـا ونهكـة المحـرم

ولا أشك أنه ههنا يشير الى ما اشار إليـه الحارث من بعد ـ [إذ قصة الحارث وعمرو بن هند وعمرو بن كلثـوم كل ذلك كان بعد زمان المرقش وإن كـانت بعض قصص الرواة وأخبارهم تكاد تجعل من هؤلاء أبطالا ابديين لما تداخلهم من عناصر الأساطير] حيث قال :

كتكاليف قومنا إذ غزا المنذر هل نحن لابن هند رعاء

ما أصابوا من تغلبي فمطلول عليه إذا أصيب العفاء

فهذا يكذب الجاحظ أن الحارث لم ينتصف من تغلب أم قال لم يكد :

إذ أحل العلياء قبة ميسون فأدنى ديارها العوصاء

تأمل كيف جاء بعنصر مما يقع في النسيب ههنا وذلك قوله فأدنى ديارها العوصاء ـ وما يخلو قوله العوصاء من كنين معنى

فتأوت لــــه قـــــراضبـــة من كـل حـي كـأنهم ألقــــــــاء
كأنهم عقبان

فهـدا هم بـالأسـودين وأمـر الــ ــله بلـغ تشقى بـه الأشقيـاء

فقوله «فتأوت له قراضبة» هو عينه قول المرقش حيث قال :

«حارب واستعوى قراضبة»

وهـذا الغـازي من ملـوك جفنـة فعل الأفـاعيل فلـم يكن من تغلب للملوك الحيرة من نصر، ولكن نصرتهم بنـو يشكـر وبنـو بكـر رهط المرقش ورهط الحارث ــ وانظـر بعـد الأبيات وشرح الشراح لكلامي الشاعرين . قال المرقش : ـ

مـــا ذنبنـــا في أن غـــزا ملـك من آل جفنـــة حــازم مـــرغم
مقـــابل بين العـــواتك والغلـــ ـــف لا نكس ولا تـــوءم

العـواتك من الأزد والغلف من كنـدة قـالوا عنـي غلفاء وسلمـة عمي امـرىء القيس فالغلف بتشديـد اللام وفتحها من ولداه والعواتك جمع عاتكـة من أسماء النساء اللاتي ولدنه وبنو جفنة فرع من الأزد

حـارب واستعـوى قـراضبـة ليـس لهم ممـــا يحاز نعـم
فيحوزون ما ينهبون

بيض مصـــاليت وجـــوههم ليست ميـــاه بحـــارهـم بعمم

أي هذه صفتهم بيض منجردون كـالصقور وجوههم حديـدة صلته غير أنهم سباريت مجدبون ليست لهم بحار ذوات مياه تعم كملوك الحيرة وما يجندون من جنود، فمظهرهم انصلات ومخبرهم جـوع وشراسـة وشر وشره ــ وروى بعضهم بغمم بـالغين المعجمـة وضمتين أو ضم وفتح فمن روى بالمعجمة وضمة وفتحـة فهو جمع غمة وهو من الكثرة وهـــو في معنى من روى بـــالمهملـــة وضمتين قـــال الشـــارح ومن رواه بـــالعين فقـــد هجاهم . يعني بالعين المهملة .

ومن روى بالمعجمـة وضمتين فهو جمع غميم قال الشارح "يقـال ماء غميم إذا لم يكن ظاهرا" . ا . هــ وهذا ينبغي أن يكـون مدحـا ولا يعقل أن يمـدح الشاعـر القضاربـة السباريت أن وجوههم مشرقة إلا على وجه بعيد أن يكون أراد التأكيد والمبالغة في معنى انصلاتهم وشجاعتهم وتوقد قلوبهم ووجوههم للحرب كقول الهذلي في تأبط شرا :

وإذا نظـــرت إلى أسرة وجهــــه بــــرقت كبرق العـــارض المتهلل

ويجوز أن يكون عنى به على هذا الوجه مدح ملك الحيرة ومن معه .

وأقرب إلى الصواب رواية العين المهملة وأن ذلك هجاء ، ثم أتبعه صفة ملك الحيرة ، أن

هؤلاء جاءوا بيضا مصاليت أهل شر، عقبان نهب وقتال، فانقض عليهم ملك الحيرة ومعه جيشه الكثيف وناصروه من رهط المرقش

فانقض مثل الصقر يقدمه جيش كغلان الشريف لهم

أي ضخم كثير

إن يغضبوا يغضب لذاك كما ينسل من خرشائه الأرقم

ويجوز أن يكون هذا في وصف ملك جفنة الغازي ومعه جيش قراضيبه الذين هداهم بالأسودين أي التمر والماء ليكونوا أحرص على الحرب والنهب وقيل في الأسودين غير هذا.

وعلى الوجهين فالقصيدة خطاب مديح للملك ضمنه الشاعر أسى على ذهاب الشباب وتذكرا لابن عمه القتيل وللثارات والإحنة بين قومه وقوم المهلهل. وألحق الحكمة بمعنى الحزن والتأمل في ما صارت إليه حال ابني وائل بعد أن بغى بعضهم على بعض. وكأن قد وقف بالذي قاله عند الملك موقف الحكم، فهذا قوله:

يأتي الشباب الأقورين ولا تغبط أخاك أن يقال حكم

والأقورين ملحق بجمع المذكر السالم أي الدواهي

وتأمله في ميمية المرقش هذه ترينا أن جوهر موضوعها يدور حول خصومات حرب البسوس وما كانت تلجىء إليه ملابساتها من التهادن والاحتكام والغدر والتربص وما إلى ذلك من حين إلى حين

ومما يشعر بمعنى الأسى والأسف على فوت الشباب قوله:

لا يبعد الله التلبب والغارات إذ قال الخميس نعم

نعم أي إبل نغير عليها ونسوقها

والعدو بين المجلسين إذا ولى العشى وتنادى العم

وقد نظر زهير بن أبي سلمى في معلقته:

أمن أم أوفي دمنة لم تكلم

وقد قابل بين صفة الظعائن التي في أول القصيدة، وبين ذكره الحرب الذي جاء به بعد قسمه. وقد أضمر ذكر الرحلة إذ وقوفه حيث وقف دلنا على أنه مرتحل. وهو المذهب، يدلك مثلا قول عنترة.

فـــوقفت فيهـــا نـــاقتي وكأنها فـــدن لأقضى حـــاجـة المتلـــوم

ثم قسمه بالبيت يـدل على أن رحلته كانت إلى البيت، وكانت عهـود الصلح وما أشبه تعقد عند الموسم.

وقوله:

فلما وردن الماء زرقـــا جمامـــــه وضعـــن عصي الحاضر المتخيـــم

وهذا مشعر بالأمن والرفه، يوازنه ويناسبه ما قاله من بعد:

وقـد قلتما إن ندرك السلم واسعـا بمال ومعـــروف من القـــول نسلم

وقوله:

رعـوا ظمـأهم حتى إذا تم أوردوا غمارا تفـرى بـالســلاح وبـالـدم

فهذه غير قوله: «وردن الماء زرقا جمامه»

فقضـوا منـايـا بينهم ثم أصـدروا إلى كـــلأ مستـــوبل متـــوخم

وقد جمع زهير في طريقة ربطه بين ضروب من التـدرج وتداعي المعاني والمقابلات وغير ذلك، لقـوته في منهج القـريض وافتنـانه ومن نظـره إلى المرقش، تفكره في أمـر المنـايا ـ قال المرقش

يرقاه حيث شاء منه وإما تنسه منية يهرم

فهذا قول زهير من بعد

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطيء يعمر فيهرم

وفي زهير أسف كنين على هؤلاء الذين أصيبـوا في تلك الحروب. وهو ممن أنسأته الأيام فهرم وسئم ووقف مـوقف من يقال له حكم ويغبط ولو فطـن الفاطن لوجب ألا يغبط:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أبا لك يسأم

وحذا زهير أمـر حصين على غزوة الملك الذي غـزا في ميمية المرقش وذلك حيث قال:

لعمري لنعم الحي جر عليهم بما لا يواتيهم حصين بن ضمضم

ولم يستغو حصين أحدا ولكنه قال أن سيفعل ذلك:

فشد ولم يفزع بيوتا كثيرة لدي حيث ألقت رحلها أم قشعم

وقال: سأقضي حاجتي ثم أتقي عدوي بألف من ورائي ملجم

وقوله «أم قشعم» فيه معنى الصقر، لأن القشعم من نعوت النسور وهو في ميمية

عنترة .

وقد تعلم قول المرقش

فانقض مثل الصقر يقدمه ... جيش كغلان الشريف لهم

لهم بكسر اللام وفتح الهاء وميم مشددة أي يلتهم ما أمامه من كثافته .

هذا ومن عجيب أمثلة المقابلة آخر لامية عبدة بن الطبيب التي في المفضليات (السادسة والعشرون) فقد نسب ووصف السير وافتن في صفة قتال الثور والكلاب .

ولي وصرعن في حيث التبسن به ... مضرجات بأجراح ومقتول

كأنه بعدما جد النجاء به ... سيف جلا متنه الأصناع مصقول

مستقبل الريح يهفو وهو مبترك ... لسانه عن شمال الشدق معدول

ثم انتقل إلى شريح من صفة القنيص وفتوة زمان الجاهلية وصفة السير إلى القادسية أما صفة القنيص فقوله :

لما وردنا رفعنا ظل أردية ... وفار باللحم للقوم المراجيل

ثمت قمنا إلى جرد مسومة ... أعرافهن لأيدينا مناديل

فهذا كقول امريء القيس :

نمش بأعراف الجياد أكفنا ... إذ نحن قمنا من شواء مضهب

مضهب أي مشوي على عجل لم ينضج كل النضج وفي بائية امريء القيس صفة الاستظلال حيث طنبوا لثيابهم وجعلوا الدروع الماذية أوتادا .

وفي صفة السير إلى القادسية ذكره المراجيل ، فهذه كثيرة ، أكثر مما يكون مع أهل القنيص . وصفة اللحم حيث قال :

وردا وأشقر لم ينهئه طابخه ... ما غير الغلي منه فهو مأكول

فهذا ليس بشواء مضهب ولكن لحم في قدور كثيرة . والاكتفاء بتغيير الغلي اللحم يدل على صناعة مع إغذاذ في السير لا يمكن مثله من أناه تجويد إنهاء الطهاة طهيهم . وفي خبر القادسية فيما ذكره الطبري أن جند سعد رضي الله عنه كانت أزوادهم من الحبوب وافرة ولكنهم قرموا إلى اللحم فاستاقوا من ماشية السواد . فهذا يناسب صفة الطبخ الذي لم ينهنه طابخه والمراجيل كما ههنا .

وقوله :

ومنهل آجن في جمه بعر ... مما تسوق إليه الريح مجلول
كأنه في دلاء القوم إذ نهزوا ... حم على ودك في القدر مجمول

أي مذاب. فهذا من نعوت الفتوة وليس من نعت السير إلى القادسية إذ لا ينبيء عن تمام الاستعداد للحرب، وإنما جازف خالد حيث اجتاز بادية الشأم ففاجأ الروم على غير توقع منهم لمقدمه. وسيذكر عبدة في صفة سير الجيش أنهم كان معهم الماء وذلك قوله:

ثم ارتحلنا . . . . .

وقوله ثم منبيء عن تراخي الزمان، أي هذا غير ذلك الارتحال إلى الماء الآجن الذي في جمه بعر:

ثم ارتحلنا على عيس مخدمة ... يزجي رواكعها مرن وتنعيل
يدلحن بالماء في وفر مخربة ... منها حقائب ركبان ومعدول

فهذه صفة جمع كبير

نرجو فواضل رب سيبه حسن ... وكل خير لديه فهو مقبول
رب حبانا بأموال مخولة ... وكل شيء حباه الله تخويل
والمرء ساع لأمر ليس يدركه ... والعيش شح وإشفاق وتأميل

وحق هذا أن يكون خاتمة، إلا أن في كلام الشاعر بقية، وقد أشعر بذلك عند البداية حيث قال

هل حبل خولة بعد الهجر موصول ... أم أنت عنها بعيد الدار مشغول
حلت خويلة في دار مجاورة ... أهل المدائن فيها الديك والفيل
يقارعون رؤوس العجم ضاحية ... منهم فوارس لا عزل ولا ميل

فهؤلاء جند سعد وجيش عمر رضي الله عنهما

ومقدمة القصيدة فيها خلط بين ذلك وبين شيء من سابق أمر عبدة فيه فتك وجاهلية. وكأن خولة كما هي حبيبة هي أيضا رمز عن جميع ما تولى من الشباب وجنونه وبقلبه إلى بعض ذلك حنين وهذا من ازدواجية دلالة الرمز شبيه بسعاد كعب. سعاد كعب رمز لضلال اتباع قريش، فيها فجع وولع ـ وكأن المطلع «بانت سعاد»

ينظر إلى مطلع النابغة وصاحبته «إحدى بلى» التي أرادت غوايته وهو حاج، ورمز أيضا للنجاة بالوفود إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ونيل عفوه ورضاه وكأن المطلع "بانت سعاد" ينظر إلى مطلع ربيعة بن مقروم «بانت سعاد فأمسى القلب معمودا» وهذه القصيدة كالمجاراة لكعب في الوزن. والروي:

فخامر القلب من ترجيع ذكرتها ... رس لطيف ورهن منك مكبول
رس كرس أخي الحمى إذا غبرت ... يوما تأوبه منها عقابيل
وللأحبة أيام تذكرها ... وللنوى قبل يوم البين تأويل

هذا قريب في المعنى من مقال بشامة

أتتنا تسائل ما بثنا ... فقلنا لها قد عزمنا الرحيلا
وقلنا لها كنت قد تعلميـ ... ـن منذ ثوى الركب عنا غفولا

الأبيات..... ثم يقول عبدة:-

إن التي ضربت بيتا مهاجرة ... بكوفة الجند غالت ودها غول

فخويلة بالمدائن يقارع قومها العجم وخولة بكوفة الجند. فهل خويلة كناية عن الشاعر نفسه على مذهب عمرو بن قميئة حيث قال:

قد سألتني بنت عمرو عن الـ ... أرض التي تنكر أعلامها

وأراد نفسه بقوله بنت عمرو كما سبق ذكر ذلك؟

وخولة التي بكوفة الجند كل ما كان من شباب وعرام وهوى...

فعد عنها ولا تشغلك عن عمل ... إن الصبابة بعد الشيب تضليل

وصدق، لو يصح عزم امرىء على ذلك

ثم مضى ما شاء في صفة جد السير وضروب استطراد الوصف المتفرع عنه - ثم صرنا إلى حيث قال:

والمرء ساع لأمر ليس يدركه ... والعيش شح وإشفاق وتأميل

فزعمنا أنه خاتمة لولا ما يشوش عليه من ظلال المقدمة - زعم الفيروز آبادي أن شوش وتشوش لحن ولحن الجوهري حيث ذكر ذلك في مادة "شيش" وفي اللسان ما يفيد أن أصل هذا القول من الأزهري، والإجماع منعقد على صحة ما نقله الجوهري وفوق كل ذي علم عليم -

من أجل تشويش المقدمة والرس الذي كرس أخي الحمى :

. . . . . . إذا غبرت يوما تأوبه منها عقابيل

عاد الشاعر إلى ذكر بعض ما كان على عهد السفه والشباب ـ وناسب قوله تأوبه أن يقول كما قال :

وقد غدوت وقرن الشمس منفتق ودونه من سواد الليل تجليل
الى التجار فأعداني بلذته رخو الإزار كصدر السيف مشمول

ثم وصف مجلس الخمر ـ وقد حال دون ذلك الإسلام والتحريم وعمر بن الخطاب ـ إلا أن يكون أصاب بعض اللمم فأسنده الى زمان مضى ، وذلك ما يتبادر الى الوهم من قوله

حتى اتكأنا على فرش يزينها من جيد الرقم أزواج تهاويل
فيها الدجاج وفيها الأسد مخدرة من كل شيء يرى فيها تماثيل
في كعبة شادها بان وزينها فيها ذبال يضيء الليل مفتول
لنا أصيص كجذم الحوض هدمه وطء العراك لديه الزق مغلول
والكوب أزهر معصوب بقلته فوق السياع من الريحان إكليل

وهذا من صفة علقمة بن عبدة التي في آخر ميميته (١) .

مبرد بمزاج الماء بينهما حب كجوز حمار الوحش مبزول
والكوب ملآن طاف فوقه زبد وطابق الكبش في السفود مخلول

وما زادت لذاذات ترف العصر على هذا ـ أعنى عصرنا هذا الذي يوسم باسم حضارة أوروبا .

يسعى به منصف عجلان منتطق فوق الخوان وفي الصاع التوابيل
ثم اصطبحت كميتا قرقفا أنفا من طيب الراح واللذات تعليل
صرفا مزاجا وأحيانا يعللنا شعر كمذهبة السمان محمول
تذرى حواشيه جيداء آنسة في صوتها لسماع الشرب ترتيل
تغدو علينا تلهينا ونصفدها تلقى البرود عليها والسرابيل

ونبئت أنهم لا يزالون يصنعون كهذا الصنيع ببلاد المكسيك ، فذلك يكون من عقابيل

---

(١) علقمة بن عبدة بفتح الباء وعبَدة بن الطبيب بسكونها

رس الجاهلية مما حمله العرب الى الأندلس ولا يخفى أن الشاعر عند قوله :

تغـدو علينـا تلهينـا ونصفـدهـا　　　تلقـى البرود عليهـا والسرابيـل

قد وفي الكلام حقه وهذه خاتمة حق خاتمة .

وقولنـا إن الظن أن الشاعر أصاب لما ممـا يوقعه ذكـره الفرش وذكره الدجـاج وقد سبق قوله :

أهل المدائن فيها الديك والفيل

غير أن هذه أشياء من نعمة الحواضر، ولا سيما حواضر العجم ، كان يتلذذ بذكرها أهل الجاهلية ويزعمون أنهم شربوا من خمر العجم والروم الغالية .

وهل ألحق عبدة هـذه الابيات بلاميتـه وكان قـالها في الجاهلية؟ عسى ذلك . غير أنني أميل الى ما قدمت ذكره أن القصيدة اللامية هذه كل واحد وأن هذه الخاتمة أوجبها عليه أول كلامه .

ومن المقابلة ما يخالطه نوع من المفاجأة . هذه المفاجأة بما تدخله من تحول من المباين الى ما يبـاينه تكـون هي في ذاتها علاقـة ربط قوي . ومـن أقوى أمثلة هـذا الضرب صنيع الشنفرى في التائية ، وذلك حيث وصف المرأة ذات الحياء .

كـأن لها في الأرض نسيـا تقصـه　　　على أمهـا وإن تكلمـك تبلـت

ثم بعد أبياتـه الروائع المفعمات بالعاطفـة ، وقد فصلنا عنها حـديثا في الجزء الثالـث من هذا الكتاب ، قال :

فـدقت وجلـت واسبكـرت وأكملت　　　فلـو جن إنسـان من الحسـن جنت

فبتنـا كأن البيـت حجـر فـوقنـا　　　بـريحانـة ريحت عشـاء وطلت

بـريحانـة من بطن حليـة نـورت　　　لها أرج مـا حـولها غير مسنت

المسنت المجدب ، والأرج المسنت لا يكون إلا أرج الرمم مما يقتله الجوع والعطش وتحلق فوقه الطير.

بعد هذا

وبـا ضعـة خمر القسي بعثتهـا　　　ومـن يغـز يغنم مـرة ويشمت

ثم وصف الغزوة ومشيه إليها

خرجنا من الوادي الذي بين مشعل وبين الجبا هيهات أنشأت سربتى
أمشى على أين الغزاة وبعدها يقربنى منها رواحي وغدوتى
أمشى على الأرض التي لن تضرني لأنكى قوما أو أصادف حمتى

كل هذا شتان ما بينه وبين الريحان وأرج الحبيبة الذي حجر به البيت.

هذا الانتقال المفاجىء شبيه بما سماه أرسطو طاليس في حديثه عن المأساة في شعر اليونان بالتحول Peri peteia . ولا ريب أن الشنفرى تحول وحولنا معه من حال نعمة ولذة الى حال شدة شرسة. وقد صنع هذا لا متشتت الفكر، منساقا مع نظم الأبيات المفردة كما يظن من لا يتعمق فهم الشعر العربي ولا يتذوقه، ولكن متعمدا إلحاق أمر بأمر، وربط لاحق بسابق، وإحداث عنصر من الموازنة والمقابلةبين متباينين جمعتهما تجربته وبيانه وكوصفه للفتاة ذات الخفر وتبلت إن تكلمك وصف أم العيال، وهي صاحبة تأبط شرا، فخلع عليه من صفات الفتوة، ما جعله بإزاء ما ذكره وفصله من صفات الفتاة وفضائل أنثاها.

أم العيال: إذا أطعمتهم أوْتحت وأقلت
وأميمة: [وازن بين أم العيال مكبرا وأميمة مصغرا]

تبيت بعيد النوم تهدى غبوقها لجارتها إذا الهدية قلت

قال «قلت» عن أمية «وأقلت »عن أم العيال ـ في «أقلت » هذه الثانية صدى ومجاوبة لقلت تلك الأولى المنبئة عن الجود حتى عندما تقل الهدية.

أم العيال: مصعلكة لا يقصر الستر دونها
وأميمة: لا سقوطا قناعها
أم العيال: تجول كعير العانة المتلفت
أميمة: ولا بذات تلفت
أم العيال: ولا ترتجى للبيت إن لم تبيت
أى من البيات وهو الغزو ليلا
أميمة: تبيت بعيد النوم. . . .

تحل بمنجاة من اللوم بيتها. . .)
إذا هو أمسى (أي بعلها) آب قرة عينه

أى آب مآبا سعيدا أو الى قرة عينه فنزع الخافض
وقد جمع بين التجربتين معا في خاتمة القصيدة عند حديثه عن نفسه ــ حديث سلوى عن نعمة العيش التي زلت كما قال في أول القصيدة :

فواكبدا على أميمة بعدما طمعت فهبها نعمة العيش زلت
لو الى السلوان سبيل

ألا لا تعدني إن تشكيت خلتى شفاني بأعلى ذي البريقين عدوتي
وإني لحلو إن أريدت حلاوتى ومر إذا نفس العزوف استمرت
أبي لما آبى سريع مباءتي الى كل نفس تنتحى في مسرتى

ولكن النفس التي تنتحى في مسرته وهي أميمة، قد بانت، فأبدل منها نفسا أخرى يعزها إعزازا ولكنها لا تنتحى في مسرته كل الانتحاء

تخاف علينا العيل إن هي أكثرت ونحن جياع أي آل تألت

واعلم أصلحك الله أيها القارىء الكريم أنه من باب هذا التحول ما مر بك من نحو قول علقمة بن عبدة

بل كل قوم وإن عزوا و إن كثروا

وقوله :

قد أشهد الشرب فيهم مزهر رنم

بل غير بعيد من هذا الباب قولهم دع ذا، ودعها، وعد عن كذا وكذا والإقبال على الجد بعد النسيب، ولكنا كما تقدم نبهنا الى عناصر أخرى من الربط في جميع ذلك من تدرج وتداعي معاني وتفرع لاحق عن سابق ومفارقة أمر ثم الرجوع إليه كما نبه الى ذلك ابن رشيق في حديثه عن التخلص وقد مر في أول هذا الجزء .
وقولنا إن عنصر المفاجأة عند الشنفري وما أشبهه من الشعر مثل التحول الذي قاله أرسطو طاليس ليس ببعيد . وجواهر مذاهب البشرية تتقارب بل هي أمر واحد وسابحة في فلك واحد . وإنما يقع الاختلاف في الأشكال . والمثال الذي ضربه أرسطو طاليس للتحول منه خبر أوديب . ومما يحسن ذكره في هذا الباب أن أوديب استنزل اللعنة على من قتل أباه وغشي أمه وقضى بعذاب أليم . فما كان ذلك الملعون المعذب آخر الأمر إلا إياه هو نفسه ولعمرك إن قول النابغة :

مـا جئت من سيىء مما رميت بـه　　إذن فـلا رفعت سـوطي الى يـدي
إذن فعـاقبني ربي معـاقبـة　　قـرت بها عين من يـأتيك بـالفنـد

من قبيل استنزال اللعنات الذي صنعه أوديب. فقط كان النابغة بريئا. وكان أوديب غير بريء، وغير جلد الفؤاد على الإثم.
ومما يـذكر في هـذا المعراض أن قتل الأب وغشيـان الأم مما يسمـونه عقـدة أوديب ليس ذلك بأمر انفردت به آداب اليونان، فمثله دائر في خرافات الأمم.
مما نختم به هذا الفصل مما يجري مجرى المقابلة قول أبي كبير الهذلي

أزهير هل عـن شيبـة مـن معـدل　　أم لا سبيـل الى الشبـاب الأول
أم لا سبيـل الى الشبـاب وذكـره　　أشهـى إلي من الـرحيق السلسل

فقد أسف على فوات الشباب هنا. ثم تمثل هذا الذي أسف عليـه في هذا الفتى الذي رغب أن يتزوج أمه ثم خافه وأحس فيه قوة الشبـاب المباين كل المباينة لما كان فيه هو من إقبال على ضعف المشيب وانهيار قواه وذلك قوله:

ولقـد سريت على الظـلام بمغشم　　جلـد من الفتيـان غير مثقـل
ممن حملـن بـه وهن عـواقـد　　حبك النطـاق فشب غير مهبـل
ومبرإ مـن كـل غبر حيضـة　　وفسـاد مـرضعـة وداء مغيل
حملـت بـه في ليلـة مـزءودة　　كـرهـا وعقـد نطـاقهـا لم يحلل
هذه أمنية تمناها أبو كبير من أم تابط شرا التى لم يستطع إليها سبيلا
فأتـت بـه حـوش الفـؤاد مبطنـا　　سهـدا إذا مـا نـام ليـل الهوجل
فإذا نبـذت لـه العصـاة رأيتـه　　ينـزو لـوقعتهـا طمـور الأخيل
وإذا يهب مـن المنـام رأيتـه　　كـرتـوب كعب السـاق ليس بـزمل
أى ليس بضعيف ولكن إذا نهض من المنام نهض قائما

مـا إن يمس الأرض إلا منكب　　منـه وحـرف السـاق طي المحمل

أى هو مطوى طيا لضموره وقوة جسمه وذلك لاكتمال شبابه

وإذا رميت بـه الفجـاج رأيتـه　　يهوي مخارمهـا هـوي الأجـدل
وإذا نظـرت الى أسرة وجهـه　　بـرقـت كبرق العـارض المتهلـل

صعب الكـريهة لا يـرام جنـابـه ماضي العـزيمـة كـالحسـام المقصل
يحمي الصعـاب إذا تكـون كـريهة وإذا هـم نـزلـوا فمأوى العيـل

ود أبو كبير لو هكذا كان هو.

وفي الأبيات بعد دقائق من معرفة العرب بالتربية ورعاية الصغار في أطوار الطفولة الأولى كقولـه ومبرإ من كل غبر حيضـة أي بقايـا الحيضـة. وداء مغيل أي إن أمـه لم ترضعـه غيلا أي على حمل وذلك فيما زعمـوا يضعف الناشيء، وأن المرأة إذ غشيت في حـال خوف أو غضبت، كـان ذلك أنجب للنسل. قالـوا وكان تأبط شرا امـرأ قصيرا وذلك قول قيس بن العيزارة:

فأكـرم ببـز جـر شعل على الحصى ووقـر بـز مـا هنـالك ضـائع

شعل هو تأبط شرا. فإن صدق فهذه الصفة التي وصف بها أبو كبير تأبط شرا ـ «وإذا رميت به الفجاج إلخ» تؤيد ما ذكره، وكأنه كرة تنزو إذ يهوي المخارم أو كما قال:

يهوى مخارمهـا هـوى الأجـدل

أي الصقر.

خامسا التخلص:

كل ماكنـا فيه تخلص، غير أنـا نخص في هذا الفصل تحت هـذا العنوان مسـائل منها الخروج وهو كثير. فقولهم «دع ذا» «وعد عن ذا» خـروج. وقد بينا أن كثيرا من «دع ذا» و «عد عن ذا» له صلة تسلسلية أو تدرجية أو قوة صلة ما بما تقدمه وما يجيء بعده من ذلك ما سبق به الاستشهاد من قول النابغة مثلا:

فعـد عما مضـى إذ لا ارتجاع لـه وانم القتـود على عيرانـة أجـد

ونحو قول علقمه:

فـدعهـا وسـل الهم عنك بجسرة كهمـك فيهـا بـالـرداف خبيب

ونحو

فـلأهـدين مع الـريـاح قصيـدة مني مغلغلـة الى القعقـاع

قال ابن رشيق وقد ذكرنا بعض كـلامه في اول الكتاب ومن المستحسن أن نورده كله هنا إذ اعتمدنا عليـه في بعض ما نقول، وفصلنا من ذلك مـواضع، فيما تقدم، وقد نلحق بعضه شيئا من التعليق من بعد إن شاء الله (١).

وأما الخروج فهـو عندهم شبيه بـالاستطراد وليس بـه، لأن الخروج إنما هو أن تخرج من

(١) العمدة تحقيق الشيخ محيى الدين عبدالحميد رحمه الله ج ١ ص ٢٣٤ ـ ٢٣٨

نسيب الى مدح أو غيره بلطف تحيل، ثم تتمادى فيها خرجت إليه كقول حبيب في المدح

صب الفـراق علينـا، صـب من كثب | عليـه إسحـاق يـوم الـروع منتقما
سيف الإمـام الـذى سمتـه هيبتـه | لما تخرم أهـل الأرض مخترمـا

ثم تمادى في المدح إلى آخر القصيدة.
وكقول أبي عبادة البحتري:

سقيت ربـاك بكل نـوء عـاجل | من وبلـه حقـا لها معلـومـا
ولـو أنني أعطيت فيهـن المنى | لسقيتهـن بكـف إبـراهيما

وأكثر الناس استعمالا لهذا الفن أبـو الطيب، فإنه ما يكاد يفلت لـه ولا يشذ عنه حتى ربما قبح سقوطه فيه نحو قوله:

هـا فـانظـرى أو فظنى بى تـرى حـرقـا | من لم يـذق طـرفـا منهـا فقـد وألا
عـل الأمير يـرى ذلى فيشفـع لى | إلى التي تـركتني في الهوى مثـلا

فقد تمنى أن يكون له الأمير قوادا ـ وليس هذا من قول أبي نواس

سأشكـو إلى الفضل بن يحيى بن خالـد | هـوانـا لعل الفضل يجمـع بيننـا

في شيء، لأن أبا نواس قال "يجمع بيننا" ثم اتبع ذلك ذكر المال والسخاء به فقال:

أمير رأيت المال في نقماته | مهينا ذليل النفس بالضيم موقنا

(في الأصل في نعمائه وينكسر به البيت ولايستقيم المعنى وهو خطأ إمـا من الطابع وإما من الناسخ).
فكأنه أشار إلى جمعه بينهما بالمال خاصة، يفضل عليه ويجزل عطيته فيتزوجها أو يتسرى بها، وأبو الطيب قال: «يشفع لى» والشفـاعة رغبة وسؤال ثم أتبع بيته بما هـو مقو لمعناه في القيادة فقال:

أيقنت أن سعيدا طالب بدمي | لما بصرت بـه بـالـرمح معتقـلا

فـدل على أنـه يشفع فإن أجيب إلى مسـاعدة أبي الطيب فـذاك، وإلا رجع إلى القهـر والذي يشاكل قول أبي نواس قوله:

أحب التي في البدر منها مشابه وأشكو إلى من لايصاب له شكل

فلفظة الشكوى تحمل عنه كما حملت عن أبي نواس .
ومما سقط فيه ـ وإن كان مليح الظاهر ـ قوله يخاطب امرأة نسب بها :

لو أن فنا خسر صبحكم وبرزت وحدك عاقه الغزل
وتفرقت عنه كتائبه إن الملاح خوادع قتل
ما كنت فاعلة وضيفكم ملك الملوك وشأنك البخل
أتمنعين قرى فتفتضحي أم تبذلين له الذي يسل
بل لا يحل بحيث حل به بخل «ولا جور» ولا وجل

فحتم علي (فنا خسرو) بأن الغزل يعوقه، وأن كتائبه تتفرق عنه، وجعله يسأل هذه المرأة وتشكك هل تمنعه أم تبذل له، ثم أوجب أن البخل لا يحل بحيث حل، فأوقعه تحت الزنى أو قارب ذلك، ولعل هذا كان اقتراحا من فنا خسرو، وإلا فما يجب أن يقابل من هو ملك الملوك بمثل هذا، وما أسرع ما انحط أبو الطيب، بينا هو يسأل الأمير أن يشفع الى عشيقته صار يشفع للأمير عندها . »
قلت ما يخلو ابن رشيق في جميع هذا من خلط بين أدب البلاط، ما ينبغي أن يكون عليه، وبين مذاهب الشعراء في الخيال والافتنان. وليس مذهب أبي الطيب في أبياته بجد مختلف عن مذهب أبي نواس، فمن أعان بالمال شفع. والطلب بدم المقتول أو من هو في حكم المقتول من ذلك غير بعيد. وحديثه عن فنا خسرو نهايته السؤال :

أتمنعين قرى فتفتضحي البيت

ثم قوله بل لا يحل إنما هو خروج وليس بقيادة كما زعم ابن رشيق ليرضي صاحبه أبا الحسن والله أعلم أي ذلك كان، ثم نرجع بالحديث إلى بقية كلام ابن رشيق :
«والاستطراد أن يبني الشاعر كلاما كثيرا على لفظة من غير ذلك النوع يقطع عليها الكلام وهي مراده دون جميع ما تقدم، ويعود إلى كلامه الأول وكأنما عثر بتلك اللفظة عن غير قصد ولا اعتقاد نية، وجل ما يأتي تشبيها وسيرد عليك في بابه مبينا إن شاء الله تعالى. ومن الناس من يسمى الخروج تخلصا وتوسلا وينشدون أبياتا منها :

إذا ما اتقى الله الفتى وأطاعه فليس به بأس ولو كان من جرم
ولو أن جرما أطعموا شحم جفرة لباتوا بطانا يضرطون من الشحم

وأولى الشعر بأن يسمى تخلصا ما تخلص فيه الشاعر من معنى الى معنى ثم عاد الى

الأول» إلى آخر ما قاله مما تقدم ذكره في أول هذا الجزء حيث استشهد بشيء من عينية النابغة. ثم قال: «ثم اطرد له ما شاء من تخلص الى تخلص حتى انقضت القصيدة، وهو مع ما أشرت إليه غير خاف إن شاء الله تعالى.

«وقد يقع من هذا النوع شيء يعترض في وسط النسيب من مدح من يريد الشاعر مدحه بتلك القصيدة، ثم يعود بعد ذلك إلى ما كان فيه من النسيب، ثم يرجع إلى مدح كما فعل أبو تمام وإن أتى بمدحه الذي تمادى فيه منقطعا، وذلك قوله في وسط النسيب من قصيدة له مشهورة:

ظلمتك ظالمة البريء ظلوم	والظلم من ذي قدرة مذموم
زعمت هواك عفا الغداة كما عفت	منها طلول باللوى ورسوم
لا والذي هو عالم أن النوى	أجل وأن أبا الحسين كريم
مازلت عن سنن الوداد ولا غدت	نفسي على إلف سواك تحوم

ثم قال بعد ذلك:

لمحمد بن الهيثم بن شبابة	مجد إلى جنب السماك مقيم

ويسمى هذا النوع الإلمام

وكانت العرب لا تذهب هذا المذهب في الخروج إلى المدح، بل يقولون عند فراغهم من نعت الإبل وذكر القفار وما هم بسبيله «دع ذا» و «عد عن ذا» ويأخذون فيما يريدون أو يأتون بإن المشددة ابتداء للكلام الذي يقصدونه. فإذا لم يكن خروج الشاعر إلى المدح متصلا بما قبله ولا منفصلا بقوله «دع ذا» و «عد عن ذا» ونحو ذلك سمى طفرا وانقطاعا وكان البحتري كثيرا ما يأتي به، نحو قوله:

لولا الرجاء لمت من ألم الهوى	لكن قلبي بالرجاء موكل
إن الرعية لم تزل في سيرة	عمرية مذ ساسها المتوكل

ولربما قالوا بعد صفة الناقة والمفازة «الى فلان قصدت» و «حتى نزلت بفناء فلان» وما شاكل ذلك» ا. هـ.

كما اهتم ابن قتيبة بقصيدة المدح كذلك اهتم ابن رشيق، وقد بسطنا القول في أهمية قصيدة المدح حتى كسدت سوقه وكان كسادها ببلاد المغرب والأندلس متأخرا في الزمان عما أصابها بالمشرق.

وقد ترى أن ابن رشيق فطن إلى أنه قد يكون لعد عن ذا ودع ذا وما أشبه اتصال بما قبله، وما سماه التخلص هو نص في معنى اتحاد القصيدة وتشابك أجزائها كما تقدم ذكره أول شيء. وقوله وكانت العرب لا تذهب هذا المذهب، عنى به الإلمام والخروج والنفي ما أحسبه إلا قد أراد به التقليل إذ قد مر بنا قول حسان:

إن كنت كاذبة الذي حدثتني ... فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم ... ونجا برأس طمرة ولجام

وقد اتبع أبو الطيب طريقة حسان حذوك النعل بالنعل حيث قال:

ولو كنت في أسر غير الهوى ... ضمنت ضمان أبي وائل
فدى نفسه بضمان النضار ... وأعطى صدور القنا الذابل

وصدق ابن رشيق ان أبا الطيب كان يكثر من هذا الضرب الذي صار يسمى حسن التخلص وأولى به اسم الخروج كقوله:

يودعننا والبين فينا كأنه ... قنا ابن أبي الهيجاء في قلب فيلق
قواض مواض نسج داود عندها ... إذا دخلت فيه كنسج الخدرنق

أي العنكبوت.

وكصنيع أبي تمام في ظلمتك ظالمة البرىء ظلوم صنع في:

أقبلتها غرر الجياد كأنها ... أيدي بني عمران في جبهاتها

ثم قال:

سقيت منابتها التي سقت الورى ... بندي أبي أيوب خير نباتها

ووقف أبو منصور الثعالبي عند هذه الثائية وقفة طيبة، وكان بشعر أبي الطيب عارفا وله محبا وللشعر ذواقة وناقدا وقد بينا ما نراه من تقديمه في باب النقد وإنكار من زعم أنه سطحي في كتابنا (مع أبي الطيب) وفي كتابنا (التماسة عزاء) وليس لعمري بسطحي من كتب الفصول التي كتب عن أبي الطيب والبديع والشريف الرضي وأبي فراس وأصحاب الصاحب، وهذا باب واسع ليس هنا مكانه.

ومن اساءات أبي الطيب في مسلكه سبيل حسن التخلص فصاربه الى نوع من الاحالة:

أحبك أو يقـولـوا جـر نمل ثبيرا وابن إبـراهيم ريعـا

غير أن أبا الطيب كما كان يسلك هذا الباب، كان يسلك غيره من أبواب الربط وله في ذلك افتنان أي افتنان. والمذهب الذي ذكره ابن رشيق للنابغة في العينية كثيرات أمثاله عند أبي الطيب. ومن أجود ما جاء له في هذا ميميته.

ملـومكما يجل عـن الملام ووقع فعـالـه فـوق الكـلام

وهي من روائع الشعر العربي كله وفيها أبيات صفة الحمى وفيها قوله الذي ختم به:

تمتع مـن سهـاد أو رقـاد ولا تأمـل كـرى تحت الـرجـام
فـإن لثـالـث الحالين معنـى سـوى معنى انتبـاهك والمنـام

أبو الطيب عالم وحده.
ويشبه مـذهب حسان وإن لم يخرج كخروجه لصلـة كلامه صلـة أوثق أوس بن غلفاء حيث بدأ بفخر ثم خلص منه إلى هجاء رجل بعينه وأصاب قومه وذلك قوله:

جلبنـا الخيـل من جنبي أريـك الى أجلى الى ضلـع الـرخـام
بكـل منفـق الجرذان مجر شـديـد الأسر لـلأعـداء حـام

أي يخرج الجرذان من نافقائها أي أجحارها لكثرة خيله وشدة وقع حوافرها.

أصبنـا من أصبنـا ثـم فئنـا على أهـل الشريـف الى شمام
وجـدنـا من يقـود يـزيـد منهم ضعـاف الأمـر غير ذوى نظـام

ثم انصرف الى هجاء يزيـد، وهذا على شبهه بخروج حسـان أقل احتيالا منه لأن نفس الفخر وثيق الصلة بنفس الهجاء.

سادسا، المخاطبة

وهى ضرب من الاحتيـال على الربط وحفظ الوحـدة كان كثيرا عنـد القدمـاء وما نص عليه ابـن رشيق نصا، غير أنـه يدخل في مقالـه «ما تخلص فيـه الشاعـر من معنى الى معنى ثم عاد الى الأول وأخذ في غيره ثم رجع الى ما كان فيه».
فمن أمثلته ما صنعه عمرو بن كلثوم في المعلقة حيث خاطب بدءا فقال:

ألا هبي بصحنك فاصبحينا

ثم قال:

قفى قبل التفرق يا ظعينا

فجعل الساقية ظعينة وكل امرأة ظعينة، ولكنه أراد بها الكناية عن الأعداء لما قدمنا ذكره من غزلهم بنساء العدو، ثم لما ضمنه من معنى الفراق هنا.

ثم قال: قفى نسألك هل أحدثت صرما ... لوشك البين أم خنت الأمينا

بيوم كريهة إلخ

ثم كما قال ابن رشيق رجع الى الغزل إلى قوله:

تذكرت الصبا واشتقت لما ... رأيت حمولها أصلا حدينا

فقد وقع الفراق وقومها أعداء. وعاد الشاعر الى الخطاب ولكنه خاطب رجلا هذه المرة:

أبا هند فلا تعجل علينا

وقد مهد لخطاب أبي هند بقوله:

فأعرضت اليمامة واشمخرت ... كأسياف بأيدي مصلتينا

وهى أسيافه وأسياف قومه. هذا قريب من الخروج الذي تقدم ذكره. وأبو هند كأنه أبو الظعينة التي فارقت. وغير خاف أنه أراد به عمرو بن هند فجعله أباها كما ترى ثم قد صرح باسمه فيما بعد:

بأي مشيئة عمرو بن هند ... نكون لقيلكم فيها قطينا
بأى مشيئة عمرو بن هند ... تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
تهددنا وأوعدنا رويدا ... متى كنا لأمك مقتوينا
فإن قناتنا يا عمرو أعيت ... على الأعداء قبلك أن تلينا

ثم خلص الى الفخر وتحدى بني بكر وبني الطماح والناس جميعا، ومعلقة عنترة مرتبة على تسلسل وتدرج وتداعي معان كل اولئك معا في إطار عادة الشعراء. إلا أنه جعل من الخطاب وسيلة قوية توسل بها الى الربط.

خاطب دار عبلة أولا. ثم صار الى ذكر عبلة نفسها

وتحل عبلة بالجواء وأهلنا ... بالحزن فالصمان فالمتثلم

وعاد الى الطلل على النحو الذي نبه عليه ابن رشيق في «حييت من طلل» ثم الى عبلة «علقتها عرضا» ـ ثم خاطبها

إن كنت أزمعت الفراق فإنما ... زمت ركابكم بليل مظلم

ثم انصرف الى حمولة أهلها بعين عبد يحسن الحلاب والصر. وان شئت جعلت هذا من عقدته بخزي لونه وهو قول يقول بـه بعض أهل العصر يريدون أن يضاهئوا به الفرنجة الامريكيين وغيرهم أنه للعرب زنوج كما للفرنجة زنوج استعبدوهم. وفي بعض المعاجم في تعريف السودان أنهم عبيـد العرب. وكان الجاحظ رحمه الله سليل عبـد أسود كان جمالا لعمرو بن قلع الناسيء ـ أى من القوم الذين قال قائلهم

ونحن النــاسئـون على معــد   شهــور الحل نجعلهـا حــرامـا

ولعله كان من البجاة أو ممن اختطفه البجاة من بلاد السودان أو الحبشة فبيع بتهامة.
وكان الجاحظ ممـا يأنس بالزنج وأخبارهـم كحديثه عن الفاشكـار الذي لم يكن يحسن الفشكرة أحد مثله، أحسبها تصفيف أعواد القمـح بعد حصاده ورسالته عن السودان وفضلهم، وحكايتـه عن شيخ عظيم جهير الصوت يستقصي الإعراب وقـد ولده رجل من أهل الشورى وكان ــ كما قال أبوعثمان ـ بقرب عبد أسـود دقيق العظم دميم الوجه ورآني أكبره فقال حين نهض ورأى عظما: يـا أبا عثمان لا واللـه لا يساوي ذلك العظم البالي، بصرت عيني بـه في الحمام وتناول قطعة من فخار فـأعطاها رجلا وقـال له حك ظهري، أفتظن هذا يا أبا عثمان يفلح أبدا.
وأغلب الظن أن أبا عثمان قـد ظن أنه لا يفلح ولـولا ذلك ما سـاق الخبر. وليحذر من يخوض في أمر عنترة. وقد جاء الأثر بإكبار النبي صلى الله عليه وسلم أمره واستحسانه شعره إن صحت روايته، أن يكون ممن عسى ألا يفلح أبدا أو لا يساوي ذلك العظم.
وقد كـانت في عنترة سماحة خلق وكـرم نفس وكبرياء ثقـة بما عنده من بـلاء لا كبرياء است في الماء وأنف في السماء.
وكان عنده التعريض والتهكم بما كان يطعن به فيه من دونه، فإن يك هذا عقدة نقصه فذاك ـ مثل قوله:

كالعبد ذى الفرو الطويل الأصلم

ومثل قوله: سودا كخافية الغراب الأسحم

ومثل قوله: ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها   قيل الفــوارس ويك عنتر أقــدم

ولو كان بنفسه سقم نقص ما قـال هذا، وقد يسخر كما ترى بهؤلاء القائلين ويك عنتر أقدم. وزعم بعضهم وأظنه صاحب الموشح أن عنترة كان ممن خام ثم أقدم لقوله:

اذ يتقــون بي الأسنــة لم أخم   عنهـا ولكنى تضـايق مقـدمي

وكان الرجل ذا علم بالحرب وخبر أنه كـان يضرب الجبان لينخلع قلب الشجاع يشهد

بهذا ثم وصف عنترة ثغرها

إذ تستبيك بـــذي غـــروب واضح   عـــذب مقبلـــه لـــذيـــذ المطعم

وكـأن فـأرة تـــاجـــر البيت

أو روضـــــة أنفـــــا . . .

وبعد أبيات الروضة والذباب المترنم.

وهل تعصب أبو عثمان لابن عمة آبائه إذ زعم أن صفتـه الذباب من التشبيهات العقم التي لا تستطاع ؟

وإذ هي :

تمسي وتصبح فوق ظهر حشية . . .

التفت عنترة إلى نفسه، فهذا أول مجيئه بالغرض الذي من أجله سقت القصيدة، وهو خروج خفي إذ هو تمهيد دقيق رشيق . . . .

وأبيت فوق سراة أدهم ملجم

وحشيتي سرج على عبل الشـوى   نهد مـــراكلـــه نبيل المحـــزم

والمرأة مما تشبه بالمهرة.

والصفات التي خلعها عنترة على مهره بعضها منتزع من صفات الفتاة ـ عبل الشوى، وتوصف الفتاة بامتلاء العضد والساق وحسنهما.

نهد ـ وذلك ظاهر

نهد مراكله أي سام على جوافر وقوائم صلاب. وإن تك عبلة الموصوفة هنا ما هي إلا سمية التي قال فيها :

أمن سمية دمع العين تذريف

الأبيات الفائية التي طرب لها أبو العـلاء في غفرانه (٣٢٥) ومع ذلك أدخله النار وقال «لقـد شق على دخـول مثلك النار» وصـار بـه تـداعي المعاني إلى أن يـورد بيتـا زعم أن سيبويه كان ينشده بكسر الهمزة كقولهم مغيرة بكسر الميم وهو

إحب لحبهـــا الســـودان حتى   إحب لحبهـــا ســـود الكـــلاب

وليس البيت في نصـوص الكتـاب التي بأيدينـا، ولكن فيهـا المغيرة بكسر الميم ومنتن ولعل ما بأيدينا من الكتاب نقصت منه مواضع فمثلا البيت :

أتيت مهاجرين فعلموني ... ثلاثة أحرف متشابهات
وخطوا لي أبا جاد وقالوا ... تعلم سعفصا وقريشيات

مذكور في الهوامش كأنه في شرح الأعلم للشواهد وليس في نص الكتاب، ولعل الأعلم أن يكون استشهد به، وهذا بعد باب آخر ونعود إلى ما كنا فيه.
وقد ذكروا أن سمية أغرت به أباه فضربه ـ فكأن قد رقت له وتجللته تحول بين أبيه وبينه إذ ضربه أبوه، وذلك قوله:

تجللتني إذ أهوى العصا قبلي ... كأنها رشأ في البيت مطروف
العبد عبدكم والمال مالكم ... فهل عذابك عني اليوم مصروف

وقوله «رشأ في البيت» يشبه قول علقمة:
كأنها رشأ في البيت ملزوم
ومن علقمة أخذه. وكأنه نظر أيضا إلى هذا التشبيه إذ وصف أمه فقال:

وأنا ابن سوداء الجبين كأنها ... ضبع ترعرع في رسوم المنزل

إن كانت أمك يا هذا رشأ

الساق منها مثل ساق نعامة ... والشعر منها مثل حب الفلفل

يعني امتلاء ساقها وغلظه.

وقوله «نبيل المحزم» يفيد ضمور مهره وضمور عبلته أيضا.
على أنه من تمام أدبه لم يمض في صفة حصانه ولكن رجع إلى أمر محبوبته:

هل تبلغني دارها شدنية

وهذا قولنا أنه في تداعي معانيه وأخذ كلامه بعضه برقاب بعض التزم بإطار عادة الشعراء من نسيب فناقة ـ
ثم بعد أن بعدت وتمنى أن تبلغه دارها

خطارة غب السري زيافة ... تطس الإكام بوخد خف ميثم

وشبه الناقة بالظليم

صعل يعود بذي العشيرة بيضه ... كالعبد ذي الفرو الطويل الأصلم

وذكر جدها وجنونها في السير ثم بروكها وكأن صدرها ناي له هزيم ـ وهذا من أجمل الشعر

بــركت على جنـب الــرداع كأنما بــركـت على قصب أجش مهضم

إنما عنى صوت هزيم صدرها

بعد هذا عاد إلى المحبوبة فخاطبها،

أثنــى علي بما علمــت فــإننــي سمــح مخالطتــي إذا لم أظلــم

وجعل ذلك ذريعـة لمزيد من الـدفـاع والحديث عن نفسـه والفخر الكـريم النبيـل مع اعتدال وأناة وتدبر كتدبره إذ قال:

. . . لم أخــــــــــــــم عنهــا ولكني تضــايق مقــدمي

قال:

ولقــد شربــت من المدامــة بعــدمــا ركــد الهواجــر بــالمشــوف المعلم

بــزجــاجــة صفــراء ذات أسرة قــرنت بأزهــر في الشمال مفــدم

فــإذا شربــت فــإننــي مستهلــك مــالي وعــرضي وافــر لم يكلم

وإذا صحــوت فما أقصر عـن نــدى وكما علمـت شمائلي وتكــــرمي

ومن ها هنا أخـذ يتقرب إلى عبلة. وقد ذكرنا في غير هذا الكتـاب أن شكسبير قد تأثر بسيرة عنترة ومقاله في قصيدتـه هذه حيث صاغ ما صاغـه على لسان القائد الذي سماه أوتيلـو (وترجمهـا بعضهم عطيل وقد تكـون من عطـاء الله وقـد تكون محرفـة من اسم عنترة) إذ زعم في دفاعه عن نفسـه أنه إنما سحر الفتاة بحديثه عن شجـاعة نفسه وعن مغامـراته. ولا تستبعد أن يكون شكسبير سمع في المجـالس ممن كان له علم بالعـربية وآدابها. وقد ذكرنا أن بيـدويل وهو على زمان شكسبير كان بالعربيـة عالما ولا ريب أنه كـان من علماء الملك جيمس الأول الـذين صـدر عنهم نص الكتـاب المقـدس الموثق عندهم. ومن قبل كما ألمعنـا كان لشوسير بـالعربية صلة وثيقـة إذ قد سفر إلى إسبـانيا وكانت الأنـدلس لم تزل لها بقية صالحة على زمـانه، وقد ذكرنـا أيضا كتابته رسـالة عن الأسطرلاب ما كان ليقدم مثله على مثلها من غير علم بـالعربية، وقد تقدمه بزمان غير طويل من بني وطنـه أحد أكابـر علماء القسيسين بالعربيـة وهو روجر بيكـون في القرن الثـالث عشر الميـلادي، ومن قبلـه في القـرن الثاني عشر الميـلادي «أد يـلارد البـاثي» الانجليـزي Adelard of Bath وهو معاصر لأبيلار الذي عشـق ايليويز وهذا فرنسي. وإنما نكرر هذا القول الذي ذكرنـاه من قبل لأن في زماننا هذا لن ننفك نحتاج إلى تأكيد الحجة حتى يعيها الغافل والمتغافل وبالله التوفيق.

ثم انظر إليه كيف بعد قوله «وإذا صحوت» وما زال في معارض الفخر ببلائه في الحرب

المراد به التقرب إليها، جعل لها مكانا بمخاطبتها خطابا خفيا حيث قال:

وحليل غانية تركت مجدلا　　　تمكو فريصته كشدق الأعلم

أي رب حليل غانية مثلها - بل هي عنده أجمل الغواني وأحبه. ولذلك فهو حقيق ألا يخيم عن حمايتها بما وهبه الله من شجاعة وغيرة وصبر ونصر.
قوله «كشدق الأعلم» من قبيل قوله «كالعبد ذي الفرو الطويل الأصلم» قالوا كان يقال له عنترة الفلحاء وما أرى ذلك قيل إلا لأن شفته قد كانت غليظة. قال أبو الطيب يذكر كافورا:

وأسود مشفره نصفه　　　يقال له أنت بدر الدجى

وأوصاف السودان - في ألف ليلة - قريبة من هذا، حتى إن بعضهم يوشك أن يكون مفترشا بعض شفته.

سبقت يداي له بعاجل طعنة　　　ورشاش نافذة كلون العندم

هذه هي الصورة الأولى - ثم قوله تمكو فريصته الصورة الثانية وفيها أنفاس أسف. كان حليل غانية محبوبة، والآن مجدل لجراحاته بالدم وذماء الموت صفير. قوله بعاجل طعنة ورشاش نافذة جعلهما معا أمرا واحدا. وهذا أجود من قول قيس بن الخطيم:

طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائر　　　لها نفذ لولا الشعاع أضاءها

وإنما قصد إلى تصوير الغيظ وحقد طلب الثائر. أما عنترة فصور محض لقاء فارس وفارس

متحامين المجد كل واثق　　　ببلائه واليوم يوم أشنع

إلا أن أحدهما يقال له الفلحاء ويقال له الأعلم، فلتعلمن أينا الفلحاء وأينا الأعلم. ظاهر هذا الحقد ولكن باطنه لمتأمل الصورة أسف وحزن وتفكر في مصائر الأيام. لعله هو أن يكون، لو لم تعجل يده بسابق الخبرة المقتول، وإذن لكانت فريصته هي التي تمكو -
وليصرف الحلوة التي خاطبها أتبع ذلك قوله يخاطبها:

هلا سألت الخيل يا بنة مالك　　　إن كنت جاهلة بما لم تعلمي

أنا أيضا لقيت بلاء الحرب وأوجاعها فليس دهري القساوة وإنما هو الحفاظ وصدق القتال وليس ينجي من الغمرات شيء غيره.

إذ لا أزال على رحالـــة سـابح نهد تعـــــاوره الكماة مكلـم

لا حظ الربط بين خطابها مع الإعجاب بهذا المهر ـ سابح نهد ـ ثم هذا العطف عليه والكنايـة به عن نفسـه : «تعاوره الكماة مكلم» ثم بين سبـب هذا التكليم ، أنـه يعرض نفسه للطعان وللسهام وهي منايا تخطىء وتصيب ومن تعرض لها فقد أهدف

طـــورا يجرد للطعـــان وتـــارة يأوي إلى حصـــد القسي عـــرمـــرم
يخبرك من شهـــد الـــوقيعـــة أنني أغشى الـــوغى وأعف عنـــد المغنم

أي في أيضا مع كمال الفروسيـة ضربا وطعنا كمال آدابها ، وفي ذكر العفاف تـزكية لنفسه عنـدها ، أنـه حين ترك حليل الغـانية مجدلا عـف فلم يروعهـا ، إذ كان إنما يـدافع عن حوزته وعن حريمه أيضا وهو القائل :

أنا الهجين عنترة

كل امرىء يحمي حره

أي فرجه وعنى بذلك أمرأته ونساءه :

أسوده وأحمره

والشعرات الواردات مشفره

وهذه لغة مكشوفة خشنة تناسب دفعه الظلم عن نفسه لما أراده أبوه أن يكر ولم يعده أن يحرره ، ولكل مقام مقـال . ثم جاء بعد صـورة حليل الغانية بصـورتين تدرج فيهما من هذه الصورة الأولى من بئيس إلى أباس منه إلى أشد من ذلك ـ فالثانية قوله :

ومـدجـج كـره الكماة نـــزالـه لا ممعن هـــربـــا ولا مستسلم

بل هو متحـد قتول ، فلهذا كره الكماة جـانبه ، والكماة جمع كمي وهو الشجـاع المقاتل الذي قد كمى كـل ضعف فلا يدري قرنه أين يصيبـه . كمي يكمي(باب ضرب) أي ستر ومنه قـولهم كمي شهادتـه أي سترها ، وفي دارجـة أهل المغرب يكمى أي يـدخن التبغ لإدخاله دخانه في صدره كالشيء المكتوم[1]

جـادت لـه كفي بعـاجل طعنـة بمثقف صـدق الكعـوب مقـوم

فهذه الطعنة عـاجلة نافذة إلا أنها دون مفـاجأة الأولى التي كان نفاذهـا وانفجار الدم منها كأنها شيء واحد حدث كله في وقت واحد ، وقد بين عنترة ما صحب هذه الطعنة على عجلتها ونفاذها من جهد خبير بالقتال متمرس به :

فشككت بـالـرمح الأصم ثيـابـه ليس الكـريم على القنـا بمحـرم

(١) أو لأن أوائل المدخنين كانوا لايجاهرون بذلك ويخفونه عمن يحترمونه أو يتهيبونه

وفي قوله« ليس الكريم على القنا بمحرم» من نفس الأسف والتفكر في مصائر الحياة قريب مما في قوله :

تمكو فريصته كشدق الأعلم

وقد فصل صورة هذا الأسف وروح المأساة في قوله من بعد :

فتركته جزر السباع ينشنه　　　　يقضمن حسن بنانه والمعصم

وذلك أنه كان مدججا فما بدا له منه إلا هذا البنان والمعصم بحسنهما ، وما كان لذلك من غناء له إذ عاجله هو بطعنة من مثقفه ذي الكعوب المقوم .

والصورة الثالثة لمقاتل متمرس شرس جريء بصير بالحرب واثق بنفسه عظيم الخنزوانة ، وقد احتاج عنترة الى رمحه وسيفه معا ليقهره :

أول شيء كأن لم ير منه إلا هذه الدرع السابغة والهيئة المهولة الشخص ، وكأنه شجرة من شجر السرح .

والمبارزة التي يصفها عنترة كأنها مبارزة راجلين لا فارسين على جواديهما وكان هذا المبارز معلما وكنى عن جودة تصريفه القناة والسيف بقوله :

ربذ يداه بالقداح إذا شتا　　　　هتاك غايات التجار ملوم

أشرب صفته إذ يلعب الميسر وإذ يسبأ الخمر لونا من حركة أداة الحرب ومن الطعن ومشك السابغة التي هتك فروجها حتى أصاب مقتله

لما رآني قد نزلت أريده　　　　أبدى نواجذه لغير تبسم

عهدي به مد النهار كأنما　　　　خضب البنان ورأسه بالعظلم

فالبنان الذي كان يصرف به السلاح والقداح والرأس الذي عليه الخوذة تبرق وقد كشر هو عن أنياب قد سال الدم عليهما وجمد وهو جسد ميت الآن . طعنه أولا فهذا هتك فروج الدرع ولما أحدث به ذلك اضطرابا علاه بالسيف القاطع فشق هامته أو كما قال :-

فطعنته بالرمح ثم علوته　　　　بمهند صافي الحديدة مخذم

ثم ها هو ذا قتيلا

بطل كأن ثيابه في سرحة　　　　يحذى نعال السبت ليس بتوأم

قوله يحذى نعال السبت يفيد به إكفاءه عن سرجه حتى كأن قد ارتفعت قدماه وتدلى سائر جسده ، كان كسرحة قائمة وهو الآن كأعجاز نخل منقعر

وتأمل قوله بعد هذا مباشرة وأغلب الظن أن هذا الترتيب صحيح :

يـا شـاة مـا قنص لمن حلتْ لـه   حـرمـت علي وليتهـا لم تحرم

هو الآن في حومة الحرب .

ومما يشجعه على الإقدام أن يكون لقلب هذه المحبوبة فارس أحلامها .

لا يزعم عنترة بعد قهره هذا المعلم البئيس الباسل الذي بارزه أنه سبى ظعينته فقد سبق قوله«أعف عند المغنم» . فانصرف كما ترى الى نداء عبلة بحسرة بعدها . ثم أتبع ذلك وصفه الموجز لمغامـرة غرامية تناسب ذكر عبلة وتناسب ما قـدمه من انتصار وتنزل من بعده مكانا مناسبا له ، وكأن ذلك هو المغنم وهو الجائزة .

قد ذكرنا من قبل أن ورود هذا النموذج الموجـز في ميمية عنترة يصحح ما قدمناه من أن موضـوع المغامرة الغـرامية قد كان من أنماط النسيب معـروفا . وعليه مـا رووه من كلام امرىء القيس ومن ساروا على نهجه من بعد . ومن هؤلاء بلا شك عمر بن أبي ربيعة

يـا شـاة مـا قنص لمن حلت لـه   حـرمت علي وليتهـا لم تحرم
فبعثت جـاريتي فقلت لها اذهبي   فتحسسي أخبـارهـا لي واعلمي
قـالـت رأيت من الأعـادي غـرة   والشـاة ممكنـة لمن هـو مـرتمى
وكأنما التفتت بجيـد جـدايـة   رشـإ من الغـزلان حـر أرثـم

قوله وكأنما التفتت بجيد جداية اختصار لخبر اللقاء وينظر إلى مقال امرىء القيس

فسرت بها أمشي تجر وراءنـا   على أثـرينـا ذيل مـرط مـرفل
تصـد وتبـديِ عن أسيـل إلخ

حسن هذه الحسنـاء جائزة ومغنم وشكر لهذا الصنيع الـذي قدمه من نزولـه يبارز حماة الحقائق ومـن يكره نزالـه من الأبطال ويـرهب ولكن عمرا ــ وكنى بعمرو عـن عمه أو قبيلته أو أحد رجالها أو عن عدو له ممن يحسـده وهو أسود على هذه الفعال البيض فلو قدر على طمسها لفعل

نبئت عمـرا غير شـاكـر نعمتي   والكفـر مخبثـة لنفس المنعم

صدق

ولقد حفظـت وصاة عمي بالضحى   إذ تقلص الشفتان عن وضح الفم

لكريهة الحرب . وقـوله ولقد حفظت وصـاة عمي ، إن رددته على عمرو علي أنـه عمه ، فكأنه يقول قـد حفظت وصاته ، ومع ذلك لم يشكر بلائي . وأقـرب من هذا أن يكون

صرو إما شخصا بعينه وإما كناية تعم ثم قوله ولقد حفظت وصاة عمى مردود على خطابه المحبوبة وهي إما ابنة عمه كما يزعم أصحاب السير والأخبار والأساطير وإما جعلها ابنة عمه على عرف العرب إذ الحسناء التي تراد لتكون زوجة ــ سواء أكان ذلك مرادا بالقوة أم بالفعل ــ يقال لها «ابنة عمى»، ثم مضى عنترة إذ عاد الى خطابها يقص قصة شجاعته وإقدامه. وقد رأينا درجاته الثلاث مع الأقران الثلاثة. ثم الآن قد حمي الوطيس وجاءت ساعة الصبر وثبات الأقدام والمعرفه بالحرب متى يكون الإقدام ومتى يكون التوقف والتربص وانتظار فرص الهجوم.

علقمة صور لنا المعركة في عين اباغ ـ تلك التي قتل فيها ملك الحيرة وأسر أخوه شأس في جماعة بني تميم ـ بتصوير رسام كأنما يضع مشاهد هيجاء المعركة وأهوالها كلها على لوحة بخياله المهيمن وبقوله الناصع المبين.

أما عنترة قد نقلنا معه الى وسط المعمعة لنشاركه في احساسه وانفعالات نفسه وليعلمنا مما علمه واختبره بعض علم القتال ـ ثم لنتذكر أن هذا الخطاب موجه الى ابنة هذا العم الذي قد حفظ وصاته ليكسب عطفها ومحبتها:

في حومة الحرب التي لا تشتكى ... غمراتها الأبطال غير تغمغم
إذ يتقون بي الأسنة لم أخم ... عنها ولكني تضايق مقدمي

يتقون به الأسنة لأنه قائدهم المتقدم أمامهم.

ثم هو الآن سيدهم. ومن شأن السيد أن يحمى عبده لأن العبد مال. العبد لا يحسن الكر ولكن يحسب الحلاب والصر.

ثم زعم بعضهم أن عنترة أقر ببعض الإحجام والجبن إذ قال «لم أخم عنها ولكني تضايق مقدمي» وأولى أن يقال إن هذا يقص علينا به خبر قول أبيه له «كر». وكأنه عندما يتقدم حين يحمي الوطيس يسمع هذا الصوت: «كر وأنت حر». ولكنه ليس بأهوج يكر ليكون درقة غيره من الأسنة، ولكن ليكون رأس سنانهم الطاعن في نحور العدو.

لما رأيت القوم أقبل جمعهم ... يتذامرون كررت غير مذمم

تضايق مقدمي. أي تضايقت فرصات الإقدام. ثم هاهم هؤلاء مقدمون يحرض بعضهم بعضا. ورأت عينه اللاقطة مكامن ضعفهم.

لأمر ما كانت العرب في مقامات حروبها أيام الفتوح الأولى مما تقص قصص عنتره وتتناشد شعره.

يـــدعـــون عنتر والـــرمـــاح كأنها أشطـــــان بئـــر في لبـــــان الأدهم

هؤلاء هم قـومه كما سيقص علينا خبرهم من بعـد. وذلك أن منهم من كان يتعجل في نفسه الى القتال. وكان دأب العرب المراماة قبل الاشتبـاك. فكان لذع السهام والرماح مما يهيج الى اندفاعات الإقدام. وكان عنترة بثباته وخبرته وصبره لا يقدم متهورا. فكان ريثـه ربما قلق له من يستعجلـون الهجوم فيصيحـون به يحضـونه: «ويك عنتر أقـدم» وكأنما ضمن هذا منهم مقالة «أي شيء تنتظر أيها العبد؟»

وعلى العبد اعتمادهم، وفي قلوبهم حب له وإكبار.

قالـوا كان عمار بن يـاسر رضي الله عنه في صفين يطعن بـزج القناة في ظهـر هاشم بن عتبة بن أبي وقاص يقول له: تقـدم يا أعور؟ وكان هاشم من أهل الحروب ذا علم بهن وكان عمار رضي الله عنه لا يجهل ذلك من أمره بل قـد كان منه على ثقة. فكان هاشم لا يتحرك لتحضيض عمار وطعنه بالزج في ظهره ولكن يتريث ليجد فرصة الإقدام حتى إذا وجدها اندفع بالراية يرقل ـ ومن أجل ذلك سموه المرقال ـ وهو يرتجز.

أعـــــــور يبغـى أهلـــــــه محلا

قـــد عـــالج الحيـــاة حتى مـــلا

يتلهـم بـــــذي الكعـــوب تـــلا

لا بـــــــد أن يفـل أو يفـــــــلا

ومن صبر عنترة أنـه كان لا ينـدفع والقوم يحضـونـه والرمـاح مشرعة والسهـام تخطيء وتصيب حتى إذا كان وقت الإقـدام وحانت فـرصته كر وهـو على بصيرة من أمره وعلى ثقة:

مـــا زلـت أرميهم بثغـــرة نحـــره ولبـــانـــه حتى تسربـل بـــالـــدم

فـــازور من وقع القنـــا بلبـــانـــه وشكـــــــا الى بعبرة وتحمحـم

لـو كـــان يـدري مـا المحـاورة اشتكي ولكـــان لـــو علم الكـــلام مكلمي

وبعد هذه المناجـاة والرحمة لمهره رجع بنا الى قوله من قبل: «يـدعون عنتر والرماح كأنها البيت» وذلك قوله:

ولقـــد شفـى نفسي وأبـــرأ سقمهـــا قيل الفـــوارس ويك عنتر أقـــدم

فويك عنتر تفسير ورجعة الى «يدعون عنتر» وقد يظن بعض أهل العصر أن قوله «ولقد

شفى نفسي وأبرأ سقمها» منبىء عن عقدة نقص ولو قد كان ذلك حقيقة أمره لكتمه ولم يصرح بشىء منه. وإنما شفى نفسه ثقته وإحساسه آن إذ دعوه بأنهم يكبرون قدره ومنهم محبون له.

والخيل تقتحم الخبار عوابسا   من بين شيظمة وأجرد شيظم

الخبار مالان واسترخى من الأرض. وقد يكون عنترة هنا يصف مكان خبار أي أرضا ذات لين واسترخاء حيث وقعت المعركة. ويجوز أن تكون تلك الأرض لانت واسترخت لجري الخيل عليها أو لتصبب العرق والدم. والوجه الأول أولى وأقرب في المعنى. وكما ترى قدم عنترة ذكر الخيل مجتمعة للدلالة على أنه أقدم وقال لهم الآن كروا فكروا جماعة معا، والخيل مراد بها الأفراس والفرسان جميعا وكلهم بهم عبوس. ثم أخلص عجز البيت كله للتنبيه على الخيل مفردات من بين شيظمة وأجرد شيظم أى طويل قوي الجسم فتيه وهي صفة توصف بها الخيل والإبل والناس وقد مر بك قول الشاعر يخاطب أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه:

يعقلهن أجرد شيظمي

وما أحسبه عني بأجرد شيظم إلا حصانه، إذ هو الذي بدأ الكر، والأجرد القليل الشعر وقوله أجرد شيظم يدل على أن الشيظمة هي أيضا جرداء

ومما يحسن ذكره هنا بيت بشار:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا   وأسيافنا ليل تهاوي كواكبه

فقد قدم ذكر مثار النقع، أي ما أثير من الغبار. ولو قد كان فارسا حقا لبدأ بالخيل التي أثارته كقول عنترة ههنا وكقول أبي الطيب من بعد:

تثير على سلمية مسبطرا   تناكر تحته لولا الشعار

(على أن أبا الطيب قد نظر اليه وأخذ منه في هذا البيت كما قد نظر الى عنتره أيضا والى دبيب عقبان النابغة حيث قال بعد هذا البيت:

غبارا تعثر العقبان فيه   كأن الجو وعث أو خبار

وهذا من مبالغاته)

وأحسب أن أبا تمام كأنما قد عمد في نفسه الى أن يفسر قول بشار، حيث قال:

من لم يقد فيطير في خيشومه   رهج الخميس فلن يقود خميسا

والأعمي يحس الغبار حين يثور بخيشومه ثم بسائر ما عنده من حاسة اللمس وعندنا أن أبا تمام قد أخذ قوله «فيطير في خيشومه رهج الخميس» أخذا خفيا من بشار، فهذ مزعمنا أنه انما فسره بهذا الأخذ ووضح بعض كنائن معناه.

وكثير ممن يتعاطون النقد وعلوم البلاغة ربما استشهدوا ببيت بشار على إحسانه الذي ضاهي به البصيرين. وبيان البيت بيان ضرير لمن تأمله للذي قدمنا من قوله بادئا «كأن مثار النقع» ولأنه أيضا لا يقصد الى الجانب الأبصاري في قوله:

ليل تهاوى كواكبه

كما يقصد إلى الجانب الأسطوري. أي كأن أراد أن يقول: كأن مثار النقع يعيد على الناس يوم حليمة الذي هو ليس بسر - قالوا ثار النقع حتى بدت الكواكب. وكان بشار مما يذكر الناس بأنه من أولى الضرر، وألا ينتظروا منه أن يقول كما يقول ذو بصر، مثلا قوله.

يا عين أذني لبعض الحي عاشقة … والأذن تعشق قبل العين أحيانا

وقوله: وإنا لا نراك فألمسينا

وقوله في إحدي الرائيتين: ألصق بي لحية له خشنت … ذات نصال كأنها الأبر

وفيها: قولي لها بقة لها ظفر … إن كان في البق ماله ظفر

فهذا كله من حاسة اللمس لا البصر

وفي الرائية الأخرى:

أمتى بدد هذا لعبي … ووشاحي حله حتى انتثر

فهذا من قري إشارته الى يوم حليمة، إذ يشير هنا الى قول امرىء القيس:

وهي إذ ذاك عليها مئزر … ولها بيت جوار من لعب

فجعل مكان المئزر وشاحا وإنما كنت الجارية به كما لا يخفى.

ونرجع بعد الى وصف عنترة البصير بعينه وقلبه معا:

والخيل تقتحم الخبار عوابسا … ما بين شيظمة وأجرد شيظم

ذلل ركابي حيث كنت مشايعى … قلبي وأحفزه بأمر مبرم

وهذا كأنه خاتمة - غير أنه ما زالت في نفسه بقية وهذه البقية قوية المناسبة لقوله «ذلل ركابي» وذلك قوله

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر للحرب دائرة على ابني ضمضم
الشاتمي عرضي ولم اشتمهما والناذرين إذا لم القهما دمي
إن يفعلا فلقد تركت أباهما جزر السباع وكل نسر قشعم

قد رووا قبل هذا ثلاثة أبيات: فيهن تصريح برجعة الى خطاب المحبوبة. على أن قوله «ولقد خشيت» منبىء عن أنه يخاطبها، وليس بحديث منه الى نفسه فقوله «مشايعى قلبى »يمنع ذلك، لأن حديث النفس في هذا الموضع مشعر بضعف ليس في عنترة ولا في قصيدته هذه وكأن الذين رووا الأبيات الثلاثة بعد بيت «بأمر مبرم» وهى:

إنى عداني أن أزورك فاعلمى ما قد علمت وبعض ما لم تعلمى
حالت رماح ابنى بغيض دونكم وزوت جواني الحرب من لم يجرم
ولقد كررت المهر يدمى نحره حتى اتقتنى الخيل بابني حذيم

ولقد خشيت. . . . .
(والذي علمته غيرة أهلها والذي لم تعلمه أمر القتال)
كأن الذين رووا هذه الأبيات الثلاثة تأولوا ولقد خشيت على خطاب النفس فعمدوا الى رواية هذه الأبيات ليكون كل ذلك خطابا. ومن تأمل وجد قوله: ما قد علمت إلخ كأنه تكرار لقوله: «هلا سألت الخيل يا بنة مالك» قوله: «وزوت جواني الحرب» كأنه من قول زهير:

تعفى الكلوم بالمئين فأصبحت ينجمها من ليس فيها بمجرم

ولقد كررت المهر، تكرارا لما وصف به مهره، وفي الصياغة تكرار لقوله: ولقد حفظت ولقد خشيت.
هذا ومن المخاطبة مذهب الحارث في همزيته المعلقة. وفيه مشابه من مذهب عمرو بن كلثوم في النونية. غير أنه لم يتدرج من مخاطبة الظعينة الى مخاطبة الخصوم، بل خلص الى ذلك بعد النسيب خلوصا مباشرا:

أيها الناطق المرقش عنا عند عمرو وهل لذاك بقاء
وقد كرره من بعد فقال:
أيها الناطق المبلغ عنا عند عمرو وهل لذاك انتهاء

وفي القصيدة بعد أمثال :

إن نبشتم . . . أو نقشتم . . . . أو سكتم . . . .

وهلم جرا .

وعينية الحادرة نسيج وحدها في اعتمادها على شيء من ظاهر احتيال المخاطبة وباطن من استمرار صورة الثغر الحلو المبتسم الذي هو مخاطبه مع ما يلابس ذلك من معاني الشوق والحب، وقد سبق منا التنبيه الى بعض ذلك في الجزء الثالث في باب الإيحاء بالتجارب الذاتية. أما احتيال المخاطبة فتكراره اسم المحبوبة عندما صار من النسيب الى الفخر ـ قال في البيت التاسع :

أسمي ويحك هل سمعت بغدرة البيت

وقال في السادس عشر:

فسمي ما يدريك أن رب فتية البيت

ورب بتخفيف الباء وتشديدها يخل بالوزن والتخفيف والتشديد كلاهما قرأوا به في قوله تعالى: "ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين" التخفيف قراءة عاصم ونافع وأبي جعفر وسائر القراء على التثقيل .

وقريب من احتيال الحادرة هذا صنيع ثعلبة بن صعير في قصيدته،

هل عند عمرة من بتات مسافر ... ذي حاجة متروح أو باكر

وهي الرابعة والعشرون في المفضليات. البتات المتاع والزاد وما أشبه وهذا البيت مضمن خطاب عمرة إذ لم يجد لديها شيئا فانصرف عاتبا .

سئم الإقامة بعد طول ثوائه ... وقضى لبانته فليس بناظر

أي ليس بمنتظر

لعدات ذي أرب ولا لمواعد ... خلف ولو حلفت بأسحم مائر

وعدتك ثمت أخلفت موعودها ... ولعل ما منعتك ليس بضائر

مسكين ! !

وأرى الغواني لا يدوم وصالها ... أبدا لذي عسر ولا مياسر

كأنه ينقض قول علقمة كله هنا وإنما دعاه الى نقضه بهذا التعميم ما مني به الآن من مزاج سوداوي

وإذا خليلك لم يدم لك وصله ... فاقطع لبانته بحرف ضامر

وهذا يشبه كلام لبيد، فإن كان سابقا له فقد أخذ لبيد منه وإن كانا متعاصرين فالله أعلم أيهما أخذ من صاحبه، ولكن قول لبيد:

حتى إذا ألقت يدا في كافر وأجن عورات الثغور ظلامها

أحسبه أخذه من بيان القرآن إذ سورة صاد مكية وفيها قوله تعالى: «فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب» وكان لبيد يفد الى مكة في أيام ما قبل الهجرة. وموضع الأخذ هنا الإضمار البحت اعتمادا على علم السامع بمرجع الضمير.
ويبقى لفظ «كافر» متنازعا بين لبيد وثعلبة أيهما سبق إليه وهو عند ثعلبة:
فتذكرا ثقلا رثيدا بعد ما ألقت ذكاء يمينها في كافر

وغير ثعلبة اسم عمرته فصيرها سمية عند قوله:

أسمى ما يدريك أن رب فتية بيض الوجوه ذوي ندى ومآثر
حسنى الفكاهة ما تذم لحامهم سبطي الأكف وفي الحروب مساعر
باكرتهم بسباء جون ذراع قبل الصباح وقبل لغو الطائر

وهذا أدنى الى وقت الشروق من قول لبيد «بادرت حاجتها الدجاج البيت» وجعل ثعلبة هذا مدخلا الى الفخر. ورب كما ترى عنده مخففة الباء.
وقد ضمن فخره قوله:

ولرب واضحة الجبين غريرة مثل المهاة تروق عين الناظر
قد بت ألعبها وأقصرهما حتى بدا وضح الصباح الجاشر

أى ذو الإشراق والسطوع قال الشارح الجشر تباشير الصباح ـ الجشر بفتح فسكون مصدر جشر. فالواضحة الجبين هي عمرة نفسها أو أخرى يغايظها بها على نحو قريب من نمط امرىء القيس إذ قال "فمثلك حبلى" في مغايظته لعنيزة صاحبة الغبيط.
وقول ثعلبة في آخر القصيدة

ولرب خصم جاهدين ذوى شذى

ليس (مع ما فيه من فخر) ببعيد المناسبة لما كان فيه من مخاصمة عمرة.
ومذهب لبيد في المعلقة في خطابه نوار قريب من طريقة ثعلبة والحادرة في مذهب هذا

الاحتيال الرابط ـ قال في أوائل القصيدة :

بل ما تذكر من نوار وقد نأت وتقطعت أسبابها ورمامها

ثم قال بعد أن وصف ناقته بها وصفها :

أو لم تكن تدري نوار بأنني وصال عقد حبائل جذامها

ثم قال :

بل أنت لا تدرين كم من ليلة طلق لذيذ لهوها وندامها

ثم مضى في فخره ـ فقوله : " وغداة ريح " وقوله : «ولقد حميت» وقوله : «وجزور أيسار» كل ذلك وما هو بمجراه داخل في مخاطبته لنوار حيث قال «بل أنت لا تدرين» ومردود عليه . هذا . وأما المعاني والصور الباطنة الرابطة بين أول كلام الحادرة وآخره فهي جمال سمية وحديث الشاعر إلى شخصها الجميل وهذا الجيد الواضح وهذه المقلة الحوراء المغرورقة حينا بعد حين ـ حقا أو توهم الشاعر ذلك ـ بدمعات الوداع ، وهذا الثغر المبتسم الحلو، الذي كأنها ابتسامته من حلاوتها قبلة

وتزودت عيني غداة لقيتها بلوى البنينة نظرة لم تقلع

وإنها نظر إلى هذا التصدف الذي يجلو عليه المحاسن وذلك قوله من بعد :

وتصدفت حتى استبتك بواضح صلت كمنتصب الغزال الأتلع
وبمقلتي حوراء تحسب طرفها وسنان حرة مستهل الأدمع
وإذا تنازعك الحديث رأيتها حسنا تبسمها لذيذ المكرع

فقد ود تقبيله هنا كما ترى وكأن قد قبله

وقول " تنازعك " الحديث مفيدنا أنه كان بينهما فيه أخذ وعطاء وقد استراح الشاعر من قوة الشعور التي تضمنها قوله «و إذا تنازعك الحديث» وما قبله من نعت إلى التشبيه ووصف الطبيعة . وقد يبدو أول وهلة أن الشاعر قد استطرد بتشبيه الثغر إلى وصف الطبيعة كما قدمنا أن الشعراء مما يفعلونه . ولكن مزيدا من النظر في نعته يدل على المعنى الذي أوردناه أخيرا ههنا أنه طلب بعض الاستراحة الوجدانية . وقد ضمن صفة الثغر المترقرق بصفائه وحلاوته هذه الصفات التي نعت بها الغدير والسارية والغلل المتقطع في أصول الخروع . وذلك قوله :

وإذا تنازعك حديث رأيتها حسنا تبسمها ـ لذيذ المكرع

ثم وصف لذيذ المكرع هذا بصفاء قطرات السارية ثم جعل ذلك غديرا لمائه مع الصفاء لون أسجر فهذا هو اللمى

بغريض سارية أدرته الصبا من ماء أسجر طيب المستنقع

فطيب المستنقع شاهدة بالصفاء. والسجرة حمرة إلى الكدرة وهو لون الماء بعد أن ينهل على الأرض ويستن ليكون جداول وغدرانا. وأسجر هنا أي ماء غدير أسجر. ومن نون الماء ونقل همزة الأسجر كان ذلك له وجها والوجه الأول عليه رواية الديوان. ويفيدنا أن الوجه الثاني رواية أيضا قول الشارح ويقال لماء السماء قبل أن يصفو أسجر (ص٥٤ شرح الأنباري الكبير س١١ ـ ١٢) فإن تك أسجر صفة لماء فلا بد من تنوين ونقل وعلى هذا الوجه ضبط طبعة دار المعارف بتعليقات العلامة أحمد محمد شاكر رحمه الله والأستاذ الجليل عبدالسلام محمد هرون (سنة ١٣٦١هـ ص٤٢ س٦)

ظلم البطاح له انهلال حريصة فصفا النطاف له بعيد المقلع

أي بعد الإقلاع والحريصة سحابة. والضمير في له يعود على ماء أسجر في رواية من نون الماء وجعل أسجر صفة له، وأشبه أن يكون عائدا على الغدير في رواية من لم ينون، أي من ماء غدير أسجر سبب سجرة لونه أن البطاح انهلت عليها سحابة حريصة فقشرت من أعاليها فهذا ظلمها لها إذ هي لا تمسك الماء فانحدر وفيه كدرة ثم أقلعت السماء فاجتمع الماء صافيا وفيه السجرة كهذا الثغر الصافي ذي اللمى

لعب السيول به فأصبح ماؤه غللا تقطع في أصول الخروع

أي في أصول النبات الغض الخضرة. وصفة هذا الماء الغلل المترقرق كأنما هي صفة لهذا الذي هو لذيذ المكرع ـ ثغرها المبتسم.

ثم يقول ـ وهذا يؤكد لك معنى الاستراحة الوجدانية، وأنه ما زال ينظر إلى الثغر ويخاطب ذات ابتسامته الشائقة:

أسمي ويحك هل سمعت بغدرة رفع اللواء لنا بها في مجمع

ثم يمضي في الفخر حتى يقول:

ومحل مجد لا يسرح أهله يوم الإقامة والحلول لمرتع
بسبيل ثغر لا يسرح أهله سقم يشار لقاؤه بالإصبع

لقاؤه بكسر اللام ورفع الهمزة أو نصبها فمن نصب جعلها بمعنى إليه ومن رفع لم

يبعد من هـذا المعنى، وقد كـرر لا يسرح أهله. وكأن ذكر الثغـر لفته بنـوع من تداعي المعاني إلى هذا الثغر اللذيذ الذي يحدثه فقال:

فسمي ما يدريك أن رب فتية　　باكرت لذتهم بأدهم مترع

وكأن هذه الصورة منتزعة من ثغرها الألمي المترع اللـذيذ المكرع ـ وقد رووا في قوله من «ماء أسجر طيب المستنقع»: «ببزيل أسجـر إلخ» فجعلوه دن خمر، ولعل الشاعر قال هكذا أول الأمر ثم عدل عنه.

ومضى الحادرة يذكـر لذته بـالشراب مع صحبه ـ وجـاء مع الأدكن المترع بصفة العيون ولكنهـا ليست بمقلتي صاحبته ذات الطرف الـوسنان، الحرة مستهل الأدمع ـ إنها عيون صحبه التي احمرت من ثمل الخمر.

هذه الخمر كدم الغزال ويـروي كدم الذبيح. وفي هذا التشبيه شيء مستكن من معنى الغزال الأتلع الـذي هو حبيبته الحسناء البكـر التي بكرت مفارقة ومـا متعته إلا نظرة.

ههنا، عندما ينتقـل الحادرة إلى تصوير نداماه وسكرهم ورفـاقه في شدة السفر، شيء من عناصر التحول والمقابلة وقد استشهدنا من قبل على ذلك بصنيع الشنفري في التائية حيث قابل بين صفات المحبوبة وصفة رفيقه «وأم عيال قد شهدت إلخ».

قوله: متبطحين على الكنيف كأنهم　　يبكون حول جنازة لم ترفع

فيه ذرء أنفاس من قوله:

ظلم البطاح له انهلال حريصة

هـذا الذرء تحسـه في لفظتي متبطحين والبطـاح وفي البكاء وفي انهلال الحريصـة والجنازة هنا الدن الذي شربوه. والأسجر في رواية من روى ببزيل أسجر هو الدن

وقوله من بعد يصف الأشعث

ولدى أشعث باسط ليمينه　　قسما لقد أنضجت لم يتورع

صورة فيها مشابه من أم عيال الشنفري ومقابلة لقوله:

وإذا تنازعك الحديث رأيتها　　حسنا تبسمها لذيذ المكرع

ثم ما جاء بعد من ذكر السفر

ومسهـــدين من الكـــلال بعثتهم　　بعـــد الكـــلال إلى ســـواهم ظلع
أودي السفـــار بـــرمهـــا فتخـــالها　　هيما مقطعـــــة حبـــــال الأذرع
تخد الفيـــافي بـــالرحـــال وكلهـــا　　تخدي بمنخـــرق القميص سميـــدع

فهذه في مقابلة الظعائن التي كل منها تسير بحسناء تتصدف بواضح صلت كمنتصب الغزال الأتلع

وقوله من بعد :

ومطية حملت رحل مطية حرج تنم من العثار بدعدع

رجع به إلى مشقات السفر وقوله ومطية خطاب إذ كأنه قد قال : فسمى ما يدريك أن رب مطية هكذا شأنها صنعت بها كذا وكذا .

ثم جعل آخر شيء صفته نفسه في السفر حيث أناخ وعرس وتوسد ساعده القوي وهجع هجعة كموتة فلما نهض وجد أن ساعده قد خدر حتى كأن قد بان ، غير أنها كانت هجعة قصيرة لم يتقلب فيها عن حال توسده فلهذا خدر ساعده ، وناقته لم تترك إلا أثر ثفناتها ، كأن موضع كل ثفنة من ثفناتها الخمس أفحوص قطاة .

ومناخ غير تئية عرسته قمن من الحدثان نابي المضجع
عرسته ووساد رأسي ساعد خاظي البضيع عروقه لم تدسع

أي لم تمتلىء وتنتفخ كما تفعل عروق من جاوز الشباب وشاخ

فرفعت عنه وهو أحمر قاتر قد بان مني غير أن لم يقطع

في قوله قد بان مني نوع من أصداء بكور سمية وبينها مع علاقة قلبية بها . والحمرة من ألوان هوادج الظعائن .

فترى بحيث توكأت ثفناتها أثرا كمفتحص القطا للمهجع
وتقي إذا مست مناسمها الحصى وجعا وإن تزجر به تترفع

ثم رجع إلى الخطاب :

ومتاع ذعلبة تخب براكب ماض بشيعته وغير مشيع

كأنه بهذا يصف حال نفسه وحالها ، إذ قد كان هو مسافر مع رفقته الشعث في شيعة وأما الآن إذ مضت فهو متروك وحده ليمضي وحده ، أم ذكراها وهذا الثغر المبتسم له شيعة بعدها؟ .

ولقد ردنا الى ما بدأ بها إذ قال : «بكرت سمية بكرةفتمتع » بمقاله هنا «ومتاع ذعلبة» ـ والذعلبة الناقة السريعة . وإن كانت قلوصا شابة فذلك أسرع لها . وقد يعلم القاريء الكريم اصلحه الله أن العرب ربما كنت بالقلوص عن المرأة ـ فصلة متاع ذعلبة ، على هذا بقوله «بكرت سمية بكرة فتمتع» واضحة إن شاء الله . وهل نظر ثعلبة بن صعير

في قوله: «هل عند عمرة من بتات مسافر " الى قول الحادرة في مقطع كلامه هذا فجعله هو مطلعا؟ أم هذا الضرب من القول كثير وروده في الشعر ومنه كما تعلم قول المسيب:
«أرحلت من سلمى بغير متاع»
وأخذ الشعراء بعضهم عن بعض طريق ركوب.
وأمثلة الخطاب المجعول واسطة للربط بعد كثيرة. ومنها سوي ما تقدم جيمية شبيب ابن البرصاء في المفضليات:

الم تـــر أن الحي فـــرق بينهم ... نـوى يـوم صحـراء الغميم خلـوج
نـوى شطنتهم عن نـوانـا وهيجت ... لنـا طـربـا إن الخطـوب تهيج

وفيها مما يجري مجرى الخطاب:

لعمـر ابنـة العمـري مـا آنـا بـالـذي ... لـه أن تنـوب النـائبـات ضجيج
وقـــد علمـت أم الصبيين أنني ... الى الضيف قـوام السنـات خـروج
واني لأغلى اللحـم نيئـا وإنني ... لمـن يهين اللحـم وهـو نضيج
إذا المرضع العـوجـاء بـالليل عزهـا ... على ثـديها ذو ودعتين لهوج

هذا البيت جيد وفيه انطباع من تجربة حقيقيـة صادقة. هذه المرأة العوجاء أي النحيلة السيئة الغذاء ـ قال الهذلي:

ويـأوي الى نســوة عطـل ... وعـوج مـراضيع مثل السعـالي

وهذا الطفل ذو الودعتين الجائع الذي يروم ثديها وليس فيه ما يسد رمق جوعه.
وفي هذه القصيدة بيت ذكر فيه دمشق والأرز إذ وصف ناقته فقال:

لها ربـذات بـالنجـاء كأنها ... دعـائم أرز بينهن فـروج

وقريبة من هذه الجيمية في منهج الخطابة، وهي أسبق منها زمانا بلا ريب لأن صاحبها عمرو بن الأهتم أقدم زمانا من شبيب البرصاء قافية هذا التي أولها:

ألا طـرقت أسماء وهي طـروق ... وزارت علي أن الخيـال يشـوق

وقد جاء بالخطاب في أولها ثم ساق الكلام عليه:

ذريني فـان البخـل يـا أم هيثم ... لصـالـح أخـلاق الـرجـال سروق
ذريني وحطي في هـــواي فإنني ... على الحسب الـزاكي الـرفيع شفيق

ثم ذكر الضيف وخروجه اليه . وقد كان عمرو بن الأهتم من سادة بني تميم وخطبائهم ووفد الى النبي صلى الله عليه وسلم وله مع الزبرقان بن بدر في ذلك خبر . وكأن شبيبا نظر اليه في الذي خاطب به امرأته وافتخر به من قرى الأضياف وهو قوله :

وإني كريم ذو عيال تهمني ... نوائب يغشى رزؤها وحقوق
ومستنبح بعد الهدوء دعوته ... وقد حان من نجم الشتاء خفوق
يعالج عرنينا من الليل باردا ... تلف رياح ثوبه وبروق
تألق في عين من المزن وادق ... له هيدب داني السحاب دفوق
اضفت فلم أفحش عليه ولم أقل ... لأحرمه إن المكان مضيق

ومذهب المخاطبة كثير

وعند الإفرنج في قصصهم مذهب شبيه بهذا الذي أوردنا من إدارة الوحدة والربط على حيلة من المخاطبة كياسمية ويا نوار ويا بنة مالك وما أشبه أحسب أن أصله من قصص ألف ليلة وجحا ونحوهما من الأساطير وهو الذي يقال له Picaresque (بيكارسك)وهو ما يجعل أمر وحدته منوطا بمغامرات شخص بعينه وإن لم يكن بين المغامرات نفسها رابط يربط بينها غير هذا الشخص المغامر ـ من ذلك« دون كيهوتي أو كيشوت» ويرى بعضهم أن هذا أصله من تحريف اسم جحا وذكر أبو حيان التوحيدي في بعض ما كتب أنه كان من الكوفة على زمان بني أمية ، وقصة «توم جونز »للروائي الانجليزي « فيلدنج» وما اشبه . وقد أنكر ارسطو طاليس صحة الوحدة على هذا الوجه في المأساة وعاب من جعل قوام مأساته أخبار هرقل البطل وقال برأيه المعروف في تشبيه وحدة المأساة بوحدة الكائن الحي وهو ما يقال له الوحدة العضوية . ثم استعمل هذا اللفظ على غير وجهه ، والله الموفق للصواب .

سابعا ، الاقتضاب

قال زهير بن أبي سلمى في المعلقة :

فلما وردن الماء زرقا جمامه ... وضعن عصي الحاضر المتخيم
ظهرن من السوبان ثم جزعنه ... على كل قيني قشيب ومفأم
فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله ... رجال بنوه من قريش وجرهم
يمينا لنعم السيدان وجدتما ... على كل حال من سحيل ومبرم

فهذا اقتضاب ، وسوغه أنه متضمن لمعنى الرحلة إذ قوله :

وقفت بها من بعد عشرين حجة ... فلأيا عرفت الدار بعد توهم

يدل على ذلك ، ثم استمر في الرحلة حتى بلغ البيت فأقسم . وقد ذكرنا من قبل أن زهيرا قد جاء من بعد بعناصر من التسلسل والمقابلة وسوى ذلك مما هو عناصر للوحدة والربط في هذه القصيدة العظيمة الشأن

وقال زهير بعد النسيب ووصف الحديقة والناقة المقتلة والسائق والقابل والضفادع

يخرجن من شربات ماؤها طحل   على الجذوع يخفن الغم والغرقا

قال :

بل اذكرن خير قيس كلها حسبا   وخيرها نائلا وخيرها خلقا

وهذا اقتضاب مضمن إضرابا عن ذكر الحبيبة وتسليا عنها وإقبالاً على جد من الأمر، وهو المذهب الذي بسطه علقمة في البائية ، وخشنه لبيد في قوله :

فاقطع لبانة من تعرض وصله   ولشر واصل خلة صرامها

وقد سبق التنبيه منا أن مثال دع ذا وأمثال :

فعد عن ذكرها إذ لا ارتجاع له

مع أن ظاهره اقتضاب ، هو حقا موصول بها قبله وما بعده وأولى المذاهب عندي وأحقها بأن يسمى اقتضابا ما كان يقع في المفاخرات والنقائض وأشعار القبائل إذ فجاءة الانتقال فيه من النسيب الى القتال أمر طبيعي يدلك على ذلك قول عمرو بن معد يكرب :

لما رأيت نساءنا يفحصن بالمعزاء شدا

وبدت لميس كأنها قمر السماء اذا تبدي

نازلت كبشهم ولم أر من نزال الكبش بدا

وقال سعد بن مالك من كلمته على نفس الوزن وكلتا الكلمتين في الحماسة :

كشفت لهم عن ساقها   وبدا من الشر الصراح

يعني الحرب :

فالهم بيضات الخدور هناك لا النعم المراح

من ذلك مثلا قول بشر بن أبي خازم الأسدي وهي التاسعة والستون في المفضليات :

لولا تسلي الهم عنك بجسرة   عيرانة مثل الفنيق المكدم

زيـافـة بـالـرحل صـادقـة السرى | خطـــــــارة تهص الحصى بمثلـم
سـاـئل تميا في الحروب وعــامـــرا | وهـل المجـــــرب مثل مـن لم يعلـم

ومن عند هذا البيت أقبل على المقاتلة بالبيان والفخر، وكان قد حمس نفسه له ببيضاء العوارض التي سمعت قيل الوشاة وهو بها شديد الغرام:

دار لبيضـــاء العـــوارض طفلـــة | مهضـــومـة الكشحين ريـــا المعصم
سمعت بنـا قِيل الـوشـاة فأصبحت | صرمت حبـــالـك في الخليط المشئـم
فظللت من فـــرط الصبـابــة والهوى | طـــرفـا فـــؤادك مثـل فعل الأيهم

الأيهم هو الجمل المغتلم هذا مراد بشر لا أشك فيه.
قول الشارح والأيهم المذكور الفؤاد الذي لا يَفْهم شيئا كالحَجَرِ الأَيْهَم والصَّخْرةِ اليهماء وهي الملساء والأيهمان السيل والجمل المغتلم. قلت والجمل المغتلم يخرج كركرته وترى شاهـد الحزن والصبابـة عليه ويمتنع عن الطعام والشراب. وفسروا قـوله طـرف الفؤاد بكسر الراء وفتح الطاء أي استطرف حزنا أي أحسه جديدا.
وميمية بشر هذه جيدة ولكن ميمية عنترة أخملتها.
ومن ذلك قول الأعشى:

ودع هـريـرة إن الـركـب مـرتحل | وهل تطيق وداعـــا أيها الـــرجل

ثم وصف هريرة فأبدع ما شاء، من متبرجة خلوب، بالألباب لعوب:

هـــركـــولـــة فنـق درم مـــرافقهـــا | كأن أخمصهـــا بـــالشـــوك منتعل
إذا تقـــوم يضـــوع المسك أصـــورة | والـــزنبق الـــورد مـن أردانها خضل

ثم أخذ في وصـف الروضة، وكأنـه بذكـر المسك والروضـة يؤم سبيل عنترة ــ وليس له جد عنترة في الوصف وإخلاصه له، ولكن لكلامه حلاوة:ـ

مـا روضـــة من ريـــاض الحزن معشبـة | خضراء جـــاد عليهـــا مسبـل هطل
يضـاحك الشمس منهـا كـوكب شرق | مـــــــؤزر بعميم النبـت مكتهـل
يـــومـــا بأطيب منهـــا نشر رائحـــة | ولا بأحسـن منهـــا إذ دنـــا الأصل

ثم أخذ الأعشى في قري من اللهو والمفاكهة:

علقتهـــا عـــرضـــا وعلقت رجـــلا | غيري وعلق أخـرى غيرهـــا الـــرجل

وعلقتـــه فتـــاة مـــا يحاولها ومـن بني عمهـــا ميت بها وهـل
وعلقتني أخيرى مـــا تـــلائمني فـــاجتمع الحب حب كلـــه تبل

من قولهم متبول بحبها أي كله عشق مفـرط والتبل بفتح فسكون ذهاب العقل وهو ما تفعله المرأة بالرجل إذا هام بحبها

فكلنـا مغـرم يهذي بصـاحبـه نـــاء ودان ومخبـــول ومختبل

وعلى هذا النمط جاء شكسبير الشـاعر الانجليزي بمناظـر من مسرحيته التي سماها: "A MIDSUMMAR NIGHTS DREAM" أي «حلم منتصف ليلـة من ليـالي الصيف» وكثرة المشابـه بين ضروب من أقاويل شكسبير وأصناف من شعر العـرب تنبىء أنه قد قرأ من ذلك أو سمعه ممن قرأه كمعاصره بدويل الذي ترجم معاني القرآن مثلا.
ومنهج الأعشى في فكاهته لمن تأمله تمثيلي الروح.
ثم يصير الأعشى الى نوع مـن معاتبة هـريرة. وهـا هنا توطئـة خفية لما سيأخـذ فيه من عتاب ووعيد جاد من بعد:

صـدت هـريـرة عنـا مـا تكلمنـا جهـــلا بأم خليـــد حبل مـن تصل
أأن رأت رجـــلا أعشى أضر بـــه ريب المنـــون ودهـــر مفنـــد خبل
قـــالت هـــريـــرة لما جئت زائرهـــا ويلي عليـك وويلي منك يـــا رجـل

هذا البيت من الفكـاهة ذروة. وهو مضمن ذكـرى، لأن هريرة صدت عنـه الآن وهو أعشى أضربه ريـب الدهر. ولقـد مر زمـان كان إذا زارها قـالت ويلي عليك من أهلي وويلي منك ستفضحني. وكأن الـذكرى المضمنـة إنها هي محض احتيال شعـري وإنما جاء زائرهـا الآن فراعها ـ كما راع بشـار من بعد، وما أحسبه إلا قـد تأثر الأعشى، إذ قال:

وإنا لا نراكِ فألمسينا

فراعته بأكثر مما راعها. وليست لبشار على جودة شعره خفة روح أبي بصير.

إمـا تـرينـا حفـاة لا نعـال لنـا إنـــا كـذلك مـــا نحفى وننتعل

فهذا يدلك أنه زائرهـا الآن وخلع نعليه لكيلا يكون لوقع أقدامـه صوت فهذا من مكر زوار النساء ـ وقد ألح على أن الأمر كله ذكرى بقوله بعد:

وقـد أخـالـس رب البيت غفلتـه وقـــد يحاذر مني ثم مـــا يئل

أي ما ينجو

وقــد أقــود الصبــا يــومــا فيتبعني وقــد يصــاحبني ذو الشرة الغــزل
وقــد غــدوت الى الحانــوت يتبعني شــاو مشل شلــول شلشل شــول

وزعم ابن قتيبة أن هـذا مما تأخر لفظه ومعنـاه وأخطأ على حذقه بـلا ريب وذلك أنه لم يكن لمثله في فقهه وورعه أن يهش الى شيء من أمر الشراب ولهوه ـ والبيت من المفردات الجيـاد. ثم أخذ الأعشى في صفـة مجلس الخمـر والأنس، وأخـذ من علقمة أخـذا، وكـلام علقمة تخالطـه من الـذكرى أحـزان مع جـودة الوصـف وإتقان نغم القـريض وصفائه. وكلام الأعشى فيه الجذل، وتحس فيه حـركة الطرب والحيوية وأنس المجلس الثمل وخفـة حـركـة السـاقي ورنين الصنج والغنـاء وحـلاوة الفتيـات الـراقصـات الغزلات:

في فتيــة كسيــوف الهنـد قـد علمـوا أن هـــالـك كل مـن يحفى وينتعـل
نــازعتهم قضـب الــريحان متكئـا وقهـــوة مـــزة راووقهـــا خضل
لا يستفيقـــون منهـــا وهي راهنـــة إلا بهات وإن علـــوا وإن نهلـــوا
يسعى بها ذو زجـاجــات لــه نطف مقلـص أسفل السربـــال معتمـل

فها هنا حركة وحيوية

والحركة أهدأ في وصف علقمة ساقيه:

ظلت تــرقـرق في النــاجـود يصفقهــا وليـــد أعجم بـــالكتـــان مفـــدوم

علقمة هنا ينظر الى لـون الخمر وبريقها وجودتها ونظافـة هذا الأعجم وتجويده عمله ـ ولكن الأعشى يصـور السعـى الحثيث، والأقـراط التي تتـذبـذب بـه وهـذا الاعتمال والتقليص ــ الأعشى يرتقب مجيء الكأس ليعبهـا عبا وينهمك مع صخبهـا وحيويـة مجلسها. أمـا علقمة فهو ينظـر بعين بصيرة الذكرى الى متعـة ذاقها وقد ذهبت أيـامها وبقيت لـذاذة ذلك في النفس والأسى على ذهـابه ومـا تغيرت بـه الـدنيا من حـال الى حال.

ومستجيب تخال الصنج يسمعــه إذا تــرجع فيـــه القينــة الفضل

وهل هـذه القينة الفضل هي هـريـرة مع الذي حـاول أن يضفيـه على هريـرة من سيما الحرائر وأسلوبهن إذ قال:

كأن مشيتها من بيت جارتها مر السحابة لا ريث ولا عجل
ليست كمن يكره الجيران طلعتها ولا تراها لسر الجار تختتل

ولكنها كما ترى زوارة فهذا أشبه بأن تكون هي قينة. ثم يقول:

والساحبات ذيول الريط آونة والرافلات على أعجازها العجل

تفسير أبي عبيدة أن العجل هي المزادات بكسر العين وفتح الجيم أشبه أي أكفالهن ضخمات ويتبرجن بها. وللأصمعي تفسير آخر أنهن كانت بأيديهن المزادات يخدمن بها من يسقينهن وهو وجه بعيد. وقد ذكر الأعشى الساقي فما كانت الساحبات تسقيه أصحابه وإنما كن يغنينهم ويرقصن يدلك على ذلك قوله من قبل: «إذا ترجع فيه القينة الفضل» وهؤلاء الساحبات والرافلات من متاع ما كانوا يلهون به. ودليل آخر قوله بعد هذا البيت وهو في معنى ما ذهب إليه أبو عبيدة:

من كل ذلك يوم قد لهوت به وفي التجارب طول اللهو والغزل

هذا البيت ولا سيما عجزه جيد. أي اللهو والغزل من التجارب التي تكسب الحكمة وهو معنى عميق الغور.
وإذ ذكر أن اللهو من التجارب ساغ له أن يجيء بعده بما يقابله، على النحو الذي رأينا في تائية الشنفرى وفي عينية الحادرة، بل بمذهب الشنفرى أشبه:
وبلدة مثل ظهر الترس موحشة للجن بالليل في حافاتها زجل
لا يتمنى لها بالقيظ يركبها إلا الذين لهم فيها أتوا مهل
والمهل التجارب، فهذا دليل الربط بما تقدم فيه بين جلي أيما جلاء ويقوى ما قلنا به من قبل.

جاوزتها بطليح جسرة سرح في مرفقيها إذا استعرضتها فتل

هذا في صفة الناقة الفتية القوية جعلها في مقابلة القينة الفضل وفي مقابلة الهركولة الفنق. ثم من التجارب شيم البرق من أجل الصيد ومن أجل أن يراد للمرعى. وههنا أيضا مقابلة إذ الغيث وعارضه تحول مما كان فيه من فلاة كظهر الترس أي ملساء لا نبت بها إلا عزيف الجنان في ليلها ولهبان القيظ في نهارها:
بل هل ترى عارضا قد بت أرمقه كأنما البرق في حافاته شعل
له رداف وجوز مفأم عمل منطق بسجال الماء معتمل
ثم رجع الى اللهو الأول الذي كان فيه على نحو قريب مما نبه عليه ابن رشيق إذ تمثل بأبيات النابغة العينية.

لم يلهني اللهـو عنـه حين أرقبـه ولا اللـذاذة مـن كأس ولا شغل

يعني شغلا بغـزل النساء. وزعم بعض المفسرين أن الشغل الذي في قولـه تعالى: «إن أصحاب الجنة اليـوم في شغل فاكهون» هو فض الأبكار. وبيت الأعشى هـذا توطئة لما سيئول إليه قوله من بعد من أمر الجد والوعيد الذي كالهجاء والخصومة.

فقلت للشرب في درنـا وقـد ثملـوا شيمـوا وكيف يشيم الشـارب الثمل
قـالـوا نمار فبطن الخال جـادهما فـالعسجديـة فـالأبلاء فـالـرجل
فـالسفح يجري فخنـزيـر فبرقتـه حتى تـدافع منـه الـربـو فـالحبل

الربو والحبل موضعان.

حتى تحمل منـه الماء تكلفـة روض القطـا فكثيب الغينـة السهل
يسقي ديـارا لها أصبحت غـرضـا زورا تجانف عنهـا القـود والـرمل

لها أي لهريرة. زورا جمع زوراء أي بعيدة ـ أي أصبحت ديـارها بعيدة لاتبلغها الإبل ولا الخيل وقـوله غرضـا أي غرضـا للأمطـار أو غرضـا لمن يهواها وهـو الشاعـر. وقد جمع الأعشى هنا بين نشوة الثمل ونشـوة رؤية البرق ونشوة ذكرى الحبيبة، فـاسحنفر بذلك الى مواجهة قرن وقتاله :ـ

أبلغ يـزيـد بني شيبـان مألكـة أبـا ثبيت أمـا تنفك تأتكـل
ألست منتهيـا عن نحت أثلتنـا ولست ضـائرهـا مـا أطت الإبل
كنـاطح صخـرة يـومـا ليفلقهـا فلم يضرهـا وأوهى قـرنـه الـوعل

فهذا اقتضاب كما ترى.

ويروى "كناطح صخرة يوما ليوهنها" وهو أشد ملاءمة لقوله أوهى في عجز البيت.

والاقتضـاب هنا قـريب المعادن من اقتضـاب بشر بن أبي خازم، مع مـا صاحبـه من عناصر المقابلة والعود الى ما كان قد سبق ذكره.

وقال بشر بن أبي خازم في مفضليته (٩٦) التي أولها:

عفت مـن سليمى رامـة فكثيبهـا وشطت بها عنـك النـوى وشعـوبها
وغيرهـا مـا غير النـاس قبلهـا فبـانت وحـاجـات الفـؤاد تصيبهـا

ثم ذكر الفراق والدموع ثم قال:

رأتني كأفحـوص القطـاة ذؤابتي ومـا مسهـا من منعم يستثيبهـا

فقولـه "وما مسهـا من منعم" قريـب مما سماه ابن رشيق بـالخروج، وهو نحـو قول أبي الطيب:

مـــرت بنـــا بين سربيهـــا فقلت لها　　　من أين جـائس هــذا الشـادن العـربـا
فاستضحكت ثـم قالت كالمغيـث يرى　　　ليث الشرى وهـو مـن عجل اذا انتسبـا

فهذا احتيال احتال به أبو الطيب فخرج الى مدح المغيث.
وقال بشر إنها رأت رأسي لا شعر به أملس كأفحوص القطاة، وأيس ذلك لأن منعها من علي فجز ناصيتي إني من معشر أولى قتال.

أجبنا بنـي سعد بن ضبـة اذ دعوا　　　ولـلـه مـولى دعـــوة لا يجيبهـا

فهذا اقتضاب مـع الخروج الذي صار به الشاعـر إليه. إذ الغزل ونشوتـه قد وطأت الى ذكر القتال وتحدى الشاعر لبنى سعد بن ضبة.
ولو رجعت الى قول حسان بن ثابت:

إن كنت كــاذبــة الــذي حــدثتني　　　فنجــوت منجى الحارث بـن هشـــام
تــركَ الأحبــة أن يقـــاتل دونهم　　　ونجـــا بـــرأس طمـــرة ولجام

فههنا مع احتياله بـالخروج الذي خرجه نوع "من اقتضاب" هيأ لـه الغزل قبله، إذ هو خصومة وقتال.
وعلى هـذا الـوجـه يصح زعـم ابن رشيق أن العـرب الأولين لم يكن شعـراؤهم يستعملـون الخروج كـاستعمال أبي الطيب وأبي تمام والمحـدثين لـه، لأن هـؤلاء كـانـوا يخرجون بـه كل الخروج، أما مـا جاء منه في كـلام القدماء كما عند حسان فلـه اتصال معنوي ما، على النحو الذي ذكرنـاه منه. أو على تضمين خطاب للمحبوبة بما سيأتى كما صنع الحادرة بقـولـه «فسمي» ولبيـد بقولـه: «بل أنت لا تـدرين» وما أشبـه. ومن أوضح هذا مثالا قول عبد المسيح بن عسلة العبدي:

ألا يـــا اسلمـي على الحوادث فـــاطما　　　فـإن تسـأليـني تسـألي بي عـــــــالما
غــدونـــا إليهم والسيـــوف عصينـــا　　　بـأيمانـنــــــــــا نفلي بهن الجماجما
لعمـــري لأشبعنـــا ضبـــاع عنيـــزة　　　الى الحول منهـــا والنســور القشـــاعما

الاقتضاب عند المحدثين

الذي سماه ابن رشيق خـروجا أكثـر ما يقال لـه في شعر المحـدثين التخلص ومما مدح به أبو الطيب حسن التخلص كبيت المغيث وكقوله:

حـــال متى علم ابن منصـــور بها　　　جـــاء الـزمـــان الى منهـــا تـائبـــا

وكقول حبيب:

يجاهد الشوق حينا ثم ترجعه مجاهدات القوافي في أبي دلفا

وقوله:

وعاذل هاج لى باللوم مأربة باتت عليها هموم النفس تصطخب
لما أطال ارتجال العذل قلت له الحزم يثني خطوب الدهر لاالخطب

ولا ريب أن القارىء أصلحه الله قد فطن الى جناس خطوب وخطب والى مناسبة الخطب لقوله قبل لـ " لما أطال ارتجال العذل "

لم يجتمع قط في مصر ولا طرف محمد بن أبي مروان والنوب
لى من أبي جعفر آخية سبب ان تبق يطلب أنْ معروفي السبب

على أن في تخلص حبيب هذا أنفاسا من روح اتصال المعاني الذي نجده عند القدماء ومذهب القدماء عنده كثير كقوله:

لست من العيس أو أكلفها وخدا يداوي المريض من وصبه
الى المصفى مجدا أبي الحسن انصعـ ـن انصياع الكدري في قربه

فهذا كما ترى من باب الرحلة بعد النسيب وبكاء الديار وأول هذه القصيدة:

إن بكاء في الدار من أربه فشايعا مغرما على طربه

والخطاب لعينيه وتخلص الى وصف المزن وكان به كلفا:

وكقوله:

إليك جزعنا مغرب الملك كلما هبطنا ملا صلت عليك سباسبه

فهذا كقول علقمة: إلى الحارث الوهاب أعملت ناقتى

وكقوله:

وركب يساقون الركاب زجاجة من السير لم تقصد لها كف قاطب

إلى أن قال بعد وصف جده في السير:

إذا العيس لاقت بي أبا دلف فقد تقطع ما بيني وبين النوائب

ويقابل التخلص الاقتضاب، وهو الخروج فجأة من النسيب إلى المدح بلا تقديم وهو الذي ذكر ابن رشيق أن من اسمائه البتر والكسع والقطع وضرب له مثلا عند القدماء دع ذا وعد عن ذا واستشهد له من كلام المحدثين بقول البحتري:

لولا الرجاء لمت من ألم الهوى لكن قلبي بالرجاء موكل

إن الـــرعيـــة لم تـــزل في سيرة عمـــريـــة مـــذ ســـاسهـــا المتـــوكل

وقد استشهدنا له من قبل بقوله :

إني وإن جـــانبت بعض بطـــالتي وتـــوهم الـــواشـــون أني مقصر

ليروقنـي سحـــر العيـــون المجتلى ويشــــوقنـي ورد الخدود الأحمر

اللـــه مكن للخليفـــة جعفـــر ملكـــا يحسنـــه الخليفـــة جعفـــر

وقـد حـاكى البحتري في هذا مـن مذهبـه وهـو عنـده كثير أستـاذه أبا تمام إذ لـه منه قصائد، كقوله :

أذكت عليك شهـاب نـار في الحشـا بـالعـذل وهنـا أخت آل شهـاب

عـــذلا شبيهـــا بـــالجنـــون كأنما قـرأت بـه الـورهـاء صـدر كتـاب

أومـــا رأت بـــردى من نسج الصبـــا ورأت خضـاب الله وهـــو خضـابي

لا جـود في الأقـــوام يعلم مـــا عـــدا جـــودا حليفـــا في بني عتـــاب

متـــدفقـا صقلـــوا بـــه أحســـابهم إن السماحـــة صيقـل الأحســـاب

وكقوله يخاطب الشيب في نسيب قصيدة له في أبي سعيد الثغري :

كل داء يـــرجـى الـــدواء لـــه إلا الفظيعين ميتـــــة ومشيبـــــا

يـــا نسيب الثغـــام ذنبك أبقـى حسنـــاتي عنـد الحســـان ذنـوبـــا

ولئن عبـن مـــا رأيـن لقـــد أنـــ ـــكرن مستنكـــرا وعبـن معيبـــا

أو تصـدعن عـن قلى لكفى بـالشـــ ـــيب بيني وبينهـم حسيبـــا

لـــو رأى اللـــه أن للشيب فضـــلا جـــاورتـــه الأبـرار في الخلـــد شيبـــا

كل يـــوم تبـــدى صروف الليـــالي خلقـــا من أبي سعيـــد رغيبـــا

غير أن أبا تمام لم يشتهر بـالاقتضاب شهرة أبي عبادة علي كثرته عنده وجودتـه وأنفاس الصلابة فيه العربية في أسره. وأحسب أن من أسباب ذلك جودة احتيالات خروجه ـ أو كما قلنا قبل ـ حسن تخلصه كالأمثلة التي أوردنا وكقوله :

لقـد أنست مسـاوىء كل دهـر محاســن أحمد بـــن أبي دؤاد

وإن كان قد سبق هذا ما هو كالاقتضاب في قوله :

وأعين ربــــرب كحلت بسحـــــر وأجســـــاد تضمخ بـــــالجســـــاد

بـــــزهـــــر والحذاق وآل بـــــرد ورت في كـل صـــالحة زنـــادي

ثم مدح هؤلاء وتخلص إلى ابن أبي دؤاد.

وكأن أبا الطيب نظر إلى هذا المذهب حين مدح بني عمران بعد ذكره الخيل ثم تخلص إلى أبي أيوب فقال :

سقيت منابتها التي سقت الورى　　بندى أبي أيوب خير نباتها

إلا أنه سلك سبيل التخلص في الموضعين .

وليس أصل اقتضاب البحتري من اقتضاب الأوائل في قصائد المدح ، وإن يك استاذه فيه أبو تمام مما ينظر إلى هؤلاء ، وكأن أكثر اقتضابه إضراب عن ذكر الرحلة . وليس كذلك صنيع البحتري الذي إنما هو من النسيب وثب مفاجىء .

مثلا ، قول أبي تمام في أول البائية

لو أن دهرا رد رجع جواب　　أو كف من شأويه طول عتاب

لعذلته في دمنتين بأمرة　　ممحوتين لزينب ورباب

فدل هذا على أنه وقف عند الدمنتين وهو في طريقه إلى الممدوح ، ثم قد ذكر عذل امرأته التي جعل " أخت آل شهاب " كنية لها ، ثم قال :

لا جود في الأقوام يعلم ما خلا　　جودا حليفا في بني عتاب

فهذا كالرد على العاذلة .

وشبيه بهذا قوله وأشعر فيه أنه مرتحل :

لله ليلتنا وكانت ليلة　　ذخرت لنا بين اللوى والشربب

قالت وقد أعلقت كفي كفها　　حلا وما كل الحلال بطيب

فسره التبريزي بقوله قد جمعت هذا الذي أحلت لي من نفسها أنه حلال وأنه طيب مستلذ ، وهو وجه غير أنه ضعيف . والظاهر من المعنى أنها قالت له تحلل مما عزمت عليه من الرحلة . فقولها هذا ما كان أطيبه ، وفي هامش طبعة الديوان قال ابن المستوفي فأما إذ لم يقل حلا طيبا أوهم أن ما بذلته من الحلال غير طيب . ولا نعلم أما بذلت له حلال هو أم غير حلال ، وإنما هي إلمامة ليلة ألمها بهذه الحسناء ، ويجوز أن ذلك كان متعة استحلها ثم أخذ في سبيل الرحلة ، وكلا كلامي أبي زكريا وابن المستوفي غير واف

فنعمت من شمس إذا حجبت بدت　　من نورها فكأنها لم تحجب

وإذا رنت خلت الظباء ولدنها　　ربعية واسترضعت في الربرب

قالوا إذا رنت الغزالة نصت جيدها والربرب بقر الوحش وعيونهن واسعات فجمع لها جيد الظبية وحلاوتها وعيون المها .

إنسية إن حصلت أنسابها　　جنية الأبوين ما لم تنسب

أي جمالها خارق وهذا ولده من قول الشنفري :

فـدقت وجلت واسبكـرت وأكملت … فلو جن إنسـان من الحسن جنت

ثم أشعر بارتحاله ومـروره على مدينة الزباء الخربة ، على شـاطىء الفرات ، وقالوا إنها من بقايا مدينة الزباء صاحبة الخبر.

قال أبو تمام :

قـــد قلت للـــزبـــاء لما أصبحت … في حـــد نـــاب للـــزمـــان ومخلب
لمدينـــــة عجماء قـــد أمسـى البلى … فيهـــا خطيبـا بـــاللسان المعـــرب
فكأنها سكـن الفنـــاء عـــراصهـــا … أو صـال فيهـا الدهـر صـولـة مغضب
لكن بنـــو طـــوق وطـــوق قبلهم … شـــادوا المعـــالي بـــالثنـــاء الأغلب

فهذا اقتضاب ، وله صلة بما قبله . وقـد فسر أبو تمام الزباء فقال لمدينة عجماء ثم أبي إلا طباقا فجاء باللسان المعرب وهو بلا ريب لسـانه هو وإن كان الظاهر يفيد لسان حال البلى أنه مبين فكأنـه معرب ـ غير أن قولـه باللسان المعرب أدل على لسـان معرب بعينه وهو لسانه الذي ترجم به عن لسان حال البلى .

اقتضـاب البحتري محض مفـاجـىء كل المفـاجأة مبتـور منقطع الصلـة ـ إلا النغم وإيحاءاته ـ بما قبله ، كقوله المتقدم الذي استشهدنا به ، وكقوله :

وربـت ليلـــة قـــد بت أسقـى … بعينيهـــا وكفيهـــا المدامـــا
قضينـــا الليل لثما واعتنـــاقـــا … وأفنينـــاه ضما والتـــزامـــا
خـــلافـــة جعفـــر عـــدل وأمن … وحلم لم يـــزل يسع الأنـــامـــا

مقدمة البحتري قبل اقتضابه إنما هي ترنم يتهيأ به لاندفاع إلى المديح . وهذا من صنيعه شبيه بصنيع جرير في الهجاء ـ مثلا :

بـــان الخليط غـــداة الجنـــاب … ولم تقـض نفسك أوطـــارهـــا
فـــلا تكثـــروا طـــول شك الخلاج … وشـــدوا على العيس أكـــوارهـــا
سـأرمي بها قـــاتمات الفجـــاج … ونهجـــر هنـــدا وزوارهـــا
ألاقبـح اللـــه يـــوم الـــزبير … بـــلاء القيـــون وأخبـــارهـــا
تـــركتم لسعـــد زمـــام الـــزبير … وعقـــر الفتـــاة وتجرارهـــا

أحسبه «رمام الـزبير» بالمهملة لأن ابن جرموز قاتلـه من بني سعد رهط الأحنف والفتاة جعثن أخت الفرزدق .

ومثال آخر وهو أشهر:ـ

يــا أم نــاجيــة الســلام عليكم قبل الــرواح وقبل لــوم العــذل
وإذا غــدوت فــلازمتك تحيــة سبقت سروح الشــاحجــات الحجل

أي سبقت كل شؤم فغدوت على أيمن طائر والشاحجات هي الغربان وحجلانها مشيتها التي قيل أراد الغراب بها محاكاة الطاووس فلم يستطع ولا عاد الى ما كان عليه من مشية الطير

لــو كنت أعلم أن آخــر عهــدكم يــوم الــرحيل فعلت مــا لم أفعل
أو كنت أرهــب وشك بين عــاجــل لقنعت أو لسألت مــا لم أسأل
أعــددت للشعــراء سما نــاقعــا فسقيت آخــرهــم بكأس الأول
لما وضعت على الفــرزدق ميسمي وضغا البعيث جدعت أنف الأخطل

ومثال ثالث:

فسقــاك حيث حللت غير فقيــدة هــزج الــرواح وديمــة لاتقلع
فلقــد يطــاع بنــا الشفيع لــديكمــو ونطيع فيك مــودة من يشفع
هل تــذكــرين زمــاننــا بعنيــزة والأبــرقين وذاك مــا لايــرجع
إن الأعــادي قــد لقــوا لي هضبــة تنبى معــاولهم إذا مــا تقــرع
مــا كنت أقــذف من عشيرة ظــالم إلا تــركت صفــاهــم يتصــدع
أعــددت للشعــراء كــأســا مــرة عنــدي مخالطهــا السمام المنقع
هــلا نهاهــم تسعــة قتلتهــم أو أربعــون حــدوتهم فــاستجمعــوا

وكأن هذا على اقتضابه جرى فيه جرير على مذهب المخاطبة الذي في عينية الحادرة وجعل بلاءه في الهجاء من باب بلاء الفرسان في الحروب ومثال رابع:

وقــد أقصرت عن طلب الغــواني وقــد آذن حبلى بــانصرام
إذا حــدثتهن هــزئن منى ولا يغشين رحلي في المنــام
لقــد نــزل الفــرزدق دار سعــد ليــالي لايعف ولايحامي

وهذا خبر جعثن والاقتضاب هنا وثبة ظاهرة.

ومثال خامس:

لقــد نــادى أميرك بــابتكــار ولم يلــووا عليك ولم تــزارى
وقــد رفع الظعــائن يــوم رهبى بــروح من فــؤادك مستطــار

رفع الظعائن أي مضين مسرعات في سيرهن مفارقات وقد ذهبن بقلبك في هوادجهن

ذكرتك بالجموم ويوم مروا على مران راجعني ادّكاري
وتيم يفخرون وضرب تيم كضرب الزيف بار على التجار

ومضى في الهجاء
ومن عجيب أمر البحتري أنه فيما ذكروا كان يميل الى تقديم الفرزدق. وربما يكون قد تأثر بفرط ثناء الجاحظ الحسن عليه - قال الجاحظ في الجزء الثالث من الحيوان: «وإن

أحببت أن تروي من قصار القصائد شعرا لم يسمع بمثله فالتمس ذلك في قصار قصائد الفرزدق فإنك لم تجد شاعرا قط يجمع بين التجويد في القصار والطوال غيره، وقد قيل للكميت إن الناس يزعمون أنك لاتقدر على القصار قال من قال الطوال فهو على القصار أقدر. هذا الكلام يخرج في ظاهر الرأي والظن ولم نجد ذلك عند التحصيل على ما قال.» ا. هـ[ص٩٨]
وذكروا أن أبا نواس هم بأن يكتني بأبي فراس وهي كنية الفرزدق. وما يخلو الأمر من تعصب أهل البصرة لشاعرهم.
على أن بشارا قد كان بصريا وكان ميله الى جرير وكذلك كان ميل مروان بن أبي حفصة، وهذا بعد باب واسع والخلاف فيه قديم وكان البحتري في أسلوبه أدنى الى جرير. وفي هذا الاقتضاب هو آخذ منه بلا ريب. وسوغ الاقتضاب لجرير أن له مشابه في شعر الأيام والخصومات في أشعار القدماء. ثم قد كان هو صاحب نقائض وما كان أمر مهاجاته من يهاجيه ولا مهاجاتهم له كل ذلك بذي خفاء. فكان تغنيه بالغزل بين يدي هجائه وترنمه بذكر الديار والنسيب من ضرب الحماسة على النحو الذي هو معروف من مذهب العرب من الارتجاز وذكر النساء قبل المناجزة وبازائها.
وقد ارتجزوا في جهاد الفتوح بمثل قولهم:

يا ليتني ألقاك في الطراد عند التحام الجحفل الورّاد
تمشين في حليتك الورّاد

وقال المختار الثقفي:

قد علمت بيضاء صفراء الطلل أني غداة الروع مقدام بطل

فزعموا أنه سأله أحد من كان يقاتل معه أين الملائكة يا أبا إسحاق أو «ما هذا معناه» فقال له قاتل عن حسبك، أو ما هذا معناه، وكأن السائل أنكر على المختار ذكر النساء كما يفعل غيره من العرب ممن ليست لهم مثل دعواه أن الملائكة كانوا يعينونه.

ومن قديم ما رووا من رجز الأبطال قول ربيعة:

جررن أطراف الذيول واربعن
فعل حييات كأن لم تفزعن
إن تمنع اليوم نساء تمنعن

حتى الخوارج وهم ما هم في التشدد قد تغنوا بالغزل في جد حروبهم التي إنما كانت جهادا للكفرة على ما كانوا يعتقدونه ـ قال قطري بن الفجاءة:

فواكبدا من غير جوع ولا ظما	وواكبدا من حب أم حكيم
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت	طعان فتى في الحرب غير ذميم
غداة طفت علماء بكر بن وائل	وعجنا صدور الخيل نحو تميم

مقدمات البحتري أشبه بالتقاسيم الموسيقية التي تسبق لحن المغني وعمود غنائه. وفيها ما ذكرنا من أنها تهيئة كان يهيىء بها نفسه لاندفاع المديح. وقد كان البحتري نديما. فالذي صنع بأدب المنادمة أشبه وفيه أدخل.

ومن أمثلة اقتضابه مما هو عميق في هذا المجال كلمته المشهورة:

لي حبيب قد لج في الهجر جدا	وأعاد الصدود منه وأبدى
ذو فنون يريك في كل يوم	خلقا من جفائه مستجدا
يتأبي منعا وينعم إسعا	فا ويدنو وصلا ويبعد صدا
أغتدي راضيا وقد بت غضبا	ن وأمسى مولى وأصبح عبدا
وبنفسي أفدى على كل حال	شادنا لو يمس بالحسن أعدى
مر بي خاليا فأطمع في الوص	ل وعرضت بالسلام فردا
وثنى خده الى على خو	ف فقبلت جلنارا وورداً
سيدي أنت ما تعرضت ظلما	فأجازي به ولا خنت عهدا
رق لي من مدامع ليس ترقا	وارث لي من جوانح ليس تهدا
حاش لله أنت أفتن ألفا	ظا وأحلى شكلا وأحسن قدا
خلق الله جعفرا قيم الدي	ن سدادا وقيم الدين رشدا

فهنا الوثبة المديحية كما ترى

أكــرم النــاس شيمـــة وأتم النـــــ ـــاس خلقــا وأكثــر النــاس رفــدا
ملك حصنت عـــزيمتــه الملـــــ ـــك فأضحت لـــه مغــاثــا وردا

وهلم جرا

وقـال في الضاديـة التي من الخفيف وإياهـا كما ذكرنـا من قبل جاري شـوقي في بضية أنس الوجود :

أيها العـــاتب الـــذي ليس يـــرضى نم هنيئـــا فلست أطعم غمضـــا
إن لي من هـــواك وجـــدا قـــد استهـــ ـــلك نـــومي ومضجعـــا قـــد أقضـــا
فجفــــوني في عبرة ليس تــــرقـــا وفـــؤادي في لـــوعـــة مـــا تقضى
يـــاقليل الإنصـــاف كـــم أقتضى عنـــ ـــدك وعـــدا إنجـــازه ليـس يقضى
فأجـــزني بـــالـــوصل إن كـــان أجـــرا وأثبني بـــالحب إن كـــان قـــرضـــا
بـــأبي شـــــــادن تعلـــق قلبـي بجفـــون فـــواتـــر اللحظ مـــرضى
غـــرني حبـــه فـــأصبحت أبـــدي منـــه بعضـــا وأكتم النـــاس بعضـــا
لست أنســـاه بـــاديـــا من قـــريب يتثنى تثني الغصـن غضـــــــا
وأعتـــــذاري إليـــــه حتى تجافي لي عـــن بعض مـــــا أتيت وأغضـى
واعتـــلاقي تفـــاح خـــديـــه تقبيـــ ـــلا ولثما طـــورا وشما وعضـــا

ثم جاءت الوثبة وغير خاف أن هذا لها موضع :

أيها الـــــراغب الـــذي طلب الجو د فأبلى كـــــوم المطـــايـــا وأنضى
رد حيـــــاض الإمـــــام تلق نـــــوالا يسع الـــراغبين طـــولا وعـــرضـــا
فهنـــــاك العطـــــاء جـــــزلا لمن را م جـــزيل العطـــاء والجود محضـــا

ومع الوثبـة هنا شيء من تداعي المعـاني لاحق بأدب المنادمة ، وهو صلـة ما بين جود الحبيب من الود وجود الإمام مما به ينال الجاه والمعاش والسعادة .

ومن أمثلة اقتضابه الحسنة قوله في صفة البركة :

قـــد أطـرق الغـــادة البيضـــاء مقتـــدرا على الشبـــاب فتصبيني وأصبيهـــا
في ليلـــة مـــا ينـــال الصبح آخـــرهـــا علقت بـــالـــراح أسقـــاهـــا وأسقيهـــا

عـاطيتها غضـة الأطـراف مـرهفـة ... شربت مـن يـدهـا خمرا ومن فيهـا
يـا من رأي البركـة الحسنـاء رؤيتهـا ... والآنسـات إذا لاحت مغـانيهـا

وقـد جاء بـوثبـة الاقتضاب هنـا بعـد ذكره التقبيـل ـ واحتفظ بشيء من معـاني الغزل :

يحسبهـا أنها في فضـل رتبتهـا ... تعـد واحـدة والبحـر ثـانيهـا
مـا بـال دجلـة كـالغيري تنافسهـا ... في الحسن طـورا وأطـوارا تبـاهيهـا

وقد يـرى قاريء هذا الشعر وسـامعه والمتغني به اتصال بيت «يـا من رأي البركة الحسناء» بـالبيت تاليـه فهذا مـدان للتضمين وليس به وفيـه رد مفحم لمن قال مكـابرا باستقلال مفردات الأبيات في قصيد العرب .

وقال البحتري في كلمته التي أولها

أكنـت معنفي يـوم الـرحيـل ... وقـد جـدت دمـوعي في الهمـول
عشيـة لا الفـراق أفـاء عـزمي ... إلي ولا اللقـاء شفـى غليلي

ثم يقول :

طـربت بـذي الأراك وشـوقتني ... طـوالع من سنـا بـرق كليل
وذكـرنيك والـذكـرى عنـاء ... مشـابـه فيك بينـة الشكـول
نسيـم الـروض في ريـح شمال ... وصـوب المزن في راح شمـول
عـذيـري من عـذول فيك يلحى ... على ألا عـذيـر من عـذول
تجرمـت السنـون ولا سبيـل ... إليـك وأنـت واضحـة السبيـل
وقـد حـاولت أن تخد المطـايـا ... إلى حـي على حلـب حلـول
ولـو أني ملكت إليـك عـزمـي ... وصلت النـص منهـا بـالـذميل
فـأولى للمهـارى مـن فـلاة ... عـريض جـوزهـا وسرى طـويل

فهذا في المحبوبـة وسير اللحاق بها ـ ثم وثب إلى مديح الفتح وكأنـه اقتدى شيئا في هذا بكعب بن زهير، إذ المحبوبة كالرمز عند كعب وهي هنا كذلك :

زكت بالفتح أحدان المساعي ... وأوضح دارس الكرم المحيل

ووضوح السبيل علاقة كما ترى .
ومما هو اقتضاب محض قوله :

لا تكـــذبن فما الصبـــا بمخلـف فينـــا ولا زمن الصبـــا بمعـــاد
وأرى الشبـاب على غضـارة حسنـه وجمالـــه عـــددا مـن الأعـــداد
إن الخلافـــــة أحمدت مـن أحمد شيما ينيــــــف بها على الإحماد
ملـك تحييــــه الملـــوك ودونــــه سيما التقـى وتحيـــة الـــزهـــاد

وفي إحدى متوكلياته وفيهن تجويد منادمته :

أصبـابـة بـرسـوم رامـة بعـدمـا عـرفـت معـالمهـا الصبـا والشمأل
وسألت من لا يستجيب فكنت في اســـ ـــتخباره كمجيب مـن لا يسأل
اليـوم أطلـع للخـلافـة سعــدهـا وأضـــاء فيهـــا بـــدرهـــا المتهلل
لبست جـــلالـــة جعفـــر فكأنها سحـــــر يجللـــه النهـــار المقبل

هذا من قصيدتـه التي أولها «لولا تعنفني لقلت المنزل» ـ وأبيـات السيرة العمرية في اللامية الأخرى: «قل للسحاب إذا حـدته الشمأل» وهي أجود. والبيت الذي رواه ابن رشيق ليس في الديوان المطبوع (دار صادر) وابن رشيق أوثق إن شاء الله.

وللبحتري مذهب الرحلة ومذاهب من المقابلة والرجوع إلى ما تقدم وقد يكون منه الخروج ـ [حسن التخلص] ـ الحسن أحيانا كقوله :

حنت ركـــابي بـالعـراق وشـــاقهـا في نـــاجـــر بـــرد الشـــآم وريفــه
ومـــدافع الســاجـور حيث تقـابلت في ضفتيــه تـــلاعـــه وكهـــوفــه
ويهيجني أن لا يـــــزال يـــــزورني منهـــا خيـــال مـــا يغـب مطيفــه
وشفــاء مـــا تحت الضلـــوع من الجوى سير يشـق على الهدان وجيفـــــه
إن لم يـــــريثنـــا الجواز عن التي نهوى ويمنعنـــا النفـــوذ رفيفـــه
أو نـــائل الفتـح بن خـــاقـــان الـــذي للمكـــرمـــات تليـــده وطـــريفــه

وأحسب أن هذا علي استقامته دون جودة مفاجأة اقتضابه ومما أحسبه لم يستقم له قوله في كلمته العذبة النسيب التي أولها :

كم بالكثيب من اعتراض كثيب

قال :

فلـــربما لبيت داعيـــة الصبـــا وعصيت من عـــذل ومـن تأنيـب
يعشى عـن المجـد الغبـي ولن تـرى في ســـؤدد أربـــا لغير أريـب
والأرض تخرج في الـوهـاد وفي الـربـا عمم النبـــات وجـل ذلك يـــوبي

نظم هـذا البيت نظما فبعضـه من أبي تمام من قـوله «حتى تعمم صلـع هامـات الـربى» وبعضه من الحديث: «إن ممـا ينبت الربيـع ما يقتل حبطـا أو يلم» ـ ثم جـاء بحسن التخلص الذي ليس بحسن

وإذا أبو الفضل استعار سجية للمكرمات فمن أبي يعقوب

ولعل القافية استهواه شيطانها، إذ مثلها عند مسلم بن الوليد إذ يقول:

يأيها الـــرجـل المثمـــر مـــالـــه وهـــو المسلب عـــرضـه المسلـــوب
خل المكـــارم قـــد كفـــاك مـــراسهـــا سعـــدانها وسليلـــه يعقـــوب

وللبحتري مما لم يذهب فيه مـذهب الاقتضاب ولكن مذهب التخلص الرشيقي كما في عينية النـابغة وداليته «يـا دار مية بـالعلياء فالسنـد» كلمات جياد. ولا يخفى أن النابغـة في أدب المنادمة زعيم، فلا غـرو أن اقتدى به البحتري وهو نـديم مثله. فمن هذه الكلمات عينيته في المتوكل الفخمة النفس والروى:

منى النفس من أسماء لو يستطيعها

ومن تلك قافيته في الفتح:

حلفت لها بـــاللـــه يـــوم التفـــرق وبـــالـــوجـــد من قلبي بها المتعلق
وبـالعهـد مـا البـذل القليل بضـائع لـــدي ولا العهـــد القـــديم بمخلق

أي ببال

وأبثثتهـا شكـوى أبـانت عن الجوى ودمعـــا متى يشهـــد ببث يصـــدق
وإني لأخشـــاهـــا علي إذا نـأت وأخشى عليهـــا الكـــاشحين وأتقى
وإني وإن ضنـت علي بـودهـــا . . . لأرتـــاح منهـــا للخيـــال المؤرق
(أحسبه بوعدها). . .
يعـــز على الـــواشين لـــو يعلمـــونها ليـــال لنـــا تـــزدان فيهـــا ونلتقى

هذا يقوى ما ذهبنا إليه أن الصواب بوعدها، إذ هذا البيت الذي يذكر لقاءها وازديانها شاهد ود.
ثم يقول في الطيف:

فكم غلة للشوق أطفأت حرها ... بطيف متى يطرق دجى الليل يطرق

الأولى رباعية من إسبال الليل أستاره وهيمنته كأنه مطرق والثانية ثلاثية من طروق الطارق. وهذا الطيف يطرقه إذا أطرق الليل.

أضم عليه جفن عيني تعلقا ... به عند إجلاء النعاس المرنق

هذا البيت جيد في وصف أول الإفاقة من النوم.
ثم يقول:

إذا شئت ألا تعذل الدهر عاشقا ... على كمد من لوعة الحب فاعشق
وكنت متى أبعد عن الخل اكتئب ... له ومتى أظعن عن الدار اشتق

فهذا فيه رجعة الى التفرق الذي بدأ بذكره

تلفت من عليا دمشق ودوننا ... للبنان هضب كالغمام المعلق
الى الحيرة البيضاء فالكرخ بعدما ... ذممت مقامي بين بصرى وجلق

وهذه دياره ولكن ثم جاهه وسادته ومنادمته ونداماه

الى معقلي عزي وداري إقامتي ... وقصد التفاتي بالهوى وتشوقي

فرجع الى معنى الهوى كما ترى

مقاصير ملك أقبلت بوجوهها ... على منظر من عرض دجلة مونق
كأن الرياض الحويكسين حولها ... أفانين من أفواف وشى ملفق

هذه الكافات والفاءات نمط نابغي

إذا الريح هزت نورهن تضوعت ... روائحه من فار مسك مفتق

ثم جاء دور القاف في نغم الجرس النابغي

كأن القباب البيض والشمس طلقة ... تضـاحكها أنصـاف بيض مفلق

ومع القـاف الضاد والفـاء وصدى من الكـاف التي مرت من قبل وفي هـذا البيت على كونه في نعت قصور بغداد أطياف من مناظـر ثلج لبنان، الذي قال من قبل إنه كالغمام المعلق.

ومـن شرفـــات في السماء كـأنها ... قـــوادم بيضـــان الحمام المحلـق
ربـاع من الفتح بن خـاقـان لم تـزل ... غنى لعـــديـم أو فكـــاكـــا لمرهق
فـلا العـائذ الـلاجي إليهـا بمسلم ... ولا الطـالب المحتـاج منهـا بمخفق

وقريب من طريق هذه القافية في التسلسل وجـودة أخذ الكلام بعضه برقاب بعض مع احتفاظ كنين بعناصر الوثب التي في الاقتضاب وأشياء من عادة الشعراء لاميته :ـ

عهـد لعلـوة بـاللـوى قـد أشكـلا ... مـــا كـــان أحسن مبتـــداه وأجملا

قال في انتقاله من النسيب الى الخمر الى صفة القصر:ـ

بتنـا ولي قمـران وجـه مسـاعـدي ... والبـــدر إذ وافى التمام وأكمـــلا
لاحت تبـاشير الخريـف وأعـرضت ... قطع الغمام وشـــارفت أن تهطـــلا
فترو مـن شعبـــــان إن وراءه ... شهـــرا يمانعنـا الـــرحيق السلسـلا
أحسن بـــدجلـــة منظـــرا ومخيما ... والغـــرد في أكنـاف دجلـــة منـــزلا

ثم وصفه واتلأب به القول من بعد الى مدح المتوكل

بـدع لبــدع في السماحـة مـا تـرى ... مـن أمـــره إلا عجيبـــا مجذلا

ونختم هذا الفصل بالإشارة الى ميميته :

ألا هل أتـــاهـا بـــالمغيب سـلامى ... وهل خبرت وجـــدى بها وغـــرامي
وهـــل علمــت أني ضنيـــت وأنها ... شفـــائي مـن داء الضنى وسقـــامي

فقد تخلص فيها من شكوى الحب ورقة النسيب الى بعض التفتي يجعله وسيلة الى ذكر الكأس

فليس الـذي حللتـه بمحلل   وليس الـذي حـرمتـه بحـرام
وإنـي لأبـنـاء على كـل لائم   عليك وعصـاء لكـل مـلام
وكنت إذا حـدثت نفسي بسلـوة   خلعت عـذاري أو فضضت لجامي
وأسبلـت أثـوابي لكـل عظيمـة   وشمـرت عن أخـرى لكل غـرام

فهذا تفت منه، أي عمل بالفتوة وخلص منه الى ذكر المنادمة ومجلس الأنس واللذات والصيد

هل العيش إلا مـاء كـرم مصفق   يـرقـرقـه في الكأس مـاء غمام
وعـود بنـان حين سـاعـد شدوه   على نغـم الألحان نـاي زنـام
أبى يـومنـا بـالـزو إلا تحسنـا   لنـا بسماع طيب ومـدام

الزو اسم سفينة عملها المتوكل للنزهة. وشبهها البحتري بالجبل ومن العجب لصانعي هوامش طبعة الديوان أنهم فسروا الزو (هامش ٣ ص١٦ من ج١ ـ طبعة دار صادر ببيروت) بأنه جبل ولو رجعوا الى القاموس لوجدوا أنه سفينة وقد ذكر بيت البحتري والجبل لا يقاد بزمام كما سيأتي ولكن تقاد السفينة.
ثم تجيء أبيات من بديع ما جاء في صفة الصيد بالبزاة ـ جمع البازي ـ وذلك من لهو الملوك وندامائهم ومن يجرى هذا المجرى من أهل الثراء والأمراء:

غنينـا على قصر يسير بفتيـة   قعـود على أرجـائه وقيـام

فهذا القصر السائر هو الزو والفتية القعود فيه والقيام هم النوتيون والخدم الألى فيه

تظل البـزاة البيض تخطف حـولنـا   جثـاجىء طير في السماء سـوامى
تحدر بـالـدراج من كل شـاهق   مخضبـة أظفـارهن دوامـي

مخضبة مرفوعة، صفة لموصوف محذوف معلوم هو البزاة، جعلها كأن عليها خضابا ثم فسر هذا الخضاب بأنه الدم الذي على أظفارها من صيدها الدراج وهو من الطير الجيد أكله. وأخذ البحترى صفة بزاته المخضوبة من قول أبي زبيد «طيرا عكوفا كزور العرس» لأن زور العرس عليهن الخضاب، وقد مر البيت الذي منه هذه القطعة في باب القوافي

في أوائل الجزء الأول من هذا الكتاب .

فلم أر كالقاطول يحمل ماؤه تدفق بحر بالسماحة طام

فالماء ماء القاطول عند دجلة وهو الذي ذكره في المرثية «محل على القاطول أخلق داثره» . والبحر المتدفق بالسماحة الطامى بها هو الخليفة المتوكل .

ولا جبلا كالزو يوقف تارة وينقاد إما قدته بزمام

فهذه صفة سفينة والسفينة تشبه بالجبل ، قال تعالى : «وله الجوار المنشئات في البحر كالأعلام» أي كالجبال والجواري السفائن .

لقد جمع الله المحاسن كلها لأبيض من آل النبي همام
يطيف بطلق الوجه لا متجهم علينا ولا نزر العطاء جهام
يحببه عند الرعية أنه يذبب عن أطرافها ويحامى
وأن له عطفا عليها ورقة وفضل أياد بالعطاء جسام

ثم يمضي في المدح بأسلوب النديم البلاطي المحب لسيده المخلص له السعيد (على حد ما ذكره ابن خلدون من بعد) بملقه وخدمته :

لقد لجأ الإسلام من سيف جعفر الى صارم في النائبات حسام
يسد به الثغر المخوف انثلامه وإن رامه الأعداء كل مرام
إليك أمين الله مالت قلوبنا بإخلاص نزاع إليك هيام

قوله " أمين الله " مراده منه أمير المؤمنين وأمينه بذلك فيهم . ومع هذا أصداء " من أبي نواس ، وقد كان البحترى شديد المحاكاة له و النظر إليه في أدب المنادمة ، كما أنهما كليهما كانا شديدي التأثر لشيخ الندماء نابغة بني ذبيان وكبيرهم على مر الزمان ، إذ ليس منهم من عريت له امرأة سيده المفتون بها حتي يصفها متجردة فتأمل . وإكثار أبي نواس من صفات الخمر يحث على قرنه بالأعشى ، وقد فطن الناقد اللبناني مارون عبود الى تأثر الأعشي بالنابغة إلا أنه غلا في ذلك إذ جعله مجترا وقد عرضنا لهذه المسألة من قبل .

إليك أمين الله مالت قلوبنا بإخلاص نزاع إليك هيام
نصلي وإتمام الصلاة اعتقادنا بأنك عند الله خير إمام

وكأن قد خشي أبو عبادة أن ينسب في هذا الى كذب ونفاق فقال :

حلفت بمن أدعوه ربا ومن له صلاتي ونسكي خالصا وصيامي

وهنا نفس قرآني وانظر آخر الأنعام : إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي " الآية

لقد حطت دين الله خير حياطة وقمت بأمر الله خير قيام

يشير بهذا الى أخذ المتوكل بقول أهل السنة وإبطاله ما كان عليه من قبله الواثق والمعتصم والمأمون من حمل الناس على القول بخلق القرآن ـ فيحمل قوله«بأنك عند الله خير إمام» على هذا الوجه والله تعالي أعلم .

فصل فيما يقع من تشابه أشكال القصائد

كان حق هذا الفصل أن يذكر مع التوطئة التى جعلناها للحديث عن العنصر الرابع من عناصر وحدة القصيدة وهو الذي سميناه بنفس الشاعر بتحريك النون والفاء . ولعله لا بأس بذكره في هذا الوضع استدراكا لما فات ثم فيما تقدم أمثلة كثيرة مما نأمل أن يكون أعون على توضيح مرادنا في هذا الباب .

أشرنا في أول حديثنا عن المطالع والمقاطع الى ما تقدم من معالجة لبعض ذلك في الجزء الثالث حيث استشهدنا في الباب الرابع منه بقول النابغة «يا دار مية بالعلياء فالسند» ومطالع تشبهه . وقد ذكرنا في الجزء الثالث أيضا أمثلة أخري مما تتشابه فيه طرائق الشعراء نحو:

صحا القلب عن سلمي وأقصر باطله
صحا القلب عن سلمي وملّ العواذل
إن الخليط أجد البين فانفرقا
بان الخليط ولم يأووا لمن تركوا
بانت سعاد فأمسى القلب معمودا

ونحو المرأة المغاضبة كما عند الجميح في قوله :

أمست أمامة صمتا ما تكلمنا

وقصيدتي عبيد بن الأبرص وأبيات القرشي التي منها قوله :

سالتاني الطلاق إذ رأتانى قل مالي قد جئتماني بنكر

أو تسألاني كما جاء في النص الذي أوردناه أي تسألانني وحذف النون لغة وعليه قراءة نافع في بعض ما قرأ به و رواية الكتاب في باب الهمز "سالتاني" ونبه على أنه من تخفيف الهمزة وهي لغة قريش لا على لغة من قال سال يسال كخاف يخاف قال رحمه الله "وبلغنا أن سلت (١) تسال لغة" وفي خبر ابن هرمة أنه لما قيل له إن قريشا لا تهمز قال إنه يجيء بقصيدة كلها على الهمز وذلك قوله :

إن سليمى والله يكلؤها ضنت بشيء ما كان يرزؤها

فهذا يلحق بما تقدم ذكره من صناعة ابن هرمة وبديعه وأن البديع والصناعة ديدن في العربية قديم لا من حيث وقوع ذلك على قلة وعفوا فحسب ولكن من حيث العمد والقصد إليه أيضا .

ونبه هنا كما نبهنا من قبل على أن سامعي الشعر القديم على زمانه وعلى أزمان قرون الإسلام الأولى كانوا يعلمون كثيرا مما نجهله نحن علم قلب جليا لا يحتاج الى بسط وتفسير فكان بيان مغامض اللفظ والمعني أكثر ما يهتمون به ثم بعد ذلك لا يخفي عليهم مذهب الوحدة والجودة في أغراضه ومقاصده وألوان إيحائه ودلالات موسيقاه ورنات لفظه وطبيعة أسره وأنواع الديباجة وما يلحق بذلك مما يوصف بأنه ماء الشعر ورونقه .

على أننا قد بقيت فينا بقية من ذلك العلم القلبي فعلينا ألا نضيعها . بعض هذه البقية في الدارجة الأصيلة التي لم تفسدها بعد شوائب أجهزة الإعلام ــ وإن شئت فقل الإجهال العصري ، التى مما تدخل بتلفيقاتها ودخيلها أصنافا من اللين والهجنةعلى أصالتها ومتانة أسرها . وسائر هذه البقية في القرآن وعلوم العربية وميراث آدابها .

واعلم أيها القارىء الكريم أصلحك الله أن القصائد السبع الطوال المعلقات وملحقاتها الثلاث اللاتى يكملنها عشرا قد ضمن أهم أصول أشكال القصيد العربي والفروع الكبر المتفرعة عنهن وسائر الشعر بعد ذلك يمكن رده الى هذه وقد سبقت منا الإشارة الى ذلك ، ونقصد ههنا الى بعض التفصيل .

في السبع شكلان كل منهما أصل ، "قفا نبك" وقد أجمعوا على تقديمها وعلى أن الشعراء تأثروا مذهب صاحبها في كثير مما نظموه ، وكلمتا عمرو بن كلثوم والحارث اليشكري . وقد قيل في كلمة عمرو بن كلثوم :

ألهي بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يفاخرون بها مذ كان أولهم يا للرجال لشعر غير مسئوم

(١) بكسر السين من سلت بوزن خفت وليست لغة قريش .

وقيل في همزية الحارث إنه ارتجلها وأنشدها الملك وبينه وبين الملك سبعة ستر إذ كان أبرص يكره دنوه، فطرب له حتى أزال الحجب كلها وأجلسه معه في سريره. والخبر كأنه أسطوري المبالغة. وما أشك بعد أن له أصلا لاتفاق الرواية عليه. وكلتا القصيدتين شكل واحد عند التأمل.
وفي العشر شكل واحد أصل وهو في قصيدة النابغة:

يا دار مية بالعلياء فالسند

وقصيدة الأعشى:

ودع هريرة إن الركب مرتحل

وقصيدة عبيد شكلها من قرى شكل "قفا نبك" كما ذكرنا من قبل ولكن غرابة وزنها، وصاحبها شاعر فحل، مما حث على روايتها كما رويت ميمية المرقش:

هل بالديار أن تجيب صمم

وكما اختيرت كلمة سلمى بن ربيعة

إن شواء ونشوة   وخبب البازل الأمون

وقد سبق الحديث عن هذا الجانب في معرض الحديث عن الأوزان في الجزء الأول وفي هذا الجزء أيضا
قفا نبك، مخصرة الشكل. نقول هذا على وجه التشبيه. وذلك أن لها وسطا كأنه في مجاله ضيق وهو يفصل بين جزئها الأعلى وهو أولها وجزئها الأسفل وهو آخرها. وهذا الجزء الأوسط يذهب مذهب التأمل والتفكر والحكمة، وما قبله ذكريات ووصف وأشجان فؤاد وكذلك ما بعده وهو قوله.

وليل كموج البحر أرخى سدوله   على بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه   وأردف أعجازا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل الا انجل   بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فيـــالك مـن ليل كأن نجـــومـــه بكل مغـــار الفتـل شـــدت بيـــذبل
كأن الثـــريـــا علقـت في مصـــامهـــا بأمـــراس كتـــان الى صم جنـــدل
وقـــربـــة أقـــوام جعلت عصـــامهـــا على كـــاهل منى ذلـــول مـــرحل
وواد كجـــوف العير قفـــر قطعتـــه بـــه الـــذئب يعـــوى كـــالخليع المعيل
فقلت لـــــه لما عـــوى إن شـــأننـــا قليـــل الغنـــى إن كنـــت لما تمول
كـــلانـــا إذا مـــا نـــال شيئـــا أفـــاتـــه ومن يحترث حـــرثـى وحـــرثك يهزل

وكقفا نبك كلمة علقمة الميمية وخصرها قوله :

بل كـل قـــوم وإن عـــزوا وان كثـــروا عـــريفهم بـأثـــافي الشر مـــرجـــوم
والحمـــــد لا يشترى إلا لـــــه ثمـن ممـــا يضن بـــه الأقـــوام معلـــوم
والجود نـــــافيـــــة للمال مهلكـــــة والبخل بـــاق لأهليـــه ومـــذمـــوم
والمال صـــوف قـــرار يلعبـــون بـــه على نقـــــادتـــــه واف ومجلـــــوم
ومطعم الغنـم يـــوم الغنـم مطعمـــه أنى تـــوجـــــه والمحـــروم محروم
والجهل ذو عـــــرض لا يستراد لـــــه والحلم آونـــة في النـــاس معـــدوم
ومن تعـــرض للغـــربـــان يـــزجـــرهـــا على ســـلامتـــه لابـــد مشئـــوم
وكل حصن وان طـــالت ســـلامتـــه على دعـــائمـــه لابـــد مهـــدوم

وما قبل هـذا صبابـات وصفات وما بعـده صفات وصبـابات وامـرؤ القيس أحذق إذ احتفظ بلـون من الوصف وجعل الحكمـة تأملا. وذهب علقمـة مذهب المثل فبـدت أبيات الحكمة لغير من يتأملها كا لمقحمة، وليس كذلك إذ النعامة وظليمها تصوير لما تمناه من ناجية تلحقه بما فارقه من نعيم وهو الأترجة وما الأترجة رمز له، ولذلك صح له من بعد أن يقول.

قـــد أشهـــد الشرب فيهم مـــزهـــر رنم والقـــوم تصرعهم صهبـــاء خـــرطـــوم

وتخصير بائية عبيد بن الأبرص قوله :

فكـل ذي نعمـــــة مخلـــــوسهـــــا وكـل ذي أمـل مكـــــــــذوب
وكـــل ذي إبـل مـــــــــوروث وكـل ذي سلـب مسلـــــــوب
وكـل ذي غيبـــــة يئـــــوب وغـــــائب الموت لا يئـــــوب
أعـــــاقـــــر مثـل ذات رحـم أو غـــــانـم مثـل مـن يخيـب

من يسأل الناس يحرموه — وسائل الله لا يخيب
بالله يدرك كل خير — والقول في بعضه تلغيب
والله ليس له شريك — علام ما أخفت القلوب
أفلح بما شئت فقد — يبلغ بالضعف وقد يخدع الأريب
لايعظ الناس من لم يعـ — ـظ الدهر ولا ينفع التلبيب
إلا سجيات ما القلوب — وكم يصيرن شانئا حبيب
ساعد بأرض إن كنت فيها — ولا تقل إنني غريب
قد يوصل النازح النائي وقد — يقطع ذو السهمة القريب
والمرء ما عاش في تكذيب — طول الحياة له تعذيب

فهذا تخصير بطين إذ عدد الأبيات قبله مثله وهو في ذكر الدار وصبابات الحنين غير أن عبيدا من حذقه ضمنه من معاني الأسى والحكمة والعظة التي في هذه الأبيات وما بعد ذكريات وأوصاف ولكن مطل عليها شبح الأسى وطيف الموت. وقد انتهت القصيدة بمصرع الثعلب لا نجاته ولكنه شبه فرسه بالعقاب. فهل كنى بالثعلب عن امرىء القيس وحجر وملك آل الحارث الكندي؟

وبانت سعاد، سيدة المدائح النبوية، مخصرة بأبيات الحكمة والتأمل إذ قال:

تسعى الوشاة جنابيها وقولهم — إنك يا بن أبي سلمى لمقتول
وقال كل خليل كنت آمله — لا ألهينك إنى عنك مشغول
فقلت خلوا سبيلى لا أبالكمو — فكل ما قدر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وان طالت سلامته — يوما على آلة حدباء محمول
أنبئت أن رسول الله أوعدنى — والعفو عند رسول الله مأمول
فقد أتيت رسول الله معتذرا — والعذر عند رسول الله مقبول

وما قبل هذه الأبيات نسيب ورحلة وصفات وما بعدها مدح مداخله وصف وفخامة تشبيه وبسط حجة.

وقد حاكى كعب منهج أبيه في كلمته:

إن الخليط أجد البين فانفرقا — وعلق القلب من أسماء ما علقا

وقد ذهب زهير بخصر هذه القصيدة مرة واحدة كما لو أسبغ عليها ثوب الذي قال، من شعراء الغزل:

أبت الـــروادف والثـــدي لقمصهـــا   مـس البطـــون وأن تمس ظهـــورا
وإذا الـــريـــاح مع العشي تنـــاوحت   نبهن حـــاســـدة وهجن غيـــورا

وانما ذهب بخصر هـذا الشكل مـذهبـه في الاقتضـاب، فكأن ذلك منـه مبـالغـة في التخصير. وقصيدة طرفة المعلقة ذات تخصير ولكن فيها غضبة الشاب ونخوته وحماسته فمن أجل ذلك جاء فيها بصفة الرحلة والنـاقة، وذلك أن خولة ظعنت فهو يتسلى عن بينها بالسفر:

وإني لأمضي الهم عنـــد احتضـــاره   بعـــوجـــاء مـــرقـــال تـــروح وتغتـــدى

ولا يخبرنا طرفة أنه يريد بينا عنهـا كما بانت منه، ولا أنه يريد لحاقا. ولكن في فؤاده هما لا يعلم وجه تسل منه غير هذه العوجاء المرقال. وهي ناقته الفتية مثله. حتى سفره لا ترى له غاية. وإنما هو قلق ورواح واغتداء.

أحلت عليهـــا بـــالقطيع فأجـــذمت   وقـــد خب آل الأمعـــز المتـــوقـــد

ولكن الى أين؟
مكان التخصير في هذه الداليـة التي لم ير لبيد شيئا يفوق شعره مـن الشعر بعد امرىء القيس غيرها هو قوله:

ومـــا زال تشرابي الخمـــور ولـــذتي   وبيعى وإنفـــاقـى طـــريفى ومتلـــدي
الى أن تحامتنـي العشيرة كلهـــــــا   وأفـــــردت إفـــــراد البعير المعبـــــد
رأيـت بنـي غبراء لا ينكــــــرونـنـى   ولا أهل هـــــاذاك الطـــراف الممـــدد
ألا أيهذا الـــــلائمي أحضر الـــوغي   وأن أشهـــد اللـذات هل أنت مخلـــدي
فـــإن كنــت لا تسطيـع دفـــع منيتـــي   فـــدعني أبـــادرهـــا بما ملكت يـــدي
ولـــولا ثـــلاث هن من عيشـــة الفتى   وجـــدك لم أحفـل متى قـــام عـــودي
فمنهن سبقـى العـــاذلات بشربـــــة   كميت متى مـــا تعل بـــالماء تـــزبـــد
وكـــرى إذا نـــادى المضـــاف محنبـــا   كسيـــد الغضـى نبهتـــه المتـــورد
وتقصير يـوم الـدجن والـدجن معجب   ببهكنـــة تحت الطـــراف المعمـــد
كأن البريـن والـــدمـــاليج علقت   على عشر أو خـــــروع لم يخضـــــد

من هنا أخذ الأعشى قوله:

تسمع للحلي وســـواســـا إذا انصرفت   كما استعـــــان بـــريـح عشرق زجل

فجعله انصرافا وعند طرفة هو إقبال أو إقبال وانصراف حملا على قوله تروح وتغتدى ويجوز ويهتدى وتناول أطراف البرير وترتدى.

كريم يروى نفسه في حياته ... ستعلم ان متنا غدا اينا الصدى
أرى قبر نحام بخيل بماله ... كقبر غوي في البطالة مفسد
ترى جثوتين من تراب عليهما ... صفائح صم من صفيح منضد
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى ... عقيلة مال الفاحش المتشدد
أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلة ... وما تنقص الأيام والدهر ينفد
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى ... لكا لطول المرخي وثنياه باليد

ثم رجع إلى معنى اللوم وهو من الهم الذي أثاره مع بين خولة وما خولة كناية عنه ثم استمر في القصيدة. وهذه الأبيات تأمل وحكمة منفعلة ومداخلها معنى ما كان فيه من غضب الشباب ونخوته ونشوته وشيء من وصف الفتاة التي فيها كشبابه وحيوية حركته: غزالة تنفض المرد، قلوص تروح وتغتدى وتذيل، وشجرة لأغصانها حفيف، أراكة ذات برير، عشر وخروع لم يخضد.

هذه الأبيات الستة عشر فاصل واصل بين ما تقدم من وصف ونسيب وما خلا من نغمة فخر ونظرة تأمل وروح حكمة وفيه بعد حرارة العاطفة حتى في نعت الناقة الدقيق كما فيه هذا الوصف الحي لمجلس الطرب وقينته:

ندامای بيض كالنجوم وقينة ... تروح علينا بين برد ومجسد
رحيب قطاب الجيب منها رفيقة ... بجس الندامى بضة المتجرد

ومن وصف طرفة ولد الأعشى هريرته ومجلس شرابه فتأمل ـ وبين ما تلا من عراك وخصومة وشكوى ولوم مر واعتزاز بالنفس وافتخار وحكمة تتخلل ذلك وتداخله، ومن مشهور قوله في الملامة:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهند

وأحسب أن مقالة الجاحظ المشهورة التي أولها: «ليس جهد البلاء مد الأعناق وانتظار وقع السيف» ولدها من قول طرفة هذا وهي له كالشرح.

ومن مشهور فخره:

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه ... خشاش كرأس الحية المتوقد

ومن مشهور المثل السائر قوله في آخر القصيدة :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بـالأخبـار من لم تـزود

ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم تمثل ببعضه.
وفي هذا القسم الثاني من القصيدة وصف عقره ناقة شيخه العزيزة الكوماء ليشتوي منها أصحابه ومجلس شرابه. وقد ترى امرأ القيس عقر مطيته لفتيات يوم دارة جلجل، فأغناه ذلك عن نعت الرحلة وعن نعت الناقة أيضا وأتاح له وصف الغبيط ومغامرته.
وقد جاء بوصف لهو الصيد وقديره وشواء في آخر القصيدة يقابل به ما تقدم به في أولها من فعله وفعل الفتيات إذ «يرتمين بلحمها وشحم كهداب الدمقس المفتل.»
والكهاة ذات الخيف الجلالة التي ذكرها طرفة في آخر قصيدته مقابلة للعوجاء المرقال التي في أولها. وقد أعلمنا أن الكهاة التي عقرها ليست له ولكنها:

عقيلة شيخ كالوبيل يلندد

ولعل العوجاء المرقال التي راح بها واغتدى هي أيضا ليست له. وصحاب الميسر في آخر قصيده، في مقابلة مجلس الندامي الذي مر قبل التخصير.
شكل قصيدة طرفة هو هكذا في جملته والتحوير الذي افتن به لاءم به أغراضه وروح انفعاله ونفس بيانه.
ومعلقة زهير نمط عزيز. وليس بنمط أصل في المدح، إذ النمط القديم هو بائية علقمة :ـ

طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

هي أقدم من :ـ

يا دار مية بالعلياء فالسند

ولكنهم لم يذكروا علقمة في أصحاب المعلقات وإن عد من الفحول وأصحاب السموط. ولو قد كانت بائيته هذه في السبع أو العشر الطوال ما عدونا النص عليها أن شكلها هي هو الأصل مكان ما ذكرنا به كلمتى النابغة والأعشى. لعلهم لم يذكروا علقمة في أصحاب المعلقات لكيلا يضاهوا به امرأ القيس. وإنما ذكروا عبيدا لغرابة وزن قصيدته واشتهارها.

أما قولنا إن معلقة زهير نمط عزيز، فإن بيانها ومعانيها وإنسانيتها كل ذلك في الذروة، ثم، وهو مقصدنا ههنا، في شكلها افتنان عظيم جدا. حذف الرحلة.

وأضرب عن ذكر الناقة المعتملة. وجاء بإبل الظعائن وإبل العقل والمفاداة، وكل ذلك جمال منظر ومخبر، لدلالته على السخاء والمعروف والسلم، ثم أشار بالناقة المعقورة الى شؤم الحرب، وهي ناقة ثمود، وبالرحى الى ما توقعه من أضرار. وإذ جعل الإبل جمالا وسلاما لم يجيء بذكرها تصريحا في الدلالة على قبح الحرب وشرورها ولكن اكتفى بالتلميح، فلم يذكر ناقة ثمود نفسها ولكن عاقرها:

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم   كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم

وقد شبه الحرب في اللقاح والنتاج بالإبل ولكنه أسند الفعل إليها وجعلها من البشر إذ نتجها غلمانا وإنما تنتج الإبل السقاب. وما يخلو زهير إذ أضرب عن صفة الناقة المعتملة وأشار بما أشار به الى العقر من نظر خفي الى قول امرىء القيس:

ويوم عقرت للعذارى مطيتي   فواعجبا من كورها المتحمل

من حيث إنه احتيال بياني.

وقد كان مكان الحكمة، لو اتبع زهير شكل التخصير (كما سميناه وإنما هو اسم على التشبيه ولا مشاحة في الأسماء كما قال قدامة) بعد قوله

ظهرن من السوبان ثم جزعنه   على كل قيني قشيب ومفأم

وإذا لكان قال بعده

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش   ثمانين حولا لا أبالك يسأم

الى قوله:

وإن سفاه الشيخ لا حلم بعده   وان الفتى بعد السفاهة يحلم

وكان قوله:

سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتم   ومن أكثر التسآل يوما سيحرم

يجيء بعد قوله:

فكلا أراهم أصبحوا يعقلونه   صحيحات مال طالعات بمخرم
لحي حلال يعصم الناس أمرهم   إذا طرقت إحدى الليالى بمعظم
كرام فلا ذو الضغن يدرك تبله   ولا الجارم الجاني عليهم بمسلم

ولكن زهيرا تصرف في الشكل المخصر، فجعل تخصيره تذييلا، وجاء بأبيات الحكمة آخر شيء، وقوله "سألنا فأعطيتم البيت" في رواية من رواه، وقد مر حديثنا عن ذلك، مقطع للقصيدة حسن.

وهذا الذي نقول به من جعل زهير التخصير تذييلا وتصرفه الذي تصرفه لا نبنيه على محض التخمين، ولكن لدينا ما يشهد بأن مثل هذا الصنيع والتصرف جائز. انظر قصيدتى ربيعة بن مقروم الضبي الثامنة والتاسعة والثلاثين في ترتيب المفضليات.

أمن آل هند عرفت الرسوما ... بجمران قفرا أبت أن تريما

و:

ألا صرمت مودتك الرواع ... وجد البين منها والوداع

وشعر ربيعة هذا ناصع واضح جميل.

الميمية مخصرة لاريب فيها وهي خمسة وأربعون بيتا في رواية المفضليات والتخصير فيها بعد نهاية وصف الآتن وفحلها إذ رماها الصائد فأخطأ ونجت بأحث ما تقدر عليه من النجاء، وذلك قوله:

وإن تسأليني فإني امرؤ ... أهين اللئيم وأحبو الكريما

وأبني المعالي بالمكرمات ... وأرضي الخليل وأروي النديما

ويحمد بذلي له معتف ... إذا ذم من يعتفيه اللئيما

وأجزى القروض وفاء بها ... ببؤسى بئيسى ونعمى نعيما

فهذا ظاهره فخر وباطنه حكمة إذ هذا الذي ذكره كله من الفضائل، وكانوا يتمدحون بسباء الخمر وإرواء الندامى، ويجوز أن يكون الإرواء بغير الخمر كاللبن والعسل والوجه أن يؤخذ هذا الكلام على عمومه فلا يخص به شراب دون شراب إلا أنه في الخمر أظهر.

ثم أقبل ربيعة على مآثر قومه وصفة الشجاعة والسلاح وذكر أيام قومه أو كما قال:

ولكن أذكر الاءنا ... حديثا وما كان منا قديما

ودار هوان أنفنا المقام ... بها فحللنا محلا كريما

إذا كان بعضهم للهوان ... خليط صفاء وأما رؤوما

تأمل جودة هذا البيت ونقاءه:

وثغر مخوف أقمنا به ... يهاب به غيرنا أن يقيما

جعلنا السيوف به والرماح ... معاقلنا والحديد النظيما

يعني الدروع لأن حديدها منظوم نظما:-

وجردا يقربن دون العيال ... خلال البيوت يلكن الشكيما

تعـــــود في الحرب أن لا بـــــراح إذا كلمت لا تشكـي الكلـــــومـــا

وهذا الفخـر الذي فخر به لقومـه، مع ما فيه من ذكـر الفضائل، ليس لـه دخول في الحكمة كـدخول الابيات الأربعة التخصيرية التي مرت، ومن أدلة هذا الـذي نذهب اليه قوله :

اذا كـــان بعضهـم للهـوان خليط صفـاء وأمــا رؤومــا

فهذا تعريض والتعريض ألصق بالفخـر منه بالحكمة . وإن يك نفس الحكمة من كل ذلك قد يستفاد : .
العينية مـذيلة . قسمهـا الأول كمثل قسم الميمية الأوسط الـذي هو تخصيرهـا من عند البيت الرابع الى الثامن، خمسة أبيات، هو قوله :

فقـــد أصل الخليل وإن نــآني وغب عــداوتي كــلأ جــداع

أي وبيء :

وأحفظ بـــالمغيبـــة أمــــر قـــومي فـــلا يســـدي لـــدي ولا يضـــاع

ويسعـــــــد بي الضريـك اذا اعتراني ويكـــره جـــانبي البطـل الشجـــاع

ويـأبى الــــذم لي أني كـــــريـم وأن محلي القبـل اليفــــــــــاع

وأني في بنـى بكـــــر بـن سعــــد اذا تمت زوافــــــرهم أطــــــاع

فهذا مما ظاهره فخر وباطنه الحكمة وهو من سنخ ما قاله في الميمية، وقبل هذه الأبيات ثلاثة هن في معنى ما وطأ به لتخصير ميميته من المخاطبة والمساءلة حيث قال :

وإن تسـألينى فـإني امـــرؤ أهين اللئيم وأحبـــو الكـريما

ثم الأبيات الثلاثة من بعد، وهنا يقول :

ألا صرمت مـــودتـك الـــرواع وجـد البين منهـــا والـــوداع

وهذا هو المطلع ثم المساءلة والجواب في قوله :

وقــــــالت إنــــــــه شيـخ كبير فلج بها ـــــ ولم تـــرع ـــ امتنـــاع

فإمــــا أمس قـــــد راجعـت حلمي ولاح علي مـن شيـب قنـــــــــاع

فقـــــد أصل الخليـل وإن نـــــآني وغب عـــــداوتي كـــــلأ جــــداع

فهذا في معنى وإن تسأليني .
ولو قد لزم ترتيب شكل المخصرة لكان قوله :

وملمـــوم جـــوانبهـــا رداح تـزجي بـالـرمـاح لها شعـاع

بعد قوله : «وقالت إنه شيخ كبير » وهو البيت الثاني ويجري الكلام مجرى المخاطبة الذي في ميمية عنترة وعينية الحادرة ويأتي التخصير من عند قوله «فإما أمس قد راجعت حلمي» الى«وأني في بني بكر بن سعد» ثم يجيء القسم الثاني من قوله : «وماء آجن» الى آخر القصيدة . وانما نزعم أن هذا قسم ثان من شكل أصله تخصيري لما فيه من الرجعة الى ذكرى الشباب . فهو بمنزلة .

وقد أغتدى والطير في وكناتها

وبمنزلة :

قد أشهد الشرب فيهم مزهر رنم

وهاتان شكلهما أصل كما تقدم .

فإن صح هذا الذي نراه من تصرف ربيعة بن مقروم ، فاجعل لزهير تصرفا شبيها به ، ولا ريب ان جودة الشكل قد زيدت زيادة بينة بهذا التصرف . إذ موقع الحكمة في آخر معلقة زهير رائع . وموقع الفخر الحكيم في أول عينية ربيعة أيضا قوي رائع نبيل .

ومن القصائد المخصرات تخصيرا شديد الضمور لامية عبدة بن الطبيب :

هل حبل خولة بعد الهجر موصول

وهي طويلة من نيف وثمانين بيتا وتخصيرها أبيات عشرة هن قوله ، وذلك من البيت التاسع بعد أربعين الى السادس والخمسين .

لما وردنا رفعنا ظل أردية	وفار باللحم للقوم المراجيل
وردا وأشقر لم ينهئه طابخه	ما غير الغلي منه فهو مأكول
ثمت قمنا الى جرد مسومة	أعرافهن لأيدينا مناديل
ثم ارتحلنا على عيس مخدمة	يزجي رواكعها مرن وتنعيل
يدلحن بالماء في وفر مخربة	منها حقائب ركبان ومعدول

الوفر بضم الواو وسكون الفاء جمع وفراء وهي قربة الماء . مخربة لها خرب جمع خربة وهي أذن القربة ، كأنهم شبهوها بالآذان التي تكون فيها ثقوب الأقراط قال ذو الرمة :

كأنه حبشي يقتفى أثرا	أو من معاشر في آذانها الخرب

يعني الحبش والسودان إذ كانوا يثقبون آذانهم .

نرجو فواضل رب سيبه حسن	وكل خير لديه فهو مقبول
رب حبانا بأموال مخولة	وكل شيء حباه الله تخويل
والمرء ساع لأمر ليس يدركه	والعيش شح وإشفاق وتأميل

والأبيات الأوائل من هذه في وصف السير ، ولكنه سير الى الجهاد فاتصالها بما صار إليه من معنى الحكمة والتحامها به جاعلها جزءا لا ينفصل عنه فتأمل . هذا ومن باب

التصرف أن يجتزيء الشاعر ببعض الشكل، فيعلم سامعوه أنها هذا حذو قصيدة كذا من عند قول شاعرها كذا. مثلا كلمة عمرو بن الأهتم :

ألا طرقت أسماء وهي طروق ... وزارت على أن الخيال يشوق

يوشك أن يكون حذاها على بعض دالية طرفة، ولا سيما قوله :

وقمت الى البرك الهواجد فاتقت ... مقاحيد كوم كالمجادل روق

البرك جماعة الإبل . مقاحيد كوم عظام الأسنمة . المجادل القصور . روق : خيار

بأدماء مرباع النتاج كأنها ... إذا عرضت دون العشار فنيق

أي وقت نفسها منه بهذه الادماء أي البيضاء الكريمة التي كأنها فحل لا أنثى من عظمها ـ الفنيق الفحل . اي كانت هذه أول ما واجهه من الإبل فعقرها ونحرها لضيوفه جازراه .

بضربة ساق أو بنجلاء ثرة ... لها من أمام المنكبين فتيق
وقام إليها الجازران فأوفدا ... يطيران عنها الجلد وهي تفوق
فجر إلينا ضرعها وسنامها ... وأزهر يحبو للقيام عتيق
بقير جلا بالسيف عنه غشاءه ... أخ باخاء الصالحين رفيق
فبات لنا منها وللضيف موهنا ... شواء سمين زاهق وغبوق

كانوا يستحسنون الضرع وروي كبدها وسنامها والأزهر ولدها الذي في بطنها ، عتيق أي كريم، أخ يعني نفسه لكرمه ونحره هذه النفيسة وما في بطنها ، وفسر بعضهم الأزهر بالدن وجعله يحبو لامتلائه ويجوز هذا التفسير على بعد ، لأن السياق ونموذج طرفة المحذو عليه هذا القول يقتضي المعنى السابق .

وبات له دون الصبا وهي قرة ... لحاف ومصقول الكساء رفيق

أي لحاف يرقد عليه وكساء يتدثر به .

وكل كريم يتقي الذم بالقري ... وللخير بين الصالحين طريق
لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ... ولكن أخلاق الرجال تضيق
نمتني عروق من زرارة في العلى ... ومن فدكي والأشد عروق
مكارم يجعلن الفتى في أرومة ... يفاع وبعض الوالدين دقيق

أرومة بضم الهمزة وفتحها والضم لغة الشاعر
فهذا من مقال عمرو بن الأهتم إنما حذاه على قول طرفة

وبـرك هجـود قـد أثـارت مخافتي ... بـــواديها أمشى بعضـب مجرد

من عند هذا البيت الى آخر القصيدة. وقد عذلـت عمرو بن الأهتم امرأته وعذل طرفة عمه.

وخلص طرفـة من قولـه الذي بدأ بـه الى الفخر والحكمـة وكذلك صنع عمـرو وميمية المخبل:

ذكـر الـربـاب وذكـرهـا سقم ... فصبـا وليس لمن صبـا حلم

مما جعل تخصيره تذييلا. ذلك بأن النسيب ينتهي بعد وصفه الدار ونعته الرباب بأنها

بـــرديـــة سبق النعيم بها ... أقـــرانها وغـــلا بها عظم
وتـــريك وجهـــا كـــالصحيفـــة لا ... ظمآن مختلـــج ولا جهـــم
كعقيلـــة الـــدر استضـــاء بها ... محراب عـــرش عظيمهـــا العجم
أغلي بها ثمنـــا وجـــاء بها ... شخت العظـــام كأنـــه سهـم
بلبـــانـــه زيـت وأخـــرجهـــا ... من ذي غـــوارب وسطـــه اللخم

وأنها كبيضة الدعص

وتضـل مـــدراهـــا المواشـط في ... جعـــد أغم كـأنـــه كـــرم
هـــلا تسلي حـــاجـــة علقت ... علق القـــرينـــة حبلهـــاجـــذم

فدلك على أنه قـد تقطعت أسبابها أو يخشى أن تتقطع فهو يتوسل إليها تـوسلا تخالطه يأس ـ وههنا محل التخصير، من حكمة وما أشبه مما تداخله الحكمة أو ينبىء عنها. ثم يجيء ذكر الدهر الذي مضى وكـان أسعد وأرفه، وصحة النفس والوصل والعيش كل ذلك فيه أتم:

ومعبـــد قلق المجـــاز كبـــا ... ري الصنـــاع إكـــامـــه درم
للقـــاربـــات من القطـــا نقـــر ... في حـــافتيـــه كأنها الـــرقم
عـــارضتـــه ملث الظـــلام بمـــذ ... عـــان العشي كـأنها قـــرم

أي كأنها فحل ــ وقلما تذكـر الشعراء غير النـاقـة إلا أن منهم من ذكر البعير كـالمنخل

وكربيعة ابن مقروم في العينية التي مر ذكرها قبل وهو قوله:

ومـــاء آجن الجمات قفـــر تعقـم في جـوانبـه السبـاع
وردت وقـد تهورت الثـريـا وتحت وليتـي وهـم وسـاع
جـلال مـائر الضبعين يخدى على يسرات ملـزوز سراع

غير أن المخبل وصل تذكره الماضي بما كان من نسيبه ونعته وجعل الحكمة ذيلا وتبع في ذلك مذهب زهير وقد شهد المخبل الإسلام فهـو من المخضرمين فهذا زعمنا أنه حاكي زهيرا وأبيات حكمته هن قوله:

وتقـول عـاذلتي وليس لها بغـد ولا مـا بعـده علم

فهذا فيه أنفاس صلة بقوله«هلا تسلى حاجة علقت». ومما يجعلون المحبوبة سائلة وعاذلة وهازئة وقد مرت من ذلك أمثلة:

إن الثـراء هـو الخلـود وإ ن المرء يكـرب يـومـه العـدم
إني وجـدك مـا تخلـدني مـائة يطير عفـاؤهـا أدم

والمائة من الإبل مال دثر. عفاؤها وبرها وكنى بقوله يطير عفاؤها عن سمنها.

ولئـن بنيـت لي المشقـر في هضـب تقصر دونـه العصـم
لتنقبـن عنـى المنيـة إن اللـه ليس كحكمـه حكـم
إني وجـدت الأمـر أرشـده تقـوى الإلـه وشره الإثـم

وآخر هذه القصيدة فيه روح من الإسلام مع الحكمة التي ترى.
وكلمة الأسود بن يعفر الدالية المليحة:

نـام الخلي ومـا أحس رقـادي والهم محتضر لـدي وسـادي

تحذو حذو معلقـة امرىء القيس، ولكن من عنـد ذكر الليل الى آخر القصيـدة، وهذا من الأسـود بن يعفـر حـذق عظيم، إذ قـد فقـد بصره فهـو في ليل، ومع الليل الهم والأحزان وطلـب العزاء. وقد جعـل أول قصيدته كلـه لذلـك. ثم أردفه ذكـر ملذات مضت وختم بالحصان ونشـوة الرحلة. وكأن بعضهم لم ترضه هذه النهـاية فجعل آخر القصيدة قوله:

فإذا وذلـك لامهـاه لـذكـره والـدهـر يعقـب صـالحا بفسـاد

ولعل الأسود قاله ثم أضرب عنه والشعراء مما يفعلون ذلك، والقصيدة بدونه أجود وأتم إذ هو لا يعدو أن يكون صوتا أجوف، وقد سبق ما هو أعمق منه وأوقع.
أما القسم المنبىء عن الهم والليل فقوله بعد البيت الأول:

من غير ما سقم ولكن شفني هم أراه قد أصاب فؤادي
ومن الحوادث لا أبا لك أنني ضربت على الأرض بالأسداد

فهذا مع الهم وبعده حزن

لا أهتدي فيها لموضع تلعة بين العراق وبين أرض مراد

ثم غلبه الحزن فأخذ في ذكر الموت على الطريقة القبرية الكفنية التي عند الممزق، ذرء منها:

ولقد علمت سوى الذي نبأتني أن السبيل سبيل ذي الأعواد
إن المنية والحتوف كلاهما يوفي المخارم يرقبان سوادي
لن يرضيا مني وفاء رهينة من دون نفسي طارفي وتلادي

ثم أخذ في التأسي:

ماذا أؤمل بعد آل محرق تركوا منازلهم وبعد إياد

لا يعنى بآل محرق ملوك الحيرة ولكن ملوكا من غسان

أهل الخورنق والسدير وبارق والقصر ذي الشرفات من سنداد
أرضا تخيرها لدار أبيهم كعب بن مامة وابن أم دؤاد
جرت الرياح على مكان ديارهم فكأنهم كانوا على ميعاد
ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة في ظل ملك ثابت الأوتاد
نزلوا بأنقرة يسيل عليهم ماء الفرات يجيء من أطواد
فإذا النعيم وكل ما يلهى به يوما يصير الى بلى ونفاد

أهل الخورنق إلخ عنى بهم إيادا، والخورنق موضع، والسدير النخل، وسنداد بكسر السين وروى فتحها نهر، وكل هذه مواضع، وأنقرة من بلاد الشام لايعني بلدة الأناضول الرومية وكعب بن مامة صاحب الكرم المشهور، وابن أم دؤاد هو أبو دؤاد الشاعر، كلاهما من إياد ـ ثم مضى يتأسى :ـ

في آل غـرف لـو بغيت لي الأسى   لـوجـدت فيهـم أسـوة العـداد

آل غرف من قومه بني تميم قيل هو زيد مناة نفسه وقيل أحد ابناء ابنائه فمن قال ذلك جعل زيدا المذكور في البيت التالي من هذه السلالة وإلا فهو زيد مناة ـ الأسى بضم الهمزة وكسرها جمع أسوة بضمها وكسرها وهي ما يتأسى به وما يقتدى به وقرىء بكسر الهمزة وضمها في القرآن والعداد بضم العين وفتحها فالضم جمع والفتح مفرد أي من يعد ما يتأسى به

مـا بعـد زيـد في فتـاة فـرقـوا   قتـلا وأسرا بعـد حسن تـآدي

أي فرقوا بسبب فتاة أبوا تزويجها كما أراد المنذر بن ماء السماء فغزاهم وفرقهم والتآدي حسن الحال

فتخيروا الأرض الفضـاء لعـزهم   ويـزيـد رافـدهم على الـرفـاد

أي وكانوا قد تخيروا الأرض الفضاء قبل أن يقع بهم هذا الخطب فهذا آخر التأسي ويقابله في النموذج الذي حذا على مثاله وهو«قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل» قوله :

كلانا إذا ما نال شيئا أفاته

في رواية من روى أبيات الذئب لامرىء القيس وهو الذي عليه الرواة غير ما طعن به الأصمعي ومن لم يروها فإنه يقابله منه قوله :

ألا أيها الليل الطويل ألاا نجل

وما يلحق به من ذكر الأمراس والثريا .

وبعد هذا ذكر الشباب وما تصرم من سعادة العيش ولذاته من عند قوله : «وقد أغتدي والطير في وكناتها»الى وصف الخيل والصيد وشيم البرق والصوار والسيل الى آخر القصيدة ـ وكذلك هاهنا أخذ الأسود بن يعفر في ذكر لذات الماضي اللاتي قد انقضين يحزن بذلك ويتسلى معا ، وهو من عند قوله :

إمـا تـريني قـد كبرت وغـاضني   مـانيل من بصري ومن أجـلادى

وعصيت أصحاب الصبابة والصبا   وأطعت عـاذلتي ولان قيـادى

فلقـد أروح الى التجـار مـرجـلاً   مـذلا بمالي لينـا أجيـادي

ثم يمضي في الذكريات . وقوله مرجلا عنى به شبابه إذ سواد الشعر ووفوره إنما يكون في

ميعة الشباب ويعجبني قوله «لينا أجيادي» إذ يبس العنق وتغضنه من شواهد تقدم السن. وجعله أجياداً لترائيه به، يريه من جميع جوانبه وما حوله مما هو به مزدان.

ولقد لهوت وللشباب لذاذة بسلافة مزجت بماء غوادي

من خمر ذى نطف أغن منطق وافى بها لدراهم الإسجاد

قالوا في الإسجاد أقوالا وأدناها أي ليكسب دراهم موسمه. قالوا كانت على الدراهم صور يكفرون لها ويسجدون وهي دراهم الأكاسرة وهذا تفسير الأصمعي. وقالوا الإسجاد عنى به النصارى، أسجدتهم جزيتهم، وإنما يصح هذا المعنى إن كانوا يدفعون جزية للفرس أو لملوك الحيرة في الجاهلية أو جعل ما كان عليهم من ضريبة بمنزلة الجزية وعن أحمد بن عبيد ابن ناصح فيما روى ابن الأنبارى الكبير الإسجاد أي التي جاء بها الخمار بعدما حال عليها الحول وهو وقت الجزية. وأحسب أن المراد بالجزية هنا الضريبة التي تؤدى للملوك.

ثم وصف الساقي هذا الذي عليه النطف أي الأقراط بفتح النون والطاء مفردها نطفة كشجرة، والنساء النواعم الحسان اللائي يتم بهن اللهو.

يسعى بها ذو تومتين مشمر قنأت أنامله من الفرصاد

أي من الخمر شبهها بالفرصاد وهو التوت لحمرتها والتومتان اللؤلؤتان

والبيض تمشى كالبدور وكالدمي ونواعم يمشين بالأرفاد

قالوا أراد بالأرداف وذلك لهزهن أردافهن تبرجا.

والبيض يرمين القلوب كأنها أدحي بين صريمة وجماد

يعني كأنهن بيضات نعام من حسنهن محفوظات بين صريمة أي رمل وجماد أي مواضع غلاظ جمع جمد بضم الجيم والميم وجيم جماد مكسورة أو مفتوحة بمعنى الجماد المعروف أي بين رمل وأرض جماد

ينطقن معروفا وهن نواعم بيض الوجوه رقيقة الأكباد

ينطقن مخفوض الحديث تهامسا فبلغن ما حاولن غير تنادى

وهذا من حلو الكلام ورقيقه. ثم أخذ في وصف ما راد من الأرض ونعت الحصان الذي راد به، وذكر الصيد من بعد:

ولقد غدوت لعازب، متناذر أحوى المذانب مونق الرواد

فهذا قريب من قول امرىء القيس " وقد أغتدى والطير إلخ "

جـادت سـواريـه وآزر نبتـه نفأ مـن الصفـراء والـزبـاد

قطع نبات من هذين النوعين

بـالجو فـالأمـرات حـول مغـامـر فبضـارج فقصيمـة الطـراد

وضارج ورد في شيم امرىء القيس البرق

بمشهـر عتـد جهيـز شـده قيـد الأوابـد والـرهـان جـواد

وقيد الأوابد من امـرىء القيس كما ترى . عتد : أي قادر على الجرى هنـا ، أي عنده عدة الجري كما فسره الشارح .

يشـوى لنـا الـوحـد المدل بحضره بشريج بين الشـد والإيـراد

أي بمزيج من هذين الضربين مـن الجري والحضر بضم الحاء العدو بفتح فسكون . ثم ختم قصيدته بـذكر الناقة وهو يناسب ما قدمه من الخمـر والنساء والصيد ، فبقى أن يذكر الصبابة والعشق واتباع الظعينة المعشوقة ولا يخفى أنْ هؤلاء اللاتى يمشين بالأرفاد إنما هن قيان وبغـايا . وذكـر الظعينة في هـذا الموضع كأنما استدرك بـه ما فـاته من أول نموذجـه ، وهو ما قـدمه امـرؤ القيس قبل ذكره الليل من حكـايات الصبابـة والشوق والدموع والغـزل ويوم دارة جلجل وخدر عنيزة . ولم يحتج امـرؤ القيس الي اللحاق فقد عقر مطيته وبعير صاحبته .

ولقـد تلـوت الظـاعنين بجسرة أجـد مهـاجـرة السقـاب جماد

أي قـوية وورود الفتح في جيم جماد هنـا يـرجح أنها مكسورتها في «أدحي بين صريمـة وجماد»

عيرانـة سـد الـربيع خصـاصهـا مـا يستبين بها مقيل قـراد

وأحسب أن هذا هو آخر القصيـدة ـ لا البيت الملحق به « فإذا وذلك » ولا يصلح على التفسير الذي فسرناه . وفي النفس شيء من البيت الآخر

أين الـذين بنـوا فطـال بنـاؤهم وتمتعـوا بـالأهـل والأولاد

وهو بعد « نـزلوا بأنقرة »وموضعـه ناب هناك ، وعجز البيت ذو ضعف مـا ـ أحسبه في قوله « بالأهل والأولاد » فتأمله .

ومما يجري مجرى التذييل الذي عند المخبل وجارى به زهيرا وأصله الشكل المخصر عينية

مالك بن نويرة :

صرمت زنيبة حبل من لا يقطع　　حبل الخليل وللأمانة تفجع

ويروى ولا الأمانة يفجع أي وحبل من لا يخون الأمانة . والقصيدة مروية لمتمم بن نويرة وذكروا عن أحمد بن عبيد بن ناصح أن بعض الرواة يرويها لمالك . وعندي أن مذهب أسلوبها كأنه أقل حرقة تفجع من مذهب متمم في رثاء أخيه ، إن كان قوله :

أفبعد من ولدت نسيبة أشتكى　　زو المنية أو أرى أتوجع

مما يستعان به على نسبة الكلمة الى متمم ، لقول متمم في عينيته المنصوبة الروي المشهورة :

وفقد بني أم تتالوا فلم أكن　　خلافهم أن أستكين وأخضعا

ولم يفسروا لنا بيت متمم هذا تفسيرا شافيا . وينبغى أن يكون قد مات له من الإخوة من أمه وأبيه قبل مالك ، مع الألى فصل ذكرهم من بعد ممن ذكرت لنا أسماؤهم ومقاتلهم وهو قوله :

وغيرنى ما غال قيسا ومالكا　　وعمرا وجزءا بالمشقر ألمعا

أي الذين معا

وما غال ندماني يزيد وليتني　　تمليته بالمال والأهل أجمعا

قالوا كان يزيد ابن عمه وقد خبرنا أنه ندمانه . فهذا يدل على أنه كانهما معا .
ونسيبة أم مالك ومتمم ، والبيت ليست ضربة لازم أن يكون قاله متمم ، فمالك كأخيه يبكي على من هلك من شقيق وشقيقة . ونسبة البيت احتجاجا به ، على أنه لمتمم توشك أن تفيد أن نسيبة لم تلد مع متمم إلا مالكا وكأن متمما يريد أن يقول " أفبعد مالك " بقوله " أفبعد من ولدت نسيبة» وكأنه يريده وحده بقوله « وفقد بني أم إلخ» فيكون هو وحده بنى الأم ـ وهذا بعيد .
وفي القصيدة بعد أشياء ، ليست بدليل قاطع ، ولكنها من ضرب ما يحدس به ، توشك أن تنبىء بأن الكلمة لمالك لا لمتمم . منها أن متمما زيد في شعره ، وهذا قد ذكره ابن سلام ، وأن العلماء أخرجوا ما زيد . فهذا مما أخرجه بعضهم . هذه واحدة .

وثنتان مما يقع مثلهما عند الشعراء تهجس قلوبهم بالمعيتها عن بعض ما وراء الغيوب ـ أولاهما قوله : ولـلأمـانة تفجع ــ أو ــ ولا الأمانـة يفجع . فقـد أؤتمن مالك على مـال الصدقات فخان . والثانية ذكره الموت وتوقعه له وعجزه عن الدفاع عن نفسه . ولقد نظر بعين كشف إذ قال :
قال :

ولقـــد غبطت بها ألاقي حقبـــة ولقـــد يمـــر على يـــوم أشنع

فضمير الغبطة هنـا المتكلم المفرد وفي عينيـة متمم جاء بنفس المعنى ولكن المتكلـم فيه جمع :

وعشنـــا بخير في الحيـــاة وقبلنـــا أصـاب المنايـا رهط كسرى وتبعـا

فهذا يشمله وأخاه . وكان مصدر خيره من أخيه ولذلك قال :

ولست إذا ما الدهـر أحدث نكبة ورزءا بـــزوار القـــرائب أخضعـــا

فخص نفسه بالرزء من بعده .

والحزم بعد أن يوقف عندما وقف عنده قديما فنقول إن هذه العينية المرفوعة رويت لمتمم بن نويـرة ورواها بعض الـرواة لأخيه مالـك . ونميل الى هذا الوجـه الثاني واللـه تعالى أعلم .
آخر القسم الأول من هذه القصيدة في البيت الثاني عشر ـ وقـد بدأ بذكر صرم صاحبته له ، وأتبع ذلك بمكافأة له من مذهب لبيد في معلقته

فـــاقطع لبـــانـــة من تعـــرض وصلـــه ولشر واصـــل خلـــــة صرامهـــــا
واحب المجـــامل بـــالجزيـــل وصرمـــه بـــــاق إذا ظلعـــت وزاغ قـــــوامهـــــا

ثم تسلى بناقة عنس جعلها رمزا لمضـائه وزماعه . وأتبع ذلك تشبيها لها بحمار الوحش كما صنع لبيد وقد شاركه في بعض اللفظ والصفات فكأنه نظر إليه وقد اشتهر أمر لبيد بالشعر في الجاهلية قبل زمان الهجرة .

صرمـت زنيبـــــــة حبـل من لايقطـع حبل الخليـل ولـــلأمـــانـــة تفجع
ولقـــد حـــرصت على قليـل متـــاعهـــا يـــوم الـــرحيل فـــدمعهـــا المستنفع

هذا كأنه من قول بشامة ـ و«وما كان أكثر ما زودت البيت . »

جـذي حبـالك يـا زنيب فإنني قـد استبـد بـوصل من هـو أقطع

قالوا أي قاطع وهذا ما ذهب إليـه الشارح وروى قولا عن أبي عمرو «هو الشيباني» أي أقطع مني وروى بصرم وهذا واضح على مذهب لبيد. ولو جاز القياس في هذا الموضع ما امتنع عندي أن يقاس بوصل مـن هو أقطع على قول الآخر: ولا بذات تقلت أي لا توصف بهذا فيقال تقلت، فهو حكاية. وعليه فمن هو أقطع من شأنه أن يكون لسان حـاله: «أقطع» أي أنـا أقطع وأبـدأ الصرم وما هـو بهذا المعنى. وهـذا في جملة معنـاه مقـارب لقول امـرىء القيس لعنيـزة: «فمثلك حبلى البيت» أي إن تتمنعي فرب كـذا وكذا قد استطعت وصلهـا. وأنت إن تجذي حبلى يا زنيبة فقد انفـرد لنفسي بوصل من يزعم أنـه قاطع عسير المنال وهل يقـوى هذا الوجـه قوله زنيبـة فهي موازنة وزنـا لعنيزة والمعنى كما ترى، على هـذا التأويل، وعلى الشرح الذي شرحـوا أيضا. ويقويـه أيضا البيت الذي إذ يـدل على صحة رواية «استبـد بوصل من هـو أقطع» لا «بصرم من هو أقطع» ويناسب المعنى الذي ذكرناه:

ولقد قطعت الـوصل يوم خـلاجه وأخـو الصريمـة في الأمـور المزمع

وعند لبيد «ونجح صريمة إبرامها» فهذا قريب منه

بمجـــــــدة عنـس كـأن سراتها فـــدن تطيف بـــه النبيـط مـــرفع
قـــاظـت أثـــال الى الملا وتــــربعت بـــالحزن عـــازبـــة تسـن وتـــودع

تسن وتودع مثل مثل به واستعارة، أي هي عـدة لمثل هذه المهمة من السفر كما السيف عدة للحـرب يسن ويحفظ فهي مثله تسن بحسن الرعـاية ثم تصان فـلا تبتذل في غير وقت الحاجة حقا. والأماكن التي ذكر الشاعـر أن ناقته قاظتها أي قضت القيظ ـ زمن الحر ـ بها والربيع هي من جياد مراعي الإبل. قـال الشارح، قال حنيف الحناتم وكان آبل الناس أي من أحسن الناس قياما على الإبل وكان أحد بني ثعلبة بن عكابة: «من قاظ الشرف وتربع الحزن وتشتى الصمان فقد أصاب المرعى.»

حتى إذا لقحت وعـولي فـوقهـا قـــرد يهم بـــه الغـــراب الموقع

أي لا يقدر الغراب أن يقع عليه لامتلائه وانملاسه، هكذا شرحه القاسم بن محمد بن بشار الأنباري أبو محمد، ثم قال، وهذا كقول الراعي:

بنيت مـــرافقهن فـوق مـــزلـــة لا يستطيع بها القـــراد مقيـــلا

قلت فينبغي أن يكون صواب عجز البيت:

يهم بها القراد الموقع

والقاف قد تنقط النقطة الفوقية الواحدة كما في الخط المغربي فإن كان الناسخ قد اعتاد ذلك فربما وهم إذ خط حينا آخر بالحرف المشرقي والباء قد تحرف من الدال. ولا معنى لموقع الغراب على سنام صحيح ممتلىء وإنما تقع الغربان على الجروح أو ما تتوهم أنه جروح. قال علقمة:

عقلا ورقما تظل الطير تخطفه كأنه من دم الأجواف مدموم

ولا فائدة في ذكر ابن الانباري للقراد إن كان الذي في الشعر الغراب، وقد اتبع بيت الراعي قوله: «يقول فمغرز المرافق ليس به ضاغط ولا ناكت ولا حاز ولا عيب فآباطهن ملس لا يثبت بها القراد لانملاسها أي لا يجد ما يقيل فيه يزل عن موضعه لملاسته وامتلائه، وكقول امرىء القيس

يزل الغلام الخف عن صهواته ويلوي بأثواب العنيف المثقل

وكقول الكلابي:

دلنظ يزل القطر عن صهواته هو الليث في الجهازة المتحرد

الدلنظ السمين قال أبو عمرو إنما هو الدلنظي وهو القصير السمين. ا. هـ.» - قلت فكل هذا قريب من قريب وليس فيه ذكر للغراب لماذا يخشى أن يزل، وإنما ينقر بمنقاره النقرة بعد النقرة فليس هو بقراد يريد أن يلصق ولا بقطر لا يمسكه مبتل وبر.

ثم يقول في ناقته العنس:

قربتها للرحل لما اعتادني سفر أهم به وأمر مجمع
فكأنها بعد الكلالة والسرى علج تقاليه قذور ملمع

هنا التشبيه بالحمار والقذور أتانه - قذور أي نفور قال الأنباري والقذور الظريفة الحسناء سميت بذلك لأنها كثيرة التقذر للأشياء - قلت هذا في النساء. أما هذه الأتان فهي مستعصية على فحلها لأنها وسقت وأشرق ضرعها للحمل.

يحتازها عن جحشها وتكفه عن نفسها إن اليتيم مدفع

اليتيم هو الجحش قالوا وحمار الوحش غيور يطرد عن إناثه جحاشها وربما كدم مذاكيرها.

ويظل مرتبئا عليها جاذلا في رأس مرقبة ولأيا يرتع

أي يرتفع على الاماكن العالية ليرى أثم صائد أو ما يكره، ولا يرعى إلا بعد لأي لفرط شفقته على أتانه وغيرته عليها.

حتى يهيجها عشية خمسها ... للورد جأب خلفها متترع

الجأب هو الحمار الغليظ. متترع: متسرع

يعدو تبادره المخارم سمحج ... كالدلو خان رشاؤها المتقطع

السمحج الأتان الطويلة على الأرض، شبه سرعة مضيها في المخارم وهي الطرق الجبلية واحدها مخرم، بالدلو التي انقطع رشاؤها أي حبلها وأخذ هذا من قول زهير:

يشج بها الأماعز فهي تهوي ... هوي الدلو أسلمها الرشاء

وبيت زهير أوضح وأجود، إذ مالك أو متمم جعل الأتان مبادرة من تلقاء نفسها وزهير جعله متسلطا عليها يدفعها دفعا فتهوى هويا من سرعتها. ثم قول زهير: «أسلمها الرشاء» فيه فجاءة السقوط. وفي مقال مالك نوع من ريث:

حتى إذا وردا عيونا فوقها ... غاب طوال نابت ومصرع
لاقى على جنب الشريعة لاطئا ... صفوان في ناموسه يتطلع
فرمى فأخطأها وصادف سهمه ... حجرا ففلل والنضي مجزع
أهوى ليحمي فرجها إذ أدبرت ... زجلا كما يحمي النجيد المشرع
فتصك صكا بالسنابك نحره ... وبجندل صم ولا تتورع
لا شيء يأتوه أتوه لما علا ... فوق القطاة ورأسه مستتلع

أي علا برأسه وراءها فوق ردفها وهما مغذان هربا.

قوله «غاب طوال نابت ومصرع» كقول لبيد:

محفوفة وسط اليراع يظلها ... منه مصرع غابة وقيامها

وقد جعل لبيد القيام قافية وذلك في باب الفأل أجود وجعل مالك المصرع قافية فتأمل. وكذلك قوله وصادف سهمه حجرا - وقد تم المعنى عند إخطاء الرامي فأبي إلا أن يتكسر النصل ويبقى النضي أي القدح الذي لا نصل فيه. وقد لقي مالك بسهمه من خالد حجرا بئيسا.

ثم يجيء القسم الثاني من المذيل وهو في الأصل ثالث وفيه ذكر القنيص والفتوة وصفة الحصان

ولقد غدوت على القنيص وصاحبي نهد مـراكَلُه مسح جـرشع
ضافي السبيب كأن غصن أباءة ريان ينفضها إذا ما يقدع
قالوا وكان لمالك جمة حسنة وكان يسمى الجفول. فحصانه كالرمز لنفسه:

تئق إذا أرسلته متقاذف طماح أشراف إذا ما ينزع
تئق أي ممتلىء حيوية وحدة
وكأنه فوت الجوالب جانئا رئم تضايفه كلاب أخضع

الجوالب أصحاب الصياح والجلبة في الرهان، يشوشون بذلك على الفرس السابق. جانئا منحنيا لأن الفرس لما صيح به خضع عنقه ومر مسرعا. رئم: غزال. قالوا قال الأصمعي كان هذا الوصف يرد من قوله وينسب فيه إلى الغلط لأن خير جري الذكور الاشتراف وخير جري الإناث الخضوع. وقد أحسن الشارح الرد على الأصمعي إذ قال: وإنما أراد أنه خضع ليعتمد في الجري كما يعتمد الظبي. قلت إن كان هذا الشعر قاله مالك فقد كان أعلم بالخيل وأدرب بأمرها من الأصمعي. والوجه ما قاله الشارح. تضايفه الكلاب أي تأخذ بجانبيه فيخضع الغزال عنقه ثم ينخرط جريا. فهؤلاء الجوالب بمنزلة الكلاب.

فله ضريب الشول إلا سؤره والجل فهو مربب لا يخلع

قوله إلا سؤره ينبئنا به أنه يعطى الحليب أولا، فلا يشرب أحد من أهل البيت إلا بعد أن يأخذ الفرس كفايته:

فإذا نراهن كان أول سابق يختال فارسه إذا ما يدفع
بل رب يوم قد حبسنا سبقه نعطي ونعمر في الصديق وننفع
ثم أتبع هذا ذكر سباء الخمر وكرر لفظ السبق ومعناه يترنم بذلك

ولقد سبقت العاذلات بشربة ريا وراووقي عظيم مترع
جفن من الغربيب خالص لونه كدم الذبيح إذا يشن مشعشع
ألهو بها يوما وألهي فتية عن بثهم إذا ألبسوا وتقنعوا

وروى أبلسوا وتقنعوا
ويوقف شيئا عند هذا البيت. ونتساءل هل نظمت هذه القصيدة عند شروعهم في الردة. وإلا فما معنى الإلباس والتقنع. قال الشارح: «أي من شدة همهم كأن لهم منه لباسا وقناعا» ـ وأبلسو أي وجموا من الهم. وأبسلوا رواية قال أي " أسلموا

بجرائرهم " . وإنما يكون الهم الذي معه الإبلاس والإبسال والتقنع عند توقع الأمر الخطير المفظع . وكان أمر جيوش أبي بكر رضى الله عنه لأهل الردة مفظعا . ورووا مما كان أهل الردة يتناشدونه :

آلا يا اصبحاني قبل جيش أبي بكر ... لعل منايانا قريب ولا ندري

وقد جاء بعد بيت الإلباس والتقنع بذكر الموت والتفكر في مصاير الأيام والبشر. وقد استهل التفكر بنوع مظلم كليل امرىء القيس قبري المعدن كأبيات الممزق ، حزين روح الإقدام كأبيات ضبع الشنفرى ـ وأول ما استهل به ذكر الضبع ونبشها عن جيف الموتى ، وتأمل بعد قوله الذي جعله تذييلا حكميا ذا عبرة وأحزان :

يا لهف من عرفاء ذات فليلة ... جاءت إلي على ثلاث تخمع
ظلت تراصدني وتنظر حولها ... ويريبها رمق وأنى مطمع

فقد جعل نفسه هنا قتيلا لاجنازة تنبش من قبر ـ قاتل حتى أثبتته الجراح والضبع تراقبه حتى إذ مات أكلته . هكذا توهم نهايته وما باعد .

ظلت تراصدني وتنظر حولها ... ويريبها رمق وأني مطمع
وتظل تنشطني وتلحم أجريا ... وسط العرين وليس حي يدفع
لو كان سيفي باليمين ضربتها ... عني ولم أوكل وجنبي الأضيع

هل نظم مالك هذا الشعر وهو أسير خالد رضي الله عنه ؟
ولا أشك أن البحتري إلى هنا نظر إذ قال

ولو كان سيفي ساعة الفتك في يدي ... درى الفاتك العجلان كيف أبادره

وقد ذكروا كيف كان هلعه واختباؤه

ولقد ضربت به فتسقط ضربتي ... أيدي الكماة كأنهن الخروع
ذاك الضياع فإن حززت بمدية ... كفي وقولي محسن ما يصنع

ولا يصنع ذلك إلا نادم ـ فهل ندم على أنه استأسر ؟
ولعل هذا هو آخر القصيدة والأبيات التي أوهمت أنها لمتمم هي لمتمم وهن الثلاثة الأواخر:

ولقد غبطت بما ألاقي حقبة ... ولقد يمر علي يوم أشنع

ويكون المعنى ولقد غبطت لما يكفيني مالك ولقد مر علي يوم مصرعه وهو شنيع

أفبعـد من ولـدت نسيبـة أشتكي زو المنيـة أو أرى أتـوجع
ولقـد علمت ولا محالـة أنني للحـادثـات فهل تـريني أجـزع

فهذا يشبه بعض ما في عينية الرثاء.

هذا وشكل قصيدتي عمرو والحارث أنهما خطبتان جمهوريتـان. ومخاطبة الظعينة فرع من ذلك. وكذلك مخاطبة واحد في عتاب أو خصومة أو ما أشبه. وقد عجل عمرو والحارث كلاهما بنسيبهما إلى موضوع خطابتهما. بل نسيبهما منذ البداية جلي أنـه توطئة وتمهيد واستجـلاب للأسماع لا نغم صبابة. وعنـد عمرو بدء بالخمـر ودلالة ذلك على إدراك الثأر والانتصار. وبـداية الحارث بظعينة آذنت وقد ملها. والغـالب على الشعراء إذا أرادوا معنى الصبـابة ولـو رمـزا أن يزعمـوا أن الـرحيل فـاجأهم لا أنهم أوذنوا بـه ـ والإيذان بالرحيل تصريح بالمصارمـة. ثم عمرو والحارث كلاهما يخلصان آخر الأمر إلى الفخر ومواجهة "الجماهير" ـ قال عمرو:

وقـد علـم القبـائل من معـد إذا قبـب بأبطحهـا بنينـا

والقبائل مخاطبة ههنا.

وقال الحارث

هل علمتـم أيـام ينتهب النـا س غـوارا لكل حي عـواء

ثم مضى يعدد المآثر ويفصح بالحجج. مـذهب الحارث وعمرو كليهما [وهو كما قدمنا شكل خطابي واحد] فيـه هو نضج أسلوب المهلهل ومناقضيـه. ويذكر عن الأصمعي أنه قال لو كانت للمهلهل ست قصائد مثل:

أليلتنا بذي حسم أنيرى

لعده في الفحول. وحسب المهلهل أنه شرع لمن بعـده مسلك التطويل في أشعار الفخر القبلي والثأر. وإنما كـانـت أبيـاتـا. فإن يكـن المهلهل قـد سبق إلى التطـويل في هـذا الباب، فحظه على الأقل أنه جـوده وأحكمه حتى صلح لأن يتناقل ويروى. ولا ريب أن القصاص قد نحلوه هو وخصومه ما نحلوا.

وفي الـذي وصل إلينا من الشعـر القـديم كلمات عدة تنتهج منهج الحارث وعمـرو في لهوجـة النسيـب وصرف العنـايـة إلى المواجهـة الجهيرة التي تخطب جمهـورا بمفـاخـر جمهور. من ذلك مثلا قصيدة الحصين بن الحمام المرى

جـزي اللـه أفنـاء العشيرة كلهـا بـدارة مـوضـوع عقـوقـا ومأثما

وقصيدة الخصفي التي يرد عليه بها

من مبلغ سعـد بن ذبيـان مألكـا وسعـد بن ذبيـان الـذي قـد تختما

وكثير مما يطول ويقصر في هذا المجال يجري مجرى هـاتين الكلمتين من ذلك مثلا نونية العدواني سواء اعتددت بنسيبها أم لم تفعل. وما نسيبها إلا خمسة أبيات ثم ما بعد ذلك منافرة وخصام وربما بلغ به تعريض الهجاء مثل قوله:

عني إليك فما أمي بـــراعيـــة ترعـى المخاض وما رأيـي بمغبون

كأنه يعرض به أن أمه أمة.

ولم يرو المفضل فيما أسند إليه عـن أبي عكرمـة غير ثمانية عشر بيتا لا نسيب بين يديها وروي غيره ستـة وثلاثين بيتـا فزاد على الثمانيـة عشر ثـلاثة عشر ثم أبيـات النسيب، والنون حـرف ذلول ركـوب، ولعله قـد زيد في نـونية ذي الأصبع كما قـد زيد في نـونية عمروبن كلثوم وقيل بلغوا بها ألفا، ولعله لو كان في عدوان عدد كما في تغلب، قد بلغ بها بعض ذلك.

وعينية ذى الاصبع الأبيات العشرة التي أولها

إنكما صـــاحبـي لن تـــدعـــا لـــومي ومهما أضع فلن تسعـــا

وروي ومهما أضق و«تسعا» تسوغها، والمعنى متقارب.

قوامهـا مذهب الخطبـة كنونيتـه غير أنه أدخل فيهـا عنصر تأنيث عنـد قوله في سـابع أبياتها:

إمـــا تـــرى شكتـى رميح أبي سعـد فقـد أحمل السـلاح معـــا

وهـذا من أسلـوب تـذكـر الشبـاب. ومـا أرى إلا أن ذا الاصبع عمـد الى ضرب من السخريـةوالتهكم بهذين السفيهين اللذين خـاطبهما. وقد جعل بعض كـلامهما كأنه كلام أنثى حيث قال:

إنكما مـــن سفـــــــــــاه رأيكما لاتجنبـــــان السفـــاه والقـــذعـــا

إلا بـــأن تكـــــــذبــــا على ولم أملك بـــأن تكـــذبـــا وأن تلعـــا

لـــن تعقـــــــلا جفـــــرة على ولم أوذ نـــــــديما ولم أنل طبعـــــــا

أي أنتما تؤذيان النديم وتنالان الطبع وهو اتساخ العرض.

إن تــــــزعما أنني كبرت فلـم ألف بخيـــلا نكســـا ولا ورعـــا

أي فقد كبرت ولكن سـلا ما تأريخي، إني لم أكن نكسـا ولا ضعيفا جبانـا وزعمهما أنه كبر هذا كلام الأنثى، كقول الآخر:

على مـــا أنها هـــزئت وقـــالت هنــــون أجـن منشأ ذا قــــريـب
فـإن أكبر فـإني في لـــــداتي وعصر جنـــــوب مقتبـل قشيـب

وقال الآخر:

أمـا تـريني قـد بليت وغـاضني مـا نيل من بصري ومن أجـلادي

فلما جعلهما ذوي حديث أنثى هنا، عاد فزعم أنه إنما يخاطب أنثى حيث قال:

إمــا تـــرى شكتـي رميح أبي سعـد فقـد أحمل السـلاح معـا

وليس أسلوب الأعشى في «ودع هريـرة» من شكل أسلوب الخطبة الشعريـة الذي عند عمرو والحارث. ولكنـه كما قلنا من قبـل من معدن شكل مـدحة النابغـة، وإنما خلع أبواب الغـزل والرحلة والشراب عن سمت جـد الوصف الى هزل من الفكـاهة ليجعل ذلك توطئة لتوبيخ يزيد بني شيبان والطنز به مع التهديد والوعيد.

وما أنصف ابن قتيبـة العجاج حيث أخذ عليه زعمه أن من يحسـن البناء لا يعجز عن الهدم، يجعل المدح بناء والهجاء هدما، فـزعم ابن قتيبة أن العجاج أخطأ وأن المدح بناء والهجاء بنـاء، نعم بناء من حيث إنه لابـد فيه من صنـاعة وحذق وتجويـد. ولكنه من حيث منهج القـول وشكله سلب لما يـوجبه المدح. فهـذا الجانب من أمره هـدم، وكأن هذا هو مراد العجاج. ومن أدل الشواهد على ذلك مثلا قول الفرزدق:

إن الـــذي سمك السماء بنى لنـــا بيتـــا دعـــائمـــه أعـــز وأطـــول
بيتـــــا زرارة محتـب بفنـــــائه ومجاشـع وأبـــو الفـــوارس نهشـل

فنقضه جرير بقوله:

أخـزى الـــذي سمك السماء مجاشعـــا وبنى بنـــاءك بـــالحضيـض الأسفل
بيتـــــا يحمم قينكـم بفنـــــائه دنس مقـــاعـــده خبيـث المدخل

والذي صنعه الأعشى لمن تأمله ينـزل بخفة هزله منزلة النقض بالنسبـة الى وقار النابغة وحسن أدب علقمة.

ولمزرد بن ضرار أخي الشماخ دالية طويلة في المفضليات مطلعها

ألا يـالقـوم والسفاهـة كـاسمهـا أعائدتى من حب سلمى عوائدى

تهدد فيهـا رجـلا يقـال لـه زرعـة بن ثـوب. وقص الشـارح خبر هـذه القصيـدة قـال (١ : ١٢٨) «قـال أحمد أخبرنـا محمـد بن عمـرو بن أبي عمـرو الشيبـاني إمـلاء علينـا قـال: كـان أهل بيت من بني ثعلبـة بن سعـد بن ذبيـان جـاوروا في بني عبـدالله بن

غطفان، فذهب رجل من بني عبدالله الى غلام من الثعلبيين يقال له خالد وهو أحد بني رزام بن مازن بن ثعلبة بن سعد بن ذبيان، وللثعلبي إبل كرام جلة حسان، فلم يزل يخدع الثعلبي حتى اشترى الإبل منه بغنم. فرجع الغلام الى أبويه فأخبرهما فقالا هلكت والله وأهلكتنا. ثم إن أبا الغلام ركب الى مزرد فقص عليه القصة فأخبره بالخبر. فقال مزرد أنا ضامن لك إبلك أن ترد عليك بأعيانها، ثم أنشأ يقول:

ألا قل لعبدالله والجهل كاسمه   أعائدتي من حب سلمى عوائدي

قال أحمد فهذا كان سبب قول مزرد لهذه القصيدة. ا. هـ.»

فتأمل قوة الشعر. وقد جاوز مزرد التوبيخ الى الهجاء المقذع. ولذلك استعدي ابن ثوب عليه عثمان بن عفان رضي الله عنه، فاعتذر إليه. ويوشك السياق أن يدل على أن ابن ثوب إما رد الإبل وإما أرضى أهل الغلام. وإلا فما كان مزرد ليعتذر إن كان ذلك البيع كما قصوا خبره قد كان غبنا، والله أعلم.

وقد جمع مزرد بين مذهب تهكم الأعشى وخطابة ذي الأصبع. وأصل ذلك كما قدمنا أسلوب الخطبة الشعرية الذي عند الحارث وعند عمرو بن كلثوم - قال مزرد:

أزرع بن ثوب إن جارات بيتكم   هزلن وألهاك ارتغاء الرغائد

الرغائد أي عيش الخصب، فزعم أن الغلام المخدوع ابن جارات زرعة بن ثوب

وأصبح جارات ابن ثوب بواشما   من الشر يشويهن شي القدائد
تركت ابن ثوب وهو لا ستر دونه   ولو شئت غنتني بثوب ولائدى

فهذا مما جاوز به إلى تناول الأعراض، إذ أقبل على ثوب نفسه بعد أن فرغ من ذم ابنه

صقعت ابن ثوب صقعة لا حجى لها   يولول منها كل آس وعائد
فردوا لقاح الثعلبي أداؤها   أعف وأتقى من أذى غير واحد

ثم قال:

فيا آل ثوب إنما ذود خالد   كنار اللظى لا خير في ذود خالد

وفي سياق الشرح ما يدل على أن مزردا كان يزيد في هذه القصيدة حينا بعد حين، يتغنى بالشر الذي أخذ في مسالكه من ممض القول ولاذعه.

ومن هذا الباب قصائد عدة في المفضليات - مثلا همزية عوف بن الأحوص (٣٥) ومع مرارته فيها كان أعف لسانا من المزرد. وكأن مذهب المزرد كان من باب التهيئة والتمهيد لما جاء بعد من إقذاع الفرزدق وجرير. وأول همزية عوف بن الأحوص:

هدمت الحياض فلم يغادر ... لحوض من نصائبه إزاء

وهو فاتحة نسيب منبئة بغضب قريب مما صنع الحارث إذ قال :

آذنتنا ببينها أسماء ... رب ثاو يمل منه الثواء

وفيها يقول :

فإنك والحكومة يا بن كلب ... علي وأن تكفنني سواء

خذوا دأبا بها أثأيت فيكم ... فليس لكم على دأب علاء

ودأب هذا ابنه . فقد سلك سبيلا من الإنصاف أسد مما فعل مزرد من بعد :

وليس لسوقة فضل علينا ... وفي أشياعكم لكم بواء

وما إن خلتكم من آل نصر ... ملوكا والملوك لهم غلاء

ولكن نلت مجد أب وخال ... وكان إليهما ينمى العلاء

فهذا تهكم ، أي أبوك وأمك ليسا من الملوك ولكن سوقة كسائر الناس وإنما يفخر المرء في النسب بأبويه .

أبوك بجيد والمرء كعب ... فلم تظلم بأخذك ما تشاء

أى فقد ظلمت لأنه ليس واحد من هذين بملك وإنما أنتم سوقة أو كما قال :

ولكن معشر من جذم قيس ... عقولهم الأباعر والرعاء

أى أنتم تدفع لكم الدية ، الإبل ورعاؤها ، فلم تطلبون القصاص ، وفوق ما أنتم له أهل . والأمثلة فى هذا الباب كثيرة . وبعض ما جاء فيه خطاب المرأة سنخه من هذا الباب ككلمة أبي قيس بن الأسلت :

قالت ولم تقصد لقيل الخني ... مهلا فقد أبلغت أسماعى

وكلمتا سلمة بن الخرشب وعامر بن الطفيل (السادسة والسابعة بعد المائة من المفضليات) وقد يداخل جميع ذلك نفس من هجاء .

ومن بين الطوال السبع قصيدتا عنترة ولبيد فرعان معا من مذهب المدحة النابغية الشكل ونقيضتها الأعشوية ، وعنترة أسبق من هذين كليهما ، وإنما مقصدنا التنبيه على معادن الأشكال ، ولا نزعم أن عنترة قد أخذ من هذين ، بل قد نرى أن الأعشى فى

روضته كأنما نظر إليه وأخذ منه .

وعلى تشابه شكلى «عفت الديار» و«هل غادر الشعراء» بينهما فرق نلفت النظر منه إلى أمرين، أولهما أن لبيدا يبدأ بعفاء الديار مقدما عليه راضيا عن قوله، وعنترة يبدأ بالتساؤل عن قيمة سؤال الديار وكأنه حائر كيف يبدأ. فقربنا عنترة إلى نفسه بهذه البداية الصادقة التساؤل. ولكن لبيدا آثر أن يكون فخما وفي ذلك بعد ما .

وثانيهما أن صاحبة لبيد، وقد سماها نوار ومعنى نوار النفور أو ذات الصد والتمنع، قد صارمته وصارمها. وليست كذلك صاحبة عنترة التى رحلت فجاءة :

ما راعني إلا حمولة أهلها　　وسط الديار تسف حب الخمخم

فهو يريد أن يلحق بها. خطاب لبيد لصاحبته فيه شدة. صاحبته رمز خصومة. ولكن صاحبة عنترة حبيبة يريد أن يتودد إليها. حبيبة سواء أكانت هي أنثى بشرا هو عاشقها أم شيئا آخر جعلها رمزا له .

وقد خلص لبيد آخر أمره إلى فخر من فخر خطب القبائل :

إنا إذا التقت المجامع لم يزل　　منا لزاز عظيمة جشامها
ومقسم يعطى العشيرة حقها　　ومغذمر لحقوقها هضامها
فضلا وذو كرم يعين على الندى　　سمح كسوب رغائب غنامها
من معشر سنت لهم آباؤهم　　ولكل قوم سنة وإمامها

وقد خلص عنترة إلى وصف ملحمى رائع وحماسة فارس نبيل .

نفس الخطابة أجهر شيئا عند لبيد. ونفس التغنى أعمق عند عنترة. وفي ترتيب السبع الطوال الذي في شرح ابن الأنباري الصغير معلقة عنترة رابعة بعد معلقة زهير. ولعل هذا أجدر بها من أن تجعل تالية لنون عمرو بن كلثوم. والسبع بعد كلهن روائع جياد . وكذلك الثلاث المتماتهن عشرا .

هذا وطرائق الأشكال الثلاثة اللاتى نعدهن أصولا قد خلط الشعراء بينها. وقد نبهنا من قبل إلى جعل سحيم وعمرو آخر قصائدهما في نعت الناقة وكذلك فعل الفرزدق في الرائية التى ذكر فيها زيادا فجعل ذكره زيادا مكان التخصير. وقد جعل أسلوب الخطبة يواجه بها شخص واحد أو جمهور يغلب، وكان ما يدعو إلى هذا الوجه من القول من أحوال العصر وفتنه كثيرا. وقد تعلم خبر كعب بن معدان الأشقرى إذ وفد علي الحجاج من قبل المهلب بن أبى صفرة بخبر النصر على الخوارج فأنشده :

يا حفص إنى عداني دونك السفر　　وقد سهرت فآذى جفني السهر

فقال لـه الحجاج : أشـاعر أم خطيب فـزعم لـه الأشقرى أنه هما معـا ، وكذلـك كان وكـانت قصيدتـه . وقد سبق الاستشهـاد بأبيات منهـا في معرض الحديث عن البحـر البسيط . وهي تنظـر في جملتها من حيث نفس الشكل ، على اختـلاف ما في تفـاصيل الغرض ، الى كلمة لقيط الإيادي :

يــا دار عمــرة مـن محتلهــا الجرعــا   أهـــدت لي الهم والآلام والــــوجعــا

وكأن الحجاج أشـار الى هذا من طرف خفي إذ تمثل في حسن ثنـائه على المهلب بأبيات منها :

وقلـــــدوا أمـــــركم للـــــه دركـم   رحب الــذراع بأمـر الحرب مضطلعــا
مــا زال يحلب هــذا الـدهــر أشطــره   يكـــون متبعـــا طـــورا ومتبعـــا
حتى استمــرت على شــزر مـريــرتــه   مستحكم الــرأى لا قحما ولا ضرعـــا

ولا ريب أن أبا تمام أخذ من هاهنا في قوله :

من لم يقـــد فيطير في خيشـــومــــه   رهج الخميس فلن يقـــود خميســـا

إلا أنه أشربـه ما ذكرنا من تفسير قـول بشار «كأن مثار النقع» فأعطى مثـار النقع هذه " أبعادا " كما يقال بلغة أبناء الآن .
وقد ذكروا أن بشارا كان فيما كانـه خطيبا ، ونفس الخطيب في فخماته جهير . وقد وصفه صاحب الأغاني بجهارة الإنشاد وأنـه به يروع القلوب . وأحسب أن ميميته التى قيل إن أصل أولها كان هكذا :

أبـا جعفــر مـا طيـب عيش بـدائم   ومــــا ســــالم عما قليـل بســــالم

قد كانت أطول بكثير مما بلغنا ، إذ قرنوها بميميات الفرزدق وجرير وهذه كانت طوالا .
وقد كان أبو تمام خطيب فؤاد وقلم مع مقدرة له فائقة على طرب الإيقاع والإطراب به .
وحسْبك شاهدا :
السيف أصدق أنباء من الكتب
فقد جمع فيها بين متانة النظم ، ووحـدة الغرض ، وجهارة صوت الخطيب ، ورنين غناء الشاعر وموسيقاه . ومن قدمه بها على أبي الطيب فعسى ألا يكون بعيدا من الصواب .
وقد رتبها ترتيبا بالغ البراعة . بدأ بمدح السيف وثني بالسخرية من المنجمين وأقاويلهم وأباطيلهم واندفع بعد الى ذكر الفتح الجليل :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في ... متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الأرماح لامعة ... بين الخميسين لا في السبعة الشهب

هذا الغزل بالسيف والرمح جعله أبو تمام مكان النسيب. وما أشك أن أبا الطيب قد لبث دهرا يود لو أن هذا كان قد ادخر له حتى يقوله هو ـ وقد حاوله في قوله:

حتى رجعت وأقلامي قوائل لى ... المجد للسيف ليس المجد للقلم
اكتب بنا أبدا بعد الكتاب به ... فإنما نحن للأسياف كالخدم
أسمعتني ودوائى ما أشرت به ... فإن غفلت فدائي قلة الفهم
من اقتضى بسوى الهندي حاجته ... أجاب كل سؤال عن هل بلم

وهذا شعر جيد. وأصله من حيث هو بيان من هناك.

وقال أبو الطيب:

محب كنى بالبيض عن مرهفاته ... وبالحسن في أجسامهن عن الصقل

وقال: وكان أطيب من سيفى مضاجعة ... أشباه رونقه الغيد الأماليد

فكل هذا من بائية أبي تمام. وليس أبو الطيب وحده أخذ منه، فقد أصاب ابن الأثير إذ قال فيه إنه رب معان وصيقل ألباب وأذهان.

ثم بعد هذا النسيب الحربي الحماسي، وقد ترى ما مهد به لذكر النجوم، وما زال أهل الحروب، حتى زماننا هذا يلجئون إلى استخبارها يريدون أن يهتكوا بذلك حجاب الغيوب، قال:

أين الرواية بل أين النجوم وما ... صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصا وأحاديثا ملفقة ... ليست بنبع إذا عدت ولا غرب

النبع شجر صلب والغرب رخو. قال التبريزي يقول هذه الأحاديث ليست بقوية ولا ضعيفة أي هي غير شيء

عجائبا زعموا الأيام مجفلة ... عنهن في صفر الأصفار أو رجب
وخوفوا الناس من دهياء مظلمة ... إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب
وصيروا الأبرج العليا مرتبة ... ما كان منقلبا أو غير منقلب
يقضون بالأمر عنها وهي غافلة ... ما دار في فلك منها وفي قطب

لـــو بينت قط أمـــرا قبل مـــوقعـــه	لم تخف مـــا حل بـــالأوثـــان والصلب

ذكر التبريزي أن «مرتبة» تروى بتشديد التاء مفتوحة وهو عنده ضعيف ومكسورة وهو الوجه القوي عنده، وأن «ما كان منقلبا الخ» بدل من «مرتبة» وليس مفعولا وهو قول أبي العلاء ذكره المحقق في الهامش نقلا عن ابن المستوفي وذكر رد ابن المستوفي على أبي العلاء والذي رآه أبو العلاء كأنه نطق به عن لسان أبي تمام. وقوله ما كان منقلبا أو غير منقلب فعند المنجمين أن الأبراج ثلاثة أقسام قسم منقلب ولا يعول عليه فيما زعم التبريزي في تحقيق الأخبار إذ وردت وقت طالعه وما سوى المنقلب فهو غير المنقلب وهو ما يقولون له الثابت وهذا يعول عليه عندهم فيما ذكره التبريزي وذو الجسدين، وينبغي أن يكون هذا لا يعول عليه. والمنقلبة هي ما تمثل الأمزجة الأربعة وهي الحمل والسرطان والميزان والجدي والأمزجة هي الدم والصفراء والبلغم والسوداء والثوابت تمثل العناصر الأربعة ويقال للمنقلبة بالانجليزية cardinals وللثوابت fixed ولذوات الجسدين mutables يقضون بالأمر عنها الخ.

نظر أبو العلاء الى مقال أبي تمام هذا وولد منه كلمته الميمية:

لـــو كـــان لي أمـــر يطـــاوع لم يشن	ظهـــر الطـــريق يـــد الحيـــاة منجم
يـــولي بأن الجن تطـــرق بيتـــه	ولـــه يـــديـن فصيحهـــا والأعجم
وقفت بـــه الـــورهـــاء وهـي كأنها	عنـد الـــوقـــوف على عـــرين تهجم
ويقـــول مـــا اسمك واسم أمـك إنني	بـــالظن عما في الغيـــوب أتـــرجم

وقول أبي تمام «ما دار في فلك» أي في طريق دائر، «وفي قطب» قال التبريزي القطب كل ما ثبت فدار عليه شيء وفي السماء قطب الشمال وقطب الجنوب. مراد أبي تمام أن الذي يحكمون به على النجوم ويستنبطونه منها، لا حقيقة له، ولم يدر منها في فلك ولا في قطب. ما هنا نافية، قوله الأوثـان، فقد كان من المشركين عبدة الشعري وغيرها من النجوم فلو كانت تخبر شيئا لخبرتهم بما سيكون من غلبة الإسلام عليهم. ومـا حل بالصلب جمع صليب فهو فتح عمورية.

ثم أخذ أبو تمام في بيان أمر الفتح ـ إذ آخر كلامه يقود إليه:

فتح الفتـــوح تعـــالى أن يحيط بـــه	نظم من الشعـــر أو نثـر مـن الخطب
فتـح تفتح أبـــواب السماء لــــه	وتبرز الأرض في أثـــوابها القشـب

وقد كان أبـو تمام وصافا للطبيعة، وهـذه الصورة منتزعة من نعمـة الغيث وبهجة نبت الربيع، وقد استمر بصورة النعمة الربيعية فأتبع أثواب الأرض القشب المنى الحفل أي الممتلئات الضروع كالنعم التي رتعت فدرت ضروعها ولكنها حلبها عسل وهذا مبالغة في معنى النعمة.

يـا يـوم وقعـة عمـوريـة انصرفت عنك المنى حفلا معسـولة الحلب

تأمل هذا التجسيد للمنى، أي الآمال ـ أي قد تحققت فهذا احتفال ضروعها.

أبقيت جـد بني الإسـلام في صعـد والمشركين ودار الشرك في صبـب
أم لهم لـو رجـوا أن تفتـدي جعلـوا فـداءهـا كـل أم بـرة وأب

فجعل عموريـة أما مفداة ـ وقد خلص الى ذكـر قوتها وامتناعها في تأكيـد معنى عظمة الفتح الذي ذكره. ثم انتقل من صورة الأم المفداة إلى صورة البكر العزيزة التي لا تنال. وكلا المعنيين لو تأملتـه راجع إلى قوله «بالأوثـان والصلب» إذ عند النصارى ضرب من تأليـه للعذراء أم المسيح سـلام الله عليها فأخذ أبـو تمام قولـه «أم لهم» من معنى الأم المقدسـة، وأخذ معنى البكـر العزيـزة من معنى العـذراء المقدسة، عمـد الى ذلك او تداعت به المعاني.

وبرزة الـوجه قد أعيت ريـاضتها كسرى وصـدت صدودا عن أبي كـرب
هو تبع ملك اليمن
بكـر فما افترعتهـا كف حـادثـة ولا تـرقت إليهـا همة النـوب
من عهـد إسكنـدر أو قبل ذلك قـد شـابت نـواصي الليـالي وهي لم تشب
قال شكسبير في صفة كيلوبترة

Age canmot wither her, nor custome stale
Her infinite variety, other women cloy
The appetites they feed, but she makes hungry
Where most she satisfies

وترجمة هذا على وجه التقريب كما ترجمناه في كتابنا التماسة عزاء بين الشعراء

فـلا العمـر مبليهـا ولا عـادة اللقـا بها من مجاليهـا الصنـوف تضيع
سـواهـا من النسـوان يتخمـن بـالجدا وأقـوى إذا مـا أشبعتك تجيـع

ولا أستبعد بل أرجح أن يكـون شكسبير قد نمى إليه علـم ما عن هذا الـوصف الذي

وصفه أبو تمام لعمورية فرتب عليه ما رتبه فأجاد من نعته لكليوبتره. وقد ذكر ناقدوه (وهو كذلك) أنه أخذ من صفة «بلوتارك» كليوبترة والسطر الأول وأول الذي يليه شبه صياغة أبي تمام فيهما شديد فتأمله. وقد مر بك عتق صلة الاستشراق الانجليزي منذ زمان أديلارد الباثي Adelard of Bath (القرن الثاني عشر) وروجر بيكون (القرن الثالث عشر) وشوسر (القرن الرابع عشر) وبدويل معاصر شكسبير ممن نعلم وغير هؤلاء ممن لا نعلم.

ثم يقول أبو تمام:

حتى إذا مخض اللـه السنين لها	مخض البخيلة كانت زبدة الحقب

وقد ذكرنا هذا البيت من قبل وما ضمنه أبو تمام من إشارة الى بخيلة حميد بن ثور - «وزبدة الحقب» هذه هي الفتح وهو خلافا لما استقراه أهل الصلب من نجومهم كربة سوداء

أتتهم الكربة السوداء سادرة	منها وكان اسمها فراجة الكرب
جرى لها الفأل نحسا يوم انقرة	إذغودرت وحشة الساحات والرحب
لما رأت أختها بالأمس قد خربت	كان الخراب لها أعدى من الجرب
كم بين حيطانها من فارس بطل	قاني الذوائب من آنى دم سرب
بسنة السيف والخطى من دمه	لا سنة الدين والإسلام مختضب

الرحب بكسر الراء جمع رحبة بفتح الراء والحاء وتسكن زعم التبريزي أنها رحاب ثم خففت والذي أنشده بفتح الراء والحاء كشجر جمع شجرة وهذا أوضح والذي ذكره التبريزي رواه قال والأصل أن يقال رحاب بالألف فحذفت لأنها حرف لين كما قالوا ثلل في جمع ثلة والأصل ثلال وذكر صاحب القاموس في جمع ثلة المفتوحة الثاء أنها كبدر (أي جمع بدرة) وسلال. فهذا كقول التبريزي ولكنه في جمع رحبة بفتح الحاء وسكونها والراء مفتوحة ذكر صيغتي رحب ورحبات مع رحاب المكسورة الراء وذكر التسكين فيهما مع الفتح ولم يذكر كسر الراء من رحب ولا يحتج به على التبريزي.

وروى التبريزي «بسنة السيف والحناء من دمه» والذي أثبتنا هو الذي اختاره البارودي وهو مروي واستحسنه التبريزي قال: «وبعضهم ينشد«بسنة السيف والخطى من دمه» وهو أجود في صحة المقابلة لأنه يقابل الدين والإسلام بشيئين ليسا في الحقيقة مختلفين، إذ كانا من آلة الحرب، وهو في الرواية الأخرى يقابل الدين والإسلام بالسيف

والحناء وليس الحناء من جنس السيف. ويجوز رفع الحناء وخفضه فإذ خفض كان قوله «من دمه» في موضع الحال. ا. هـ» ـ قلت ورواية «بسنة السيف والحناء من دمه» جيدة، وههنا تورية واستخدام معا. أي هذه سنة السيف أن يخضب ولا حناء له إلا الدم، فالحناء من دم هذا البطل ولك وجها الخفض والرفع اللذين ذكرهما وسنة السيف أيضا حد السيف وطريقته الماضية القاطعة. فهذا موضع الاستخدام، إذ دل لفظ سنة السيف هنا على معنيين حده ومذهبه الذي يسير عليه وموضع تورية لما في معنى السنة عندنا معشر المسلمين، فالسيف اتبع السنة وجعل الحناء من دمه، لأن الصحابة كانوا يخضبون الشيب بالحناء قال التبريزي: لأن الصحابة والتابعين كانوا يرون من السنة أن يخضبوا شعورهم بالحناء والكتم وما يجري مجراهما من نبات الأرض، ويكرهون الخضاب بالسواد ويؤثرون الحمرة إلخ ما قاله ا. هـ».

ثم أخذ أبو تمام في صفة ما وقع بعمورية من تخريب وتحريق، وهذا متمم لما صوره من قبل من هذا القتال بين حيطانها وهذا الدم الآني القاني السرب.

لقد تركت أمير المؤمنين بها ... للنار يوما ذليل الصخر والخشب

وتلى بعد هذا صورة مفزعة من صور الخراب والحريق وشريج ما بين زهو منتصر وانكسارة منهزم وشكر مؤمن ويأس كافر

غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى ... يشله وسطها صبح من اللهب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت ... عن لونها أو كأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماء عاكفة ... وظلمة من دخان في ضحى شحب

عين هذه الاختلاطة من الألوان جاء بها زاهية مشرقة مفرحة في قوله:

تريا نهارا مشمسا قد شابه ... زهر الربا فكأنما هو مقمر

تأمل كيف جعل الضحى شحبا بالدخان وظلمته ومقمرا بدريابالزهر ونعومة ألوانه وظلاله.

فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت ... والشمس واجبة من ذا ولم تجب
تصرح الدهر تصريح الغمام لها ... عن يوم هيجاء منها طاهر جنب

فالغمام ظل ولأبي تمام ولع بصفة المزن والسحائب، بعضه من طول نظره في شعر العرب، وبعضه من تجربته البداوة وعيشها ـ وهو بعد القائل:

ديمـــة سمحـــة القيـــاد سكـــوب	مستغـــيث بها الثـــرى المكـــروب
لـــو سعت بقعـــة لإعظـــام نعمى	لسعى نحـــوهـــا المكـــان الجديب
لـــذ شـــؤبـــوبها وطـــاب فلـــو تســـ	ـــطيع قـــامت فعـــانقتهـــا القلـــوب
فهـي مـــــاء يجري ومـــــاء يليـــــه	وعـــزال تنشـــا وأخـــرى تـــذوب
كشف الـــروض رأســـه واستسر الـــ	ـــمحل منهـــا كما استسر المريب
أيها الغيـث حيهـــــلا بمغـــــدا	ك وعنـــد السرى وحين تـــؤوب

شدد الطائي لام حيهلا كأنه وقف ثم وصل على نية الوقف وروى بعضهم «حي أهلا» وكأنهم يصلحون به قول حبيب وما جاء بـه حبيب أجود وكأن طريقه في فصيح الكلام واسع وكأن ظاهـر قول سيبويه يفيـده، قال في باب الوقف في أواخر الكلم المتحرك: «وأمـا التضعيف فقولك هـذا خالـد وهو يجعل وهـذا فرج حـدثنا بـذلك الخليل عن العرب. ومن ثم قالت العـرب في الشعر في القوافي سبسبا يريـد السبسب وعيهل يريد العيهل، لأن التضعيف لما كان في كلامهم في الوقف أتبعـوه الياء في الوصل والواو على ذلك كما يلحقـون الواو واليـاء في القوافي فيها لا يـدخله يـاء ولا واو في الكلام وأجـروا الألف مجراها لأنها شريكتها في القوافي ويمد بها في غير مـوضع التنوين ويلحقونها في غير التنوين» ـ يعني ألف الإطـلاق نحو أقلي اللوم عاذل والعتابا ـ «فألحقوها بهما فيها ينون في الكلام وجعلت سبسب كأنـه مما لا تلحقه الألف في النصب إذا وقفت» يعني أنك إذا وقفت ولم تضعف قلـت رأيت سبسبـا، فإذا ضعفـت قلت رأيت سبسب ولم تلحقها الألف التي تلحقها في النصب حين لا تضعيف، فإذا جئت بها قافية صنعت بها صنيع سبسبا في رأيت سبسبا» مع التضعيف. قال سيبويه:
قال رجل من بني أسد: ـ

ببازل يهاء أو عيهل

وقال رؤبة:

لقـــد خشيت أن أرى جـــدبـــا	في عـــامنـا ذا بعـــدمـا أخصبـــا

أراد جدبا وقال رؤبة:

بدء يحب الخلق الأضخما

فعلوا هـذا إذ كان من كلامهم أن يضاعفـوا فإن كان الحرف الذي قبل الآخر سـاكنا لم يضاعفوا نحو عمرو وزيد إلخ. ا. هـ» قلت لم يقيد سيبويه عبارته «إذ كان من كلامهم أن يضـاعفـوا» كما قيـدهـا من قبل حيث قـال لأن التضعيف لما كـان من كـلامهم في

الوقف، فهل اكتفى بقوله هذا أن يكرره وجعل عبارته هذه الثانية مردودة عليه أو أراد العموم هذه المرة وأن التضعيف مما يقع في كلام العرب لا يخص به قبيلة دون قبيلة؟ ثم إن سيبويه يقول في أوائل كتابه «ومن العرب من يثقل الكلمة إذ وقف عليها ولا يثقلها في الوصل نحو سبسبا وكلكلا لأنهم قد يثقلونه في الوقف فأثبتوه في الوصل كما أثبتوا الحذف في قوله لنفسه مقنعا و إنما حذفه في الوقف قال رؤبة :ـ

ضخم يحب الخلق الأضخما

تروى بكسر الهمزة وفتحها وقال بعضهم «الضخما بكسر الضاد. ا. هـ» فهذا فيه ما ترى من عموم في الشعر لا يخص به القوافي ولكن الذي استشهد به قافية. وقال في باب الوقف «وقد استعملوا في شيء من هذا الألف في الوقف كما استعملوا الهاء لأن الهاء أقرب المخارج الى الألف وهي شبيهة بها فمن ذلك قول العرب حيهلا فإذا وصلوا قالواحيهل بعمر و إن شئت قلت حيهل كما تقول بحكمك.» وقال في موضع آخر «وحدثني من أثق به أنه سمع عربيا يقول أعطني أبيضه والحق الهاء كما ألحقها في هنة وهو يريد هن.» قلت فعلى قوله الأول يجوز أن تلحق الألف بعد حيهل المشددة للام من أجل الوقف كأنه قال حيهل مشددة كما قال أبيض مشددة وألحقها هاء ثم أبدل مكانها ألفا. وأما التنوين فعلى التنكير، إذ قرأت حيهلا بمغداك منونا حيهلا. فتأمل هذا التخريج.

فهذا ما حثنا على القول بأن طريق «حيهلا بمغداك» بالتشديد كأنه واسع في العربية.

وكأن في كلام التبريزي شيئا من هذا المعنى حيث قال: «ويجوز أن يكون الطائي سمعها مشددة في شيء من شعر العرب ولو كانت قافية لجرت مجرى قوله: «كأن مهواها من الكلكل» ثم قال التبريزي «ومن روى حي أهلا فهذه كلمة مرفوضة إلا أن يجعل حي في معنى هلم وينصب أهلا بفعل مضمر ويجوز أن تكسر الياء في معنى التحية أي حي أهلا حاضرين بمغداك» ـ قلت فهذا يبين فضل مقال حبيب على قول من راموا إصلاحه.

والعرب قد تجرى الوصل مجرى الوقف فتصل بما تقف به وعليه رواية بيت امرىء القيس:

فاليوم أشرب غير مستحقب ... إثما من الله ولا واغل

لا بل عليه إلحاق الألف سبسبا وأخصبا إذ هو ترنم، والشعر كله ترنم.

هذا ولما ذكر أبو تمام الغمام في قوله «تصرح الدهر تصريح الغمام لها» وجاء بطاهر

وجنب، خرج من صفة ما كان وصفه من الدمار والنار الى صفة نشوة النصر وما يصنعه أهل الفتح من الإباحة:

لم تطلع الشمس فيهم يوم ذاك على بان بأهل ولم تغرب على عزب

فهذه إباحة، قتل وسباء. فالباني على أهله قتل وأخذت امرأته. والغازي العزب بات وله صاحبة فليس بعزب. وزعم بعض المعاصرين أن بائية أبي تمام كلها مدارها على الجنس. وصدق ابن قتيبة قبل دهر «فرويد» بأن الجنس كل ضارب فيه بسهم وآخذ منه بنصيب حلال أو حرام. ولكن ليس معنى ذلك أن نلتمس الجنس فنجده في كل مقال. وتشبيه أبي تمام لعمورية بالبرزة المستعصية والبكر المطلوبة بأشد الطلب قريب جميل. وصفته ما وقع من تحريق وتقتيل وسباء عمل شاعر متقن، وقد انتبه ونبهنا الى الجانب غير الحسن من ذلك، مما ينبىء بدقة إحساسه المرهف كل إرهاف و إنسانية نفسه مع التزامه بهذا التغنى الواضح القوي الجهير بنصر الخلافة والإسلام والعرب وذلك قوله:

ما ربع مية معمورا يطيف به غيلان أبهى ربا من ربعها الخرب

يعنى أبو تمام أنه معمور بحسن نعت غيلان له، إذ لم يكن حقا معمورا لما وقف غيلان عنده في مثل قوله:

وقفت على ربع لمية ناقتى فما زلت أبكي عنده وأخاطبه
وأسقيه حتى كاد مما أبثه تكلمنى أحجاره وملاعبه

فقد جعله غيلان هنا معمورا بالذكرى، وكقوله:

خليلى عوجا من صدور الرواحل بجمهور حزوي فابكيا في المنازل
لعل انهمال الدمع يعقب راحة من الوجد أو يشفي نجى البلابل

و قوله:

أدارا بحزوى هجت للعين عبرة فماء الهوى يرفض أو يترقرق

ثم أكثر ما يصفه غيلان وأكثر ما يصف الشعراء الربوع حين تبدل من أهلها أصناف الوحش وتصير رياضا ومراتع، فهذا لها حسن وعمران، وقد نعلم شغف حبيب

بالـرياض . فقولـه : معمورا يطيف به غيـلان ، منبىء بأن عمرانـه من إطافة غيـلان به وغيلان هو ذو الرمة . أما ربع عمورية فخرب . وهو أبهى ربا من ربع مية علي ما فيه من خراب ، لهذا النصر ، وهـذه الاستباحـة التي هي جـزاء المجاهـد المنتصر في هذه الـدنيا " ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون "

ولا الخدود وإن أدمين من خجـل أشهى الى نـاظر من خـدها الترب

هذا البيت نفيس حقا .
ربعها الخرب فيه هـذا السباء وهؤلاء المستباحات وخدودهن النـواعم يتفطرن خجلا ذا انكسار.
وهذه المدينـة التي افتتحت ، هي أيضا بكر، ولكن خـدها ضارع تـرب ، إذ كانت ذات كبرياء وأنف شـامخ . هذا الإذلال لها والتتريب مـدعاة للحزن . قـول الشاعر «خـدها الترب» مشعرنا بأساه لهذه الذلة بعد العز .
ولا شيء أعظم من نشوة الانتصار عليهـا بعد ما كان لها من طـول استعصاء وامتناع ـ هذه الخدود المتفطـرات خجلا اشتهيت بنشـوة الظفر، فهـذا الخد الترب أشهى الى نظر المنتصر المستبيح من هذه الخدود المدميهن الخجل .
والمنظر بعد فظيع سمج .
والنصر يجعل هذه السماجة الفظيعة أمرا عظيم الجمال :
هنا إنسانية أبي تمام الضخمة ودقة إحساسه المرهف .
فأمر هذه القصيدة ليس كله أو عموده شبق جنسي فروئدي ، فتأمل .

سماجــــة غنيت منـــا العيــــون بها عن كل حسـن بـدا أو منظـــر عجب
وحسن منقلـب تبـــدو عـــواقبـــه جـــاءت بشـاشتـــه عن ســوء منقلب

أخذ هذا أبو الطيب ـ أخذه كله بنظر شديد الى ما ذكره حبيب من نصر واستباحة :

فلم ينـج إلا من حماهــــا مـن الظبى لمى شفتيهــا والثـــدى النـــواهـــد
تبكي عليهن البطـــاريق في الـــدجى وهن لـــدينـا ملقيـــات كـــواســـد
بـــذا قضت الأيـــام مـــا بين أهلهــا مصـــائب قـــوم عنـــد قـــوم فـــوائد

فهذا عين مقـال أبي تمام أن حسن منقلب المنتصرين جاءت بشاشته بعـد سوء المنقلب

الذي حل بالمنهزمين .
ومن ثم أخذ أبو تمام في تعليل أسباب النصر وأن الخليفة بما حباه الله من تأييده كان هو السبب فيه .

لم يعلم الكفر كم من أعصر كمنت   له العواقب بين السمر والقضب

هذا مردود على قوله «حتى إذا مخض الله السنين لها» أي هذا النصر قد كمنت عواقبه عصورا طويلة بين السيوف والرماح . حتى اختارها المعتصم بالله وداهم بها العدو فقهره .
وما خلا أبو تمام من نظر قوي إلى طريقة علقمة في بائيته حيث قال :

فوالله لولا فارس الجون منهم   لآبوا خزايا والإياب حبيب

فجعله هو سبب النصر . ويوشك الصولي أن يكون قد تنبه أو نبه الى هذا الوجه حيث قال في البيت التالي :

ومطعم النصر لم تكهم أسنته   يوما ولا حجبت عن روح محتجب

أن أول من قال بهذا علقمة بن عبدةِ فقال ومطعم النصر يوم النصر إلخ ـ قلت ورواية علقمة المعروفة : «ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه البيت» ـ وما أشك ـ والله أعلم ـ أن حبيبا تعمد الإشارة اليه ولوى قوله «ومطعم النصر» منه . قال في هامش شرح التبريزي [دار المعارف تحقيق د . محمد عبده عزام . الطبعة الرابعة ص٥٨ هامش٥ من ج١] وله رواية أخرى في لـ : ومطعم الغنم يوم الغنم . قلت هذه الرواية لا نعلم غيرها . وليس في الشرح الكبير سواها ولا في طبعة مطبعة المعارف ١٣٦١هـ ص٢٠١

لم يغز قوما ولم ينهد الى بلد   إلا تقدمه جيش من الرعب
لو لم يقد جحفلا يوم الوغى لغدا   من نفسه وحدها في جحفل لجب

هذا من المبالغة ، ويبرره أن المعتصم كان مشغولا بالجيوش ، فتركه كانوا إذا رأى عرضهم كأنها هم امتداد لنفسه . وقد كان يخيل لنا أن هذا خبر وليس بمبالغة وأن المعتصم به أشجع من عنترة الذي ليس كسيرته الحربية من سيرة . ثم ثبت عندنا بعد أن عنترة أعظم شأنا في باب الشجاعة الفردية البطولة .

رمى بك الله برجيها فهدمها   ولو رمى بك غير الله لم تصب

ويروى لم يصب بالياء والتاء أجود وأراد الإشارة الى آية الأنفال أي أنت إنما خرجت غضبا لله ولو كنت خرجت لغير ذلك ما انتصرت وما يكون لك أن تخرج لغير ذلك، إذ أنت خليفة الله، كل أمرك في الله ولله.

من بعد ما أشبوها واثقين بها　　　والله مفتاح باب المعقل الأشب

أشبوها أي حصنوها حتى صارت كالشجر الملتف [هذا لفظ التبريزي ولعله من أبي العلاء] بما حولها من كثرة السلاح. ومن شاء جعل هذا المعنى جنسيا

وقال ذو أمرهم لا مرتع صدد　　　للسارحين وليس الورد من كثب

هذه فكرة الروم، وخلفائهم الإفرنج عن العرب والمسلمين، أنهم بدو يطلبون المرعى وموارد الماء،

أمانيا سلبتهم نجح هاجسها　　　ظبي السيوف وأطراف القنا السلب

خفف الأماني، والسلب أى الطوال جمع سلب بفتح فكسر

إن الحمامين من بيض ومن سمر　　　دلوا الحياتين من ماء ومن عشب

هذا تهكم بهم من أبي تمام إذ قالوا لا مرتع ولا ورد ــ فقال بلى، فالمرتع والورد سيوفنا ورماحنا. منايا هن هن الدلاء التى نصيب بها الحياة ـ حياة المرتع (العشب) والمورد (الماء) ـ وهيأ هذا من مقاله ما سيجيء به بعد من خبر المرأة التى قالت وامعتصماه وهم يظنون أن لا معتصم لها من أجل أنه لا مرتع صددا أى قريبا له ولا ورد من كثب أى من قريب.

لبيت صوتا زبطريا هرقت به　　　كأس الكرى ورضاب الخرد العرب

لما جعله ولي أمر الدين جعل لا لذة له إلا الأهل، ولا خمر له إلا إغفاءة النوم. فنفض إغفاءة النوم وترك الحلائل من أجل الغيرة والنجدة. وعسى بعض هذا أن خيل به لمن خيل له أن فكرة الجنس هي الغالبة على أبي تمام في هذه البائية، وإنما قصد أبو تمام إلى معنى قول الآخر:

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم　　　دون النساء ولو باتت بأطهار

وقول الآخر:

إذا ما أراد الغزو لم تثن همه　　حصان عليها عقد در يزينها

وذكر كأس الكرى لأن عادة العرب أن تترك الخمر إذ غزت وقد أراق الربيع بن زياد زقاق خمره لما بلغه مقتل مالك بن زهير وحرم النساء وقال :

أفبعد مقتل مالك بن زهير　　ترجو النساء عواقب الأطهار

فجعل كأس المعتصم التي أراق كأس كراه كما تقدم ذكره . وأحسبه أخذ تصيير الكرى كأسا من قول تأبط شرا :

فاحتسوا أنفاس نوم فلما　　هوموا رعتهم فاشمعلوا

ولا يلام على أخذ وهو بعد صاحب ديوان الحماسة .

قالوا ــ وهو الذي في شرح التبريزي : زبطري منسوب إلى زبطرة وهي بلد فتحه الروم فبلغ المعتصم فيما قيل ان امرأة قالت في ذلك اليوم وامعتصماه فنقل إليه ذلك الحديث وفي يده قدح يريد أن يشرب ما فيه فوضعه وأمر بأن يحفظ فلما رجع من فتح عمورية شرب . » ا . هـ

عداك حر الثغور المستضامة عن　　برد الثغور وعن سلسالها الحصب

أجبته معلنا بالسيف منصلتا　　ولو أجبت بغير السيف لم تجب

أي أجبت الصوت الزبطري

حتى تركت عمود الشرك منعفرا　　ولم تعرج على الأوتاد والطنب

أي قصدت مدينة الكفر المستعصية فعفرت خدها وهو المعنى الذي كان فيه من خراب عمورية فعاد إلى صفة الحرب ، وبعد أن وصف حال المعتصم وصف حال عدوه ، وجعل هذا في مقابلة ذلك .

لما رأى الحرب رأى العين توفلس　　والحرب مشتقة المعنى من الحرب

فهذا تفسير اقتصادي للحرب والمعنى قديم ويدعي السبق فيه لكارل ماركس وسبقه في طريقة تأويل بعض أحداث التأريخ في ضوئه لا في نفس المعنى وقد زعم «برتراند رسل» في تأريخ الفلسفة الغربية أن افلاطن سبق ماركس ولكن المعنى أقدم من ذلك لمن تأمله .

غدا يصرف بالأموال جريتها　　فعزه البحر ذو التيار والحدب

هيهات زعزعت الأرض الوقور به　　عن غزو محتسب لا غزو مكتسب

فالغزو للاكتساب قديم واضح الأمر. ولكن الغزو للاحتساب، هو الذي ينبعث من روح الإيمان والدين. ومن أجل ذلك لبى المعتصم الصوت الزبطري وهراق كأس الكرى، هذه التي حاولت أساطير الأخبار أن تجعلها كأس نبيذ ـ وترجع بروحها الإسلامي إلى روح جاهلي كروح الربيع بن زياد. والمعتصم بالله لم يكن أديبا ناقدا كأبيه الرشيد ولا فلسفيا جدليا كأخيه المأمون، ولكنه كان جنديا أمه تركية، أقرب إلى سذاجة صدق العقيدة مما تصوره هذه الأسطورة، والله أعلم.

لم ينفق الذهب المربي بكثرته على الحصى وبه فقر إلى الذهب

أي إن المعتصم ما كان ليقبل رشوة مال من توفلس الذي أراد أن يدرأ خطر الحرب بعطاء الجزية، ذلك بأن المعتصم صاحب دولة غنية، ما أنفق ما أنفق من ذهب لكي يرشى بمثله ولكن ليصول لدينه وينتقم ممن غضوا من قدره

إن الأسود أسود الغاب همتها يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

وهذا كان رأي بلال والأنصار رضي الله عنهم في أمية بن خلف.

ولى وقد ألجم الخطى منطقه بسكتة تحتها الأحشاء في صخب

هذا البيت غاية في جودة التعبير. وجعل الصخب في مقابلة السكتة. وأخذ المعنى فأجاد الأخذ من قول عمرو بن معد يكرب، وقد اختاره هو في حماسته،

ولو أن قومي أنطقتني رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرت

فقد صخبت أحشاء عمرو ههنا بأسف شديد مع زعمه أن الخطى ألجمه لفرار قومه وهزيمتهم. ولم يعن أبو تمام بالصخب وجيب القلب وحده كما يفهم من شرح التبريزي ولكنه عنى الخوف وهواجس الأسف والحزن. وقوله من بعد يؤيد قولنا هذا:

أحذى قرابينه صرف الردى ومضى يحتث أنجى مطاياه من الهرب
موكلا بيفاع الأرض يشرفه من خفة الخوف لا من خفة الطرب

قال أبو زكرياء: «المعنى أن هذا الرجل يعلو ما ارتفع من الأرض لينظر إلى الطرق هل فيها من يتبعه. ا. هـ». وقوله من خفة الطرب يشير إلى نحو قول توبة:

وأشرف بالقور اليفاع لعلني أرى نار ليلى أو يراني بصيرها

وفيه أيضا إشارة إلى إشراف حمار الوحش، إذ في فعله خفة طرب إذ هو مع حلائله:

بأحزة الثلبوت يربأ فوقها قفر المراقب خوفها آرامها

ويدلك أنه ما خلا من إشارة إلى حمار الوحش ذكره الظليم من بعد، وهذه معان يدعو بعضها بعضا والقاريء الكريم يعلم صلة بينها:

إن يعد من حرها عدو الظليم فقد أوسعت جاحمها من كثرة الحطب

من حطب هذا الجاحم أعداء الله الذين انكبوا فيه. وعاد أبو تمام إلى ما بدأ به من السخرية. وقد كان سخر بالنجوم والكوكب الغربي ذي الذنب. فآن أن يسخر بالرواية وزخرفها وما قيل إنها - أي عمورية - لا تفتح قبل نضج التين والعنب. ومما ينبه إليه ها هنا أن قوله "عدو الظليم" فيه وحي رجعة إلى قوله في أول القصيدة: «زعموا الأيام مجفلة» والإجفال للنعام. وقد أجفلوا هم. فتأمل.

تسعون ألفا كآساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب

يارب حوباء لما اجتث دابرهم طابت ولو ضمخت بالمسك لم تطب

هذا قريب من قوله ما ربع مية وسماجة غنيت. أي طابت النفس بسرور النصر وذلك أطيب من المسك. وذكر المسك لقولهم ما كان الطيب إلا المسك برفع المسك وهو من كلمات الكتاب فأحسبه يشير إلى ذلك.

والحرب قائمة في مأزق لجج تجثو الكماة به صغرا على الركب

صغرا أي تصاغرا لكي يقدروا على المأزق اللجج ولعل الرواية الصحيحة لحج بحاء مهملة مكسورة وجيم معجمة وشرح التبريزي يدل على ذلك إذ لحج بالحاء المهملة والجيم من باب فرح هي المناسبة لشرحه إذ شرح فقال: لحج في الشيء إذا نشب فيه فلم يخلص وقد يقال مكان لحج أي ضيق ـ كل ذلك في الطبع (ص٧١) بجيمين وفي مادة لحج في القاموس لحج السيف كفرح نشب في الغمد ومكان لحج ككتف والملاحج المضايق. قلت كل ذلك بحاء مهملة قبل الجيم وليس شيء في مادة اللجاج بمطابق ما وقع في شرح التبريزي من تحريف طابع أو ناسخ وأحسب رواية مختارات البارودي لحج بحاء مهملة فجيم وهو الصواب. صغرا بضم الصاد بعدها غين معجمة ساكنة مصدر صغر ككرم. والصورة مأخوذة من صفات أيام صفين وأبو تمام كان أعلم بذلك من حاق الممارسة للحروب.

كم نيل تحت سناها من سنا قمر وتحت عارضها من عارض شنب

كم كان في قطع أسباب الرقاب بها إلى المخدرة العذراء من سبب

رجعة أبي تمام هنا إلى ما كان ذكره من بان بأهل وعزب، إجمال بعد تفصيل. بدء هـذا الإجمال قـوله تسعـون ألفـا إذ رجع بـه إلى روح مطلعـه ثم أتبع ذلك روح صفتـه للحـرب والفتح والحريق والاستبـاحة ثـم يختم بمدح وحكمـة تقـرع الأسماع وتبقى في القلوب. وقوله إلى المخدرة العذراء - عنى عمورية، ثم ما في عمورية من عذارى سبين فافترعن.

كم أحـرزت قضب الهنـدي مصلتـة	تهتـــز مـن قضب تهتـــز في كثب
بيض إذا انتضيت مـن حجبهـارجعت	أحق بـــالبيض أبـدانـــا من الحجب

هـذا لعب لفظي معنـوي مـرقص. البيض السيـوف. والبيض أبـدانـا: نسـاء الـروم وحجب السيوف أغمادهـا. وحجب النساء معـروفة. فهـذه البيض إذا سلت، صـارت هي أحق بالروميات من خدورهن.

وهذا كله ثمرة الفتح والنصرالمبين.

خليفـة اللــه جـازي اللــه سعيك عن	جـرثـومـة الـديـن والإسـلام والحسب
بصرت بـالـراحـة الكبرى فلم تـرهـا	تنـــال إلا على جسر مـن التعـب
إن كـان بين صروف الـدهـر من رحم	مـوصـولـة أو ذمـام غير منقضب
فبين ايـــامـك الـــلاتي نصرت بها	وبين أيـــام بـــدر أقـــرب النسب

كما بينك وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرب النسب - هذا متضمن

أبقت بني الأصفـر الممـراض كـاسمهم	صفـر الـوجـوه وجلت أوجـه العـرب

فقـد سمى أبـو تمام بلاد الـروم الـرجل المريض. ثم رد الافـرنج هـذا الاسم على المسلمين من بعد فسموا تركيا رجل اوروبـا المريض. "وتلك الأيام نداولها بين الناس" «ولله غيب السموات والارض وإليه يرجع الأمر كله.»

وزعم التبريزي أنه يقال «إنما يقال لملوك الـروم بنو الأصفر لأن حبشيا كان غلب على بلادهم فنكح فيهم فولـد له أولاد يخالط بياضهم صفرة من سـواده فازدادوا بذلك حسنا.» - ا. هـ. قلت أبي العرب أيام عزهم إلا أن يجعلـوا الحبش الذين غلبوهم على اليمن، غلبوا الـروم أيضا. ولا يعلم على وجه الحقيقـة لماذا كانت تسمى العـرب الروم بني الأصفر، ولكـن يغلب على الظن ان المراد بذلك شعـور رؤوسهم اذ كان يـوستنيان ملك الـروم ومن قبلـه روسا في أصـولهم في شعـورهم غير مـا اعتادوه مـن لون السـواد. ولذلك قـالوا صهب السبـال. كما قالوا زرق العيـون. قال عبـدالله بن سبرة يصف الرومي:

أحم أزرق لم يشمط وقد صلعا

وليس قول حبيب «صفر الوجوه» بمبعد هذا الذي ذهبنا اليه من قصد الشعر، والصفرة والحمرة والصهبة كل ذلك في ألوان الشعر مباين لما يألف العرب ومقال حبيب الذي قاله اجتهاد منه وافتنان.

هذا، وقد جعل الدكتور طه حسين «ليالي بعد الظاعنين شكول» أميرة شعر أبي الطيب. وهي من الجياد الروائع. وليس مذهب أسلوبها كمذهب «السيف أصدق». وقد نبه الدكتور طه رحمه الله على أن أبا الطيب جاري فيها مجاراة استحسان لا محاكاة او معارضة كلمة السموأل الحماسية. ولله دره ناقدا متذوقا. فالسموأل يقول:

لنا جبل يحتله من نجيره | منيع يرد الطرف وهو كليل
رسا أصله تحت الثرى وسما به | الى النجم فرع لا ينال طويل
تسيل على حد الظبات نفوسنا | وليست على غير الظبات تسيل
صفونا فلم نكدر وأخلص سرنا | إناث أطابت حملنا وفحول
وأيامنا مشهورة في عدونا | لها غرر مشهورة وحجول
وأسيافنا في كل غرب ومشرق | بها من قراع الدارعين فلول

وكلمة السموأل جرى فيها على مخاطبة امرأة من العرب كما يدل عليه السياق ومحل استشهادنا هذا الضمير الجهير «نا» واياه اتبع أبو الطيب إذ يقول:

تمل الحصون الشم طول نزالنا | فتلقي إلينا أهلها وتزول
وانا لنلقي الحادثات بانفس | كثير الرزايا عندهن قليل
يهون علينا أن تصاب جسومنا | وتسلم أعراض لنا وعقول

وذكر العقول هنا وثبة من وثبات أبي الطيب ترفعه فوق المحاكاه البحتة. وفي هذه اللامية ضروب من المخاطبة، آنا يخاطب سيف الدولة وآنا يجرد من نفسه آخر يخاطبه:

سوى وجع الحساد داو فإنه | إذا حل في قلب فليس يحول

وحينا يخاطب الدمستق. ولا ريب أن القصص الحربي عنتري الروح يخاطب به التي لقيها بدرب القلة أو زعم ذلك.

ليست " ليالي بعد الظاعنين شكول " من ضرب " السيف أصدق " في نوع شكلها. ليس صاحبها على جهارة صوته فيها بخطيب. ولكنه صائح وصادح.

القصيدة التي فيها منهج بائية حبيب ميميته. :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

وهي فخمة جزلة. غير أن فرق ما بينها وبين بائية حبيب كفرق ما بين سيف الدولة والمعتصم.

وأفخم من «علي قدر أهل العزم تأتي العزائم» وأشد شبها ببائية حبيب واتباعا لها ميميته التي قيل إنها آخر ما أنشده سيف الدولة :

عقبى اليمين على عقبى الوغي ندم ... ماذا يزيدك في إقدامك القسم

وهذا المطلع فيه نفس من مطلع البائية لما فيه ما بين اليمين والوغي من مقابلة غير بعيدة جدا من مقابلة ما بين السيف والكتب ـ وسرعان ما قال أبو الطيب بعد هذا المطلع بأبيات قلائل.

أين البطاريق والحلف الذي حلفوا ... بمفرق الملك والزعم الذي زعموا

فهذا فيه أنفاس :

أين الرواية بل أين النجوم وما ... صاغوه من زخرف منها ومن كذب

وقد أبدع أبو الطيب في تصوير حركة الجيش غير أن نموذج البائية أمامه ومن جيد صناعته فيها قوله :

فما تركن بها خلدا له بصر ... تحت التراب ولا بازا له قدم
ولا هزبرا له من درعه لبد ... ولا مهاة لها من شبهها حشم
ترمي على شفرات الباترات بهم ... مكامن الأرض والقيعان والأكم

فهذه صفة غارة وحركة. وكأن قول حبيب :

غدا يصرف بالأموال جريتها ... فعزه البحر ذو التيار والحدب

دعا أبا الطيب الى صفة حركة العبور. وقد جاء بصورة جيدة منها في اللامية إذ قال :

ورعن بنا قلب الفرات كأنما ... تخر عليه بالرجال سيول
يطارد فيه موجه كل سابح ... سواء عليه غمرة ومسيل
تراه كأن الماء مر بجسمه ... وأقبل رأس وحده وتليل

وهذا وصف مشاهد، عظيم حيوية الحركة. وقد ألم أبو الطيب بصورة النيران والحريق، ولكنه أشرب ذلك الحركة وسرعة مجاوزته ، ولقد علم إبداع حبيب في هذا الباب ، فاكتفي منه بأخذة خلس لا يزيدها :

تسـايـرهـا النيران في كـل مسلك   بـه القـوم صرعى والـديـار طلـول

وفي الميمية أقـام شيئا يسيرا عنـدصفة العبور بـالسفن، كأنه يـريد بـذلك أن يربى على الأوصـاف التي في بائيـة أبي تمام وأعرض عن ذكـر النار إلا تلميحـا في معرض تشبيـه السيوف بها :

عبرت تقـدمهـم فيـه وفي بلـد   سكـانـه رمم مسكـونها حمم

فهذه صفة الحريق ثم عدل عن ذلك فجعل السيوف هي النار :

وفي أكفهم النـار التـي عبـدت   قبل المجـوس الى ذا اليـوم تضطـرم
هنـديـة إن تصغـر معشرا صغـروا   بحـدهـا أو تعظم معشرا عظمـوا

وقد أخذ أبو العلاء من هاهنا إذ قال :

ليست كنـار عـدي نـار عـاديـة   بـاتت تشب على أيـدي مصـاليتـا

ولا تلهينك الإشارة الى «يـاسليمي أوقدي النارا»عن أصل أخذه . ثم جـاء أبو الطيب بنعت سفن العبور ـ وكما قدمنا دعاه إليه تيار البحر وحدبه عند ابي تمام :

قـاسمتهـا تل بطـريق فكـان لها   أبطـالها ولك الأطفـال والحرم
تلقى بهم زبـد التيـار مقـربـة   علي جحـافلهـا من نضحـه رثم

الرثم بيـاض في شفاه الخيل وجحا فلهـا شفاهها المفرد جحفلة والمراد هنـا صفة سفينة بياض الماء حول مقدمها كأنه رثم حـول جحفلة فرس. وزبد التيار هذه صدى مباشر من «فعـزه البحر ذو التيار والحدب». وذكـروا عن أبي الطيب أنه كـان ينكر أن يكون يأخذ من المحدثين وأنه إنما كان يأخـذ من القدماء. فإن صحت هذه الرواية فما يكون عدا بها الكنـاية، إذ شعر أبي تمام مشحون بـالقدماء، لا يخلو مـن نظر في شعره من أن ينظر فيها يضمنه أو يشير إليه من شعرهم. ــ ثم بعد قوله : تلقى بهم زبد التيار قوله :

دهم فـوارسهـا ركـاب أبطنهـا   مكـدودة وبقـوم لا بها الألم

يريد السفن، فالدهم من صفة الخيل وركوب الأبطن من نعت السفن.

وخاتمة هذه الميمية فيها صدى من خاتمة أبى تمام، وذلك قول أبى الطيب :

القـائم الملك الهادي الـذي شهـدت   قيـامـه وهـداه العـرب والعجم
ابن المعفـر في نجـد فـوارسهـا   بسيفـه ولـه كـوفـان والحرم

وهـذا قريب من قـول أبى تمام «خليفة اللـه جـازى الله سعيك عن إلخ» ــ ثم

أضرب أبو الطيب عن هذا القري، وكأن قد أقر في نفسه بسبق أبي تمام في البائية :ـ

لا تطلبن كـــريما بعـــد رؤيتـــه　　إن الكــرام بأسخــاهــم يــدا ختمــوا
ولا تبـــال بشعـــر بعـــد شـــاعـــره　　قـــد أفســـد القـــول حتى أحمد الصمم

واستشهد بهذين البيتين ابن الأثير في المثل السائر ينبه بهما علي فضله. وقد أشرنا في كلمتنا التى بعنوان «الى ليلاه الخجول» الى أخذ أندرو مارفيل ANDREW MARVELL من أبي تمام في مطلع قصيدته التي مدح بها زعيمه البريطاني Oliver Cromwell : [1]

Tis time to leave the Books in dust,
And oyl th'unused Armours rust.
So restless Cromwel could not cease
In the inglorious Arts of Peace
But through Adventrous war
Urged his active star.

لقـــــــد آن أن ينبـــــــذ الكتـــــــاب إلى التراب
وأن يصقـل مـن الـــــدرع صـــــدأ الإهـــــاب
ومـــــا كـــــان لكـــــرومـــــويـل القلق الفـــــؤاد
أن يكـــــون إلى فنـــــون دعـــــة السلم ذا إخـــــلاد
ولكـن في مصـــــادمـــــة حـــــومـــــة القتـــــال
احتـث نجـم طـــــالعـــــه الفعـــــال

قالوا وكان كروميل عاكفا على درس وكتب ثم ترك ذلك وانبرى للحرب فكان ما كـان من ظفره ــ وهذا من استهـلال أندرو مـارفيل مأخوذ من استهـلال أبى تمام على الأرجح.

والشبه ظاهر.

وقال أندرو مارفيل فى آخر هذه الكلمة :

But thou the wars and Fortune's son
March indefatigably on:

---

(١) لم يورد النص الانجليزي في ليلاه الخجول (مصر ١٤٠٣) والتهجى هنا من ضرب قديم.

And for the last effect
Still keep thy sword erect
Besides the force it has to fright
The spiril's of the shady night
The same arts that did gain
A Pow'r must it maintain.

أمـــــا أنـت فـــــابـن الحروب والجد السعيـــــــد
لاتنـي في سيرك الشـــــــــــديـــــــــــد
ولكـي يكـــــون لك الأثــــــر البـــــالـغ الأخير
فـــإن حســـــــــــــامـك مصلـت شهير
إذ قـــــوتــــه كما تخيـف أشبـــــاح ظـل الظـــــلام
فإن الفنـــون التي نيلت بها السطـــوة بها أيضـا تستـــدام

هذه ترجمة تقريبية .

وعين هذا المعنى في ميمية أبي الطيب إذ يقول :

ألهى الممالك عـن فخـــر قفلـت بـــه شرب المدامـــــة والأوتـــــار والنغـم
مقلــدا فــوق شكـــر اللـــه ذا شطب لا تستـــــــدام بأمضـى منهما النعـم

وكأن أبا الطيب رام بهذه الميمية أن يضاهى أبا تمام لا في المعاني فحسب وأن يربي عليه بـذكر السفن والعبـور أيضا ، ولكن تعمد مع ذلك أن يقـارب بعدد أبيـاتها عدد أبيات «السيف أصدق» إذ هي نيف وستون بيتـا ، وأبو الطيب أحرص على الإيجاز منه على الإطالة . وهذه الميمية [1]على جودتها لا تبلغ بين السيفيات مبلغ :-

وفـاؤكما كالـربع أشجـاه طاسمـه بأن تسعـدا والدمع أشفـاه ساجمه

وهذه نفسه فيها كأن فيها قصدا إلى مجاراة بائية أبي تمام :

أهن عـوادي يـوسف وصـواحبـه فعزمـا فقدما أدرك النجح طـالبه

إذا فيها شيء من مشابه تفخيمه . وقد نبـه الدكتور طه حسين رحمه الله على محاسنه بما لا مزيد عليه في هذا الموضع .

ومن أعجبها الى قوله في غزلها :

---

(١) سبق لنا أن قلنا وقد أوردنا من هذه الميمية في الجزء الثاني في باب التكرار ان عمل ابى تمام انما كان إعدادا لما سيأتي به (أبو الطيب) من روائع وهو كذلك .

سقـــاك وحيـــانـــا بـك اللـــه إنما ... على العيس نـــور والخدور كمائمـــه
إذا ظفـــرت منك العيـــون بنظـــرة ... أثـــاب بها معيي المطي ورازمـــه
حبيـب كأن الحسـن كـــان يحبـــه ... فـآثـره أو جـار في الحسن قـاسمـه
تحول رمـــاح الخط دون سبـــائه ... وتسبى لـــه من كل حي كـــرائمـــه
ويضحى غبـــار الخيـل أدنى ستـــوره ... وآخـــرهـــا نشر الكبـــاء الملازمـــه

وزعم بعض شراح شعـر أبي الطيب أن ههنـا من المبـالغة. وليس الأمـر على مـا توهمه.
هذه الصورة لمن تأملها منتزعة من حال ما كان عليه أهل الترف.
وقوله:

ومـا استغـربت عيني فـراقـا رأيتـه ... ومـا علمتنى غير مـا القلب عـالمه
فـــلا يتهمنى الكـــاشحـــون فـإننى ... رعيت الـردى حتى حلـت لى عـلاقمـه
مشب الـذى يبكى الشبـاب مشيبـه ... فكيف تـــوقيـه وبـانيـه هـــادمـه
وتكملـــة العيش الصبـــا وعقيبـــه ... وغـائب لـون العـــارضين وقـادمـه
ومـــا خضب النـاس البيـاض لأنـــه ... قبيح ولكـن أحسن الشعـــر فـــاحمه

ثم بعد هذا يجيء مدحه الجيد وفخره الرصين:

سلكت صروف الـدهـــر حتى لقيتـــه ... على ظهـــر عـزم مـــؤيـدات قـوائمـه
مهـــالك لم تصحب بها الـذئب نفسـه ... ولا حملت فيهـــا الغـــراب قـــوادمـه

لا يكثر أبو الطيب من الإشـارة إكثار أبي تمام ولا يظهرها إظهـاره. ولكنه يخفيها وكأنها وحي يلحن بـه. وجلى ههنـا أنـه يشير إلى نعت الشعراء الـذئب وإلى حـديث الجاحظ عن الطير والحيوان. شعر أبي الطيب لمن تأمله ملىء بـالإشارة الخفية وهذا من معدن ميله إلى الإيجاز.
ثم إنه كان ينشد شعره فضلاء أذكياء، فإما فطنوا إلى مراده بما رزقوه من سعة الاطلاع، واما تفطنوا إليه من بعد فأدركوا مغامض معانيه مثلا قوله:

خف اللـــه واستر ذا الجمال ببرقع ... فإن لحت ذابـت في الخدور العواتق

والرواية الأخرى (حاضت في الخدور العواتق) ولعلها هي الأولى وعيبت على أبي الطيب وما أشك أنه يشير إلى تفسير من فسر قوله تعالى (أكبرنه وقطعن أيديهن) بمعنى الحيض والله أعلم.
ومثلا قوله:ـ

أمنعمة بالعودة الظبية التي بغير ولي كان نائلها الوسمى

الوسمى المطر الأول والولي بعده ـ قال ابن الرومي، وكان أبو الطيب من حملة ديوانه ورواته، يصف روضة :ـ

شكرت نعمة الولي على الوسـ ـمى ثم العهاد بعد العهاد

وأشار إلى هذا المعنى في قوله

من يزره يزر سليمان في المـلـ ـك جلالا ويوسفا في الجمال
وربيعا يضاحك الغيث فيه زهر الشكر من رياض المعالي

ورياض المعالي من أنفاس النسيم ونفحاته. ولا غرو فقد كان يحب البرية مع كثرة أسفاره. وهو بعد القائل

وكيف التذاذي بالأصائل والضحى إذا لم يعد ذاك النسيم الذي هبا

والقائل

كلما رحبت بنا الروض قلنا حلب قصدنا وأنت السبيل

والقائل

رعى الله عيسا فارقتنا وفوقها مها كلها يولى بجفنيه خده
بواد به ما بالقلوب كأنه وقد رحلوا جيد تناثر عقده
إذا سارت الأحداج فوق نباته تفاوح مسك الغانيات ورنده
وحال كإحداهن رمت بلوغها ومن دونها غول الطريق وبعده

ثم يقول بعد بيت(مها لك لم تصحب إلخ) من الميمية، وإنما استطردنا عن ذلك فطال الاستطراد قليلا :ـ

فأبصرت بدرا لا يرى البدر مثله وخاطبت بحرا لايرى العبر عائمه
عجبت له لما رأيت صفاته بلا واصف والشعر تهذى طماطمه
وكنت إذا يممت أرضا بعيدة سريت فكنت السر والليل كاتمه
لقد سل سيف الدولة المجد معلما فلا المجد مخفيه ولا الضرب ثالمه
على عاتق الملك الأغر نجاده وفي يد جبار السموات قائمه

وشعر أبي الطيب الجيد في سيف الدولة خاصة كثير مشهور. ولعل أميرة القصائد السيفيات كلهن، وليست بأطولهن، ميميته العتابية :

واحــر قلبــاه ممن قلبــه شبم ومن لجسمي وحــالي عنـده سقم

وهي خطابية جهيرة. غير أن شكلها لمن تأمله أقدم معدنا وجوهرا من خطابيات أبي تمام وبشار. إذ أبـو الطيب كما يغرف من بحر التجـارب وكما يحتوى محاسن حبيب والوليد وابن الرومي وينتهب منها ومن غيرهم من مفلقي المحدثين، يتجاوز هؤلاء على أخذه منهم و انتهابه، إلى شعـراء الجاهلية، بنظر شديد يجمع فيه بين الأصـالة المبدعة والحذو البارع المفتن

في هذه الميمية العكاظية ـ قالوا إنه أنشدها في محفل من العرب، وقال أبو منصور ما معنـاه أن أكثرهـا على جودتها يدخـل في باب إساءة الأدب بـالأدب ـ حـذو ما على شكل التخصير القديم. أي الشكل الذي يفصل الشاعر بين أول قسم منه وآخر قسم بالحكمـة أو ما يجرى مجراهـا. وقد ضربنـا أمثلة مـن تصرف الشعراء في هـذا الباب. منهن لامية كعب ابن زهير. وحـذو هذه اللاميـة في الشكل وفي معدن الوزن حـذا أبو الطيب. ولاغرو فهي اعتذار ضمنه التماس يتبرأ به كأنما هو عتاب رقيق:

لا تأخـــذني بأقـــوال الـــوشـــاة ولم أذنب وإن كثـــرت في الأقـــاويل
لقـــد أقـوم مقـامـــا لـــو يقـــوم بـــه أرى وأسمع مـــا لـــو يسمـع الفيل
لظل يـــرعـــد إلا أن يكـــون لـــه من الـــرســـول بإذن اللـــه تنـــويل
حتى وضعـت يميني لا أنـــازعهـــا في كـف ذي نقمات قيلـــــه القيـل
فلهـــو أهيب عنـــدي إذ أكلمـــه وقيـل إنك منســـوب ومسئـــول
مـن ضيغم بضراء الأرض مسكنـــه من بطـن عثـــر غيل دونـــه غيـل
يغـــدو فيلحـم ضرغـــامين عيشهما لحم من القـــوم معقـــور خـــراديل

هل أراد بقوله «عيشهما» ههنا «خبزهما»؟ في بعض اللغات السامية أنّ اللحم هو الخبز؟

إذا يســـاور قـــرنـــا لا يحل لـــه أن يترك القـــرن إلا وهـــو مجدول
منـــه تظل سبـــاع الجو خـــائفـــة ولا تمشـى بـــواديـــه الأراجيـل
ولا يـــزال بـــواديـــه أخـــو ثقـــة مطـرح البـــز والـــدرســـان[1] مأكول

حذا أبو الطيب على: «بـانت سعاد». وإنك لتحس عنده انفاس إيقـاعها وصدى من روح صياغتها. قال كعب:

---

(١) هو السلاح والدرسان: النياب.

لا تأخـذني بأقـوال الـوشـاة ولم أذنب وإن كثـرت في الأقـاويل

صدى من هذا في قول أبي الطيب :

يـا أعدل النـاس إلا في معـاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكـم

وقال كعب :

لقـد أقـوم مقـامـا لـو يقـوم بـه يـرى ويسمع ما لـو أسمع الفيل

لظل يرعد . . . . .

فأصداء من هذا وأنفاس من روحه في قول أبي الطيب :

أنـا الـذي نظـر الأعمى الى أدبي واسمعت كلماتي مـن بـه صمم

صحبت في الفلوات الوحش . . . .

ثم أليس ثم صدى من قول كعب في بانت سعاد :

حتى وضعت يميني ما أنازعها . . . .

في قول أبي الطيب :-

قد زرته وسيوف الهند مغمدة . . . .

وقد ذكـر أبو الطيب الهيبـة في قوله : «واصطنعت لك المهـابة إلخ» وذكـر نيوب الليث وهوله في قوله : «إذا رأيت نيوب الليث بارزة» وأشار بل صور ضغمه حيث قال : «حتى أتته يد فراسة وفم» . وفي «بانت سعاد» نعت الهيبة وتصوير الضيغم الذي يغدو:

. . . فيلحم ضرغـايـن عيشهـا لحم مـن القـوم . . . .

«بانت سعاد» كما ذكرنا من قبل مخصرة ، حذيت على نهج«إن الخليط أجد البين فانفرقا» وأصل جميع ذلك«قفـا نبك» « وهل مـا علمت ومـا استـودعت» وما أشبـه من كـلام القدماء قبل زهير. ومثل بانت سعاد ميمية أبي الطيب هذه ، هي أيضا مخصرة .

قسمها الأول أقام فيه الممدوح مقام المحبـوب ، فهو نسيبي السنخ . وقد نبه أبو منصور على حسن هذا المذهب من أبي الطيب ومحبوب أبي الطيب ، الذي هو ممدوحه ، جعل له مـن صفـات سعـاد كعـب مشـابـه . أليـس كعـب يقـول :

أكـرم بها خلـة لـو أنها صـدقت مـوعـودهـا أو لـو أن النصح مقبـول

لكنهـا خلـة قـد سيط من دمهـا فجع وولـع وإخـلاف وتبـديل

فما تـدوم على حـال تكـون بها   كما تلـون في أثـوابها الغـول
ولا تمسك بـالـوعـد الـذي زعمت   إلا كما يمسك الماء الغـرابيـل
وقد قال أبو الطيب :

واحـر قلبـاه ممن قلبـه شبم   ومن لحالي وجسمي عنـده سقم

«سعاد» كعب قد بانت فهو يروم اللحاق بها وهي رمز السعادة والنجاة التي طلبها في نصر أمر الجاهلية ، فخانه ذلك الطلب ، فهـو الآن يرومها عنـد الرسول عليـه الصلاة والسلام .

ومحبوب أبي الطيب لم يبن . وكأن قد اقترب بينه . قلب كعب متبول متيم مرهون مكبول

ولكن قلب أبي الطيب وحاله معا سقيمان .

مالي أكتم حبا قد برى جسدي . . . .

فهو حب صادق

وتدعي حب سيف الدولة الأمم

والدعـاوى فيها الكذب . محبـو سيف الدولة غير أبي الطيب فيهم فجع سعـاد وولعها وإخلافها وتبديلها ـ وهب ما يدعونه حبا :

إن كـان يجمعنـا حب لغـرتـه   فليت أنـا بقـدر الحب نقتسم

الحب المدعى دعوى . والحب الذي قد برى الجسد وأسقم القلب والحال . هذه القسمة الضيزى فجع وولع . فقد لبس محبوب أبي الطيب من صفات محبوبة كعب هاهنا .

قـد زرتـه وسيـوف الهنـد مغمـدة   وقـد نظـرت إليـه والسيـوف دم
فكـان أحسن خلـق اللـه كلهم   وكـان أحسن مـا في الأحسـن الشيم

هـذا مـدح . والنسيب فيـه ذكر الـوجـد وفيـه التغـزل بذكـر المحـاسن . وهكـذا صنع كعب . إلا أن كعبا بعد المطلع قدم ذكر المحاسن :

ومـا سعـاد غـداة البين إذ رحلـوا   إلا أغن غضيـض الطـرف مكحـول
هيفـاء مقبلـة عجـزاء مـدبـرة   لا يشتكي قصر منهـا ولا طـول

ثم بعد أن وصف ثغرها وشبهه بالراح

شجت بـذي شبم من مـاء محنيـة   صـاف بـابطح أضحى وهـو مشمـول

صار إلى شكوى الوجد والإخلاف والتبديل .

وعكس أبـو الطيب هـذا الترتيـب . وأبت " شبم " إلا أن تجيء في صـدر المطلع منبئة بـوحى خفى عن أخفى نظر أبي الطيب إلى " بانت سعاد " وتأثـره بها عفوا أو عن عمد . وعند من يكون كأبي الطيب ـ ويحسن ههنا الاستشهاد بقوله :

كفاتك ودخول الكاف منقصة كـالشمس قلت ومـا للشمس أمثال

عند من يكون كأبي الطيب مما يجتمع التأثر العفـوي مع العمد . إذ هو رحمه الله قد كان من الشاعرية في الذروة ، التي يذوب فيهـا قطر الصنعة ومعادنها في حديد الطبع فينشأ من ذلك فولاذ واحد عزيز عديم النظير.

ومضى أبو الطيب شوطا حسنا من المدح :

فـوت العـدو الـذي يممتـه ظفـر في طيــــه أسف في طيــــه نعم

قد ناب عنك شديد الخوف واصطنعت لك المهــابــة مــا لا تصنـع البهم

وفصل أبو الطيب معنى المهابة كما ترى

ألـزمت نفسك شيئـا ليس يلـزمهـا أن لا يـــــواريهم أرض ولا علـم

أكلما رمت جيشـا فـانثنى هـربـا تصرفـت بـك في آثـــــاره الهمـم

عليـك هـــــزمهـم في كـل معترك ومـــا عليك بهم عـار إذا انهزمـــوا

أمـا تـرى ظفـرا حلـوا سوى ظفـر تصـافحت فيـه بيـض الهنـد واللمم

أي سوى الظفر الذي تحوزه السيوف الهندية ، يأيها السيف الصارم المجرب الذي لا ينبو.

كان أبـو الطيب قد لمح تلميحـا بشكواه التي أوردهـا مورد شكـوى النسيب ثم صار منها إلى مدح مطرب كغزل النسيب ، فلما بلغ به أوجه ، رمى بأول أسهم العتاب :

يـا أعدل النـاس إلا في معـاملتي فيك الخصـــام وأنت الخصـم والحكم

هذا البيت الثاني عشر هو أول تخصير القصيدة .

وقـد يذكـر القارىء الكـريم مـوضع التخصير في " قفا نبك " أنـه وصف الليل وشكواه وشكوى الزمان .

ألا أيها الليل الطـويل ألا انجلى بصبح ومـا الإصبـاح منك بأمثل

وأنه في ميميـة علقمة حيث أبيـات الحكمة التـي في طيها أسف شـديد :

بل كل قـوم وإن عـزوا و إن كثـروا عــريفهم بأثــافي الشر مـرجــوم

وهنا هذه البطولة الفكرية التي جهر بها الشاعر جسور القلب لا يبالي، وسماها أبو منصور إساءة الأدب بالأدب[1]. ومع ذلك نص على هذه القصيدة أنها من المختار.

يـا أعـدل النـاس إلا في معـاملتي	فيك الخصـام وأنت الخصم والحكم
أعيـذهـا نظـرات منك صـادقـة	أن تحسب الشحـم فيمن شحمـه ورم
ومـا انتفـاع أخي الـدنيـا بنـاظـره	إذا استـوت عنـده الأنـوار والظلم

هم الظلم وأنا الأنوار ـ ومهدت هذه المقابلة لقوله من بعد «أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي».

ولا يخفى أن قولـه: «يا أعـدل الناس إلا في معاملتي» بعـد ما كـان أطرب سيف الدولة به من المدح في قوله: «أما ترى ظفرا حلوا سوى ظفر» فيه المقابلة التي هي قريب مما سماه أرسطو طاليس بالتحول: (Peripety) في حديثه عن المسرح.

ويستوقفني هنا، لو يذكره القاريء الكـريم، مقال شارلس ليال الذي أوردناه في أول هذا الجزء، حيث قال في بعض ما قاله عن شكل الشعر العربي القديم: «وأبعد من ذلك أن يقال مسرحي لأن الشخـص الوحيد والمقيـاس الوحيـد المعروفين للمتكلم هما نفسه ومثله الأعلى الذي يعتقده» ا. هـ. ليت شعري هل أحس "ليال" بوجود عنصر مسرحي في شعر العرب الذي اطلع عليه ثم أعياه أمر هذا العنصر إذ لم يجد فيه لا تعدد الشخصيات ولا محاكـاة طبيعة أعمال الناس وأقـوالهم على الحد الذي حـده أرسطو في مسرحيات يونان وسير عليه من بعد في آداب الروم والفرنجة؟

يخطيء من يحسب أن "ليال" أراد بقـوله هذا أن يصف شعر العـرب بأنه غنائي بالمعنى الاصطلاحـي عندهم، أي ذاتي محدود بذلك أن تكون لـه أبعاد تتخطى الذات إلى ما وراءهـا من آفاق الفكر والخيال. فقـد احترس من أن يفهم عنه هذا الفهم بقـوله «هما نفسـه ومثله الأعلى» فجعل المثل الأعلى رديفـا وصنواً وقـرينا للنفس. في المسرحيـة يصير المثل الأعلى بطـلا أو أبطالا وشخصيـات بينهن حوار من أقـوال وأفعال. وعنـد الشاعر العربي تبطل هذه المحاكاة ويصير الشاعـر بخياله وانفعاله هو البطل والأبطال

---

(1) انظر كتابنا مع أبي الطيب طبع الخرطوم ١٩٦٨ م ومقالنا شاعرية المتنبي المناهل العدد ١٣.

والشخصيات جميع أولئك معا. وبطلان المحاكاة لا يجعل الشاعر غنائيا بالمعنى الاصطلاحي الآنف الذكر أي ذاتيا محدود المدى بالذات، فقد أخرجه تقمصه المثل الأعلى وما يحف به من حدود ضيق الذات. ومن أجل ذلك ما زعمت العرب أن للشاعر رئيا وقرينا. ومن أجل ذلك ما زعم أبو عمرو بن العلاء أن شعراء العرب في العرب بمنزلة أنبياء بني اسرائيل في بني اسرائيل. ومن أجل ذلك ما قال عمر رضي الله عنه إن الشعر كان علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه.

وقفنا هذه الوقفة التي كأنما هي استطراد وليست به، لنقرر معنى ما قدمناه من تشبيه نحو المقابلة التي في قول أبي الطيب «يا أعدل الناس إلخ» بعد مقاله «أما ترى ظفرا حلوا سوى ظفر» بالتحول المسرحي. ولا نزعم بعد أن هاهنا عنصرا مسرحيا إلا على سبيل التقريب والمجاز، على نحو ما يكون قد سبق منا من القول من قبل. ولكن الذي نقطع به أن العنصر البياني الذي اشتق منه النوع المسرحي، موجود في هذا الشعر وفي كثير من جياد القصائد عند القدماء والمحدثين الذين جاءوا بعدهم من شعراء بني العباس والعصور التي تلتهم. وليس قولنا العنصر البياني الذي اشتق منه النوع المسرحي بأمر من المغالطة اللفظية. فقد كفانا توضيح هذا الجانب من حيث معدنه ومعناه، الفيلسوف أرسطو طاليس إذ ذكر أن كلا المسرحية والملحمة محاكاة للطبيعة ـ تعتمد الملحمية على القصص وتعتمد المسرحية على محاكاة الأفعال ومواجهة الناس بها.

المواجهة مع ما يكون معها من ضروب التأثير بالحكمة والحماسة والفكاهة وحلو الكلام ومره، ذلك هو العنصر البياني الأصل. والتعبير المسرحي فرع، وقد عابه أفلاطون لما فيه من الاستتار والتمويه. وهذا بعد باب آخر.

وعند الشاعر العربي عنصر المواجهة صلتا، وقد فصلنا القول من قبل في أمر ما يجعله الشاعر درعا لمقاتل نفسه حين يجهر بالقول من عدوان الناس.

ولقد نعلم أن تلك الدرع على سبوغها كثيرا ما كانت تهتك أو تنتهك عن المقاتل. وحسبك شاهدا في الأولين طرفة. وفي الآخرين أبو الطيب. هذا الذي نحن في معرض الحديث عنه. وقد كادت هذه الميمية تقتله. ولعل شيئا من صداها لم يخل من مشاركة في مقتله. ولقد زعموا أن غلاما له قال له لما أراد الفرار ألست القائل:

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

قالوا فقال له ما معناه قتلتني قتلك الله وكر راجعا فقتل. فهذا الخبر أصح أم لم يصح فيه نوع من الدلالة على ما قدمنا.

ثم يقول أبو الطيب، وههنا عنصر البطولة ومقاربة روح النبوءة الذي جر عليه مقتله من بعد، والله تعالى أعلم:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

مناسبة هذا المعنى لقوله «الأنوار والظلم» من قبل لا تخفى

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم
وجاهل مده في جهله ضحكي حتى أتته يد فراسة وفم
إذا نظرت نيوب الليث بارزة فلا تظنن أن الليث يبتسم
ومهجة مهجتي من هم صاحبها أدركتها بجواد ظهره حرم
رجلاه في الركض رجل واليدان يد وفعله ما تريد الكف والقدم

هذا البيت صدره من قول امريء القيس:

مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل

وكأنه تفسير لقول أمريء القيس. وعجزه من قول امريء القيس:

وللساق ألهوب وللسوط درة وللزجر منه وقع أخرج مهذب

وهذا الذي عابته أم جندب، وكانت هي المحكمة ولها حكمها مسمطا. وقد ذهب أبو الطيب إلى استجادة كلام امريء القيس. وكأنه في البائية «أغالب فيك الشوق» صغا شيئا إلى مذهب علقمة. ولو قد كانت أم جندب حكيمة لقالت أنتما كركبتي البعير. وأبي الناس إلا أن يحطوا مع امريء القيس أنها صبت إلى علقمة، فزعموا أن امريء القيس كان مفركا، وأن أم جندب قالت له إنك سريع الإراقة بطيء الإفاقة. وهذا مع ظاهر طعنه في امريء القيس كأنما هو فرع من مذمة النساء وجرى على مذهب من قال:

لا تركنن إلى النسا ء ولا تثق بعهودهنه
فرضاؤهن وسخطهن معلق بفروجهنه

وهذا القول ليس بمنصف إذ لو قطعنا بصدقه على جميع النساء لزم أيضا أن نقطع بصدقه على جميع الرجال.

هذا وفي قول أبي الطيب من بعد:

ومرهف سرت بين الجحفلين به حتى ضربت وموج الموت يلتطم

أخذ من خبر أبي دجانة رضي الله عنه إذ تبختر بسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وكان رضي الله عنه من الأبطال وأبلى البلاء الحسن.

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

والحق أن فروسية أبي الطيب كلها إنما كانت فروسية القرطاس والقلم. وينبغي أن يحمل كثير مما يفتخر به فارسا على هذا الوجه. وقد بسطنا جوانب من هذا المعنى في كلمتنا «شاعرية المتنبي».

صحبت في الفلوات الوحش منفردا حتى تعجب مني القور والأكم

وهذا معنى يدور كثيرا في شعر أبي الطيب، وقد غرفه من بحر تجربته إلا أن النقاد أبوا إلا أن يتهموه بالأخذ من الصعاليك ومحاكاتهم، في مثل قوله:

ومهمه جبته على قدمي تعجز عنه العرامس الذلل

ومثل قوله:

لا ناقتي تقبل الرديف ولا بالسوط يوم الرهان أجهدها

ولا ريب قد حذا على نحو:

وقنة كسنان الرمح بارزة ضحيانة في شهور الصيف محراق
بادرت قنتها صحبى وما كسلوا حتى نميت إليها بعد إشراق
بشرثة خلق يوقى البنان بها شددت فيها سريحا بعد إطراق

ونحو:

ويوم من الشعرى يذوب لوابه أفاعيه في رمضائه تتململ
نصبت له وجهي ولا كن دونه ولا ستر إلا الاتحمي المرعبل

وفي ترجمة أبي منصور له ما يفيد أنه قضى فترة من عمر شبابه صعلوكا أو كالصعلوك، فقرا، وتجشم أسفار، وتوقع مكاره. وهو بعد القائل:

أجارك يا أسد الفراديس مكرم فتسكن نفسي أم مهان فمسلم
ورائي وقدامي عداة كثيرة أحاذر من لص ومنك ومنهم
فهل لك في حلفى على ما أريده فإني بأسباب المعيشة أعلم
إذا لأتاك الخير من كل وجهة وأثريت مما تغنمين وأغنم

فقد سمع زئير أسد الفراديس وأحست نفسه الخوف منها، ولكنه لما صار إلى قول الشعر مزج تجربته هذه بالأخذ من كلام القتال الكلابي حيث قال في صحبته النمر ما

قال ـ من ذلك :

فأغلبه في صنعة الزاد إنني أميط الأذى عنه وما إن يهلل

فقول أبي الطيب «فاني بأسباب المعيشة أعلم» من هاهنا .

وما خلا أبو الطيب ، في ذكر الفروسية والفخر بها ، من أخذه من عنترة وعنترة بيانه من الأصل البياني الأول ، الذي أسلوب الملاحم فرع منه ، وذلك أنه لا يقص علينا سيرة بطل آخر يحاكي أفعاله بقول يزينه ، ولكنه يقص سيرة نفسه علينا ، يمزج بين الغرف من بحر تجربتها ومن المثل الأعلى ، الذي هو حينا من لبه ـ كما قال :

ذلل ركابي حيث كنت مشايعى لبي وأحفزه بأمر مبرم

وحينا من وصاة عمه ـ كما قال :

ولقد حفظت وصاة عمي بالضحى إذ تقلص الشفتان عن وضح الفم

وفي معنى عمه بعض الدلالة على ابنة عمه . وكأن العم كناية عن الحسب والشرف وابنة العم كناية عن المحبوبة ـ فالعم كما ترى هو الولي الذي يغار عليها ويشترط الشروط على من يلتمس الصهر عنده .

هذا وبعد أن قال أبو الطيب «صحبت في الفلوات الوحش مغتربا» أعلن عزمه على الرحلة والفراق :

يا من يعز علينا أن نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدم

هذا هو البيت الرابع والعشرون . وبيت «القور والأكم» قبله هو آخر تخصير القصيدة ، وهذا البيت أول قسمها الثالث . غير أننا نلفت نظر القاريء الكريم إلى تصرف تصرفه أبو الطيب في التخصير، هو من سنخ تخلصه في سائر أجزاء القصيدة . وذلك أنه وشح التخصير أو قل نطقه بأبيات كأنها خروج منه إلى القسم الثالث ، ولكنها ليست بخروج ، فطال بذلك التخصير بعض الطول للوصل الذي بينه وبين القسم الثالث وهو من عند قوله :

ومهجة مهجتي من هم صاحبها أدركتها بجواد ظهره حرم

إلى قوله :

صحبت في الفلوات الوحش . . .

وإنما زعمنا أن هذا نطاق لقوة الشبه بينه وبين ما يقع بحسب عادة الشعراء في القسم الثالث من الذكرى نحو: «وقد أغتدى والطير» في «قفا نبك» ونحو «قد أشهد الشرب فيهم مزهر رنم» في «هل ما علمت» . ولكنه ليس حقا مبدأ قسم ثالث ، إذ مبدأ القسم الثالث من عند «يامن يعز علينا» . وفيه عودة إلى ما بدأ به التخصير وهو قوله «يا أعدل الناس إلا في معاملتى» وقد فصل هنا ما أجمله هناك :

يـــامن يعـــز علينـــــا أن نفـــارقهم وجـــدانـنـــا كل شـيء بعـــدكم عـــدم

فهذا إنذار طيه غضب. وقوله وجداننا إلخ يفهم منه أيضا معنى:
«وجدانكم كل شيء بعدنا عدم» والبيت التالى قوى الدلالة على ذلك:

مـــا كـــان أخلقنـــا منك بتكـــرمـــة لـــو أن أمـــركم مـن أمـــرنـــا أمم

قيل رماه سيف الدولة بدواة لما قال هذا فقال:

إن كـــان سركم مـا قـــال حـــاسـدنـــا فما لجرح إذا أرضـــــــــاكـم ألم

وهذا عين الألم. والبيت يحمل في نفسه طابع أنه جيء به على البـديهة لاتصال البيت بعده بالبيت الذي سبقه، وهو كالمعترض، فلذلك حسن موقعه:

وبيننـــا لـــو رعيتم ذاك معـــرفـــة إن المعـــــارف في أهل النهـى ذمـم

ثم احتد أبو الطيب مرة أخرى. إذ مما أثار ذلـك ذكر الذمم، وإخفارها مما يغضب له ويثار

كم تطلبـــون لنـــا عيبـــا فيعجـــزكم ويكـــره اللـــه مـــا تأتـــون والكـــرم

العتب هنا شـديد مر. وأحسب أن هذا ما عنـاه أبو منصور إذ نعته بأنـه داخل في باب إساءة الأدب بالأدب (الأدب الأولى من قولك أديب شاعر ناثر راوية هلم جرا والأدب الثانية أى حسن السلوك والتهذيب أو العكس) وقد يعتذر لأبي الطيب أن هذا موضع التفا ت، فيكـون قولـه «كم تطلبون لنا عيبـا» أراد به عيابيـه عند الأمير. ويقـوي هذا الوجه بيـت الافتخار الذي يتلوه، إذ يحسن مـوقعه أنه أراد به مواجهـة أعدائه لاسيف الدولـة. وقد ذكـروا أن ابن خالـويه رمـاه بمفتاح فشجـه. فنتساءل: هل التفـت أبو الطيب التفات تعريض به أو أشار أو جاء بوحى في إنشاده بشيء من ذلك؟

مـــا أبعـد العيب والنقصـــان عن شرفي أنـــــا الثـــريـــــا وذان الشيب والهرم
ليت الغمام الـــذي عنـــدى صـواعقـــه يـــــزيلهن إلى مـن عنـــده الـــديم

فالغمام سيف الـدولة. ومن عنده الـديم ابن خالـويه وأبو فـراس ولفهم. وليت تفيد محض التمنى الأماني ضلال. فلم يبق لأبي الطيب إلا أن ينجو ويفارق:

أرى النوى تقتضيني كل مرحلة لا تستقل بها الوخادة الرسم
لئن تركن ضميرا عن ميامننا ليحدثن لمن ودعتهم ندم

قالوا وكان صاغه أولا: «ليحدثن لسيف الدولة الندم» والكناية في هذا الموضع أجود من التصريح. ثم في «من ودعتهم» عموم يدخل فيه مع سيف الدولة من عسى أن لو شاء انتصر له.

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ألا تفارقهم فالراحلون هم

إذ هذا يكون رحيل فراق القلوب. وقد كشف هذا المعنى من بعد إذ قال:

شر البلاد مكان لا صديق به وشر ما يكسب الإنسان ما يصم

كأن يبقى للكسب بحيث لا ود ولا صديق. وما أسرع حينئذ ما يكون أعداؤه الى الطعن فيه والحط من قدره. فتمكنهم مقاتله من حيث لا يحتسب ولا يقدر على جنة أو انتصار.

ثم يجيء الغضب، أنفا من هذا الشر، ومن كسب يصم:

وشر ما قنصته راحتي قنص شهب البزاة سواء فيه والرخم

هذا قريب من قوله «أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم» لأن في ألوان الرخمات شهبة. وإنما صيدهن الرمم.

بأي لفظ تقول الشعر زعنفة تجوز عندك لا عرب ولا عجم

فقد سلم أبو الطيب هنا بأن للعجم شعرا. وما أرى دعاه الى هذا التسليم إلا قصده الى أن يجرد أعداءه من كل فضيلة يمت بها الى بيان الشعر، ما عرفته العرب وارتضته وهو الشعر، وما زعمت أمم العجم له من ضروب بيانها أنه شعر. وقد كان كان أبو نصر الفارابي عالما بفلسفة يونان وشعرها، يدل على ذلك ما بسطه من قول عن القافية في الموسيقا الكبير. ولا يستبعد أن يكون أبو الطيب قد لقيه وأفاد منه علما. وقد ذكروا أنه كان كثير النظر في كتب الفلسفة: وهو بعد القائل:

من مبلغ الأعراب أني بعدها شاهدت رسطاليس والإسكندرا
ورأيت جالينوس دارس كتبه متفلسفا متبديا متحضرا

وزعم الحاتمى أنه أخذ كل حكمه من أرسطو طاليس. وهذا باطل. فقد كان أخذ أبي الطيب من شعراء العرب قدمائهم ومحدثيهم على رأس هؤلاء المحدثين أبو تمام ثم ابن الرومي والبحترى وأبو نواس ومسلم وبشار ثم سائر المحدثين من بعد. وكان أبو الطيب بدقائق أسرار الشعر عالما.
ثم ختم القصيدة بقوله:

هذا عتابك إلا أنه مقة قد ضمن الدر إلا أنه كلم

قوله مقة لا ريب يشير به الى قوله في شعر له في سيف الدولة من قبل إذ ألمت به علة:
وقد يؤذي من المقة الحبيب

أى إن كرهت بعضه فاذكر أنه إنما دعاني به اليه حبك. وقوله: «قد ضمن الدر» جعله في مقابلة «بأى لفظ تقول الشعر» - أى هذا الذي أجيء أنا به هو الدر. أما هؤلاء فليس لهم من لفظ الشعر إلا الآجر والبعر وما أشبه. وبيت الختام فيه عودة الى المعنى الذي استهل به. كما أن فيه إدلالة انتصار.
إن تلك ميمية أبي الطيب هذه من أصل البيان الذي البيان المسرحي فرع منه، وقد بينا مرادنا من هذا القول، فإن بائية حبيب من أصل البيان الذي البيان الملحمي فرع منه.
ولا نقول بمفاضلة بين الأصول بنحو مما يقول به نقاد الافرنج من المفاضلة بين ما هو عندنا فروع من هذه الأصول. على أن نقاد الافرنج قد قرنوا هو ميروس بالمسرحيين وربما فضلوه عليهم. والى نحو هذا القول ذهب نقاد الطليان في دانتي بحسب ما ذكرته الموسوعه البريطانية في الباب الذي عقدته للشعر.
هذا ومن جياد أبي الطيب التي شكلها من ذوات التخصير:

حتام نحن نسارى النجم في الظلم وما سراه على خف ولا قدم

وهي من فرائده وقلائده، كما كان يقول أبو منصور فيما يروم مدحه من إحسانه. وليست هذه القصيدة من حيث أغراضها حقا في رثاء فاتك ولكنها في التأمل والحكمة ورثاء فاتك جيء به على وجه العظة والاعتبار. كما أن هجاء كافور جيء به في العينية التي رثى بها أبو الطيب فاتكا لا لأن هجاءه من غرضها، ولكن لزيادة شعور التفجع

رثى بها أبو الطيب فاتكا لا لأن هجاءه من غرضها، ولكن لزيادة شعور التفجع من طريق المقابلة، وذلك قوله:

قبحا لوجهك يا زمان فإنه وجه له من كل قبح برقع
أيموت مثل أبي شجاع فاتك ويعيش حاسده الخصي الأوكع
أيد مقطعة حوالي رأسه وقفا يصيح بها الا من يصفع
أبقيت أكذب كاذب أبقيته وأخذت أصدق من يقول ويسمع
وتركت أنتن ريحة مذمومة وسلبت أطيب ريحة تتضوع

ثم رجع الى الرثاء

هذا، والقسم الأول من القصيدة من قوله: «حتام نحن نسارى النجم في الظلم» إلى قوله:

مكعومة بسياط القوم نضربها عن منبت العشب نبغي منبت الكرم

وقد زعم ابن رشيق أن أبا الطيب كان يعمد إلى التهيب بذكر الخيل ويؤثرها على الإبل.

وهذه القصيدة، والمقصورة

ألا كل ماشية الخيزلى

وغيرهما مما يشهد بأنه كما كان صاحب خيل كان أيضا كثير الرحلة بالإبل وصافا لها في شعره عارفا بأصناف جيادها، من ذلك ذكره إبل البجاة الصهب وهي من أسرع الإبل وهو قوله:

وكل نجاة بجاوية خنوف ومابي حسن المشى
ولكنهن حبال النجاة وكيد العداة وميط الأذى

أستهل أبو الطيب بذكر السرى. فليله ليس كليل النابغة في:

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطىء الكواكب

وفي قوله:

كتمتك ليلا بالجمومين ساهرا　　　وهمين هما مستكنا وظاهرا

وليس كليل الراعي إذ قال :

ما بال دفك بالفراش مذيلا　　　أقذى بعينك أم أردت رحيلا

على أنه قـد أخذ من النـابغة قصة مـراعاة النجم ، ومنـه ومن الراعي ومن غيرهما كالأسود ابن يعفر في :

نام الخلي وما أحس رقادي

شكوى السهر وفقد الرقاد .

بداية أبي الطيب المضمرة نسيب ، وأحبابه هؤلاء الملوك الذين هم شر فجعا وولعا من سعاد كعب بن زهير واكثر إخلافا وتبديلا .

وهو بعد القائل :

فراق ومن فارقت غير مذمم　　　وأم ومن يممت خير ميمم

هـذا يقولـه بلسان الـرجاء . ولكن هـذه الميمية مخالطهـا الغضب والحزن وصرف الرجاء عمن كان ظنه موضعا للرجاء .

لذلك كانت بدايته المظهرة بالسرى والرحلة والدأب ، فرارا من هذا الحب الكاسد الفاسد . بدايته كأنها بعد دموع كدموع علقمة ولكنها ليست بدموع شوق ، ولكن دموع ملامـة لنفسه على الذى سبق منـه من الشوق . وبـرحلة على عكس ما تمنـاه علقمة إذ قال :

هل تلحقني بأخرى الحي إذ شحطوا　　　جلـذيـــة كأتـــان الضحـل علكـــوم

إذ هي رحلة فراق وفرار

حتـام نحن نســارى النجم في الظلم　　　ومـــــا سراه على خـف ولا قـــــدم

ولايحس بـأجفـــــــــان يحس بها　　　فقـد الـرقـاد غـريـب بـات لم ينم

هذا المعنى نـابغي مردود على بداية النسيب المضمـرة ، إذ ههنا هو بمصر سـاهـر يراعي النجم الذي في المطلع هـو مرتحل يساريـه . ولقائل أن يـزعم أنه في البيت الأول بمصر

ومساراته فكرية مجازية وهذا الوجه يضعفه قوله من بعد :

تسود الشمس منا بيض أوجهنا ولا تسود بيض العذر واللمم

فهذا منبىء عن السفر. وقد شكا أبو الطيب وخط الشيب وجهه شكوى خفية حيث قال :

ومن هوى الصدق في نفسى وعادته رغبت عن شعر في الوجه مكذوب

لم يخل أبو الطيب من عقدة كافورية في هذا البيت وفي قوله من بعد :

وكان حالهما في الحكم واحدة لو احكتمنا من الدنيا إلى حكم

ثم أخذ في السير. وبدأ ذلك بنوع من رثاء النفس. كأنه قد أحس ملالا من طول الدأب الذى لا نهاية له . وكأنه قد جعل الماء رمزا لهذا المعنى ، وكأنه يرثى للماء من طول رحلته ، آنا هو سائر في السحاب . وآنا آخر هو سائر في القرب على ظهور الإبل

ونترك الماء لاينفك من سفر ماسار في الغيم منه سار في الأدم

مكان الرمز في قوله(ونترك الماء لا ينفك من سفر) أي لولانا لكان قد استقر حيث يجد من الأرض قرارا .
ثم أحس أبو الطيب أنفاس النجاة والحرية المخالطة لهذا السير، فوجد لذلك هزة طرب أريحي ونشوة من انتصار:

لا أبغض العيس لكنى وقيت بها قلبي من الحزن أو جسمي من السقم
طردت من مصر أيديها بأرجلها حتى مرقن بنا من جوش والعلم
تبرى لهن نعام الدو مسرجة تعارض الجدل المرخاة باللجم

ههنا نفس من علقمة ، إذ علكومه التي تمنى بها النجاة

كأنها خـــاضب زعـــر قـــوادمـــه أجني لـــه بـــاللـــوى شري وتنـــوم
يظل في الحنظـل الخطبـــان ينفقـــه ومـــا استطف مـن التنـــوم مخذوم
فـــوه كشـق العصـــا لأيـــا تبينـــه أسك مـــا يسمع الأصـــوات مصلـــوم
حتى تـــذكـــر بيضـــات وهيجـــه يـــوم رذاذ عليـــه الـــريح مغيـــوم

ومن هذه الأبيات أصداء في قول أبي الطيب «مـاسار في الغيم منه» وفي قوله «تبرى لهن نعام الدو» عنى بها الإبل وقد قرنها بـالخيل من غير ما تفضيل للخيل عليها كما زعم له ابن رشيق وذلك في قـوله «تعـارض الجدل المرخـاة باللجم» ـــ وقـوله من بعـد «تخدى الركاب» وسنعـود إن شاء الله إليه بـالتنبيه في موضعه فيـه أصداء من «يظل في الحنظل الخطبان الخ» وقوله من بعد:

في غلمـــة أخطـــروا أرواحهم ورضـــوا بها لقين رضـــا الأيســـار بـــالـــزلم
تبـــدو لنـــا كلما ألقـــوا عمائهم عمائم خلقـت ســـودا بـــلا لثم

يعني لمات الشباب الغدافي

بيض العـــوارض طعـانـون مـن لحقـوا من الفـــوارس شـــلالـــون للنعم
قـــد بلغـــوا بقنـاهـم فـوق طـاقتـه وليـس يبلغ مـــــا فيهـم من الهمم

قوله في " غلمة " يحمل أنفاسا من قول علقمة

وقد أصاحب فتيانا طعامهم خضر المزاد ولحم فيه تنشيم

يدلك دلالة قوية على أبا أن أبا الطيب لم يغب عنـه قول علقمة إذ جعله نموذجا آيات بينة منهـا قوله «رضا الأيسـار بالزلم» وقبل بيت علقمـة هذا قوله «لـو ييسرون بخيل قد يسرت بها البيت» وقد قال علقمة بعد هذا البيت

وقـــد علـــوت قتـــود الـــرحل يسفعني يـــوم تجيء بـــه الجوزاء مسمـــــوم
حـــام كـأن أوار النـــار شـــاملـــه دون الثيـــاب ورأس المرء معمـــــوم

فقد ذكر أبو الطيب تسويد الشمس «بيض أوجهنا»، المعنى الذى فيه العقدة الكافورية التي أشرنا إليها آنفا . ثم ذكر العمائم في قوله «تبدو لنا كلما ألقوا عمائهم» فدل على أنهم سافروا يقون أنفسهم بذلك من أوار الشمس كما قد صنع أصحاب علقمة .
ثم بما كان في نفسه من هوى الصدق وعادته نجد أبا الطيب ينبهنا أنه إنما اقتدى بعلقمة تلميحا كالتصريح وذلك قوله بعد هذا البيت «قد بلغوا بقناهم الخ» :

في الجاهليـــــــة إلا أن أنفسهم   من طيبهن بـــه في الأشهـــر الحرم

قوله «في الجاهلية» تنبيه وإشارة إلى وصف شعراء الجاهلية الموامي والمياه الأواجن وصحبة القفار. وما ذكره هو خاصة في هذه القصيدة يومىء بإصبع إلى ميمية علقمة

ناشــوا الرماح وكانت غير ناطقة   فعلمـــوهـــا صيـــاح الطير في البهم

ناشوا هذه قرآنية من قوله تعالى «وأني لهم التناوش» بهمز الواو وترك الهمز. وقال الراجز:ـ

باتت تنوش الحوض نوشا من علا   نــوشـا بـــه تقطع أجـواز الفـــلا

وقوله فعلموها صياح الطير ينبئ عن تجربة وهو في قوله :

وملمومة سيفية ربعية   يصيح الحصى فيها صياح اللقالق

واللقالق ضرب من الطير. وأصل المعنى من عنتره : «تمكو فريصته كشدق الاعلم» والمكاء صفير وصلة الصفير بالطير لاتخفى

تخدي الركاب بنا بيضا مشافرها   خضرا فــراسنهـــا فى الـرغل والينم
مكعـــومـــة بسيـــاط القـــوم نضربها   عن منبت العشب نبغي منبت الكـــرم

هـذان البيتان نجد فيهما صدى من خطبان علقمة وتنومه الذى ينقف الظليم ما استطف منه وأبي سوط علقمة الذى ذكره في قوله : «تلاحظ السوط شزرا وهي ضامزة» وهذا قبل بيت الظليم ونعته ، إلا أن يكون له صدى منبىء عن أصل مكان الأخذ الذى أخذه أبو الطيب ـ وهو قوله«مكعومة بسياط القوم» وسائر البيت من قول حبيب :

أمطلع الشمس تبغي أن تـؤم بنـا فقلت كـلا ولكـن مطلع الجود

ثم يأتي بعد ذلك القسم الأوسط من القصيدة. وقد صنع فيه صنعا قريبا مما صنع في «واحر قلباه ممن قلبه شبم» وذلك أنه جاء بالتخصير المحض ثم وشحه قبل أن يصير إلى القسم الثالث من القصيدة الذى هو نهايتها وأوله «توهم القوم».
أول التخصير «وأين منبته». وأنزل رثاء فاتك منزلة العظة والاعتبار والحكمة:

وأين منبتـه مـن بعـد منبتـه أبي شجـاع قـريع العـرب والعجم
لافـاتك آخـر في مصر نقصـده ولالـه خلف في النـاس كلهـم
من لا تشـابهه الأحيـاء في شيـم أمسى تشـابهه الأمـوات في الـرمم
عـدمتـه وكأنـى سرت أطلبـه فما تـزيـدني الـدنيـا على العـدم

هاهنا مرارة بالغة كأن قد عاد بها عودا قاتما إلى قوله من قبل:

ونترك الماء لا ينفـك مـن سفـر مـا سـار في الغيـم منـه سـار فى الأدم

إلى مه والى من هذا السير وقد عدم فاتكا. وما أمامه إلا العدم وكأنما هو سائر بآماله إليه هل عند الدنيا زيادة على هذا العدم يبتغى أن تزيده إياها؟ فيم هذا العناء وإلام هذا السير؟
ومتصل بالسير ذكر الإبل. وفيه أنفاس من ذكريات الماضى ومن هاهنا مبدأ التوشيح والتنطيق:

مـا زلت أضحك إبلي كلما نظـرت إلى من اختضبت أخفـافهـا بـدم
أسيرهـا بين أصنـام أشـاهـدهـا ولا أشـاهـد فيهـا عفـة الصنم

جاء ذكر الأصنام وتفسير رمزها أوضح في المقصورة حيث قال:

وقـد ضل قـوم بـأصنـامهم وأمـا بـزق ريـاح فـلا

ومراده بالاصنام هنا كافور وكثير غيره ممن قصدهم ولم يجد عندهم الا قليلا مما كان يأمله كأنه لا شيء. ولعله لا يخرج سيف الدولة كل الإخراج من نفحة هذا الذم. إلا أن قصده إلى كافور أوضح، لان عهده به كان أقرب، وأمله فيه كان أضخم لما كان يعتقده في نفسه من نقص فيه ربما ييسر له سبيل ذلك. فكانت خيبة ذلك الأمل شديدة مرارة الوقع.

حتى رجعت وأقـلامى قـوائل لي المجـد للسيف ليس المجـد للقلم

وما كان مجد كافور بالسيف ولكن بالدهاء مع الذكاء

اكتب بنا أبدا بعد الكتاب به ... فإنما نحن للأسياف كالخدم
أسمعتنى ودوائى ما أشرت به ... فإن غفلت فدائى قلة الفهم
من اقتضى بسوى الهندي حاجته ... أجاب كل سؤال عن هل بلم

فهذا آخر التخصير وماله من وشاح

وآخر القصيدة ذكريات وحكمة وعزاء وأسى واعتذار عن هذا الدأب الذي إنما هو عناء وضياع وقت في غير ما طائل:

توهم القوم أن العجز قربنا ... وفي التقرب ما يدعو إلى التهم

القوم هم كافور وسائر الملوك ولعل القصد إلى سيف الدولة هنا أظهر لأن دلالة ما يلي من الأبيات عليه أقوى:

ولم تزل قلة الإنصاف قاطعة ... بين الرجال وإن كانوا ذوى رحم

هنا إشارة إلى بيت طرفة

فلا زيارة إلا أن تزورهم ... أيد نشأن مع المصقولة الخذم
من كل قاضية بالموت شفرته ... ما بين منتقم منه ومنتقم
صنا قوائمها عنهم فما وقعت ... مواقع اللؤم في الأيدى ولا الكزم

فسروا هذا البيت بأن المراد أنهم لم يسلبونا سيوفنا، فقد نجونا منهم وهي بأيدينا التى لا هى ذوات قصر ولا بذوات لؤم. والكزم قصر اليد. ومعناه هنا الجبن لأن الشجاع يمضى قدما كما قال قيس بن الخطيم:

إذا قصرت أسيافنا كان وصلها ... خطانا إلى أعدائنا فنضارب

وفي القاموس: «وككتف الرجل الهيبان» أي الهيوب والكزم بالتحريك البخل وقصر في الأنف والأصابع. وفي قول أبي الطيب معني القصر والبخل والجبن جميعا. وعندى أن قوله صنا قوائمها كأن قد قال صناها عنهم ثم اعتذر بأن ذلك لم يكن بسبب أن قوائمها وقعت من أيدينا موقع لؤم وجبن. وأضرب أبو الطيب عن ذكر السبب الذى من أجله صان سيوفه عن تضريب أعناق هؤلاء الملوك. وقد كان قال من قبل:

وجنبنى قرب السلاطين مقتها ... وما يقتضينى من جماجمها النسر

وقال:

وتضريب أعناق الملوك وأن ترى   لك الهبوات السود والعسكر المجر

وكأن أبا الطيب بقوله: « صنا قوائمها عنهم» يتندم على تركه قتالهم واستبداله ذلك بالتقرب منهم فحسبوه عجزا «وفي التقرب ما يدعو إلى التهم» وكأنه يعتذر مع ذلك بأن ما ترك من قتلهم أو قتالهم إنما كان صيانة لهذه السيوف. فإلى متى هذه الصيانة؟ لاعجب إذن أن بادر أعداؤه فقتلوه مرجعه من عضد الدولة. فقد جمع من المال وبعد السمعة ما كان عسى أن يهيىء له سبيل الوثوب ـ على أني أرجح أن هوس طلب السلطان الذي اتهمه به أبو منصور ما كان إلا أحلام شاعر وأن معاركه التى خاضها أو كان يبغى بعد أن يخوضها ما كانت إلا معارك هذا القريض. وصدق الله عز وجل: «يقولون ما لا يفعلون»

هون على بصر ما شق منظره   فإنما يقظات العين كالحلم

برفع منظره أى ما بدا شاقا كريها فليهن أمره عندك إذ هذه الدنيا ما هي إلا حلم، ومن نصب منظره عمم المعنى، أى كل تراه فليهن عليك إذ حقائق هذه الدنيا كباطل الأحلام

ولا تشك إلى خلق فتشمته   شكوى الجريح إلى الغربان والرخم

ذكر الغربان مفردها وجمعها كثير عند أبي الطيب. وهنا لا يخلو من أن يكون فيه صدى من غربان علقمة التي هي طير في أول الميمية (عقلا ورقما تظل الطير تخطفه) وهي غربان سافرة في آخرها حيث قال: (ومن تعرض للغربان يزجرها البيت)

وكن على حذر للناس تستره   ولا يغرك منهم ثغر مبتسم

هذا المعني يتكرر عند أبي الطيب «إذا رأيت نيوب الليث» «ولما صار ود الناس خبا»

ولا تشك إلى خلق فتشمته   شكوى الجريح إلى الغربان والرخم
وكن على حذر للناس تستره   ولا يغرك منهم ثغر مبتسم
غاض الوفاء فما تلقاه في عدة   وأعوز الصدق في الأخبار والقسم

ثم تبلغ الحكمة ذروتها في قوله بعد، ويخالط ذلك نفس المأساة والغناء الحزين:ـ

سبحان خالق نفسي كيف لذتها   فيما النفوس تراه غاية الألم
الدهر يعجب من حملي نوائبه   وصبر نفسى على أحداثه الحطم

يقول شكسبير في كلمته المشهورة على لسان هامليت: (٣ ـ ١ ـ س٥٦ ـ ٩٠)

To be or not to be: That is the question

ألبقاء أم اللابقاء ـ ذلك هو السؤال

فى السطر (٧٦) . . . ,Who would fardels bear....

من كان يحتمل هذه الأعباء[1] . . .

هل اطلع شكسبير على قول أبي الطيب: «الدهر يعجب من حملي نوائبه؟» أليست في حكمته في هذه القطعة من مشهور قوله أنفاس من أصداء حكمة أبي الطيب:

وقت يضيع وعمر ليت مدته ... في غير أمته من سالف الأمم
أتى الزمان بنوه في شبيبته ... فسرهم وأتيناه على الهرم

فيزعم بعض البلاغيين أن ها هنا إيجازا بالحذف أي فساءنا والمعنى يفسد بهذا التفسير، والصواب أن نأخذه كما أعطاه الشاعر، ومن أتبعه«فساءنا» تفسيرا له فقد حد من سعة آفاقه.

ما أشد تقلب قلوب البشر ولا سيما الشعراء. قد قال أبو الطيب في مقطوعة له نونية نظمها بمصر قبل نظمه هذه الميمية:

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا ... وعنَاهم من شأنه ما عَنانا
وتولوا بغصَّة كلُّهم منـ ... ـه وإن سر بعضهم أحيانا

فهل أراد بقوله: « أتى الزمان بنوه في شبيبته فسرهم» تفسير قوله من قبل«وإن سر بعضهم أحيانا» فهؤلاء البعض، إنما كان سرورهم على زمان شبابه وهو المرموز له بقوله«أحيانا»، أو رجع أبو الطيب عن ذلك القول بنسبة العناء والشر إلى زمانه هو؟ ها هنا تقلب قلب الشاعر. وذلك أن روح الميمية روح حزن وغضب وهجاء.

وقد صار من بكاء فاتك وهجاء حاسده الخصي الأوكع إلى الأسف على نفسه والعبرة بموت فاتك وهجاء الناس كلهم، فكلهم خصي أوكع ودهرهم هرم برم.

وما خلا أبو الطيب في اختتامه هذه الميمية الرائعة بالزمان الهرم من تأثر بأواخر أبيات ميمية علقمة حيث ذكر النوق الحسان ومعها صغارها تتزغم ووراءها فحل أكلف مختبر كثير اللحم.

---

(١) وأن ينوء باعباء الحياة لولا خوفه ما بعد الموت الى آخر ما قاله. وقد أدخل فيه من معنى قول أبى الطيب«فإن لثالث الحالين معنى». انظر ما يلي

فحل علقمة فتي قوي ضخم كالفيل أسود كالليل الظليل . ليس بأسود رهل خصي رخو مداهن ككافور وأشباه كافور ممن ليسوا بسود ولا خصيان ولكنهم ـ أوكما قال

كأن الأســـود الـــلابي فيهم غـــراب حـــولـــه رخم وبـــوم

رحم الله أبا الطيب . إنما كان شاعرا عظيم الخيال ضعيف المحال .
وقد كان ناقـدا ذواقة مبينا عالما بمكان نفسه من ذلك كلـه عالما أيضا بأنه غير مصيب على مايحسنه من جزاء مكافىء له . وقد أحسن إذ يقول لسيف الدولة :

ومـــالي ثنـــاء لا أراك مكـــانـــه فهل لك نعمـى لاتـراني مكـــانها

وكأن قـال «وكم لك من نعمى أنا أستحقهـا وعداي الـذين سيتغلبون على آخـر الأمر عندك لايرونني أهلا لذلك ولا مكانا له . »
وفي هذه النونية أبيات جياد في نعت بعض مـا كان من زخارف وتصاوير على ما أهدى له سيف الدولة من ثياب الديباج :

تـــرينـا صنـــاع الـروم فيهـا ملـوكهـا وتجلـــو علينـــا نفسهـــا وقيـــانها
ولم يكفهـا تصـويـرهـا الخيل وحـدهـا فصــــورت الأشيـــاء إلا زمـــانها

وهذا من عجيب القول وبعيد أغـواره إذ الزمان هنا عنده بعد من الأبعـاد عجز الرسام أن يقيده أو يرمز له بقيد كما قد فعل بالأبعاد المكانية .

ومـا ادخـــرتها قـدرة مـن مصـور ســـوى أنها مـا أنطقت حيـــوانها

فهذا ينقل معنى حيوية ما صورته من حيـوان إذ لم تدخر قدرة تصويرية إلا أتت بها إلا أن ينطق الحيوان . وما خلا أبو الطيب هنا من أخذ دقيق من قول ابي عبادة

يغتلى فيهـم ارتيــــابي حتـي تتقـــــراهم يـــــداي بلمـس

هذا

ومن أعجب شعر أبي الطيب ميميته :

ملــــــــومكما يجل عـن الملام ووقع فعـــالـــه فـــوق الكـــلام

وهي قصيدة عتابية ، عاتب بها كافورا كما عـاتب سيف الدولة «بواحر قلباه» من قبل ، غير أنـه رام فيها أن يكـون ألبق ، وأبعد عن تهمـة إسـاءة الأدب بالأدب ، فلم يكـافح كـافورا بخطـاب . كلا ولم يقـارب أن يكـافحه بتلميح . ومع هـذا فقـد روى عنه أنـه

قال«كنت إذا دخلت على كافور أنشده، يضحك إلى ويبش في وجهي حتى أنشدته هذين البيتين يعنى:

فلما صار ود الناس خبا	جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن اصطفيه	لعلمي أنه بعض الأنام

فما ضحك بعدها في وجهي إلى أن تفرقنا. فعجبت من فطنته وذكائه.» قلت إن صحت هذه الرواية فإنها لاتدل على ذكاء كافور ولكن على غفلة أبي الطيب، إذ البيتان واضحا الدلالة على إرادته كافورا إن صح ما ذكره عنه أنه كان يضحك إليه ويبش في وجهه وبعيد عن أبي الطيب أن يكون في مثل هذا الموضع صاحب غفلة.
وفي هذه القصيدة أشياء تعمد بها التعريض بالفراق. وأشياء أفلتت منه فيها تعريض بالهجاء. وينبه ها هنا على أن أبا الطيب لم يضمن شيئا من الهجاء في كلماته اللواتي أرادهن مدحا لكافور. ومن زعم ذلك له، ونسب في ذلك رواية عنه، فإن ذلك يناقض ما في هذا الخبر من إقراره بذكاء كافور. اللهم إلا أن يزعم زاعم أن أبا الطيب قد ضمن مدح كافور هجاء في طيه له، ولم يكن يخطر بباله أن كافورا من أجل سواده وأنه مع ذلك خصي له من الذكاء مايفطن به إلى ذلك، فلما تبين له أنه قد فطن له، عجب لذلك. فإقراره الذي أقره بالعجب لا باعتقاد وجود الذكاء.
هذه القصيدة محكمة اتصال المعاني والأبيات. وهي مع ذلك من الضرب المخصر. شأنها فيه شأن: «واحر قلباه» و«حتام نحن نسارى النجم في الظلم». وقد قدمنا أن أصل نظره في ذلك إلى«بانت سعاد» في«واحر قلباه» ثم سواها من الشعر القديم ونظره في«حتام نحن نسارى النجم» إلى ميمية علقمة أشد. ولعلنا لا نباعد إن زعمنا أن من بواعث تأثر أبي الطيب لامية كعب، سابقة تأثره بالتصوف. وفي بعض مدائح صباه ما هو من سنخ كلام المتصوفة كقوله:

يأيها الملك المصفى جوهرا	من ذات ذي الملكوت أسمى من سمى
نور تظاهر فيك لاهوتية	فتكاد تعلم علم ما لن يعلما
ويهم فيك إذا نطقت فصاحة	من كل عضو منك أن يتكلما

أي النور اللاهوتي

أنا مبصر وأظن أنى نائم	من كان يحلم بالاله فأحلما
كبر العيان على حتى إنه	صار العيان من العيان توهما

ومن سنخ المدائح النبوية قوله :

لقـــد حسنت بـك الأوقـــات حتى ... كأنـك في فـم الـــدهـــر ابتســـام
وأعطيـت الـــــذي لم يعـط خلـق ... عليـك صـــلاة ربـك والســـلام

وإنما الذي لم يعط خلق ما أعطيه هو الرسـول عليه الصلاة والسلام، وأبو الطيب يعلم حديث الشفاعة ـ وفي هذه القصيدة قبل هذين البيتين مما معدنه ديني قوله

تحايـــده كأنـك ســـامـــري ... تصـافحـه يـد فيهـا جـذام

والضمير في تحايده يعـود على المال. والجذام مبالغـة، لأن السامـري أمره أن يقـول لا مساس نافراً من كل الناس.

إذا مـا العـالمون عـروك قـالـوا ... أفـــدنـــا أيها الحبر الإمـــام

فلما جعله حبرا وإماما، قارب به النبوة فزعم أنه أعطى مالم يعطه الله خلقا غيره.
ويجوز لمن يعتذر لأبي الطيب أن يـزعم أنه لم يـرد ممدوحـه العجلى بهذا ولكنه التفت إلى مدح الرسول عليه الصلاة والسلام وجعل ذلك ختام مسك. وهو جواز ذو بعد.
وقول أبي الطيب : «أنـا مبصر وأظن أني نائم» يستوقفني منه كسماع اصـداء منه في قول شكسبير.

Is this a dagger I see before me......

أهذا الذى أراه أمامى أخنجر هو. . . .
(انظر الفصل الثانى ـ المنظر الأول ص ٣٣ ـ ٤٠ من ماكبيث)
الكلمة التى يـزعم بها أنه يرى شبح الخنجـر الذى يريـد أن يرتكب به جـريمة الغدر «بدنكـان» الملك. وهذا بعد باب من البحث لا يتسع لـه مجال هذه الفصول.
ومـا أشك أن أخذ شكسبير من أبي الطيب خـاصـة ومن أبي تمام وشعراء آخـرين كثير وينبغي أن يدرس ويكشف عنه.
مثلا قال أبو الطيب :

كـريم نفضت النـاس لما رأيتـه ... كأنهم مـــا جـف من زاد قـــادم

وقال شكسبير

Time hath, my lord, a wallet at his back
Wherein he puts alms for oblivion,

(الفصل ٣ انظر س ١٤٥ ـ نزو يلس وكوسيدا)

«الدهر على ظهره خريطة، يضع فيها أزواد الصدقة لتنسى.»

ومما يشعر بالأخذ هنا أن المكدى الذى يشبه شكسبير الزمان به ها هنا يضع ما يعطاه من صدقات (وإنما ذلك الخبز الجاف ونحوه) للنسيان. والسائل لا ينسى ما تصدق به عليه ولا يدعه للنسيان. إنما الذى يطرح زاده من حقيبته وينفض ذلك نفضا هو القادم الواجد القرى والضيافة. وفي القطعة الشكسبيرية ما ينم بمعنى الضيافة، إذ شبه الزمن فيما بعد بصاحب الخان وهذا كما تقدم باب مجال القول فيه سوى هذا الموضع.

القسم الأول من القصيدة فيه، في أول بيت وهو المطلع:

ملومكما يجل عن الملام	ووقع فعاله فوق الكلام

نفس نهاية للنسيب. واللائمان هما صاحبا امرىء القيس اللذان صارا صحبا كثيرين فى قوله:

وقوفا بها صحبي علي مطيهم

وهما صاحبا بشار اللذان قال لهما:

واسقيانى من ريق بيضاء رود

وهما صاحبا أبي نواس:

أيها الرائحان باللوم لوما

وهما الشاعر نفسه جرد من نفسه آخر فصارا اثنين وثلاثة، يلومونه إذ وقف على الطلل ثم بعد أن بكى واستبكى لم يجد شفاء إلا أن ينخرط في السير. ومحبوب أبي الطيب الذى وقف على طلله هو الأمل الذي خاب عند كافور كما خاب عند كثيرين ممن حسَّن الظن فيهم وعقد الرجاء عليهم من قبل:

ذراني والفلاة بلا دليل	ووجهى والهجير بلا لثام
فإنى أستريح بذي وهذا	وأتعب بالإناخة والمقام
عيون رواحلى إن حرت عينى	وكل بغام رازحة بغامى

جعل نفسه ورواحله شيئا واحدا. وهذا هو المعنى الذي في شعر الجاهليين جاء به أبو الطيب ها هنا بارزا مكشوفا. وقوله «إن حرت عينى» أي هن يهتدين لأنهن يشممن الماء ويعرفن موارده فإذا حرت فتكفيني هداية عيونهن.

وقوله «وكل بغام رازحة» إنما أراد به الاشارة إلى قول العبدي!

إذا مـا قمت أرحلهـا بليل تأوه آهـة الـرجل الحزين

فآهتها بغامها وهو الرجل الحزين. وأما قول التبريزي: «وصوتها إذا احتجت إلى أن أصوت ليسمع الحي يقوم مقام صوتي، وإنما قال بغامي على الاستعارة» (شرح البرقوقي ٤/ ٢٧٣ ـ تصوير بيروت) ـ فوجه واضح والتبريزي أقرب إلى زمان أبى الطيب منا، وليس الذى قاله بمبعد معنى الإشارة الذي ذكرناه، وقد سبق منا القول إن أبا الطيب كان يخفي إشاراته ولايظهرها إظهار أبى تمام إلا ما قل من ذلك.

فقـد أرد الميـاه بغير هـاد سـوى عـدى لها بـرق الغمام
يـذم لمهجتى ربى وسيفى إذا احتـاج الـوحيـد إلى الـذمـام
ولا أمسى لأهـل البخـل ضيفـا وليس قـرى سـوى مخ النعـام

يعنى وليس من قرى يلفى إذ النعام لا مخ لـه. ومن روى مح النعام بالحاء يعنى بيض النعام فهى رواية على معنى الصعلكة، إذ ذكروا أن الشنفرى وأضرابه كانوا يخبأون الماء في بيض النعـام ويعرفـون كيف يهتدون إليـه فيكـره من يطاردهم اتبـاعهم. والمح «صفار» البيض وأطلقه ها هنا على البيض كله، وكـذلك يقال فى ناحية «بحر أبيض» (أى النيل الأبيض) عندنا للبيض إذ يباع «المح المح» إلا أنهم يكسرون الميم.

وهذا البيت فيه مواجهة لكافـور وتعريض به بالبخل، وقد كشف هذا المعنى في هجائه الصريح له من بعد. ثم يقول:

ولما صـار ود النـاس خبـا جـزيت على ابتسـام بـابتسـام
وصرت أشـك فيمـن أصطفيـه لعلمـى أنـه بعـض الأنـام
يحب العـاقلـون على التصـافي وحـب الجاهلين على الـوسـام

أى أنت لست بحسن الوسـام فأحبك من أجل ذلك، ولكنى إنما أحببتك رجاء التصافي بيننـا، هذا هـو المعنى المستكن، وتعمده أبو الطيب، وأراد بـه عتاب كـافور فقارب توبيخه، على شدة ما احترس.

ثم جاء بالدواهي وكأن قد تعمد ذلك إذ قال من بعد:ـ

وآنـف مـن أخـي لأبي وأمـي إذا لم أجـده من الكـرام

ولم يكن له أخ من أب وأم. وإنما كان أقرب الناس إليه جدته التي فيها قوله:

ولـو لم تكـوني بنت أكـرم والـد لكان أبـاك الضخم كونـك لى أما

وما يخلو قوله هذا من معنى فكيف بك أيها العبد الزنيم

أرى الأجـــداد تغلبهـــا كثيرا على الأولاد أخـــلاق اللئـــام

أي إذا لؤمت أخلاق الأولاد، وهذا كثير، غلب لؤمها شرف أنساب أجدادهم. هذا ظاهر المعنى. ولكن خطاب كافور به قد تشتم منه رائحة تفريع قول قائل، فكيف بالأمر إذ ساءت أخلاق الأولاد مع النسب الدنيء المجهول؟

ولست بقـــانع من كل فضل بـأن أعـــزى الى جـــد همام

فأنا لا أهتم بالنسب ولا أفتخر به. وأنت لا نسب لك. وأنا قد اخترتك فاشكر لى هذا الاختيار

قـد اخترتـك الأمـلاك فـاختر لهم بنا حـديثـا وقـد حكمت رأيك فـاحكم
فأحسن وجـه في الـورى وجـه محسن وأيمـن كـف فيهـم كـف منعـم
وأشرفهـم مـن كـــان أشرف همة وأكبر إقـــدامـــا على كل معظـم

ثم يعود أبو الطيب بعد هذه الحكمة التى طيها ما ترى من هفوات الى التعريض بالفراق:

عجبت لمن لـــه قـــد وحـــد وينبـو نبـوة القضم الكهـــام

هـذا سيف الدولة، لذكر القد ولم يكن لكافور من قد، ولذكره الحد والحد للسيف الماضي. والقضم الكهام هو السيف الرديء، به تقليل من رداءة حديده، وكهام أى غير قاطع.

ومن يجد الطـريـق الى المعـالي فـلا يـذر المطي بـلا سنـام

هـذا عنى به نفسه، إذ هو صاحب الأسفار. وفي هـذا من قوله ما زعمنا من التعريض بالفراق والتهديد.

ولم أر في عيـوب النـاس شيئـا كنقص القـــادريـن على التمام

هذا عنى به كافورا، والدليل على ذلك قوله «في عيوب الناس» ومن قبل قد قال: «ولما صار ود الناس خبا» والرواية التي رووا سواء أصحت أم لم تصح تشهد بأن المعنى بالناس ثم هو كافور، فذلك ينساق على معناها آيضا في هذا البيت. ودليل آخر ما كان يتوهمه أبو الطيب في كافور من القدرة على أن يهبه ضيعة أو ولاية وأن يجعله

سيدا على مصر ثم على الناس جميعا ـ أليس يقول له :

لك الحيوان الراكب الخيل كله وان كان بالنيران غير موسم

وهذا الذي يرى فرسان كافور وأجناده وعظماء دولته جميعا هم الحيوان الراكب الخيل ، ماذا عسى ان يكون رأيه في كافور نفسه؟

هذا آخر القسم الاول .

ويبدأ القسم الثاني من عند قوله : « أقمت بأرض مصر» . وهو من عزيز الحكمة جاء فيه بوصفه الباهر التأمل للحمى :

أقمت بأرض مصر فلا ورائي تخب بي الركاب ولا أمامي

هنا وثبة بيانية وثبها من عند قوله «ولم أر في عيوب الناس البيت» . إذ تقصير كافور عن التمام أنه خام دون الثقة به وتبليغه ما كان يؤمله منه أو بعضه من تنويل ضيعة أو ولاية . والذي سأله أبو الطيب ليس ببدع أن يعطاه شاعر فقد ولى أبو تمام بريد الموصل . فكأن أبا الطيب بهذه الوثبة يلفتنا الى ما آلت إليه حاله من السقم بعد ما كان له من تأميل عند قادر مستطيع تحقيقه ، ولكنه عجز عن ذلك ـ وهذا يا للأسف من عيوب طبيعة البشر .

ولعلك أيها القارىء الكريم قد ترى كيف صار ما كان أوجزه أبو الطيب في معاتبته سيف الدولة إذ قال :

واحر قلباه ممن قلبه شبم ومن لجسمي وحالي عنده سقم

ههنا مفصلا مشروحا .

ضعف أبي الطيب وحسرته عند كافور، ذلك الذي أحوجه الى شرحه سقم جسمه وحاله ، شرحا مفصلا يستدر به عطف هذه القلوب القاسية .

وملني الفراش وكان جنبي يمل لقاءه في كل عام

قليل عائدي . . . .

ولو كان أثير المكان عنددولة كافور لكان عواده قد كثروا

. . . . . سقم فؤادي . . . . .

هذا كأنه تكرار لقوله من قبل «واحر قلباه»

كثير حاسدي ، صعب مرامي

هنا انتفاضة مما سبق مما كأنه قد استكان به .

ولكن أبت الحمى إلا أن تضرعه :

عليل الجسم ممتنع القيـام شـديـد السكـر من غير المدام

هذا يدل على أنه هذي . وقد كانت قلة العواد بهذا له رحمة ، اذ لم يكن هذيان مثله ليسلم من معاني ما أخذ فيه بعد من مسالك الهجاء المقذع المر. قوله شديد السكر هو شاهد الهذيان ، وحمى الورد ـ وهي التي يقال لها الآن الملاريا ـ مما يكون معها الهذيان .

وزائرتي كـأن بها حيـاء فليس تـزور الا في الظـلام
بـذلت لها المطـارف والحشـايـا فعـافتهـا وبـاتت في عظـامي

وكذا تفعل حمى الورد

يضيق الجلد عـن نفسي وعنها فتـوسعـه بـأنـواع السقـام

من فتور وصداع وانقباض نفسي وصنوف أوجاع

إذا مـا فـارقتني غسلتني كأنـا عـاكفـان على حـرام

انتقده بعضهم بأن الحرام ليس بأخص أن يغتسل منه من الحلال وأحسن ابن الشجري الدفاع عنه إذ قال وإنما خص الحرام لأنه جعلها زائرة غريبة ولم يجعلها زوجة ولا مملوكة . [انظر شرح البرقوقي ٤ ـ ٢٧٦/ ٢٧٧ ـ الهامش] قلت أفسد ابن الشجري احسانه شيئا بذكره الزوجة والمملوكة . وقد أعلمنا أبو الطيب أن زائرته هي الحمى بقوله كأن بها حياء ، ولا حياء لها اذ ليست مما يوصف بذلك ولما صار الى ذكر العرق وانها غسلته به ، رد ذلك الى معنى الزائرة ، ولا يكون الكلام إلا كما قال : كأنا عاكفان على حرام "ومفهوم" أنها زائرة مجازية ليست بعاكفة معه على شيء غير هذا السقم الذي هذه صفته . فذكر الزوجة والمملوكة هنا لا معنى له . ونقد من نقده بأن الحلال ليس بأخص من الحرام . تافه باطل .

كأن الصبح يطـردهـا فتجـري مـدامعهـا بأربعـة سجـام

وهـذا تأكيد للمعنى التشبيهي المتقدم ـ لما جعلها غاسلة له ، وذلك لامتناع قيامه ، جعلها باكية لفراقه وذلك لشدة شغفها به ، وقد تقدم قوله : «فعافتها وباتت في عظامي » . ولما جعل لها بكاء المحب الشديد الشغف ومن قبل قال : "كأنا عاكفان على حرام" صح أن يصف نفسه على وجه التشبيه ، بحال المشتاق ، وإن كان حقا ليس بمشتاق ولكن مترقب أمر محتوم ليس منه من مفر .

أراقـب وقتهـا مـن غير شـوق مـراقبـة المشـوق المستهـام

ويصدق وعدها والصدق شر إذا ألقاك في الكرب العظام

وكم ألقاه صدقه هو في الكرب العظام .

وقد ترى كيف مزج نعته الحمى بالحكمة ، بل نعته نفسه من الحكمة

وهذا آخر التخصير . ويبدأ القسم الثالث من بعد وأوله مخاطبة الحمى ، مع التزام مذهب الأوائل في جعلهم بداية هذا القسم بالذكرى و إتباع ذلك ما يناسبها من أغراض البيان كما رأيت من قول علقمة .

قد أشهد الشرب فيهم مزهر رنم والقوم تصرعهم صهباء خرط

وقول امريء القيس :

وقد أغتدى والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

وما أشبه ذلك .

قال أبو الطيب :

أبنت الدهر عندي كل بنت فكيف وصلت أنت من الزحام

عندي كل بنت هو موضع الذكرى ، وما جعله بمنزلة «قد أشهد»«وقد أغتدى»وهلم جرا

جرحت مجرحا لم يبق فيه مكان للسيوف وللسهام

وهنا موضع تمني الخلاص منها والشفاء والنجاة والانطلاق والحرية والفراق :

ألا ياليت شعر يدي أتمسي تصرف في عنان أو زمام

فقد سوى بين الخيل والإبل كما ترى ، ثم عول من بعد على الإبل ، خلافا لما زعم ابن رشيق من إيثاره الخيل :

وهل أرمي هواي براقصات محلاة المقاود باللغام

فربتما شفيت غليل صدري بسير أو قناة أو حسام

وضاقت خطة فخلصت منها خلاص الخمر من نسج الفدام

وفارقت الحبيب بلا وداع وودعت البلاد بلا سلام

يجوز أن يكون مراده بالحبيب معنى ما درج عليه من الكناية عن الممدوح بالمحبوب . ويجوز ـ والله تعالى أعلم ـ ان يكون له حبيب بحلب فارقه بلا وداع . وقوله بلا سلام : أي خائفا محاربا .

هذا وفي البائية «أغالب فيك الشوق »ما يفيد أنه ترك وراءه أسرة وأهلا :

أحن الى أهلي وأهوى لقـاءهم وأين من المشتاق عنقـاء مغرب

وأستبعد أن يكـون يعني هؤلاء . فمن زعم أنـه أحب أمرأة بعينهـا بحلب من آل سيف الدولة فربما احتج بهذا البيت . وهذا أيضا مما استبعده.

وعسى بعضـه أن يكـون مـرده الى روح " رومنسيـة" عصرنـا الحديث .

يقـول لي الطبيب أكلـت شيئـا وداؤك في شرابك والطعـام

عاد إلى معنى "بنت الدهر" التي خاطبها قبل

ومـا في طبـه أني جـواد أضر بجسمـه طـول الجمام

ولعل أبـا الطيب لـو رأى عصرنـا هـذا الحديث أن يعجب لغلـو الطب الآن في كراهية طول الجمام والنصح بـالرياضة البدنية ولعجب من كثرة من يهرولون كل صباح من غير دواعي العجلة خوفا من أن يفاجئهم الموت إن لم يفعلوا ذلك .

ومـا في طبـه أني جـواد أضر بجسمـه طـول الجمام
تعـود أن يغبر في السرايـا ويـدخل مـن قتـام في قتـام
فـأمسك لا يطـال لـه فيرعـى ولا هـو في العليق ولا اللجـام

لعل ابن رشيق أن يقول ـ لو أمكنه ذلك ـ إن مما يدل على إيثار أبي الطيب الخيل تشبيه نفسه بالجواد هـاهنا ولم يشبهها ببكر أو فنيق . ويرد على مثل هـذا أن التشبيه بالجواد في باب هذا المعنى الذي قصد إليه أصح .

وإذ قد وضحت لأبي الطيب أسباب علته وسقمه، فإن ذلك أول سبيل الشفاء :

فإن أمـرض فما مـرض اصطبـارى وإن أحمم فما حـم اعتـزامي
وإن أسلـم فما أبقـى ولكـن سلمـت مـن الحمام الى الحمام

الأمل كل الأمل في البيت الأول . ومـع الأمل انتفـاضـة العـزم والتصميم . ولكن البيت الثاني فيه التأمل ومـع التأمل الأسى واستشعار مأساة المصير ـ وقـد صدق ما سلم من حمام الحمى إلا الى حمام مقتله بدير العاقول :

تمتـع مـن سهـاد أو رقـاد ولا تأمـل كـرى تحت الـرجـام

ومعنى تشبيه الموت بالنوم مما يدور في الشعر ـ ومقابل شكسبير على لسان هامليت (٣ ـ س ١ ـ س٥٣ ـ ٦١)

To die: to sleep

No more; and by a sleep, to say we end

The heart ache....

« إنما الموت كالنوم ليس غير، أليس بالنوم تنتهى أوجاع القلب . »

لا يخلو من شبه بقول أبي الطيب هاهنا، وكثرة التشابه فيها نوع من الدلالة على أخذ المتأخر من المتقدم

تمتع من سهاد أو رقاد ولا تأمل كرى تحت الرجام

أى القبر

فإن الثالث الحالين معنى سوى معنى انتباهك والمنام

وكونه مختلفا عن المنام هو ما أراده الشاعر الانجليزى شكسبير بقوله : «٣ـ ١ ـ س٦٥»

To sleep: perchance to dream:ay,there's the rub

« منام وربما أحلام، أمر ما هنالك . »

ومع أن مثل هذه المعاني مشترك بين البشر، مع ذلك لا نشك في أن شكسبير بلغه من علم آداب العربية في شعرها ونثرها وفي شعر أبي الطيب خاصة ما ولد منه كثيرا من محاسنه أو أخذه أخذا .

قول أبي الطيب " فإن لثالث الحالين معنى " ، ليس منشأه من فلسفه قلب زنديق أو نزعة إلحاد، ولكنه من باب الفطنة والحكمة والتأمل والموعظة الحسنة مع ما يلابسه من حزن الشك العميق . فقل هذا من قبيل النزغ الذي نزل فيه قول الله تعالى : «وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم» .

وقد جاء أبو الطيب بهذا المعنى الموجز جدا ههنا أكثر تفصيلا في قوله :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم إلا على شجب والخلف في الشجب

أى الهلاك

فقيل تخلص نفس المرء سالمة وقيل تشرك جسم المرء في العطب

ومن تفكر في الدنيا وغايته أقامه الفكر بين العجز والتعب

وهذه الخاتمه أنسب للرثاء . وقوله :

تمتع من سهـــاد أو رقـــاد ولا تأمل كـــرى تحت الـــرجـــام
فـإن لثـــالـث الحالين معنـى ســوى معنى انتبـــاهك والمنـــام

وقد أدخل شكسبير من معنى هذين البيتين مع قوله « الدهر يعجب من حملي نوائبه »(1) في كلمته: (هامليت ٣ ـ ١ س٧٦ ـ ٨٢)

Who would fardels bear,

To grunt and sweat under a weary life,

But that the dread of something after death,
The undiscover'd country from whose bourn

No traveller returns,puzzles the will,

And makes us rather bear those ills we have

Than fly to others that we know not of ?

من كان سيحتمل الأعباء
ويزحر ويعرق تحت نصب العيش
لولا المخافة من شيء يكون بعد الموت
الدار التى لم تكتشف ولا من حدودها
عاد مسافر، هي التي تحير الإرادة
وتجعلنا نؤثر ما عندنا من شرور
على أن نفر الى شرور أخرى لا نعلم أمرها.

ولا يخفى أن نظام الشعر الانجليزى المرسل أدنى بإطنابه الى نثـر الرسائل والمقامات منه الى طريقة إيقاع جزالة شعر العرب ـــ وهذا المعنى قد ذكرناه مرات من قبل، « وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين »

فصل ملحق بما يقع من تشابه أشكال القصائد

سبق الحديث عن الـرثاء وعن الـوصايـا. ورب قائل فلم لا نجـد لذلك من مثـال بين السبع الطوال والعشر الطوال. وقد يجاب عن هـذا بأن العرب اكتفت في هذا الباب بما اشتهــر من المراثي مثل كلمات الخنســاء وجنـوب وأعشى بـاهلـه وأوس بن حجــر ومتمم. وفي الوصـايا بمأثور مـا جاء من ذلك في شعـر ذي الأصبع وعبدة بن الطبيب ولامية عبد قيس بن خفاف البرجمي.

ومع ذلك يحسن أن ننبه ههنا على أن المعلقات قد جـاءت فيهن أبيات من غرض الرثاء

---

(١) انظر حديثنا عنه من قبل والهامش أيضا

ومن غرض الوصايا أو مدانية لذلك .
في معلقة طرفة ذكر الموت ومعاني الرثاء مصرحا بهن في قوله :

إذا مت فـــاتبعيني بما أنـــا أهلــه وشقي علي الجيب يــابنـــة معبـــد
ولا تجعليني كـــامــــرىء ليس همه كهمي ولا يغني غنـــائي ومشهـــدي
بطــيء عــن الجلى سريــع إلى الخنــى ذلـــول بـأجماع الــرجـــال مهلـــد

وله كما تعلم أبيات في الموت تجرى مجرى عظات الرثاء

أرى قبر نحـــام بخيـل بمالــــه كقبر غــوى في البطـــالـــة مفســـد
تــرى جثـوتين من تــراب عليهما صفـــائح صم مـن صفيح منضـــد
أرى الموت يعتـــام الكـرام ويصطفى عقيلـــة مـــال الفـــاحش المتشـــدد
أرى العيش كنــزا نــاقصــا كل ليلـة ومــا تنقص الأيــام والــدهــر ينفـد
لعمــــرك إن الموت مـــا أخطـأ الفتى لكـــالطـــول المرخى وثنيـــاه بـــاليـــد

وفي كلمة عبيد عظات تجرى هذا المجرى، وقد ختمها بافتراس العقاب الثعلب ومع أن هذا جاء به على مذهب الشعراء في تشبيه فرسه بالعقاب، روحه في جملتها روح حزن، إذ إنما جاء به في معرض الذكرى وتوجس دنو الموت .
وكلمة زهير تجرى مـواضع الحكمة منها مجرى الـوصايـا . وليس يقدح في قولنـا هذا أن جعلنا الـوصايا في جملتها بـابا من معدن المراثى . فهـذا هو الأصل، إذ الوصية أكثـر ما تكـون عنـد الموت . ثم جرت الأسفـار ومـا أشبـه من أحوال المفـارقـة مجرى الموت . ثم صارت الـوصية من بـاب الحكمة ومن باب النصيحـة وكأنها أمر مستقل بنفسـه . وقد جعل أبو تمام وصية يزيد بن الحكم الكلابي :

يـــابـــدر والأمثـــال يضــــــــــربها لـــذي اللب الحكيم

في باب الأدب وهو الثالث في ترتيب أبواب كتاب الحماسة .
والحق أن قول زهير

ألا أبلغ الأحـــلاف عني رســـالـــة وذبيــــان هـل أقسمتـم كل مقسـم
فـلا تكتمـن اللـه مــا في نفـوسكم ليخفـى ومهما يكتـم اللــــه يعلـم
يـؤخـر فيـوضع في كتـاب فيـدخـر ليـــوم الحســـاب أو يعجـل فينقم
ومـا الحرب إلا مــا علمتم وذقتمــو ومـــا هـــو عنهـــا بـــالحديـث المرجم

إنما هو وصية وإن يك قد سماها رسالة .

وقد ذكر عنترة الوصية في قوله :

ولقد حفظت وصاة عمي بالضحى   إذ تقلص الشفتان عن وضح الفم

والحرب فيها مقاربة الموت .

ومما يدلك على ملابسة الموت للوصية قوله تعالى : (ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت . . .) وقال تعالى : «كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف . . » وقال تعالى : «وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله الآيات» وعند الوالد أنه أدنى إلى الموت من ابنه. وقوله تعالى : «يوصيكم الله في أولادكم . . . » والله حي لايموت ولكن أمر الفروض ملابس للموت وللميراث ، وكذلك أمر الإنسان كله عند الله عز وجل : «ووصينا الانسان بوالديه إحسانا أو «حسنا» (قراءتان) «ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون» . . . لعلكم تذكرون (بتشديد الذال وتخفيفها) لعلكم تتقون . . . آيات الأنعام .

وأدب الوصايا في العربية كثير. يوصي الآباء الأبناء ، وسادة القوم عشائرهم والأمهات بناتهن وكذلك الآباء . وفي كتاب الأمالي من ذلك أمثلة جياد . والمتأمل لمسرحيات شكسبير واجد فيها وصايا كثيرة ، مثل وصية يوليسيس لأخيل «ترويليس وكريسيدا ١ ـ ٣ ـ ٣» ومثل وصية بولونيوس لابنته (١ ـ ٣ ـ س١٢٠ ـ ١٢٤ . . .) ولابنه (١ ـ ٣ص س٦٦ ـ ٨١) وهذه الوصية من مشهور كلامه ومما يختار ويحفظ وفيها مشابه قوية من بعض ما جاء في كلمة عبد قيس بن خفاف البرجمي وهي فى المفضليات وأوردها صاحب اللسان كاملة وأحسب أن حبيبا لم يوردها في حماسته لشهرتها إذ ليس يخفي عن مثله مكانها :

أجبيل إن أباك كارب يومه   فاذا دعيت إلى المكارم فاعجل

كارب يومه أي دنا ، وهذا سبب الوصية . وقال بولونيوس Polonius وكان صاحب حجاب الملك ومن وزرائه يعظ ابنه ويوصيه وهو يودعه ما معناه «اذهب مع مباركتي لك وهذه الكلمات القلائل من وصيتي خطهن في قلبك خطا» (انظر هاملت الفصل الأول المنظر الثالث) .

أوصيك إيصاء امريء لك ناصح   طبن بريب الدهر غير مغفل

فهذا ونحوه مما يقع في كثير من كلام أهل الحكمة عند وصيتهم البنين ومن

بمنزلتهم ممن يهمهم أمره. وقول بولونيوس الذي قر بنا تعريبه آنفا

... There my blessing with thee!
And these few precepts in memory
Look thou character.

اللـــه فـــاتقـــه وأوف بنـــذره   وذا حلفـت ممـــاريـــا فتحلـل
والضيف أكـــرمـــه فـإن مبيتـــه   حـق ولاتـك لعنـــة للنـــزل
وأعلـم بـأن الضيـف مخبر أهلـــه   بمبيـت ليلتـــــه وإن لم يسـأل

وهذا من صميم أدب العرب، أعنى قرى الضيف ومبيته.

ودع القـــوارص للصـــديـق وغيره   كيـــلا يـــروك من اللئـــام العـــزل
وصل المواصـل مـــا صفـــا لك وده   واحـــذر حبـــال الخائن المتبـــدل

وقد كشف ما تضمنه هذان البيتان من ثمين المعاني صالح بن عبدالقدوس حيث قال في موضع من بائيته الطويلة الزينبية :-

ودع الكـذوب فـلا يكن لـك صـاحبـا   إن الكـــذوب يشين حـــرا يصحب
واحـــذر مصـــاحبـــة اللئـــام فإنها   تعـــدي كما يعـدي الصحيح الأجـــرب
إن القلـــوب إذا تنـــافـــر ودهـــا   مثل الـزجـاجـــة كسرهـــا لا يشعب
إن العـــدو وإن تقـــادم عهـــده   فـــالحقـــد بـــاق في الصـــدور مغيب
يعطيك من طـــرف اللســـان حـــلاوة   ويـــروغ منك كما يـــروغ الثعلب

وقال أبو الطيب :

لا يخدعنـك من عـــدو دمعـــه   وارحم شبـــابـك من عـــدو تـــرحم
لا يسلـم الشرف الـــرفيع مـن الأذى   حتى يـــراق على جـــوانبـــه الـــدم
يـــؤذى القليل مـن اللئـــام بطبعـــه   مـن لا يقـل كما يقـل ويلـــــؤم

أي أذاه للعدد الكثير على مقدار عظم لؤمه وجسامة خساسة قدره وقلته. أي كلما كان أقل والأم كان أذاه أكثر وأشد.

الظلـم من شيـم النفـــوس فـإن تجد   ذاعفـــة فلعلـــة لا يظلـم

والـــذل يظهـــر في الـــذليل مـــودة وأود منـــــــه لمن يـــــــود الأرقـم
ومن العـــداوة مـــا ينـــالك نفعــه ومن الصـــداقـــة مـــا يضر ويـــؤلم

فهذا جار مجرى النصيحة والوصية ـ وقال البرجمي ، وإنما ذكرنا أبيات أبي الطيب هذه لما فيها من معنى الصداقة ، وتناول أبي الطيب له كثير:ـ

واتـــرك محل الســـوء لا تحلل بـــه وإذا نبـــا بك منـــزل فتحـــول
دار الهوان لمن رآهـــــــــــا داره أفـــراحل عنهـــا كمـن لم يـــرحل

فكيف إذ ضرب الهوان بجـرانـه في كل دار. قـــال تعـالى جل مـن قـائل: «إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا»

وقال عبد قيس:

وإذا هممت بأمر شر فاتئد وإذا هممت بأمر خير فافعل

قال الضبي ـ أي أبو عكرمة ـ هذا مأخوذ من قول لبيد:

واكـــذب النفـس إذا حـــدثتهـــا إن صـــدق النفس يـــزرى بـــالأمل
غير أن لا تكـــــذبنهـــا في التقـي واخـــزهـــا بـــالبر للـــــه الأجل

قال الشارح واخزها يعني سسها يقال قد خزاه الله يخزوه قال الشاعر:
«ولا أنت دياني فتخزوني» ـ قلت يجوز أن يكون الضبي قال ما قال يريد به محض المشابهة ، وإلا فعبد قيس بن خفاف البرجمي من معاصري نابغة بني ذبيان وحاتم طي ولبيد بعد زمانهما ، إلا أن يقال قد طال عمر لبيد ، وليس ذلك بدافع ما تقدم.

وقال شكسبير على لسان بولونيوس بعد الفاتحة التي مضى ذكرها:

Give thy thoughts no tongue
Nor any unproportion'd thought his act
Be thou familiar ; but by no means vulgar ;
The friends thou hast and their adoption tried
Grapple them to thy soul with hoops of steel ;
But do not dull thy palm with entertainment
Of each new - hatch'd ; unfledg'd comrade. Beware,
Of entrance to quarrel, but being in
Bear't that th' opposed may beware of thee.
Give every man thy ear, but few thy voice ;
Take each man's censure, but reseve thy judgement.

ترجمة تقريبية

لا تعــط آراءك لســـــــــــــــانـــــــــــــا
ولا رأيـــــــــــا غير ممحـص فعلــــــــــــه
عليـك بـــــالألفـــــة، ولكـن إيـــــاك والابتـــــذال
اصـــــدقــــاؤك الـــــذيـن بلـــوت مـــودتهم
نطهـم إلى نفسـك بأطـــــواق مـن حـــديـــــد
ولكـن لا تكلـن راحتـك بـــــــاستطـــــــراف
كل حـــديث انفـــلاق الصحبـــة عنـــه أزعـر واحـذر
الـــــدخـــــول في الشر ولكـن متـى كنت فيــــــه
فـــــاثبت لـــــــــه، لعـل الخصـم يخشـــــاك
أعط كـل امـــرىء سمعـك، وقليـــلا منهم صـــوتك
خـــذ من كل حـــديـث خـــلاصتـــه، واحتفـظ بحكمك

لعل القارىء أحس شبهـا بين قول بولونيـوس شكسبير «ولا رأيا ممحصا فعله» ومـا مر من كلام عبد قيس «وإذا هممت بأمر شر فاتئد» ـ وانظر بعد قوله:

وإذا أتتك مـن العـــدو قـــوارص فـــاقـــرص كـــذاك ولا تقـل لم أفعل

فهذا مشبه لقوله واحذر الدخول في الشر

وإذا افتقــرت فـــلا تكن متخشعـــا تـــرجـو الفـــواضل عنـد غير المفضل

وصاحب شكسبير ينـــهى ابنـه أن يسلف أو أن يستـدين في قـول لـه مـــن بعد
Neither a borrwer, nor a lender be

" لا تكن آخذ دين ولا مسلفه "

وكلام عبد قيس ذو عموم وكلام بولونيـوس أشبه بطبيعة الطبقة التى منها هو وابنه على زمان شكسبير.

وإذا لقيت القـــوم فـــاضرب فيهم حتى يـــروك طـــلاء أجـــرب مهمل

هذا أشبه بقول صاحب شكسبير «ولكن متى كنت فيه فاثبت لعل الخصم يخشاك»

واستغن مـــا أغنـــاك ربك بـــالغنى وإذا تصبك خصــــاصـــــة فتجمل

أي استغن عن الناس إذا اغتنيت من غير تضييع غير للحقوق. وهذا البيت غير جد بعيد عن معنى النهي عن التسليف وعن الدين

واستأن حلمك في أمورك كلها وإذا عزمت على الهوى فتوكل

وهذا مقارب لما نصح به بولونيوس من الإصغاء وتأجيل الحكم حتى يتبين أمره.

وإذا تشاجر في فؤادك مرة أمران فاعمد للأعف الأجمل
وإذا لقيت الباهشين إلى الندى غبرا أكفهم بقاع ممحل
فأعنهم وايسر بما يسروا به وإذا هم نزلوا بضنك فانزل

وهذا من آداب مجتمع العرب. وفي كلمة شكسبير مما لم نذكره ما يقابله من آداب مجتمع الافرنج من هيئة الزي وإظهار يسار الحال من غير تباه بذلك.
هذا وليس الأرب من إيراد كلمة عبد قيس وما استشهدنا به من كلام شكسبير الموازنة في باب الأخذ والسرقات والتوليد وما يجرى هذا المجرى من تشابه ألوان البيان وخواطره.
وإن كان ذلك مما لا يخرج عن أربنا كل الخروج. ولكنا إذ نحن بمعرض الحديث عن أشكال القصيد أردنا أن نتساءل، هل لناقد أن يعد كلام شكسبير على لسان بولونيوسه هذا قطعة شعر غنائي؟ وظاهر أن الجواب نفي إذ هذه قطعة من مسرحية معروفة.
أفسنخ كلام بولونيوس هذا من حيث هو نصيحة وخطاب حكيم مختلف عن سنخ كلام عبد قيس، وما استشهدنا به من كلام صالح بن عبد القدوس وأبي الطيب؟ فلماذا يعد كلام هؤلاء غنائيا؟
الفرق في طريقة التناول. الشاعر العربي مكافحنا لا يحجبه حجاب.
وقد وضحنا القول وفصلناه من قبل أن هذه المكافحة ليست بالغناء (بمعناه النقدي الاصطلاحى الافرنجي) ولا ينبغي لها أن يلتبس أمرها بأمره. الأديب الأفرنجي والرومي واليوناني من قبل كل أولئك يستتر مستترهم وراء المسرحية ووراء الملحمة فلا يكافح مكافحة صارحة وقولهم غنائي (ليريك بالمعنى الاصطلاحي) لايعنون به الغناء والترنم وما هو من هذا الباب من الموسيقا. فهذا أبدا ملازم للشعر. وقد كانت مسرحيات يونان فيما ذكر تصحبها الموسيقا والغناء. ومسرحيات شكسبير فيها الخطب والأسجاع والمرسل المزدوج والقطع الرنانة الوزن من الأغاني. الشعر ـ كما قال سيبويه ـ وضع

للغنـاء والترنم. وهـو كما قال الفـارابي رئيس الهيئـة الموسيقيـة. من أجل ذلك الشعـر موزون. والقافية عندنا من الوزن طرف.
والإيقـاع والبيـان وضروب الأشكـال كل ذلك مـذاهب وأداء واللـه أعلم وهـو الموفق للصواب.
أسلوب المقالة: تمهيد» أولا:ـ
نبه الـدكتور طـه حسين رحمه الله في «من حـديث الشعـر والنثر» إلى أثـر الشعراء على الكتاب. كما قـد نبه على أثـر أساليب الشعـراء من قبل على أساليب الكتـاب، حتى صارت كثير من الأغراض التي إنما كانت للشعر يتنـاولها الكتاب. وقد عرضنا لجوانب من هذا كله في معرض الحديث عن الرومى.
وقد ذكرنا أن ابن الرومي قـد اتبع في الذي صنعه مذاهب أبي تمام كما اتبع أساليب أهل ضروب البيان من كتـاب وخطباء من قبل. وقـد ذكروا أن بشارا أبـا المحدثين قـد كان خطيبا متكلما كما قد كان شاعرا وراجزا.
والقـارىء أصلحه اللـه يذكـر مـا قلنا عن أطـوار قصيـدة المدح وما أشبههـا كيف لما كسدت أخـذ الشعراء في مسالك من النظم كالمقـامات والألغاز والأوصاف البـديعية الزخـارف، حتى نهضت قصييدة المدح النبوي فكـانت هي سيدة مجال الشعـر ـ إلى أن أحدقت بنا غوائل العصر الحديث من تفوق أروبا الحربي واستعمارها.
ثم جاء رواد النهضة فانعرجوا بما أفـادوه من أوزان المدائح النبوية إلى نظم جديد نظروا فيه إلى أحوال دنياهم، وجعلوا له نماذج من الشعـر القديم يجرونها على أساليب بلاغته وبيـانـه. وكـان أبـو الطيب المتنبى رأس مـا حـذوا عليـه أولا ذلك ظـاهـر في شعـر الطهطاوى. ثم صير من بعـد إلى الحذو على غيره: أبي تمام، وأبي عبادة والقـدماء من اسلاميين وجاهليين:
كانت المعلقات حينا من الدهر لا تدرس ولا تحفظ لأنها شعر يحرك القلوب ولكن لأنها من متون العلوم، شأنها في ذلك شأن ألفية ابن مـالك من حيث رفعة المنزلة العلمية. وقد ألحقت البردة والهمزية وبانت سعـاد بهذا الضرب من الرفعة أيضا. إلا أن ثلاثتهن كان لهن مع ذلك حظ تغني المداح بهن والذاكرين، فكن بهذا في باب ما يراد له الشعر من تحريك القلوب أدخل.

كانت ديبـاجة الشعـراء الذين انحـرفوا بـالفصيح الموزون المقفي من طريقـه في المدحة النبويـة الى طريق دنيوي، أول الأمـر ضعيفة، ثم جعلت تـداخلها المتانـة. وكان من أسباب ذلك النظر المتذوق للشعر القديم. وقد سبق أن ذكرنا ما كان للشناقيط العلماء

خاصة من تأثير في هذا الباب .
ثم جاء محمود سامي البارودي .
ولا ريب أنه أصاب ملكة الإيقاع والـوزن من المديح النبوي . ولكنه عكف علي الشعر القديم عكوف محب . وأتيح لـه من درس أساليب الجزالة ومن مختار بلاغـات العربية حظ عظيم . ومختاراتـه تشهد بسعة اطـلاعه وجودة نقده الشعـر وتذوقه لـه . وقصيدة البارودي شكلها وديباجتها كل ذلك عربي نقي أصيل .
بردة البـارودي التي جاري بها البوصيري ليست من جيـاده . ومن عجب الأمر لم تكن للبوصيري ، وهـو في الشعر قمـة ، جياد في مـا نظمه للـدنيا . فانظـر كيف دار تأريخ الأدب دورة كان نـاطقها عهـد انتصار الإسـلام على الصليبيين من لا يجيـد حقا إلا في مدح الـرسول عليه الصـلاة والسلام والدفاع عن الإسـلام ، وكان ناطقهـا عهد تغلب خلفاء الصليبيين على أبناء المسلمين من لا يجيد حقا في هذا الباب ، ولكن في القريض الـذي يجيش من قلب كقلب أبي الطيب ولسـان من معـادن النـابغـة وزهير وأمـرىء القيس .

البارودى سيـد "الرومـانسية الحديثة" في الشعـر العربي . الـرومانسيـة اصطلاح أدبي عصري أخـذنـاه من الافـرنج . ومعنـاه الـوجـدانية أو وجـدانيـة الاسلـوب . وصـدق "برتـراندرسل" إذ زعم أن كل الشعر الجيد لا بـد فيه من "الرومانسيـة" إذ كل الشعر الجيد قلبى الجوهر وجدانيـه . غير أن الوجدانية الاصطلاحية ــ التي هي الرومانسية ـ يدخل فيها مع الوجدان نوع من التكلف لـه والغلو فيه والتواجد به . البارودى من كل ذلك برىء .

قـال الدكتـور محمـد صبري السوربـوني رحمه اللـه في كتاب لـه اسمـه «أدب وتأريخ» (مطبعة دار الكتب المصريـة بالقاهرة ــ الطبعة الثانية ــ سنة ١٩٢٧ ص ١٩) : «نشأ البارودي في بيت مجد مؤثل ، هو ابن حسن بك حسني الذي كان من أمراء المدفعية ثم صار مديـراً لدنقلة وبربـر على عهد محمد علي باشا ، ابـن عبدالله بك الجركسي ينتهي نسبه الى المقـام السيفي نوروز الأتابكي أخـي برسباي قـرا المحمدي . والترك والجركس هم آخـر طبقة مـن الغربـاء وفـدوا الى مصر واتخذوها وطنـا وتـوالـدوا فيها فأصبحـوا «مولدين» ـ روى صاحب الهلال أن البارودي كـان شديد الحرص على معرفة نسبه وأنه

بذل نحو ٣٠٠٠ جنيه في سبيل البحث عنه في أنحاء القطر ومراجعة النصوص وغير ذلك. ولد صاحب الترجمة بسراي باب الخلق لثلاث بقين من رجب سنة ١٢٥٥ هجرية وفي سنة ١٢٦٢. توفي والده بناحية دنقلة وكان عمره اذ ذاك سبع سنين وفي ذلك يقول لما ناهز العشرين:

لا فارس اليوم يحمي السرح بالوادي ... طاح الردى بشهاب الحرب والنادي
مات الذي ترهب الأقران صولته ... ويتقي بأسه الضرغامة العادي
مضى وخلفني في سن سابعة ... لا يرهب الخصم إبراقي وإرعادي
فإن أكن عشت فردا بين آصرتي ... فهأنا اليوم فرد بين أنداد

هذا الشعر كما تراه متين محكم النسج نظمه في سن صغيرة، فما سر هذه القوة التي تجلت قبل الأوان في عصر مقفر من الشعر الجيد؟ أهو في تربيته القومية أم في طبعه واستعداده.

شرع محمود سامي في سن الثامنة يتلقى مبادىء العلم على اساتذة كانت تحضر في منزله ودخل سنة ١٢٦٧ هـ أي في سن الثانية عشرة مدارس الحربية وتخرج منها برتبة باشجاويش سنة ١٢٧١ في أوائل تولية سعيد باشا، وكان عمره اذ ذاك ست عشرة سنة ويقال انه كان يتعاطى صناعة الشعر في أثناء دراسته. أما تربيته الأدبية فإليك ما قاله عنه الشيخ حسين المرصفي في الوسيلة الأدبية وكان من أعرف الناس به: «محمود سامي البارودي» لم يقرأ كتابا في فن من فنون العربية غير أنه لما بلغ سن التعقل وجد في طبعه ميلا إلى قراءة الشعر وعمله فكان يستمع بعض من له دراسة وهو يقرأ بعض الدواوين أو يقرأ وهو بحضرته حتى تصور في برهة يسيرة هيئات التراكيب العربية فصار يقرأ ولا يكاد يلحن... ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حفظ الكثير منها دون كلفة واستثبت جميع معانيها ناقدا شريفها من خسيسها ثم جاء من صنعة الشعر اللائق بالأمراء.»١. هـ قال ابو العلاء المعري في رسالة الغفران بمعرض الحديث عن بيت لبيد:

تراك أمكنة إذا لم أرضها ... أو يرتبط بعض النفوس حمامها

على لسان ابن القارح يسأل لبيدا: «هل أردت ببعض معنى كل؟ فيقول لبيد: كلا إنما أردت نفسي. وهذا كما تقول للرجل إذا ذهب مالك أعطاك بعض الناس مالا وأنت تعني نفسك في الحقيقة وظاهر الكلام واقع على كل إنسان وعلى كل فرقة تكون

بعضا من الناس. » (ص ٢١٦ من تحقيق ابنة الشاطىء، مصر، دار المعارف ١٩٥٢م).

مقال المرصفي الذي نقله السوربوني[1] رحمهما الله فيه «بعض من له دراسة» وما أرى المرصفي أراد غير نفسه. ولنعم كان حظه من التوجيه إن كان صاحب الوسيلة قد تولى جانبا من ذلك من أمره.

قال السوربوني (ص ٢٢ من أدب وتاريخ): لم يكن عصره يساعد على تكوين ملكة البلاغة لأن حامل لواء الشعر إذ ذاك محمود صفوت الساعاتي الذي أعقب الدرويش، حدثني المرحوم حفني بك ناصف مرة أن أجود قصيدة نظمت في عهد محمد علي هي القصيدة التي مطلعها:

يا آل طه عليكم حملتي حسبت إن الضعيف على الأجواد محمول

والتي ما زال إلى اليوم بعض سكان الريف يحفظونها، وكان الليثي والنجاري والأبياري والنديم ورفاعة وأبو النصر وغيرهم من معاصري الساعاتي مولعين بالبديع محتذين مثل البهاء زهير وابن خفاجة وغيرهما من المتأخرين الذين ليسوا من حلبة هذا الميدان. أما فيما يتعلق بالوراثة فقد قال البارودي:

أنا في الشعر عريق لم أرثه عن كلاله
كان إبراهيم خالي فيه مشهور المقاله
وسما جدي علي يطلب النجم فناله

لا أظن أن خال البارودي كان شاعرا يمتاز عن أهل عصره، ولكن لعل البارودي وجد فيه مشجعا على قول الشعر كما وجد في المعالي التي يفخر بها، وفي معاهد العز والشباب التي درج فيها. ولكن هذا لا يكفي لأن يبرز شاعر غض الإهاب على معاصريه ثم يجري على غاربه حتى يلحق بفحول المتقدمين قبل أن يطوي برد الشباب. إذن كان سر قوة هذا الشاعر في طبعه، وكانت في قرارة نفسه عين كامنة ما

---

(١) ليست «السوربوني» في نص نسبة الكتاب إلى مؤلفه ولكن بعد اسمه «الحائز لدكتوراه الدولة في الآداب مع الشرف من السوربون، استاذ التاريخ الحديث بدار العلوم «ا. هـ». قلت لقيته رحمه الله باسكندرية في مؤتمر ذكرى حافظ إبراهيم سنة ١٩٥٧ في شهر يوليه وتحدثت إليه رحمه الله كثيرا وكان مما يقال له السوربوني.

ورأيتها في بعض ما كتب أظنه الشوامخ وخبرني الدكتور مكي شبيكة رحمه الله وكان له معاصرا أن هذه النسبة كانت تعجبه كما كان يقال لأهل العلم الأزهري مثلا ولقد كان رحمه الله، عظيم الحيوية، طيب الحديث حقّ مفيدٍ به. ولقد كان لقائية كَسْباً ومن نعم الله التي لا تكفر. رحمه الله الرحمة الواسعة.

لبثت أن وجدت منفذا ضئيلا فتفجرت بالسحر الحلال ولم ينضب، روى الأستاذ خليل مطران في فصل رائع: «لقد تسامحت يوما بدالة الود فسألته أية حال من أحوال حياتك كنت فيها أميل إلى الشعر وأكثر اشتغالا به، فأجابني أن خطرات الشعر صحبتني في أيامي كلها ولم تفارقني إلا في أقلها. ». ا. هـ.

قلت، ليت شعري هل حسب مطران البارودي صناعا مثله؟ وإذن لكان أجابه، آخذا من كلام ابن قتيبة، يوم شرب الدواء، ويوم المنفى. وصدق مطران لقد تسامح بأيما دالة حين سأله. وصدق البارودي في الجواب، وكان صدوقا.

قولهم البارودي نسبة إلى محلة بمصر يقال لها إيتاي البارود «إحدى بلاد مديرية البحيرة، ذلك أن أحد أجداده الأمير مرادا البارودي بن يوسف شاويش كان ملتزما لها، وكان كل ملتزم ينسب في ذلك العهد إلى التزامه» ـ كما في مقدمة ديوانه بقلم محمد حسين هيكل باشا (طبعة دار المعارف ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ م ص٦).

بلغني أن كتابا صدر رسالة في إحدى جامعات مصر، عن نشأة البارودي فلعله يضيء لنا بعض السبيل عن أوائل تعليمه، فإن في النفس شيئا من أن يكون بدأ التعلم بعد موت أبيه كما هو أول ما يتبادر من ظاهر ترجمة السوربوني رحمه الله له. وكما في مقدمة الديوان (ص٦) حيث قال: «مات أبوه بدنقلة وهو في السابعة من عمره فكفله بعض أهله وضموه إليهم وقد تلقى في بيتهم دراسته الأولى من الثامنة إلى الثانية عشرة من عمره ثم التحق بالمدرسة الحربية ا. هـ» ـ قلت بعيد جدا أن يكون أبوه وهو مدير دنقلة وبربر ومن بيت فضل وسراوة عريق أن يغفل عن قرآن ابنه في السن التي يؤخذ فيها الصغار بذلك. لعلهم حين يبلغون السابعة ـ وذلك حين يؤمرون بالصلاة ويضربون عليها ـ يكونون قد حفظوا من المفصل قدرا صالحا. وقد كانت في دنقلة وبربر خلاوي (أي كتاتيب) قرآن.

وكان في بربر فقهاء على المذهب الشافعي وهو مذهب أهل مصر الغالب، وقرأة لهم علم بالتجويد من طريق الشاطبية وغيرها. فما يبعد أن يكون أبوه وقد كان حاكما قادرا على ذلك، يستقدم منهم إلى داره، أو يبعث بابنه إلى بعضهم في الخلوة مع خادم

بحرسه . وهذا الوجه أقرب وأشبه ببداوة أحوال تلك البلاد وذلك الزمان . مهما يكن من الأمر، فإنه بعيد كل البعد أن يكون أبواه أهملاه لا يقرأ ولا يكتب حتى السابعة .
ورواية السوربوني التي روى عن حفني ناصف رحمة الله عليهما تفيد مثل ما قدمناه من غلبة المديح النبوي على الشعر إذ واضح أن :

يا آل طه عليكم حملتي حسبت إن الضعيف على الأجواد محمول

مدحة نبوية على روي بانت سعاد وبحرها .
ومجاراة البارودي للبردة منبئة بسماعه لها، ويكون ذلك منذ أيام الصبا إذ كانت هي المدحة الكبرى المعروفة في جميع آفاق الإسلام .
وبردته كما قدمنا دون شعره . وله جيمية نبوية يشوب نصوع الديباجة فيها شوائب تكدره شيئا من أساليب الشعر التي لاتلائم روحانية التعبد والتوسل . وهذا ما حذرت منه الباعونية رحمها الله . ونظم البارودي المديح النبوي منبيء عن تأثره به في زمان باكر.
أول الجيمية التي أشرنا إليها :

يا صارم اللحظ من أغراك بالمهج حتى فتكت بها ظلما بلا حرج

ومما قال في نسيبها :

أبيت أرعى نجوم الليل في ظلم يخشى الضلالة فيها كل مدلج
كأن أنجمه والجو معتكر غيد بأخبية ينظرن من فرج

وهذا مما يقع تحت طائلة نقد الباعونية .
ثم هذا كأن قد ابتعد كل البعد عن القصد بمقدمته إلى المديح النبوي إذ أخذ في بعض مسلك هيام صناعة الشعراء :

ليل غياهبه حيرى وأنجمه حسرى وساعاته في الطول كالحجج
كأنما الصبح خاف الليل حين رأى ظلماءه ذات أسداد فلم يلج

وهذا يذكر ببعض أضرب تعب المتنبي - وما أشبه أن يكون نظر في قوله كأنما الصبح إلخ إلى قول أبي الطيب كأن الصبح يطردها وليس مما تعب أبوالطيب فيه - ولكن من أمثلة تعبه رحمه الله :

فليت من لامني لانت شكيمته فكف عني فضول المنطق السمج

مـا أحسب البـارودي كـان يقـدم على استعمال «السمج» لـولا مـا آنسـه بها أبـوتمام في قوله: «سماجة غنيت البيت» ونحو ذلك.

يظـن بي سفهـــــا أني على سرف ولايكــاد يــرى مـا فيــه مـن عــوج
فـاعـدل عن اللـوم إن كنت امـرأ فطنـا فــاللـــوم في الحب معــدود من الهوج

في قوله «الهوج» عناء ما. وقد اتبع سبيل النواسي حيث قال:

لاتحظر العفو إن كنت امرأ حرجا فإن حظركه بالدين إزراء

ثم صار إلى خروج المدح النبوي.

هيهـــات يسلك لـــوم العـــاذلين إلى قلب بحـب رســـول اللـــه ممتـــزج
هـــو النبي الــذي لـــولا هـــدايتـــه لكـــان أعلم من في الأرض كـــالهمج

وهذا مأخوذ من قول البوصيري ومحذو عليه، أعني قوله:

هو الحبيب الـذي ترجى شفـاعته لكل هـــول من الأهـــوال مقتحم

ولا يعجبني قوله «كـالهمج» ههنا على استقامة معناه ــ ولا عجز البيت بأسره. تأمله:

لكان أعلم من في الأرض كالهمج

تجده منخفض الدرجة عن الديباجة العالية. وأتى البارودي من متابعة بيت البوصيرى المتقدم، وعجز ذلك قوي الارتباط بصدره. وعجز بيت البارودي كأنه تعليق منفصم. وهذا يجعل نفسا من أنفاس الكلام العامي يوشك أن يخالطه. فذلك مما يكون قد قصر به. ثم يقول رحمه الله:

أنـا الـذي بت من وجد بـروضتـه أحن شـوقــا كطير البـانـة الهزج

قوله «أنـا الذي» من أبي الطيب، وهو ظاهـر. وقوله كطير البانـة الهزج هل عنى به أنه كان يتغنى وهـو ينظم من هذه الجيمية وينشد كإنشـاد مدائح الرسول صلى اللـه عليه وسلم؟

وياليت شعري إذ يشتاق البارودي إلى الروضة الشريفة ها هنا ويحن، هل كان في صباه الأول ابن ست سمع بـدنقـلا أو ببربر أو بسـواكن إذ يصحب أبـاه فقراء تلك البـلاد ينشدون المدائح مما كان قد ازدهر ازدهارا وخاصة في هذه الأقاليم التي ذكرنا هل سمع مثلا:

لقد طال شوقي يا أميني لطيبة ... أشخصها طورا وطورا أناظر
تذكرت يا خلي ليالي مبيتنا ... بمسجدها والقوم باك وذاكر
تهيج شوقي قبة النور وهي في ... ضياء له العافون شاموا وسامر
وإن لها نورا إلى العرش ساطعا ... تشاهده أبصارنا والبصائر

صاحب هذه القصيدة توفى قبل مولد البارودي بسبع سنين أو نحوها وكان صيته قد طبق الآفاق ومدائحه تنشد في الاقاليم التي ذكرنا وكثير غيرها، وكان قد صنع للبجاة بناحية سواكن مدائح بالعربية السهلة على أنغامها في صيد السمك فكانوا ينشدونها، وأخذت عنهم فكانت بلا ريب تنشد في نواحي بربر. والله تعالى أعلم.

كان البارودي مثقفا بثقافة الضباط، وكانت من أعلى ضروب الثقافة الحديثة التي يحصل عليها في ذلك الزمان. ومع الثقافة الحربية كانت الممارسة وأنه من طبقة الجاه والرياسة. ثم مع ذلك سعة الاطلاع والعلم بالعربية القليل النظير. ثم ما من الله عليه من تفتح آفاق النفس بتجارب السفر ـ فرأى مع بلاد الإسلام بلاد الكفر أيضا وقد صحب اسمعيل باشا الخديوى الطموح وزار اصطمبول وفرنسة وانجلترا وخاض غمار السياسة وتولى أعباء الوزارة. ثم مع هذا كله وفوقه كان شاعرا. شاعرا فارسا كربيعة بن مكدم وكعنترة بن شداد وكعامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث بن شهاب وامرىء القيس وطفيل الغنوي وعمرو بن كلثوم جميعا، أم ليس هو القائل:

ولقد هبطت الغيث يلمع نوره ... في كل وضاح الأسرة أغيد
تجري به الآرام بين مناهل ... طابت مواردها وظل أبرد
بمضمر أرن كأن سراته ... بعد الحميم سبيكة من عسجد

هذا من قول طفيل:

وكمتا مدماة كأن متونها ... جرى فوقها واستشعرت لون مذهب

وأحسبه قد مر مع الكلمة التي هو منها في باب الأوصاف.

خلصت له اليمنى وعم ثلاثة ... منه البياض إلى وظيف أجرد
وكأنما انتزع الأصيل رداءه ... سلبا وخاض من الضحى في مورد

هذا كقول الكلحبة ويروى بعضه لسلمة بن الخرشب وكلاهما مفضلي:

تسائلني بنو جشم بن بكر ... أغراء العرادة أم بهيم
هي الفرس التي كرت عليهم ... عليها الشيخ كالأسد الكليم

أي هو الكليم أو نعت رد على الشيخ ولا إقواء

إذا تمضيهم عــــــادت عليهم ... وقيـدهـــا الــرمـــاح فما تـــريم
تعـــادى من قـــوائمهـــا ثـــلاث ... بتحجيـل وقــــائمـــــة بهيم
كميـت غير محلفــــــة ولكـن ... كلــــون الصرف عل بـــــه الأديم

وقد تصرف البـارودي فجعل الأصيل ومورد الضحى مكان«غير محلفـة إلخ» ونظر من طرف خفي إلى قول أبي الطيب«كأنه من الليل باق إلخ بيت البائية»

زجل يــردد في اللهـــاة صهيلــه ... رفعــا كــزمـزمـة الحبي المرعــد

هذا عجزه من بيت كعب:

من سره ضرب يمعمـع بعضــــه ... بعضـا كمعمعـة الأبـاء المحـرق

ومـا خلا أولـه من وحي من بيت طفيل: «وإن يلق كلب بين لحييه يـذهـب» وقد تـرى ذكره اللهاة، فما بدت لهاته إلا لشحوه فاه، فهذا قول طفيل.

متلفتـــــا عن جــــانبيـــــه يهزه ... مــرح الصبـــا كـــالشـــارب المتغـــرد
فإذا ثنيـت لـــه العنـــان وجـــدتـــه ... يمطـــو كسيـــد الـــردهـــة المتـــورد

يشير إلى قول طرفة وليس هذا بأخذ ولا توليد ولا سرقة ولكن تلذذ وترنم

وإذا أطعت لــــه العنـــان رأيتـــه ... يطـوى المهامـه فـدفـدا في فـدفـد
يكفيـك منـــــــه إذا أحـس بنبأة ... شـــــد كمعمعـــة الأبـــاء الموقـــد

يشير إلى بيت كعب والأخذ في الحذو الذي أشرنا إليه من قبل لا هنا.

صلب السنـــابـك لايمــــر بجلمـــد ... في الشـــد إلا رض فيـــه بجلمــــد
نعم العتـــــاد إذا الشفــــاه تقلصت ... يــوم الكـــريهة في العجـاج الأربـــد

هذا يشير به إلى قول عنترة «إذ تقلص الشفتان البيت»

ولقـد شربت الخمر بين غطـارف ... شم المعـاطس كـالغصـون الميـد

هنا نغم عنترة وإيقاعه وإشارة إليه. رنة هذا البيت مثل رنة بيت عنترة:

ولقد شهـدت الخيل يوم طـرادها ... بسليم أوظفـــة القـــوائم هيكل

وأوله كأول قولـه «ولقد شربت من المدامة البيت» ـ وفى أبيـات البارودى من قبل «ولقد شهـدت الحرب في إبانها». وسـائر البيت من قـول حسـان: «شم الأنوف من الطـراز الأول».

يتــلاعبــون على الكئــوس إذا جــرت لعبــا يــروح الجد فيــه ويغتــدى
لا ينطقـــون بغير مـــا أمـــر الهوى فكـلامهـم كـالـروض مصقـول نـدى
مـن كل وضـــاح الجبين كأنـــه قمـــر تـــوسط جنـح ليل أســـود

هنا شريجان مـن أدب كئوس ضباط الحربيـة العصرية الأوروبيـة بعض السمت، ومن أدب «وإذا شربت» و «إذا صحوت» «وفتيـة كسيوف الهند» ذلك قـد يستفاد من قوله: "يروح الجد فيه ويغتدى" . وفى قوله , «لا ينطقون» رنة من إيقاع «لا يستفيقون منها وهى راهنة». وقوله: «ما أمـر الهوى» يوقف عنده شيئا: أكان في المجلس نساء أم هي أنفاس نواسية أم معاذ الله ـ بل لا يعدو أن يكون أراد الغناء من عود ونحوه، فهذا الذى يأمـر به الهوى في مثل هـذا المجلس. وقولـه «من كل وضاح» بحتري الصيـاغة والرنة ـ قال أبو عبادة:

وتـراه في ظلـم الـوغى فتخـالـه قمـرا يغير على الـرجـال بكـوكب

ثم صـار بعد مجلس الشراب إلى ذكـر مغـامرة الغـرام. والقصيدة شبـه مخصرة. بدأها بخلط ذكر الهم بالرحيل من الأحباب وشكوى الصبابة وهو قوله:

ظن الظنـــون فبـــات غير مـــوســـد حيران يكـــلأ مستنير الفـــرقـــد
تلـــوي بـــه الـــذكـــرات حتى إنـــه ليظـل ملقى بين أيـــدى العـــود
طـــورا يهم بـأن يـــزل بنفســـه سرفـــا وتـــارات يميل على اليـــد
وكـأنما افترست بطـــائر حلمـــه مشمـــولـــة أو ســـاغ سم الأســـود
قـــالـــوا غـــدا يـــوم الـــرحيل ومن هم خـــوف التفـــرق أن أعيـش الى غـــد
هي بهجـــة ذهب الهوى بشغـــافهـــا معمـــــودة إن لم تمت فكـأن قـــد

هنا تروض الملكة القوية سبيل فض مكنون قلب الشاعر إلى ما يرومه من أغراض البيان الجهير على نمط القصيدة العربية الأصيلة ــ هنا النابغة، تحس صدى إيقاعه في «غير موسد» «أيدى العود» «يميل على اليد» «غدا يوم الرحيل» ـ وتحس عنترة في «طورا يهم» [تذكـر طورا يجرد للطعـان] ـ وتحس نغم الحماسى في «وكأنما افترست» ذلـك قول سلمى بن ربيعة

وكأن في العينين حب قــــرنفل　　أو سنبــلا كحلت بــه فــانهلت

وقوله: "وكأن قد"، نابغى. والمطلع كله بعضه نابغي وبعضه كالأسود بن يعفر ثم إذ مهد سبيل النسيب صار إليه:

يـأهل ذا البيت الــــرفيع منــاره　　أدعــوكم يـا قــوم دعــوة مقصـد
إنى فقـــدت اليـــوم بين بيـــوتكم　　عقلى فـــــردوه على لأهتـــــدى
أو فـــاستقيـــدونى ببعـض قيـــانكم　　حتـى تـــرد إلى نفسـى أو تـــدى

قـول البـارودى "يأهل ذا البيت" يشعـرنا أنـه بإزاء الـوداع. ولا سبيل إليـه إلا بحديث العيون:ـ

بل يا أخا السيـف الطويل نجاده　　إن أنت لم تحم النــزيـل فأغمـد

جعل نفسه ضيفا على حي المحبوبة ولكن فارس الحى لا يستطيع حمايته من فتك عيون حسانه، وها هم هؤلاء قد أجمعوا أمرهم للرحيل وارتهنوا فؤاده عندهن.

هـــذى لحاظ الغيـــد بين شعـــابكم　　فتكت بنــــا خلســـا بغير مهنـــد
من كل نـــاعمــة الصبـــا بـــدويـــة　　ريـــا الشبـــاب سليمـــة المتجـــرد

ما أرى إلا أن هاهنا خطأ في الطبع أو قراءة من قرأ من خط البارودي، وما أشبه أن يكون عجز البيت «ريـا الشباب سليبة المتجرد» أى لو قـد سلب متجردها لألفيت ريا الشبـاب. أما سليمـة المتجرد فضعيفة لا تشبـه أسر القصيدة ونغم جـزالتها. فإن تكن هي الصواب، فلرب كبوة من جـواد. وإن تكن هي التي قالها البارودي فما جرتها إليه إلا إشعارة بأنه حضري حيث جعلها بدوية، ثم أتبع ذلك ما عند الحضر من توهم سلامة الجسـم وصحته في البادية ـ والمعنى على هـذا التأويل يسوغ ولكنه يفقـد رنة قوة أسرة. إذ البدوي حقـا هو شاعرنـا لا هذه التي زعمها بـدوية. وسليبة بالبـاء الموحدة التحتية يستقيم بها المعنى ـ وباؤها أشد ملاءمة لما من قبل من الباءات ـ والله أعلم

هيفاء إن خطرت سبت وإذا رنت　　سلبت فــؤاد العــابـد المتشــدد

سلبت هاهنا يقوى ما زعمنا من «سليبة» قبل وتكون حالا منصوبة.

ثم يجىء شيء كالتخصير، أولـه نظر في أمر النسـاء فيه مشابه من مقـال علقمة حيث قال: «فإن تسألـوني بالنساء...»، ثم بعـد ذلك تنويه بفروسيتـه ويكون ذلك كالنطـاق وكالتوشيح يصل بـه إلى تذكر الخيل والشراب والمغـامرة الغراميـة. وفي هذه الدالية بعد، لبـدئها بالليل، ثم جعل بداية الذكريات اغتـداء بالفرس، كالحذو على

نموذج من دالية الأسود بن يعفر «نام الخلي وما أحس رقادي» وقد بينا من قبل أن هذه الدالية تساير المعلقة من عند ذكر الليل إلى نهايتها أو قريب من ذلك. ــ قال البارودي :ـ

يخفضن من أبصارهن تختلا ... للنفس فعل القانتات العبد

«فعل القانتات العبد» يشير إلى قوله تعالى: وقل للمؤمنات» وقوله: يخفضن من أبصارهن» في صياغته ورنة إيقاعه نظر إلى قول الأسود: «ينطقن معروفا وهن نواعم البيت» ينطقن مخفوض الحديث تهامسا»

فإذا أصبن أخا الشباب سلبنه ... ورمين مهجته بطرف أصيد
وإذا لمحن أخا المشيب قلينه ... وسترن ضاحية المحاسن باليد

فهذا ما زعمنا من اتباعه مقال علقمة ـ ثم يجىء حديثه عن نفسه:

فلئن غدوت دريئة لعيونها ... فلقد أفل زعارة المتمرد

الدريئة الهدف وأشار إلى قول قطري:

فلقد أرانى للرماح دريئة ... من عن يمينى مرة وأمامى

وهذه الإشارة صارت به إلى ذكر الحرب:

ولقد شهدت الحرب في إبانها ... ولبئس راعي الحي إن لم أشهد

وقد ذكرنا من قبل أخذ البارودي هنا من إيقاع عنترة وحذا على حذوه حيث قال:

ولقد شهدت الخيل يوم طرادها ... بسليم أوظفة القوائم هيكل
فدعوا نزال فكنت أول نازل ... وعلام أركبه إذا لم أنزل

هذا العجز من بيت عنترة صداه في قول شاعرنا «ولبئس راعي الحي» وفى روى البارودي وبحره وبعض صياغته أصداء من كلمة عامر بن الطفيل

ولتسألن أسماء وهى حفية ... نصحاءها اطردت أم لم أطرد

وأظهر ما في دالية البارودي من أصداء هذه الكلمة العامرية بعد الروي والقافية رنة المضارِع المنفي بلم ـ لم أطرد ـ لم يسند ـ لم يقصد ـ لم توقد. وجاء به البارودي مرتين

في القافية ـ لم أشهد ـ لم ينفد وقارب في قوله : ان لم تحم النزيل فأغمد ». وفي لو لم ينقض». [1]

تتقصف المران في حجراتها ويعود فيها السيف مثل الأدرد

أى ذا فلول

عصفت بها ريح الردى فتدفقت بدم الفوارس كالأتي المزبد
ما زلت أطعن بينها حتى انثنت عن مثل حاشية الرداء المجسد

قوله ما زلت ينظر الى قول عنترة : "مازلت أرميهم بثغرة نحره البيت ـ وهذا آخر ما شبهناه بتخصير المتنبي والقدماء من قبل. ومن بعده ما ذكرنا من أبيات الذكرى، وختم بمغامرة الغرام وبأبيات الحكمة على النحو الذي ختمت به دالية الاسود في رواية من روى :

فإذا وذلك لا مهاه لذكره والدهر يعقب صالحا بفساد

واستهل أبيات المغامرة بنمط جاهلى ثم مضى فيه :

بل رب غانية طرقت خباءها والنجم يطرف عن لواحظ أرمد
قالت وقد نظرت إلى فضحتني فارجع لشأنك فالرجال بمرصد
فخلبتها بالقول حتى رضتها وطويتها طى الحبيرة باليد

أي كما تطوي الثياب الناعمة بيد طاويها ـ أخذ هذا من قول جرير :

" طي التجار بحضرموت برودا "

هذا من حيث ظاهر اللفظ وفي المعنى أنفاس امرىء القيس :

---

١ ـ جعل موقع الضاد حيث وقعت ضربا من التقفية وفي كلام الأخفش ما يسوغ مثل هذا ثم تشبع الضاد للروى على طريقة ما يقع في القواف

هصرت بفودي رأسها فتمايلت   على هضيم الكشح ريـا المخلخل

والمرأة الشابة الجميلة كالمهرة الضامر ـ «طي التجار بحضرموت برودا»

وفي المعنى أيضا انفاس سحيم عبد بني الحسحاس :

" افرجها فرج القباء . . . "

قاتله الله . . . زعموا ان عمر قال له انك مقتول . . . ولعله ما قتله الا الأساطير

مـا زلت أمنعهـا المنام غـوايـة   حتى لقــد بتنـا بليل الأنقــد

يقال بات بليل أنقد وبليل الأنقد أي سـاهرا وانقد كأحمد (علم غير منون مطلق على الجنس) وقد تدخلـه اللام ، هو القنفذ ومـا اشبه عندي أن يكون الشاعـر قد قال «بليلة انقد »كقول الاعشى «الم تغمض عيناك ليلة ارمـدا» لذكره السهر في قوله «امنعها المنام » ــ الاشارة إلى قـول الأعشى موجودة على كل حـال ، " الا ان ليلة انقـدا " اشد شبها وما بدنا جيد قوي فلا ينبغي ان نعدل عنه " وغواية " تنظر الى قول امريء القيس " ومـا ان ارى عنك الغـواية تنجلي» ومـا زلت منهـا في صيـاغته حـذو على " مـازلت أرميهم " . . . بيت عنترة

روعاء تفـزع من عصافير الضحى   تـرفـا وتجزع مـن صيـاح الهدهـد

فترفها على هذا أنها عذراء اذ قد زعم أنها بدوية من قبل

حتى إذا نـم الصبـا وتتـابعت   زيم الكــواكب كـالمهـا المتبـدد

الصبـا يجوز انها ريح الصبـا وهـذا من قـولـه تعـالى : والصبح اذا تنفس . . ومـا استبعـد ان يكون أراد الصبـاح فحذف على مـذهـب الفصحاء كقـول علقمة : «بسبـا الكتان »وقـول لبيد : «درس المنا بمتالع فأبـان »زيم الكواكب ، اي متفرقـاتها والتشبيه بقطيع المها المتبدد من امريء القيس :

فأدبــرن كــالجزع المفصل بينــه   بجيــد على معم في العشيرة مخول

اللاتي ادبرن هن بقر الوحش . وفي اللاميـة قوله : «إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض اثناء الوشاح» وهو وشاح التي في جيدها هذا الطوق . والمعاني تتداعى فمن هنا جاء البارودي بتشبيهه . وقد كان قلب البارودي وخياله مفعما بصور بيان الشعراء ، وما أجاب به سؤال مطران يدل على ذلك .

قالت دخلت وما إخالك بارحا الا وقد أبقيت عار المسند

أي عار الدهر فهذا يدل على أنها عذراء ـ كعذراء امريء القيس وسحيم.

وما عدا البارودي رحمه الله ان أضفي لونا جاهليا على مغامرة مما أتيح على التوهم أو حقا في بعض دار الحرب أو السلم ، وكأن قوله : «متلثما والسيف يلمع في يدي» كناية ورمز :

فمسحتها حتى اطمأن فؤادها فنفيت روعتها برأي محصد
وخرجت اخترق الصفوف الى العدا متلثما والسيف يلمع في يدي
فلنعم ذاك العيش لو لم ينقضي ولنعم هذا العيش لو لم ينفد

برأي محصد تنظر إلى قول عنترة «وأحفزه بأمر مبرم». وقوله«وخرجت إلخ» يخالف ما قال ابن ربيعة ويؤثر مذهب جميل :

اذا ما رأوني طالعا من ثنية يقولون من هذا وقد عرفوني

وقوله «لو لم ينقضي» فيه اشباع كسرة الضاد لشبه التصريع أو هو تصريع على مذهب من قال :

رأى من رفيقيه جفاء وبيعه إذا قام يبتاع القلاص ذميم
خليلي حلا واتركا الرحل إنني بمهلكة والعاقبات تدور
فبيناه يشري رحله قال قائل لمن جمل رخو الملاط نجيب

ذكره الأخفش[القوافي لابي الحسن الاخفش دمشق ١٣٩٠هـ س ٤٧] أو أشبه بقول الآخر [نفسه ٥٢]:

اذا نزلت فاجعلاني وسطا
اني شيخ لا اطيق العندا

لقرب تشابه الحروف . ولعل البارودي لم يقل " لو لم ينقض " ولكن : «لولا ينقضي» وهو اشبه بأسلوبه، وقد يسبق قلم او يقع من طابع خطأ في مثل هذه الأشياء . والله اعلم .

يرجو الفتى في الدهر طول حياته ونعيمه والمرء غير مخلد

هذا كما تقدم محذو على قول الاسود بن يعفر، في رواية من رواه له :ـ

فإذا وذلك لا مهاه لذكره والدهر يعقب صالحا بفساد

وفي أوله نظر إلى كلمة النمر بن تولب :

يـود الفتى طـول السلامـة والبقـا فكيف تـرى طول السلامـة يفعل

جمع البارودي في هـذه الداليـة بين الضابط الحربي ابن الطبقـة العاليـة على زمان افنـدينا الخديـوي وبين الشاب المثقف المتحـرر المتحمس المفعم بروح الثـورة والقوميـة وحـرارتها وبين الفارس الامير المصري الجركسي وبين البطل العـربي الاسطوري المثـالي ،عنترة بن شداد وربيعة بن مكدم وعامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث بن شهاب .
شخصية البارودي من فوق صهوة جواده : جواد ضابط السواري العزيز الطموح وجواد الاسود بن يعفر، جواد الجاهلية ذات الحمية :

بمضمـــر أرن عتيـــد شـــده قيـد السـوابق والرهـان جـواد

وجواد امريء القيس ، جواد الفتوة والملك الضليل والاحلام العراض :

على الذبل جياش كأن اهتزامه اذا جاش فيه حميـه غلي مرجل

شخصية فذة نادرة ، يتجسد فيها كل ما كـانت توهمه الرومانسية في ريعان إبانها من المثل العليـا الشـامخات . شخصية هي جـوهـر الـرومانسيـة التي يـروم الانتماء إلى نموذجهـا "المترمنسون" . فهذا تأويل قـولنا آنفا إن البارودي هـو سيد "الرومـانسية" الحديثة في الشعر العربي وهذا لا يدخله في نطاق ما نطلق عليه الآن اسم "الرومنسية" في الشعر العربي ولكن يخرجه من ذلك إخراجا .
رثى برتـراند رسل في فصله عن الـرومنسية في كتـابه عن تأريخ الفلسفة الغـربية الاوائل شبان الشعراء الرومنسيين الألمانيين من مات منهم صغيرا ومن عمر من بعد .
اذا الضرب الاول قـد اختضر قبل استـوائه ونضجـه والضرب الثـاني قـد زعم ان الـذين اختضروا اسعـد منهم لانهم، اي الضرب الـذي عمـر ، قـد مـاتـوا مـوتـا أكبر باعتنـاقهم الكثلكة على فرط "ترمنس" . وقسـا في ترجمته لفيلسوف الـرومنسية الكبير جان جاك روسو وليس ذلك لعمري بضـائره . وقد كان جسيم الفكر شجاعه على لين وشذوذ في الطباع ، وفي اعترافاته ما يدل على اطلاع على بعض ما في احياء علوم الدين لأبي حامد . ومما يـذكر في هذا الصدد أنه مرت عليه فترة وهـو ضيف أو صديق لدافيد هيوم DAVID HUME الفيلسوف الاسكتلندي صاحب انكار السببيه واصول فلسفته هذه في تهافـت أبي حامد . كما ان اصـولا من النسبيـة في تهافت ابي حامـد ايضا . ودل برتراند رسل اما على جهل أو تجاهل عن تعصب في الفصل القصير له عنه وعن فلسفة المسلمين وناقض نفسـه في كتابته عن روجـر بيكون اذ مـدحه بمعرفتـه علوم المسلمين

. وقل عـالم اوربي يسلـم من روح التعصب العنصري والـديني والإنطـلاق من نقطـة دعوى تسليم الناس له بالتفوق، كالـذي مر من قول نيكلسون بحسب مقاييس الذوق الأوربي بمعرض حديثه عن أبي الطيب وعند القوم أمثالها .

هذا ومن أوائل الشعـراء الرومـانسيين الافرنج وردزورث Wordsworth، وكان أقرب الى نموذج الجنتلمان الانجليـزي، وتأثر بـروسو في حبه الطبيعـة ودعواه التصـوف بها، وله كلمات حسان، وربما أدركه الفتور. وشعره من الضرب الغنائي الذي يصوغه ذا موضوع وفكرة كالمقـالة الإنشائية، ويضمنـه إحساسه الذاتي، ومن أشهـر كلماته في هذا المعنى كلمة له عما تشعر به النفس من معاني الخلود تستمده من ذكريات الطفولة الأولى

(ODE ON INTIMATIONS OF IMMORTALITY FROM RECLLECTIONS OF EARLY CHILDHOOD)

وأحسبها كـان لها على بعض أوائل الرومانسيين العـرب أثر كبير اذ كـانت من مقررات المدارس في مختـارات الأدب الانجليزي . واشترك وردزورث في اول أمـره مع «صمـويل تيلور كلردج» في اصدار الأغـاني الشعبية، ديوان شعر دافعا فيه بما انشأ آ ومـا قدما عن قضيـة التجديـد وكلردج أقـوى اندفـاعا وأحـر أنفاسـا من ورد زورث إلا أنه قـد ابتلى بتخديـر الافيون، فـذهب ذلك بملكة شعره، واشتغل بـالفلسفة والـدين، وله الترجمة الأدبيـة التي تعـد من أمهـات كتـب النقـد الحديث . ومن أشهـر شعـره قصـة الملاح العجوز، وفيهـا نغم جيد وأضغاث أوهام . وقطعـة عنوانها " قبلاى خـان " قيل نظمها دفعة واحدة ثم طرق عليه الباب فـانقطع عنه نفس القطعة عند الموضع الذى اتفق مع بلوغه إياه طرق ذلك الطارق . وقيل نظمهـا تحت تأثير الأفيون وآخرها كأنه مستعار من سـاحـرات شكسبير الثـلاث في مسرحيتـه مـاكبيث . ومن كبـار شعـراء الانجليـز الرومانسيين بعد هذين :

ثلاثـة متقاربو السن، اللوردبيرون (١٧٨٨ــ١٨٢٤م)وكان من سفهاء الطبقة العـالية متوسط الشعر في نظر النقاد الانجليز وشيلي(١٧٩٢ـ١٨٢٤)وكان حاد الذكاء ملحدا في شعـره اندفـاع، واشتهـرت لـه خاصـة بين العـرب كلمتاه عن الطـائر وعن الـريح الغربيـة، وتحمسه ومده بيديـه يعطو ولا ينال من خصائص أسلـوبه التي انتقل بعض طابعها إلى مقلديه . وأصغر الثلاثة سنا ولعله أشعرهم " جون كيتس "(١٧٩٥ـ١٨٢١) وقتله السل وكان طبيبا . وجميع الرومانسيين لآداب الشرق والعربية خاصة أثر بين في ما نظمـوه . وذلك في " كيتس " أشد ظهـورا وقد استهل كلمتـه عن البلبل بمطلع نسيبي الروح وذكر فيـه الخمر وتعتيقها مع تخير دقيق متذوق لحلاوة الألفـاظ، وتعجبني كلمة

له أسطورية الطابع عندي أن بعض أصلها من ألف ليلة وليلة، من طريق مباشر أو غير مباشر وهي التي عنوانها فرنسي

La Belle DAME SANS MERCI

أي «المرأة الحسناء بلا رحمة». وقد بين ماريو براز أن لها أصولا قديمة كثيرة.

وأضع ترجمتها التقريبية بين يدي *القارىء الكريم*، لا لأنها *ترجمة حسنة*، فالشعر مما تعسر ترجمته وقد نبه الجاحظ لذلك. {وأذكر إذ قال الاستاذ غرى GURRY بمعهد التربية بجامعة لندن سنة ١٩٤٦ لأحد الطلبة إذ زعم أنه يستحسن تقديم قطع مبسطة من الشعر الجيد ليتذوق جودتها الصغار: «ولكنك لن تستطيع تبسيط الشعر، هل تستطيع ذلك؟»

But you can't simplify poetry, can you?

فهذا في التبسيط فكيف بالترجمة؟}. ولكنى أضع هذه الترجمة لما تنم به هذه الكلمة خاصة من معاني "الترمنس". ولصاحب كتاب "احتضار الرومانسية" The Romantic Agony "ماريوبراز" MARIO PRAZ فصل كامل هو الرابع من كتابه قدم للفصل بأبيات منها وعنونه بعنوانها وبني تحليل جوانب من زعمه احتضار الرومانسية على معان منها وأصل الكتاب باللغة الطليانية، وترجمه منها إلى الانجليزية بالعنوان الانجليزي الذي ذكرناه "انغس دافدسن" ANGUS DAVIDSON (الطبعة الثانية من طبعة أكسفورد، لندن ونيويورك ١٩٧٠ ص ٢٠٠ـ٣٠٠).

فآمل أن يقع مرادى موقعا من بعض ماعسى أن يفيد:

يـآيها الفارس في الدرع، ما تألم فـذا في شحوب تسير

قد صوح النبت الذي في الغدير
والطير لا يلفى له من هدير

يـآيها الفارس في الدرع ما تألم مهموما كئيب الفؤاد
قد ملأ الغرفة بالغلة السـ ـنجاب وانجاب أوان الحصاد
أرى على حاجبكم زنبقا به ندى الحمى وطل الشجن
وقد أرى في خدكم وردة حالت فما أسرع ما تذبلن
رأيت في الروضة إنسانة كاملة الحسن ومن نسل جن
طويلة الشعر ووحشية الـ ـعينين والخطو خفيفا وزن
ألبستها إكليل غار وسو ورت بأزهار ومنطقتها

ونظـــــــرت لي نظـــــــرات الهوى ثمـت أنت حلـــــــوة صـــــــوتها
حملتهـــا فـــوق جـــوادى بنـــا يخطـــو ولا شيئـــا ســـواهـــا أرى
طـــوال يـــومـي حين مـــالت إلى جنبى وتشـــدو اللحـن من عبقـــرا
ووجـــدت لي من عـــروق شهيـــ ـــات وحلـــوات لـــدى المأكل
والعسـل البري جـــاءت بـــه والمن يغشـــاه نـــدى السلسـل
ثمت قـــالـت بلســان غـــريـــ ـــب إننـي أهـــواك يـــا ويح لى
ثمت صـــارت بي إلى كهفهـــا الـــ ـــمسحور صـــارت بى إلى كهفهـــا
وحـــدقت ثم ومقـــروحـــة الـــ ـــفؤاد بـــالآهـــة من جـــوفهـــا
عنـــدئذ قبلتهـــا أربعـــا أغلقن جفن الـــوحش من طـــرفهـــا
ووســـدتنى ســـاعـــديها وغنـــ ـــت لي إلى أن نمـت في حجـــرهـــا
حلمت في نـــومـي ويـــاحسرة النـــ ـــفس على مـــا كـــان من أمـــرهـــا
آخـــر حلـم كـــان لي ذاك في جـــانب سفـح الجبل البـــارد
آخـــر حلـم أبصرت مقلتـي من بعـــد ذاك السكـــر الخالـــد
ثم ملـــوكـــا شـــاحبي أوجـــه رأيتهـم وأمـــرا مثلهـم
وبشحـــوب كشحـــوب الـــردى فـــرســـان حـــرب أخـــذوا قبلهم
جميعهم قـــالـــوا معـــا إنها الـــ ـــحسنا بـــلا قلب رحيم سبتك
والغـــادة الحسنـــا بـــلا رحمة يـــا ويـح مـــا نفسك قـــد أحـــرزتك
رأيت في ضـــوء المكـــان الضعيف شفـــاههـم فـــالقلب مني أسيف
ضـــورهـــا الجوع ويفغـــرن تلـــ ـــقائى فغـــرا بنـــذيـــر مخيف
صحـــوت والآن أنـــا واجـــدى بجنـب هـــذا الجبـل البـــارد
مـن أجل هـــذا وفـــؤادى كسير وحـــدى ألفى في شحـــوب أسير
من بعـد مـا جف نبـات الغـديـر والطير لا يلفى لـــه من هـــديـــر

وإليك النص الانجليزى لتصحح به ما قد يكون مما اضطربت به الترجمة :

What can ail thee knight - at - arms,
Alone and palely loitering?
The sedge is wither'd from the lake,
And no birds sing
What can ail thee knight - at -arms,
So haggard and woe-begone?

The squirrel's granry is full,
And the harvest's done
I see a lily on they brow
With anguish moist and fever dew;
And on they cheek a fading rose
Fast withereth too.
I met a lady in the meads,
Full beautiful - afaery's child
Her hair was long, her foot was light,
And her eyes were wild
I made a garland for her head,
And bracelets too and fragrant zone
She look'd at me as she did love,
And made a sweet moan
I set her on my pacing steed,
And nothing else saw all day long,
For side ways would she lean, and sing
A faery's Song
She found me roots of relish sweet,
And honey wild, and mana dew;
And sure in language strange she said I love thee true
She took me in her elfin grot,
And there she gazed and sighed full sore,
And there I shut her wild wild eyes
With kisses four.
And there she lulled me asleep,
And there I dream'd-ah! woe betide!
The latest dream I ever dream'd
On the cold hill side.
I saw pale kings and princes too,
Pale warriors, death-pale were they all;
They cried – "la Belle Dame sans merci
Thee hath in thrall!"
I saw their starv'd lips in the gloam,
With horrid warning gaped wide,
And I awoke, and found me here,
On the cold hill side.

And this is why I sojourn here,
Alone and palely loitering,
Though the sedge is wither'd from the lake
And no birds sing.

" الترمنس " الكنين في هـذه القطعة هـو هـذا العشق المسحـور، وهذه الحسنـاء القتول التي تشرب دماء معشوقيها .

كـانت " رومنسية " فـرنسة الكبيرة هي ثـورتها . وأبطـالها المثاليـون أولو الطمـوح والدمـوية المرعبة : ميرابـو ـ دانتـون ـ مارا ـــ روبسبير ـ ثم نـابليون ، الذي أعـاد ذكرى الاسكندر ,وهنيبعل وقيصر وتيمورلنك ، وفتح بـاب هول أوربا وحروب دمـارها وتفوق استعمارها وهلم جـرا فتحا كما لم يتح لـه من قبل ـ وخاصـة بتوجيهـه الأنظار إلى مصر والشام كما عهدت أوربا أيام الحروب الصليبية . وقد كان من أوائل الرومنسية الأدبية في فرنسة ، مدام دي شتايل وأبوها كان وزير لويس السادس عشر قتيل الثورة وكانت امرأة قـوية الشخصيـة (١٧٦٦ ـ ١٨١٧) دميمـة ومع ذلك ذات فتنة . ومن مقـالاتها : «إن النواوير ومجاري الأنهار كانت ذات كفاية للشعراء غير المسيحيين . أما قلوب المسيحيين فإن لا أبدية ولا نهائية أرواحها تقصر عن مـدى التعبير عنها البحار التي لا ساحل لها والسماوات الملأى بـالنجـوم والغابـات العظيمـة الـوحشـة . » فتأمل هـذه الأصل من مسيحية الرومنسية ووثنيتها معا . وقالوا إن بنيامين كونستان B. Constant(١٧٦٧ ـ ١٨٣٠) ، السويسري ، صاحب قصة " أدلف " [١]، كان لها خليـلا . وقصته هـذه تعد من أوائل «الترمنس» الفـرنسي ، وعليها حـذا دوماس غادتـه التي مثلتهـا في زماننـا نجمة السينما غريتـا غاربـو وصاحب غـادة الكاميليـا أجود عشقـا من أدولف ، الذي كأنما رمـز به المؤلف إلى نفســه إذ ســلا حب مـدام دي شتـايل ، وجعل صـاحبـة أدلف تموت من حبه ، كما مـاتت ليلى من حب قيس . وقد كانت الـرومنسية الفرنسيـة في الأدب أحدث عهدا ، وداخلهـا فتور مـا بعد الثـورة ، وروح ثورات مـا بعد الثـورة ـ الثـورة الصناعيـة مثـلا . ومن أشهـــر أدبـاء فـرنسـة وشعـــرائهـا الـرومنسيين " الفـريـــددى مـوسيـه "

---

(١) أدولف هو فتى عشق امرأة أسـن منه لا حبا لها ولكن زهوا منه ليـزعم لنفسه أنه عاشق معشق وقـالوا إن القصة كأنها ترجمة ذاتية عرض فيها بغرامياته وضروب من ضعفه .

" ولامرتين " . وقد تأثر أدباء النهضة وروادها الأولون بعد البارودي وقبله، في مصر والشام وغيرهما، أول شيء بالثقافة الفرنسية ثم من بعد بالانجليزية وغيرها من آداب أوربا .

أما البارودي فقد كان صاحب سيف ورجل دولة ونضال . كان تأثره بأوربا محصورا في الجانب العلمي الحربي والسياسي . ولكن الجانب الأدبي لم يفتنه . كان له عنه شغل شاغل بما فتنه وملك عليه جوانب قلبه من أشعار العرب . حتى نثره المسجوع بالنسبة لبعض ما لا نقول به من بعض الأقاويل المعاصرة، ينبغي أن يكون هو ضربا من الشعر. شخصيته التي نعتناها بأنها في الرومنسية ذروة، هي حقا أصل في ذاتها، من نوع تلك البطولات المثالية التي كانت تعطو إليها رومنسية شعراء أوروبا الأولى وأدبائها، بأحلامها ونماذج صناعتها وإلهامها . البارودي بأنه أصل ومثل، لافرع ضعيف ولا حذو على مثال، ذلك مخرجه من زمرة الرومنسية الحديثة إخراجا .

قصيدة البارودي لا ملحمية ولا مسرحية ولا غنائية هي عربية صلته صوت مكافح جهير، كصوت زهير وجرير وأبي تمام وأبي الطيب . الدالية التي أوردناها منذ حين أغلب عليها روح المجاراة على مالها من معدن أصالة وقوة . وقد استقام للبارودي حين بلغ أشدة في الشعر واستوى نهج القصيدة، كما استقام من قبل، لأبي تمام وأبي عبادة وأبي الطيب، ومن بعد هؤلاء للصرصري والبوصيري والبرعي وابن الخطيب والبقية الباقية من شعراء مدح الرسول صلى الله عليه وسلم في شتى بلاد العربية وآفاق الإسلام .

خذ قوله المشهور في موقفه من ثورة عرابي باشا :

نصحت قومي وقلت الحرب مفجعة   وربما تاح أمر غير مظنون

تأمل تاح هذه في زمان لا يكاد يعرف فيه هذا الفعل إلا رباعيا مبنيا للمجهول . المبني للمعلوم هنا هو المعبر الأصيل .

فخالفوني وشبوها مكابرة   وكان أولى بقومي لو أطاعوني

إذ كان هو الرئيس الأمير العالم الشاعر ـ ولكن التأثر العملي بأوربا تخطى حنكته وتجاربه إلى مذهب من " الغوغاء " كان هو منه جد بعيد . وما أرى هيكلا على جودة رأيه إلا قد ظلمه -حيث قال : «واندفع الضباط يفكرون في خلع توفيق . وقد نازعته نفسه يومئذ إلى مكان المجد وتحركت فيها أسباب الاعتداد بمكان أجداده المماليك الذين

حكموا مصر وقصيدته التي مطلعها:

قلدت جيد المعالي حلية الغزل وقلت في الجد ما أغنى عن الهزل

لا تبرئه من هذا التفكير وإن ذكر في الديوان انها قيلت في عهد اسماعيل " . ا. هـ. قلت ما قاله الديوان أصدق عند المتأمل من ظن هيكل الذي ظنه، رحمه الله، وذلك لأن هذه اللامية على وضوح مجاراتها للامية الطغرائي - فارس آخر من معادن كمعادنه روحا وأدبا وشعرا - فيها من حرارة الشباب وطيشه ما يشهد بصدق سبق تأريخ نظمها لزمان توفيق. وقال هيكل في موضع آخر: «ولكن اندفاعه في حركة الضباط من بداءتها حال بينه وبين التخلص منهم، فلم يكن له بد من أن يسير معهم وأن يربط حظه بحظهم». لو اكتفى هيكل بقوله: «أن يسير معهم»لكان قد أصاب

وصار إلى ما قاله البارودى في أبياته النونية ولكن قوله: «وأن يربط حظه بحظهم "مشعر بمعنى "الانتهازية" والدهاء الذي زعم من قبل. وشعر البارودى وسمت صدقه يشهد ببطلان هذه التهمة.

نصحت قومي وقلت الحرب مفجعة وربما تاح أمر غير مظنون
فخالفوني وشبوها مكابرة وكان أولى بقومي لو أطاعوني
تأتي الأمور على ما ليس في خلد ويخطىء الظن في بعض الأحايين

كأنه يعاتب نفسه شيئا ههنا.

حتى إذا لم يعد في الأمر منزعة وأصبح الشر أمرا غير مكنون
أجبت إذ هتفوا باسمي....

هنا البطولة والمأساة معا....

ومن شيمي صدق الولاء وتحقيق الأظانين

تأمل جودة المقابلة في اللفظ والمعنى بين قوله: «ويخطىء الظن إلخ» وقوله: «صدق الولاء وتحقيق الأظانين» - ومكنونة تحت ذلك مقابلة تحمل معنى الأسف الروحي وعتاب النفس، يكره أن يكون ندما على اتباع ما اتبع، ويقارب ذلك الندم، رحمه الله، وسقت قبره شأبيب المغفرة والرضوان.

من أحب شعره إلي وأجوده قوله بسرنديب:

لكل دمع جـــرى من مقلـــة سبب وكيـــف يملـك دمــع العين مكتئـب

المطلع بـوصيري الـروح. ولعلـه رحمه اللـه كـان ينشـد من البردة، يتبرك بها ويتـوسل بروحانيتها في منفاه. ـ تأمل «دمع جرى من مقلة»: قال البوصيري:

أمن تـــذكـــر جيران بـــذي سلم مـزجت دمعا جـرى من مقلـة بـدم

والبحـر بحر البردة. وقـد رأيت مجاراة أبي الطيب بـاء "السيف أصـدق" بميم «عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم". وفي بائية البارودي هذه أيضا نوع من المجاراة لميمية أبي الطيب:

واحر قلباه ممن قلبه شبم

روح البحر ونظر روي الباء إلى الميم نسب بين هذه الكلمة وبردة المديح، ومجرى الضم مع ما تقدم نسب بينها وبين "واحر قلباه ممن قلبه شبم" ـ ثم للبارودي بعد ما انفرد به من بث الشكوى والخطاب الصريح وأمل القومية والمجد والحفاظ الذي ضاع.

قال رحمه الله:

لكل دمع جـــرى من مقلـــة سبب وكيـــف يملـك دمــع العين مكتئـب
لـــولا مكـابـدة الأشـواق مـا دمعت عين ولابـــات قلـب في الحشـا يجب
فيـا أخـا العـذل لا تعجل بـلائمـة على فـالحب سلطـان لـــه الغلب
لـــو كـان للمـرء عقل يستضيء بـه في ظلمـة الشك لم تعلـق بـه النـوب
ولـــو تبين مــافي الغيب من حــدث لكـــان يعلم مـــا يأتي ويجتنـب
لكنـه غــرض للـدهـر يــرشقـه بـأسهـم مــــا لها ريش ولاعقـب
فكيـف أكتم أشـــواقي وبي كلـف تكـاد مـن مسـه الأحشـاء تنشعب
أم كيف أسلـــو ولي قلـب إذا التهبت بـــالأفق لمعـــة بــرق كـاد يلتهب
أصبحت في الحب مطـويـا على حـرق يكـــاد أيسرهـــا بـــالـروح ينتشب
إذا تنفست فـــاضت زفـــرتي شررا كما استنـــار وراء القـــدحـة اللهب
لم يبق لي غير نفسي مـا أجـود بــه وقـــد فعلت فهـل مـن رحمة تجب
كأن قلبـى وقـد هــاج الغـرام بـــه بين الحشـا طـائر في الفخ يضطـرب

صورة الطائر المضطرب تتردد عند البارودي . وله رائية قصيرة حسنة ذكر فيها الطائر الحذر:

يهفو به الغصن أحيانا ويرفعه دحو الصوالج في الديمومة الأكرا
مابالـه وهو في أمن وعافية لايبعث الطرف إلا خائفا حذرا

وذكر طيف غانيه :

حوراء كالريم ألحاظا إذا نظرت وصورة البدر إشراقا إذا سفرا

وكأنما حذا ههنا على رائية أبي الحسن التهامي التي يقول فيها يذكر امرأة حسناء
ترمي الحجيج فتصميهم ويرشقها راميهم فيولى سهمه هذرا [1]

ثم يقول البارودي

لا يترك الحب قلبى من لواعجه كأنما بين قلبي والهوي نسب
فلا تلمني على دمع تحدر في سفح العقيق فلى في سفحه أرب
منازل كلما لاحت مخايلها في صفحة الفكر منى هاجني طرب
لي عند ساكنها عهد شقيت به والعهد ما لم يصنه الود منقضب
وعاد ظنى عليلا بعد صحته والظن يبعد أحيانا ويقترب

---

(١) أشرنا إلى هذا في كتابنا التماسة عزاء بين الشعراء ـ طبع بيروت ص١٩٦ . وقد ذكرنا ثم أن أبا العلاء المعرى، وذكروا أن التهامي أنشده شعره، كأنما يغمز التهامي في نعته هذه المرأة التي فتنت الحجاج فكاد يفسد حجهم، في قوله في اللزوميات :

أتت خنساء مكة كالثريا وخلت بالعواصم فرقديها
ولو صلت بمنزلها وصامت لكان البر أجمعه لديها
ولكن جاءت الجمرات ترمى وأبصار الغواة إلى يديها

وما ثريا عمر أراد، ولكن الغواة الذين قدم إليه أحدهم فأنشده. والله أعلم.

هذا آخر القسم الأول. وهو من مرحلتين، الأولى تأمل يخالطه شيء من أسى كالندم ـ ندم يـروم التأسي بالعظة والعبرة والحكمـة، والثانيـة إعلان للشوق والحب والصبـابة. يهيمن على المرحلـة الأولى طائف من روحـانية البـوصيرى. يرفـرف على المرحلة الثـانية جناح من صوت أبي الطيب.

قد مرت الإشارة إلى «مـزجت دمعا جرى من مقلة بدم». وقوله «لـولا مكابدة إلخ» فيه أنفاس:

لولا الهوى لم ترق دمعا على طلل ولا أرقت لذكر البان والعلم

وقوله: «ياأخا العذل» كقول البوصيري «يالائمى أي يا عاذلى» أى يا أخا العذل :ـ

يا لائمي في الهوي العذري معذرة مني إليك ولو أنصفت لم تلم

لأن الهوى العذرى لاينبغى أن يعذل عليـه صاحبه. وقول البـارودي: " فالحب سلطان له الغلب " يقـابل قول البوصيري: " معـذرة مني إليك " ـ وفي قول البـوصيري جناس معنوي لفظى (العذرى . . . معذرة) وفي قول البارودي مجانسة معنوية «سلطان . . . له الغلب» وقول البارودي«لاتعجل علي» . . . يقابل قول البوصيري: «لو أنصفت لم تلم» قـول البـارودي من بعـد« لـو كـان للمـرء عقل إلـخ» يحمل رنـة من إيقـاع صيـاغـة البوصيري:

لو كنت أعلم أني ما أوقره كتمت سرا بدا لى منه بالكتم

وكتمان البوصيري هنا فيه نفحات من كتمان أبي الطيب:

مالي أكتم حبا قد برى جسدي وتدعى حب سيف الدولة الأمم

وقد كرر البارودي نغم البوصيرى حيث قال:

ولو تبين ما في الغيب من حدث لكان يعلم ما يأتى ويجتنب

وكأن ههنا سريرة ندم ـ وكأن نفحة من قول الإمام شرف الدين :ـ

من لي برد جماح من غوايتها كما يرد جماح الخيل باللجم

وفي قول الباوردي: «فخالفوني وشبوها مكابرة» معنى غواية مستكن. وفي قول البارودي «لكنه غرض للدهر إلخ» معنى التسليم للقدر. قوله "بأسهم مالها ريش ولاعقب" أخذ لفظه أخذ إشارة من بائية غيلان، والعقب هو العصب تشد به السهام عند أفواقها وحيث موضع النصل وفي الشرح [1] العقب بفتح العين والقاف العصب بفتحتين تعمل منه الأوتار والمراد الأوتار نفسها ا. هـ والمعنى أوضح من هذا لمتأمله أي بسهام القدر التي لا تعان بالريش ولا تشد بالعقب وهو العصب.

وإذ هو المسكين غرض الدهر، فقد رماه الدهر بالبعاد ولا يستطيع أن يكتم الشوق. ومن هنا تبدأ المرحلة الثانية ـ رفرفة صوت المتنبي في قوله: «فكيف أكتم أشواقي ـ أبو الطيب: «مالي أكتم حبا» ـ البوصيري:

فكيف تنكر حبا بعدما شهدت به عليك عدول الدمع والسقم

ثم كرر البارودي نغم الايقاع ومعنى الشوق في قوله: «أم كيف أسلو ولي قلب إلخ» وهنا صدى من البوصيري:

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

البيت الذي يعيبه بعض المتشددين يرون ذلك حنبلية في التشدد، ولعل ابن حنبل رضى الله عنه لو سمع هذا البيت ما عابه، وكيف وهو صاحب حديث الشفاعة وحديث عرباض رضى الله عنه؟

والشاهد تشابه النغم في: كيف تدعو. كيف يسلو... وفي بيت البارودي بعد صورة تبدو كما يقول عصريو النقاد ـ مثلاً ـ تقليدية: وذلك قوله:

.... إذا التهبت بالأفق لمعة برق كاد يلتهب

وما أرى إلا أنها مغترفة من بحر تجربة الشاعر غرفا ـ ومثلها قوله من بعد:

إذا تنفست فاضت زفرتي شررا كما استنار وراء القدحة اللهب

عجز البيت وصف دقيق لاستيقاد النار، ولقدحة عود الثقاب

---

١ ـ الديوان ص ١١١ هـ ٦

ولكن الصورة الكبيرة الكامنة التي زعمنا أنها مغترفة غرفا من بحر التجربة هي صورة برق بلاد سرنديب . برق ركام السحب الاستوائية يتطاير شرره وتروع ألوانه منها ما يبتدىء بنفسجيا ثم يبيض أبهر وأنصع من لهب «المغنيسيوم»، ومنها ما يحمر ومنها ما يتطاير شررا وجمرات ـ تشبيهات البارودي هاهنا مأخوذات من هذه التجارب . ومن براعته الفائقة أنه جعل جميع ذلك يبدو وكأنه "تقليدي" ، ما عدا فيه مذهب ما أمر به ابن قتيبة من نعت المياه الأواجن السدم واجتناب التفاح والإجاص!!!

قول البارودي : «أصبحت في الحب مطويا إلخ» ـ فيه نفس أبي الطيب :

مالي أكتم حبا قد برى جسدي ... وتدعي حب سيف الدولة الأمم

وقوله : «لم يبق لي إلخ» ـ كقوله :

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي ... شيئا تتيمه عين ولا جيد

وكأنه في قوله «لم يبق لي غير نفسي ما أجود به» أيضا أنفاس من قول أبي الطيب

ولكني حسدت على حياتي ... وما طعم الحياة بلا سرور

وقد كرر أبو الطيب هذا المعنى في دالية هجاء كافور

إذا أردت كميت اللـــون صــافيــة ... وجـــدتها وحبيب النفس مفقـــود

مـــاذا لقيت من الـــدنيــا وأعجبــه ... أني بما أنـــا بـــاك منـــه محســـود

وجاء البـارودي بنغمة «لم يترك الـدهر إلخ» في قـول «لا يترك الحب قلبي إلخ» ـ وقوله " فلا تلمني على دمع " فيه رجعـة إلى نغم «يا لائمي في الهوى إلخ» ـ وفيه صدى غيلان الـذي مر صداه في الـريش والعقب، ولكأن غيلان فيه نـوع رمز لأبي تمام . وفي قوله " فلي في سفحه أرب" إما سفح العقيق وإمـا سفح الدمع وكلاهما جيد وينظر إلى قول غيلان :

خليلي عــوجـا من صــدور الـــرواحل ... بجمهــور حزوى فــابكيـا في المنــازل

لعل انهمال الـــدمع يعقب راحـــة ... من الــوجــد أو يشفـي نجي البــلابل

وقول البارودي : «منازل كلما لاحت مخايلها» فيه رفرفة صوت أبي الطيب :

منازل لم يزل منها خيال ... يتابعني إلى النوبنذجان

ورفرفـة أبي الطيب ليست إيقاعية ولفظيـة فحسب، ولكنها مع ذلك فيهـا حذو

على المعاني والشكل وطريقة الخطاب، إذ قد جعل أبو الطيب حبه لسيف الدولة في القسم الأول مكان النسيب وحمله معنى لواعج الشوق. وكذلك قد جعل البارودي حبه لقومه وضمنه ما مر من تأمل شاك وأنفاس عتاب. وقوله: " وعاد ظني عليلا بعد صحته " ـ فيه إيجاس دبيب من الندم واستشعار لأن القوم قد تناسوا عهده «والعهد ما لم يصنه الود منقضب» ـ «والظن يبعد أحيانا ويقترب»، هذا يذكرك بقوله من قبل: «ويخطيء الظن في بعض الأحايين» ـ بعد الظن، سعة الأمل، واقترابه مواجهته هذا الذي هو بإزائه من الواقع المر. وهنا موضع الصيحة. ويبدأ القسم الثاني من القصيدة:ـ

فيا سراة الحمى، ما بال نصرتكم ضاقت علي وأنتم سادة نجب
أضعتموني وكانت لي بكم ثقة متى خفرتم ذمام العهد يا عرب
أليس في الحق أن يلقى النزيل بكم أمنا إذا خاف أن ينتابه العطب
فكيف تسلبني قلبي بلا ترة فتاة خدر لها في الحي منتسب
مرت علينا تهادى في صواحبها كالبدر في هالة حفت به الشهب
تهتز من فرعها الفينان في سرق كسمهري له من سوسن عذب
كأن غرتها من تحت طرتها فجر بجانبه الظلماء تحتجب
فهل إلى نظرة يحيا بها رمق ذريعة تبتغيها النفس أو سبب
أبيت في غربة لا النفس راضية بها ولا الملتقى من شيعتي كثب
فلا رفيق تسر النفس طلعته ولا صديق يرى ما بي فيكتئب

هذا آخر القسم الثاني وهو الأوسط وهو خصر القصيدة. وإنما القصيدة غادة، كذلك قال أبو تمام:

بكر تورث في الحياة وتغتدى في السلم وهي كثيرة الأسلاب

وقال أبو عبادة وجعل القصائد عذارى أبكارا:

كالعذارى غدون في الحلل البيـ ـض إذا رحن في الخطوط السود

وهذا ونظائره كثيرة.

وقد ترى هذا التخصير كأوله عند أبي الطيب في " واحر قلباه " حيث قال: «يا أعدل الناس إلا في معاملتي» ـ وهنا يقول البارودي: «فيا سراة الحمى ـ ما بال نصرتكم البيت». وكأنه هنا خلط بين احتجاج أبي الطيب واحتجاج أبي فراس حيث قال:

وأبطأ عني والمنايا سريعة ... وللموت ظفر قد أطل وناب

فإن لم يكن ود قريب نعده ... ولا نسب بين الرجال قراب

فأحوط للإسلام أن لا يضيعني ... ولي عنه فيه حوطة ومناب

وحيث قال

تنكر سيف الدين لما عتبته ... وعرض بي تحت الكلام وقرعا

فقولا له من صادق الود إنني ... جعلتك مما رابني منك مفزعا

ولأبي فراس في هذا الباب كلمات من رومياته[1] . وقد أخذ من أبي الطيب وحذا على نموذجه . إلا أن البارودي كما تأثر بأبي الطيب تأثر به أيضا . وزاد من قوة تأثيره على البارودي، إنه كان أسيرا ولم يخف سيف الدولة إلى نجدته، وكان البارودي بمنفاه في نوع من الأسر المر، ولم يخف السراة إلى نجدته ورعاية سابقته وقوله «أضعتموني» لا يخفى أنه من قول العرجي، وكان من فرسان بني أمية من ذريةأمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ... ليوم ملمة وسداد ثغر

وفي هذا القسم بعد رفرفة من أبي تمام ومن غيلان ومن أبي الطيب ومن غير هؤلاء من مأثور أساليب أهل الجزالة القدماء. فمن نفس أبي الطيب واصدائه :

[مرت علينا تهادى في صواحبها]

فهو كقوله : «مرت بنا بين تربيها فقلت لها البيت» وقوله «في صواحبها» فيه شيء من ابن أبى ربيعة بلا ريب. قوله «كالبدر في هالة إلخ» كثير مثله في الشعر إلا أن الصياغة فيها نغم بوصيري : «كالزهر في ترف والبدر في شرف» ـ الشبه قوله : «البدر في» ثم جاء بقوله «حفت» وقوله «الشهب»، أبت شين الشرف وفاؤه إلا أن تنما بأنفسها

---

(١) مثل قوله : دعوتك للجفن القريح المسهد لدى وللنوم القليل المشرد.

ومثل قوله

أسيف الهدى وقريع العرب ... إلام الجفاء وفيم الغضب

فتأمل. وقوله: «تهتز من فرعها» لا يخفى أنه من قول حبيب.

كم أحرزت قضب الهندى مصلتة   تهتز من قضب تهتز في كثب

الشبه في الصورة ونغم اللفظ معا. قوله «في سرق» مكان قول حبيب «في كثب» عنى ثقل الكفل بإزاء لين القامة واستقامة رشاقتها. والسرق الحرير، واهتزاز الفرع الفينان فيه مشعر بالصدر والخصر والكفل، وأخذه من قول امرىء القيس: «إذا ما اسبكرت بين درع ومجول» من قول الآخر «أبت الروادف والثدى لقمصها البيت» - وفي جميع هذا لا يخفى أن أصل أخذه من بيت حبيب، وهذه المعاني والصور الأخريات وحي وإشارة. والسمهري الرمح، وجعله غصنا لما جعل له عذبات من السوسن، وذكر السوسن لا يخفى معه أن أصل المعنى مأخوذ من قول حبيب: "قضب الهندى" - «قضب تهتز في كثب» والقضب الأولى السيوف وجعل البارودي مكانها هنا السمهري والكثب مزدوجة المعنى، إذ القضب في الكثب هي الأغصان في الكثبان وهي القامات ذوات الأكفال، وسرق اللفظ والمعنى على بن العباس في نونيته:

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان   فيهن لونان تفاح ورمان

الشاهد قوله «أغصان وكثبان» فهو قضب حبيب وكثبه.

وقول البارودي: «كأن غرتها» هو من غيلان:

فغلست وعمود الفجر منصدع   عنها وسائره بالليل محتجب

وليس بمخفيه قوله: فجر بجانحة الظلماء محتجب». ثم بقية التشبيه من قول غيلان المشهور:

كأن عمـــود الفجـــر جيـــد ولبـــة   وراء الدجى من حرة الوجه حاسر

وقد ذكرنا من قبل ما بين هذا وبين صورة جيوكندا لليوناردو دافنشى من قوة الشبه، وقوله: «كانت آية لنا في الحسن فاحتجبت إلخ» يحمل أنفاس قول أبي تمام وله نفس البحر والروى وإن كان أصل هذا مجاراته لبائية غيلان إذ أمرها في هذا الروى وهذا البحر أشهر:

أطاعها الحسن وانحط الشباب على   قوامها وجرت في وصفها النسب

بضمتين جمع النسيب

ألقت نقابا على الخدين وانتسبت   للنـــاظـــرين بقـــد ليس ينتسب

كانت لنا ملعبا نلهو بزخرفه   وقـــد ينفس عن جـــد الفتى اللعب

وهذا النغم نفسه في الميمية التي على بحرها ورويها بردة المديح وفي نسج البوصيرى ما يدل على نظر منه إليها وقد ألممنا بهذا المعنى في كتابنا «التهاسة عزاء» (١): ـ

كانت لنا صنما نحنو عليه ولم   نسجد كما سجد الافشين للصنم

هل حقا سجد الافشين للصنم، أم كان في سيوف بنى العباس رهق؟
وقد افتن البارودى في هذا القسم إذ كنى فيه عن مصر بفتاة بارعة الجمال سلبت فؤاده ثم حجبت عنه. تفصيل الوصف الغزلي الذي فصله ذو مشابه من الذي صنعه كعب إذ قال: وما سعاد إلا أغن غراء فرعاء وما ذكره من أوصاف، غير أن سعاد كعب هي ذات الفجع والولع والإخلاف، وسعاد البارودى ليست ذلك، هي بدر حجبته عوادى الزمان كما يحتجب البدر بليل من الغمام ويالخسوف.

كانت لنا آية في الحسن فاحتجبت   عنا بليل النوى والبدر يحتجب

وهذا الغزل مع أنه في حب الوطن، يقع موقع الاستراحة والتخفيف من حدة انفعال لوعة الشوق والوجدان وشعورى العتاب والندم اللذين في القسم الأول.
وعلى وضوح الرمز والكناية بالفتاة الحسناء عن مصر، فسره البارودي تفسيرا لايدع محلا للشك بقوله:

فهل إلى نظرة يحيا بها رمق   ذريعة تبتغيها النفس أو سبب
أبيت في غربة لا النفس راضية   بها ولا الملتقى من شيعتى كثب
فلا رفيق تسر النفس طلعته   ولا صديق يرى ما بى فيكتئب

وهذه الأبيات الثلاثة التي جاء بها بعد رمز الغزل تفسيرا له، تقابل الأبيات الثلاثة التي افتتح بها هذا القسم صارحا بالشكوى صائحا:

فيا سراة الحمى ما بال نصرتكم   ضاقت على وانتم سادة نجب
أضعتمونى وكانت لى بكم ثقة   متى خفرتم ذمام العهد ياعرب
أليس في الحق أن يلقى النزيل بكم   أمنا إذا خاف أن ينتابه العطب.

---

(١) راجع التهاسة عزاء ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦

ولكنها فيها عودة إلى روح اللوعة والانفعال .

ثم يجيء القسم الثالث ، وهو في عادة الشعراء للذكرى ، ويخالطها فخر ودفاع عن الماضي ، يجعله الشاعر في مقابلة ما رمي به من نوائب الدهر ـ كقول امرىء القيس «وقد أغتدى والطير في وكناتها» وقول علقمة «قد أشهد الشرب فيهم مزهر» وقول الأسود بن يعفى «فلقد اروح على التجار» وهلم جرا . وقد جعله البارودي مجالا لتبرير مواقفه والاعتزاز بما كان من ماضى أمره :

ومن عجائب ما لاقيت من زمني أني منيت بخطب أمره عجب
لم أقترف زلة تقضى على بما أصبحت فيه فماذا الويل والحرب

قوله ومن عجائب إلخ مر تشبيهنا له بقول أبي الطيب «ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه» وفيه نفس من قول على بن العباس :

ومن عجائب ما تمنى الرجال به مستضعفات لهم منهن أقران

ثم يجىء هذا النمط الحر النبيل الجزل :

فهل دفاعي عن ديني وعن وطني ذنب أدان به ظلما وأغترب
فلا يظن بي الحساد مندمة فإننى صابر في الله محتسب
أثريت مجدا فلم أعبأ بما سلبت أيدى الحوادث منى فهو مكتسب
لا يخفض البؤس نفسا وهى عالية ولا يشيد بذكر الخامل النشب

ثم يجىء الفخر الصريح ـ كقول أبى الطيب «أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي » وهو بعد فيه صادق ، إذ قوله مخالطه الأسى لا الغضب ، الأسى الذي هو أخو الغضب كما قال أبو الطيب :

فحزن كل أخي حزن أخو الغضب

وذلك قوله

إني امرؤ لا يرد الخوف بادرتى ولا يحيف على أخلاقي الغضب
ملكت حلمي فلم أنطق بمندية وصنت عرضي فلم تعلق بي الريب
وما أبالي ونفسي غير خاطئة إذا تخرص أقوام وان كذبوا

وإذ برر البارودى موقفه وجلى باعتذاره عن نفسه، له أن يقول، كالنابغة في آخر «يادار مية»

هـا إنها فـريـة قـد كـان بـاءَ بِهَا | في ثـوب يـوسف من قبلى دم كـذب

الاشارة إلى قول النابغة: «ها إن ذى عذرة إن لاتكن قبلت» وإلى سورة يوسف «وجاءو على قميصه بدم كذب»

فإن يكن سـاءني دهـرى وغـادرنى | في غـربـة ليس لى فيهـا أخ حـدب
فسـوف تصفـو الليـالى بعـد كـدرتها | وكـل دور إذا مـــا تـم ينقلب

وهكذا تنتهى هذا القصيدة الرائعة بنفس من الأمل الديني الصادر عن تسليم العبد إلى قضاء مولاه، وثقته بأن الموقف الذي وقفه لم يكن فيه عليه من مذمة أو عار:

فهل دفـاعي عـن ديني وعـن وطني | ذنـب أدان بـــه ظلما وأغترب

فكرة الدفاع عن الوطن مع الدفاع عن الدين معنى قديم عند العربي المسلم. ومع هذا، لا أحسب قولـه «وعن وطنى» هنا خاليا من معنى روح الوطنية الحديثة التي إنما كانت ثورة عرابي باشا من بعض انفجاراتها وسائر الثورات التي جاءت من بعد.

في كتاب الدكتور محمد صبرى السوربونى أدب وتاريخ في الفصل الذي جعله للبارودى، قال (ص ٧٢ ـ ٧٧): روى الكاتب (١): «ومر بقصر الجزيرة بعد عودته من سيلان فتذكر أيام اسماعيل ونظم معتبرا ومذكرا:

هل بـالحمى عن سريـر الملك من يـزع | هيهـات قـد ذهب المتبـوع والتبع
هـذى الجزيـرة فـانظـر هل تـرى أحـدا | ينأى بـه الخوف أو يـدنـو بـه الطمع
أضحت خـلاء وكـانـت قبل منـزلـة | للملك منهـا لـوفـد العـز مـرتبع
فـلا مجيب يـرد القـول عـن نبأ | ولا سميع إذا نـاديت يستمع
كـانت منـازل أمـلاك إذا صـدعـوا | بـالأمـر كادت قلوب النـاس تنصدع
عـاشـوا بها حقبـة حتى إذا نهضت | طير الحوادث في أوكـارهـا وقعـوا
لـو أنهم علمـوا مقـدار مـا فغـرت | بـه الحوادث مـا شـادوا ولا رفعـوا
دارت عليهم رحى الأيـام فـانشعبـوا | أيـدى سبـا وتخلت عنهـم الشيع
كـانـت لهم عصب يستـدفعـون بها | كيـد العـدو فما ضروا ومـا نفعـوا

(١) كاتب في عدد المنار ٧ ـ ١ ـ ١٩٠٥ يرجح السور بونى رحمه الله أنه السيد حسين رضا رحمه الله

أين المعاقل بل أين الجحافل بل ... أين المناصل والخطية الشرع
لا شيء يدفع كيد الدهر إن عصفت ... أحداثه أو يقي من شر ما يقع
زالوا فما بكت الدنيا لفرقتهم ... ولا تعطلت الأعياد والجمع
والدهر كالبحر لا ينفك ذا كدر ... وإنما صفوه بين الورى لمع
لو كان للمرء فكر فى عواقبه ... ما شان أخلاقه حرص ولا طبع
وكيف يدرك ما فى الغيب من حدث ... من لم يزل بغرور العيش ينخدع
دهر يغر وآمال تسر وأعـ ... ـمار تمر وأيام لها خدع
يسعى الفتى لأمور قد تضربه ... وليس يعلم ما يأتى وما يدع
يأيها السادر المزور من صلف ... مهلا فإنك بالأيام منخدع
دع ما يريب وخذ فيما خلقت له ... لعل قلبك بالإيمان ينتفع
إن الحياة لثوب أنت تخلعه ... وكل ثوب إذا ما رث ينخلع

وقد علق كاتب المنار على القصيدة قائلا: فهذه القصيدة من آخر ما نظم وفيها من آيات النذر للمغرورين بكثرة المال والدثر (١) ــ تلك القصيدة من أجود شعر البارودى، وهى دمعة وفاء على أيام اسماعيل التى كانت أيام صباه، وهي من الشعر الحي الذي يستمد قوته من الذكرى وهي بكاء على الحال التى آلت إليها البلاد بعد عودته إليها، ورؤيته المحتل ضاربا بجرانه في نواحيها، ولا ريب أن الألم الصامت كان فى فؤاده كالجمرة تحت الرماد فلم يصرح عنه مقاله، وأشد الألم ما كان مكتوما. وتدل قصيدته فى الجزيرة على أن الرجل كان ثاقب الفكر لا تعوقه الظواهر عن رؤية أبعد البواطن، فلم تغره الرفاهية المادية التى غرت بعض العرابيين بعد رجوعهم من المنفى فتوهموا أن أغراضهم تحققت، ولم تغره مظاهر العدل المنظم في الظاهر، فأزاح الستار عن ذلك الظلم الأجنبي المنظم في الباطن الذي يضؤل بجانبه كل ظلم. من ذلك نفهم كيف كان الشاعر بالأمس يبكى من إسماعيل فأصبح يبكي عليه. وكأنى بالشاعر أحس دنو الأجل فاستسلم للقضاء في هذه القصيدة، ولم تحفزه همته إلى الفخر ومغالبة الأقدار، ورثى نفسه فيمن رثى حين قال:

زالوا فما بكت الدنيا لفرقتهم ... ولا تعطلت الأعياد والجمع

(١) إلى هنا انتهى كلام كاتب المنار ومن قوله تلك كلام السوربوني الى حيث بينا نهايته.

فهـذا البيت من خير ما قيل في وصف خـروج الإنسـان من هذه الحيـاة الدنيـا دون أن يحس الكون بفقده مهما كان عظيما . قال فيكتور هوجو فى المعني بيتا يشبه هذا البيت

Je m'en irai bientot au miliau de la fete

Sans que rien manque au monde immense et radieux (1)

وقد تكون هذه القصيدة في جملتها أثرا من آثار التأمل الذى يعتري الإنسان عند تقلص الأيام وتقلب الـدنيا ويـدفعه الى عرض الماضى فى صفحـة الفكر فإذا بكى عليـه كان بكاؤه المر عصـارة التجارب والألم . في فصل كتبه : «إن هـذا الوزير الذي اقتـدح زناد تلك الهمة ، وشبت بعـد استقالته تلك الفتنـة المستطيرة لم يكن مع شجاعته وإقـدامه اللذين بلغ بهما أقصى مبالغها في مواطن القتال إلا رجل سكينة ووداعة وحلم ، إصابته بكريمتيه هي التـي قلصت من كبده وأودت بجسده ثم إن العارف بحـوادث حياته لا يكاد يصـدق أنه هو الـرجل الذى كان ديدنـه في سنواته الأخيرة أن يجمع أطفـاله وهم غلامـان وأربع فتيات فيجعـل لهم مكانا خصيصـا من البيت لتلقى العلـوم واللغات بضروبها على أساتذة يحضرون في مواعيد كأنهم في مدرسـة قانونية فيرعى سيرهم كل يوم ثم يمتحنهم كل أسبوع مرة ثم يمتحنهم آخر كل شهـر ويوزع عليهـم المكافآت على أن هـذا البر إنما كان إحـدى شمائله وفضـائله فإن أريـد بعض التعداد فـالجودة مع الجود والكيـاسـة مع لطف الحس ، والصفح مـع المقـدرة والإينـاس مع علـو النفس وشرف الطبع » ـ إلى هنـا ينتهى نقل السوربوني من مطـران وأعجب أنا من قولـه ثم إن العارف بحوادث حيـاته لا يكـاد يصدق ، وأي غـرابة في أن يهتم عالم أديب مثقـف فطن مثله بتعليم ذريته بأجود ما يقدر عليه ، ثم أية غرابة في أن يحافظ جنـدي وإدارى مثـله على المواعيدوعلى متابعة مـا كلفهم بالامتحان والتفتيش والمكافأة وأما رقة القلـب فشاهدها شعره وكذلك الشعراء الفـرسان . واما قول الدكتور محمـد صبرى السوربونى رحمه الله أنه رثى نفسه ببيت الاعياد والجمع ، فما أرى إلا أنـه رثى كل ذوى الإمارة الذين عصف بهم الدهـر ، وإسماعيل خاصة ، إذ النـاس مما يحسون مقدم الأمير في العيـد والجمعة . وأحسب أن كـلام فكتـور هوجـو الـذي خيل بـه للسوربـونى أن البـاوردى رام معنى كمعناه . وإنما رام البارودى رحمه الله جمع أبي الطيب في قوله :

مخلى لـه المرج منصـوبـا بصـارخـة ... لـه المنـابـر مشهـودا بها الجمع

(١) سأنصرف والعيد فى عنفوانه ولن يحس فقدانى أحد وسط الزحام الكثيف المنير.

والاعتبار بقول الله عز وجل: «كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوما ءاخرين فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين»

ثم يقول السوربوني مستمرا من حيث انتهى نقله من مطران «نضيف إلى ذلك أن البارودى تمكن بفضل جده وكده من تجديد جزء عظيم من ثروته تركه لأهله وذويه، فكان طول حياته مثال الهمة العلياء، ولم يمنعه قول الشعر من قيادة الجحافل، ورياسته الوزارة في أحرج الأوقات والعمل. وكل ما يعاب على الرجل أنه لم يوفق في حياته السياسية كما وفق في شعره، ومهما كان من الأمر فقد كانت حياة هذا الرجل صحيفة كبرى من التأريخ المصرى تشهد له بحسن الطوية وصدق العزيمة وكراهية الظلم، والاعتدال، والروية والأناة وهو مؤسس دولة الشعر التى يحمل لواءها اليوم شوقى ومطران وحافظ وآخرون بعد أن غادرهم شيخ الشعراء بعده المرحوم صبرى باشا الذى ننعاه اليوم إلى الشعر كما ننعى الجود إلى الجود. ولا أعرف رجلا كافح الردى مثلما كافحه البارودي، وطاعن خيلا من فوارسها الدهر مثلما طاعنها وخاض وقائع الحياة مثلما خاضها، وقد كان خلق الرجل عظيما وذكاؤه عظيما وشعره عظيما فكان الثلاثة في مستوى واحد. وفي اعتقادى أن أكثر شعره ارتباطا بحياته شعر المنفى، شعر العواطف شعر الوجدان، شعر الألم.» ـ ثم يقول فى أخريات الفصل: وقد لبى دعوة ربه في ٦ شوال سنة ١٣٢٢ (ديسمبر سنة ١٩٠٤) (ص٧٨). ا. هـ نقلنا من السوربوني رحمه الله من كتابه أدب وتاريخ، فى هذا الموضع قلت وحصر إبداع البارودي فى شعر منفاه فيه بعض النقص من حقيقة قدره ولا يخلو من نوع تشبيه له بأبى فراس، وكان أبو فراس معاصرا لأبي الطيب يجاريه ويحذو حذوه ويأخذ من لفظه وإيقاعه ومعانيه عن قرب زمان ومكان. وما كذلك كان أمر البارودى. كان البارودى شاعرا فحلا صاحب نهج من حر القريض وأصيله من قبل المنفى ومن بعده واقرأ بائيته:

سواى بتحنان الأغاريد يطرب

وفيها يقول عن تجربة قلب وبيان:

وبحر من الهيجاء خضت عبابه	ولا عاصم إلا الصفيح المشطب
تظل به حمر المنايا وسودها	حواسر في ألوانها تتقلب
توسطته والخيل بالخيل تلتقى	وبيض الظبي في الهام تبدو وتغرب
فما زلت حتى بين الكر موقفى	لدى ساعة فيها العقول تغيب
لدن غدوة حتى أتى الليل والتقى	على غيهب من ساطع النقع غيهب

ولا ميته : «ردوا على سواد اللمة البالى» وفيها يقول :ـ

قلبي سليـم ونفسى حـــرة ويـــدى مأمـــونـــة ولســـاني غير ختـــال
لكننى في زمـــان عشـت مغتربـــا في أهلـــه حيـث، قلت فيـــه أمثـــالى
بلـــوت دهـــرى فما أحمدت سيرتـــه في ســـابـق من ليـــاليـــه ولا تـــالى
حلبت شطـــريـــه من يسر ومعسرة وذقت طعميـــه مـن خصب و إمحال
فما أسفت لبـــؤس بعـــد مقـــدرة ولا فـــرحت لـــوفـــر بعـد إقـــلال
عفـــافـــة نـــزهت نفسى فما علقت بلـــوثـــة من غبـــار الـذم أذيـــالى
فـــاليـــوم لا رسنى طـــوع القيـــاد ولا قلبى إلى زهـــرة الـــدنيـــا بميـــال
لم يبق لى أرب في الـــدهـــر أطلبـــه إلا صحـــابـــة حـــر صـــادق الخال
وأين أدرك مـــا أبغيـــه من وطـــر والصدق فى الـدهـر أعيـا كل محتـال
لا في سرنـــديب لى إلـف أجـــاذبـــه فضـــل الحديث ولا خـــل فيرعـــى لى
أبيت منفـــردا في ظـل شـــاهقـــة مثل القطـــامي فـوق المربأ العـــالى (١)
إذا تلفت لم أبصر ســـوى صـــور في الـــذهن يـــرسمهـــا نقـــاش آمـــالى
تهفـــو بي الـــريح احيـــانـــا ويلحفني بـــــرد الظـــلال ببرد منـــه أسمال (٢)
ففـي السماء غيـــوم ذات أروقـــة وفي الفضـــاء سيـــول ذات أوشـــال
كأن قـــوس الغمام الغـــر قنطـــرة معقـــودة فـــوق طـــامي الماء سيـــال
إذا الشعـــاع تـــراءى خلفهـــا نشرت بـــدائعـــا ذات ألـــوان وأشكـــال (٣)
فلـــو تـــراني وبـــردي بـــالنـــدى لثق لخلتنـي فـــرخ طير بين أدغـــال
غـــال الـــردى أبـــويـــه فهـــو منقطع في جـــوف غينـــاء لا راع ولا وال (٤)
فـــــذاك مثلي ولم أظلـم وربتما فضلتـــه بجـــوى حـــزن وإعـــوال
شـــوق ونـــأي وتبريـح ومعتبـــة يـــا للمحبـــة من غـــدري وإهمالي
أصبحت لاأستطيع الثـــوب أسحبـــه وقـــد أكـــون وضـــافي الـــدرع سربـــالي
ولا تكـــاد يـــدي تجري شبـــا قلمي وكـــان طـــوع بنـــاني كل عســـال
فإن يكن جـف عـــودي بعـــد نضرتـــه فـــالـــدهـــر مصـــدر إدبـــار وإقبـــال
عـــلام أجـــزع والأيـــام تشهـــد لي بصـــدق مـــا كـــان من وسمي وإغفـــالي

(١) القطامي الصقر المربأ العالى المكان من جبل نحوه يقف عليه الرابىء والصورة من شعر ذي الرمة وزهير من قبل وقد مرت فى الأوصاف .

(٢) برد الأولى بفتح الباء والثانية بضمها وبرد أسمال أي ممزق

(٣) هنا نظر الى بحيرية البحتري

(٤) غيناء بالغين المعجمة فياء مثناة تحتية ساكنة فنون موحده فوقية فألف المد أي شجرة خضراء

راجعت فهـــرس آثـــاري فما لمحت ... بصيرتي فيـــه مـــا يـــزري بأعمالي
فكيف ينكـــر قـومي فضل بـادرتي ... وقـــد سرت حكمي فيهـم وأمثـــالي
أنــا ابن قـولي وحسبـي في الفخـاربـه ... وإن غـــدوت كـــريـم العم والخال
ولي من الشعـــر آيــات مفصلــــة ... تلـــوح في وجنـــة الأيـــام كـــالخال
ينسى لها الفـاقـد المحـزون لـوعتـه ... ويهتـــدي بسنـــاهـــا كل قـــوال
فـــانظـــر لقـــولي تجد نفسي مصـــورة ... في صفحتيـــه فقـــولي خط تمثـــالي
ولا تغـــرنـك في الـــدنيـــا مشـــاكلـــة ... بين الأنـــام فليس النبع كـــالضـــال
إن ابـن آدم لـــولا عقلـــه شبـح ... مـــركب مـن عظـــام ذات أوصـــال

هذه الديباجة الصافية لا نظير لها في الشعـر المعاصر. وقد كان البارودي بحقيقة ذلك عليما يدل عليه قوله:

ولا تغـــرنـك في الـــدنيـــا مشـــاكلـــة ... بين الأنـــام فليس النبع كـــالضـــال

من النبع والضال تصنع القوس ولكنهما لا سواء ـ إذ الضال ذو شوك وثمر والنبع كما قال البحتري:

وعيرتني خـــلال العـــدم آونـــة ... والنبع عـــريـــان مـــا في عـــوده ثمـــر

وقد اهتدى بسنا البارودي من بعده من القوالين جيل تبعته من بعد أجيال. غير أن نهج قصيدته الأصيل لم يسر حقا عليه من كبار من حذوا على رونق ديباجته وقصروا عنهـا أحد. إنما سلكـوا نهجا دعـاهم إليه التجـديد ــ وهو نهج أسلـوب المقالـة، ثم تفرعت عنه فروع أصناف الشعر المعاصر وما إليه.

أسلوب المقالة: أوائله، ثانياً

جاء في الكتاب النفيس أدب وتأريخ للدكتور محمـد صبري السوربوني في ترجمته لاسماعيل صبري (ولـد في ١٦/ ٢/ ١٨٥٤ وتوفي في ٢١/ ٣/ ١٩٢٣ رحمه اللـه)[1] في

---

(١) نقـلا عن الكتاب المذكـور ص ١١١ ــ الفصل الأول من الكتـاب الثاني من نفس السفـر وفصل الهامش عن حيـاة صبري، نـذكر من ذلك أنـه درس بمصر ثم أرسل من مصر إلى فرنسـة فنـال هناك شهـادة البكالـوريا ثم الليسـانس في الحقوق أي القانون ثم عمل في النيابة العمومية بمصر وبلغ أماكن عالية من مراتب العمل في وظائف الدولة، عين محافظا لثغر أسكنـدرية في فبراير ١٨٩٦ــ ووكيـلا لنظارة الحقانيـة (أي وزارة العدل) من بعـد وبلغ غاية مـا يبلغه الموظف من مرتبات الدولة سنة ١٩٠٧ فاستقال وأحسبه فرغ من حينئذ كل الفروغ للأدب والشعر.

صفحة ١٥٠ - إلى ص ١٥٤ : «كان الأستاذ خليل مطران بعث بقصيدة دالية إلى محمد بك مسعود بالمؤيد من سقارة على أثر زيارته لأهرامها ، جاء في هذه القصيدة عن فرعون :

شـــاد فـأعلى وبنى فـــوطـــدا ... لا للعلى ولا لـــــه بل للعـــــدا
مستعبـــدا أمتـــه في يـــومـــه ... مستعبـــدا بنيـــه للعـــادي غـــدا

وجاء فيها عن العمال المصريين الذين بنوا الأهرام :

إني أرى عـــد الـــرمـــال ههنـــا ... خـــلائقـــا تكثـــر أن تعـــددا
مجتمعين أبحـــرا منفـــرعـــ ... ـــين أنهرا منحـــدرين صعـــدا
صفـــر الـــوجـــوه نـــاديـــا جبـاههم ... كـــالكـــلأ اليـــابس يعلـــوه النـــدى
أكل هـــذي الأنفس الهلكـى غـــدا ... تبني لفـــان جـــدثـــا مخلـــدا

اطلع صبرى على هذه القصيدة التي تؤيد نظرية تخالف نظريته فنظم نونيته قائلا إن البنايات لم تتم إلا على يد عمال كانوا يطلبـون الإتقان الفني إكراما للفن لا خوفا ولا طمعا . والحقيقة أن صبري راعى في نظريته ما يسمونه بـالوجهة التأريخية الوطنية . أما مطران فقـد نظر إلى الوجهة العلميـة التي يؤيدهـا التاريخ فإن بناء الأهرام مـا كان إلا سخرة أرهقت الملايين من المصريين وأثـارت السخط في البلاد مدة قرنين ، ونظـر أيضا إلى الوجهة الاجتماعية القديمـة ، فإن الظلم من شأنه إفساد الأخلاق التي لا تحيا الأمم بدونها . على أن شوقي وفق بين النظريتين بطريقة شعرية فلسفية في قوله :

ولمن هيـــاكل قـــد عـــلا البـــاني بها ... بين الثـــريـــا والثـــرى تتنسـق
هـي من بنـــاء الظلم إلا أنـــه ... يبيض وجـــه الظلم منـــه ويشرق
لم يـــرهق الأمـم الملـــوك بمثلهـــا ... فخـــرا لهم يبقـى وذكـــرا يعبـق

وقد نظم خليل مطران ردا على قصيدة صبرى نـونية أخرى لم يسبق نشرها ، وكان ذلك أثر مشـاهدتـه بعض الآثار ورؤية تمثـال محفوظ لـرمسيس الثاني في الأقصر . وفي هذه القصيدة عاد مطران إلى نظريته الأولى لأنه يرى أن المجد لا يمس وأن عظمة مصر باقية سواء أكان أصل البنيان الظلم أم غيره ، وأن الفراعنة نهضوا بمصر وان كان اعتقاد

الشاعر أن ضررهم كان أكبر من نفعهم في جانب شخصية الأمة وتكوينها الحر، قال مطران:

أكبر بـرمسيس ميتا لا يلم بـه	موت وأكبر بـه حيا إلى الآن
لولا تماثيلـه الأخرى محطمة	ما جال في ظن فان أنـه فـان
في مصر عـز فـراعين فما بلغوا	بها مبالغة في رفعة الشان
ولم يتم لها في غير مـدتـه	ما تم من فضل إثـراء وعمـران
تخير الخطـة المثلى لـه ولها	يعلـو فتعلـو بـه والخفض للشاني
ما زال بالقوم حتى صار بينهم	الـه جنـد تحابيه وكهـان
ورب سـائمـة بلهـاء هـائمـة	تشقى وتهواه في سر وإعـلان
يسـومها كل خسف وهي صـابرة	لا صبر عقـل ولكـن صبر إيمان
إن بات في حجب باءت إلى نصب	يلـوح منـه لها معبـودها الحاني
فبجلت تحت تـاج الملك مـدميها	وقبلت دمها في المرمر القـاني

وجاء السوربوني بالمنظومة المطرانية كاملة، وهي خالية كما ترى من رنة إيقاع جزالة القصيد ـ وأمثال:

ورب سـائمـة بلهـاء هـائمـة	تشقى وتهواه في سر وإعـلان

صناعة تقسيم كأنما فطن الناظم بها إلى مغسولية ما نظمه وفقدانه كل طعم فألقى بهذا عليه ضربا من ملح وأبزار ـ وفي سر وإعلان إنما هي تتمة مضناة.

وجاء في مختاراته من صبري باشا بالنونية التي هذه المطرانية رد عليها (١٥٧):

لا القـوم قـومـي ولا الأعـوان أعـواني	إذا ونى يـوم تحصيل العـلا واني
ولست إن لم تـؤيـدني فـراعنـة	منكم بفرعـون عـالي العرش والشـان
لا تقـربـوا النيـل إن لم تعملـوا عمـلا	فماؤه العـذب لم يخلق لكسـلان
ردوا المجـرة كـدا دون مـورده	أو فـاطلبـوا غيره ريـا لظمآن
وابنـوا كما بنت الأجيـال قبلكمـو	لاتتركـوا بعـدكـم فخـرا لإنسـان
أمـرتكم فـأطيعـوا أمـر ربكمـو	لا يثن مستمعـا عن طـاعـة ثـاني

فالملك أمر وطاعات تسابقه | جنبا لجنب إلى غايات إحسان
لا تتركوا مستحيلا في استحالته | حتى يميط لكم عن وجه إمكان
هالة قد هوت من عرش قائلها | على مناكب أبطال وشجعان
مادت لها الأرض من ذعر ودان لها | ما في المقطم من صخر وصوان
لو غير فرعون ألقاها على ملأ | في غير مصر لعدت حلم يقظان
لكن فرعون إن نادى بها جبلا | لبت حجارته في قبضة الباني
وآزرته جماهير تسيل بها | بطاح واد بماضي القوم ملآن
يبنون ما تقف الأجيال حائرة | أمامه بين إعجاب وإذعان
من كل ما لم يلد فكر ولا فتحت | على نظائره في الكون عينان
ويشبهون إذا طاروا إلى عمل | جنا تطير بأمر من سليمان
برا بذى الأمر لا خوفا ولا طمع | لكنهم خلقوا طلاب إتقان
أهرامهم تلك حي الفن متخذا | من الصخور بروجا فوق كيوان[1]
قد مر دهر عليها وهي ساخرة | بما يضعضع من صرح وإيوان
لم يأخذ الليل منها والنهار سوى | ما يأخذ النمل من أركان ثهلان

هذا أراد به المبالغة وهو فيه ضعف، ولعله لو قال كمثل أخذهما من ركن، كان من جهة المعنى أحسن، واللفظ متهافت على كل حال

كأنها والعوادي في جوانبها | صرعى بناء شياطين لشيطان
جاءت إليها وفود الأرض قاطبة | تسعى اشتياقا إلى ما خلد الفاني
وصغرت كل موجود ضخامتها | وغض بنيانها من كل بنيان
وعاد منكر فضل القوم معترفا | يثني على القوم في سر وإعلان
تلك الهياكل في الأمصار شاهدة | بأنهم أهل سبق أهل إمعان

وفي القافية ضنى - يعني أهل إمعان في السبق والتجويد، وإمعان وحدها لا تفيد هذا المعنى

وإن فرعون في حول ومقدرة | وقوم فرعون في الإقدام كفوان
إذا أقام عليهم شاهدا حجر | في هيكل قامت الأخرى ببرهان
كأنها هي والأقوام خاشعة | أمامها صحف في عالم ثان
تستقبل العين في أثنائها صور | فصيحة الرمز دارت حول جدران

١ - كيوان هو زحل

لــو أنها أعطيت صـوتـا لكـان لــه	صـدى يـروع صم الإنس والجان

قـولـه «صم الإنس والجان» متكلف، إذ المعنى «صـوتـا يسمع الصم فيرتـاعـون لـه» فاحتال على القافية بما تـرى، وقد جعل الجن لهم صم كما للإنس صم وأمرهم مختلف عن الإنس. وكان شوقي أحذق حيث قال على لسان الجن:

نقـول حين نصطـدم	بسـادة أو بخـدم

صمـم صمـم صمـم صمـم	عمـى عمـى عمـى عمـى

على أن قوله صم الإنس والجان ـ تكلف محتمل شيئا

أين الألى سجلـوا في الصخـر سيرتهم	وصغـروا كل ذي ملك وسلطـان

بـادوا وبـادت على آثـارهم دول	وأدرجـوا طي أخبـار وأكفـان

وخلفـوا بعـدهم حـربـا مخلـدة	في الكـون مـا بين أحجـار وأزمـان

وزحـزحـوا من بقـايـا مجدهم وسطـا	عليهـم العلـم ذاك الجاهـل الجاني

قوله في العلم: «ذاك الجاهل الجاني» إغـراب. وإنما عنى البحث باسم العلم إذ العلم لا يجني ـ قال تعالى: «إنما يخشى الله من عباده العلماؤ» ـ والعلم المراد هناهو ما يسمى Science، وهذا نظر وبحث واجتهاد فكر وما ينال من طريقه ليس بالعلم حقا، ولكنه مما يكون بعضه وسيلة وطريقا إلى العلم. والله أعلم.

ويل لـه هتك الأستـار مقتحما	جـلال أكـرم آثـار وأعيـان

للجهل أرجـح منـه في جهـالتـه	إذا هما وزنـا يـومـا بميـزان

نظم صبري أدنى ألا يكون مغسـولا وأسلم من التكلف. خذ مثـلا قول مطران يـذكر جبرية رمسيس:

مخلـدا دون من قـامـوا بـرفعتـه	من شـوس حـرب وصنـاع وأعـوان

مخالسـا ذمـة العليـاء مضطجعـا	من مهـد عصمتهـا في مضجع الـزاني

البيت الأول واضح وفي سلامة معناه نظر. لأن شوس الحرب قد خلدت ذكراهم كما قد خلدت ذكـراه. وليس لـه ولا لهم خلود سوى ذلـك. والبيت الثاني قـوله مخالسـا ذمة العليـاء، غير واضح المعنى إلا على تصـور أن العليـاء هـي «لـوكـريشـا» التي خـان مغتصبها ذمتها. فإن كان هذا مراده، أو شيء كهذا أراده، فما معنى مهد عصمتها، إذ المهد للطفـل وما عنى هـذا وما عنى في هـذا الموضع إلا فراش عصمتهـا. واغتصاب

العلياء أمر مجازى لا يجعل صاحبه زانيا ولو على سبيل المجاز. فتأمل. وإنما هي الفتنة بالتماس التجديد من طريق نقل الأخيلة الافرنجية بلا تدبر.
مهما يكن من أمر فإني استوقف القارىء الكريم قليلا عند قول السوربوني بعد عرضه كلمة مطران والإشارة إلى نونية اسماعيل صبري وقد أوردها كاملة كما تقدم: «كلا الشاعرين في قصيدته يستنبط عبر التأريخ وينظمها درسا نافعا لأمته، كلاهما يجيب داعية الوطنية وينتصر للحق والعدل وان اختلفت وجهتا نظرهما، وهما متفقان في جوهر الموضوع، في الاشادة بذكر عظمة مصر الغابرة، وعظمة الفراعنة وتنبيه الخلف إلى مجد السلف. «١» (ص١٥٤).

ههنا كما ترى في قوله، موضوع اتفق الشاعران في جوهره ووجهتا نظر اختلفا فيهما. مطران يذكر جلال رمسيس، وأنه أجل فراعين مصر قدرا، وأن تمثاله الخالد ما كان أحد ليخطر بباله أنه سيفنى لولا وجود تماثيل أخر له محطمة. إنه اختار الخطة المثلى لتخليد نفسه وحمل شعبه عليها. وإنه كان للجند إلها يقدسونه وللكهان سيدا رفيع الشأن يتملقونه، وهذه المرأة البلهاء التي جعلها مطران رمزا لبؤس الشعب وطاعته، لم تزل ذات نصب كادحة من أجل رمسيس، يدفعها حبها الديني له وصبرها الصادر عن إيمانها بألوهيته، هي تدمي من الإرهاق الذي يكلفها إياه، وهي تبجله وتقبل الدم، الذي يسيل منها على مرمر الأبنية التي تبنيها له. (لم يذكر لنا مطران لماذا تقبل المرمر، إذ هي عبارة افرنجية. خطابة الصيغة راقته، ولو تتبعناها بالتحليل لاضطرنا ذلك أن نقول بأنها بتقبيلها دم نفسها كأنما تعلن عن تعلق بنفسها يناقض معنى الحب والتضحية والتأليه الذي قد قال به. هذا ويختم مطران القسم الاول من كلامه بأن رمسيس عاد بالفخر كله وأنه هو المخلد دون جنوده وصناعه وأعوانه. وهذه سنة دنيا الطغيان، كم تهلك الجموع فداء لفرد.

وينتقل مطران في القسم الثاني إلى الشعب أنهم هم الذين يسروا لطغيان رمسيس السبيل بإذعانهم وأنهم بانصياعهم لأمره وصنعهم التماثيل له، مكنوا له كل التمكين. لماذا رضوا أن تنصب له لا لهم النصب، ويكتب اسمه هو لا اسماؤهم. ثم يزعم مطران أن الطغيان أحيانا ربما كان منقذا للأمم من الانهيار الأخلاقي. وقوله:

ليت البلاد التي أخلاقها رسبت   يعلو بأخلاقها تيار طغيان

نوع من التمني للمنقذ من حال الضعف والانهيار التي كانت عليها أمة مطران المعاصرة، أن يتاح لها رمسيس يغزو بها ويسومها جبروته ويصنع لها الفخر وتصنع له التماثيل

يهب فيهم كإعصار فينقلهم   من خفض عيش الى هيجاء ميدان
بعض الطغاة إذا جلت إساءته   فقد يكون به نفع لأوطان
في كل مفخرة تسمو الشعوب بها   تفنى جموع مفاداة لأحدان

وههنا روح استخفاف بالمفخرة، غريبة المعدن، مثلما كان يقوله أعداء نابليون عن مجده ثم جعل مطران خاتمة لكلامة تكبيرا مرة أخرى لرمسيس وإشادة بعظمته والتمس لهذا من قوله وجها من الحكمة كونيا يتخطى الأرض إلى الأفلاك.

كم في سنى الكوكب الوهاج مهلكة   في كل لمح لأضواء وألوان

أي المجد كهذا الضياء الوهاج، إنما يتألق به أمثال رمسيس بهلاك آلاف يهلكون كما تهلك ذرات الأضواء لينبثق منها هذا التألق الباهر الذي نراه.

ويلاحظ أن مطران قد ناقض بآخر كلامه أوله، إذ زعم في أوله أن الخالد وحده هو رمسيس وأن الآخرين هلكوا في سبيل ذلك وشقوا وكدحوا في سبيل ذلك، وفي آخره قد أثبت لهم صورا ووجوها غرانا. والحق أنه لا خلد رمسيس ولا خلدوا هم، وإنما خلدت الذكرى ـ وهي ذكراهم جميعا ورمسيس قد سخر نفسه كما قد سخر شعبه من أجل هذه الذكرى، وهي المفخرة التي ذكرها مطران في أخريات كلامه وسخر منها بأسلوب نثري الذكاء.

ولله رد أبي الطيب إذ قال :ـ

أين الذى الهرمان من بنيانه   ماقومه وما يومه ما المصرع
تتخلف الآثار عن أصحابها   حينا ويدركها الفناء فتتبع

لماذا يعد الهرمان أنهما رمزان للتسخير أكثر من كاتدرائيات شارتر وكولون ونشتسر ؟ إن تك تلك قد أقامها صدق العقيدة، فكذلك أقام الأهرام صدق العقيدة، فهي آثار قوم كانوا أهل مجد بقيت بعدهم تشهد بمجدهم، ثم سيدركها الفناء، وقد كان كثير من مثقفي جيل مطران وصبري وأجيال بعدهما إلى زماننا هذا تمسك ببعض قضايا السياسة والاجتماع التي تصدرها أوربا عن واقعها، تمسكا أعمى، كأنما تبغى أن تتقرب إلى

حضـارة أوربـا وتنسب أنفسهـا إليها ، فتقبل على تجريح مجدهـا من مـاض وذكـراه ، وحاضر وبقاياه ، بأظفار من الدعـوى والتقليد كالحات ذوات عبس . وإلى الله ترجع الأمور.

هذا . وقـد افتتح صبرى بنداء وحث على لسـان فرعون ، وكأنـه داع من دعاة الـوطنية الحديثة لأهل مصر، واستجابة من هؤلاء لاخوفا ولاطمعا ولكن حبا للإتقان . ويبدو أن هذا المعنى كان دائرا فى أوساط المثقفين . ومن شواهد ذلك مثلا قول شوقى .

إذا عمـــدوا لمأثـــرة أعـــدوا   لها الإتقـــان والخلق المتينـــا

وموضوع الخلق أيضا ، يبدو أنه كـان مما يدور في أحاديث الجد والتأمل بين المفكرين . هو كثير عند شوقى . وقد رأيت منه في قول مطران

ليت البـلاد التي أخلاقهـا رسبت   يعلـو بـأخـلاقهـا تيـار طغيـان

ثم يذكـر اسماعيل صبرى ما تشهـد به الأهـرام والهياكل التى أقـامها قـدماء الفـراعنة وشعوبهم مـن هذا الإتقان وكيـف أنهم سجلوا فيها اخبـارهم وسيرهم . ثم جـاء هذا العلم الحديث فاعتدى على حرمة اسرارهم بهتكها فالذي فعله جهل والجهل الذي هو عدم معـرفة كـان أرجح من هذا الذي يسمى نفسـه علما ويعتدي بـاسم العلم ، كان أرجح ميزانا من حيث حقيقة الخير والإنسانية . وههنا احتجاجه بروح غضبة قومية على ظاهر تفوق أوربا المتمثل في هؤلاء الأثاريين الـذين ينبشون قبور أجدادنا باسم البحث العلمي .

كلتاهما وجهة نظر كما قال السـوربوني رحمه الله . غير أن اسماعيل صبرى كأنه أصدق وإلى قلوبنا أقرب . ثم كلامه أصفى وأسلم .

وبعد فجلي أن الطريقة التى سلك مطران وسلكهـا صبري واحدة ـ ليست هي طريقة الوثب والاقتضاب الذى عنـد البحتري وقد زعم السوربونى أن اسماعيل صبري ينسج على منواله . أحسب الذى دعاه إلى هـذا القول أنه يرى أن شعر صبري غنائي ولا سيما مقطوعـاته ـ قال : «عنـد الافرنج نوع من الشعـر يدعى (lyrique) نسبة إلى (lyre) وهي القيثارة ولا أدري ماذا الـذي يمنعنا من تسميته بالشعـر الغنائي ، فإن هذا الضرب من الشعر كان يغنى به في القرون الوسطى وهو شبيـه بالأغانى في الشعر العربي . وقد تفنن صبرى في هذا الشعـر الوجـدانى ونظم فعلا للغناء أدوارا خـاصة منهـا : (الفجر لاح قوموا ياتجار النوم) ومن أدواره المشهورة دور للغناء قديم على نغمات العود :

قــــدك أمير الأغصـــــان	مـن غير مكـــــابــــــر
وورد خـــدك سلطـــــان	على الأزاهـــــــــــــر
دا الحب كلــــه أشجــــان	يـــــا قلب حـــــاذر
والصــــدويــــا الهجــــران	جـــزا المخـــــاطــــر

دور

يـــــا قلب دنـت حبيت	ورجعــت تنـــــــــدم
وصبحـت تشكى مـــــا رأيـت	لـك حــــد يـــــرحـم
صــــدقت قــــولى ورأيـت	ذل المتيـــــــــــم
يـــــامـــــا نصحت ونهيت	لـــــــــو كنـت تفهـم

دور

أعـــــــرض لحسنـك أوراق	واكتــــــــــب ودون
وابـــــات صريـع الأشـــواق	واحســـــــــب واخمن
دا هجـــر وصبـــابـــه وفـــراق	يـــــــارب هـــــــون
وارحـم قلـــــوب العشـــــاق	داشــــــى يجنـــــن

وشعره الغنائى أنواع، منها النوع المتقدم الذى جعل خصيصا للغناء، ومنها ما تتخلله نزعة دينية. وقد نظم لامرتين [1] من هذا النوع ديوانيين. مثال ذلك قول شاعرنا :

[إلى الله]

يـــــارب أيـن تـــرى تقـــام جهنم	للظـــــالمين غـــــدا ولـــــلأشرار
لم يبق عفــــوك في السمــــوات العلى	والأرض شبرا خــــاليـــــا للنــــار
يــــارب أهلنى لفضلـك واكفنـى	شطط العقــــول وفتنـــــة الأفكـــــار
ومـــر الـــوجـود يشـف عنك لكى أرى	غضـب اللطيـف ورحمة الجبـــــــار
يــــا عـــالم الأسرار حسبـى محنـــة	علمـى بـأنـك عـــــــالم الأسرار
أخلق بـــرحمتك التـى تسع الـــورى	ألا تضيـــــق بــــأعظـــم الأوزار

هـذه الأبيات من خير مـا قيل في الاستعطاف والـرجـاء وهي من أرقى الشعر الغنـائي الذي يعلو بالعاطفة الدينية الخالصة إلى السماء كما تعلو الصلوات لله، وما أكثر الشبه بين قوله :

(١) الفونس دي لامرتين ALPHONSE DE LAMARTINE ولد سنة ١٧٩٠م توفي ١٨٨٩م فقارب عمره مائة عام كما ترى وكاد ينتخب لجمهورية فرنسة. على أنه اشتهر بشعره الرومانسي والجانب الديني منه خاصة.
قالوا كانت أمه متـدينة فأخذته بتربية دينية خرج عنها الى نوع من الالحاد في أول مراهقـة شبابه ثم عاد الى التدين من أجل سلام الروح والحقيقة التي في الاعماق ويعتبر شاعر المسيحية عند الفرنسيين.

ومر الوجود يشف عنك لكى أرى　　غضب اللطيف ورحمة الجبـــار

وقول لامرتين

Et j'ai monte devant sa face

(1) et la nature ma dit passe

Ton sort est sublime. Il t'a vu.

«صعدت أمام وجهك الكريم فقالت لى الطبيعـة سر في طريقك ما أعظم شأنك. إنه رآك» فأنت تـرى كيف التقى الشاعـران في سمو الخيـال وصفائه. على أننـا إذا قلنا إن شعر صبرى الغنـائي كان شبيها بـالصلاة التى تـذهب صعدا نحو السماء فقـد كانت الطبيعـة لـه معبـدا، وكـانت المرأة في هـذا المعبـد تمثـال جمال» انتهى نقلنـا من كـلام السوربونى رحمه الله في هذا الموضع من ص ١٣٥ ـ ١٣٨»

وإنما وقفنا عنـد هذا النص من كلام السـوربوني لانه تنبـه فيه إلى مايسمـونه: Lyrique الغنائي اصطلاحا ليس هو مذهب قصيدة شعراء العرب. ولكنه منهج أوربي. ثم كأن السوربونى كره أن ينسبه كل النسبة إلى أوربا، فزعم له أصلا بحتريا لقول ابن الأثير في البحترى «أجـاد سبك اللفظ على المعنى وأراد أن يشعر فغنى» وكأنـه بذكـره أن أصل Lyrique وهي القيثارة يوحى بنوع من الحجة والبرهان على هذا الوجه الذى ذهب اليه.

وغير خاف عنه، لاريب، أن قولهم Lyrique قد صار اصطلاحا فارق أصله الأول، وأن الغناء فيـه مراد به مـذهب من مذاهب البيان يكـون صاحبه فيـه له طريقـة من محاكاة للطبيعة في موضوعه مع تقمصه له تقمصـا ذاتيا مباينا لما في مذهبي المسرحية والملحمة من المحاكـاة محاكاة صـاحب الليريك أشبه بمحـاكاة الرسـام لما يرسمـه من منظر مع تسجيل انطباعـه في نفسه ينقل بـذلك مع شكل المنظر نـوعا من تأثيره الـذي أثره على نفسه.

قول ابن الأثير«فغنى»أراد به أن البحتري لم يكتف بإيقاع الشعر ولكن جاوزه إلى إيقاع الغناء ـ فقوله وصف لرنة الـديباجة لا لنفس مذهب البيان. هذا ايضا لا نحسبه كـان ممـا خفي على السوربـوني. بل ينبغي أن ننبـه هـاهنـا أنه في هـذا الفصل الـذي انتسخناه مـن كتابه ادب وتأريـخ ـ لعله ان يكـون من أوائل من تنبهوا الى ان مـذهب

---

(١) هكذا في نص «أدب وتاريخ» بالحرف الصغير والصواب E t بالحرف الكبير وهذه الأسطر هي من ٩٧ - إلى ١٠٠ منظومة لامرتين التى عنوانها لانهائية الطبيعة وقصر عمر الانسان

Eternité de la nature,

briévete de l'homme.

الغنـاء الاوربي في الشعـر Lyrique (كما اصطلحـوا لـه) شيء جاء بـه شعـراء النهضة، وليس من معدن مـذاهب العربية ـ ونأمل ان نلم بهذا المعنـى من بعد ان شاء الله تعالى ونعود الى مـا قلناه من قبل ان كلتا هاتين القصيدتين ذواتـا جوهر متقارب في الموضوع ووجهتي نظر مختلفتين في المعـالجة وبعض الآراء ـ ثم فيهما ما رأينا مـن طريقة ترتيب للكلام ليست من سنخ :

ميلـوا على الـدار من ليلى نحييهـا نعم ونسـألها عن بعض أهليهـــا

ثم من بعد :

قــد اطـرق الغــادة البيضـاء مقتــدرا على الشبــــاب فتصبيني وأصبيهـــا
عــاطيتهـا غضــة الاطــراف مـرهفـة شربت مـن يـدهــا خمرا ومن فيهـا
يــا من رأى البِركــة الحسنـاء رؤيتهـا والآنســـات اذا لاحت مغــانيهـــا

أو من سنخ

لـو كـان يعتب هـاجـر في واصل أو يستقـــاد لمغـــرم مـن ذاهل

ثم من بعد :

ليـــدم لنـــا المعتـــز إن بملكـــه عـــز الهدى وخبـا ضيـــاء البـاطل
لما كملـت رويـــة وعـــــزيمـــة أعملت رأيـك في ابتـنـــاء الكـــامل

ولكنها من سنخ آخر .

في شعـر ابن الـرومي واصحـاب الوصـف وكثير من القدمـاء أمثلـة من وحـدة الموضوع وترتيبـه . وقد نصح ابن طبا طبا شعراءه برصف الكـلام والتفكير فيه منثورا ثم نظمه من بعد ثم ضم اطرافـه بملء الفجوات بينها . ولكن جميع هذا ليس بنهج كنهج المقالـة الصحفية العصرية الصـادرة عن وحدة فكرة ومـوضوع وتجويد تبـويب وترتيب وربط . قـد فطن طـه حسين، سقى غيـث الـرحمة ثـرى قبره ، الى ان ابن الـرومي تأثـر باساليب الكتاب ـ هذا في كتابه من حـديث الشعر والنثر . ولكنه قد قيد هذا من قبل بأن الكتاب أنفسهم ـ الجاحظ ورصفاءه وسابقيـه الذين مهدوا له من قبل ـ كل اولئك جميعا قـد تأثروا بمنهج الشعراء وطـرائق بيانهم . رسائلهم كـانت الوانا من شعـر كتابي كما قصائد ابن الرومي ألوان من كتابة بالشعر . ولا غرو فقد كان كثير من كتاب ذلك الزمـان أيضا شعراء . حتى ابن المقفع قد كـان شاعرا . والجاحظ أيضا . وقـد كان ابن

الزيات والصولي مشتهرين بالشعر . وكان ابن الرومي كاتبا كما كان شاعرا .

مذهب هاتين القصيدتين ليس من مذهب شعراء العصر العباسي والمولدين من بعد ، السالك طريقة الكتاب . لأن مذهب هؤلاء سنخه سنخ القصيدة . حتى ما جيء به تعليميا فلسفيا نحو .

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع

وزينبية صالح بن عبد القدوس ولزوميات المعري ـ كل ذلك قصيدي السنخ القصيدة أساسه ومنبته الذي فيه واشجة جذوره . أما هاتان القصيدتان فسنخهما شيء مختلف سنخهما كالمقالة الصحفية العصرية التي كانت الاقلام قد استطرفتها وأخذت بها أيام النهضة وجعلتها من عدة النضال والإقبال على تناول حضارة العصر المتمثلة في تفوق أوربا تفوقا بالنسبة اليه حال جميع العرب وبلاد الإسلام حال رجعية وتخلف .

لم يكن اسماعيل صبري ومطران الا من الطبقة الثانية من شعراء النهضة ـ اسلوب المقالة الصحفية العصرية الذي في هاتين القصيدتين من نظمهما هو المهيمن على شوقي وحافظ وتفرعت منه شتى فروع النظم الحديث من بعد .

للبارودي كلمة نظمها في هرمي الجيزة هي التي مطلعها

سل الجيزة الفيحاء عن هرمي مصر لعلك تدري غيب ما لم تكن تدري

فيها وحدة الموضوع ، وجودة الترتيب ، وكأنه بها كالسابق الى هذا الاسلوب المقالي ، ولكن تغلغل روح القصيدة في ملكة بيان البارودي وشاعريته أبت عليه الا ان يكون هو المهيمن على جملة معدن الاسلوب وسنخه ـ تأمل قوله :

مصانع فيها للعلوم غوامض تدل على أن ابن آدم ذو قدر
رسا اصلها وامتد في الجو فرعها فاصبح وكرا للسماكين والنسر
فقم نغترف خمر النهى من دنانها ونجن بأيد الجد ريحانة العمر

ألا تحس هنا رنة من قول المعري

رآها سليل الطين والشيب شامل لها بالثريا والسماكين والوزن

وكأنه يرد على قوله :

وقـد كان أربـاب الفصاحـة كلما رأوا حسنـا عدوه من صنعـة الجن

وقال في آخرها ، في نهج قصيدي واضح :

فيـــا نسمات الفجـــر ادى تحيتـي إلى ذلـك البرج المطل على النهـــر
ويـا لمعـات البرق ان جـزت بـالحمى فصـوبي عليهـا بـالنثـار من القطـر
عليهـــا ســـلام من فـــؤاد متيم بها لا بـــربـات القـــلائد والشـــذر
ولا بـــرحت في الـدهـــر وهي خـوالـــد خلـود الـدراري والأوابـد مـن شعـري

مع ذلك لكأن البـارودي ، حتـى في هـذا النهج الجديـد من حمل القصيـدة على طريق المقالة الصحفية نجده ذا سبق وذا تجديد أصيل رحمه الله رحمته الواسعة وجادت ثراه شآبيب الغفران .

لعل القاريء الكريم قد تنبه لتأثير شعـر المديح والاذكار على ما سماه السوربوني شعر اسماعيل صبري الغنائي الـديني وأما ما نبه اليه من شبه بعض مـا قال لامرتين بما قاله صبري ، فقد تأسر الرومنسيون الاوربيـون بالتصوف ـ تصوف المسلمين ـ وما يخرج لامرتين في باب التأثر من هذا النطاق . وقد سبق التنبيه على ان الرومنسيين انما تأثروا في تقديسهم الطبيعـة بالفيلسوف السوسري الفـرنسي الرومنسي جان جاك روسـو . وكان هذا كما قدمنا واضح التأثر بالصوفية وعلوم المسلمين .

المقالة والقصيدة عند شوقي وحافظ ومن بعد قليلا

المقالة التـي قصيدة في ظاهر شكلها والقصيـدة التي هي مقالة في باطـن أمرها ـ توشك أن تكون هي مادار عليه اكثر الشعـر الغنائي عند شوقي وحافظ . وسنرجع الى قولنا الغنائي فنوضح مرادنا منه من بعد إن شاء الله .

كان شوقي طويل النفس ، نظاما ذا ملكة وكـان يلتمس اصابة الرصانة ويتحري أن يكون له نصيب وافر من حسن الديباجـة ، وكان يعلم مكان البارودي من جميع هذا فاتخذه نموذجـا غير انه عمد الى مذهب من التجديد امـا عن ظن منه ان البارودي مع ملكته الضخمـة قد قصر دونـه لغلبة تقليـد القدمـاء على اسلوبـه ، وتقيده بحـدوده الضيقة وامـا عن فطنة منه الى ان ملكتـه هو دون البارودي ، ولا يستطيع بلـوغ مستوى ديباجتـه مهما يجتهد في سبيل ذلك ، واذن فليتلاف هذا النقص بما يعـوضه من ضروب

الافتنان ، اذ كان البارودي عنده كما هو نموذج ، هو ايضا شاعر معاصر ينبغي عليه أن يتفوق عليه ـ اليس هو القائل :

شبـــــاب قنـع لا خير فيهـم وبـورك في الشبــاب الطـامحينـا

أم ليس هو القائل :

شـــاعــــر الامير ومــــا بــــــــــالقليــل ذا اللقـب

ومـا أقرب شـاعـر الأمير في نفس صاحبهـا أن تكـون أيضا بمعنى «أمير الشعـر وأمير الشعراء» وهو ـ كما يعلم القارىء الكريم قد صار عليه علما وله لقب حلية مستمرة فيما بعد وإمـا ـ ولعل هـذا الراجـح ـ أن يكون قـد ظن بالبـارودي التقصير عن التجـديد واعترف لنفسه بأنه دونه في الديباجة والرصـانة وصفاء الأسلوب وأصالته وأن حظه من التجديـد لو أحسن القيام عليـه جاذب له المستـوى الرفيع الذي لايقـدر على الارتفاع إليه ، فممكنه بإدنائه قسرا إلى إن يرتفع فوقـه ولو على تباين مسافة بين مكان المستويين وبين نوع حقيقة كل منهما .

وقد مـر من شعر شوقي شيء كثير في الجزء الأول من هذا الكتـاب ومما يصلح للتمثيل به في هذا الموضع مما نحن بصدده قافيته :

من أي عهــد في القـرى تتــدفق وبأي كـف في المدائن تغــــدق

وميميته :

يا أخت أندلس عليك سلام

ونونيته : قفى يا أخت يوشع خبرينا

وتوشك اكثر قصائد الديوانين الأول والثاني أن يغلب عليها أسلوب المقالة الصحفية .

ونورد ههنا مثالا واحدا نكتفي به وهو قصيدته «مملكة النحل» :

مملكــــة مـــدبـــرة بــــامـــرأة مـــؤمـــرة

تحمـل في العمال والصنــــــاع عـبء السيطــــــــرة

فــــاعجـب لعمال يـــــولـــــون عليهـم قيصرة

تحكمهـم راهبــــــة ذكــــــــــارة مغبرة

أي مرددة صـوتها وهي كلمة تصيدهـا شوقي من القامـوس بلا ريب . سمعت ممن لا أشك في صـدق خبره ، وذكر ذلك على أنـه من أسـاليب ترنم الشعـراء لايقصد بـه إلى

طعن فيه، أنه رحمه الله كان يرصد قوافيه عددا قبل النظم

عاقدة زنارها   عن ساقها مشمرة

تلثمت بالأرجوا   ن وارتدته مئزرة

وارتفعت كأنها   شرارة مطيرة

ووقعت لم تختلج   كأنها مسمرة

هذا أول قسم، وقد تدرج فيه من ذكر مملكة النحل وملكة النحل إلى صورة النحلة العاملة. واستعان في الصفة بذباب عنترة وبيراع النابغة:

تقد السلوقي المضاعف نسجه   وتوقد بالصفاح نار الحباحب

وفي الأبيات إشارة خفية إلى زنار عدي بن زيد. وكان شوقي رحمه الله أبرع من أن يجعل شعره نثريا مغسولا كمطران، أو اجتهاديا كاجتهاديات تلامذة المدارس في موضوعات الإنشاء ــ الإشارة والتشبيه والاستعارة وطلب الرصانة في التعبير ـ كل ذلك مما يرتفع بدرجات التعبير:

ثم رجع شوقي إلى موضوع المملكة الذي بدأ به، وجعله تأملا. ولا يخفي بعد ما ههنا من طريقة العودة القصيدية السنخ:

قف سائل النحل به   بأي عقل دبره

يجبك بالأخلاق وهـ   ـي كالعقول جوهرة

هذا من الموضوعات التي كانت دائرة بين المثقفين والمفكرين ــ وأحسب أنها إنما كانت مذهبا من التعبير عن الإعجاب بحضارة أوربا وتفوقها ومحاولة تأويل ذلك بأن الأوربيين ما تفوقوا بزيادة ذكاء وحذق ومهارة أو رفعة عنصرية كزعمهم وإنما بالأخلاق التي عنوانها ماهم عليه من دقة النظام والمحافظة على المواعيد والديمقراطية في الحكم والحرية في الصحافة الى آخر قائمة ما صار يسمى بحقوق الإنسان:

تغنى قوى الأخلاق ما   تغنى القوى المفكرة

ويرفع الله بها   ما شاء حتى الحشرة

وما أحد يبغي لنفسه أن يكون حشرة ولو نحلة ولا حشرات ولو نملا ـ اللهم إلا أن يكره على ذلك إكراها من طريق التناسخ عند من يصححه.

ثم ينتقل شوقي بعد ذكره الأخلاق الى تفصيل ما عناه بذكره، وأن في ذلك تبصرة وذكرى ـ وهذا المعنى كما لا يخفى يشير به الى آية سورة النحل: «وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون. ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي

سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون . »

أليس في مملكة النحل لقوم تبصرة

والحق أن التبصرة في النحل لا في مملكة النحل - ولكن شوقي إنما جعل هذا رمزا لقضية النظام والأخلاق ، وما الإشارة الى التبصرة إلا مذهب من تزيين الأساليب

ملك بناه أهله بهمة ومجدرة

لو التمست فيه بطال اليدين لم تره

تقتل أو تنفي الكسالى فيه غير منذرة

«منذرة» هذه من لغة دواوين الموظفين

تحكم فيه قيصرة في قومها موقرة

جعلها قيصرة لغلبة فكرة تحرير المرأة على الأذهان . فهو يشبه المرأة هنا بعاهلة اوربية ، هي هذه المرأة الأوربية التي شرعت تبارى الرجال وتنافسهم وكان سبيل شوقي إن كان حقا يعني التشبيه بامرأة حاكمة أن يذكر بلقيس أو كليوبطرة أو الزباء ، فليس للروم قيصرة بهذا المستوى – اللهم إلا أن يجعل كاثرين الروسية واليزابيث الانجليزية بتلك المنزلة . وقد كان يقال لملكة روسية القيصرة ، وكانت كاثرين ذات جبروت ودهاء .

من الرجال وقيود حكمهم محررة

لاتورث القوم ولو كانوا البنين البررة

الملك للإناث في الدستور لا للذكرة

بكسر الذال وفتحة الكاف بعد وهو جمع نادر الاستعمال من المتصيدات بلا ريب :

نيرة تنزل عن هالتها لنيرة

هذا من ترنم شوقي ، وهو شيء قصيدي المعدن ، ولا يزيد به المعنى كبير شيء - ولكنه دندنة حسنة . قولنا لا يزيد به المعنى كبير شيء لأن مراد شوقي من قوله«نيرة» غير واضح ، وإنما هي عبارة مدح لملكة النحل ، جعلها نيرة لتوهمه على رأسها تاجا يلمع - أو هو مفرد انتزعه شوقي من جمع المؤنث السالمات : النيرات . ولشوقي ولع بالترنم به :

المترعات من النعيم الراويات من السرور

العاثرات من الدلال الناهضات من الغرور

الآمرات على الولاة الناهيات على الصدور
الناعمات الطيبات العرف أمثال الزهور

وأصله من أبي الطيب -

بأبي الشموس الجانحات غواربا ... اللابسات من الحرير جلابيا
المنهبات عقولنا ونفوسنا ... وجناتهن الناهبات الناهبا

وهلم جرا -

فهل ترى تخشى الطماع في الرجال والشره

هذه قافية لا تعجب ابن رشيق، ولا بأس بها على قلق ما

فطالما تلاعبوا ... بالمهج المنيرة
وعبروا غفلتها ... الى الظهور قنطرة

هنا تعريض - وأنفاس من روح العصر التحررية الدعوى

وفي الرجال كرم الضعف ولؤم المقدرة
وفتنة الرأي وما ... وراءها من أثرة

وهذه الحكمة كأنها استطراد - ولكنها متصلة بالموضوع اتصالا غنائيا. وذلك أن هذا المنهج الذي سلكه شوقي من وحدة الموضوع وجودة الصياغة والترتيب، معه تأمل ذاتي، مستمد من نفس الموضوع، مشع به وعليه - هذا منهج «ليريكي». وهنا يصدق حدس السوربوني إذ فطن الى أن في طريقة اسماعيل صبري غنائية، وقد رام تفسيرها بأداء الغناء ذي الأدوار. ولكن تفسيرها هو هذا. وهذا المنهج عند شوقي وحافظ كليهما أوضح، وهو مما فارقا به بنية القصيدة القديمة، بنوع من تجديد غربي المعدن.

ثم رجع شوقي من الاستطراد الى قيصرته:

أنثى ولكن في جنا ... حيها لباة مخدرة

واللباة أنثى فالمقابلة غير جيدة إلا على توهم نوع من "لكن" نابغي مثل "غير أن" التي في قوله.

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ... بهن فلول من قراع الكتائب

ولا يخلو البيت على ظاهر صياغته من نوع غير متقن الصقل. ولماذا خص الجناحين باللبؤة. هل أراد أنها على طيرانها لبؤة؟ كلا - أراد فقط أنها أنثى من صغار النحل ولها من قوة عظام السباع كمثل قوة اللبؤة وشراستها

ذائدة عـن حـــوضهـــا طـــاردة مـن كـــدره
تقلــــدت إبــــرتها وادرعـت « بـــالحبرة »

فصـارت القيصرة هانها ست بيت تـرفـو ملابس الـزوج والأسرة ـ وانجرف شـوقي مع التنغيم والرغبة في طول النفس، فخلط في كلامه بها يشبه الإسفاف.

كـأنها تــــركيـــة قـــد رابطت بـأنقـــرة

ولو رابطت بازمير أو افيون قره حصار أو اصطمبـول، لكانت أيضا تركية ـ وإنما جلب " انقرة " القافية، وهذا مما يقع تحت ما عابه قدامة حيث تمثل بقول الآخر:

فــوقــاك الإلـــه من وارث وا ل وأبقـــاك صـالحا رب هـــود

ثم ما للنسـاء والمرابطة؟ـ تأمل تـداعي المعاني، الإبـرة «والحبرة» جاءتـا بالتركيـة. أنقرة جاءت برابطت ليتم البيت، ولعمري، إذ قد اتهم ابن البـاقلاني امرأ القيس بالحاجة الى إتمام الوزن في تكراره الخدر حيث قال « ويـوم دخلت الخدر خدر عنيزة » وامرؤ القيس من لا يتهم، فإن غيره لن يجور إن اتهم شوقيا بالحاجة الى مثل ذلك في قوله:

كـأنها تــــركيـــة قـــد رابطت بـأنقـــرة

ودعت «رابطت»«جان دارك»، كأنه يرد به على من زعم أن النساء لا يرابطن ـ واستطرد الى ذكر شيء عن «جان دارك».

كـأنها جـــان دارك في كتيبـــة معسكـــرة

وينبغي أن تنطق «جندرك» لكيلا يلتقى ساكنان في حشو البيت

تلقـي المغير بـــالجنـــو د الخشـن المنمـــرة

المغير هنـا هم الانجليـز أعـداء شـوقي وأعـداء قـومـه. فقـد جعل " جنـدرك " رمـزا وطنيا، فصرفه ذلك عن التركية ذات «الحبرة»:ـ

الســـابغين شكـــة البــــالغين جسرة

هذا البيت ترنم وفيـه وهن إذ مراده البالغين غاية الجسارة، ولكنـه حذف معمول البالغين، فصار فيها معنى البلـوغ وحده، ولا يصلح وحده إلا على أن يتم نقص معناه قـارئه. وجسرة حـال أي حـال كـونهم جـاسرين، جمع جـاسرا على جسرة، كما في بيت الجموع ـ

غلمانهم لـــلأشقيـــاء عملـــة قطـــاع قضبـــان لأجل الفيلـــة
والعقـــلاء شرد ومنتهـى جموعهـم في السبـع والعشر انتهـى

ثم أطنب في نعت بطلته « جندرك »عدوة الاستعمار

قـــد نثـــــرتهم جعبـــــة   ونفضتهـــــــــــــــم مئبرة

هنا بـاخ الترنم بسبب إسراف شوقي فيـه . فقد صارت « جنـدركه » حجـاجا أو عبدالملك بن مروان الذي في خطبة الحجاج : «نثر كنانته بين يديه وعجم عيدانها» . ثم عادت من حجاجيتها ومروانيتها هانها تركية في «نفضتهم مئبرة» ـ وتـرك الشاعر مأساة «جندرك» المسكينة أن يلم بها ، ولو كـانت حقا نثرتهم ونفضتهم مـا أسلموهـا للعدو والنار ذات الوقود ـ

مـن يبـن ملكـــــا أو يــــــذد   فبــــــالقنـــــا المجـــــــرة
إن الأمــــــــــــــــــــــور همة   ليـس الأمــــور ثــــرثــــرة
مـــــا الملـك إلا في ذرى الـــــــ   ألـــــــويـــــــــة المنشرة

هذه المعـاني من أبي الطيب ألبسها شـوقي لغة الصحافـة ، وهو ههنـا كأنما يفسر مملكة النحل بما جعلها رمـزا له ، وهو دولة مصر لـو صار ابناؤها نحـلا وخديويها قيصرا ، أو قيصرة جندركية تطرد اللوردات الملاعين

عــــرينـــه مــــذ كـــان لا   يحميــــــه إلا قســــــورة
رب النيـــــوب الـــــزر   ق والمخــــالب المذكـــــرة

أحسبه عنى بالزرق ، زرقة الحديد ، كنـاية بذلك عن مضى حدها ثم بعد أن فسر الرمز عاد اليه :

مـــــالكـــــة عــــاملـــــة   مصلحـــــــة معمـــــــرة
المال في أتبـــــــاعهــــــا   لا يستبين أثـــــــــــــــره

كما في أتباع ملوكنا يا صاح ـ هذا مراده إن شاء الله .

لا يعـــــــرفـــــون بينهـم   أصــــــلا لــــــه مـن ثمـــــره
لـــــو عـــــرفـــوه عـــرفـــوا   مـن البـــــلاء أكثـــــــره

كما عرفنا نحن ـ وهنا رجعة الى موضوع الأخلاق . وغمزة من غمزات السياسة :

واتخذوا نقــــــابـــــــــة   لأمــــــــــــــرهــم مسيرة
سبحــــــان من نــــــزه عنــــــ   ـــــــه ملكهـم وطهــــــره
وســــــاســـــــه بحـــــرة   عــــاملــــــة مسخــــــرة
صــــــاعــــــدة في معمـل   مـن معمـل منحـــــــــــدرة
واردة دسكــــــــــــــرة   صـــــادرة عـن دسكـــــرة

باكـــرة تستنهض الـــ ـــعصائب المبكـــرة

ثم يجيء الترنم بجمع المذكر السالم على طريقة أبي الطيب :

الثابتين فروسة كجلودها في ظهرها والطعن في لباتها
العارفين بها كما عرفتهم والراكبين جدودهم أماتها

قال شوقي من بعد قياسا على هذا النمط :

الســامعين الطــائعيـــ ـــن المحسنين المهـــرة

ولا يخفى أن أصل النسق قرآني، ولكن شوقي كان بمحاكاة الشعراء ومجاراتهم مغرى وبذلك أدرب، فهذا زعمنا أنه أخذ بطريق أبي الطيب

من كل من خط البنا ء أو أقام أسطره
أو شد أصل عقده أو سده أو قوره
أو طاف بالماء على جدرانه المجدرة

ثم اختتم شوقي هذه المقالة القصيدية بعودة الى صفة النحلة، وقد كان وصفها مفردة، فالآن جاء بها في جموعها ـ في ثولها الدائب ذي الدوى :ـ

وتذهب النحل خفا فا وتجيء موقرة
حوالب الشمع من الـ خمائل المنورة
جوالب الماذي من زهر الرياض الشيرة

ذوات الشارة أي الحسن والكلمة متصيدة

مشدودة جيوبها على الجنى مزررة

هنا عودة الى ذباب عنتره

وكل خرطوم أدا ة العسل المقطرة
وكل أنف قانىء فيه من الشهد برة

هل رأى شوقي أنف النحلة ؟ـ

ذكر هذا المعنى ــ طرفا منه ــ في قوله أول شيء : "تلثمت بالأرجوان" ـ وبعيد أن يكون رحمه الله قد تبين أنف النحلة كل هذا التبين ولو قد وقع هذا البيت لأبي عثمان لعده من باب الجسارة ـ كالذي ذكره عن بعض رواته أنه جسر فزعم أنه رأى أير ذباب وهو يكوم ذبابة

حتى إذا جاءت به جاست خلال الأدورة

ونظم الآيات عني، وأخذه هذا من الآية: «فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا» ظاهر جلي [آية أول الإسراء].

وغيبته كالسلاف في الدنان المحضرة

هذا التشبيه ضعيف، إذ العسل أصل في النعمة، ولا يقال عسل كالخمر، وإنما يقال عسل ولبن وعسل وخمر ـ قال حسان رضي الله عنه

كأن سبيئة من بيت رأس يكون مزاجها عسل وماء
على أنيابها أو طعم غض من التفاح هصره اجتناء

ومثل هذه الزلة عند شوقي كثير، وهو قصر باع في صناعة ديباجة القريض.

فهل رأيت النحل عن أمانة مقصرة

رجع هنا كما ترى إلى المعنى الأخلاقي. ولكنه توهم أن كل النحل جوارس من بساتين تعد لهن، وكان رحمه الله امرأ موغلا في الحضارة. وعل ذلك أن يكون مما جعل جزالة بداوة القصيدة ـ وهي بداوة قلب وروح أول من كل شيء ـ تعسر عليه وتستعصي على طول المحاولة المجتهدة منه. وإذ نحل شوقي نحل بساتين فإنهن لأمانتهن كالمقترضات من الناس حين يجرسن من أزهار بساتينهم، ولأمانتهن يؤدين ما اقترضنه سكرة بسكرة ـ وهي قافية لا تسلم من عناء ـ قال:

ما اقترضت من بقلة أو استعارت زهرة
أدت إلى الناس به سكرة بسكرة

ولننظر الآن في مقالة حافظية بعد هذه الشوقية. وكان حافظ من تلاميذ البارودي، يحذو على نموذج ديباجته، فتشرق عليه من ذلك أحيانا إشراقة. وما جعل البارودي نموذجا يبغى أن يتفوق عليه بمحاكاته كما فعل شوقي، إذ كأنه كان كالمسلم بتفوقه وإستاذيته ولكن منافسته كانت لشوقي. وقد مر لي في كلام سابق: «وحافظ إبراهيم شاعر قرنه حسن الجد بشوقي، وتعصب بعض الناس له، لما كانوا يجدونه في شعره من كلام يناسب روح العصر السياسي المغيظ على البريطانيين. وشعره في حد ذاته لا يجوز أن يقاس ويقرن مع شعر شوقي، ولعل مسافة ما بينه وبين شوقي أبعد من مسافة مابين ابن حجاج والمتنبي ـ أقول الآن، لعل هذا القول أن يكون فيه جور على حافظ، إذ هو أحيانا أصفى ديباجة من شوقي، وهذا وجه أحسب أن الدكتور طه حسين ذهب إليه في بعض ماتناولها به من الدرس والنقد. وإلى القارىء بعد بائيته التي عنوانها غادة اليابان ـ هي أيضا مقالة قصيدية فيها عنصر غنائي. وحرص حافظ على مقاربة روح القصيدة بنفس فيه أصداء من جزالة البارودي ومقدمات تأملات القدماء التي يجعلونها تمهيدا حزين النغم يقوم مقام النسيب، كقول الأعشى مثلا:

لعمرك ما طول هذا الزمن على المرء إلا عناء معن

قال رحمه الله:

لاتلم كفي إذا السيف نبا صح مني العزم والدهر أبى
رب ساع مبصر في سعيه أخطأ التوفيق فيما طلبا
مرحبا بالخطب يبلوني إذا كانت العلياء فيه السببا

عقنـى الـــدهــــر ولــــولا أنني أوثـــــر الحسنى عققت الأدبــــا
إيــه يــادنيــا اعبسى أو فــابسمى لا أرى بــــــرقك إلا خلبــــا

المطلع جهير قصيدى قارع للسمع

ثم هو خطابي وسـوغ هذا للشاعر أن يتخـذ سمتا من الخطابة الـواعظة في البيت الذي تلاه ــ غير أن هذا البيت بدأ بحضر جيـد ثم انبهر إذ كأن حـافظا أرادبه تقـوية المعنى الذي أصابـه في المطلع ولكن مراده لم يستقم له . قـوله «الدهر أبى» ـ أجـود وأوجز من قـولـه «أخطأ التـوفيق فيما طلبـا» ، إذ هـذا فيــه عنـاء والتـوفيق ليس بـالـذي يخطئـه طالب ، وإنما هو عـون يجيء من الله سبحانه وتعالى . قولـه «رب ساع مبصر في سعيه» يحتاج إلى تكملة قوية إذ هو بداية وتوطئـة حسنة ، فهذا قولنا إن حافظا بدأ بحضر (أي جري) جيد ثم عجز من بعد .

والبيت الثـالث أولـه حسن ، وتتمته تحتمـل ولكن فيها عنـاء . والمعنى في صـدر البيت الرابع واضح ولكن العجز فيه غموض ، مع ما عمد إليه حافظ من المقابلة .

ولكأن حافظا جعل في هـذا النفس الخطابي بعض كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات اللـه عليه ، حذوا يحتذيه ، وذلـك مثل قوله عليه السلام : «يـا دنيا غرى غيري» وقوله : «ولكن لا رأي لمن لايطاع» وقوله «ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل» وقديما قـالوا إن زيادا والحجـاج وعبدالحميد الكـاتب ، كل أولئك تعلموا البـلاغة من خطب أمير المؤمنين كـرم اللـه وجهه . فأخـذ حـافظ من بـلاغته سير منـه على طـريق مهيع . وعجز البيت الخامس «لا أرى برقك إلا خلبا»أضعف من صدره .

على أن المتأمل لهذه الأعجـاز الضعـائف ، واجـد فيهـا جميعـا مشابــه غير الضعف . نوعا من مسرحيـة «في جواب سؤال» رب ساع مبصر الخ ـ مـاذا جرى له : لم يوفق . مـرحبا بـالخطب ، لماذا ترحب به ؟ لأنـه طريق إلى العليـاء ، العلياء هي السبب الذي جاء بـه . عقنى الدهر ولولا أنني أوثر الحسنـى ـ ماذا كنت تفعل ؟ كنت سكت وتملقت الاستعمار ولم أقل شعـرا . إيه يـا دنيا أعبسي أو فـابسمي . لماذا هذه التسـوية ؟ لأنك كاذبة ، عبوسك وابتسامك سواء وبرقك برق خلب .

هذا الأسلوب الذي حاق مذهب رصانة القصيدة لا يرضاه ، يرضاه حاق مذهب الصحـافة الشعبيـة كل الـرضا . ويكتسب في ضـوء هـذا الرضـا ، نـوعا من صفـاء في الديباجة . فتأمل .

ثم بعد أن جعل هـذه الخطابـة العلوية الشكـوى مقدمـة ، صرح بمعنى استثارة الهمم الراكدة . التي ركودها هو سبب شكـواه . وهذا موضوع الأخلاق التي هي النظام والدأب والتدبير المبلغ إلى مثل مستوى حضارة أوربا

أنـــا لـــولا أن لي مـن أمتـي	خـاذلا مـابـت أشكـو النـوبـا
أمـة قـد فت في سـاعـدهـا	بغضهـا الأهل وحب الغـربـا
تعشق الألقـاب في غير العلي	وتفـدي بـالنفـوس الـرتبـا
وهي والأحـداث تستهـدفهـا	تعشق اللهـو وتهوى الطـربـا
لا تبـالي لعب القـوم بها	أم بها صرف الليـالي لعبـا

فهذا خاتمة لومه أمته التي أحوالها المؤسفة هي سبب شكواه الدهر. البيتان الأولان ثانيهما متم معنى أولهما وأولهما ممهد لتاليهما ، متضمن سؤالا فيـه جوابه ـ إذ السؤال كيف خذلتك أمتك ؟ والجواب أنني أدعو إلى حب الأهل وبغض الأجانب وهي لا تطاوعني على ذلك . وكلمة الغرباء لا تؤدي معنى الأجانب ، أجانب أوروبا وخاصة البريطانيين المستعمـرين ، ولكن حـافظا لم يجد غيرهـا . وكلمـة الأهـل أيضـا لا تـؤدي معنى المواطنين . ولكن مـراد الشاعـر مع هذا ظـاهر. ثم« في الأهل والغـرباء» نـوع من نفس بلدي شعبي ، يـوهم بأن الشاعـر قد قصـد إلى هذين اللفظين قصـدا ، ولم يلجئه إليهما عجز أو إعياء . قوله "وتفدى بالنفوس الرتبا" إن هي إلا إطناب في معنى صدر البيت «تعشق الألقـاب في غير العلى» وصدر البيت أوفى . وهل أراد حـافظ لغير العلى تفسيرا بقوله «وتفدى بـالنفوس الرتبا» ؟ فالرتب من العلى . وكأن حـافظ يسخر من هذا الذي يتوهمه طلاب الـرتب أن فيها العلى . والتعبير بعد صحفي لأن قوله «وتفـدى بالنفوس» إنما أراد بـه تبذل المجهـود العظيم من أجل الحصول على الـرتب ، فكأنه النفيس الـذي يفدى بالنفس والنفيس . وقوله "تهوى الطـربا" أجود لو قال وتهوى اللعب ، لأن اللهو واللعب مصطحبان ، وعلى ذلك وبه جاء بيان القـرآن . ولكن حافظا احتاج إلى اللعب في البيت التالي ، ليهزأ من أذناب الاستعمار الذين لهم في الـدولة مكان ، أنهم قد سمحوا للقوم أي الإنجليز أن يعبثوا بمصالح مصر، ثم مـا كان لهم عند أنفسهم من اعتذار إلا أن ينسبوا مـا حل بهم وبأمتهم إلى صروف الليـالي ، «وتلك الأيام نـداولها بين الناس» ـ وإذا تأملنا جـانب الخطابة الهازئة في " لا تبـالي لعب القوم " ـ وسر الهزؤ كلـه في القوم الـذين هم أيضـا صرف الليـالي ، تبين لنـا أن حـافظـا لعلـه مصيب في ادخـار كلمـة اللعب ، ليكـون اللهو الـذي هوطـرب منهم واللعب المصـاحب معه ، من القـوم ومن الدهر المهيمنين عليهم .

ثم أخذ حـافظ يقص قصة اليـابان على لسان رمـز ضمنه معنى الحريـة متمثلا فى المرأة الجندركية البـاسلة ، ثم في مشاركتها للرجل فى تحمل الاخطـار والنهوض بما تطلبه

واجبات حضارة العصر ودواعي التقدم المنشود. ولا يخفى أن الدب الذي هو رمز الاستعمار الروسي بالنسبة لأهل اليابان والمشرق الأقصى، هو أيضا رمز للاستعمار البريطانى الجاثم على مصر، اذ اليابانية هي كالكناية عما في ضمير مصر الناهضة المشرئبة إلى تجديد مجدها القديم

ليتهـــا تسمع مني قصـــة ذات شجـو وحـديثـا عجبـا
كنت أهـوى فى زمـانى غـادة وهـب اللـه لها مـا وهبـا
ذات وجـه مـزج الحسن بـه صفـرة تنسي اليهـود الـذهبـا

هل أراد حـافظ هنا الإشـارة إلى الآية: « إنـه يقول إنها بقرة صفـرآء فاقـع لونها تسر الناظرين » ؟ لماذا خص اليهود هنا بأن صفرة هذه الفتاة تنسيهم الذهب. . . . هنا بلا ريب مبالغـة ذات لون من مفاكهـة شعبية إذ لا ينسى اليهود صفـرة الذهب مهما يبلغ جمال صفرة الحسنـاء اليابانية من البهجـة. ههنا أسلوب صحفى، وكأن شعـور حافظ بصحفيته هو الذى دعا من بعد قوله:

حملـت لى ذات يـوم نبأ لا رعـاك اللـه يـاذاك النبـا

وإنما تحمل الأنبـاء الصحف. وفى القافيـة قلق. ولعلها كـانت تكون أقـوم لو قـد قـال: لا رعاك اللـه يـا ذاك نبا من دون الألـف واللام وتخفيف الهمـزة فيـه ما فيـه، إذ الألفات اللاتى سبقن كلهن ألفات إطلاق إلا أبى ونبا ورنتها مع ما تلاهما منسجمة.

وأتـت تخطـر والليـل فتـى وهـلال الأفق في الأفـق حبـا
ثـم قـالت لى بثغـر بـاسـم نظـم الـدر بـه والحبـبـا

هذا البيت على بساطته وكثرة تداول الشعراء مثل لفظه ومعناه، سلس الموقع ههنا. قوله نظم الـدربه، يعود الضمير فيه إلى معنى الابتسـام، فالدر الثنايـا والأنياب اللاتى لهن وميض والحبب هو اللمى، إذ الشفتـان خمر. والبيتان اختزلها حافظ من مغـامرات عمر وأضرابه من شعراء الغزل اختزال إشارة حسنة الموقع.

نبئـونى بـرحيل عـاجـل لا أرى لى بعـده منقلبـا
ودعـانى وطنـى أن أغتـدى علنى أقضـى لـه مـا وجبـا
نـذبـح الـدب ونفـرى جلـده أيظـن الـدب ألا يغلبـا
قلت والآلام تفـرى مهجتـى ويك مـا تصنع في الحرب الظبـا
مـا عهـدنـاهـا لظبى مسرحـا يبتغـى ملهى بـه أو ملعبـا

ليست الحرب نفـوسـا تشترى ... بـالتمنى وعقـولا تستبى
أحسبت القـد من عـدتها ... أم ظننت اللحظ فيهـا كـالشبـا
فسلينى إننى مـارستهـا ... وركبت الهول فيهـا مـركبـا
وتقحمت الـردى فى غـارة ... أسـدل النقع عليهـا هيـدبـا
قطبت مـا بين عينيهـا لنـا ... فـرأيت الموت فيها قطبـا
جـال عـزرائيل فى أنحـائهـا ... تحت ذاك النقع يمشى الهيـدبى
فـدعيهـا للـذى يعـرفهـا ... والـزمى يـاظبيـة البـان الخبـا

أعلنت فتاة حافظ بينها إعلانا مفاجئا هي نفسها له. لم تسبقه بأمرها كما سبقت أم عمرو الشنفرى. وما كانت فتاة حى ظعينة يعلق بها القلب ثم ما هو الا أن تروع المحب حمولة أهلها وهي تسف الحب، وركائبها قد زمت بليل. إنها فتاة عصرية يابانية ضربها مثلا يستحث به مصر وأمتها التى تنشد العز والتحرر. وقد أحسن حافظ إذ جعل اليابانية التى تذبح الدب الروسي رمزا لما يأمله من نهضة أمته المصرية العربية المسلمة لتذبح الاستعمار البريطانى وتغوله الصليبى، ذلك بأن اليابان بدأت نهضتها في وقت مقارب لبداية محمد علي إلا أن محمد علي بدأ بالحربية والأسطول في بلد عيون أعدائه عليه متفتحة أشد التفتح بالمراقبة والحذر، والكراهية الدينية العميقة الجذور. فانتهزوا أول فرصة فوثبوا على الأسطول المصرى فأغرقوه. وعلى تقدم الجيش المصرى فصدوه. ثم دخلوا مصر بتأريخ " استعمارهم " المعروف. وقد كان محمد علي بجهله وغروره مطية من مطاياهم تذرعوا به الى التوغل في افريقية وإدخال التبشير من وراء ظهر الاسلام ليطعنوه به. وكان أمر الله قدرا مقدورا.

هذا وقد تصرف حافظ في نهج القصيدة. شاعر قصيدته يشكو إخفاقه ونبو سيفه وعقوق الدهر له والخذلان الذى حاق به في مكان نسيب الشعراء. ويأتى بنسيب رمزي فتاته يابانية فارسة مقاتلة هى التى تعلن العزم على رحيل جد، لا رحلة ظعينة على هودج، ولكن رحلة عزم كالتى زعمها طرفة لنفسه ولناقته حيث قال:

على مثلها أمضى إذا قـال صـاحبى ... ألا ليتنى أفـديك منهـا وأفتـدى
وجـاشت اليـه النفس يـومـا وخـالـه ... مصـابـا ولـو أمسى على غير مـرصـد

وقد اصطنع حافظ حوارا خطابي الصيغة، لا يقصد به إلى تمثيل ما يقع من حوار غرامي، ولكن جعله مذهبا من مذاهب التحضيض والموعظة الحسنة. وقد تلاحظ جانب المبالغة الشعبية الصحفية الفكاهية الروح شيئا في قوله:

قلت والآلام تفـرى مهجتى ... ويك مـا تصنع في الحرب الظبـا

النفس ههنا مصرى قاهرى خالص. ثم أتبعة حافظ عبارة ذات لون من تفخيم « ما عهدناها لظبي مسرحا» - ثم فرغ من هذا المعنى نوعا كأنه تعريض بما عليه حال النساء المحجبات النواعم

أحسبت القـــد مـن عـــدتها   أم ظننت اللحظ فيهـا كـالشبـا

فسلينى إننى مارستها . . .

والأبيات التى تلى، على أنها مذهب خطاب، لا أكاد أشك أن حافظا انتزعها من ذكرى تجربة حرب خاضها حقا. أو شهدها تخاض. أو كأن قد فعل لقرب عهد بخوضها. وذلك أنه كان في جيش كتشنر الذى حارب الخليفة رحمه الله. وقد وصف قتالهم بخيلهم وحرابهم الواصفون، إذ هم تحصدهم نيران المكسيم، ويقدمون، رجاء الشهادة في «شأن الله» وفى «سبيل الله». ومما يدل على صدق المشاهدة ذكره النقع وهو غبار "كررى". ووصف حافظ قريب فى جوهره والصورة الخاطفة التى صورها من وصف المستر تشرشل فى كتابه The River War ومما ينبىء بخوف حافظ قوله: «جال عزرائيل في انحائها»وما كان مشيه الهيدبى، إذ الهيدبى من مشى الإبل، وانما كان يشد شدا. وأحسب أن حافظا قصد إلى التجنيس حيث جاء بـ «هيدبا» من قبل. وقد يكون استشعر فى لفظ الهيدبى نوعا من التهويل. ثم رجع إلى التعريض بحال الحجاب والتنعم مرة أخرى: «والزمي ياظبية البان الخبا» وفي هذا من روح الفكاهة المصرية بعض الأنفاس. وكذلك في قوله من بعد:

فأجـــابتنى بصـــوت راعنـى   وأرتنـى الظبى ليثـــا أغلبـــا

وقد التزم شوقى فى مبالغته "جنس النحلة إذ جعلها لبؤة. وحول حافظ نوع الظبية وجنسها معا فجعلها أسدا ذكرا. وفي كلتا الحالتين مذهب الشاعرين قريب من قريب، إذ ما عدوا التصرف فى تشبيه البسالة المعروف. ومثل هذا التصرف من طبيعة الأسلوب الخطابي أو الكتابي المبسط الصحفي المنحى إذ اللبؤة والأسد الأغلب ليسا هنا تصويرا ولكن عبارة لفظية بحتة، كما لو قال شجاعة مع صفة تقويها نحو جد شجاع وحق شجاع وجد شجاعة وحق شجاعة وهلم جرا.

فأجـــابتنى بصـــوت راعنـى   وأرتنـى الظبي ليثـــا أغلبـــا
إن قـــومى استعـــذبوا ورد الـــردى   كيف تـــدعـــونى ألا أشربـــا
أنـــا يـــابـــانيـــة لا أنثنى   عـن مـــرادى أو أذوق العطبـــا

قوله راعني فيه تشبيه لصوتها بزئير الأسد الذى شبهها به . ثم رجع بها فى ساحة الحرب ظبية مرة أخرى . وفي كل ذلك من أربه التنبيه على دور النساء الذى ينبغى أن يقمن به في نضال العصر الحضاري الجديد . ولا يخفى أنه بذكره تضميد الجرحى وحصره عمل مشاركة المرأة الحربية في هذا الباب ، يرمى إلى ماكان يعتقده هو وكثير من مثقفى عصره من ضرورة التوسط في أمر تحرير المرأة والاعتدال الذي فيه إبقاء على كثير من محافظة الحجاب والحشمة التي معه

أنا إن لم أحسن الرمى ولم تستطع كفاى تقليب الظبا
أخدم الجرحى وأقضى حقهم وأواسى في الوغى من نكبا

وهذا منهج التمريض الحضاري الجديد الذى تنسب أوائله إلى «فلورنس نايتنجيل» ـ وهو أقدم من ذلك بدهور.

هكذا الميكاد قد علمنا أن نرى الأوطان أما وأبا

«الميكاد» هنا رمز للمستبد العادل . أو الطاغية المصلح ، كما زعم مطران ولا يخفى التناقض . أو رمسيس :

ملك يكفيك منه أنه أنهض الشرق فهز المغربا

وإنما أراد الغرب ، إذ المغرب لا يعرف علما إلا على بلاد المغرب الاسلامية ولكنها القافية . ولا أحسبه واجدا غيرها .

وإذا مارسته ألفيته حولا في كل أمر قلبا

مثل سادة بني أمية ـ معاوية وعبدالملك والوليد

كان والتاج صغيرين معا وجلال الملك في مهد الصبا

المعنى هنا غير واضح واللفظ قريب وكأنه ضمن قوله هذا آخذا من الآية «ويكلم الناس في المهد وكهلا» ـ «وءاتيناه الحكم صبيا» ولشوقي ولع بالمسيح أفاده من تعلقه

بالثقافة العصرية ومثل المسيحية الحضارية وكأن رشاشا من أمواج شوقي أصاب حافظا فمسح من طريق تعبيره ههنا.

فغدا هذا سماء للعلا وغدا ذلك فيها كوكبا

ونظم البيت محذو على قول الخليل بن أحمد المشهور يذكر عيسى بن عمر، وكتابيه الإكمال والجامع

بطل النحو جميعا كله غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع وهما للناس شمس وقمر

وطريقة المحاكاة في هذا ـ وذلك، مع ذكر السماء والكوكب كما ترى.

بعث الأمة من مرقدها ودعاها للعلى أن تدأبا

وما كانت أمة الميكاد راقدة. فهذا مثل ضربه حافظ وعودة منه إلى ماذكره أولا حيث قال: «لا تلم كفى إذا السيف نبا»وحيث قال: «أنا لولا أن لى من أمتى خاذلا إلخ «وحيث قال«أمة قد فت في ساعدها» ـ فالأمة هنا هي أمة حافظ، وما تقدم من ذكر الميكاد إنما هو مثل واستثارة ورمز:

فسمت للمجد تبغى شأوه وقضت من كل شيء مأربا

من الصناعة والتجارة وذبح الدب جميعا.
ولحافظ كلمات فيهن مثل هذا التصرف بمنهج القصيدة وإشرابه معاني العصر مع وحدة الموضوع والأسلوب الذى يخاطب جمهور المثقفين ـ اقرأ مثلا حريق ميت غمر

سائلوا الليل عنهم والنهارا كيف باتت نساؤهم والعذارى

ورعاية الأطفال:

شبحا أرى أم ذاك طيف خيال لا بل فتاة بالعراء حيالى

ومدرسة البنات ببور سعيد وهي في موضوع تعليم المرأة:

حافظ وشوقى كلاهما قد أخذا من القصيدة وزنها وقافيتها وتصرفا فى وجوه من أساليبها وحرصا على سلامـة الديباجة ورصانتها مـا استطاعا . وتشوب ديباجة شـوقي خشونة صناعـة وعمل وكـدرهما وتشوب ديباجـة حافظ شعبيـة تقارب أن تنحـرف إلى بعض الابتذال . كلاهما بعـد قصيدته مقالة فى التبـويب و الترتيب والمذهب البياني الصحفى المعدن . إلا أن أسلوب شوقى صحفى كتابي . وأسلوب حافظ صحفى خطابي . شوقي مكب على طرس يكتـب لمن سيكب على طرس . وحافـظ ينشد ويلقى أمام جمهـور ثم تطالع الصحافة من الغد قراءه من سمعـه منهم ومن لم يسمعه . وقد ينشد شعر شوقى من ينوب فيه عنه ، ولكن سنخه ما ذكرنا .

هذا وشـوقى وحافظ بعـد يشتبهان في عنصر من عناصر التجـديد ، ذكـرنا من قبل أن السـوربونـى رحمه الله ، كأنـه قـد فطن لـه فى معرض حـديثـه عن شاعـريـة اسماعيل صبرى ، وهو ما اصطلح له النقاد لفظ Lyrique ـ أى الغناء أو الشعـر الغنائي . وقد بينا من قبل رأينا أننا لانعد القصيدة العربية من الشعر الغنائي بما أغنى عن إعادة ذلك ههنا ، ولكن حافظا وشـوقيا أخذا بوحدة الموضوع ، يـديران القصيدة حول قطب ومحور من فكرة . ثم يتقمصـان تلك الفكرة وذلك الموضوع تقمصا ذاتيـا ـ أعنى أنهما يتمثلان الفكـرة والموضـوع أن ذلك امتـداد من أنفسهما ثم يسبغـان على الفكـرة والموضـوع من تقمص أنفسهما لـذلك ، أو بسبب صيرورة ذلك امتـدادا لأنفسهما ، معنى إنسـانيـا شاملا ، هذا المعنى الشـامل ، وهو امتداد ذاتيتها الآن التي قد صارت إنسـانية شاملة ، يتوخيان به أن يحاكيا ما تفعله هذه الانسانية الشاملة بقولها . هناعنصرالمحاكاة للطبيعة ـ تمثل شوقي مايريده لأمته من دقة ونظام وتدبير وأمانة وهكذا من الأخلاق التي ينبغي أن تتصف بها حتى لا تـذهب وحتى لايصير بنيـان قـومهـا خـرابا ـ تمثلـه مملكـة النحل ، وحاكي بلفظه ووصفه وتأمله حال النحل ويعسوبها الذى يريده حالا لقومه ـ إلى نحو من هذا الوجه ذهب مطران حيث قال :

أكبر بـرمسيس ميتـا لايلم بـه ... مـوت وأكبر بـه حيـا إلى الآن
مـازال بـالقـوم حتى صـار بينهم ... إلـه جنـد تحابيـه وكهـان
ورب سـائمـة بلهـاء هـائمـة ... تشقـى وتهواه في سر وإعـلان
يسـومهـا كل خسف وهى صـابـرة ... لاصبر عقـل ولكـن صبر إيمان
فبجلت تحت تـاج الملك مـدميهـا ... وقبلت دمهـا فى المرمـر القـاني

مخلـــدا دون من قـــامـــوا بـــرفعتـــه   من شـــوس حـــرب وصنـــاع وأعـــوان
مخالســا ذمــة العليــاء مضطجعــا   من مهــد عصمتهــا في مضجع الــزاني

وقد نبهنا إلى قبح هذا البيت ـ وإلى نحو هذه ذهب اسماعيل صبرى حيث قال

لا القــوم قــومى ولا الأعــوان أعــوانى   اذا ونى يــــوم تحصيل العــــلا وانى
لاتتركــوا مستحيــلا فى استحــالتــه   حتى يميط لكم عن وجــه إمكــان
مقــالــة قــد هــوت من عــرش قــائلهــا   على منـــاكب أبطـــال وشجعـــان
لـــو غير فــرعــون ألقــاهــا على مــلأ   فى غير مصر لعـــدت حلـم يقظـــان
لكن فـــرعــون إن نــادى بها جبــلا   لبت حجــارتــه فى قبضـــة البــانى
وآزرتـــــــــه جماهير تسيــل بها   بطـــاح واد بماضى القــوم مــلآن
بـرا بــذى الأمـر لا خــوفــا ولا طمعــا   لكنهم خلقـــوا طـــلاب إتقـــان

وازن بين جميع هذا وقول حافظ :

هكـــذا الميكـــاد قـــد علمنـــا   أن نـــرى الأوطـــان أمـــا وأبـــا
بعث الأمـــة مـن مـــرقـــدهـــا   ودعـــاهـــا للعـــلا أن تــدأبـــا
فسمـت للمجـــــــد تبغـى شــأوه   وقضـت مـن كل شـيء مـأربـــــا

وقول شوقي :

مالكة عاملة   مصلحـة معمـرة
المال في أتباعها   لاتستـبين أثــره
لايعرفون بينهم   أصلا له من ثمره

يعنى أصل مال له قائم عليه يثمره .

لـــــو عـــرفـــوه عـــرفـــوا   مــن البــــــلاء أكثـــــــره
واتخذوا نقـــــابـــــة   لأمـــــــــــــرهـم مسيرة
سبحــــان من نــــزه عنـــــ   ــــــه ملكهـم وطهــــــره

الهدف في جميع هذه الكلمات واحد. وحافظ وشوقى أجود جرسا وافتنانا وفضل شوقى

على حافظ لا يخفى، مع ما قدمناه من احتراس.

شاعر القصيدة العربية الأصيلة لا يحاكى الطبيعة ملحميا أو «دراميا» أو «ليريكيا» ـ إنه يقول مكافحة مواجهة مثلما كان يفعل انبياء بنى اسرائيل. هكذا وصفهم الناقد العربي القديم.

ونقول، استطرادا في الموضع، إن الناقد العربي القديم لم يكن بدائيا فطريا ساذجا، هذا قول يقوله من يقلد به دعاوى الافرنج فى التفوق المنطلقة كلها أو جلها من نقطة ارتكاز عرقية"Ethno - centric" كما يقول بعض علماء الاجتماع المعاصرين في اصطلاح اللغة الانجليزية. وقد يحسن أن ننبه إلى أن كتاب الله العزيز فيه من أمر النقد المتمكن الدقيق ما لو تنبه له أهل الفكر لكان لهم ناهيا عن اتهام قدمائنا بالفطرية والسذاجة في النقد ــ قال تعالى (سورة المدثر) «إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر» ـ هذا الناقد البدائى الفطرى الموصوف ههنا ينظر في قضية من أخطر قضايا النقد. هل هذا وحى صادق من عند الله أو هو قول افتراه ــ هذا الناقد الساذج الفطري الموصوف ههنا بأدق ما يوصف به ناقد متمرس، كان من ملأ قريش، شيخا من كبارهم، وما في الآية إشارة إلى فطرية فيه أو سذاجة، ولكن إلى جبرية ودهاء. وما كان ملأ قريش أهل سذاجة. وهم الذين فتحوا الفتوح وعلموا الناس العلوم وآيات التحدى والنقد التى تنبىء عن حال ما كان عليه القوم من معرفة البيان وتمحيصه كثيرات، وليس ههنا موضع الاستقصاء بله أخبار النقد التى رويت عن النابغة وطرفة وحسان وهلم جرا.

اعلم أيها القارىء الكريم أن حافظا وشوقيا (وقد يرى بعض الفضلاء ألا تنصب شوقى بفتحة ظاهرة وبتنوين ولكن تحكى إذ هذا علم وتكون كقولهم بادى بدا وأيدى سبا وكأن السوربوني يقول بهذا لالتزامه حالة واحدة في اسم شوقي، وعندي أن هذا اسم عربي يخضع أو ينبغي أن يخضع لما تخضع له أسماء العرب وإنما تصح الحكاية في نحو شوكت ورفعت وعصمت ومدحت لأن هذه حكاية لوقف عاصم ونافع وبعض القراء في تاء التأنيث التي رسمت في المصحف مفتوحة وهو مذهب للعرب حكاه سيبويه عن أبى الخطاب) ـ رجع الحديث إلى ان شوقيا وحافظا ما كانا تقليديين محافظين على عمود القصيدة، ولكنهما أدخلا فيه تجديد شكل وطريقة أسلوب هي هذه " الليريكية "، مع ما أخذا به من أسلوب المقالة ووحدة الفكرة والموضوع مما كانت تدور حوله أحاديث أهل الفكر واصطراع آرائهم ومذاهب التماسهم سبل النهضة والحضارة الجديدة والتحرر من المستعمر. . . ومن المحافظة التي عليها المسلمون إلى ذلك الحين، مما جرى عند طلاب التقدم مجرى التخلف والتأخر والرجعية.

كان حافظ وشوقي وجيلهما في مصر وغيرها من بلاد العرب، والمتأثرون بهم اولئك جميعا رواد نهضة. وكان شوقى أكثر تجديدا وأعظم افتنانا من حافظ بما نظم من المسرحيات والأقاصيص والسير. وكل هذا فارق به أسلوب القصيدة واستحدث به وجها جديدا من مسالك الوزن والقافية غير أن أول مفارقته الخطير الشأن كان هذا المذهب المقالي القصيدي الغنائي - وقد سبق في أوائله مذهبا، ولكنه هو وحافظ خاصة قد جعلاه طريقا مهيعا. ولم يخل حافظ من نظم مسرحي في كلمته.

ليـــلاي مـــا أنـــا حي   يـــرجي ولا أنـــا ميت

ولا من نظم قصصي في عمريته:

حسب القـوافي وحسبي حين ألقيها   أني إلى ساحـة الفـاروق أهـديها

وقد جارى بها وزن بعض مشهورات المدائح النبوية. غير أنه بجعله الفاروق قصد مدحته، إنما ضرب بذلك مثلا من أمثال روح عصره، التي كان المديح النبوي في أنظار مثقفيها من طابع المحافظة وحالها وكأن ذكر عمر بن الخطاب بمنزلة الرمز لما يرغبون فيه من تجديد مجد الاسلام وفتوحه - فكان عمر في نظر رواد النهضة الاسلامية العصرية التي تمخضت من بعد عن حركة الاخوان المسلمين مثلا، علم البطولة الذي يحركون به القلوب.

هذا وكما كان رأى شوقي وحافظ وجيلهما الاعتدال في قضية تحرير المرأة - قال حافظ:

أنـا لا أقول دعـوا النساء سوافرا   وسط الـرجـال يسرن في الاسـواق

في دورهـن شئـــونهن كثيرة   كشئـــون رب السيف والمخـراق

وقال شوقي:

يـاطير لـولا أن يقـولـوا جن قلت تعقل

انـت ابن رأي للطبيعـة فيـك غير مبـدل

ابـدا مـروع بـالإسـار مهـدد بـالمقتل

إن طـرت عن كنفي وقعت على النسـور الجهل

كذلك كان رأيهما في قضية تجديد الشعر وتحريره من قيوده القديمة أن يكون ذلك فيه اعتدال. وقد كان شوقي كثير الاتباع لشعراء الغرب. حاكى لافونتين وراسين وشكسبير في الأقاصيص والمسرحيات، لا بل في بعض القصائد - مثلا: «ألا أحبذ صحبة المكتب» فهي على جودتها محذوة على كلمة شكسبير All the world is a stage (كل الدنيا كخشبة المسرح) «وقد عرضنا لأشياء من هذا المعنى في غير هذا الكتاب بتفصيل نحيل القارىء الكريم إليه إن شاء الله».

كان شوقي يعلم من أمر حركات التجـديد والتحرر من الأوزان التي كانت بأوربا وربما كان يتحدث بها أدباء زمانه في مجالسهم. والمنظر الذي في مسرحية مجنون ليلى يتخلى فيه الأموى (شيطان الشعر) عن قيس فينظم هذا كلامـا مسجوعا مضطربا غير موزون فيه وحي برأي شـوقي في قضية وزن الشعـر وقيوده وأن التطرف في طلـب التحرر من ذلك غير حسن.

هذا والذي صنعـه حافظ وشوقي من التجديـد ـ على ما اعتدلا به فيـه ـ كأن قد أدخل على عنصر دولة القصيدة الأصيلة كما أقامها البـارودي، جندا دخيلا كان على يديه من بدء انهيار هيبتها المؤذن بالضعف ثم الهلاك والـدمار ـ كما جاء المعتصم بغلمانه وجنده الترك فقتلوا ابنه المتـوكل من بعد وقوضوا أركـان الخلافة، فما لبث بها الضعف من حال إلى حال، حتى أزالها كل الزوال، ولله الأمر من قبل ومن بعد، وإليه المصير.

كان بعد حافظ وشوقي وعلى زمانهما شعراء ـــ ولكن ماء ولا كصداء (كصدعاع يافتي هكذا قال أبـو العباس) ومرعى ولا كالسعدان. وآثر أهل البراعـة النثر. كإيثار الجاحظ وجيله القادرين على الشعر له، حتى صاروا بأغراض رسائلهم إلى مشابه من أغراضه.

وبرز من بين أهل البراعة طـه والرافعي والعقاد [1]كل تبريز. أما طـه فقد خلص بنفسه خلوصا إلى تجويـد المحاضرة والمقالة والقصـة والكتاب. وقد رزق السلامـة مع الصفاء ونقاء اللغة وسحر إيقاع البيان. كان رحمه الله في هذا نسيج وحده. ولعل أدنى الأدباء ـ كان من بعده من مثل طريقته في النقاء الدكتور "زكي مبارك" رحمه الله.

ثم قد كان للزيات إيقاع مهذب وازدواج ذو عذوبة ونغم ورنين. وكان الرافعي والعقاد شاعرين ناثرين، واحسب أن الـرافعي تخلى عن نظم الشعر باخرة، غير أن في المقالات التي كان يـوافي بها الرسـالة ثم صـدرت معا في كتـاب واحد باسم "وحـي القلم" ما عسى أن يدل على أنه استمـر ينظم الشعر من حين إلى حين، ومن أعجب كلماته إلى في وحي القلم «بنته الصغيرة» وقد ضمنها قطعة بالدارجة ذات طعم حلو:

يـــــاليـل يـــــاليـل يـــــاليـل
مــــــا تنجلي يـــــــاليـل
القلـــب أهـــــــــــو راضـــى
مـن الهمـــــــــوم فـــــــاضـى

---

(١) توفي الرافعي سنة ١٩٣٧ م والعقاد سنة ١٩٦٤ م وطه حسين ١٩٧٣ م رحمهم الله تعالى.

وللرافعي رسائل من النثر عمد فيها إلى اغـراض الشعر وروحه ، على نحو ينظر بسلامة أسلوبه وقوة أسره إلى مقـامات الزمخشري ورسائل قدماء البلغـاء ، وبأنفاس وجدانه إلى «الـرومنسية» التي منهـا أشياء في نظـرات المنفلوطي وعبراتـه ، ولكن سائرهـا من نفس الرافعي ووجدانه وتصوفه . وربما خلط بين الشعر والنثر على طريقة المقامة الحريرية أو البديعية ـــ خذ هذه القطعة مثلا مـن «زجاجة العطر» في أوراق الورد (الطبعـة السابعة ١٣٨٣هـ ـــ ١٩٦٣م ص ٤٢) : «وأهدى إليهـا مـرة زجاجـة من العطـر الثمين وكتب

معها : يا زجاجة العطر، اذهبي إليها ، وتعطـرى بمس يديها وكوني رسالة قلبي لديها . وهأنـذا أنثر القبـلات على جوانبـك ، فمتى لمستك فضعي قبلتى على بنانها ، وألقيهـا خفية ظاهرة في مثل حنو نظرتها وحنـانها ، وألمسيها من تلك القبلات معاني أفراحها في قلبي ومعـاني أشجـانها . وهأنـذا أصافحـك ، فمتى أخذتـك في يدهـا فكـونى لمسة الأشـواق . وهأنـذا أضمك إلى قلبى ، فمتى فتحتك فـانثـرى عليها في معـاني العطـر لمسات العنـاق . إنها الحبيبة يا زجاجـة العطر. وما أنت كسواك من كل زجـاجة ملئت سائلا ، ولا هي كسواهـا من كل امرأة ملئت حسنا ، وكما افتنت الصنـاعة في إبداعك واستخراجك ، افتنت الحيـاة في جمالها وفتنتها حتى لأحسب أسرار الحيـاة في غيرها من النساء تعمل بطبيعة وقانون ، وفيها وحـدها تعمل بفن وظرف . وأنت سبيكة عطر كل مـــوضـع منك يأرج ويتـــوهج وهي سبيكـــة جمال كـل مـــوضع فيهـــا يستبى ويتصبى . . . . . » هنا عنـاء وكد أحلى منه عندى انسياب طـه وإسماح طبعه . ولكن حظـه من الإحساس والتأمل وجـودة التعبير وصحتـه عظيم . وللرافعى شعـر هو فيـه أسمح طبعا ، ولكنه على جودته لا يضعه في مكان من التبريز كما يضعه نثره ـ مثلا قوله في أوراق الورد (٥٨)

وكم حـــار عشـــاق ولا مثـل حيرتى	إذا شئت يـــومـــا أن أســـوء حبيبي
وهـل لى قلـب غير قلبي يســـــوءه	ويأخــــذ لى في الكبريـــــاء نصيبى
ألا ليـت لى قلبين قلـب يحبـــــــه	مـــريـض وقلب بعـــد ذاك طبيبى
ويـــا ليت لى نفسين مـن رئم روضـــة	ألـــوف ومن ذى لبـــدتين غضـــوب
وكيـف بقلب واحــــــد أحمل الهوى	عجيبـــــا على طبعى وغير عجيـب
فـــو اللـــــه إن الحب خير محاسنى	وواللــــه إن الحب شر عيـــــوبى

رنـة الشعـر وأسره كـل ذلك جيـد عـربي . غير أن هـذه المعاني ممـا قتلـه كثير وجميل

وأصحابها قتلا ـ فأحسب أن الرافعي قد فطن إلى هذا فالتمس سبيل النشر. وقد كان للرافعي بأسلوبه الجاد المرهف الإحساس الشاعري الروح، على كده فيه ونصبه، أثر كبير على عدد كبير من الأدباء ـ من بين هؤلاء مثلا الشاعر «الرومنسي» برومانسية شعراء العرب محمود حسن اسماعيل. هذا، وقد كان العقاد رحمه الله شاعرا ناثرا، وفي نثره وشعره كليهما خشونة، كما فيهما جد وصدق وأثر قراءة ونصب. وقد عرف العقاد بهجومه على شوقي في الديوان في باب التجديد الشعرى أكثر مما عرف بشعره نفسه. ومن تأمل شعره لم يجده فيه غير سائر على نفس الطريق الذي ساره شوقي وحافظ. وكان يلح على قضايا الفكر بأشد من إلحاحهما فيما يورده. وليس بمخطىء من يضعه في مقدمة شعراء الرومنسية العربية خطئا كبيرا. ولكنه أشبه به ما ذكرنا. ومن معاني الرومنسية في شعره أن حديثه عن الحب تخالطه مثالية من تقديس فهم منه خاص للجمال، شديد القرب من معاني صوفية الطبيعة وقدسيتها، وخلود امتلاء الذات بتأثيرها. غير أن أمثال هذه المعاني قديمة في الشعر، واطلاع العقاد الواسع، ولا سيما في آداب اللغة الانجليزية مما جعل طوع تعبيره كثيرا مما يرد في كلام شعرائهم من رومنسيين وميتافيزيقيين وشكسبير ومعاصريه إلى زمان براوننغ وييتس ووليم هاردي وغيرهم. وكانت له في بلادنا مدرسة من الأدباء شديدة التعلق بشعره مدمنة القراءة له. ونبئت أن الشيخ الطيب السراج رحمه الله (توفى سنة ١٩٦٣م) كان إذا ذكروا له العقاد قال:

عقادهم هو كاسمه عقاد لا عبقري لا ولا نقاد

ومن تأثر به من شعراء بلادنا يوسف مصطفى التنى رحمه الله وأثره ظاهر في ديوانه الصدى الأول، ومما علق بالذهن من أبياته:

اعبسي لي ففى العبوس ابتسام لجمال منوع القسمات

وكان يغلب على الظن أنه تأثر فيه بالعقاد، ولكنى أحسبه أخذه من كلمة للرافعى رحمه الله في أوراق الورد يقول فيها (ص٤٦):ـ

يا واصلا بالمعاني وهاجرى فى الكلام
مخاصمى في نهارى مصالحى فى منامي

من العبوس كلام معناه معنى ابتسام
ولن يغير جسم السواد ثوب الخصام

وكان صديقاى الأستاذ عبدالرحيم الأمين (توفى ١٩٦٨م) والدكتور أحمد الطيب (توفي ١٩٦٢م) وكانا واسعى الاطلاع في العربية والانجليزية، يقدمان العقاد في غير إفراط ويذكران له قصائد ربما تقدم بها عندهما على شوقى، منها رائيته في ديوانه الأول التي عنوانها " الدنيا الميتة " وما أشك أنه حذاها على رائية الإمام البرعى التي من رويها وبحرها ثم ألبس مواضع ضروبا من الزي الافرنجي كما قد جارى بلا ريب رائية أبي نواس "أجارة بيتينا أبوك غيور" ورائية إبن دراج - إلا أن نفس البرعية في رائية العقاد هذه أظهر وأخذه منها عن معاصريه أخفى لمعرفة أكثر الأدباء الأفندية بأبي نواس وابن دراج وجهلهم البرعي، وما كان مكانه ليخفي على العقاد لعلمه ولأسوانيته معا. هذا وقد قدم لها في الديوان بكلمة متعمقة، مما جاء فيها قوله: «وقد ترى الرجلين يجلسان في حجرة واحدة أحدهما يود لو يبخع نفسه لقبح الدنيا في عينيه، والثاني يود لو يعمر أبد الأبيد ليشتف جمالها وبهجتها، فهل يقال في هذين إن عالمها واحد؟ فمن هنا ساغ لنا أن نقول إن العالم تموت نسخة منه كلما مات إنسان. . . . » ثم تجيء القصيدة وهي ستة وأربعون بيتا نوردها هنا كاملة، وقد مضى الاستشهاد بأبيات منها في الجزء الأول، ولعل ما قلناه هناك من تعليق ألا نحتاج إلى مزيد عليه ههنا:

أحبك حب الشمس فهي مضيئة وأنت مضيء بالجمال منير
أحبك حب الزهر فالزهر ناضر وأنت كما شاء الشباب نضير

هنا كما ترى تعلق الرومنسية بالطبيعة. والحب لا يحتاج صاحبه أن يعلله ويبرهن على صحته. وما من محبوب يرضيه أن يحب كحب الشمس. نعم يرضيه أن يقول له العاشق بلسان المقال أو الحال أنت شمس حياتى أما أن يقول له أحبك لأنك مضيء كما تضيء الشمس، فلعل آخر أن يكون هو أيضا مضيئا كما تضيء الشمس. واحسب أن العقاد إنما أتى من محاكاة كلمة شكسبير:

Shall Icompare thee to a summer's day?
Thou art more lovely and more temperate:
Rough winds do shake the darling buds of may.

إلى آخر ما قاله فيها وهي الثامنة عشرة من قطعه التي يقال لها sonnets (أغنيات) وقد احترس شكسبير حيث ذكر الشمس والزهر ولم يحترس العقاد. وقد صدر شكسبير فى

كلامـه عن حب هو الـذي جعله يشبـه محبوبه بيـوم شامس وزهـر نضير غير أنْ اليوم الشامس ليس له كاعتداله والزهر قد تطيـح به وتصوحه الرياح ، والعقاد زعم أنه يحبه كحبه للشمس ، فنزل بمقدار حبه كما ترى ، وكأن قد أحس ذلك فاستدرك بقوله :

أحبـك حبـى للحيـــــــاة فإنها   شعـــور وكم بـــالقـــرب منك شعـــور

أى أشعر فلذلك أنا موجود. فأنت تعلمنى أنى حي ـ هل هذا من كلام الصوفية :

أدنيتنـــــى منـــــك حتـــــى   حسبـــــت أنـــــك أنـــــى

أو محض تعمق. ولعل بديع الذى قال :

أحبك يـــا ظلـــوم وأنت عنـــدى   مكـــانَ الـــروح مـن جسـد الجبـــان
ولـــو أنى أقـــول مكـــان روحى   لخفـت عليك بـــادرة الطعـــان

أن يكون إلى كثير من القلوب أدنى مأخذا وأقرب مأتى . ثم يقول العقاد :

فهل فى ابتغـائى الشمس والـزهـر سبـة   وهل في ولـــوعي بـــالحيـــاة نكير
وهل في الهوى معنى ســوى أن مقلتى   تـــراكَ وأن الحسن فيك طـــريـــر

هذا بعض الهوى ـ واستحسان المشتهى قد لا يكون أكثر أو أقل من هذا ،

وأنك تسبـى النـــاظـــرين وأننـى   بإحبـاب سـابي النـاظـرين جـديـر

إحباب مصدر أحب الـرباعي أغرب به العقاد ليصـاحب به صيغة المحب بضم الميم وفتح الحاء التي يقال إنه انفرد بها أخو بني عبس .

ألا لا تـــدعنـــا نلحظ الحسن أو أجـــز   لنـــا الحب فـــاللحظ اليسير يجور
ومـــا من سبيـل أن تـــراه عيـــوننـــا   وتغمـض عنـــه أنفس وصـــدور

صار الحب مقالة وقضية وجدلا كما ترى

فأما وإعشاء النواظر مطلب   عسير وقد يهوى الجمال ضرير

ولو قال وقد يهوى هـواي ضرير لكان أصدق . وقد قال بشـار، «قد وصفت لنا بحسن» فنسب معرفة الحسن المرئي إلى غيره

فـــدع مـا يقـــول النـاس واعلم بأننـــا   على غير مـــا ســـار الأنـــام نسير

لنا عالم طلق وللناس عالم رهين بأغلال الظنون أسير
ووا أسفا ما أنت إلا نظيرهم وان لم يكن للحسن فيك نظير
وحاكيتهم ظنا فليتك مثلهم محيا فلا يأسى عليك ضمير

العقاد هنا أرفق بحبيبه من جميل إذ قال

رمى الله في عيني بثينة بالقذى وفي الغر من أنيابها بالقوادح

ولكن جميلا كان أشد صبابة

فيا عجبا منا نسائل أنفسا إذا سئلت حارت وليس تحير

بضم التاء وعنى: تحير جوابا وهو ليس بجيد، ولكن جوابا في قول النحاة معمول فضلة وحذف الفضلة جائز. ومضارع حارت تحار، وعن ابن جنى أن أبا الطيب سمع أعرابيا أخطأ فقال تحير فأصلحه آخر من أصحابه ونعت ابن جنى أبا الطيب، إذ ذكر هذا الخبر، بأنه صدق وكان صدوقا. وعلى ذكر أبي الطيب فما أشك أن أصل تشبيه شكسبير فتاته أو غلامه (على أحد القولين) بالشمس من قوله:

صحبتني على الفلاة فتاة عادة اللون عندها التبديل
مثلها أنت لوّحتنى وأضنيـ ـت وزادت أبها كما العطبول

ثم يجيء هذا التبرم بالجمال وما يصحبه من ضن كل جميل وصده وتيهه:

أنشقى بدنيانا لأن منعما من الناس بسام الثغير غرير

كلمة الثغير جيدة معبرة.

أيذوي الصبا فينا لأنك ناشيء ربيع الصبا في وجنتيه غضير
أتعشى مآقينا لأنك أحور بعينيه من ومض الملاحة نور

هذا البيت مصنوع مرهق. المآقى لا تعشى. ومن زعم أن ذلك قد يسوغ من أجل مجاورة المآقى للعيون، فلن يسوغ بعده «من ومض الملاحة نور» ـ ذلك بأن العينين نور. وفي أناشيد المديح النبوي:

مرحبا يا نور عيني... مرحبا
مرحبا جد الحسين... مرحبا

وتعب الشاعر منشأه من أنه أراد أن يجعل الملاحة ببريق ابتسامتها في العين نورا، فجعل ذلك هو النور الذي في العينين، ولو قال ذلك في عين عمياء بها بقية من ملاحة بائسة لربما جاز.

ألا نتملى الحسن والحسن جمة مطالعه إلا وأنت سمير

فيـا ضيعـة الـدنيـا إذا لم يكن بها غنى عنـك للمحـزون حين يثـور
ويـا ضيعـة النفس التي لا يجيرهـا من البث والشكـوى سـواك مجير

لا يخفى أن الشاعـر هاهنـا تقمص شيئا من روح «الحسناء بـلا رحمة» - منظـومة كيتس التي ترجمناها، ونبهنا القارىء الكريم إلى ما فيها من معاني الرومنسية التي تعطو بيدهـا إلى ما لا ينال، والحسنـاء التي تمتص دم المحبين، وتعطيهم الحلم الذي يسلب منهم من بعد كل منام.

إذا الشمس غابت لا نبالى غيابها وإن غبت آض العيش وهو كدور

ناقض الشاعر نفسه في كلمة واحدة، وهذا مما لم يجزه قدامة. وقد يعتذر له عاذره بأن هذا إضراب أضرب به عما تقدم - أي أحبك حب الشمس كلا، بل لا نبالي غياب الشمس، وتأمل ضمير الجمع للمتكلم ههنا. ويقوى هذا الوجه قوله من بعد:

وليتك مثل الشمس ما فيك مطمع فيهدأ قلب بالضلال نفور

نفـور هاهنـا شـديـدة القلق. كيف يكون القلب نفـورا بسبب الضـلال أو مع الضلال وهل النفور هو المقابل للهدوء؟

قـربـت ولم يخطىء عطـاش تلهفـوا على جـدول في السمع منـه خـريـر
وسرت على الأرض التي أنـا سـائر عليهـا ولم تضرب عليك ستـور
ولـو لم نـول القلب شطـرك لامنـا على الجهل كـون بـالجمال فخـور

هنا أنفـاس «رومنسية» الخالع على مظـاهر الطبيعـة عنصرا من الحيويـة يستحق التقديس لذاته. وهذه الأبيات الثلاثة لعلها غرة القصيدة:

لديك مقاليد السرور وديعة وما لمحب في سواك سرور

يعني ما لمحب لك غنى عنك بسواك وسرور به، ولفظه مقصر عن معناه

فإن تأذن الدنيا أباحت شوارها وغنت عصافير وفاح عبير

فسر الشوار في الهامش [ديوان العقاد، المجلـد الأول، لبنان ص٢٠١] - «شوار العروس جهازها». والشوار المتاع، قال عبدة بن الطبيب:

ومزجيات بأكوار محملة شوارهن خلال القوم محمول

قال الشارح وأصل الشوار متاع البيت. ولا يزال هكذا معناه في بعض الدارجة. وقد يستعمل استعمالا مجازيـا وفي خبر الزبـاء: «أشوار عروس تـرى» قالتـه لجذيمة لما

أرادت الغدر به وكانت مضفورة الإسب أي شعر العانة. فقول العقاد ههنا «أباحت شوارها» ليس بجيد.

وإلا فما في الأرض حظ لناظر ولا النجم في عليا السماء يدور
فيا خازن الأرواح ما لقلوبنا خواء وأفراح الحياة كثير
وما لك ضنانا بها لو بذلته لما ضاع منه بالعطاء نقير

هذا من كلام الميتافزيقيين ـ وقد يذكر القارىء الكريم قول إمام العارفين عبدالرحيم البرعي رحمه الله:

أحيباب قلبي هل سواكم لمهجتي طبيب بداء العاشقين خبير
فجودوا بوصل فالزمان مفرق وأكثر عمر العاشقين قصير
وإني لمستغن عن الكون دونكم وأما إليكم سادتي ففقير

فلا مبالاة العقاد بغياب الشمس من هاهنا ـ ثم يقول العقاد:

تضن بشيء لست تعلم قدره ـ

أي الجهال إذ نحن لا أنت، يا جميلا وهو جاهل

ـ ونعلم ما نسخو به ونعير

نعير ضعيفة كما ترى.

نجود بحبات القلوب وبالنهى . . . .

ولا أعلم كيف يجاد بالنهى إلا أن يكون تهتك

. . . . وليس لنا في النائلين شكور

وما الشيء مزهودا وإن جل قدره لدى الناس كالمطلوب وهو يسير

وجليل القدر لا يزهد فيه. وأتي العقاد من جهة طلب الجدل بالمبالغة وفرض ما لا يكون

عذيري وهل للناقمين عذير وأين لمخذول الفؤاد نصير

هل جاء بمخذول الفؤاد من قول حافظ «أنا لولا أن لي من أمتي خاذلا إلخ»؟

لقد ماتت الدنيا وقدما رأيتها عروسا حفافيها عرائس حور

هنا شيء من اللغة الانجليزية وظلال من الحسناء بلا رحمة

نعم ماتت الدنيا بنفسي ومن يعش وقد ماتت الدنيا فأين يصير؟

يعني الموت المجازي ـ أما موتها الحقيقي فهو قيام الساعة وذلك شامل

وأحنو على الدنيا ويا ربما حنت   على الميت الثاوى بهن قبور

ليست ضمة القبر حنوا ــ وهنا شيء من ظلال «الحسناء بلا رحمة» وفرسانها الشاحبين فاغرة أفواههم بالنذير الرهيب.

بكائي عليها يوم أن كان أفقها   يضيء وكانت بالأنيس تمور

لا ريب أن الحسناء بلا رحمة هي الدنيا

وكان يتيه اللب كيف بناؤها   فأمست يتيه اللب كيف تبور

«تبور» قافية قلقة إذ لاتقابل «تبور» قوله «بناؤها»

فما كان أسناها مدارة أنجم   ومنبت ريحان يكاد ينير

وأخصب مرعى اللهو في جنباتها   وما من جنى إلا منى وغرور

فهذا كما ترى فيه مشابه من قول جون كيتس وقد مر نصه، ما تقريب تعريبه مما تقدم ذكره أيضا:

ووجدت لي من عروق شهيـ   ـات وحلوات وقالت كل

والعسل البري جاءت به   والمن يغشاه ندى السلسل

ثمت قالت بلسان غريب   إنني أهواك ياويح لي

ثمت صارت بي إلى كهفها المسحور...

وهو القبر بلا شك:ــ

نعم ماتت الدنيا بنفسي فهل لها   بعطفك من بعد الممات نشور

فأحى بإحيائى فديتك عالما   عييت بحمليه فأنت قدير

ولا تسألني كيف أحييك هازلا   فأنت بإحياء النفوس خبير

ففي كل نفس عالم يرهب الردى   ومن كل حسن حين يعطف صور

أي الصور الذي ينفح فيه إسرافيل فتقبض كل الأرواح ــ أليس هذا برهانا على صحة ما نقول به من أثر.

La Belle Dame Sans Merci

لك الحسن فامنعه ولكن من يغل..

أي يغتال، فتأمل.......

...... ولكن من يغل   من الناس دنياهم فذاك مغير

مغير هذه مترجمة من كلمة افرنجية تدل على العدوان وما أشبه نحو: trespasser ـ والصواب فذاك متعد أو عاد أو عدو، وما كل غارة بعيب يعاب ولا سيما ذو الحسن إن يقل له إنه يشن على قلوب الناس غارة شعواء فذلك داخل في باب المدح، ولا يخفى أن العقاد يريد بمغير هنا ضربا من خروج عن القانون.

فقد ترى أن الجند الغريب الذي كان عند شوقي وحافظ طريقة أداء ومحاكاة أساليب قد تسرب عند العقاد إلى نفس متن اللغة ـ ولعله أن يعتذر معتذر للعقاد أن هذا نظم ثورة شبابه وأنه أقبل من بعد على تجويد المتن وحرص على نقاء العربية ـ وعسى بعض ذلك.

كانت بداية النهضة والتجديد البعيدة التأثير بمصر. ولا يدفع قولنا هذا ما كان من بوادر السبق في لبنان وغيرها. ولقد كان أحمد فارس الشدياق معاصرا للبارودي. وعاصر الرصافي والكاظمي والزهاوي شوقيا وحافظا والعقاد. ولئن كانت في الرصافي من حافظ مشابه، كذلك كانت في الزهاوي مشابه من العقاد ـ المقالة والليركية ونوع من كد التفكير، موسوعي عند العقاد، ذو معرية عند الزهاوي، من غير سلامة الأسر التي للمعرى، وكبعض الخشونة التي عند العقاد، وقد يضطرب به وزن العروض أحيانا.

وإنما وقفنا عند العقاد من أجل الديوان وما زعم وزعموا له من التجديد بناء وهدما ـ أما الهدم فالهجوم على شوقي وكان عند الناس أمير الشعراء. وأما البناء فديوان العقاد، وديوان شكري وقد حاول الشعر المرسل ونظمه وسط وقد سبقت منا الإشارة إلى عمله في هذا المضمار. والمازني علم أنه ليس بشاعر حقا، والعاقل من عرف قدر نفسه.

ثم جاءت أبولو على آثار الديوان، وكل الرومنسية والرومنسيين ويذكر أن أبا شادي أهدى أبولو إلى أمير الشعراء شوقي، ولو قد كان البارودي في مكان شوقي هو المهدي إليه، لكان الأمر إذن كما قال أبو تمام:

وسرت أسوق عير اللؤم حتى   أنخت الكفر في دار الجهاد

على أن اعتدال شوقي وأصحابه قد كان أقرب إلى معنى دار الجهاد، كما كان المعتصم وجنده الدخيل في باب الخلافة والدولة وتدبير السلطان. وتطرف أبي شادي وأصحابه أقرب إلى إناخة الكفر وسوق عيره، كما كان شأن قتلة المتوكل وسملة عيون الخلفاء وزعزعة هيبتهم من بعده.

وكانت الرومنسية ـ ونؤثر الآن استعمال هذا اللفظ على الترمنس الذي إنما جئنا به

لتوضيح رأي في موضع دعا إلى ذلك ـ من أربعة أضرب، نـذكرها موجزين إن شاء الله فيما يلي:

الضرب الأول:

«رومنسية» الدفاع عن القديم. وهـذه يمثلها الرافعي ولها انعكاسات في الضرب الرابع وسنـذكر ذلك في موضعـه إن شاء الله. وقـوامها أنها تعتقد أن معـاني التصوف وقدسيـة الجمال وحرارة الوجدان ورؤاه، كل ذلك لا نحتـاج إلى أن نستعيره من أوربا. هو أصيل في حضارتنا وفي تصوفنا.

وكأن لـونا من رفـض التفرنج، ونـزوعـا إلى إعادة المجـد القـديم كامن في هـذا الموقف. هـو موقف قبـول تحد، وتحد ودفاع. وهـو في جوانب كثيرة منـه صادق روح التعبير عن غضبـة المجتمعـات العـربية على عـدوان الاستعمار، وغضبـة المجتمعـات الإسلامية على ما عرا أمة محمد صلى الله عليه وسلم من ضعف واستكانة وخمول.

وإنما نـدخل هذا الضرب في عـداد الرومنسيـة لنخـرجه منهـا. وفيه من معـادن أصالـة البارودي، حـب اللغة العـربية، وتذوق رونـق جزالتهـا وأسرها وصحـة وجوه التعبير بها، ثم يفارقها في نوع خفي ملابس له من معاني عدم الثقة، يلتمس أن يعتذر لدى من لا يقبل له عـذرا وأن يجد مكانا لدى من يعلم أنـه ليس له بدار. وليس ذلك بضائره حقـا. إذ قد أصاب قدرا صـالحا من مستوى الجودة والإبداع. إلا أن فيـه فرط إغراب وعمل.

الضرب الثاني:

الرومنسية المسيحية العربية

وهذه التي يمثلها جبران وميخائيل نعيمة والمهجريـون من بعد ـ وقوامها أمران: شعور قوي بـالانتماء إلى دنيا الحضارة العصرية التي إنما هي حضـارة مسيحية في غرب أوروبا وشرقهـا بين رومها وروسها وصقـالبها وبلغارها وفـرنجتها وفروع ذلك الـلاتينية والسكسونية من وراء البحر الكبير ـ هذا الشعور بالانتماء المسيحي المتحضر القوي معه شعور بـواقع الانتماء المر إلى دولة السلطان، وهي في مرحلـة الغرغرة، والقوميـة التركية الناشئة إلى العرب بغيضة، وسلطان الإسلام إلى القلب المسيحي أبغض.

وشعور قـوي بالانتماء إلى العرب والقـومية العربيـة الناشئـة، التي تبدو أنها هي أقرب بحكم وحـدة اللغة ووحدة الجوار وطـول المعايشـة والنفور من تعزز قـومية الترك الجديدة وتعا ليها وجبرية سلطانها والـرغبة في التحرر والتقدم العصري، الذي إنما يجاء به بالأخذ من أوروبا ومحاكـاتها وأنهم بحكم الصلة المشتركة بينهم وبين مسلمي العرب

وبينهم وبين مسيحية أوروبا، سيكونون في ذلك الوساطة الكبرى والوسيلة الأولى.

ومن هذين الشعورين تولد شعور قوي بالتماس مثل أعلى مشترك، يستمد من القومية العربية، ومن سماحة الدين الحنيف، ومن روحانية دين عيسى ورقة قلوب رهبانيته.

ولقد كان من المسلمين كما كان من المسيحيين دعاة لهذا اللقاء المتسامح المعتدل ويكفيك شاهدا ما تجده كثيرا عند شوقي ـ مثلا ـ من لين القول ورقته عند ما يعرض لأمر المسيحية والمسيح عليه السلام. وأحسب احدى طبعات الديوان الأول (دار الكتب، ١٩٤٥) وقع فيها خطأ في بيت الهمزية التي في أوله:

ولد الرفق يوم مولد عيسى والمروءات والهدى والحياء

إذ فيه موسى مكان عيسى وقد مر خبره عليه السلام، فلينظر.

وقد خيل أن من مثل الانتماء المتبادل، الحرية المنشودة، ومعاني الانسانية العليا في الحب والجمال، واستشعار نزعة إلحادية لا تنكر قداسة الدين ولكن تنفر من التعصب والقيود.

مد الأيدي إلى المجهول، التماس ملأ الروح بين الأزهار والأشجار ووحدة الوجود في شهود أسرار الطبيعة على النحو الذى عند وليم ورد زورث وشيلى وكيتس والرومانسيين الإنجليز أول الأمر، وعند أبي العلاء المعري الذي يقول:

خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد

ويقول: اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له

ويقول: إن الشرائع ألقت بيننا إحنا وأورثتنا أفانين العداوات.

من هذا المنطلق أو نحوه، بدأ جبران. وتلاه ميخائيل نعيمة. وتبع من بعد المهجريون. وصحب أدب الرومنسية المسيحية العربية جند دخيل جديد كثيف ـ ضعف في أساليب اللغة إذ لم يكن لجبران والمهجريين من علم العربية ما كان لليازجي، وما كان للعلماء اليسوعيين، إنما كان أكثرهم أولى ثقافة كسائر ما كانت عليه ثقافة الأفندية، ومنهم من كان حظه من اللغات الافرنجية والعربية معا ضئيلا، ومنهم من كان ذا حظ من الثقافة الافرنجية، وخلوا من العربية أو ضعيفا. ولم يكن لأكثر هؤلاء رادع من مثل بلاغة العرب الأعلى وهو القرآن ثم ديباجة الشعر الرصين والنثر الرصين، فجسروا من استخدام جند التعبير الدخيل الهجين على شيء كثير.

جبران نفسه كان يحترم بلاغة البيان العربي الأصيل. ولكن حظه منه كان ضئيلا. فكان يجتهد ويتعثر. ميخائيل نعيمة كان ذا حظ غير ضئيل من معرفة البيان العربي. ولكنه كان منطويا على ثورة نفس هدامة، - "والرومنسية" الأروبية كانت فيها عناصر هدامة، من شواهدها مثلا قصيدة كلردج Christabel (1) وحسناء كيتس بلا رحمة، وريح شيلي الغربية التي يقول لها: «كوني روحا لي يأيتها الروح الشرسة":

... Be thou, spirit fierce,

My spirit ......

ومنظومة دون جوان لبيرون فيها شر كثير مختبىء تحت براثن ثورة قلب وأنيابها: (مثلا)

I would to heaven that I were so much clay,
As I am blood, bone, marrow, passion, feeling-
Because at least the past were pass'd away-
And for the future- (but I write this reeling,
Having got drunk exceedingly today,
So that I seem to stand upon the ceiling)
I say - the future is a serious matter-
And so for God's sake - hock and soda water

وددت بحق السماء أن لوكنت طينا بقدر
ما أنا دم وعظم ونقي وعاطفة وشعور،
لأنه على الأقل يكون الماضي قد مضى وتولى،
أما المستقبل - (ولكني الآن إذ أكتب أترنح
إذ قد أسرفت في الشراب اليوم
حتى يخيل لي أنني في السقف واقف)
أقول، إن المستقبل أمر خطير
لذلك، بالله، هات كأسا من الصهباء والصودا

هذا وأكثر شعراء المهجر تعلقا بسلاسة الأسلوب إيليا أبو ماضي، وأقربهم إلى المثل الأعلى الذي كانت ترمى إليه طلاب الانتماء المتبادل، واللقاء المتسامح المعتدل تحت رفرفة أجنحة الدين والإلحاد العلائي المهذب والتصوف المتعلق بالطبيعة والحرية المنشودة في ظلال عزة الوطن العربي:

(١) من شخصيات الشعر الرومنسي الغربية، امرأة بين مساحقة وقتول.

وطن النجــوم أنـــا هنـــا ... حـــدق أتــذكـــر مـن أنـــا
ألمحت فى الماضـى البعيــــــــــ ... ـــد فتى ، غـــريـــرا أرعنـــا
جـــذلان يمـــرح في حقـــو ... لك كـــالنسيم مـــدنـــدنـــا
المقتنى المملـــــوك ملـــــــ ... ـــــعبه وغير المقتنـــى
يتسلــق الأشجــــــــــار لا ... ضجــــــــــرا يحس ولاونـــى
ويعـــود بـــالأغصـــان يبـــــ ... ـــريها سيـــوفـــا أو قنـــا
ويخوض في وحــل الشتـــــــا ... متهلــــــــلا متيمنـــــــا
لا يتقـى شر العيــــــــــو ... ن ولا يخاف الألسنـــــــا
ولكـم تشطين كـــى يقـــــو ... ل النـــــاس عنــــه تشيطنـــا

أول هذه الكلمة مذكر بورد زورث ــ ولكن أولها فقط ، وسائر الوصف من تجربة وتذكر وصفات صوادق

أنـــا ذلك الـــولـــد الـــذي ... دنيـــاه كـــانـت ههنـــا
أنـــا مـن ميـــاهـك قطـــرة ... فـــاضت جـــداول مـن سنـــا
أنـــا مـن تـــــرابـك ذرة ... مـــاجـت مـــواكـب من عنـى

لا يخفى ما ههنا من شعور القـومية ، وقد مزجه الشاعر بذكـرى الطفولة الوردزورثى ثم خلص من ذلك إلى التغنى بحسن الطبيعة :

حمل الطـــلاقـــة والبشـــا ... شـــة من ربـــوعك للـــدني

أى أمريكا والعالم الذي تظن به الحضارة

كـم عــــانقت روحـى ربـــا ... ك وصفقـــــت في المنحنــــى
والأرز يهزأ بـــــالـــريـــا ... ح وبـــالـــدهـــور وبـــالفنـــا

ولنعم الأرز لو أبقت عليه الأيـدي السواطى ـ إذ ما أحسب الـذى بقى منه الآن بجبال لبنان إلا قليلا

للبحـــــر ينشره بنـــــو ... ك حضـــــارة وتمدنـــــا

لعله يشير هنا إلى حضارة بنى كنعان القـدماء في صيدا وصور ومن وراء البحر فى أرض تونس والأندلس على عهد حنيبعل العظيم .

لليـل فيـــــه مصليـــــا ... للصبـح فيـــه مــــؤذنـــا
للشمـــس تبطـــــىء في ودا ... ع ذراك كيـــــلا تحزنـــا

لم يتضح المعنى ههنا ــ كأنما عنى أن حمرة الشفق فيها معنى من حزن، وما أستبعد أن يكون يشير إلى قول أبي العلاء، وكان إلى «الرومنسية» حبيبا، على بعده كل البعد عن كل جوانبها إلا الوجدان بعد الوجدان وذلك أمر عن الشعر مما لا ينفصم:

وعلى الـدهـر من دماء الشهيـديــ ـــن علي ونجلــه شــاهـــدان
فهما في أوائل الليـل فجــــرا ن وفي أخــريـــاتـــه شفقـــان

أي تبطىء لكيلا تذكرنا بالمأساة التى ذكرها أبو العلاء

للبــــدر في نسيـــان يكـــ ـــحل بــالضيـــاء الأعينــا

ذكر الضياء هنا مناسب وحسن، إذ الليل في العيـون سواد يغم ضياءها، فالبدر يجلوه - فهذا أجود من قول العقـاد «بعينيه من ومض الملاحة نور» من حيث حاق تدبير البيان.

فيـــذوب في حـــدق المهـــا سحــــرا لطيفــــا لينـــــا

قوله «لينا» جيد، ينم عن إحساس مرهف، إذ لا يخفى أن في حدق الملاح لينا - وإنما يفطن الفاطن للينه مع السفور الدائم لا حينا بعد حين، إذ ذلك ربما غلب فيه الزهو - [وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا] أو المرح [وتصدفت حتى استبتك - الحادرة]

للحقـل يــــرتجل الــــروا ئع زنبقـــا أو ســـوسنـــا

كذلك يرتجل هنـا جيدة لما فيه من تحويل الخطابـة التى تنسب عادة من الشعراء إلى الطير في باب المجاز، إلى النبات هنـا، وما يفـاجىء به من النـواوير والأزاهير مع تتابع أسابيع الدفء بعـد برد الشتاء، خصوصا في بلد يكـون كلبنان، يمتد ربيعه من عند سيف البحر الى حيث يـدنو من قمم الثلوج - ولله در البـوصيري إذ يقول في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم:

فـرحـت بــه البريــة القصـــوى ومن فيهـــا وفـــاضلـت الـــوعــور سهــولا
وزهت وضــاهـت حسن لبنـان الـــذى لـــولا كــــرامـــة أحمد مــــا نيـــلا

فقد تـرى أنه أوشك أن يفضل حسن لبنـان على حسن جميع البلاد، وهـو بعد المحب للنيل القائل فيه من نفس الكلمة :ـ

إني لأوردِ ذكـــــــــــــره لتعطشي — فإخـــــال أني قـــد وردت النيـــلا
والنيل يـــذكـــرني كـــريم بنـــانـــه — فأطيل من شـــوقي لـــه التقبيـــلا

وقال أبو الطيب :

بينـي وبين أبي على مثلـــــــــــه — شـم الجبـــــال ومثلهـن رجـــــاء
وجبـــال لبنـــان وكيف بقطعهـــا — وهـــو الشتـــاء وصيفهـن شتـــاء

فقد جعل رؤوس الجبال عليهـن الثلوج تبدو كأنها عدد من أمثـال أبي علي هيبة وأمثال رجائه هو الضخم في صور بشرية مشرفات، تخفق عليهن عمائم بيض من ثلج الشتاء ـ ونرجع إلى نونية أبي ماضي

للعشب أثقلـــه النـــدى — للغصـن أثقلـــه الجنـى

هذا من بوانية أبي الطيب :

عــــــــاش الجمال مشردا — في الأرض ينشـــــد مسكنـــــا
حتى انكشفت لـــــه فـألـــــ — ـــــقى رحلـــه وتـــوطنـــا
واستعــــــرض الفـن الجبـــا — ل فكنت أنـت الأحسنـــــا

والخطاب لجبل لبنان كما سيفصح به بعد

للـــــــه سر فيك يـــــا — لبنـــــان لم يعلـن لنـــا
خلق النجـــوم وخـــاف أن — تغـــوى العقـــول وتفتنـــا
فـأعـــــــار أرزك مجده — وجـــلالـــه كي نـــؤمنـــا

الفكرة بعيدة المتصيد

زعمـــــوا سلـــــوتك ليتهم — نسبـــــوا إلى الممكنــــا
فـــالمرء قـــد ينسى المسي — ء المفترى والمحسنـــــا

جيء بالمفترى ليتم بها الوزن، إذ المراد كـل مسيء لا المسيء المفترى وحده، اي الذي إساءته أنه افترى وقد لايكون أساء في غير ذلك .

والخمــــر والحسنـــــاء والــــ — ـــــوتر المرنح والغنـــا
ومـــــرارة الفقـــــر المذ — ل بلى ولـــــذات الغنـى

لكَنَــــــه مهما ســــــلا هيهـــات يسلـــو الموطنـــا

والمعنى هنا خطابي قومي، شبيه بما كان يصنعه حافظ، وفي القصيدة بعد مواضع إحسان لا تخفى وعندى أن هذه النونية أنطق بشاعرية إيليا أبي ماضي من كلمته الرائجة «الطلاسم».

جئـــت لا أعلـــم مـــن أيـــن ولكنـــى أتيـــت
ولقـــد أبصرت قـــدامى طـــريقـــا فمشيت
وسـأبقى مـــاشيـــا ان شئت هـــذا أم أبيت
كيـف جئـت، كيـف أبصرت طـــــريقـى :-
لست أدرى
أجـــديـــد أم قـــديم أنـــا في هـــذا الـــوجـــود
هـل أنـــا حـــر طليـق أم أسير في قيـــود
هـل أنـــا قـــائد نفسي في حيـــاتي أم مقـــود
أتمنـــــى أننـــي أدري ولكـــــن . . .
لست أدرى

وهكذا وهلم جرا... نغم لين فيه عذوبة الترنم ووضوح الوزن وحسن اختيار للكلمات ـ ولكن جملة البيان لا تصل بالقلب حقا إلى كبير شيء. محاولة نزعة معرية الإلحاد خياميته[نسبة إلى رباعيات الخيام التي ترجمها فتزجرالد فأحدث ذلك لها شهرة] ـ ثم المعاني فقاقيع، مما هودائر في باب طلب التعمق الفلسفي وليس بعميق. ـ مع هذا إيليا أبو ماضى من كبار شعراء عصر التجديد وقد حاول بجهد صادق أن ينفي عن دولة الشعر التجديدي كثيرا مما احتشد فيها من الجند الدخيل الرهيب.

الضرب الثالث:

«رومنسية» الأفندي

أصل معنى كلمة الأفندي فيما بلغنا السيد، وكانت تطلق على السلطان وعلى خديوي مصر فيقال أفندينا ويقال لجيش الخديوي «عسكر أفندينا»، ثم صارت الكلمة لقبا للسيد الجديد من المثقفين الذين تسنموا كبار الوظائف، وانعكس في بهائهم بهاء «أفندينا» بهاء «الميري» (أي السلطان وكأنها الأميري بتخفيف الهمزة) وجاهه.

كـان لواء القيـادة الفكريـة بيد المشـايخ والفقهـاء. ثم انتقل من هؤلاء إلى كبـار الأفنـدية، علي مبارك، اسمعيـل صبري، أحمد شوقي، وهلم جـرا ــ وجـاء التعليم النظامي الخالي من أسـاس القرآن وعلوم الـدين والنحو القديمات. القـرآن واللغة الآن جزء من بـرنامج المدرسة مع اللغات الافـرنجية والحساب والجغرافيـة. وحظ هؤلاء من الاهتمام بهن أكبر إذ تمهيدهن للوظائف ذات الجاه أشد وأوكد. وهكذا أخذت المدارس النظاميـة تخرج أجيالا من الأفنـدية لايلبسـون زي الشيوخ الذي كـان يتزيـا به العلماء ولكن السترة والبنطلـون والكرفتـة ـ الـزي الافرنجي المظهـر، لايميزه في كثير من بـلاد المسلمين عن زي الافرنج إلا الطـربوش على الرأس. وقـد ترك هذا من بعـد، في أكثر البلاد.

كان حظ الأفندي الجديد من علم العربيـة أول الأمر لا بأس به، إذ كان لدروس تطبيق النحو والإنشاء فيـه مكان. ولكن التنافس على الوظائف من بعـد وزيادة عدد المتسابقين عليها جـرت إلى ما قدمنا ذكـره من تدهور العنايـة بالعربية ومـوادها وعلوم الدين ودرس القرآن.

وتصدى الأفندية المثقفون بثقافة الافـرنج من أجل الوظائف لحمل ألوية القيادة الفكريـة التي صارت إليهم من جيل أوائل النهضة. وعلى رأسهـا الأدب والشعر إن لم يكن أهم ابوابه فإن أهميته ما زالت بالغة.

وقد كان للعلماء العارفين باللغة نحوها وصرفها ميراث من سلطانهم القديم. إلا أنه الآن قـد زعزعه أمـران ـ حملة أوائل دعـاة التجديـد المتطرفين على شوقي وأصحـابه الذين انتزعوا لواء دولة الشعـر من المشايخ، ثم ما جعل يغلب من جهل دقائق اللغة، جهـلا جعل يـزين لكثير من جيـل الأفنـديـة الجديـد التنكـر لقـديمهـا والثـورة على قواعـدها. جيل الأفنـدية الجديـد، ولا سيما طبقته التي تغلغلت فيما ظنتـه في صميم حضـارة أوروبا من طـريق المهن الكبرى كالطب والهنـدسة والقـانون والتخصصـات العـاليـة المستـوى في الإدارة والجيش والتـدريس العصري، جعل يعـد نفسـه طليعـة التقدم، والطرف اللاحق بأوروبا من هذا العالم الذي انتماؤه، حق انتمائه، إليه، ولكنه متخلف يا للأسف.

ومن عند ههنا أجاز لنفسه من جسارة التعـدي على أساليب الفصاحة ما لم يكن يجيزه جيل من اقتدوا بشوقي وحافظ ـ أجـاز ذلك باسم الثورة على القديم، والتجديد

الذي يرمى إلى استعمال اللغة العامية السهلة، لغة الصحافة، لغة تفاهم المثقفين ـ لغة ثورة الرومنسيين التي عبر عنها «ورد زورث» وعبر عنها «الديوان» حين ثار على جمود شوقي، وعبر عنها «ميخائيل نعيمة» في «الغربال»، وعبر عنها المهجر، ـ لغة القلب والوجدان.

أما أحمد زكي أبو شادي، صاحب أبولو، وقائد العير إلى دار الجهاد، فكان امرأً شديد الطموح، ضعيف الحظ من تذوق ديباجة الشعر العربي، ضعيف الإحساس برنة نغمات أوزانه القوية ما كان منها جزلا أو ذا رقة، ذا حظ من الأفكار «الرومنسية» كبير، ومن الأفكار التي قد تدور بها بعض خواطر مثقفي العلم الحديث، ولكنه كان ذا حظ قليل من حاق وجدان القلوب الذي يكون في الشعر. واعلم أن وجدان القلوب الذي يكون في الشعر ليس ضربة لازم هو وجدان القلوب الذي يكون عند الانفعال الذي نحسه ساعة الغضب أو الحزن أو الفرح الطارىء وما أشبه. وقد مر من أمثلة نظم أحمد زكي أبي شادي شيء ذكرناه في اوائل الجزء الأول وهو قوله:

أهــــلا أبـــــو قـــــردان	يـــــا منقـــــذ الفـــــلاح
كـــــلاكما قـــــد هـــــان	واستمـــــرأ الأفـــــراح

فنحيل القارىء الكريم إلى ما علقنا به عليه هناك.

وطبيب آخر، ضعيف الحظ من العربية، عظيم الحظ من وجدان القلوب الذي يكون في الشعر، لو تعهده بما يتعهد به الشاعر الحق فنه، لكان بلا ريب سيجيد ـ لو حرف لما كان سيقع لوقوع غيره. رحم الله الدكتور ابراهيم ناجي[1] ورحم الدكتور طه حسين إذ قال فيه «إنه من هؤلاء الشعراء الذين يحسن ان تستمتع بها في شعرهم من الجمال كما تستمتع بجمال الوردة الرقيقة النضرة دون أن تشتط عليها بالتقليب والتعذيب. هو شاعر هين لين رقيق حلو الصوت، عذب النفس، خفيف الروح، قوي الجناح. شعره أشبه بما يسميه الفرنجة موسيقا الغرفة منه بهذه الموسيقا الكبرى التي تذهب بك كل مذهب وتقيم بك فيما تعرف وما لا تعرف من الأجواء.» ـ

ولا ريب أن الوردة التي كره طه رحمه الله تقليبها وتعذيبها قد قطفت ـ فهي ضعيفة «بالقوة» كل الضعف.

وهاك مثالا من تغنيه الذي هو موسيقا غرفة، ووردة ستذبل مع التقليب.

---

١ ـ ولد بمصر في ٣١ ديسمبر ١٨٩٨ وتوفى ٢٣ مارس ١٩٥٣

يـــا غلـــة المتلهف الصـــادي ... يـــا آيتي وقصيـــدتي الكبرى
مـــاذا تـــركت لـــدي من زاد ... إلا استعـــادة هـــذه الـــذكـــرى

***

يـــا للمســـاء العبقـــري ومـــا ... أبقـى على الأيـــام في خلـــدي
شفتـــاك شفـــا لـــوعـــة وظما ... وجمالك الجبـــار طـــوع يـــدي
نمشي وقـــد طـــال الطـــريق بنـــا ... ونـــود لـــو نمشي إلى الأبـــد
ونـــود لـــو خلت الحيـــاة لنـــا ... كطـــريقنـــا وغـــدت بـــلا أحـــد

***

نبني على أنقـــاض مـــاضينـــا ... قصرا من الأوهـــام عمـــلاقـــا
ونظـل ننسج مـن أمـــانينـــا ... وشيـــا مـن الأحـــلام بـــراقـــا
وأظـل أسقيهـــــــا وتملأ لي ... من مـــورد خلـف الظنـــون خفي
حتـى إذا سكـــــرت مـن الأمـل ... وتـــرنحـت مـــالت على كتفـي

***

حلفـت بـأني مغتـــد معهـــا ... حيث اغتـــدت وهـــواي في دمهـــا
فمسحت بـــالقبـــلات أدمعهـــا ... وطبعـت ميثـــاقـي على فمهـــا

لولا ما نهى عنه الدكتور طه من التقليب والتعـذيب لوقفنا عند مسائل من الصياغة في هذه الأبيات ـ مثلا شفتاك شفا ـ وأحسب أن البيت الثاني قد كان:

زادي لقـــاؤك عـــز مـن زاد ... يحيـا الـورى ويعيش بـالـذكـرى

ثم راجعها الشاعر ولعل الوضع الأول كان أجود.

ولا بد بعـد من التنبيه على أخذ ناجي من حسنـاء كيتس من قوله وأظل أسقيها وقـوله مالت على كتفي إلى آخر هذ التسميط قال كيتس:

Iset her on my pacing steed
And nothing elso saw I all day long
For sidelong would she bend and sing
A fairy song8
She found me roots of relish sweet
And honey wild and manna-dew,
And sure in languuage she said
I love the true
She took me to her elfin grot
And there she wept and sigh'd full sore
And there I shut her wild wild eyes
With kisses four

(هـذا النص نقلنـاه من Palgrave's Golden Treasury وفيـه اختلاف أحـرف يسير عن النص الذي أوردناه قبل نقلا عن كتاب الشعر الرومنسي كما بيناه في موضعه).
وقد مرت الترجمة وهي (لتيسير الموازنة) :ـ

حملتهـــا فـــوق جـــوادي بنـــا ... يخطـــو ولا شيئـــا ســـواهـــا أرى
طـــوال يـــومـي حين مـــالت إلى ... جنبي وتشـــدو اللحـن من عبقـــرا
ووجـــدت لي من عـــروق شهيـــ ... ـــات وحلـــوات لـــدى المأكل
والعسل البري جـــاءت بـــه ... والمن يغشـــاه نـــدى السلسل
ثمت قـــالـت بلســـان غريـــ ... ـــب إنني أهـــواك يـــا ويح لي
ثمت صـــارت بي إلى كهفهـــا الـــ ... ـــمسحور صـــارت بي إلى كهفهـــا
وحـــدقت ثم ومقـــروحـــة الـــ ... ـــفؤاد بـــالآهـــة من جـــوفهـــا
عنـــدئذ قبلتهـــا أربعـــا ... أغلقن جفن الـــوحش من طـــرفهـــا

ولإبراهيم ناجي كلمة دون المسمطة التي مرت في سلامة الرصف ونغم القريض، وفيها معنى حسناء كيتس ومعان من فتاة أدولف (بنيامين كنستنس) وغادة الكامليا معا.
وهـا هي ذي، عنوانها الحيـاة مع كلمات بين قـوسين كالتقـديم (استعراض للحيـاة في شارع) [ديوان ابراهيم ناجي، دار العودة، بيروت، ص ٣٦].

جلست يـــومـــا حين حـل المســاء ... وقـــد مضى يـــومـي بـــلا مـــؤنس
أريح أقـــدامـــا وهت من عيـــاء ... وأرقـــب العـــــــالم في مجلسي
أرقبـــه يـــا كـــد هـــذا الـــرقيب ... في طيب الكـــون وفي بـــاطلـــه
ومـــا يبـــالي ذا الخصم العجيب ... بنـــاظـــر يـــرقب في ســـاحلـــه

(أحسبه أخذ هذا من حيث لا يشعر من قول أخي تغلب:

مـــا ضر تغلب وائل أهجـــوتها ... أم بلت حيث تنـاطح البحـــران

وقال الآخر:

مـا يضر البحـر أضحـى مـزبـدا! ... أن رمى فيـــه غـــلام بحجـــر)

والمعنى كثير. وأحسب القارىء لم يغب عنه بعض أسلوب ناجي هاهنا

سيـــان مـــا أجهـل أو أعلم ... من غـامض الليـل ولغـز النهـار

«أو» بمعنى الواو هنا ضرورة

سيستمـــــــر المسرح الأعظـم روايـــة طـــالت وأين الستـــار

هذا يشير به عمدا أو عن غير عمد إلى All the world is a stage أي كل الدنيا كخشبة المسرح أو خشبة مسرح

عييت بـــالـــدنيـــا وأسرارهـــا وما احتيـــالي وصمـــوت الـــرمـــال
أنشــــد في رائع أنـــــوارهـــــا رشــــدا فما أغنم إلا الضـــلال

المعنى غير واضح . هل أراد أن الناس لا يهتمون بشعره .

أغمضـت عيني دونها خـــائفـــا مبتغيـــــا لي رحمة في الظـــلام
فصـــاح بي صـــائحهـــا هـــاتفـــا كـأنما يـــوقظني مـن منـــام
أنـت امــرؤ تـــرزح تحت الضني لم يبق منـــا الـــدهـــر إلا عنـــاد
وكـل مـــــا تبصره مـن سنـــا يهزأ بـــالجذوة خلف الـــرمـــاد
وكـل مـــــا تبصره من قـــــوى تـــدوي دوي الـــريـــح عنـــد الهبـــوب
يسخـــر مـن مبتئس قـــد ثـــوى يـــرنـــو إلى الـــدنيـــا بعين الغـــروب

هذا البيت وهو في الحقيقة آخر هذه المنظومة وبعده اثنتا عشرة رباعية ، كلهن زيادة لا طائل فيها ، وكـاد يخرج بها ناجي عن مـوضـوعه ، إذ أخـذ في مواعظ من القـول من الضرب الباهت المغسول وختم الكلمة بقوله :

يـــا رب غفـــرانـك إنـــا صغـــار نـــدب في الـــدنيـــا دبيب الغـــرور
نسحب في الارض ذيـــول الصغـــار والشيـب تأديـب لنـــا والقبـــور

والخاتمة التي سبقت ، لو قد اكتفى بها أجود

وفي الأبيات بعد أطيـاف «الحسناء بلا رحمة» . وأطيافها في شعـر ناجي كثيرة ، مثلا في كلمته التي أولها مشهور:

هـــذه الكعبـــة كنـــا طـــائفيهـــا والمصلين صبـــاحـــا ومســـاء
كم سجـدنـــا وعبـدنـــا الحسن فيهـــا كيف بـــاللـــه رجعنـــا غـــربـــاء

وفي الأبيات : « أغمضت عينى دونها إلخ »شىء من رؤيـة الفارس الأشباح ومن استيقاظه ومن بعـد «كئيبا يسير» وليرجع القارىء الكريم إلى مـاترجمناه عن نص كيتس أو إلى النص نفسه . وفارس الحسناء بلا رحمة جذوته بلا رماد ، وعناد لا ريب فيه ، إذ هو

يسير بسفح الجبل الكئيب بعد أن جف نبات الغدير والطير لا يلفى له من هدير ـ ورنو كل شيء في الدنيا بعين الغروب أسى على الكون الفانى ـ أليس ذلك هو عين الكآبة؟

واقرأ كلمته الخريف ــ ولكيتس كلمة مفعمة بتأمل الطبيعة وتلمظ طعمها بهذا العنوان :

(1) To Autumn

Season of mists and mellow fruit fulness,
Close bosom- friend of the maturing sun
Conspiring with him how to load and bless
With fruit the vines that round the thatch- eves run;
To bend with apples the moss'd cottage trees,
And fill all fruit with ripeness to the core,
To swell the gourd, and plump the hazel shells
with a sweet kemel; to set budding more,
And still more, later flowers for the bees,
Until they think warm days will never cease
For summer has o'er brimm'd their clammy cells.

ـ كلمة ناجى ليس فيها هذا التلمظ للطبيعة المؤذنة ازدهارة ألوانها بقرب الشتاء ـ فيها من صدى صور كيتس قوله :

رب كـــرم مـــده الليل لنـــا ... فتـــواثبنـــا لـــه نبغي اقتطـــافـــه
وعلى خيمتـــــه أســــــوده ... عـــربي الجود شرقي الضيـــافـــة

هذا الشطر أسرقه من على محمود طه أم سرقه على محمود طه منه [ليالي كليوبطرة]؟

وجــــد العــــرس على بهجتــــه ... وسنــــاه دون ورد فــأضــــافــــه
ثــم وارت يـــــده جنيــــــة ... وطـــوتـــه في أســــاطير الخرافـــة

وقوله

أرج يعبــق في انحـــــــائه ... حملتـه نحــو عـرشينا الــريـاح

لعله في قول كيتس :

---

(١) انظر The Penguin Book of Romantic Verse- D.wright- (1982)-282-3

يقول كيتس ما معناه : يا فصل الضباب والينع والإثمار ، ـ والخليل المقرب من الشمس المكتهلة ، ـ تتواطأ معها على ان تثقل بالثمر والبركة ، ــ دوالي الكرم التي تمتد على حافة سقف الثمام ، ــ وأن تحنو بالتفاح أغصان أشجار البيت الصغير ، ـ وكل ثمرة تملأها بالنضج الى الصميم ، ـ وتنفخ الدباءة وتفعم قشر البندقة ، ــ بلباب حلو وتشرع في إخراج مزيد ، ـ بعد مزيد من الأزهار المتأخرة الموسم من أجل النحل ، حتى يخيل إليهن أن أيام الدفء لن تنتهي ، ــ لأن الصيف قد اترع خلاياهن الندية اتراعا .

Thy hair soft- lifted by the winnowing wind (1)

وفي بعض أبيات « الخريف » على خفة وزن، شيء من حلاوة روح ابراهيم ناجي وحرارة أنفاس وجدانه ـ سبب هذه الحرارة مواجهته لنا بخطاب العاطفة، فيشعر القارىء أن له صدقا و إقداما على القول والإفصاح به من غير تكلف تقية أو رياء:

أي سر فيك إني لست أدري ... كل ما فيك من الأسرار يغري

خطر ينساب من مفتر ثغر ... فتنة تعصف من لفتة نحر

قدر ينسج من خصلة شعر ... زورق يسبح في موجة عطر

في عباب غامض التيار يجرى ... واصلا ما بين عينيك وعمري

* * * *

ذات ليل والدجى يغمرنا ... أترى تذكر إذ جزنا المدينة

كلما روعت من نار شج ... حر ما يصلى تلمست جبينه

بيد شفافة مثل الندى الرطـ ... ـب تعيد النار بردا وسكينة

أيها الآسي لناري هذه ... ما الذي تصنع بالنار الدفينة

من تأمل كثيرا من شعر نزار قباني وجده يستعين بمثل هذا من كلام الدكتور ناجي رحمه الله ويتوكأ عليه. خطابة ناجي عاطفية فيها من روح أسى انفطار "الأوبرا" ـ هذا جانبها "الرومانسي"، أما نزار فقد انصرف من الخطابة بالذكرى الوجدانية، الى نوع من مماشاة الشباب ومغايظة حسانه بغزل مشاغب. ههنا أيضا "رومنسية". "رومنسية" تعمد الخروج عن المألوف. ولكنها "رومنسية" لا تخلو من رخص روح الشارع الذي تجتهد أن ترتفع به الى مستوى الفن. الحق أنه شارع الصحافة اليومية التي لا يراد لها أن تعيش الى الغد، ولكن قد تبقى عند من يحرص على ذلك في الأضابير:

يا شعرها على يدي ... شلال ضوء أسود

الله سنابلا ... سنابلا لم تحصد

لاتربطيه واجعلى ... على المساء مقعدى

من عمرنا على مخـ ... ـدات الشذى لم ترقد

وحررته من شريـ ... ـط أصفر مغرد

واستغرقت أصابعى ... في ملعب حر ندى

الى آخرما قاله، وقد كتبت في الديوان أشطارا، وهي من مجزوء الرجز كما ترى.

---

(١) شعرك يرفعه برفق مر ذرو الرياح ـ الضمير يعود على الخريف وجعله الشاعر إنسانة

هـذا وعلى محمـود طـه كأنـه أسلم متن أسلـوب من ابـراهيم نـاجي غير أن أنفـاسـه أبرد . ذلك بأنه يبالغ في الرقة ويهندس عبـاراته بفرط صقل لها . وعلى أنه سمى ديوانا له بـالملاح التائه ، نجـد حسنـاء كيتس التي أثـرت على ابـراهيم ناجـي ، أثرت أيضـا على المهندس . وينبغي أن نتنبـه بعد الى أن كلا هذيـن الرومنسيين العربيين لا يريـد لنفسه موت الحب الأعوج الـذي عند La Belle Dame Sans Merci وعند Christabel الجنية المساحقة مصاصة الدم ـ يريد فقط موتا مجازيا(١):

يـا حبيب الـروح يـا روح الأمـاني	لست تـدري عطش الـروح اليكـا
وحنينـي في أنين غير فـــانـى	للـــردى أشربـــه من مقلتيكـــا
أيها الماضي الـــذي أودعتـــه	حفـــرة قـــد خيم الموت بها (٢)
أيها الشعـــر الـــذي كفنتـــه	مقسما لا قلت شعـــرا بعـــدهـــا
أيها القلب الـــذي مـــزقتـــه	صـــارخـا عهـــدك يـا قلـب انتهى

فمن تأثيرها ، هذه الجنية العاشقة القاتلة (ذكر أبو العلاء في غفرانه عشق المردة البنات وقتلهن بذلك ، قريب السنخ من بعض ما يقرأونه في صحف الجرائم الآن ، اقرأ مثلا في خبر جني المعري قوله دخلت مرة دار أناس أريد أن أصرع فتاة لهم إلخ ص٢٩٣ وقوله ص٢٩٤

وكنت آلـف من أتـــراب قـــرطبـــة	خـودا وبـالصين أخـرى بنـت يغبـورا
أزور تلـك وهـــــذي غير مكترث	في ليلـــة قبل أن أستـــوضح النـــورا

وفي ألف ليلة وليلة منه كثير) ـ :

لا تفـــزعى يـــا أرض لا تفـــرقى	من شبـح تحت الـدجى عــابـــر
مـــــا هـــــو إلا آدمـى شقـى	سمـــوه بين النـــاس بـالشـاعـــر

هنا نبأة من أول حسناء كيتس :

O,what can ail thee knight-at-arms?

وكذلك في قوله :

حتى اذا ضـــاقـت عليـــه السبل	وعـــز في الأرض عليـــه المقـــام
أوى الى كهـــف بسفـــح الجبـــل	عســـاه يقضي ليلـــه في ســـلام
مـــا كـــان إلا حلما كـــاذبـــا	أفـــاق منـــه مستطـــار الجنـــان
البحـــر يـــرغى تحتـــه صـــاخبـــا	والشهب نـــار والـدجى مـن دخـان

---

(١) ديوان ناجي : (١٣) (٢) نفسه ٤٨٢

البحر والدجى من فكرة الملاح التائه التي تستعين ملاح كلردج القديم العجوز. ولكن الكهف والجبل والإفاقة كل ذلك من صورة الفارس الكئيب ـ هذه الأبيات من كلمة علي محمود طه "الله والشاعر[1]" [وما بينه الله عز وجل في الشاعر وللشاعر كما يعلم القارىء الكريم هو قوله تعالى: والشعراء يتبعهم الغاوون. آيات آخر سورة الشعراء، فالذي صنع المهندس رحمه الله جهد رومنسي أو مترمنس ضائع]:ـ

أمـا تـرى منفـرجـات الشفـاه　　عن آخـر الصيحـات من رعبهـا
مـا زال فيهـا مـن معـاني الحيـاه　　إيماءة الشكـوى إلى ربها

تشكو من La Belle Dame بلا رحمة، بلا ريب.

ملاح علي محمود طه، طورا هو أحد هؤلاء الكادحين بقواربهم ومجاذيفهم على نهر النيل لطلاب النزهة، وطورا هو الشاعر نفسه، نسى أنه استأجر قاربا وصار من بعد هو الملاح والقارب معا، وابتعد النيل، وصار بحر النيل بحرا آخر ـ البحر الملح الكبير هو بحر بلا تعريف واضح، بعيد الشاطىء ـ أو الساحل ـ يتيه فيه الملاح: ـ تأمل قوله[2]:

أيها الملاح قم واطـو الشراعـا　　لم نطـوى لجة الليـل سراعـا

ولا أحسب أنه يوجد في الدنيا ملاح عاقل يطوي الشراع حين تكون الريح طائعة رهوا رخاء ويأخذ بالمجذاف ـ ولكن "الرومنسية" مما تكون أبعد شيء عن حكمة العقل:

جـدف الآن بنـا في هينـة　　وجهة الشاطىء سيرا واتباعا

وإنما الهينة والليّنة مع الشراع

فغـدا يـاصـاحبي تأخـذنـا　　مـوجة الأيـام قـذفـا واندفـاعـا
عبثـا تقفـو خطـا الماضي الـذي　　خلت أن البحـر واراه ابتـلاعـا
لم يكـن غير أويقـات هـوى　　وقفت عن دورة الـدهـر انقطـاعـا
فتمهـل تسعـد الـروح بما　　وهمت أو تطـرب النفس سماعـا

هل صار الملاح هنا هو الحبيبة ـ ثم يقول، ولا يخرج في ذلك عن وصف نزهة واستمتاع ـ وربما ـ عن لقاء حبيب:

---

(١) ديوانه الملاح التائه ـ طبع دار العودة بيروت ص ٨٧ إلى ص ١١٤
(٢) نفسه ـ ٣٤ ـ ٣٧

أيها الأحيـاء غنـوا واطـربـوا وانهبوا من غفلات الدهر ساعا
آه مـا أروعهـا من ليلـة فاض في أرجائها السحر وشاعا
نفخ الحب بها من روحـه ورمي عن سرها الخافي القناعا
وجلا من صور الحسن لنا عبقريا لبق الفن صناعا

ثم إذا بمعنى آخر يجيء ـ الهاجر والهجران والملاح التائه :

أيها الهاجـر عـز الملتقى وأذبت القلب صدا وامتناعا
أدرك التـائه في بحـر الهوى قبل أن يقتلـه الموج صراعا

البحر هنا مجازي لفظي وبحر كلردج أيضا مجازي إلا أنه ليس منحصر المجازية في اللفظ

وارع في الدنيا طريدا شاردا عنه ضاقت رقعة الأرض اتساعا

فقد صار البحر أرضا، وقد يعتذر معتذر عن هذا بأن البحر في كوكب اسمه الأرض، والشاعر مهندس علمي عقله ـ يذكر القارىء الكريم أصلحه الله قول أبي الطيب :

عـربي لسـانـه فلسفي رأيـه فـارسيـة أعيـاده

نعم الأرض هاهنا هي الكوكب الفلكي الجغرافي لا أرض الشعراء التراب

ضـل في الأرض سراه ومضـى لا يرى في أفق منه شعاعا
يجتـوى اللافح من حـرقتـه وعـذاب يشعل الروح التياعا
والأسى الخالـد من مـاض عفـا والهوى الثـائر في قلب تداعى
فـاجعل البحـر أمـانـا حـولـه وامـلأ السهل سلاما واليفاعا
وامسـح الآن على آلامـه بيـد الرفق التي تمحو الدماعا
وقـد الفلك إلى بـر الرضى وانشر الحب على الفلك شراعا

صار البحر غير مجازي وله بر كما ترى ـ وصار ملاح المهندس التائه يترنم بأصداء همزية أمير الشعراء :

رب إن شئت فـالفضـاء مضيق وإذا شئت فـالمضيق فضـاء
فـاجعل البحر عصمة وابعث الرحـ ـمة فيهـا الريـاح والأنـواء

وهل العصمة والرحمة هنا لهما لون انجيلي مسيحي ؟ وهل في كلم المهندس شيء من نظر إلى القسيس المعدوم فلم تجد روح ملاح كلردج من يصلي لها وهي في غرغرة النزاع؟

يقول المهندس في «الله والشاعر» : ـ

وهـــذه الأعين نهب العفـــاء في رقـــدة الموت كـأن لم تنم
محدقـــات في نـــواحي السماء تشهـــدهـــا هـــذا الأسى والألم
وهـــذه الأيـــدي تحوط الصـــدور كـأنها في مـــوقف للصـــلاة
لم تنس في نـــزع الحيـــاة الغـــرور ضراعـــة تـــرسمهـــا لـــلإلـــه

هاهنا شيء من ملاح كلردج وأشباحه .

أشباح كلردج سباع شرسات ، وأعين المهندس التي يذكرهن وينعتهن محدقات هاهنا ، إنما هن أعين سنانير أوالف ، أدركهن ما يدرك سنانير الدور من هذا الموت ـ خذ مثلا قول كلردج : (الفصل الرابع[1]) :

I fear thee ancient mariner!
I fear thy skinny hand!
And thou art long, and lank and brown,
As is the ribbed sea - sand.

I fear thee and thy glittering eye,
And thy skinny hand so brown.
Fear not fear not thou wedding guest
This body dropt not down.

Alone, alone, all, all alone,
Alone on a wide wide sea!
And never a saint took pity on
My soul in agony.

The many men so beautiful
And they all dead did lie,
And a thousand thousand slimy things
Lived on; and so did I.

I looked upon the rotting sea,
And drew my eyes away;
I looked upon the rotting deck,
And there the dead men lay,

(١) ص ١٦٢ ـ ١٦٣ من كتاب English Romantic Verse

I looked to heaven and tried to pray
But or ever a pray had gusht,
A wicked whisper came, and made
My heart as dry as dust

ترجم زميلي الفاضل الأستاذ عمران العاقب منظومة الملاح التائه كلها، وأكتب وليس من ذلك بيدي شيء فأستشهد منه في هذا الموضع فحسب القاريء الكريم لهذه الأسطر اللاتي مضين هذا التقريب، وإنما هو لتوضيح ما يمكن توضيحه من اتجاه معاني كلردج:

أنا خائف منك أيها الملاح القديم
أنا خائف من يدك المعروقة
وأنت طويل نحيل أسمر
مثل رمل البحر المضلع

أنا خائف منك ومن عينك ذات البريق
ومن يدك المعروقة الشديدة السمرة
لا تخف لا تخف يا ضيف العرس
هذا الجسم لم يسقط (١)
وحدي وحدي لا أحد معي في انفرادي
وحدي في بحر واسع المدى عريض
ولم يرق قلب ولو من قديس واحد
على روحي التي في ألم النزاع

الرجال الكثيرون ما كان أجملهم
جميعهم راقدون أموات
وألف ألف شيء لزج
ما زال حيا، وكذلك أنا

(١) يشير إلى قوله من قبل أن أصحابه سقطوا واحدا بعد الآخر هالكين.

نظرت الى البحر المتأسن
ثم صرفت نظري عنه بعيدا
ونظرت الى سطح السفينة المتعفن
وثم الرجال موتى رقودا

نظرت الى السماء وحاولت أصلي
ولكن لم تكد تنبعث صلاة واحدة
حتى أتى هاجس شرير وجعل
قلبي يابسا مثل التراب

I closed my lids and kept them close,
And the balls like pulses beat,
For the sky and the sea, and the sea and the sky
Lay like a load on my weary eye,
And the dead were at my feet.
The cold sweat melted from their limbs,
Nor rot nor reek did they:
The look with which they looked on me
Had never passed away.

أغمضت أجفاني وأبقيتها مغمضة
وجعلت الحدقات تدق مثل النبض
لأن السماء والبحر والبحر والسماء
جثما كالعبء على طرفي المضني
وعند قدمي جنائز الموتى

وقد ذاب العرق البارد من أعضائهم
ولكنهم لا تعفنوا ولا فاحوا
والنظرة التي كانوا ينظرون بها الي
لم تفارقهم قط .

هذا وقد ضربت الرومنسية التي من هذا الضرب بجران في أكثر البلاد العربية وينبغي أن ننبه الى موضع اليمن والمغرب والسودان في جميع هذا وليس ههنا موضع

الاستقصاء والتفصيل . وقد سبقت الإشارة الى شيء من شعر يوسف مصطفى التني [1] رحمه الله قلنا إنه نظر فيه الى بعض ما قاله الرافعي رحمه الله في أوراق الورد ، وهو قوله :

اعبسي لي ففي العبـوس ابتسـام   لجمال منـــــوع القسمات

والكلمة من ديوانه الصدى الأول :

اعبسي لي ففي العبـوس ابتسـام   لجمال منـــــوع القسمات
وادفعيني ففي الصـدود اقتراب   من معـاني جمالك الأشتـات
ايـه وادعي علي دون حنـان   فـدعـاء علي منك يـواتي

أعـزوفـا عن الجنـان لأني   لا أنـال الجنـان دون تقـاة
أغنـاء عن الخلـود أكيـدا   إن يكن مهيعي إليـه مماتي
أأعـاف النعيم لـو يتبـدى   في لبـوس النحـوس والحسرات

قـد عهـدت الجمال أنفـذ سحـرا   وهـو سر عنـه الشفـوف تشف
شـوق النـاس للبـدور غيـاب   وغمام على الضيـاء يـرف
والـورود الـورود مطمح نفسي   وهـي بـالشـائك الأليم تحف

مـرحبـا بـالعبـوس فهـو ضيـاء   قـد جـلا من محاسن القسمات
مـرحبـا بـالـدعـا تشـابـه فيـه   أنـة العـود رنـة الكلمات
أنـا اعطي لكي انـال كثيرا   وأصفي من الاسى فـرحـاتي

فـاعبسي لي ففي العبـوس ابتسـام   لجمال منـــــوع القسمات
وادفعيني ففي الصـدود اقتراب   من معـاني جمالك الأشتـات
ايـه وادعي علي دون حنـان   فـدعـاء علي منك يـواتي

والتني كما تأثر بالرافعي تأثر أيضا بالعقاد ـ ثم بسائر روح زمانه " الرومنسي " من شواهد الرومنسية الواضحة هنا هذا الاعجاب بالنفور والعبوس والغضب . هذا اللون

---

(١) ولد رحمه الله سنة ١٩٠٩ ، وتخرج من كلية غردون ، ثم التحق بالجيش ثم تركه فعمل في الصحافة وشارك في الحركة الوطنية وعمل في السياسة وصار سفيرا للسودان في يوغسلافيا وتوفي رحمه الله ١٩٦٨م .

النمري، [نسبة الى النمر]. وقد لاحظ بر تراند رسل "أن" الرومنسيين يعجبهم الجمال الشرس كجمال النمر الذي أعجب وليم بليك، ولا يفطنون للجمال النافع كجمال حقل القمح. وفي متن هذه الابيات التي اوردنا بعض الوهي. وشعر التني رحمه الله في جملته لا بأس به وله ديوان في المدائح النبوية هو آخر ما نظمه، خرج فيه من الرومنسية التي من هذا الضرب الى نوع من التدين قريب معدنه من الضرب الأول. وأكثر نشأة رجال الفكر في بلادنا كانت في أوساط دينية ـ وقديما قال الشاعر:

كل امريء راجع يوما لشيمته ... ولو تخلق أخلاقا الى حين

رحمه الله ووكفت على جدثه شآبيب الغفران.

ما صنعه الاستاذ محمد المهدي مجذوب رحمه الله في كلمته «صل يا رب [1] على المدثر» مختلف عن هذا الذي صنعه التني رحمه الله إذ هو لم يرجع لتقيده قريش بأحساب الكرام وتميم. الإشارة هنا الى قوله [2]:

فليتى في الزنوج ولي رباب ... تميل به خطاي وتستقيم
طليق لا تقيدني قريش ... بأحساب الكرام ولا تميم

فقوله فليتى شاهد بأن القيد ما زال معه. فليتأمل جوانب منه. وليفصح عن محافظته وثورة وجدانه وافتنانه، افتنان المصور الدقيق عن كل ذلك معا، وليظل بعد ذلك جامعا بين الرومنسية الثالثة وروح النهضة ثم متجاوزا من بعد الى ضروب من النهج الجديد.

ولا يخفى أن جانب النهضة يصحبه كما تقدم وصفنا له تجويد في متن النظم وحرص على نقاء الديباجة ومذهب الجزالة وأن ذلك قل أن يتفق مثله في الرومنسيتين الثانية والثالثة.

واعلم أيها القاريء الكريم اصلحك الله أن شأن الموجة التجديدية تخرج من بلاد العرب التي سبقت بالنهضة ومن مصر على الأخص اذ كانت حقا هي القائد في هذا الباب، تتأثر بها بلاد العربية الاخرى، وسرعان ما تلحق بها موجة تالية من

---

١ ـ من ديوانه نار المجاذيب، طبع الخرطوم ١٩٦٩.
٢ ـ من قصيدته «لزيم الجوى من أسفى لزيم» في ديوانه نار المجاذيب.

التجديد فيكون من هم مازالوا تحت غمرة الموجة الاولى ، قد بلغهم فجعل يغمرهم دفاع الموجة الثانية وربما لحق بذلك ألسنة رشاش أو غمر كامل من موجة ثالثة وهلم جرا . فيلفى شاعر نهضي من أوائل المتأثرين بالنهضة قد اصابه رشاش من رومنسية الجيل الذي كان تحرر التعليم الحديث قوي الأثر فيه ، نهضيا بحكم ما درس من العربية وما كان فيه مجتمع بلاده من طور التأثر بشعراء النهضة وإيثار الجزالة ولا بد له من موقف إزاء الرومنسية وما جاء بعدها من اطوار بحكم ملابسة المعاصرة وتعذر الانفصام عن المشاركة فيها بسلب أو إيجاب .

محمد المهدي مجذوب جمع بنهضيته بين المتانة والسلاسة ومذهب الجزالة ثم مع رومنسيته أخذ بوجوه من التجديد الحديث . محمد عبده غانم حرص من رومنسيته على الصحة والتجويد النهضي وآثر أن يعيب مسائل من مستحدثات الهمس والرمز والخروج عن الوزن ، أو كما قال في كلمة له قالها في مهرجان شوقي وحافظ :

ما ان عهدنا الهمس من خاطب	أكسبه بكرا ولاثيبا
ما للجماهير وللشعر إن	لم تفهم النجوى ولا المطلبا
فتارة يهمس في أذنها	كأنما قد هاب أن تغضبا
وتارة بالرمز ينتابها	والرمز للصفوة إن أعجبا
هامت به بين استعاراته	لا تنتشي إلا إذا أغربا
وقال ليل الفجر في أفقنا	أطبق والبوم به أطربا
وكأسنا في قاعها قطرة	ترفض أن تشرب أو تسكبا

ومن جيد شعر محمد المهدي ، ونموذج من شدة أسره قوله يصف امرأة تتدخن وهوضرب من التزين ، ومن الحمام الساخن ، تقعد المرأة فوق مكان حفرة خاصة معد لتوقد فيه نار من خشب الطلح ، ثم تشتمل المرأة وتستحم بدخان الطلح الخارج منها ـ قال والكلمة في ديوانه نار المجاذيب :

وحفرة بدخان الطلح فاغمة	تندي الروادف تلوينا وتعطيرا
لمحت فيه وما أمعنت عارية	تخفي وتظهر مثل النجم مذعورا
مدت بنانا به الحسناء يانعة	ترد ثوبا إلى النهدين محسورا
قد لفها العطر لف الغيم منتشرا	بدر الدجى وروى عن نورها نورا
يزيد صفرتها لمعا وجدتها	صقلا وناهدها المشدود تدويرا

هذا وشعر المغرب العربي الأقصى وبلاد شنقيط وشعر الجزيرة العربية بأسرها نجدها وحجازها وعروضها وتهامتها ويمنها وأحقافها وعدنها وخليجها وعمانها

وهجرها وبلاد السودان والأطراف اللاحقة به من افريقية وبالعربية من بلاد باكستان والهند والشرق الاوسط والأقصي وداغستان وما وراء النهر وما امتد من ذلك بالهجرة إلى ما وراء البحر المحيط من هذه البلاد ـ وهذا سوى ما تقدم ذكره من هجرة مهجريي لبنان وسورية ـ كل ذلك مما مرت به وتمر في شعر العربية خاصة موجات النهضة والتجديد على دفعات متتالية. وكل ذلك مما ينبغي أن يتنبه له ويحرص على درسه، ولا يتسع المجال هاهنا للاستقصاء والتحليل ـ وهاك مثلا من ديوان الحرية لابن ثابت أورده الدكتور الطريسي أحمد غراب في رسالة له للدكتوراه بعنوان الفن والشعر الحديث بالمغرب ومن ثم آخذيه :

لا تسلني كيف كان الأمر إني لست أعلم
كل ما أعلم أني بت في جوف جهنم
وقضيت الليل والليل سعير يتضرم
هائجا يارب ماذا قد جنيت الليل فارحم
تقفز الاحرف من فيه شرارات تكلم
قال لي ربك أدري بك يا صاح وأحلم
أنت منه قد طلبت النار يوما أنت أظلم
أولم تسمح إليها وتراها بك أكرم
فذق النار التي أبت إليها وتعلم
فلعل النار تهديك وهدى النار أقوم

أول هذه القطعة مهجرى متأثر بطلاسم إيليا أبي ماضي، ثم انتقل ابن ثابت، صاحب هذه الأبيات إلى الرمز وأسطورة بروميثوس. وهذا في معنى ما قدمناه من تداخل دفعات الأمواج. والأصل « رومنسي » ثالث لفق به غيره على نحو ما يقال له إكلكتكي ـ Eclectic ـ أي يأخذ من المذاهب المختلفة ويترجمونها بتلفيقي ولا تعجبني إذ ليس التلفيق مذهوبا فيه إلى أخذ متعمد باستحسان واختيار من مواضع شتى قد لاتتلاءم، ولكن هو ما لفق فيه شق من ثوب بشق آخر أو من ثوبين مختلفين مع حسن الملاءمة اللهم إلا أن نزعم أن الاكلكتكي إنما يريد الملاءمة الحسنة وفيه بعد. والله تعالى أعلم.

هذا وقد مثلنا أكثر ما مثلنا لأخذ على محمود طه وناجي من رومنسية كيتس وكلردج. وليس القصد إلى استقصاء في «الأدب المقارن»، وإلا فغير محتاج إلى كبير دليل أن أخذهم قد تجاوز هذين وغيرهما من رومنسيي الانجليز وخاصة شيلي، فقد ظل محبوبا مقروءا بين محبي الرومنسية من العرب ولا سيما منظومته Ode to the West

Wind(قصيدة للريح الغربية) و Ode to the SKylark (قصيدة للقبرة) ووردزورث
شاعر الرومانسية الانجليزيـة الكبير إلى رومنسيى الفرنسيين كلامرتين ودي موسيه ودي
فينى وفكتور هـوجو، وقـد ترجم إلى العربيـة من جميع هؤلاء، كما كـان لكثير من أدباء
مصر والشام والمغرب بهم معرفة و إلمام واسع ـ على أن شعراء الرومنسية الانجليزية كانوا
بسبقهم لهم أثر على الرومنسيـة الفرنسية كما قدمنا من قبل . قـالت مدام دي ستايل في
بعض تعميماتها : « الأمة الفرنسيـة التي هي أعظم الأمم اللاتينية حضارة وتثقيفـا تؤثر
المذهب الكلاسيكي وتحاكي به اليـونان والرومان . والأمـة الانجليزية وهي أبهى الأمم
الجرمانية مكانا، تقصد إلى الشعـر الرومانتيكي وشعر الفروسية وتجد أعمالها الكبرى في
هذا الباب» فهذا من معنى ما تقدم ان شاء الله تعالى .

الضرب الرابع وهو رومنسية الفقير المفقود

أو قل الفقيه المفقود أو ما أشبه ، وهو الـذي أقبل على الثقافة الدينية وأحس بأن فوائد
العصر من جاه وحضارة جـديدة وما إلى هذا المعنى ، كل ذلك فائتـه إن هو لم يرم (١)
مكان الشيخ الفقيه العـالم القديم . كان التعليم الديني هـو أصل التربية والتأديب في
جميع بلاد المسلمين، يبتدأ بـالقرآن ثم يصار منه الى الفقه والنحو وسـائر علوم اللسان
والدين . وكـان يقال لمعلمي القرآن عندنـا الفقراء وربما قيل لهم «المهاجرون» من قـوله
تعـالى «للفقراء المهـاجـرين . . . » وهم الصحـابة المهـاجـرون الأولون العلماء . وهـذه
التسمية قديمة . وفي شرح الأعلم الشنتمري الملحق بهوامش طبعة بولاق للكتاب :

أتيت مهـــاجـــرين فعلمـــوني ثـــلاثـــة أحـــرف متشـــابهات
وخطـــوا لى أبـــا جـــاد وقـــالـــوا تعلـم سعفصن وقـــريشيـــات
ويقال الفقيـه ولها وجوه مختلفـة في النطق العامي في شتى بـلاد العرب : الفقى الفكى
الفئى(٢) . . .
ثم جاء التعليم الحكومي أو شبه الحكومي العصري مع الاستعمار المباشر وغير المباشر،
وكان سبيـلا الى الوظـائف ومراتب الـدولة وفي ذلك من السلطـة والجاه ، وانحصر أمر
الوظائف المتاحة« لفقراء» الدين في إقـامة المساجد والقضاء الشرعي والوعظ . ولاريب

(١) لم يرم بكسر الـراء أي لم يغادر ـ رام يريم (٢) بتصيير القـاف همزة

أن هذا كان يصاحبه غير قليل من الشعور بالمظلمة والسخط . وفي بلادنا ، أيام الحكم الثنائى ، كان للقضاء الشرعى قسم خاص به في كلية غوردن (٣) يكون للمتخرجين منه إلمام باللغة الانجليزية مع ما تلقوه من علوم الشريعة على مذهب الإمام أبي حنيفة(٤) (رضي الله عنه) ، فكان هذا فيه تضييق من الفرص على خريجي التعليم الديني البحت غير المشوب بشوب من هذا النهج الجديد.

حرص كثير من الشبان المتخرجين من التعليم الديني على ألا يعدوا جانبا متخلفا عن مسايرة روح العصر، حرصوا على أن ينتموا الى العصر، ويزيدوا على الانتماء بأن يكونوا فيه أولى صدر وقيادة ، ومن هذا المبدأ نشأ بين أصحاب الملكة من بينهم اتجاه يجمع بين الثورة على المحافظة «التقليدية» يرون أنها هى معدن التأخر، وتطلع إلى الحرية ـ الحرية من قيود هذه المحافظة ، والحرية التي ينشدها جميع الوطن العربي من الاستعمار، والحرية التي ينشدها الشباب في الجمال والهوى والطلاقة والصعود المجنح الى الأحلام البعيدة ، أحلام الجاه ، أحلام العصر والانتماء المسحور.

أبو القاسم الشابي ، الشاعر التونسي ، ابن القاضي ، أديب مسجد الزيتونة وخريجه ممن يعد رمزا لهذا النوع من الرومنسية ، وقد تأثر بشعراء المهجر وأنفاسهم المعرية الإلحاد ، يشهد لذلك وبه قوله :

نحن نمشي وحولنا هذه الأكـ ـوان تمشي لكن لأية غاية
نحن نشدو مع العصافير للشمـ ـس وهذا الربيع ينفخ نايه
نحن نتلو رواية الكون للمو ت ولكن ماذا ختام الرواية

هنا أدركه بعض الإعياء وإنما حام حول معنى أبي الطيب :

تمتع من سهاد أو رقاد ولا تأمل كرى تحت الرجام
فإن لثالث الحالين معنى سوى معنى انتباهك والمنام

وقوله «ختام الرواية» يبدر منه الى الذهن أن ختام الرواية هو الموت ، ولكن قوله إنه يتلوها للموت دليل على أن الموت غاية بهيمنته وإشرافه ، إذ لا يعقل أن يكون هذا الموت الذي يتلو هو رواية الكون له شعرا مجرد سامع ومستمع كما نصنع نحن إذ نشهد

(١) أنشىء هذا القسم سنة ١٩١٢م

(٢) خلافا لما عليه أهل بلدنا وذلك مذهب الإمام مالك رضي الله عنه .

تمثيلية من المسرحيات. إذن يعني ما ختام روايتنا كلها؟ وتكون في هذه الحالة مثل رواية هامليت التي هي داخل المسرحية الكبيرة

....the play's the thing

Wherein I'll catch the conscience of the King

« المسرحية هي الشيء
الذي أمسك فيه ضمير الملك بيدي»

والبيت الذي يلي فيه ضعف، والحق أن قوة نفس الشاعر بلغت مداها عند قوله:
نحن نتلو رواية الكون للموت ثم أدركه بعد ذلك إعياء

هكـــذا قلت للـــريــــاح فقـــالت سل ضمير الـــوجـــود كيف البـــدايـــة

والكلمة فيهـا بعد مع الشـك المعري الـرومنسي «الجبراني» المنحى نظر الى بحـر المعرى ورويه في الكلمة التي رثى بها أبا القاسم المغربي الوزير(ت ٤١٨ هـ) :ـ

يـــا أبـــا القـــاسـم الـــوزيـــر تغيبـــ ـــت وخلفتني ثقـــال رحـــايـــه

يشير الى قول زهير «فتعرككم عرك الرحى بثفالها» أي معها ثفالها

إن نحتك المنـــــــــون قبلى فـإنـى منتحـــاهـــا وإنها منتحـــايـــه

ولكن في نظم أبي القاسم الشـابي من جودة الصياغـة ما لا تجد نظيره عند نـاجى وعند على محمود طه، ذلك بأن أساسه في العربيـة جيد، ولو أخلص له كل الإخلاص، ولم تفتنه أضـواء مدنيـة العصر الحديث فخف لكى يتأعصر لكان أسلـوبه في النظم أمتن وأبعد مما نجـده يعروه حينا بعد حين من الوهـن نحو قوله: ولكن ماذا ختـام الرواية؟ ونحو قوله: هكذا قلت للرياح فإنه ليس لها كبير معنى ههنا.
قولنا «يتأعصر» أي يكـون من هذا العصر، من قولك أعصر تقيسـه على أنجد أي صار في نجـد وأتهم أى صـار في تهامـة وأصبـح أى صـار في الصبح وأضحى أي صـار في الضحى وأعصر أي صـار في العصر. وربما قيل الآن تعصرن وتعقلن ولا يعجبني ذلك وله وجه بعيـد وهو قولك ضيف وضيفن أي ضيف الضيف بزيادة نـون عليه. وأشهر شعر الشابي أبوليته، أي قصيدته التي ذاعت من طريق مجله أبولو.

عـذبـة أنـت كـالطفـولـة كـالأحـــ ـــلام كـــاللحن كـالصبـاح الجديـد
كـــالسماء الضحـوك كـــالليلـة القمــ ـــراء كـــالـورد كـــابتســام الـــوليـد
يـــــــالها مـن وداعـــــــة وجمال وشبـــــــاب منعم أملـــــــود

هذا البيت ضعيف بـالنسبة إلى تتابع التشبيهات من قبل المشعـر بقوة الانفعال . وأتبع الشاعر "ياها" هذه الأولى باثنتين بعدها :

يـــالها من طهـــارة تبعث التقـــ ـــديس في مهجـة الشقى العنيـد

هل الشقى العنيـد هـو الشاعـر نفسـه ؟ ثم مـا هـذه "التقديس" الكلمـة المسيحيـة الظلال؟ وهل الشقى أيضا كلمة مسيحية الظلال بمعنى صاحب الخطيئة المذنب؟ أو هي قرءانية الأصل «فمنهم شقى وسعيد» تأعصرت بإشراب من ظلال مسيحية؟

يـــالها رقـــة يكـــاد يـــرف الـــ ـــورد منهـا في الصخـرة الجلمـود

وهل الصخرة قلبـه ؟ والياهاءات الثـلاث لم يزدن شيئـا على قوة البيتين الأولين ، وكأن الشاعر أحس هذا فعدل عنه الى وجه آخر:

أى شيء تـــراك هـل أنت فينيـــ ـــس تهادت بين الورى مـن جديد

وفينيس هنا يتأعصر بها الزيتوني ، ولا بأس عليـه من ذلك ، فهى كهذا الزي الافرنجي الذي جعل الناس يلبسونه

لتعيـــد الشبـــاب والفـــرح المعـــ ـــسول للعـــالم التعيس العميـــد
أم مـــلاك الفـــردوس جـــاء الى الأر ض ليحيي روح الســـلام العهيـــد

ملاك "مسيحية" يتوهم العصرى فيها الرقة لأن "الملك" قد يتبادر منها معنى "ملك الموت" ومعنى يوم القيـامة «وجـاء ربك والملك صفا صفـا» والعهيد تبرز منهـا عمامة الفقير الفقيد، إذ هى فعيل بمعنى مفعـول؛ هذا أمر لا يقـدم عليه إقدامـا أمثال أبى شادى أو ناجى أو المهندس أو جبران .

ثم هـذه الخطابة الـرومنسية بالفصاحة والبيان القرآنى : «القارعـة ما القارعة» «الحـاقة ما الحاقة» «والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق»

أنت ما أنت . .

ثم يجىء العصر الحديث والانتماء اليه :

. . . أنـــت رســـم جميـــل عبقـري من فن هـــذا الـوجـود

أى من جمال فنون الطبيعة . شيء من فلسفة وحدة الوجود . حتى هذه المعانى العميقة

عندنا يـا معشر العصريين. كأن هنا نوعا من الملاقـاة بين هذا الضرب الرابع المتأعصر والأول المدافع المتحدي :

فيك مـــافيـــه مـن غمـــوض وعمق وجمال مقـــــدس معبــــــود
أنت مـا أنت أنت فجـر من السحــ ـــــر تجلى لقلبى المعمــــــود

وفجر هنـا ترف عليهـا طيوف من الصـلاة وصوت المؤذن "الصـلاة خير من النوم". والفجر أول بدء الإسفـار حق جميل. وأكثر ما يذكـر الفرنجة "Dawn" يعنون به ضوء الصباح، وكذلك Aube الفرنسية، والصلاة عند ذلك ليست بأداء ولكن قضـاء ـ أعنى صلاة الغداة المفروضة.

ثم تجيء أنواع من التكـرار. وقد أدار الشابى معانى قصيـدته كلها على خطابـة لفظية تعطـو بيد ولا تستطيع التنـاول حقا من ثمـرات ما يخيل إليـه أنه هـو التفكير المتحضر الفنى العصرى. الغنـاء بالطبيعـة المشبهة بها هـذه الحسنـاء ينقصه التأمل. ليس فيـه حديث المعرفة بالطبيعة التي ينبعث منها الإيحاء بالحب لها، والاتحاد القلبى مع جمالها. هذا واضـح عند "كيتس". وواضح أيضـا فى ريح "شيلي" الغربية إذ هـو لا يكتفى بـالخطابـة اللفظية ولكن يتأمل الطبيعـة نفسهـا ويضع أنامل تأملـه على تفاصيلهـا ـ الأوراق الميتـة المتطـايرة صفـرا وسـودا وشـواحب وقـانيات، والحبـوب المجنحـة التي تستطردها الريح فى مركباتها إلى مراقدها الشتوية المظلمة . . . .

Thou on whose stream, mid the steep sky's commotion,
Loose clouds like earth's decaying leaves are shed, …
Shook from the tangled boughs of Heaven and Ocean,
Angels of rain and lightning (1) …

واضح فى شعر "وردزورث" عن ضروب الأزهار وضروب مناظر الريف ـ الفتاة الجبلية مثلا، لا بل واضح في شعـر إيليا أبى ماضى على شح ما فيـه بالنسبة إلى هؤلاء ـــ ذكر التراب والجدول والقطـرة والآرز والـزنبق والســوسن وحقل القمح والشمس والبـــدر والنجـوم والجبـال والعشب والنـدى والجنى والشجر والـربيع والـوحل والشتـاء. ولا يزعمن زاعم أن لبنـان بحسنها هى التي أوحت جميع هذا الى شاعـرها المشتاق الآئب، نعم حسنهـا لا ريب فيـه. ولكن تـونس الخضراء هى أيضـا جميلـة وفيهـا ضروب من

---

(١) أنت يا من فى مجراها وسط جرف هيجان الجو السحيق ـ تـرى هلهلة أهداب السحاب كما يساقط الورق على الأرض الذابل ـ تهز ملائكة الحيا والبروق هزا من أغصان السماء والبحر المتشابكة. «من الريح الغربية للشاعر شيلى».

الشجر والثمر والزهـر. ولكن شاعرها الرومنسي برومنسيـة ابن المسجد المحنى الضلوع على ألـوان من الثورة على المسجـد، هو أيضـا ابن مـدينة قليل التعلق بتفـاصيل جمال الريف. الطبيعة التى يعشقها هى طبيعـة هذا التصوف الحضاري الجديد المنبعث من روح التجديـد. وروده وأزهاره على الـورق المكتوب وأنـاشيده ليست من أغـانى عرس العرب ولا ليلات نشيد الأذكار الصوفية والمدائح النبوية، ولكن من توهم ترانيم كنيسة في القلب. من العجب أن إيليا أبى مـاضى ليس في نونيته من الكنسيـات كما فى دالية الشابي هذه

على أن للشابي مقدرة الخطابة المسجديـة ذات المترادفات والمتزاوجات الكثيرة. ثروة من التدفق اللفظي. أما المعانى ـ بل تأمل هذه الأبيات :ـ

فأراه الحيـــاة فى مــونـق الحســـــ	ـــن وجلى لـــه خفـايــا الخلـــود
أنت روح الـربيـع تختـال فى الـدنـــ	ـــيا فتهتـــز رائعــات الــورود
وتهب الحيــاة سكـــرى مـن العطــــ	ـــر ويـدوى الـوجـود بـالتغـريـد
كلما أبصرتـك عينـــــاى تمشيــــــ	ـــن بخطـــو مـــوقع كــالنشيــد
خفق القلـب للحيــــاة ورف الــــز	هـــر فى حقـل عمــرى المجــرود

فى ذا البيت محاولة تعبير عن انفعال صحيح عبر عنه الشاعر بأمر لعله كان يراه ويعرفه وهو هذا الحقل المجـرود ـ هذا البيت من التفاصيل النادرة فى القصيـدة ولكن له أصلا من مادتـه القرءانية كما لا يخفى وأحسب أن هـذا هو أصل التعبير لا تجربة المشـاهدة والله تعالى أعلم.

وانتشت روحـى الكئيبـــــة بـــالحـــ	ـــب وغنت كـــالبلبـل الغـــريـــد
أنت تحيين في فـــــؤادي مــــا قــــد	مــات من أمسى السعيـــد الفقيـــد
وتشيـــــدين فى خـــــرائب روحـى	مــا تـــلاشى من عهــدى المجـدود

هذا البيت تكرار للذى قبله.

مـن طمــــوح الى الجمال الى الفــــــ	ـــن إلى ذلـك الفضـــاء البعيـــد
وتبثين رقـــــة الشــــوق والأحـــــ	ـــلام والشـدو والهوى فى نشيـــدى
بعـــدمــا عـــانقت كـــآبـــة أيـــا	مى فـــؤادى وألجمت تغـــريـــدي

معانقة الكآبـة للفؤاد وإلجامها للتغريد فصاحة مسجـدية الأصول (من أبى تمام مثلا) عصرية الفروع. ثم تجىء التأعصرات بالمعانى المسيحية والأساطير الرومية :

انت انشودة الأناشيد غنا ... ك إله الغناء رب القصيد
فيك شب الشباب وشحه السحـ ... ـر وشدو الهوى وعطر الورود
وتراءى الجمال يرقص رقصا ... قدسيا على أغاني الوجود
وتهادت فى أفق روحك أوزا ... ن الأغاني ورقة التغريد
فتمايلن في الوجود كلحن ... عبقرى الخيال حلو النشيد
خطوات أسكرنه بالأناشيـ ... ـد وصوت كرجع ناى بعيد

هذا من مفضلية الحارثي: «نشيد الرعاء المعزبين المتاليا» فهذا رجع ناي بعيد كما ترى

وقوام يكاد ينطق بالألـ ... ـحان في كل وقفة وقعود
كل شيء موقع فيك حتى ... لفتة الجيد واهتزاز النهود

تفاصيل المنظر الجنسي المتمثل في مشية هذه الفتاة الافرنجية، الرومية، قولا واحدا، وهي كما هي جنس هي أيضا كسر أو رمز لكسر قيود المسجد وحجاب البنات وقساوة قلوب غيرة المحافظة العربية المسلمة المتمسكة خلافا لإسلامها ببعض روح الوأد الجاهلي المسئول عنه يوم القيامة ـ هذه التفاصيل هي التي تملي على الشابي الدفعة بعد الدفعة من التعبير القوي ثم يترنم بعده بالنشيد واللحن والتحبب إلى ألفاظ الأساليب العصرية بملكة مستفادة من خطابة أئمة الدين وبلغاء "الفقراء" ومحفوظ قديمات الأساليب ذوات البيان. "وشحه السحر" مع وشاح ثريا امرىء القيس وغيره من الشعراء الأوائل. "سكرى من العطر" . . . عطر الند والعود وبخور حلقات الصوفية مع فواح عطر فرنسة المنبعث من "البروميناد" وهو عطر الورود لأن الورود ههنا هي الفتيات بلا ريب. ثم السكر بالخطوات نظر عارم. والأناشيد أناشيد الكنيسة التي توهمها الشاعر. ثم جاءه تداعي المعاني بقول عبد يغوث الحارثي:

أحقا عباد الله أن لست سامعا ... نشيد الرعاء المعزبين المتاليا

ولا شك كان رحمه الله يحفظه. "المعزبين المتاليا" أي الذاهبين بها بعيدا في المرعى فالناي البعيد، كما تقدمت الإشارة منا الى ذلك من ههنا. ثم تعود الحان الكنيسة المتوهمة وموسيقا أوروبا في نظرة عارمة مرة أخرى إلى القوام والجنس ـ القعود كناية عن ثقل العجيزة واختلاج الوركين بالثياب. ثم أتم الصورة لفتة الجيد واهتزاز النهود، واحتفظ بتوقيع سحر الموسيقا: ناي عبد يغوث الذي في قلبه؛ ترانيم ثالوث

فالإله العظيم لا يرجم العبـ ـد إذا كان في جلال السجود

هذا المعنى قرءاني الأصل : وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون »[الانفال] هذه الأبيـات من " عذبـة أنت " إلى«السجـود» هي مختـار القصيدة وسـائرهـا بعد إطنـاب وإسهاب ، بعضه أفضى اليـه اندفاع الشبيبةوبعضه إرث الفقير المسجـدي من المباهاة بطول النفس ، وأكثره فرط إلحاح على قرع باب الانتماء إلى دنيا التجديد وعالم رومنسيتها المسحور: الطبيعة ، الربيع ، اللحون ، الأحلام ، تحطيم القيـود ، النور ، تبديد الظلام ، هذا الحشـو الهوائي كأنـه ضرورة للتعبير عن الضيعة التـائهـة والازدواجيـة المركبة ، والجنـد الغريب الـذي تغلغل في صميم دولة عرف الإسـلام والعرب ، والشابي بـه صيحة حيرة وطموح وإخفاق .

التجاني يوسف بشير رحمه الله [١٩١٢ ـ ١٩٣٦م] ممـا يقرن اسمه باسم الشابي ويقال إنهما شاعران متشابهان[1]ـ بينهما تشابه من حيث إنهما كليهما لم يتلقيا تعليمهما في مدارس العصر الافرنجية الرومية النظام ، ولكن في " الخلوة " [أي كتاب القرآن] والجامع وعاصرا زمـان دعوة التجديـد ومجلة أبولو في مصر وحـركة شعراء المهجـر ، وتثقفا بأدب النهضة ، وشهدا اوائل دعوة القومية والتحرر من ربقة الاستعمار ، وشاركا في ذلك بجهد ما استطاعا من انفعال القلب وبيان القلم .

ثم بينهما مع هذا التشابـه اختلاف كبير. السودان بالنسبـة الى مصر وتونس والشام بادية وصحراء . " والبقعة (٢) التى كانت أكبر مدن السـودان على زمان التجانى ، ولا تزال ، ما كـانت حينئذ إلا أحوية وجـدرا من طين ، لولا بقايا أنقـاض من سور الخليفة

---

(١) للأستـاذ ابي القاسم محمـد بدري كتـاب عنهما بعنوان«الشـاعران المتشـابهان» طبعة دار المعارف وللدكتور عبدالمجيد عابدين تأليف قريب من هذا المعنى .

(٢) "البقعة المباركة" هـو الاسم الذى سمى به المهدى المكان الذى اختاره عاصمـة للبلاد فى سنة ١٨٨٥م . ثم لما غزا اللورد كتشنر الدولة المهديـة باسم الخديوى فيما زعم وضرب الاستعمار بجران ، غلب اسم أم درمان على اسم البقعة فصار لا يعـرف لها اسم إلا أم درمان وكان اسم البقعة أشهـر بين عامة النـاس إلى سنوات الثلاثين ، وكانـوا أكثرهم أدنى الى البداوة .

عبدالله وجانب من قبة المهدى المهدومة وبعض مبانى الحكومة الرسمية من الآجر وطابق أرضي واحد. وشارع مرصوف واحد وسطها يسير عليه الترام وما بنيت قنطرة النيل الأبيض إلا وهو ابن خمس عشرة أو ست عشرة سنة.

فى شعر التجانى رحمه الله تليين من حضارة ولكن أسر البداوة عليه أغلب. ثم حظه من التفصيل فى الوصف والدقة فى المعانى أوفر، مثلا وصفه الساقية وقواديسها [أى جرارها عندنا]: (١)

وهب صوت النواعيـ	ـر وهو فى الشجو مر
إن الجرار وقد ضا	ق بالقليب الممر
تكسرت وهى تهوى	فما تلاءم كسر
فتلك معصوبة الرأ	س كم تنى وتخر
وتلك مرضى وهاتيـ	ـك للخواطر قبر

ليت شعرى هل كان يمكنه تجنب «النواعير» وهى كلمة مع وضوح دلالتها غير مستعملة فى بلده وقد تعرف فى بلاد أخرى؟ألو تمسك بالسواقى وهو اسمها المعروف فى بلده أما كان ذلك أقوى لأمره و إن اضطره الى تشديد الياء مشعرا لها صنفا من نسبة. وكذلك الجرار فالجر ـــ بفتح الجيم ـ فى عامية قومه هو حب الماء الكبير [الزير] وجرة الساقية الصغيرة التى إنما هى دلو اسمها عندنا القادوس وقواديس الساقية جرارها كما مر بيان ذلك منذ حين قريب على أن استعمال الجرار هنا يشفع له أنها أوضح لقراء العربية. ثم قد آخى بين قاف "القليب" وقاف "ضاق" فاحتاجت راء "الممر" الى ما يؤاخيها ولعل هذا ما جعله يؤثر "النواعير" على "السواقى". وقد يرى القارىء بعد دقة الوصف وقوة ملكة اللغة ـ يعجبنى قوله «فتلك معصوبة الرأس» وقوله «تنى وتخر» إذ هكذا ترى كثيرا من قواديس الفخار والساقية بها تدور ولعل ما يخلص منها من مائها متشلشلا سربا الى قليبها بمقدار ما ينساب فى الجدول أو أكثر وقوله "وتلك مرضى" أراد به عدة قواديس إذ "مرضى" جمع. ويجوز فى قوله "فتلك

---

(١) سبقت الإشارة الى مطلع هذه القصيدة:

يا درة حفها النيل واحتواها البر

بمعرض الحديث عن بحر المجتث فى الجزء الأول من المرشد وكانت للمؤلف كلمة عنها فى مؤتمر المجمع بالقاهرة سنة ١٩٨٤م

معصوبه الراس" وقوله «وهـاتيك إلخ» أن يكون اراد به الجمع أو المفرد وإرادة المفرد فى المعصوبة أحب إلى وأقوى فى التصوير.

ومن عـلامات الـرومنسية والتأعصر قـوله، والأبيات مـن هذه القصيـدة نفسها إذ يقول:

كـــــــم ذا تمازج فـــــــن	على يـــــديـك وسحـــــر
يخور ثــــــور وتثغـــــو	شــــــــــاة وتنهـق حمر
والبهـم تمرح والـــــــــزر	ع مـــــــــــونـق مخضر
تجاوب الطحـن واللحـــــــ	ـــــن والثغـــــاء المسر

وموضع الرومنسية مدح البداوة والتعلق بالطبيعة هاهنا. وجزيرة "توتى" الموصوفة فى هذه القصيـدة فى وسط بحر النيل بين الخرطـوم وأم درمان [البقعـة] وكانت بـادية محضة البداوة الى زمـان قريب. وقوله رحمه اللـه «تجاوب الطحن واللحن» أمر ينبغى أن يشرح وليس مشروحا فى الـديوان إذ كـان ـ أيـام طبعه ـ هذا المعنى معـروفا، وذلك أن النساء كن يطحن الذرة على المراحيك، وطحن المرحاكة هو الموصوف فى قول الحماسي:

تقـــول وصكت نحـرهـا بيمينهـا	أبعلى هـــذا بـالـرحى المتقـاعس

اذ الرحى التى تدور لا تقاعس معها ولكن الذى يبرك ليطحن بالمرحاكة يبرز صدره ويتقاعس.

وكانت البنـات حين يطحن بالمراحيك (١) يتغنين بأراجيز لهن وربما شكـون فيهن الأسى والعناء

ومن مواضع الرومنسية قوله الذى مر فى جرار الساقية:

وتلك مـــــرضـى وهـــــاتيـــــ	ـــــك للخــــواطـــــر قبر

(١) الذى فى القاموس رهك باهاء (باب دنع) ـ ولكن الهاء مما تصير حاء كما تصير الحاء هاء، من ذلك قولنا رحط بالحاء لإزار السيور الـذي تلبسه البنت الصغيرة وفى المعجم بـالهاء وفى العاميـة نقول رهك وهى تـرهك للدلالـة على كثرة الطحن وفى عاميتنا كثيرا ما تصير الهمزة عينا كسعل فى سأل وجعر فى جأر.

فقد جسدها كما ترى، ولا يخلو مراده من غموض . أى تلك الجرار متداعية منهارة وهاتيك لا أمل فيها وفى صناعة البيت تعب . هذا، ولعل قوله «للخواطر قبر» له ارتباط معنوى بذكره الفلاحين من بعد، أى حال هذه الجرار قبر لخواطرهم لقلة المال الذى يجعلون به جرة أخرى فى مكانها .

ومن تفصيله مما سبق الاستشهاد به فى الحديث عن بحر المجتث فى الجزء الأول من هذا المرشد، يذكر شجرة مطلة على الشاطىء :

ورب قنـــــواء للعصــــــــ ــــــــم والأنـــــوق مقـــــــر

وقد سبق مأخذنا ما أخذنا على هذا البيت

أوفى على النيـــل فـــــــــرع منهـــــا وأشرف جــــــذر

هذه صورة غاية فى الدقة، ثم زاد فى تفصيلها حيث قال :

يقلهـــا الـــدهـــر عـــرقـــا ن مستطيـــــــــــــــل وشبر
يكـــــاد يلفظهـــا الشـط وهـى شمطـــــاء بكـــــر

وبعد وصفه الطحن واللحن والجرار التى حالها للخـواطر قبر، صـور الزراع، وقلما تستعمل كلمة " الفلاحـة " والفلاح عندنا، وإذا قيل فى الدارجة " فـلاحة " بفتح الفاء فهو الفلاح وصاحب " الفلاحة " التى من هذا النوع «فالح ناجح»

كـم فى المزارع قــــــــوم شـم العــــرانين صعــــــر

كل منهم سيد نفسه

هبـــوا سراعــــا إليهــــا وليس منهــــا مفــــــر

لفرط الشقاوة فى السقى والحرث، والأرض صلبة وحر النهار ساعر، ولكن لا بد مما ليس منه بد

ذيـــــاك يعـــزق فى العشـــــ ـــب جـاهــدا مـا يقـــر
وذاك يعنيـــــه حـــــرث وذاك يعنيـــــه بـــــذر

ومـــــــــاج فى الغيـط نـشء   مـلء النـــــواظـــــر خـــــزر

الغيط كلمـة مصريـة لا تقال عنـدنـا فأحسبـه اضطر ليقيم بها الـوزن وهى بعـد عربيـة . وأما " خزر" فقد جلبتهـا القافية ، ولها بعـد معنى صحيح فى هذا الموضع لأنهم يعملون مع آبائهم وينظرون من جانب وبتضييق للعين من الغبار، وأراد أنهـم حـزاورة لهم نشاط ، فهم ملء النواظر وهم بشيطنتهم خزر العيون

هنـــــاك فـــــول وهـــــــذا   ك فى السنـــــــابـل بــــــر

وله فى صفة الغلام يسير الى "الخلوة" [كتاب القرءان] كارها :

هب من نــومــه يــدغـدغ عينيـــ   ـــه مشيحـا بـوجهــه فى الصبـاح

هنـا مضغ للكلمات فيـه حسن الترنم ، ولكن فيـه لينـا ، ذلك بأن قـولـه «هب من نومه»كـلام تام ، "يدغدغ عينيـه" بعده نوع من استدراك ومضغ على مـا فيه من زيادة الوصف ، وكذلك قوله من بعده «مشيحا بوجهه»إذ من يدغدغ عينيه يشيح ضربة لازم

سـاخطـا يلعـن السماء ومـا فى الـ   أرض من عـــالم ومن أشبـــاح

هنا مبـالغة آشبه بعقول سخط الكبـار منها بعقول سخط الصغار. والأشبـاح ليلية لا نهارية ـ وغير خاف أن الغلام هنا هو الشاعـر، يفكر آنا بالذكرى وآنا بالحال والحاضر فيلعن السماء والأرض على لسان هذا الصغير الذي يتذكره. ولعنة السماءمن لسان ابن الجامع ـ أو قلمه ـ آبدة ، رومنسية ثالثة !

حنقت نفســه وضـاقت بــه الحيــ   ــلة فـاهتـاجـه بغيض الـــرواح

الرواح فى اللغـة الفصيحة يكون مساء وفي الـدارجة مما يقع على الغدو والـرواح جميعا . ولكن فى البيت طولا فيه تلمظ للكلمات ، هذا من التليين . وهذا البيت والذي قبله لو جاء بهما أوجـز لكان ذلك أفصح ، ولكن الإطناب أدخـل فى معنى التأمل الرومنسى . والأبيات التالية فيهن وصف متقن صادر من خيال خصب .

وأهـابـت بــه الظـلال وقـــد نشــ   رن فى جلـــوة القـــرى والبطــــاح

كأن في كلمة «البطـاح» قلقا إذ البطاح لا تقـابل القرى، إذ القـرية قد تكـون بالأبطح وغيره. وهل عنى بالقـرى ما كان "بأم درمـان" من حلل كالمتفـرقات، بينهن ضروب رواب وحفر وبطـاح؟ أم ليت شعرى هل رأي، هل اتفق له أن رأى ديار أصـول أهله وعبر النيل من ناحية المحمية حيث المطمر والجبل والمبانى على التل والظلال قد تنتشر من ثم الى الأبطح فعلقت هذه الصورة بذهنه؟ ويظهر من حديثنا مع من لقينا من أهله أنه لم يرم أم درمان.

ومشى بـــارمـــا يـــدفع رجليـــــ ـــــه ويبكـى بقلبـــــه الملتـــاح

صورة الرجلين وقد يركل حجرا هنا وحجرا ثم، جيدة بالغة.

ضمخت ثـــوبــــه الـــدواة وروت رأســــه مـن عبيرهـــا الفيـــاح

كأنـه كان يحمل الـدواة على رأسه أو يمسح رأسـه بـالقلم. ومداد الـدواة من السكن [بالتحريك] وهو فى عاميتنا السواد الذى تتركه النار على الآنية مع الصمغ ولذلك فيح من تخمير الصمغ. ولعل الغلام كان يلبس خرقـة واحدة فوق السراويل، وكانت تلك عادة قـومنا حتى جاء تغيير هذا الـزمان. رووا عن الشيخ ود الشيخ الطاهـر المجذوب رحمه الله أنه قدم «البقعة أى أم درمان» أول أيام الاستعمار بالثوب مخالفا بين طرفيه، كما جاء في السنة وكذلك كان لباس الناس عندنا عامة والفقراء" [أعنى العلماء] خاصة. وإنما استقدم الشيخ رحمه اللـه تحت المراقبة لسابقـة قتاله الكفـرة مع عثمان دقنة رحمهما الله تعالى. وكان الشيخ البـدوى، رحمه الله، شيخ الجامع وكبير العلماء آنئذ قد شفع فيـه فلم يعدم، وأشـار عليه بأن يتخـذ زى العلماء وهو الجبـة والقفطان والعمـة ذات الطربـوش الأحمر المغربي فأبى ذلك واحتج فيما ذكـروا بأن الثوب الذي يلقى بـه ربه في الصلاة ليس أحـد من البشر، حكام أو سـواهم، بأكبر من أن يلقاه فيـه، رحمهم الله جميعا:

ورمى نظـــرة الى شيخـــه الجبـــــ ـــــار مستبطنـــا خفـى المنـــاحى
نظـــرة فسرت منـــازع عينيـــــ ـــــه ونمـت عما بـــه مـن جـــراح

الذي رمى نظرة غـلام شيطان ناشىء وهذا الـذي به جراح هو التجـانى الشاب الذي يريـد حطم القيد وقـد ثقلت عليه قيـود الحياة ويحس فى أغوار صـدره وجع المرض ثم

انظر أيها القارىء الكريم الى هذه الصورة من قراءة «حيران الخلوة» أي غلمانها المفرد حوار بتشديد الواو وتخفيفها وضم الحاء المهملة

ونفوس سجا الكرى فى حواشيـــ ـــها ودب الفتـــور فى الأرواح

هذه قد تكون نفوس ركب مسافرين. وهذا من التجانى فيه جمع بين إطناب بالكلمات كأنها هى المرادة لجرسها دون ما تدل عليه من صور، وبين محاولة التصوير فى نفس الوقت. هذا التلذذ والتصنيع هو من باب ما قدمناه أولا من تليين فى صياغته هو بلا ريب جزء من نعومة «الرومنسية» الانتماء الى رونق حضارة العصر وأناقتها بتخير اللفظ الفصيح الحلو المتحضر ذى الظلال

فـارجحنت مهـومـات ومـا تبـــ ـــرح مـركـوزة على الألـواح

" ما تبرح إلخ " عربى فصيح. «فارجحنت مهومات» الفاظ متخيرات لهن ظلال. ولو قد أراد التجانى أو سمحت نفسه لشدة الأسر لكان يؤثر الخلوص الى إنجاز الصورة واضحة على البدء بتزيينها قبل تمام الإنجاز، تأمل قوله:

كلما لفهـا النعـاس وأضفى فـوقهـا عـالما نـدى الجنـاح
قصف الـرعـد فى المكـان ودوى مـرزمـا صـاخبـا قـوى الصيـاح

فهذا ما ترى من الاستعارة المرشحة [لفها - أضفى] والتشبيه المشتمل على إشارة قرءانية (أضفى فوقها عـالما ندى الجناح) من قوله تعالى «واخفض لهما جناح الذل من الرحمة» وفيه نظر الى قول ذى الرمة:

طـراق الخوافى واقع فـوق ريعـة نـدى ليلـة فى ريشـه يترقـرق

وبعد قوله «قصف الرعد» إطناب ضخم فى قوله: دوى، مرزما، صاخبا قوى الصياح. ثم يقول من بعد:

فاستفاقت وهينمت بعض أشياء...

وهذا نعت صلت مباشر وصورة حال الصغار إذ ينام منهم من ينام إعياء ويتناوم من يتناوم عفرتة، ثم يزجر الشيخ الجبار - كالحجاج بن يوسف - زجرته فيصحو النائم والمتناوم ويهينم الحوار إذ يكون قد نسى موضع ما يبدأ به. قوله« هينمت» على حسن

جرسه وجودة تصيد اختياره، هو اللفظ الدقيق المعبر حقا في هذا الموضع ولكن تمام البيت« . . . وعادت وعاد قصف الرياح» جار على ما سبقه من أسلوب الاستعارة والروح الرومنسى التلمس للتعبير والتصوير، إذ ليس ههنا قصف ولا رياح، ولكن هذا تمثيل مثله الشاعر لزجر الشيخ وهوله واستعان عليه بطبيعيات الرومنسيين وزينه بما له من عناية ومعرفة بالألفاظ والتلذذ بنقائها وحلاوتها.
هذه الزينة التى مردها إلى إيثار الاستعارة والتشبيه والجرس اللذيذ هى عطاء «ومساهمة» متعمدة يجود بها التجانى من ثروته اللغوية البيانية ليزيد بها إنتاج التجديد العربى وفي طى ذلك تنبيه الى مكان نفسه ومكان الجامع من هذا العطاء

وهذه المساهمة تأمل قوله «دوى» بالتضعيف، قل من الرومنسيين من يجيء بهذا الفعل مضعفا وإنما يقال دوى (باب ضرب) بالتخفيف ولعل القياس يجيزه ولكنه أى هذا الثلاثى المخفف ليس هو الفصيح الجيد على الأرجح إذ لم يرد في القاموس. وتأمل قوله «هينمت بعض أشياء» إيجازه وفصاحته. وتأمل جودة الاستعارة في «لفها النعاس»
ومن شعر التجانى المشهور قوله فى النيل:

أنت يـــا نيل يـــا سليل الفــراديـــ	ـــس نبيل مـــوفق فى مســـابك
كم نبيـل بمجـــد مـــاضيك مفتـــو	ن وكم ســـاجـــد على أعتـــابك
وكأن القلـــوب ممـــا استمـــدت	منك سكـــرى مسحـــورة مـن شرابك

قوله "كم نبيل" هل عنى به "شوقى" وهل يعرض بأنه لم ير من جمال النيل إلا مجد الفراعنه؟ ويكون هو الرومنسى الساجد على الأعتاب، وقد صار النيل معبدا ذا أعتاب؟ قوله يا سليل الفراديس تعبير عصرى رقيق، أصله دينى إذ هو من حديث المعراج ـ أصله من الجامع وقد جعله التجانى بروح عصريته كأنه ليس أصله من الجامع. ومن الجامع، مع اعتداد بذلك خفى، أصله. هذا أمر آخر به التجانى مختلف عن الشابي: اعتزازه بالتحصيل الذى ناله من علوم العربية والدين. كأن التجانى بهذا الاعتزاز فيه أنفاس من الضرب الذى ذكرناه أولا من الرومنسية، ضرب الرافعى الذى أدخلناه فى الرومنسية لنخرجه منها، غير أن التجانى بما خالط نفسه من ثورة على المحافظة ورغبة شديدة فى التجديد وإيمان بضرورته مع الإحساس القوى بروح الحركة الوطنية ومناهضة الاستعمار، ثم يخالط ذلك كله نوع من فتنة بنعيم النصارى الذي تمثله الخرطوم وبيوت الحكام البريطانيين ذات البساتين، وصنوف الأجانب من تجار وحاشية أخلاط بينها «البقعة المباركة» ـــ أى أم درمان، يسير السائر فى نصف

نهارها الأحمر الأغبر «وقد خبء آل الأمعز المتوقد» كما قال طرفة بن العبد فى المعلقة.
قال التجانى رحمه اللـه يذكر "بروميناد" الخرطـوم من ضروب نصاراها وأجانبهـا ونابتة مظاهر نعمائها وسرائها [وقد مـرت هذه الأبيات فى معرض الحديث عن بحر المجتث فى الجزء الأول من المرشد، وكان زميلنا الأستاذ حسـن الطاهر زروق رحمه الله وجعل الجنة مثواه يحسن الترنم بها بصوت عذب الشجى عميق]:ـ

آمنت بـــالحسن بـــردا	وبـــالصبابـــة نـــارا
وبـــالكنيســـة عقـــدا	منضـــدا مـن عـــذارى
وبـــالمسيح ومـن طـــا	ف حـــولـــه واستجـــارا
إيمان مـن يعبـــد الحســـ	ـــن فى عيـــون النصـــارى

وأبت هذه الأبيات إلا أن تعلن إسلاما ـ البرد والنار مـن سورة الأنبياء «قلنا يا نار كونى بردا وسـلاما على إبـراهيم »، والطواف بـالبيت الحرام والجوار بالحرمين، وركـز الجامع رايته وثبت ثبـاتا بالرغم من إيمان ابنـه بعبادة الحسن فى عيون بنات نصـارى الخرطوم.
وللتجانى رحمه الله شعر ذكر فيه وحدة الوجود بشىء بين التأمل والتصوف:

الـــوجـــود الحق مـــا أو	ســع فى النفس مـــــداه
والسكـــون المحض مـــا أو	ثـق بـــالـــروح عـــراه
كـل مـــا فى الكـــون يمشى	فى حنـــايـــاه الإلـــه
هـــذه النملـــة فى رقـــ	ـــتها رجـع صـــداه
هـــو يحيـــا فى حـــواشيـــ	ـــها وتحيـــا فى ثـــراه
وهـى إن أسلمـت الـــرو	ح تلقتهـــا يـــداه

فهذه أفكـار وحدة الوجـود التى سهكتها كثـرة الاستعمال. وللتجانى كما قدمنـا حذق وشغف باختيـار اللفظ ورنين النغم، فهذا ممـا تأعصر به ومما يبـاعده من نـوع رومنسية الدفاع عن القـديم عن أخذه منها بنصيب. وطبع التجـانى جيد. لعله لو كـان مد له فى الأجل، "لكل أجل كتاب"، لكان أسمح به إسماحا.
أحسب أن مكان التجـانى رحمه الله فى مقدمـة الإجادة الرومنسية، غير أنـه أجحف به كونـه من أم درمان، بقعـة المهدى المباركـة، القصية جدا عن مـراكز التقـدم والحضارة العصرية العـربية. صـدق صاحب معجم البلدان يـا قوت حيث زعم فى حـديثه عن تلك البلاد أنها أشبـه بلاد اللـه باليمن وأن في عيش أهلها شـدة، لعله منهـا، أنه قلما يفطن الى مكان المحسنين من أهلها مـؤرخو الأدب وأصحاب التراجم. ولليمن، وهى أصل العرب، وهى الغنية بذخـائر الكتب وفطاحل العلماء وفحول الشعراء من الإهمال

قسط وافر. ولعل ذلك كله خير فليس كل الشهرة بسعادة.

هذا، ومن شعراء الرومنسية الذين ينبغى أن ننبه على مكانهم محمود حسن إسماعيل رحمه الله، لا من أجل مجرد أنه من أسماء الرومنسية من هذا الضرب الرابع على الأرجح ونماذجها، ولكن لأنه كأنما هو نموذج لضرب لو كان أصلا قائما بنفسه لجعلناه ضربا خامسا. ذلك بأنه شاعر أخاذى تلفيقى.

أصل التلفيق فى الفلسفة ألا يلزم الفيلسوف مذهبا بعينه، ولكن يؤلف لنفسه مذهبا من مذاهب متعددة، ليس واحد منها له. يقال لذلك بـاللغة الإنجليزية Eclectic [إكلكتك] واشتقاقها من اليونانية التى من فلاسفتها أخذ هذا المعنى. ثم قيس على ذلك كل ما يذهب إليه من تلفيق المذاهب مفكر أو فنان على وجه الاستحسان فيجعله منهجا أو كالمنهج لنفسه. انتماء محمود حسن إسماعيل رحمه الله الى صناعة من الشعر تجنح الى الضرب الرابع. وتستعين ما للرافعى رحمه الله من إغراب، وقد مرت منه أمثلة. وتأمل قوله فى "أوراق الورد" [ص٤٤] «فالعاشق الرقيق على فرط رقته هو لفرط رقته وحش فى عالم الحب، ما منه فكر لو فتش إلا فتش عن معنى يفترس، إذ يشعر بالحياة في نفسه لا غذاء لها إلا بمعانى حبيبته، فيأكلها حتى بالنظر، «ويفترسها حتى بالخاطر»

ههنا عنصر ما يسميه "ماريو براز" ظلال "المركيز دى صاد"، أى "السادية" التى تلتذ بنوع من افتراس المحبوب وإيجاعه. احترس الرافعى رحمه الله فجعل افتراسه بالنظر. وهو للمتأمل افتراس كما تفترس الضياغم. ومكان الإغراب اللغوى لا يخفى وهو المقصود الذى تعمد الرافعى، نضر الله ثراه، القصد إليه - "يأكل حتى بالنظر ويفترس حتى بالخاطر". وتأمل قوله أيضا فى "أوراق الورد" يخاطب القمر [ص١٧] «من شبهك بوجهها أزهر الضوء فيك ما يزهر اللحم والدم فيها، فتكاد أشعتك تقطف منها القبلة، ويكاد جوك يساقط من نواحيه تنهدات خافتة، وتكاد تكون مثلها يا قمر، مخلوقا من الزهر والندى وأنفاس الفجر» - ههنا إغراب ناعم كقول الرومنسيين الانجليز في لغتهم honey-dew أى "ندى العسل".

كمثل عناء الرافعى، رحمه الله، وتصيده للمعانى وإغرابه تجده عند محمود حسن إسماعيل - مثلا:

عابد النور جاء للنور يشكو	ظمأ فى الحشا لسحر ضيائه
وعلى الجفن ضجة مات فيها	ألق النور والتماع سنائه
وخبت بهجة الحياة وأضفى	بؤسها لوعة على لألائه

حنت الأعين الظماء الى الحسـ ـن وحنت دموعها لبهائه
وتمشى الهوى بأهدابها السو د فكادت تضىء من كهربائه

"كادت تضىء من كهربائه" كأنما جىء بها اختلاسا من الرافعى ـ مصطفى صادق الرافعي رحمه الله ــ من طريقة نثره التى قدمنا. ومن معادنها ضجة الجفن وموت ألق النور فيه وإضفاء اللوعة على اللألاء.

على أن الرافعى عناؤه الأكبر وتصيده للمعاني والصور فى النثر، وطبعه أسمح بالشعر، وكأن الإغراب في نثره حين يرومه شعرا يفلت من بين يديه ويرجع به الى مذاهب العذريين أو أصحاب البديع أو ما هو من مألوف طرائق النظم مثلا:

يا أفق هل خفت من شرارة تحت الضلوع اسمها الفؤاد

هذا لو وقع في نثر فيه صناعة المزاوجة وتقعيدها لكان إغرابا. ومما جاء فى الكلمة التى منها هذا البيت والضمير فى قال يعود على الأفق:

فقال وجه نرى خياله فى قلبك الحامل الضرر
ارجع فلو أن ذى الغزالة تغازل النجم لا نفجر

ومن معانى الغزالة الشمس أيضا. وقوله «لا نفجر» ذو روح عصرى علمى أو علمانى ولو كان قال "لانكدر" لكان ذلك قرآنيا أشبه به، وأحسبه لم يرد إلا المعنى العصرى والله تعالى أعلم. قال البهاء زهير (ت٦٥٦هـ):

فضح الغزالة والغزال فتلك فى وسط السماء وذاك فى وسط الفلا
عجبا لقلب ما خلا من لوعة أبدا يحن الى زمان قد خلا
ورسوم جسم كاد يحرقه الجوى لو لم تداركه الدموع لأشعلا

أحسب أنه لو عاش البهاء زهير فى بعض هذا العصر لعد من الرومنسيين بنحو قوله:

لى إلف أى إلـ ـف هو روحى هو حتفى
غاب عن طرفى وقد كنـ ـت أراه مثل طرفى
قبلى يا ريح عنى راحتيه ألف ألف

ومما ألح محمود حسن إسماعيل على الاستعانة به شعر أبى تمام. وأمثلة أخذه منه كثيرة. ليس ههنا موضع إكثار منها ونكتفى أن نشير مثلا الى قوله:ـ

وتمشى الهوى بأهدابها السو د فكادت تضىء من كهربائه
هجرت كوخى وهوى سحره وعشبه الزاهى ونواره

وجئت للقصر أنادى به ... معبودة غابت بأستاره
فأطرق القصر كجفن حزين ... وماتت الأصداء فى وحشته
وضجت العذراء فى ضمنه ... ضجتها الكبرى على غفلته

قوله «فأطرق القصر» من قول حبيب:

لقد أطرق الربع المحيل لفقدهم ... وبينهم إطراق ثكلان فاقد
وأبقوا لضيف الحزن مني بعدهم ... قرى من جوى سار وطيف مباعد
سقته ذعافا عادة الدهر فيهم ... وسم الليالي فوق سم الأساود

موضع الشاهد إطراق الربع الذي تحول إطراق قصر ماتت فيه الأصداء، وهذا متفرع من «سقته ذعافا عادة الدهر». وعذراء محمود حسن إسماعيل ذات الضجة من بكر أبي تمام التي ما «افترعتها كف حادثة»، بدليل قوله «الضجة الكبرى» مكان «الراحة الكبرى» في بيت حبيب:

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها ... تنال إلا على جسر من التعب

ثم مع هذا إشارات إلى أخبار قديمة. «وجئت للقصر» فيه ذرء من خبر المرقش وفاطمة بنت المنذر وابنة عجلان. ولا ريب قرأ محمود حسن إسماعيل مفضليات شاكر وعبدالسلام هارون. وغفلة القصر أو الولي إن شئت وضجة العذراء، في ذلك معنى من خبر همام بن مرة وبناته اللاتي احتججن على غفلته عن حاجة من يكن مثلهن إلى الزواج: «أهمام بن مرة إن همي»، الأبيات وانظر القاموس مادة (قناف كغراب وكتاب).

وقال في أول كلمة عنوانها «وقفة حيال القصر» في ديوانه أغاني الكوخ:

يا صرخة الأعصاب لا تهدئي ... في مهجة المحروم عن مورده
فالنار ما زالت على مضجعي ... تذكى بخور القلب في معبده

ثم قال من بعد:

ظمآن يا بؤسي ويا شقوتي ... والمنبع الصافي لثغري قريب
تروح روحي حول سلساله ... فيختفي عنها كأني غريب

فهنا إلحاح أخذ من أبي تمام. الشاعر الرومنسي واقف عند القصر نحوا من وقفة أبي تمام في «أطرق الربع إلخ» وجزع كجزع أبي تمام حيث قال:

ها إن هذا موقف الجازع ... أقوى وسؤر الزمن الفاجع

وبخور القلب من قبيلة استعارات أبي تمام، أي القلب الذي صار بخورا في

المعبد الذي هو الحبيب أو ما يمت إليه بسبب، والثغر والسلسال من :

عـداك حـر الثغور المستضـامـة عن بـرد الثغـور وعن سلسـالها الحصب

وقوله «تروح روحي إلخ» و «تذكي بخور القلب» كلتا هاتين العبارتين ملفقة من قول حبيب :-

أنبطت مـن قلبي لـــوأيـك مشرعــا ظلت تحوم عليـــه طير رجـــائي

القلب هنا مشرع، مورد، ماء، وعند محمود حسن إسماعيل بخور، وعند الرافعي شرارة، وتحوم وتروح وتذكى بمعناه المقلوب، كل ذلك قريب من قريب.

هذا والحسناء بلا رحمة وفارسها الكئيب

يأيها الفـــارس في الـــدرع مـــا تألم فـــذا في شحـــوب تســـير

من بعد ما جف نبات الغدير

وازن بين هذا من معنى أبيات «الحسناء بلا رحمة لكيتس» وبين قول محمود حسن إسماعيل :

هجـرت كـوخي وهــوى سحــره وعشبــه الـــزاهـى ونـــــــواره

وجئـت للقصر آنـــادي بـــــه معبـــودة غـــابـت بأستـــاره

يـــا قصر قـــد طـــال وقـــوفي ألا يشرق منـك الحسـن للهـــــاتـف

أجـب تكلـم إن سحـــــــر الهوى طـــار بـــرشـــد المدنف الـــواقف

هنـا اتحاد بين فارس كيتس الكئيب ووقفـة جـازع أبي تمام عند الـربع الذي هـو «سؤر الزمن الفاجع»

ولمحمود حسن إسماعيل كلمة عنوانها «أحزان الغـروب» هل هذه ترجمة من شعر بـودلير المنثـــور Lecre,puscule du soir «شفق الغـــــروب» أو مـن أزهـــــار الشـــر Les Fleurs du Mal ـ انسجام موسيقى الغروب Harmonie du Soir

Le ciel est triste et beau comme un grand resposoir

السماء حزينـة وجميلة مثل صلـوات موكب كنسى كبير وأول كلمـة محمود حسن إسماعيل :

مـات النهـار وهـذي الشمس جـازعـة عليــه تخطـــــــر في دامي الجلابيب

كأنهـــــا نعش خـوفـو مـــال متكئـــا على سريـــر بـذوب النــور مخضــوب

صار الموكب الكنسي فـرعونيا كما ترى، والنظر إلى شـوقي لايخفى. ولا تستبعدن الأخذ مـن بودلير Baudelaire ورجـال رومنسية فـرنسـة فكل ذلك قـد ترجم منـه كثير

والعارفون به المتحدثون عنه في مجالسهم كثيرون. ومما فيه ظلال فارس حسناء كيتس التي بلا رحمة "La Belle Dame Sans Merci" :ـ

وأي ما أي وما أمرها والقصر في إغفاءة الذاهل
والهاتف المحروم لما يزل يشكو الهوى في ذلة السائل

وسؤال «أي» صدى من دروس النحو:

أي كما وأعربت ما لم تضف وصدر وصلها ضمير انحذف

وعارض في موصوليتها أبوالعباس أحمد بن يحيى ثعلب فيما نقلوا.

وفي «كنز الذهب الأبيض، زهرة القطن» (ص٢٢ من أغاني الكوخ الطبعة الثانية١٩٦٧):

وبدت صفراء تحكى غادة ذبلت نضرتها يوم الوداع

هذا التشبيه غير جيد لأن نوارة القطن «فاقع» لونها تسر الناظرين» وقد رجع هو نفسه من بعد إلى هذا المعنى:

تخفق النسمة في أهدابها خفقة العاشق في ليل الزماع

فسره بالسفر، أحسبه ينظر إلى كلمة ابن زريق «إذا الزماع أراه في الرحيل غنى» والزماع بفتح الزاي وكسرها هو العزم فظن أنه السفر وما ظنه يحتمل أي العزم على السفر:

فتراها في الربى راقصة زانها الضوء بزهو والتماع

فهذا رجوعه إلى «فاقع لونها» لا ذابلة نضرتها. ونريد أن نشير بعد إلى خفقة النسمة، فهل أخذها من إبراهيم ناجي «خفقة المصباح إذ ينضب زيته» وهي مما عسى أن يحسب من حسان كلماته ومرت في باب الرمل في جزئنا الأول.

ولمحمود حسن إسماعيل مثل التجاني يوسف بشير ولع بصفة الريف والجرار والسواقي. وعندي أنه، حاكى التجاني، إذ التجاني نشر عددا من قصائده في مجلة الفجر وكانت غير مجهولة المكان بمصر. وقد دار نقاش لم يخل من حدة بين رئيس تحرير الفجر عرفات محمد عبدالله والأمير عمر طوسون رحمهما الله، كان من أسبابه أن الأمير لم يرض ببعض ما جاء في الفجر من الحديث عن تقرير المصير وما يشعر بروح الانفصال عن مصر وإنما نشر ديوان محمود حسن إسماعيل عام ١٩٣٥ قريبا من زمان انتهاء الفجر وموت عرفات محمد عبدالله وفجره التي ماتت بعيد موته.

وبلغني ولا أشك في صحته لتواتره أن التجاني رحمه الله كان قد بعث بنسخة من ديوانه خطية إلى أحد الأدباء الشعراء بمصر ليتولى نشره والإشراف على ذلك من أمره، فيذكر أن الديوان كان يقرأ ولا يجد سبيلا إلى نشره حتى استردت نسخته بعد عناء

طويل. ورب شيء كهذا، كما يقول سيبويه. وذكروا أن أبا عمر الجرمي لما خشي هو وآخرون معه أن يدعى سعيد بن مسعدة كتاب سيبويه حملوه حملا على إظهاره للناس. ولعل هذا الخبر باطل لما نص عليه ابن جنى في الخصائص أن صدق أبي الحسن يكاد يعلم بالضرورة.

وكاد هنا تنفى «بالضرورة» لا الصدق نفسه وأبو الحسن هو سعيد بن مسعدة **الأخفش الأوسط**. وسقنا هذا الخبر لمناسبته ما قبله. وقيل إن الأديب الشاعر الذي بعث إليه التجاني ديوانه هو الدكتور ابراهيم ناجي، رحمهما الله.

هذا، وقوة الشبه في موضوعات الأوصاف بين التجاني ومحمود حسن إسماعيل أحسبه من تلفيقية محمود حسن إسماعيل، أعنى مذهبه الأخاذي المتنقل بين المذاهب التلفيقي من أصنافه (eclectic أي الاكلكتكي). يأخذ ويفتن بزيادة صنعة فيما يأخذه. وهذا كأنه أدنى الى السرق منه الى التوليد الذي مدحه البرقوقي رحمه الله في صناعة أبي الطيب. وكأن محمود حسن إسماعيل نحلة تمتص كل زهرة ثم تعمل لتزيد على ما أخذته وهو ماء نوار ورحيق ضروب أزهار تصييره بعملها عسلا كثيفا وشمعا. غير أنه رحمه الله يشارك النحلة في العمل وجده وكده والمرام الذي يرومه به، ولا يشاركها فيما تصيبه من الزيادة على ما أخذته إلا جهد العمل المفرط نفسه، وذلك لعمري هو العناء[1]. وكأنه من ذكره النحلة مرارا في شعره صريحا كما في قوله.

ويخلو مع النحل في ربوة ... منغمة الصوت من غير عود

وقوله:

ينهل الفلاح من كوثره ... ريقة النحل وسلسال الدماع

خفف ميم الدماع والوجه تشديدها بوزن الرمان أي ما يسيل من العنب.

وقوله: بين ترتيل السواقي ... وزفيف النحلات

وقوله: لها طنين النحل في قفرة ... يهماء لم تبق على شهده

أو مضمنا في استعارة ومعنى تشبيهي كقوله:

أو مصت الأنواء ... من زهره الأفواف

---

(١) وجدت بعد الفراغ من كتابى كلمة د. أنس داود يذهب الى وجه مقارب ما ذهبت إليه في كتابه «شعر محمود حسن اسماعيل مصر ١٩٨٦ ص٤٩ - إذ ينفي عنه الايحاء فتأمل.

الأنواء هنا كنحلة تمص من زهر أفواف، وكقوله

أو تكـن وردا فيـــــــــــالهـ ـــفة نفســـــي لعبـــــيرك

جعل نفسه كنحلة وفي البيت قبله كفراشة وهو قوله:

إن تكـــــن نـــــارا فما أشـــــ ـــهى خلــودي في ســعـــــيرك

وقوله:

طـوافــة بـالـزهــر تنشق عطـره وتحيلـه في الطـرس همس ذبـاب

لا يعنى به ذباب البيوت ولكن ذباب عنترة المترنم، والطواف بالزهر عمل النحلة... كأنه يرمز بالنحل لنفسه، وهذا البيت الذي مر «طوافة بالزهر إلخ» مما يشهد بذلك. أما قولنـا إنه لم يشارك هذا الرمـز الذي رمز به لنفسه إلا في العنـاء، فذلك أنه قل شيء ذكره التجـاني إلا أفعمه هـو تفصيلا. وقـد أفرد قصـائد لزهـرة القطن، كنز الـذهب الأبيض [ص ٢١ من أغاني الكوخ طبعة ١٩٣٥].

حين ذاب الطـل في كـــاســــاتها لـــؤلـــؤا يجري على كف الشعــــاع
لثمـت خـــــد الضحـى وابتسمـت كـــابتسـام الطفل في عهــد الـرضـاع

وللساقية (ص٧٥) وسماها القيثارة الحزينة

نــــاحت فــلا الـــزهــــر على عــوده ألقـى عقـــــود الظـل في جيــــــده
ولا مغنـى الطير في وكـــــــــــــــره رق لها وازور عـــن عـــــــــــــــوده

وللسنبلة (٨٩ سنبلة تغني):

مـن لــــــــه في الأرض ملـك مثــــل ملكـــي في الكثيـــب
مـــــــــوردي النيـل وزادي مـن ثـــــــرى النيـل الخصيب

وهل عنى «بالكثيب» ساكنيه من الناس، إذ السنبل تصلحه الأرض الخصبة والكثيب رملي:

كلـل الفجـــــــــــر جبيني بــــالنـــدى الغض الـــرطيب
والأصيـــــــل البر ألقـــــى تبره بين جيـــــــــــــــــوبي

فسر البر بإلقاء التبر، وإلا كان وصف الأصيل بالبر شيئا فيه غموض:

وشعــــاع الشمس حيــا   في شروق أو غــــــروب
لـــو رأى الـرهبـان طهـري   وصــــــلاتي في المغيـب
هجـروا الـديـر وخـروا   سجــدا فــوق كثيبي

وإذن فالكثيب للسنبلة، فينبغي أن تكون سنبلة دخن لا قمح ولا ذرة. ولماذا خص الرهبان بالدير؟ أمن أجل تشبيه السنبلة بفتاة ـ كفتاة النابغة الواقف أصيلانا عند ربع مية والقائل:

ولـو أنها عـرضت لأشمط راهب   عبـد الإلـه صرورة متعبـد

فهذا داخل في الاكلكتية. ؟ أتراه أوقعه في هذا الإقحام ذكر التجاني له مع الغيط والسنابل والفول والطحن في رائيته حيث قال:

وطــاف حــولك ركـب   مـن الكــراكي غــر
وراح يـــنفـض عينيــ   ــه مـن بني الأيـك حـر
فماج بـــالأيـك عـش   وقــام في العش ديــر

وإنما جاء التجاني بالدير لأنه ذكر النواعير. عدل إليها عن السواقي من أجل جرس الراء كما قدمنا، وأيضا لأن ابن المعتز جعل رهبان دير «المطيرة ذات الظل والشجر» «نعارين بالسحر» والسواقي نعارات بالسحر، ينهض إليها الزراع قبل آذان الفجر:
وللراعي (ص ١٤٠):

شجتني رنــة العصفـو   ر في فجـر الـربى السـاجي

وهي ربى التجاني:

يــا درة حفهــا النيــ   ــل واحتــواهــا البر
صحــا الــدجى وتغشــا   ك في الأسرة فجــر
وصــاح بين الـربى الغـ   ــر عبقــري أغــر

ثم يقول محمود حسن إسماعيل:

وعــذب اللحن من شــاد   رخيم الصــوت صــداح
فـــزنمت مع المزمــا   ر أغنيــات أفــراحي
نشيــد الحقل والشــاة   ولحن الــروح والــراح

ولا أرى للراح حسن موضع هنا.
وللضفادع (ص١٨٨):

هـاجهـا في الليل صمت غمـرت	كل نفس فيـــه آلام الشجـــون
وضفـاف غـارقـات في الكـرى	حــالمات بأسى الـريف الحزين
فغـدت تصرخ في جوف الـدجى	صرخـات هتكـت ستر السكـون

الغدو لا يكون مع الدجى ، ولكنه أراد معنى الصيرورة

يـا ابنـة الطين لقــد مل الـدجى	لغطــا من فيك مجهــول الــرنين

ابنة الطين مأخوذة من «ابنة النور» التي للشابي على الأرجح

ونقيقــــا أزعجت ضــــوضــــاؤه	أذن الكــــون وسمـع النـــــائمين
جــاوبتــه في الــدجى صـافــرة	من بنـات البـوم صـاحت في الـوكـون

وللبوم قصيدة [ص ١٨٤] :

وشيخــــة عـــابســــة في الضحى	غبراء تحكي سحنــــة الملحـــــد
النـــور ضحــــاك على وجههــــا	ضـــاف بـــوهـــد الأرض والأنجـــد
لكنهـــا عميـــــاء في حـــالـك	مـن غيهــــــا ممتقـع أربـــــــد

وللفراشة وسماها راهبة الضحى (ص ٢١٢)

وراهبـــــة في الضحـى أوقـــــدت	من الـــزهـــر مجمـــرة ذاكيـــة
إذا فـــاح منهــــا العبير النـــدى	وطـــوف في الأيكــــة الضــاحيــة

وقد ذكـر في قصيدة الضفـادع العشب والقثاء والبطيخ وعبـاد الشمس وذكر النـاعورة وثورها وسوط سائقه في " فم الريح " :

وكـم نــاعــورة نـاحت	على مستعبـــد فيهـــا
أسير الســـوط كم ضجت	لـــه يـــومـــا أغـــانيهـــا

وثغاء الشـاة تهليل وتسبيح (ص ١٤٣) . وقد بعثر النور وذوبـه مرارا ولم ينس من النيل دومه وسدره وزوارقه ونخيله ، ولم ينس من الرومنسيـة زورقها وملاحها ـ يقول في خصلة شعر حسناء (١٤٧/١٤٨) :ـ

يـــا غـــديـــرا ذهبيـــا	رق عـن نفح الأصــــائل
صفـرت سلســالــه للصـــ	ـــب غيـــداء الانـــامل
قـــــد تهادى فيـك مني	زورق الـــروح الحزينـــة
وبكـى الملاح شجـــــوا	هـل تسمعـت أنينـــــه
غنـــوتي الحيرى لكم طـــا	رت هيـامــا فــوق مـوجك

ضلت الخلـــد فجــاءت تـــرتجيــــه بين لجك
كلما يممت شطــــا منــــك لماح السمات
غــامت الاجــواء في عيـــ ـــني وضــاعــت أمنيــاتي

ولعله أن يقال إن تذويب النور وسكبه وهدهدته وذكر الطير والاماني والتغني بالطبيعة جملة وتفصيلا كل ذلك مادة مشاعة للشعراء رومنسيين وغير رومنسيين ، وليس بعض الرومنسيين ، إن خصصنا الرومنسية بهذه المعاني بأولى أن تنسب إليهم دون بعض محمود حسن اسماعيل إذن يغرف من بحر الرومنسية العربية الجديدة الواسع ، ويقطف إن يك كنحلة من زهرها الكثير اليانع ، وما شابه فيه التجاني يوسف بشير ـ على تقدير سبق التجاني لـه كما يزعم من يـزعم ذلك مثلما نزعمـه ـ فهـو من توارد الخواطـر على المعاني المشتركة المشاعة .

ليس غـريبا أن يتفق لهذين الشـاعرين المتعـاصرين توارد الخواطـر في نظمهما على ذكر سنبل النيل وفوله وسدره وسواقيه . هذه حجة بينة قاطعة .

ولكن مـا رأي القارىء الكريـم أصلحنا الله جـل جلالـه وإياه في قول محمـود حسن إسماعيل في قصيدة القرية الهاجعة في ظل القمر (ص ٦٠)

لفهــا الليل فــاستراحت من الأيـــ ـــن على حضنـــه الــرقيـق الهني
وســدتها الأضــواء من لمحهــا الضـا في وســـاد الطبيعـــة العبقـــري

كان ينبغي هنا نصب العبقري لأنها نعت (وساد)وهذه منصوبة ولا تصلح نعتا للطبيعة لانها مـؤنثـــة ـــ وهل نجعـل هــذا من بــاب الاتبـاع ؟ اللحن عنــد أظهــر

وحبتهــا المهــاد مـــوجـــة نـــور أشرقت في تـــرابها القـــرمـــزي
لمعـــات من جنـــة القمـــر الـــزا هي وفيـض من ثغــره العسجـــدي
غــرقت في جــلالــه الــروح سكــري من طـــلا جــامــه الـــوضيء السني
تنهـــل الحلـــم مـــن رؤى تتجلى هـــامســـات بكـل معنى خفيَ
رائعـات الأطيــاف لماحـة الـــومـــ ـــض تهادي على مهـــاد رضي
نسجتـــه يـــد الشقـــاء مـن العـــ ـــش فـــراشــا لمستضـــام شقي
بـــائس شفـــه القنـــوع فـأغفى في حمى كـــوخـــه القنـــوع الأبي
صـــدف الحظ عن حظـــائره الســـو د الى ســاحـــة الــركـــاب الغني
حضنتـــه على الضنى قـــريـــة نـــا مـت على شـط جـــدول ريفـي
لاح فيـــه نخيلهـــا خـــافض الـــرأ س كطيف في خـــاطـــر الصـــوفي
وصغى الســدر للسكـون كـــرهبـــا ن أصــاخـــوا في معبـد قـــدسي [1].

(١) صَغَا كَسما وسَعى صَغْواً أي مال

لفعتـه الأنـوار من بـردهـا السا مي بثـوب من السنـا مـوشى
ورنـا الـدوم للشعـاع كملهـو ف، صبـا الى نهره الفضي [٢].
فـاستطـالت سيقـانـه تطلب النجـ ـوى وتهفـو الى الـوميض القصي
كعـذاري سبحن في لجة النـو رهيـامـا بفيضـه اللجـي

وحسبنـا هـذا القـدر من القصيـدة ولا يخفى أن هـذا البيت من قـول شـوقي :

كعـذاري أخفين في الماء بضـا سـابحـات بـه وأبـدين بضـا

ومحمود حسن اسماعيل كثير الأخذ من شوقي ، وقـد كان شوقي رحمه الله كثير الأخذ كثير التوليد، وكم غيره منه كثير الأخذ والسرق قليل التوليد.
ومما يستطرد إليه في هذا الباب أن لـه قصيدة اسمها «العذراء الشهيدة» [ص ١٨٠] في غريقة مغلولة الساعدين سابحة بفتنتها المقتولة على أكفان الموج صاغها على وزن "هلا هلا هيا" [مجنون ليلى لاحمد شوقي الفصل الثاني ، أنشودة الحادي]:-

كـأنها مـوجـة في صمتهـا تخفـق لحنـا بـلا نـاي
أنشـودة اللجـة تقـول يـا جـاني
هـزأت بـالموت وأنـت لا تـدري فصغـت الحاني

[وهلم جرا]
وقد افتن في القـوافي بأكثر مما افتن شـوقي ولكنه لم يبلغ حلاوة نغم شـوقي هذا وإليك هذه الكلمة من نفس البحر والروي من شعر التجاني :

امـلأ الـروح من سنـا قـدسي مبهـم كـالـرؤى وديع رضـى
قمـري كأنما سكـب البـد ر عليـه من فيضـه القمـري
واغمـر القلب في مفـاض من الفجـ ـر وضيء جم النـدى عبقـري
يثب الحلم حـول مشرعـه السـا جـي ويجري مـع الضحـى في أتي
كم تطـل الـرؤى بـه شـارعـات في ينـابيع مـن جـلال نـدى
يتلففـن في جـوانـح بيضـا ء ويسحبـن مـن رداء وضي
ويحومـن سـومـا بـاسمات يتخففـن مـن هموم العشـى
«هموم العشى » هنا ليست صدى من Le Crépuscule du Soir ولكن تشير الى قـول النابغة «وصـدر أراح الليل عازب همه »الأبيات المشهورة وذكـر الكنهور في البيت التالي وفيه مذهب من الاشارة يشهد لصحة ما نذهب إليه ههنا .

---

(٢) هكذا في الديوان ويستقيم الوزن إن قلت «صبا نحو نهره» ولعله كذلك في أصله والله أعلم

سـاحبـات على الكنهـور أصبـا غـا رقـاقـا من واضح وخفي
نـاسجـات شفـائف الافق الـزا هي بـرودا على الصبـاح السني
ذاب في الافق رافقـا فـوق هـام الـ ـسبيد يهمي على ثـرى بـدوي
يغسل النـوم مـن مضـاجع رعيـا ن الصحـاري ومضرب القـروي
عجب للجـلال والحسن مـاجـا في إطـارين فـاتـر وقـوي
ينسجـان الهوى مـن الفجـر بـردا علـويـا لشـاعـر علـوي
صـاح من روحـه وكبر في أعـ ـياق دنيـاه صـارخـا كـالصبي
أفهـذا الجمال يـا رب هـذا الســ ـحر مـن أجـل ذلـك الآدمي

هنا ذروة من ذرا التأمل الفكري ـ لله در المعري إذ يقول

والـذي حـارت البريـة فيـه حيـوان مستحـدث من جماد

قصيـدة التجـاني أصفى ديبـاجـة من قصيـدة محمـود حسن أسماعيل وأجـود تشبيهـا واستعارة وأكثر معاني. والقصيدتـان من نفس البحر والروى، قصيدة محمود إسماعيل في الليل المقمر على القرية وقصيدة التجاني يوسف بشير في قرية تستيقظ من قرى النيل الضاربة حـولها الصحراء بجران ـ هل رأى جبيل أم على وسقادي؟ـ لا بل هذه البقعة المباركة نفسها ـ أم درمان، يـدلك على ذلك قوله « رعيان الصحارى ومضرب القروى» وكـذلك كانـت أم درمان ولا يـزال كـذلك قدر منهـا كبير. وذكـره المؤذن حيث جعل الحسن والجلال يتحدان في لحن شاعر علوي (أو علـوي) هو المؤذن «صاح من روحه وكبر إلخ» ومن عجب أن لمحمودحسن إسماعيل قصيدة في أغاني الكـوخ اسمها شاعر الفجـر المؤذن وقدم لها بقـولـه (ص١٦٦) : «في ذلك الصوت العميق الـذي يهتف في صمت السحر من القبـاب والمآذن تتدفق روحيـة الشرق، ويهتز الجو بأشبـاح وطيوف شعرية هفافة» ـ لا يعجبني قـوله «روحية الشرق» في معراض الحديث عن الأذان، ولو قال«روحية الإسلام أو الدين الحنيف» لكان أجـود وذكر الشرق كأنه ينظر الى الأمر من عين صليبية مستشرقة تضع الإسلام والبوذيةوالهنـدكية معا في رفرف اسمه الشرق وعند الإسـلام أن هـؤلاء مع أهل الصليبية كلهن شرك ــ ثم يقـول محمـود حسن إسماعيل :

وشـاعـر في الفجـر يسبى النهى بســورة جلت عـن المأثم
خيـالـه من سـدرة المنتهى ولحنـه من وتـر الأنجم

فهذا كأنـه ترجمة وشرح لقـول التجانى «علويـا لشاعر علـوي» ومع هذا فـالتجاني أتم استيعابا لـوصف الأذان : (ماجا في إطاريـن فاتر وقوي) ـ أي نحـو صياح المؤذن حي

على الصلاة في المرة الأولى بنغم واحد وفي المرة الثانية بنغم مختلف بعضهم يطيله ويموجه وبعضهم يقصره ويبتره ـ حي على الصلاة . . . ة ـ كما يعلم القارىء أصلحه الله من آداء المؤذن على ترنيمتين أيما وجه من وجوه أداء الأذان اتخذ، أمبالغا في تحكيك الترنم وترجيعه أم غير محكك في ذلك ولا مبالغ . قول . التجاني« ساحبات على الكنهور» أي على السحاب الذي في الأفق وهي في رائيه أبي الطيب (باد هواك صبرت أم لم تصبرا) حيث قال :

الشمس تشرق والسحاب كنهورا

وقد سبق منا التنبيه على جرى التجاني في هذا على مذهب له في الإشارة، مع أن كلمة التجاني اليائية هذه في الفجر تراه قد استهلها بفيض ضوء القمر، وهذا المعنى واللفظ أيضا كلاهما في قول محمود حسن إسماعيل :

لمعات من وجنة القمر الزا هى ومن فيض ثغره العسجدي

وكلمة فيض ههنا نهامة . ومكان «واغمر القلب» عنده ـ أى محمود حسن اسماعيل «غرقت في جلاله الروح» . وكأن قول التجاني« جم الندى» نتجت منه«من طلا جامه» و «الوضيء السني» كأنهما ترجمة وتفسير ومحاكاة «لجم الندى عبقري» وقول التجاني «يثب الحلم» يقابله عند محمود حسن إسماعيل « تنهل الحلم إلخ» وجاءت كلمة «الرؤى» في هذا البيت وهي في بيت التجاني الذي يلي «كم تظل الرؤى به شارعات إلخ» «ولفها الليل» التي في أول كلام محمود حسن إسماعيل هى في قول التجاني «يتلففن في جوانح بيضاء» وللقارىء بعد هذا أن يتتبع الأبيات ويوازن بين ألفاظها ومعانيها فإنه واجد من شدة التشابه عجبا . فلا بد من القول بأن أحد الشاعرين أغار على الآخر. ولقد مات التجاني وهو ابن خمس وعشرين وديوانه الذي خطه بيده يقرأ عند من أودع عنده في مدينة القاهرة وبعض شعر التجاني قد كان صدر في الفجر شيء منه قبل صدور الطبعة الأولى من أغاني الكوخ، فالأمر يحتاج الى تدبر ونظر ــ والله تعالى أعلم . لا يخفى أن كلام التجاني أصيل من عند نفسه ليس بتلفيقى . ومع ما يظهر من زيادة محمود حسن إسماعيل على التجاني في التفاصيل نزعم أن المتأمل ربما وجد أن التجاني أكثر استيعابا لمناظر القرية . الصبي ــ تلميذ الخلوة ودواته وأثوابه ـ غسل النوم ودغدغة العينين أول الاستيقاظ عند الصباح . ثم أخذ الصور البيانية من حياة القرية المسلمة ـ الدير مأخوذ من كلام ابن المعتز.

إنما وقفنا هذه الوقفة عندما نرى ترجيحه من تلفيقية محمود حسن إسماعيل وتعمده معاني التجاني وتفصيله لها لأن محمود حسن إسماعا , قد أوشك أن يكون مكانه في

الشعر المعاصر مغمورا مجهولا بين الكثرة الكاثرة من الأسماء هذا مع أنه رحمه الله من عصر غير بعيد من زمان أبولو، ومن أدباء مصر وشعرائها ومصر بلا ريب هي مركز العربية، علومها وآدابها من شعر ونثر. ولعل من أسباب هذا الذي ضرب على اسمه من الخمول أنه قد أغير على شعره إغارة أكبر وأشد مما أغاره هو - إن كان حقا قد أغاره - على شعر التجاني. وإذن فعلى النقد أن يتتبع بالدرس معاني هذا الشاعر الكادح وألفاظه المثقلة بالاستعارات والأخيلة البعيدة المتصيد والتفاصيل الدقيقة في نعت الريف وغيره من أحوال الحياة في بيئته الحقيقية والمتوهمة وما أشك أنه رحمه الله لو كان أنصع ديباجة وأقل عناء عمل لكان يجد من الاهتمام به قريبا مما وجد غيره كعلى محمود طه وأبى شادى مثلا. أتى محمود حسن إسماعيل رحمه الله، فيما أحسب، من جهة شعوره بمكان «الفقير الضائع» الذي بين جنبي نفسه ذات الشعر والحظ من العربية، فضمن ذلك من ضروب التلفيق مازاد فقيره الضائع ضيعة. وهذا بعد لا ينقص من أهميته في باب الدرس الذي نحن بصدده، وقد سبقت الإشارة الى رأى الجاحظ أن السرقة للشعراء ديدن. وزعم الأصمعي أن تسعة أعشار الفرزدق سرقة، وقال المرزبانى إن هذا تحامل منه شديد، فنعوذ بالله من خطل القول ومن فرط زلات القلم.

ومما يحسن التنبيه عليه في نطاق ما كنا فيه من الحديث عن التجاني أنه واضح صدق الانفعال وحرارة الوجدان إذا وصف الريف والقرية، فإذا أخذ في وصف الخرطوم نفسها على ما كان يفتنه من بهرج فيها خالط حرارته فتور، بالرغم من تخيره للفظ الحلو وتجويده للنغم:

مدينة كالزهرة المونقة ... تنفح بالطيب على قطرها
ضفافها السحرية المورقة ... يخفق قلب النيل في صدرها
تحسبها أغنية مطرقة ... نغمها الحسن على نهرها
مبهمة ألحانها مطلقة ... رجعها الصيدح من طيرها
وشمسها الخمرية المشرقة ... تفرغ كأس الضوء من بدرها

البيت الثاني وحده هو الذي فيه نبأة من روح، وذلك لأنه جرد النيل وضفتيه من المدينة الأجنبية التي دونها. النيل وخضرته ذلك من صميم طبيعة الريف الذي نشأ فيه وملأ جمال فجرها قلبه

فهو دفق من عالم كله قلـ ... ـب خفوق ولوعة خفاقة
ظل يهفو إلى السماء ويشكو ... لوعة الروح ههنا واحتراقه

كلمة محمود حسن إسماعيل التي ذكرنا أن لها لونا بودليريا (نسبة الى الشاعر الفرنسي الغامض بودلير ١٨٢١ ـ ١٨٦٧م Baudelaire) في عنوانها وهي أحزان الغروب (ص١٥٢)ما كاد يترك فيها من الريف شيئا ، الثور والساقية والنيل

تحكي سفائنه في الليل سائرة ... عرائس الحلم في مهد الرعابيب

القافية قلقة وأحسب أن بعض سبب ذلك كونها صفة لم تعتمد على موصوف قبلها . والشفق الباكي ودخان الكوخ وكدح الفلاح .

طعامه لقمة عفراء يابسة ... والماء من أكدر في النز مربوب
ومهده لا تسل إن لفه وسن ... عش الهوام ومهد للعناكيب

ثم ضجة الضفدع وإنشاد الرعاة والحداء ، والبومة في وحشة الليل والجندب الذي يصر في النخاريب (أي شقوق البيوت كما فسرها ولذلك وجه وأصل معنى النخاريب فتحات شمع الشهدة وفي القاموس النخروب بوزن فعلول بضم أوله الشق في الحجر فشبه الشاعر شقوق الجدار بذلك) ـ
ثم النوم ذو الاحلام ـ الصحو الى الشقاء ـ صوت الساقية :

يا نغمة في المسا طارت مولهة ... حيرى تدفق من نأى الدواليب
كأنها خفقة من قلب محتضر ... يشدو بها العمر في لهف وتكريب
ماذا شجاك فرتلت الأسى نغما ... ورحت نواحة بين المطاريب
النور حين ذوى في الحقل ناضره ... وللم الضوء في تلك المحاريب
ونام في حضن زنجي قد اتشحت ... متونه بدجى كالهم غربيب

محمود حسن إسماعيل مجتهد معتمل . ولكنه قلما يتنبه لملاءمة التشبيه حقا لموضوع الوصف أو المعنى الموصوف ، كجعله صفرة نوار القطن ذبولا ، وكوصفه جنازة البنت الطافية بالفتنة وجنائز الغرق يضرب بها المثل في سماجة المنظر ، وكتشبيه صوت الساقية بغرغرة المحتضر وسياقه ولو قد لزم التشبيه بالناي لكان ذلك أصوب وأدق من القيثارة ، وتهدج صوت الساقية وتهزمه أشبه بالناي في الشجو وجمال الإيقاع منه بالسياق والغرغرة وما فيه من قوة الحيوية يصل الى أعماق القلوب . وكجعله الليل ـ الذي هو في البديع زنجي أو زنجية ـ ضجيعا للنور مثل زنجي الف ليلة وليلة الضخم المشافر ومعشوقته البيضاء التي خانت أميرها وحولت نصفه الأسفل حجرا بسحرها ـ أم كل هذا نفس بودليري كتشبيه تساقط أوراق الخريف بإعداد ألواح صندوق جنازة

الإعدام؟ هذه الكلمة البائية المجارية في الوزن والقافية«من الجآذر في زي الأعاريب» على تعسف أسلوبها مادة لكثير مما نقرأ اليوم من إنتاج الشعراء ــ من أجل ذلك ما لزم التنبيه على مكان هذا الشاعر الرومنسي التلفيقي الكدود المفقود.

كثير من الشعراء الذين أخذوا من بعد هذه الأضرب التي ذكرنا بسبيل مزيد من التجديد إن هم في الحقيقة إلا فرع منها. مثلا البياتي إن هو في كثير من الأخيلة والبيان إلا امتداد للرومنسية الثالثة داخله أخذ من الرومنسية الثانية المسيحية مثلا:

الصحف الصفراء
توزع الألقاب
تلثم أيدي القاتلين
تمسح الأعتاب
تمنح أشباه الرجال العور والأذناب
صكوك غفران بلا حساب... إلخ

وما لنا نحن المسلمين ولصكوك غفران بلا حساب

ومثلا:

الشمس والفارس فوق المدخنة
ينازل اللصوص والمشوهين
بالحروف المزمنة
يذرع صيف الأزمنة
يثأر للحقيقة المتهنة
يحمل في ضلوعه صليبه ووطنه.

وما صلة الحروف المؤمنة والوطن المسلم بحمل الصليب؟

وأي شيء تكون دلالة«يحمل صليبه» عند قارىء مسلم لم يتنصر فكره بعد؟

وهل وصل التعبير المجازي عند أهل ملته أن يحمل الصليب على الضلوع أو على الظهر والكتف؟

مثلا قصيدة انتظار من الأباريق المهشمة.

صلى لأجلى ـ

هذه عبارة مترجمة منPray for me وهي انجليزية والعربية تقول ادع لي وصل على، إلا أنك لو قلت«صل على» جعلت نفسك جنازة تنتظر التكبيرات الأربع، لعل هذا هو

الذي جعل الشاعر يفر الى Pray for me
«صلي لأجلي
عبر أسوار
وطني الحزين الجائع العارى»
ولك أن تكتب هذا البيت كما ينبغي أن يكتب، هكذا:

صلي لاجلي عبر اسـوار	وطني الحزين الجائع العـاري
وعلى رصيف المرفأ انتظـرى	يـا كـوكبي وحـديث سماري
قلبي ميـاه البحـر تحملـه	تفـاحـة حمرا كتـذكـار
وعـبير آذار	ورفـاق أسفـار
يتلمسـون طـريق عـودتهم	ورسـائلي وأبي وأزهـاري
وكلبنـا الضـاري	... ...
يعـوى وعينـا شيخ حـارتنـا	مصلـوبتـان على لظى النـار
وشجيرة الليمـون يسرقهـا	مهما تعـالت صبيـة الجار
وكقبرات الصبح هـائمـة	... ...
والموت والثـار	ستطـل أفكـاري
	وتعلـو عبر أسـوار
وطني الحزين الجائع العـاري	... ...
وأنـا وأطمارى	في غـربـة الـدار
وحـدى بـلا حب وتـذكـار	

وزن هذه الرائية من الكامل الأحذ المضمر وجزىء منه إنما جيء به بنوع من دعوى التنويع التجديدي. تلفيق كأنه ملائم لتلفيق ما بين النصرانية والأوربية والإسلام في «مصلوبتان على لظى النار» ومن قبل ما مرت بنا «صلى لأجلى» وقوله «وصكوك غفران بلا حساب» - «بلا حساب» فيها نفس إسلامي.
ونهج هذه الرائية رومنسي محض ينظر الى مذهب محمود حسن إسماعيل إن لا إليه مباشرة، نظرا شديدا.
بدر شاكر السياب رومنسي تشهد لرومنسيته أنشودة المطر:
عيناك غابتا نخيل ساعة السحر
أوشرفتان راح ينأى عنهما القمر
عيناك حين تبسمان تورق الكروم

وترقص الأضواء كالأقمار في نهر
يرجه المجذاف وهنا ساعة السحر
كأنها تنبض في غورهما النجوم

يوشك الشاعر أن يكون قد أخلى من عند قوله «يرجه المجذاف»، وفي الكلمة طول والأصل رومنسي والافتنان في الوزن فرع من التوشيحات التي دعت إليها أبولو.

ومحمد مفتاح الفيتورى شاعر رومنسي عربي، أقرب إلى الضرب الرابع وداخله ما داخل أصناف التجديد المعاصر من الروح المسيحي أحيانا. وقد أشرب شعره قضية اضطهاد الزنوج الذي في أمريكا وجنوب افريقيا وغيرهما وهذا من صميم روح الرومنسية:

كإفريقيا في ظلام العصور
عجوز ملفعة بالبخور
وحفرة نار عظيمة

لعل الفيتوري أخذ هذا من صفة الدخان التي مر وصفها في شعر محمد المهدي مجذوب وجاء بعده بما يشعر بأن هذا ليس مراده ـ ولكن السحر:

ومنقار بومة
وقرن بهيمة
وتعويذة من صلاة قديمة
وليل كثير المرايا
ورقصة سود عرايا
يغنون في فرح أسود
وغيبوبة من خطايا

الفيتوري ممتلك لناصية النغم جيد عبارات البيان سليم متن اللغة، ولكن أكثر هذا من تجربة الأفلام

وسفن معبأة بالجواري
وبالمسك والعاج والزعفران
هدايا بلا مهرجان

المسك هنا مسك التمساح لا الذي هو «بعض دم الغزال» بدليل ذكر العاج، و"الزعفران" مع حسن انسيابها مع ما تقدم قافية جليبة لأن تجار الرقيق الذين كانوا بنيل القرن الماضي كانوا إنما يجلبون المسك والعاج وقرن الخرتيت مع الرقيق.

كبدر شاكر السياب والبياتى وآخرين ركب الفيتورى في مركبة تجديد التفعيلة وخلط

رومنسيته بألوان من أقـوال الواقعية وغضب اليسار السياسي . وللفيتـورى إيقاع مطبوع وحذق في تنويع التفعيلات ولكن عمود الوزن المعروف المألوف مركز له يفرع عنه ويدور حوله وربما لزمه وأظهر توزيعا للبيت على أسطار على نحو نجد مثله عند البياتى وعند نزار قباني ـ مثلا

كان ليل وكان صبح

وكانت قصة آدمية محتومة

قصة تعرفينها . . .

فلقد مثلت أدوارها معي يا أثيمة

ومضينا أنا وأنت

فقد تمت فصول الرواية المرسومة إلخ

فهـذا بحر الخفيف ، وزع الشـاعر بيتـه على مواقـف اختارهـا جعل لكل موقف منهـا سطرا ، وينبغي أن يلتزم في كتابة الشعر ما يعين على بيان إيقاعه ، على النحو المألوف :

كـــان ليل وكـــان صبح وكـــانت   قصـــة آدميـــة محتـــومـــة

قصـــة تعـــرفينهـــا فلقـــد مثـــ   ـــلت أدوارهـــا معي يـــا أثيمـــة

ومضينـــا أنـــا وأنـت فقـــد تمـ   ـــمت فصـول الـــروايـــة المرسـومـــة

ومضينـــــا كـل إلى حيث يبنى   من جـــديـــد أيـــامـــه المهـــدومـــة

واقرأ الأفعى (ديوانه ، المجلد الأول ٩٥) فهي من بحر المجتث والشك (١٠١) فهي من السريع ولقـاء (٩٨) فهي من المتقارب والضعـف (١٢٧) من الرجـز القصير وبعض هؤلاء وزعت أبياته على أنصاف كل منهن في سطر وما بذلك كبير بأس .

ورومنسية " نازك الملائكة " من ضرب الرومنسية الثـالثة ، وقد يذكر أنها سابقة إلى تحرير الوزن من قيود أعاريض الخليل وقوافيه ، وأوائل هذا النوع من التجديد في عصرنا هذا يجب أن ترد إلى مسرحيات شوقي وقد مرت الإشارة إلى أصحاب الديوان و إلى محمد فريد أبي حديد رحمه الله وكانت لديباجته مسحة رونق وفي كتاب الباقلاني ما يدل على أن ترك القـافية والافتنان في مخالفـة مألوف الأوزان أمر قـديم ، وشيء من هذا المعنى في " الصاهل والشاحج " للمعري وأعداد أوزان الموشحات لا تكاد تحصى .

وفي نفس شعر نازك الملائكة تلفيق من الأشيـاء المخيفة وأوصاف الطبيعة ـ شيء من "كولردج" وشيء مـن "وردزورث" وإضافات أخريات ـــ من حسناء كيتس ومن إدغار آلان بو وهلم جرا :

«وعدوي المخيف

مقلتاه تمج الخريف

فوق روح تريد الربيع»

خريف العراق قد وصفه أبو عبادة حيث قال:

لاحت تباشير الخريف وأعرضت قطع الغمام وشارفت أن تهطلا

فترو من شعبان إن وراءه شهرا يمانعنا الرحيق السلسلا

خريف نازك أوربي لاصلة له بخريف العراق. خريف من قراءة الرومنسيين:

«وراء الضباب الشفيق

ذلك الافعوان الفظيع

ذلك الغول أي انعتاق

من ظلل يديه على جبهتي الباردة

أين أنجو وأهدابه الحاقدة

في طريقي تصب غدا ميتا لا يطاق

أين أمشي. . . . .»

ومن قبل هذا:-

«. . . . . . . وعدوي الخفي العنيد

صامد كجبال الجليد

في الشمال البعيد

صامد كصمود النجوم»

ويجيء من بعد:

«أسمع الصوت

سيري فهذا طريق عميق

يتخطى حدود المكان

لن تعي فيه صوتا لغمغمة الأفعوان

إنه لا برنث سحيق»

هذا من أساطير يونان من طريق الأدب الإنجليزي أو غيره ومن بعد :-

«إنه جاء. . . . يا لضياع رجاء المسير

في دجى اللابرنث الضرير

وأحس اليد المارده

تضغط البرد والرعب فوق هدوئي الغرير

بأصابعها الجامدة

إنه جاء . . . . فيم المسير
سأودع حلمي القصير
وأعود بجثته الباردة»
القطعة طويلة بعنوان " الأفعوان " وهو كالرمز[1]:
«أين أمشي مللت الدروب
وسئمت المروج»
الـدروب واقع والمروج خيال رومنسي وفي القطعـة تلفيق للأخيلـة والصور. وهـذا البرد والضباب ، كل ذلك أوربي السنخ . فيه بدليرية : اقرأ مثلا[2]

CHANT D'Automne

Bientot nous plongerons dans les froides tenebres,
Adieu, vive clarte de nos etes drop courts!
J'entends deja tomber avec des chocs funebres
Le bois rentissant sur le pave des cours.

Tout l'hiver va rentrer dans mon etre: colere,
Haine, frissons, horreur, labeur dur et force,
Et comme le soleil dans son enfer polaire,
Mon coeur me sera plus qu'un bloc rouge at glace.

J'ecoute en fremissant chaque buche qui tombe;
Le'echafaud quon batit na pas d'echo plus sourd.
Mon esprit est pareil a la tour qui succombe
Sous les coups du belier infatigable et lourd.
Il me semble, berce par ce choc monotone,
Qu'on cloue en grande hate un cercueil quelque part.
Pour qui?- C'etait hier l'ete voici l'automne!
Ce bruit mysterieux sonne comme un depart.

هذا الجزء الأول مـن " نشيد الخريف " تـرجمته لـو كان الشعر يترجـم وإنما يقرب حين نرومه أن يعرب :

عما قليل سنلقى بأنفسنا في الظلمات الباردة

---

(١) انظر قصيدة Le Serpent Qui Danse في أزهار الشر فههنا عنها تلفيق

(٢) أزهار الشر Les Fleurs du Mal لبودلير طبعة ١٩٧٢ ص ١٩٣

وداعا أيها الإشراق الحى من صيفنا الشديد القصر
هأنذا أسمع السقوط ذا الصوت الجنائزي
من ألواح الخشب المرتجة على بلاط الحوش

الشتاء كل الشتاء سيدخل في كينونتى ؛ المرارة
البغضاء، الرجفة، الرعب، المشقة والإكراه
ومثل الشمس في جحيمها القطبى
سيكون قلبي ما هو إلا كتلة حمراء من جليد

أسمع كل خشبة إذ تسقط بارتعاد
الأعواد التي تنصب للإعدام ليس صداها بأصم من ذلك
روحى مثل صومعة تنهار
تحت دقات دكاكة ثقيلة دائبة بلا لغوب

كأنما أنا على مهد يهدهدنى هذا الدوى الرتيب
ومسمار يدق على عجل في صندوق جنازة بمكان ما
من أجل من ؟ الصيف كان أمس ـ جاء الشتاء .

هذا الدوى الغامض مؤذن بفراق .

هذا الجزء الأول من قصيدة غـرامية الموضوع بدليرية السماجة ــ رحم الله أبا تمام حيث قال :

سماجــة غنيت منــا العيــون بها		عن كل حسن بدا أو منظر عجب

كأنما قد نظـر بعين الكشف والغيب وضرب من أجزاء النبوة الحدسية الى هـذا الإغراب ثم يقول بودلير في الجزء الثانى من القصيدة

J'aime de vos longs yeux le lumiere verdatre
Douce beaute, mais tout aujourd hui m'est amer,
Etrien ni votre amour, ni le boudoir, ni l'atre,
Ne me vaut le soleil rayonnant sur la mer.
Et pourtant aimez,- moi, tendre coeur! soyez mere,
Meme pour un ingrat, meme pour un mechant;

Amante ou soeur, soyez la douceur ephemere
D'un glorieux automne ou d'un soleil couchant

Courte tache! La tombe attend; elle est avide!
Ah! laissez-moi, mon front pose sur vos genoux,
Gouter, en regrettant l'ete blanc et torride,
De l'arriere-saison le rayon jaune et doux!

أحب من عينيك الطويلتى الأهداب ضوءهما المخضر
أيها الجمال الحلو الذى صار اليوم قد أمر
لا حبك ولا الفراش ولا الصلاء ، لا شيء من هؤلاء
يعادل تلك الشمس منك المشعة علي الدأماء

على أية حال كونى بقلبك الرقيق كأم حنون
على هذا الولد العاق على هذا الخبيث الملعون

كونى لى خليلة أو أختا مثل بقية الحلاوة الزائلة عما قليل
من فصل الخريف الجيد أو شمس الأصيل

ايها المسعى القصير الأمد القبر وهو نهم ينتظرك منذ حين
أوه ، دعيني أضع على ركبتيك هذا الجبين
ذوقى بعد الأسف على فوت الصيف ذى النصوع والحر
من الفصل الأخير شعاعه الحلو الأصفر

ما قدمه بودلير من معان قاتمة في الجزء الأول لم يعد فيها بساطة قول من شبه الفراق بالموت ـ قال أبو الطيب

بقائى شاء ليس هم ارتحالا — وحسن الصبر زموا لا الجمالا

وما أسرف فيه من ذكر صندوق الجنائز والمسامير وسقوط ألواح الخشب وأعواد منصة الإعدام كل ذلك ظلام مشئوم وكدح لاغب .
ويشفع له بعد هذا الجزء الثانى على بعد التصيد في طريقة الربط .
وأحسب أن نزار قبانى فى قوله :

لا تسألينى هل أحبهما — عيناك إنى منهما لهما
وجميع أخباري مصورة — يوما فيوما فى اخضرارهما

وستـــــارتـــــان إذا تحركتـــــا أبصرت وجـــــه اللـــــه خلفهما
كـــوخـــان عنـــد البحـــر هل سنـــة إلا قضيت الصيف عنـــــــــدهما
الشمـس منـــــــذ رحلـت مطفـأة والأرض غير الأرض بعـــــــدهما

نظر نظرا شديدا بل أخذ وسرق من هذا الجزء الثانى من نشيد خريف بودلير

قلنا في أخريات الجزء الثالث من المرشد بمعرض الحديث عن هذه الأبيات إن فيها أصلا جاهليا يمكن رد بعضه الى متجردة زياد ـ ثم أضفنا: [ص ١٢٧٥ طبعة ١٩٧٠م]:

"ثم إن صورة العينين واضحة حية والإيحاء المنبعث منهما قوى ـ قوى فى هذه الخضرة الشاملة ذات العمق التي كالبحر، وفى هذا الإشراق البهج الدافىء، كالمأوى عند البحر حين تهب الرياح، أو كالرمل عند البحر، أو كالبحر نفسه حين يفيض ضوء الشمس، وفى هذا السجو سجو الأهداب، وأحسب أن هذا الوضوح مع ما حوله وما ينبعث منه من إيحاء، مزيج من الاشتهاء واللوعة، يغفر لهذه الأبيات بعض ركاكتها وأوزارها. ولا ريب أن هذا الوضوح فيه رجعة الى المذهب الجاهلي كما ترى. وعسى هذا ونحوه من نزار وغيره من المعاصرين، أن يكون بادرة نهضة، كما كان العثور بالصبايا الثلاث والحذو عليهن بادرة النهضة في الفن الأوربى والله تعالى أعلم وبه التوفيق. ا. هـ."

فيضاف الى هذا آن معنى فتنة العينين وسحرهما قديم، قال غيلان

وعينـان قـال اللـه كونـا فكـانتـا فعولان بـالألباب مـا تفعل الخمر

وتسمية العين عينا فيه معنى الماء والعمق. وقالوا فى تفسير: «قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين» أن أحد الزنادقة قال تأتينا به المعاول والفئوس فأصبح لزندقته أعمى قد ذهب ماء عينيه.

مع هذا قلما نجد شعراء العرب القدماء يشبهون العين بالبحر أو يذكرون عمقا في ذلك أو سباحة، كأن قد اكتفوا بأن ذلك مضمن فى قولهم عين ومحاجر العين كما يقولون عين الماء وحجرة البحر فنزار قبانى، في الرجعة الجاهلية التي رجع به إليها، إنما أصاب ذلك من طريق محاكاته لبودلير. قوله "عيناك إنى منهما لهما" تعبير صحفى لا طائل وراءه وهو ما أشرنا إليه من قبل من معنى الركاكة. وقوله "يوما فيوما فى اخضرارهما" فهذا قول بودلير: "أحب من عينيك الطويلتين نورهما المخضر" عنى بالطويلتين طول أهدابهما ولو قلنا من "عينيك السلهبتين" كان أجود في الترجمة ولكن

هـذا غريب والترجمة نثر وابن الأثير أجاز الغـريب في الشعر لا النثـر. وقولـه «وجميع أخبـاري مصـورة» يؤكـد مـا زعمنـاه من صحفية التعبير إذ الصحف صنـاعتهـا نقل الأخبار. وقوله : «وستارتان إذا تحركتا» مأخوذ من طول العينين أى طول أهدابهما الذي ذكره بودلير و إنما هي أمثـال هذه العبارات التي تبين لنا الأخذ ومـواضعه. و "تحرّكتا" ترشيح لقـوله «وستـارتان» ولكنه غير منـاسب لصفة العينين والهدب المغـدف ـ ذكـرنا المغدف هنا نشير به إلى قول عنترة :

إن تغـــــدفى دونـى القنـــــاع فـإننـى   طـب بأخـــــذ الفـــــارس المستلئم

وما ذكر عنترة إغداف القناع إلا وهو مشربـه ظلالا من إغداف العينين أهدابهما. وقال امرؤ القيس :

. . . . . كمــرآة الصنــاع تـديـرهــا   لمحجــــرهـــا مـن النصيف المنقب

فى قولـه «تحركتا» ثقل وأنفـاس صحفية. وقولـه «أبصرت وجهه الله» فيـه نظر ـــ عبارة البخارى حين يرتاب، وقـوله : «خلفهما» آبدة فان وجه الله سبحـانه وتعالى، على معنى سلفى أوأ شعـرى أو صـوفى أو حتى على مـذهب من وحـدة الـوجـود، أو على محض التـوسع فى التعبير والمجاز، لا يمكن أن يـوصف «بخلف كذا أو كـذا» وإن يكن ذلك عينى فينوس نفسها التـى زعم لها كفارهم أنها ربة. لو قـال فيهما لشعر على ما فى ذلك من نظر، ولكن القافية لم توات. وقوله :

كــــوخــان عنــد البحـــر هل سنــــة   إلا قضيت الصيـف عنــــــــــدهما

فهذا بـودليرى من بودلير مأخـوذ أخذا، بحره وصيفـه وقضاء الصيف عنـده ألا يقول بودلير ما عسى معنـاه : «بعد الأسف على فوت الصيف ذى الدفـء والنصـوع؟» وقوله "كوخان" ليس بمليح. وهل ألمعت بـه "كورت تاش" "Courte tache" برنة نطقها المقـاربـة لـ "كـوخ" ثم معنـاهـا ليس عن معنى الكــوخ ببعيـد اذ الكـوخ واجب قصير، كدح قصير، فسر المعجم "تـاش" بأنها العمل المعين الذى يلـزم أداؤه، وما أراد بودلير إلا أن هـذه الحياة واجب قصير وفى هـذا التعبير غرابة وبـراعة إذ الـواجب يراد قصره والحياة يراد طولها ولكن المعرى يقول :

تعـب هـــــذه الحيــــاة فما أعـــــــ   ـــــجب إلا من راغـب فى ازديــــاد

ويقول أبو الطيب

وإذا الشيخ قال أف فما مل ... حياة وإنما الضعف ملا

وقد أخذنا على الشاعر من قبل جعله العينين كوخين وأراد كما لا يخفى معنى الخصوصية ولكنها خصوصية من نوع سياحى قصير الأمد، عينا الجميلة ولو لمحة أبد طويل ولله در كيتس إذ يقول

A thing of beauty is a joy for ever

" الشىء الجميل سرور خالد أبدا " ـ هذا تقريب وتعريب لمعنى ما قاله

ولكن شدة تقصى نزار لاتباع معانى بودلير ألجأه الى جعل عينى جميلته شيئا صحفيا خبريا عابريا يكون مع عطلة الصيف كبعض هذه الأكواخ التى تستأجر لتكون سترة رحلة متعة محدودة الأمد. وقوله: " الشمس منذ رحلت مطفأة " مأخوذ من موضعين من كلمة بودلير ـ من موضع ذكر الوداع فى الجزء الأول فى آخره ومن موضع ذكر الشمس الآفلة فى الأربعة الثانية من الجزء الثانى فى آخرها ـ «والأرض غير الأرض» من سورة إبراهيم، من آخرها.

أزال نزار العبوس اللاغب البودليرى وبدله صحافة تتجمل بالمبالغة «إنى منهما لهما» وروم الاقتباس «والأرض غير الأرض» ـ وانطفاء الشمس وتبديل الأرض غير الأرض، ذلك قيام الساعة والفزع الأكبر ولا يناسب موضوع الفراق أو الوداع الذي للغرام ـ فرط المبالغة فى هذا الباب ليس بمليح، وإنما تكون معه الرقة هى المعنى المليح، قال البحترى رحمه الله:

دنت عند الوداع لوشك بين ... دنو الشمس تجنح للأصيل

وصدت لا الوصال لها بقصد ... ولا الإسعاف منها بالمخيل

وذكرنيك والذكرى عناء ... مشابه فيك بينة الشكول

نسيم الروض فى ريح شمال ... وصوب المزن فى راح شمول

أين هذا الضرب من الذكرى من ذلك الذى يقرن شاعره تساقط أوراق خريفه بخشبات تتساقط ليسمرها نجار صناديق جنائز الإعدام

عذيرى من عذول فيك يلحى ... على ألا عذير من عذول

ثم ماذا؟ كما كان يقول الدكتور زكى مبارك رحمه الله الرحمة الواسعة.

ثم بعد هـذا الجند الغريب اجتاحت القصيـدة العربية غارة كغارة هـولاكو وكما دخل التتار. ليس لنا ولا لغيرنـا أن ينكر التجديد فإنه من سنن التطـور والرغبة فى التغيير من ظواهر الحيـاة وبواطنها ومكملاتها وشواهـد كينونتها ووجودها . ومن التجـديد صادق ومنه إفـك وافتراء . والافك والافتراء زبد يـذهب جفاء . والصـدق وكل ما هـو صادق يبقى وينتفع به قال تعالى : «وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض» [سورة الرعد] .
ومما يختبر بـه الافتراء أن المجيء بأمثاله سهل ، ومـا ليس بافتراء تعسر محاكاتـه بما يكون مثله .
ضروب التجديد التـى نراها الآن أكثرهـا غثاء وزبد جفاء . ممـا يدل على أنها افتراء كثرة امتلاء الطـروس والصحف السيارة بـأمثالها ، ثم خروجهـا كل الخروج عن عـرف اللغة الفصيحة وهى لغة ميراث لا يجوز التـلاعب به ولا التفريط فيه إذ ذلـك يفسد الطريق الى معرفة أسراره وفهمه ــ هى لغة القرآن ، وعن عرف اللغة الدارجـة ، وهذا دليل فساد حجـة من يـدعى أن هـذه الضروب التجديـديـة تطـور وانعكاس لحال البيئـة وبيـان عنهـا . ذلك بأن طبقـات النـاس في المدن والبوادى فى جميع أقطـار العـربيـة تتغنى فى أعـراسها وأفـراحها ومنـاحاتها ومـواكبها بين الفـلاحين والجنود والعمال والطلبـة ، وفى احتفالات سمـرها وابتهـاجها ذوات الصبغـة الخاصة أو العامـة ، فى جميع ذلك تتغنى بالكلام الموزون المقفى بحسب مـا عليه طريقة الوزن والتقفيـة فى الكلام الدارج ، فلماذا إذن هــذا التعــدى على اللســان الفصيح؟ لم يكن حــافـظ وشــوقى وجيلهما جيل تقليديين ، كـان جيل التقليديين جيل من نظموا فى ضروب أصنـاف الشعر نظم علماء من غير انفعال ولا تجويد إيقاع . وكـان بعض مرد ذلك الى ضعف التحصيل وانشغال أكثـر أهل العلم بمتـون الفقـه ، حتى إن المعلقات السبـع والعشر نفسها كـانت تقـرأ وتنسخ على أنها متون ، لا على أنها من الشعر عيون .
وقد اقتدى عصر كـامل بجيل شوقى وحافظ وكان كل اولئك أهل تجديـد ، إلا أنه كان يخالطه عنصر الإعذار والاعتـذار الى الغرب ، المنبعثين عن إقرار بتفوق حضـارته ، فكان التجديد مع صـدوره عن رغبة صادقة وعن حسن نية آخـذا بسبيل أدت آخر الأمر الى تيهاء وخراب وضياع .
كانت حركـة الديوان وأكثر الحركة الـرومنطيكية أو الرومنسية محاولة زيـادة فى التجديد مشتملة على اتهام لجيل شوقى بالتقليد ـ ولم يكن الحسد الخفى لشوقى عن ذلك بالأمر البعيد ـ والله تعالى أعلم ؛ .

تداخلت عناصر التجديد والثورة والصراع المذهبي "الايديولوجي"، بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م) وبعد سنوات الخمسين من هذا القرن الميلادي العشرين.

ظل البارودي رحمه الله هو فارس القصيدة العربية الأصيلة حقا، مشرفا بأصالتها وجزالتها وقوة أسرها وصفاء ديباجتها على جميع ضروب التجديد وجنده الدخيل.

ولكن بلاد العربية لم تخل في الجزيرة العربية ولا في العراق ولا الشام ولا مصر ولا المغرب كله إلى بلاد شنقيط ولا في بلاد سنار والسودان العربية كلا ولا في سائر بلاد الإسلام من أنفاس فحولة ومحافظة على الجزالة وإتقان. إليك مثلا شعر الشاعر النجدي محمد بن عثيمين رحمه الله (١٢٧٠ ـ ١٣٦٣هـ) وفيه من الجزالة وجودة الديباجة ورنين القصيدة القديمة أنفاس جيدات. قال رحمه الله:

نعم هـذه أطـلال سلمى فسلم	وأرخ بها سيل الشئـون وأسجم
أقـول لصحبي والمراسيل تـرتمي	بنـا سهما تـرمى الفيـافي بسهم

كان هذا قبل السيارات والطائرات، على أن هذه ربما وجدت هي أيضا سهما ترمى الفيافي بسهم ـ وطريقة تجنيسات أبي تمام كما ترى أيها القارىء الكريم:

ألا عوجة منكم على الربع ربما	شفيت الذي بي أو قضيت تلومي

فهذا نحو من قول غيلان: "خليلي عوجا من صدور الرواحل"

فعـاجـوا فغطت نـاظـر العين عبرة	فلم أتبين شـاخصـا مـن مهـدم
أجـدكما أن لا أمـر بمنـزل	لمية إلا أمـزج الـدمع بـالـدم
ولا أستبين البرق يفـرى وميضـه	جـلابيب مسـدول من الجنح مظلم

و"جلابيب" هاهنا من قول حبيب:

حتى كأن جلابيب الدجى رغبت	عن لونها أو كأن الشمس لم تغب

وقوله «إلا أمزج بالدمع» من مبالغات الشعر المعروفة المألوفة ولم يخل من أخذ الرنة واللفظ من البوصيري رحمه الله:

أمن تذكر جيران بذى سلم	مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

واسم مية فيه ظلال غيلان بلا ريب. وقوله "فلم أتبين شاخصا من مهدم"

حذاه على نهج أبي الطيب :

وأجياد غزلان كجيدك زرنني فلم أتبين عاطلا من مطوق

يجوز أن يكون أراد معنى العفة وغض البصر ويجوز أن يكون أراد أنه بهره الجمال حتى حار فلم يتبين عاطلا من مطوق . وأحسب أن ابن عثيمين لو قال : "لم أتبين قائما من مهدم" كان أجود ـ «جدارا يريد أن ينقض فأقامه الآية» ـ ولا بأس بما قال

وكقوله رحمه الله في قصيدة قافية تقتري بحر غيلان ورويه في كلمته : " أداراً بحزوى إلخ " :ـ

أرقت لبرق ناصب يتألق إذا ماهفا ظليت بالدمع أشرق

ظليت أي ظللت وهي عربية فصيحة ويقال ظلت وظلت بكسر الظاء وبفتحها أيضا وأحسب ان الشاعر فر إلى الياء ليتجنب زحاف القبض في ثاني أجزاء العجز ولو أقدم عليه ما ضره

إذا فاض لم أملك سوابق عبرة	تحم لها الأحشاء والقلب يخفق
أمد له طرفي ومن دون ومضه	خبوت وأحقاف وبيداء سملق
ومجهلة للجن في عرصاتها	عزيف يراع الذئب منه ويفرق

هاهنا روح من غيلان وهو القائل «للجن بالليل في حافاتها زجل البيت»، وكقوله :

تسمع في تيهائه الأفلال فنين من لهاله الأغوال

ولا عجب أن يتبع عثيمين رحمه الله نهج غيلان رحمه الله ففي ترجمته التي في صدر ديوانه أنه ولد بالخرج وفي الخرج قول غيلان يصف مية في بعض ما وصفها به في بعض تشبيهاته :ـ

مهطولة من خزامي الخرج هيجها من صوب غادية لوثاء تهميم (١)

وقد مرت الأبيات . وقال ابن عثيمين رحمه الله من كلمة أخرى :

خليلي مرا بي على الدار واربعا	لنشعب قلبا بالفراق تصدعا
وإن أنتما لم تسعداني على الأسى	فلا تعدماني وقفة وتوجعا
بمستوحش من شبه آرام عينه	تناوح فيه الهوج بدءا ورجعا

أي تتناوح فيه الرياح الهوج

(١) أو خرقاء ويقال إن خرقاء هي مية والله تعالى أعلم.

أما إنه لو يوم جرعاء مالك غداة التقينا ظاعنا ومشيعا
تبينتما عينا تجود بمائها ومحجوبة تومي بطرف وإصبعا

أي تبينتما عينا ومحجوبة وإصبعا يشار به.

أكثر شعر ابن عثيمين في مدح رجال من رؤساء العرب على زمانه ورثائهم. فمما سلك فيه من ذلك نمطا حبيبيا البائية التي في أول ديوانه:

العز والمجد في الهندية القضب لا في الرسائل والتنميق والخطب
تقضي المواضي فيمضي حكمها أمما إن خالج الشك رأي الحاذق الأرب

وفيها بعد من روح النظر إلى أبي الطيب كقوله:

لكن شمس ملوك الأرض قاطبة عبدالعزيز بلا مين ولا كذب

يعني الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود مؤسس المملكة السعودية رحمه الله ولا تخفى الاشارة النابغية "بأنك شمس والملوك كواكب البيت"، ثم يقول

قاد المقانب يكسو الجو عثيرها سماء مرتكم في نقع مرتكب
حتى إذا وردت ماء الصراة وقد صارت لواحق أقراب من السغب

أي حتى ضمرت فلحقت أقرابها "جمع قرب" أي جنوب خواصرها بظهورها

قال النزال لنا في الحرب شنشنة نمشي إليها ولو جثيا على الركب
فسار من نفسه في جحفل حرد وسار من جيشه في عسكر لجب

فقوله "قاد المقانب" كقول أبي الطيب من حيث الحذو والإيقاع:

قاد المقانب أقصى شربها نهل على الشكيم وأدنى سيرها سرع

هذا في الصدر وإيقاع عجز البيت من أبي تمام مثلا قوله:

هيهات زعزعت الأرض الوقور به من غزو محتسب لا غزو مكتسب

وصدر البيت التالي محذو على أبي الطيب:

حتى وردن بسمنين بحيرتها
تنش بالماء في أشداقها اللجم

والعجز يذكر بغيلان وبقافية رؤبة:

لواحق الأقراب فيها كالمقق

أي كالطـول . والبيت الثالث أوله من الأعشى وعجـزه من أبي تمام والبيت الرابع محذو على قوله :

لو لم يقد جحفلا يوم الوغى لغدا　　　من نفسه وحدها في جحفل لجب

نحو هـذا الحذو لما فيه من قصـد الإشارة إلى أقوال من سبقـوه (تأمل قولـه " ولو جثيا على الركب " ألا يـذكر بقول حبيب : " تجثو الكماة به صغـرا على الركب " ؟) نحو هذا الحذو منبىء بتلـذذ الشاعر بجيـد أقوال هؤلاء الفحـول يومىء إليهم أو يشير، لا مجرد السرق .

وأثر قصيـدة المدح النبوي جد جلي في صيـاغة ابن عثيمين رحمه الله وديبـاجته . تأمل هذه الخاتمات ، قوله :

وخـــذ شـــوارد أبيـــات مثقفـــة　　　كـأنها درر فصلن بـــالــــذهـب
زهت بمـــدحك حتى قـال سـامعهـا　　　" اللـــه أكبر كل الحسن في العـــرب "

يشير كما ذكر محقق ديوانه إلى قول ابن النبيه :

اللـــه أكبر ليس الحسن فى العـــرب　　　كـــم تحت لمة ذا التركـى مـــن عجـــب

إلى هنا نظر شوقي رحمه الله فى قوله :

اللـــه أكبر كم في الفتـح من عجـب　　　يـا خـالـد الترك جـدد خـالـد العـرب

وكـان شوقى رحمه اللـه كثير الأخـذ والشعـراء من أفعل شىء لـذلك كما تقدم ذكـره ، وأحسب أن ابن عثيمين أخـذ من شوقى فى الحذو وطـريقة الصيـاغة ولاريب أنه تـأثر بديـوانه وقـرأه وأثر شـوقى على شعراء النصف الأول من هـذا المائة الميلاديـة كبير. هذا ويقول ابن عثيمين بعده ، وهذا بمعرض ماقدمناه من أثر القصيدة النبوية عليه :

ثم الصـــلاة وتسليـم الإلـــه على　　　من خصـــه اللـه بـالأسنى من الكتب
المصطفى مـن أروم طـــاب عنصرهـــا　　　محمـد الطـاهـر ابن الطـاهـر النسب
والآل والصحب مـــاناحـت مطـوقـة　　　ومـا حـدا الرعـد بـآلهامي من السحب

وقلت قصيدة لا يختتمها بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وما يصحب من ذلك من مديح ينبىء عن التقوى وصدق روح العبادة والتقرب إلى المولى سبحانه وتعالى بالصلاة على نبيه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وقوله في آخر النونية التي مطلعها "عج بى على الربع حيث الرند والبان إلخ" ومدح بها الملك عبدالعزيز رحمه الله، قال:

ثم الصلاة على الهادى الذى خمدت ... فى يوم مولده للفرس نيران
والآل والصحب ماناحت مطوقة ... خطبا تميد بها فى الدوح أغصان

خطبا أى خطباء بقصر المدود وهو جائز كثير والخطبة لون الورقاء أى الحمامة قال المعرى:

ترى كل خطباء الجناح كأنها ... خطيب تنمى فى الغضيض من الينع

ومن هنا أخذ ابن عثيمين. وقال آخر الرائية التي أولها "تلألأت بك فى الإسلام أنوار إلخ":

ثم الصلاة على الهادى وشيعته ... وصحبه ماشدا فى الأيك أطيار

وفى أخرى

وصلى إله العالمين على الذى ... بأنواره الأكوان تزهو وتشرق
كذا الآل والأصحاب مالاح بارق ... ومناح فى الدوح الحمام المطوق

وفى أخرى

وصل إلهى كلما ناض بارق ... وما طلعت شمس ومالاح مرزم
على سيد السادات نفسى فداؤه ... أصلى عليه مدتى وأسلم
كذا آله الغر الكرام وصحبه ... هم صفوة الرحمن منا هم هم

وفى أخرى

وصل إلهي كلما حن راعد		ومانا ض برق في خلال السحائب
على خير مبعوث إلى خير أمة		كذا آله الأطهار مع كل صاحب

والشواهد بعد كثيرة. ومن أعجب شعر ابن عثيمين إلى قوله في نسيب نونية مدح بها الملك عبدالعزيز رحمهما الله تعالى:

ربع تأبد من شبه المها العين		وقفت دمعى على أطلاله الجون
إن الذين برغمى عنه قد رحلوا		حفظت عهدهم لكن أضاعونى
ناديتهم والنوى بى عنهم قذف		نداء ملتهب الأحشاء محزون
ياغائبين وفى قلبى تصورهم		ونازحين وذكراهم تناجينى

وهنا حذو على قول الشيخ عبدالرحيم رحمه الله:

ياراحلين بقلبى أينما رحلوا		ونازلين بقلبى حيثما نزلوا
ترفقوا بفؤادى فى هوادجكم		راحت به يوم راحت بالهوى الإبل

ثم يقول

مالي وللبرق يشجينى تألقه		وللصبا بشذاكم لا تداوينى

وهذا فيه نفس من محمود غنيم فى كلمته التى نشرت فى عدد الهجرة من رسالة الزيات ومطلعها " مالى وللنجم يرعانى وأرعاه إلخ "

ليت الرياح التي تجرى مسخرة		تنبيكم ما ألاقيه وتنبينى
وجد مقيم وصبر ظاعن وهوى		مشتت وحبيب لا يواتينى
من لى بعهد وصال كنت أحسبه		لاينقضى وشباب كان يصبينى
لم يبق من حسنه إلا تذكره		أو الأمانى تدنيه وتقصينى
تلك الليالى التي أعددت من عمرى		أيام روض الصبا غض الرياحين
أيام أسقى بكاسات السرور على		رغم الوشاة بحظ غير مغبون

فهذا شعر سلس وفيه روح رقيق من عاطفة وذكرى. بحر الأبيات ورويها على قرى: "يامن لقلب طويل البث محزون" وفيه من ألفاظها وضرب صياغتها كقوله "وللصبا بشذاكم لا تداوينى" فهذا فيه حذو من قول العدوانى " ولا دماؤكم جمعا ترويني" وكقوله "مشتت وحبيب لا يواتينى" فهذا فيه من قول العدوانى "وأصبح الوأى منها لايواتينى" وفى القصيدة بعد من أنفاس ابن زيدون فى النونية وبعض طريقة لفظها كهذه الأبيات الأخيرة من عند قولة "من لى بعهد وصال إلخ" وكقوله من بعد:

يجنيك من خده وردا بنسرين

وفى هذه القصيدة من المدح الجيد قوله:

إنى آويت من العليا إلى حرم	قبل الإناخة بالبشرى يحيينى
ينتابه الناس أفواجا كأنهم	جاءوا لنسك على صهب العثانين

يعنى الإبل

ترى الملوك قياما عند سدته	وتنظر ابن سبيل وابن مسكين
ذا يطلب العفو عن عقبى جريرته	وذا يؤمل فضلا غير ممنون
نزلت منه إلى جم فواضله	عبدالعزيز ثمال المستميحين

بكسر نون الجمع وهى لغة صحيحة وروى القافية يسيغها هاهنا كما قال ذو الإصبع:

إنى أبي أبي ذو محافظة	وابن أبي أبي من أبيين

ثم يقول ابن عثيمين بعد أبيات:

فدم سليما قرير العين مبتهجا	بالآل والحال فى عز وتمكين،
واشدد عرى الدين والدنيا بمنتجب	من عنصر السادة الغر الميامين،

يعنى ابنه الملك سعود وكان آنئذ ولى عهده، رحمهم الله جميعا:

فرع الأئمة والأذواء من يمن	أهل القباب المطاعيم المطاعين،
غمر الندى نجلك الميمون طائره	سعود أهل التقى نحس المناوين،

بتنوين دال سعود ونقل حركة الهمزة ولك منع سعود من الصرف وقطع الهمزة والأول أحب إلي وكسر نون الجمع كما ترى

تلتك فى خلقك السامى خلائقه تلو المصلى المجلى في الميادين

هكذا وأحسبه " يتلو المصلى المجلى " والمعنى المستقيم بهذا ومصدر تلا، تلو بضم التاء واللام لا بفتح وسكون إلا لمن زعم العموم قياسا للثلاثى المتعدى كقول ابن مالك

فعل قياس مصدر المعدى من ذى ثلاثة كرد ردا

وفي الذى قدمناه مندوحة عن الضرورة ومخالفة المنقول، هذا ثم ختم بقوله:

ثم الصلاة وتسليم الإله على من خص بالخلق المحمود فى نون
وآله الغر والأصحاب كلهم ما ناح ورق بملتف البساتين

وتأمل بعد هذه الأبيات العينية من حيث رصانة سبكها وزنة حرف الروى والخروج بعده وفحولة النفس:

أهاج له ذكر الحمى ومرابعه لجاجة شوق ساعدتها مدامعه
فبات بليل الجيب مضطرم الحشى كأن بسفا البهمى فرشن مضاجعه
يمد الى البرق اليماني طرفه لعل الحمى والخبت جيدت مراتعه
منازل خاللت السرور بربعها ليالي يدعوني الهوى فأطاوعه
أرب عليها كل محلولك الدجى أحم الرجى مستغجمات مطالعه

هذا البيت خاصة قوى الرنة شديد الأسر غيلاني المعدن. الرجى الناحية، عنى أن السحاب المحلولك النواحي سوادا قد ألح عليها بالهطول، وجعله أحم الرجى لسواده ودوى رعوده كأن ذلك صوت الرحى، وإذا الرعد يحدو المطر والحداء ضرب من الغناء والغناء سليل القريض، فقد نسب الى الرعد مطالع كما للقصيد مطالع وهن ابتداءات هديره، وجعلهن مطالع مستعجمات، وكأن هاهنا توليدا خفيا من قول حميد المشهور:

فلم أر مثلي شاقه صوت مثلها ... ولا عربيا شاقه صوت أعجما

وقد مر في صفة الحمامة في الجزء الثالث من المرشد:

إذا ما بكت فيه السحائب جهدها ... ضحكن بنوار النبات أجارعه
وقفت بها والصحب شتى سبيلهم ... عذول ومعذول وآخر سامعه
فكاتمتهم ما بي وبالقلب لوعة ... إذا اضطرمت تنقد منها أضالعه

وهكذا وهلم جرا. والبحر والروى يشعران بمجاراة خفية لحبيب وأبي الطيب معا في كلمتيهما:

هن عوادي يوسف وصواحبه ... فعزما فقدما أدرك النجح طالبه
وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه ... بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

وكأن عين رويه صدى من عين روى البحتري في:

منى النفس من أسماء لو تستطيعها ... بها وجدها من غادة وولوعها

وقد تعلم أيها القارىء الكريم أصلحك الله كيف سمج المتوكل إذا زعم أن عينها تثير القيء والتهوع في خبر ذكروه وما أحسبه خفى عن ابن عثيمين رحمه الله فقد كان واسع الاطلاع ضليعا في علم العربية. ومن جيد شعره في المدح والحكمة قوله للملك عبدالعزيز رحمهما الله تعالى:

يأيها الملك الميمون طائره ... اسمع هديت مقال الناصح الحدب
اجعل مشيرك في أمر تحاوله ... مهذب الرأي ذا علم وذا أدب
وقدم الشرع ثم السيف إنهما ... قوام ذا الخلق في بدء وفي عقب
هما الدواء لأقوام إذا صعرت ... خدودهم واستحقوا صولة الغضب
واستعمل العفو عمن لا نصير له ... إلا الإله فذاك العز فاحتسب
واعقد مع الله عزما للجهاد فقد ... أوتيت نصرا عزيزا فاستقم وثب
وأكرم العلماء العاملين وكن ... بهم رحيما تجده خير منقلب
واحذر أناسا أصاروا العلم مدرجة ... لما يرجون من جاه ومن نشب
هذا وفي علمك المكنون جوهره ... ما كان يغنيك عن تذكير محتسب

وخذ شوارد البيت، ثم الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من بعد كما قد مر ذكره ولا يخلو ابن عثيمين رحمه الله مع رصانته وجودة ديباجته من بعض الكلال والسرد أحيانا، وقل كاتب أو ناظم يسلم مما يؤخذ عليه، والسرد أهون خطبا من الركاكة واللين، وربما قصد أحيانا قصد عمد إلى بعض ما شذ ومثل هذا من مذاهب العلماء معروف كقوله:

فقلدوا أمركم من فيه رشدكمو   ياالمسلمون وشدوا منه بالعضد

أم لعله لم يقل إلا «يامسلمون» وبها الوزن مستقيم وأرجح والله أعلم أنه تعمد هذا حذوا على «فيا الغلامان اللذان فرا»، والخطأ النسخي لا يستبعد[1]

ومن أمثلة الديباجة الرصينة الشيخ محمد سعيد العباسي رحمه الله، وإليك هذه الدالية من شعره وكان رحمه الله مما يواتيه طبع سمح في هذا الضرب والعروض من البسيط.

باتت تبالغ في عذلي وتفنيدي   وتقتضيني عهود الخرد الغيد
وقد نضوت الصبا عني فما أنا في   إسار سعدي ولا ألحاظها السود
سئمت من شرعة الحب اثنتين هما   هجر الدلال وإخلاف المواعيد
لاتعذليني فإني اليوم منصرف   يا هذه لهوى المهرية القود

هنا محاولة فيها رقة لمكافأة صدهن بصد مثله، وقد كره أبو السائب المخزومي التخشين في هذا الباب في قول من قال:

وكنت إذا حبيب رام هجري   وجدت وراي منفسحا عريضا

وهو مذهب لبيد: «فاقطع لبانة من تعرض وصله» في الميمية المعلقة، وكان العباسي رحمه الله ربما سافر السفر الطويل في بادية غرب السودان وكان السفر إلى حين قريب بالجمال. وقوله «المهرية» أراد الإبل النجائب ومن أنجب الإبل البجاوية الصهب وما أشبه أن يكون العباسي كانت له راحلة منها:

لم يبق غير السرى مما تسر له   نفسي وغير بنات العيد من عيد

وبنات العيد الإبل النجائب ينسبن إلى العيد فحل مشهور وأصل كلام العباسي رحمه الله بيت حبيب:

(١) وراجع ديوان الشاعر، العقد الثمين من شعر محمد بن عثيمين الطبعة الثالثة الرياض، سنة ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م (ص١٩٧)(راجعه وصححه وأعد معجمه واشرف على طباعته السيد أحمد أبوا الفضل عوض الله)

(٢) ديوان الاستاذ الشيخ محمد سعيد العباسى رحمه الله، ديوان العباسى، الطبعة الثالثة، الدار السودانية طبعة سنة ١٣٨٨هـ=١٩٦٨م

حتى أغـــادر كل يـــوم بــــالفـــلا للطير عيـــدا مـن بنـــات العيـــد.

ثم قول العباسي رحمه الله:

المدنيـــاتي مـن رهطي ومـن نفـــري والمبعـــداتي مـن أسرى وتقييـــدي،

أثـــرتها وهي بـــالخرطـــوم فـــانتبـذت تكـــاد تقـــذف جلمـــودا بجلمـــود.

تـــؤم تلقـــاء من نهوى وكـم قطعت بنـــا بطـاحـــا وكم جـابت لصيخـــود.

عدى جابت باللام وأحسبه بـذلك فصيحا في هذا الموضع لما في اللام من مناسبة لقول تؤم تلقاء من نهوى فلم يجعل «من» يتسلط عليها الفعل «تؤم» من غير حاجز:

نجـــد يـــرفعنـــا آل ويخفضنـــا آل وتلفظنـــا بيـــد إلى بيـــد

وشـــد مـــا عـــانقـت بـالليـل من عنق يضنى ومن حيـف أخـــدود فأخـــدود

حتى تـــراءت لحادينـــا النهـــود وقـــد جئنـــا على قـــدر حتـم ومـــوعـــود

النهود بلد بغـرب السودان كان منها نهود - أي نهوض - القـوافل وقاصدي الموارد والمراعى في حر الصيف وهي في اقليم كردفان غرب مدينة الأبيض في طريق دارفور.

معـالم قـد أثـارت في جوانحنـــــــــا شـوق الغـويـر لمهضـوم الحشى رود

ثم كأنه استحيا من هذا الغزل فقال:

استغفـــر اللــه لي شــــــــوق يجدده ذكـــر الصبـــا والمغـــاني أي تجديـــد

وتلـك فضلـــــة كـأس مــــا ذممت لها طعما على كبر بـــــرح وتـأويـــــد

وفي هـذا البيت حـرارة من عاطفـة وجـانب من رقـة وكبعض مـذهب الشريف الرضي شيئا ما. وكان أبوه رحمه الله تعـالى، شيخا معتقدا وكان هو خليفته من بعده، تـلاميذه وتـلاميذ أبيـه يكرمـونـه ويتلقاه من يتلقـاه منهم بالحفـاوة البالغـة والاحترام والترحيب. وكان رحمه الله قـد درس العربية والقرآن في صباه، ثم نـال حظا من الحياة العصريـــة والتـــدريب العصري في الحربيـة بمصر حين ألحق بها، ثـم تخلى عن ذلك وانصرف إلى سبيل آبائه في العلم والتصوف.

مذهب الشريف مع سماحة ذات ظرف ساذج سهل أظهر في هذه الأبيات:

درس العربية والقرآن فى صباه، ثم نال حظا من الحياة العصرية والتدريب العصرى فى الحربيــة بمصر حين ألحق بها، ثـم تخلى عن ذلك وانصرف إلى سبيل آبــائه فى العلم والتصوف
مذهب الشريف مع سماحة ذات ظرف ساذج سهل أظهر فى هذه الأبيات :

وكم بـــرزن إلى لقيـــاى فى مـــرح ... وكم ثنين إلى نجـــواى مـن جيـــد
لـــو استطعن وهن السـافحـات دمى ... رشفننى رشف معســول العنـاقيـد
يـــا دار لهوى على النـأى اسلمى وعمى ... ويـــا لـــذاذة أيـــامى بهم عـــودى

ثم سلا عن هذا إلى غناء الحمامة :

وذات طـوق نـــزلنـا تحت دوحتهـــا ... وقـــد تغنت بـأهـــزاج على عـــود

وأحسبه على كثرة ما ورد فى غناء الحمامة لم يخل هنا من نظر إلى قول المعرى

إذا لمست عـــودا بـــرجل حسبتهـــا ... ثقيلـــة حجل تلمس العـــود ذا الشرع

أى تلمس العـود ذا الآوتار ــ واحد الشرع بكسر الشين شرعـة ـ وقـد أخذ المعـرى من شاعره الكبير أبى الطيب حيث يقول :ـ

إذا غنـى الحمام الـــورق فيهــــا ... أجـــابتـــه أغـــاني القيـــان
ومن بـــالشعب أحـــوج من حمام ... إذا غنـى ونـــــاح إلى البيــــان
وقـــد يتشـــابـه الـوصفـــان جـدا ... ومـــوصـــوفـــاهما متبـــاعـــدان

وقد مر حديث فيه طول عن هذه الأبيات النونية

فقلت حييت هـل تـــدرين مـــا فعلت ... بنـــا التبـاريح مـن وجـد وتسهيـــد
حتى أجـدت لنـا لحن القـــريض قـرى ... ومـــا بخلت على ضيف بمـوجـود [1]

هذا مأخوذ من المثل المعروف فى عاميتنا : "الجود من الموجود ولو من قطع الجلود"

أنت الجواد على العـــلات فـــاتخذى ... فينـا جميـــلا ومن هـذا القـرى زيـدى

وسائر الكلمة جيد.
وللعباسى بسيطية أخرى يذكر "مليط" بفتح الميم وتشديد اللام المكسورة، وهى بلدة علي واد خصيب فى غـرب السودان غير جـد بعيدة البعـد عن الفـاشر، موقعهـا شمالى

(١) وهل أراد لحن الغريض بالغين وهو من أهل الإتقان فى الغناء.

بالنسبة إلى الفاشر:

حياك مليط صوب الرائح الغادى — وجاد واديك ذا الجنات من وادى
فكم جلوت لنا من منظر عجب — يشجى الخلى ويروى غلة الصادى
أنسيتنى برح آلامى وما أخذت — منا المطايا بإيجاف وإيخاد
كثبانك العفر ما أبهى مناظرها — أنس لدى وحشة رزق لمرتاد

وذلك أنها تحتفظ بالماء فى جوف تربة رمالها فتزرع وما حولها مجدب

فاسق النخل ملء الطرف يلثم من — ذيل السحاب بلا كد وإجهاد

هل يعني بلا كد من الزارعين ولا إجهاد؟ المعروف فى النخل أنه على شدة حاجته إلى الماء لا يصلحه كثرة هطول المطر عليه ورد الكد والإجهاد إلى اللثم يجعل العبارة ذات ضعف، فالمعنى الأول كأنه هو الوجه الأفضل على ما فيه مما ذكرنا من أمر إفساد المطر النخل إن كثر عليه.

والورق تهتف والأظلال وارفة — والريح تدفع ميادا لمياد

سياق هذا البيت وسلاسته تقوى رد نفى الكد والإجهاد الى لثم فروع النخل أذيال السحاب ـ على هذا التأويل قوله " بلا كد وإجهاد " مع كونه لا يخلو من ضعف لا يخلو أيضا من وجه يسوغه على تعب ما

لو استطعت لأهديت الخلود لها — لو كان شيء من الدنيا لإخلاد

أحسبه حمّل الإخلاد معنى التخليد وفيه نظر

أنت المطيرة فى ظل وفى شجر — فقدت أصوات رهبان وعباد
أعيذ حسنك بالرحمن مبدعه — ياقرة العين من عين وحساد

هذا بيت فيه عذوبة

وضعت رحلى منها بالكرامة فى — دار ابن بجدتها نصر بن شداد
فاقتادت اللب منى قود ذى رسن — ورقاء أهدت لنا لحنا بترداد
هاتى الحديث رعاك الله مسعفة — وأسعدى فكلانا ذو هوى بادى
فحركت لهوى الأوطان أفئدة — وأحرقت نضو أحشاء وأكباد

هوى إلى النيل يصبيني وساكنه | أجله اليوم عن حصر وتعداد
وحاجة ما يعنيني تطلبها | لولا زماني ولولا ضيق أصفادي
ياسعد سعدبني وهب أري ثمرا | فجد فديتك للعافي بعنقاد

قوله "نضو أحشاء وأكباد" وقوله "عن حصر وتعداد" فيها بعض الوهي وما بعد قوله، "حاجة" ليست للنفي ولكن للإبهام وهي جيدة والبيت ممهد للذي بعده وفيه ما ترى، من الإشارة إلى قول سيدنا عمر "يا سعد سعد بني هيب" رضي الله عنهما، وجعل الشاعر ذلك رمزا كني به عن بعض حاجات نفسه وفيه روح من صبابة وعاطفة، ووجدان وقوله "بعنقاد" حسن الموقع في هذا الموضع ـ قال تأبط شرا وأورده أبو العلاء في رسالة الغفران :

وقد لهوت بمصقول عوارضها | بكر تنازعني كأسا وعنقادا
ثم انقضى عصرها عني وأعقبه | عصر الشباب فقل في صالح بادا

وفي هذه الدالية أبيات خاطب بها الحمامة جعلها خاتمة لها

ورقاء إنك قد أسمعتني حسنا | هيا اسمعي فضل إنشائي وإنشادي
إنا نديمان في شرع الهوى فخذي | يا بنت ذي الطوق لحنا من بني الضاد
فربما تجمع الآلام إن نزلت | ضدين في الشكل والأخلاق والعاد
لا تنكريني فحالي كلها كرم | ولا يريبك إتهامي وإنجادي

أحسبه أراد هنا معنى مجازيا، أي الافتنان في ضروب القول مما يقع فيه التعبير العاطفي المنحى فربما ظن ظان أنه لايلائم وقار الشيوخ . وفي قوله "فربما تجمع الآلام" نظر إلى قول شوقي :

إن المصائب يجمعن المصابينا

وإلى أبي الطيب

وقد يتشابه الوصفان جدا | وموصوفاهما متباعدان

ورحم الله العباسي فقد كان رقيق الإحساس فصيحا يغرف بسماحة طبعه من بحر ولإيقاعه رنين وعذوبة

هذا وقد كنت جعلت هذا آخر أبواب الكتاب وقلت إنه لا يتسع المجال للخوض في ضروب تجديد العصر، فأقل ما يقال في ذلك إن المعاصرة حجاب. وكان الفراغ من ذلك كله في مدينة فاس حرسها الله تعالى لليلتين بقيتا من شعبان سنة ١٤٠٣ هـ. وذلك يوافق ٩ من شهر يونيه سنة ١٩٨٣م

ثم بدا لي الآن بعد أن حيل دون خروج الكتاب كله منشورا مطبوعا أن أستدرك شيئا مما فاتني ذكره. من ذلك الإلماع إلى مكان شاعر العراق محمد مهدي الجواهري بين الآخذين بمذهب الجزالة في هذا العصر وله طول نفس وقوة أداء ولكن تشقيق الجدل والسياسة ربما كدر من صفاء ديباجته - وهو بعد يحسن أن يترنم ترنما بحتري الإيقاع كقوله:

في قصيدة بعنوان ساعة مع البحتري في سامراء

أكبرت شاعر جعفر وشعوره يستوجب الإكبار والترفيعا
ولمست في أبياته دعة الصبا ولداته والخاطر المجموعا

ولا أدري معنى المجموع ههنا إلا أن تكون رويا مقحما إذ وصف الخاطر بالمجموع يحتاج إلى تأويل كقولك أمر مجموع أي مجمع عليه وقد لا يخلو ذلك من تكلف

ولئن تشابهت المناسب أو حكى مطبوع شعري شعره المطبوعا

فلو قد قال: مطبوع نظمي لكان ذلك أصح

فلكم تخالف في المسيل جداول فاضت معا وتفجرت ينبوعا

وهذا توليد من أبي الطيب في بيته الذي كثر التوليد منه والأخذ:

وقد يتشابه الوصفان جدا وموصوفاهما متباعدان

ثم يقول:-

عبث الوليد بشرخ دهر عابث وصبا فنال من الصبا ما استطيعا

يشير هنا كما ذكر في الهامش (ديوانه الطبعة الخامسة ص ٤٢١) إلى كتاب المعري عن نقد بعض ما وقع في شعر البحتري الذي سماه «عبث الوليد» واسم البحتري الوليد بن

عبيد فهنا تورية

ونبا رفيعـــا فى ظـــلال خـــلائف ... فى ظلهم عـــاش القـــريض رفيعـــا
لا عن بيـــوت المال كـــان إذا انتمى ... يقصى ولا عن بـــابهم مـــدفوعـــا
قـــدروا لـــه قـــدر الشعـــور وأسرجـــوا ... أبيـــاتـــه وسط البيـــوت شمـــوعـــا

وهذا غناء سلس ذو عذوبة، ثم التوى بالجواهرى الطريق إلى مقالة السياسة وشعور القومية الحديثة الأوربية المعدن، تحاكيه وتباريه؛ وهذا ديدن قد غلب:

ضيف العـــراق نعمت مـــن خيراتـــه ... وحمدت فيـــه قـــرارة وهجـــوعـــا
إن تعـ[illegible]ـد الخفـــلات كنـــت دقـــدمـــا ... أو تنبر الأمـــسراء كنت قـــريعـــا

ضبطت تنبر بضم التاء وما أحرى هذا أن يكون خطأ مطبعة إذ نبر (باب ضرب) ثلاثى ويجوز أنه مضارع من "انبرى له" أى اعترض. هذا ولعل قولنا « التوى بالجواهرى شعور القومية الحديثة وهو ديدن قد غلب» حيث قال يخاطب البحترى:

ضيف العـــراق نعمت مـــن خيراتـــه ... وحمدت فيـــه قـــرارة وهجـــوعـــا!

أن يكون على خلاف وجه آخر أراده الجواهرى وهو أشبه بمذهبه وعلمه بالشعر وذلك، أن يكون قصد إلى الإشارة إلى قول البحترى المشهور:

حنت قلـــوصى بـــالعـــراق وشـــاقهـــا ... فى نـــاجـــر بـــرد الشأم وريفـــه
ومـــدافع الســـاجـــور حيث تقـــابلت ... بـــالضفتين تـــلاعـــه وكهـــوفـــه

فهل أراد عتابه على هذا الحنين إلى برد الشأم وريفه؟ فإن يكن شيئا من ذلك أراد فقد جعل المعرى من قبله عتاب البحترى وملامته مركبا قال:

وقـــال الـــوليـــد النبع ليس بمثمـــر ... وأخطأ سرب الوحـــوش من ثمر النبع

وقال:

ذم الـــوليـــــد ولم أذمم ديـــــاركم ... فقـــال ما أنصفت بغـــداد حوشيتـــا
فإن لقيـــت وليـــدا والنـــوى قـــذف ... يـــوم القيـــامـــة لم أعـــدمـــه تبكيتـــا

ثم رجع الجواهرى إلى معانى الثورة المحتدمة فى نفسه فقال يخاطب البحترى ويذكره بأن العراق أحسن ضيافته إذ لم يكن عراقيا مولدا ودارا

وأظن أنك لو نمتك ربوعه ... لشكوت منه فؤادك المصدوعا

كما يشكو الجواهري

ولكنت كالشعراء من أبنائه ... ممن تجوهل قدرهم فأضيعا

وهذا من الشعراء ديدن قديم

لك في التي راشت جناحك رفقة ... لولا جلادتهم لماتوا جوعا

ولا تمنع جلادة صاحبها أن يموت جوعا أو عطشا إن لم يجد من ذلك أدنى حاجته. وهل عنى بالرفقة أولى الجلد ابن الرومي إذ عاصر البحتري ولم يصب من الحظوة كما أصاب؛ أو هل عنى نفسه وفي قوله " في التي راشت جناحك" يعني العراق ولعل، الكاف هاهنا عنى بها غير البحتري وجعله رمزا، وما أقرب هذا من مذهب ابن الرومي، إذا حسد الغصون المجازية وذمها في قوله:

نعم ألبستهم نعم اللـ ... ـه ظلال الغصون منها الرطاب،

إن تلك الغصون تصبح عندي ... ظالمات فهل لها من متاب،

ومن غضبات الجواهري التي قد يخال أنهن مدنيات له من يسار مركس وقل شاعر فحل يكون من يسار مركس قريبا، قوله

خبت للشعر أنفاس ... أم اشتط بك اليأس،

أم الحي وقد أغفيـ ... ـت إبلاس وإخراس،

كأن لم يعترف ناسا ... فهل أنت به الناس،

ويا رب المقاييس ... ترى أعياك مقياس،

أكفرا بالقياسات ... وما قيس ومن قاسوا!

أم الخير شكا الندر ... ة حيث الشر أكداس،

أم الثروة للقبح ... وعند الحسن إفلاس،

أم العبد على الأحرا ... ر قوام ونخاس،

أم الفكر بأظلاف الـ ... ـوحوش الغبر يداس،

أحسبه لو جعل مكان الوحوش كلمة أخرى لربما كان أصح إذ ليس للوحوش، إن أريد بها السباع أظلاف، وغير السباع يقال لهن الوحش كالوعول والظباء وما أشبه، وقد أراد أمثال الدواب من البشر فهذا مقالنا لو جعل كلمة أخرى وذلك كثير وما جاء به له وجه وفوق كل ذي علم عليم.

أم الأعضـــــــام أربـــــــاب   أم الأرؤس أعجـــــــــــاس

جمع عجس بفتح فضم كعجز

أم الموت غشـــــــــى الحى   فما فى الــــــدار أحــــــلاس

غشى كسعى لهجة طيء وما في الدار أحلاس أراد بـه ما فى الدار أحد وهو حلس داره أى لا يفارقها لكبر سن أو نحو ذلك فأحسبه تصرف فى استعمال هذا اللفظ وعسى أن يصلح

أدر كــــاسك بــــا خــــوس   فقـــد مســـوحت الكـــاس

فى الهامش (ص ٣٥٧) (١): باخوس إله الخمر عند الإغريق ويريد به الشاعر هنا نفسه ـ ولا يخفى أن باخوس هنا من الجند الغريب

واسمع قرعة الغضبة واقرأ قوله

عـــدا على كا يستكلب الـــذيب   خلق ببغـــداد أنماط أعـــاجيب

خلق ببغـــداد منفـــوخ ومطـــرح   والطبل للنـــاس منفـــوخ ومطلـــوب

خلق ببغـــداد ممســـوخ يفيض بـــه   تأريـخ بغـــداد لا عـــرب ولا نـــوب

لا الأريحى الـــذى ضمت مـــلاعبها   ولا التقى الـــذى ضمت محاريـب

هذا من مر الهجاء، أن يكون صاحب الملاعب واللهو غير ذي أريحية فيه بل ذو سماجة وأن يكون مظهر الدين يصلي به في المحاريب غير ذي تقوى ولكن من أهل النفاق

لـو شئت مزقـت أستارا مهلهلـة   فـراح سيـان مهتـوك ومحجـوب

أي فراح الشأن ـ سيان خبر مقدم والجملة خبر راح واسمها ضمير الشأن

إني لأعـــذر أحـــرارا إذا بـــرمـــوا   بـالحر يلـــويـــه تـــرغيب وتـــرهيب

والصـــابـــرين على البلـــوى إذا عصفـوا   بـالصـــابـــر الشهم آدتـــه الطـــاليب

لما لعبـــدان أهـــواء وعنـــدهم   في كل يـــوم من التغـــريـــر أسلـــوب

١ ـ ديوانه/ ٢

وما لهذا الجبان النكس قد هزئت ... منه ومن صحبه الغيد الرعابيب
منافقون يرون الناس أنهمو ... شم أباة أماجيد مصاحيب
وأنهم قادة صيد وأنهمو ... غر المصابيح والدنيا غرابيب
ما أغرب الجلف لم يعلق به أدب ... وعنده للكريم الحر تأديب[1]

هذا، ومن عسى أن يحسن الإلماع إلى حسن ديباجته الأستاذ أحمد محرم رحمه الله. وقد أورد الأستاذ محمد إبراهيم الجيوشي في كتابه عنه، (شاعر العروبة والإسلام)[2] اختيارا حسنا من شعره ما نورده ان شاء الله هنا منه، مثلا قوله

إليك دموعي في الصحيفة فاقرئي ... رسالة أشواقي إليك وأشجاني
فان تطلبي مني دليلا على الهوى ... فهذا دليلي في هواك وبرهاني
فيا هند عذرا إن جزعت فإن لي ... تباريح من شوقي إليك وتحناني
ولا تنكري هذي الدموع تذكري ... عصارة قلبي في هواك ووجداني
ويا هند إن جئت الشهيد تذكري ... شهيد هوى مادان يوما بسلوان

زعم الأستاذ الجيوشي ان اسم الفتاة «رفقة» ومكانه في نص الديوان فراغ وأن الوزن يستقيم بـ «رفق» مناداة مرخمة. وقد وضعنا اسم «هند» لأن رمزيته واضحة كليلى ولبنى وسعدى وسلمى وما أشبه وكرهنا أن نضع «رفق» لما فيه من الظن والقول بما لا نعلم إذ ما ذكروا من عشق محرم لرفقة هذه لا دليل عليه. ولقد أحسن أبو الطيب رحمه الله إذ قال في رثائه لخولة أخت سيف الدولة رحمهما الله تعالى:

كأن «فعلة» لم تملأ مكارمها ... ديار بكر ولم تخلع ولم تهب

وقال:

أجل قدرك أن تسمى مؤبنة ... ومن يصفك فقد سماك للعرب

(١) ديوانه ٢/ ٣٥١

(٢) شاعر العروبة والاسلام، أحمد محرم محمد ابراهيم الجيوشي الطبعة الأولى سنة ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م ص ٩٤.

فإنه لم يرد «بفعلة» إلا «خولة» ولم يكتم اسمها لدفع حرج ولكن أدبا وإجلالا لقدرها.

ويعجبني من أبيات له في قصة تحرير المرأة[1]

أغرك يا أسماء ما قال قاسم	أقيمي وراء الخدر فالمرء واهم
ذكرتك إني إن تجلت غيابتي	على ما نمى من ذكرك اليوم نادم
تضيقين ذرعا بالحجاب وما به	سوى ما جنت تلك الرؤى والمزاعم
سلام على الأخلاق في الشرق كله	إذا ما استبيحت في الخدور الكرائم
أقاسم لا تقذف بجيشك تبتغي	بقومك والإسلام ما الله عالم
لنا من بناء الأولين بقية	تلوذ بها أعراضنا والمحارم
أسائل نفسي إذ دلفت تريدها	أأنت مع البانين أم أنت هادم

ليس جمال هذه الأبيات من قوة الحجة والجدل ولكنه من صدق العاطفة وسلامة الديباجة ولا يعجبني قوله «في الشرق كله» إذ فيه كالتسليم بأن أوربا مركز الدنيا تنسب إليها الجهات . ويقولون الآن الشرق الأدنى والشرق الأوسط ـ الأدنى إلى ماذا والأوسط عماذا؟

وذكر صاحب كتاب شاعر العروبة والإسلام أن أحمد محرم رحمه الله كان له رأي حسن في «قاسم امين» الرجل المصري على ما كان يأخذه عليه من قوله في تحرير المرأة وقد رثاه فذكر من ذلك في رثائه له، قال :

إذا رأى الرأي لم تنكص عزيمته	خوف الملام ولم يقعد به اللدد
رمى الحجاب فلولا الله يمسكه	لا نشق أوخار اوخرت به العمد

قوله «فلولا الله يمسكه» كأنه يشير به الى قول المعري «فلولا الغمد يمسكه لسالا» وذلك أن لولا بعدها غالبا حذف الخبر كما ذكر ابن مالك .

(١) نفسه ١٧٤

لم يبغ حين رمى شرا بأمتـــــه	وإنما خـــانـــه رأى ومعتقـــد
إنــا نعيش بــواد غير مــؤتمن	تنــزو القلـوب بـه ذعـرا وتـرتعـد
تعدو الـذئاب بـه والـويل ان غفلت	عين الـربيئـة أو أغفى بـه الـرصـد

وقوله «أغفى به الرصد» فيه وهي ما وسائر الكلام ذو جزالة سلس.

هذا ومما فاتني ذكره (وليس هذا موضعه ولكنه لا يحسن أن يترك وقد طال هذا الكتاب فيقع فيه النسيان والسهو والتكرار، كما صنع الجاحظ وكما وعد أبو الفرج ولم يفه، وما بمثل ما صنعا يقاس هذا الصنيع وأين الظالع من الضليع) التنبيه على ما كان للطهطاوي من سبق في مجال نهضة الشعر إذ كان من أوائل من أدخلوا عليه روح المقالة وكما تعلم كانت أكثر عيون الشعر في المديح النبوي.

أرسل الشيخ رفاعة إلى السودان مع رفاق له في مهمة تعليمية، وكأن ذلك لم يخل من بعض التخفيض لمنزلته ونوع من النفي له ولم تعجبه الإقامة في الخرطوم، ونظم قصيدة من بحر الوافر دالية على قرى كلمة أبي الطيب:

أحـــاد في ســداس في أحـــاد	لييلتنـا المنـوطـة بـالتنـادي

أو على قرى كلمة حبيب:

سقى عهد الحمى سبل العهاد	وروض حـاضر منـه وبـادى

قال رحمه الله فذكر تأخر السودان وخشونة بعض جوانب الحياة والمجتمع فيه:

رعى الجنـــان عهـــد زمـــان مصر	وأمطـــر ربعهـــا صـــوب العهـــاد
رحلت بصفقـــة المغبـــون عنهـــا	وفضلى في ســـواهـــا في المزاد
ومـــا الســـودان قـط مقـــام مثلى	ولا سلماي فيــــه ولاسعـــادى
بها ريح السمـــوم يشم منهـــا	زفير لظـى فـــلا يطفيـــه وادي

أنث «السودان» كتأنيث «مصر» على العلمية. ولقد فرض الإستعمار هذا الاسم على بلادنا فرضا ثم تمسكت به حركة الخروج من الاستعمار باسم الدعوة القومية الحديثة. واسم السودان إنما هو اختصار لقول العرب ومن أخذ عنهم بلاد السودان ويطلق ذلك على البلاد الواقعة جنوب الصحراء من بحر الهند وبحر القلزم الى المحيط الأطلسي الكبير، ولقد استقلت بلاد اخرى في افريقيا كانت تحت حكم فرنسا وكان اسمها السودان الفرنسي فسمت نفسها السودان، فحدث من ذلك أيما التباس ففطن أهلها ورجعوا الى اسم قديم وهو «مالي» كما رجع من قبلهم الرئيس نكروما من ساحل

الذهب إلى اسم قديم ادعاه لبلده هو «غانا» كما فر هيلاسلاسي من اسم الحبش إلى اسم «اثيوبيا» وكان هذا يطلقه اليونان القدماء بكبريائهم، ينبزون به سواد الواننا، على بلادنا دون بلاده وقيل إن «اثيوبيا» اشتقاقها من الطيب إذا كان يجلب من بلاد كوش وما وراءها، وفيه نظر، وكان يقال لبلادنا السودان الانجليزي المصري بعد أن شارك الانجليز أسرة محمد علي في إدارته وتولى أمره. وإنما كان اسم بلدنا سنار على اسم عاصمة السلطنة التي كانت قائمة على أمرها فيما بين ١٥٠٠ إلى ١٨٢١م. وقيل إن الملك عمارة مؤسس سلطنة الفنج لقى فتاة اسمها سنار فتفاءل بحسن طلعتها فسمى بلدته باسمها ويجوز أن يكون الاسم اختزل من سنهار «أي القمر» ويجوز غير ذلك وكان قومنا يقال لهم السنارية وعلى ذلك رواق السنارية بالأزهر الشريف هذا ثم أخذ الشيخ رفاعة في ذم الناس والبلاد وبعض ما ذكره ملاحظات قيمة تدخل فيما يقال له الآن علوم الاجتماع أو «انثوبولوجيا»، قال: وليس هذا بموضع عتب عليه كما سأذكر من بعد إن شاء الله تعالى:

فلا تعجب إذا طبخوا خليطا   بمخ العظم مع صافي الرماد

أحسب هذا ما يسمى «ملاح المرس» وكان يصنع فيما بلغني من قصب يحرق وعظم يترك حينا ثم يطبخ وهو طعام عام مسنت ولا يخفى أن الرماد يستعان به على هواء البطن

ولطخ الدهن في بدن وشعر   كدهن الإبل من جرب القراد

أحسبه أصاب في الصدر وأخطأ في عجز البيت وبلاد السودان جنوب مصر حارة جافة ولأهلها بجفافها وعلاج ما ينشأ من ذلك من أثر على البشرة دراية وقد كان الصغار في جيل مضى والكبار لايبيت أحدهم إلا بعد أن يمسح بزيت السمسم جسمه وكان البداة يضعون على رءوسهم الودك وكان للنساء خبرة بصناعة أدهان ذات طيب فائق من الودك بعد أن يسلأ ثم يخلط بالصندل والعطور الهندية ولا أشك أنه عطر النجاشي المذكور في السيرة وتمكن به عمرو بن العاص أن يشي بعمارة بن الوليد ويوقعه فيما وقع فيه من آبدة وكانت في وادي النيل عندنا حضارة لم يكلف رفاعة رحمه الله نفسه عناء تتبعها، ولا يلومنّه على ذلك أحد لما كان من غيظه من شبه النفي الذي وقع ثم كأنه صادف عام وباء فدخل عليه مع الغيظ خوف شديد.

ويضرب بالسياط الزوج حتى   يقال أخو بنات في الجلاد

يضرب مبني للمعلوم وذلك أن «العريس» يقف أمامه صف من الشبان يضرب كلا منهم على جلد ظهره سوطا أو سوطين أو يزيد، حسب ما يتفق عليه أنه ثمن الشبال. أو شر الشبال «والشبال» أن تدنو الفتاة التي ترقص بعد أن كشفت رأسها، ولا تفعل ذلك في هذا الموقف الفارح المحتفل به، إلا الحرائر، من الشاب الذي يعجل أمامها فتشير بشعرها ثم تغطيه مجفلة، هذا هو الشبال ولا ترقص البنات إلا بعد أن يجلد «شر الشبال»، «ولابد دون الشهد من إبر النحل» — وإنما كان يتقدم للسوط الشبان تعزيزا «للعريس» وتأييدا له. ومن أدب الوقوف للسوط أن يكون الفتى ثابتا كأنه جدار، ولا يختلج منه خد أو طرف أو مايدل على ألم. وقد يداخل الشبان تنافس فيرفعون «شر الشبال» وإنما يقدم على ذلك الباسلون الذين يقال لهم «إخوان البنات» أي حماتهن. والسوط مصنوع من جلد فرس البحر (العينسيت ـ الكلمة مقاربة لقولهم عنس في العربية).

وما السودان قط مقام مثلي ولا سلماي فيه ولا سعادي
بها ريح السموم يشم منه زفير لظى فلا يطفيه وادي

قوله «فلا يطفيه وادى» كقوله من قبل «وفضلى من سواها في المزاد» ولا يخلو من نفس عامي.

فلا تعجب إذا طبخوا خليطا بمخ العظم مع صافي الرماد
ولطخ الدهن في بدن وشعر كدهن الإبل من جرب القراد

قولنا من قبل إن ما ذكره في عجز البيت غير صحيح فقد بينا أمر دهن الجلد، وقال الشنفري:

بعيد بمس الدهن والفلى عهده له عبس عاف من الغسل محول

فافتخر بصعلكته وجعل منها ألا يدهن رأسه. وقال يزيد بن الطثرية وهو إسلامي:

فيسلك مدرى العاج في مدلهمة إذا لم تفرج مات غما صؤابها

والصؤاب صغار أولاد القمل وإنما احتاج إلى تفريج لمانه لما بها من دهن وفي خبر كعب بن عجرة أنه جهده ترك الدهن من أجل عبادة الحج فيما يبدو حتى جعل القمل يتناثر من لمته فأمر بالهدى ونزلت فيه «فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه الآية ١٩٦ من البقرة» والعجب للطهطاوي أن يكون خفى عنه مثل هذا مع وافر علمه ونسبه الشريف.

ويضرب بالسياط الزوج حتى		يقال أنحو بنات في البلاد
ويرتق ما بزوجته زمانا		ويصعب فتق ذاك الإنسداد

يشير بهذا إلى عادة خفض النساء وأعياه النظم هنا فزعم أن الرتق للزوجة وإنما تختن الفتاة وهي صغيرة فقد تبالغ الخاتنة فينشأ من ذلك ضرر عظيم كأن تصير الفتاة رتقاء لايستطاع جماعها، والختانة قديمة في العرب وفي حديث أم عطية ذكره ابن الأثير في أخريات مادة خفض. «إذا خفضت فأشمى» قال الخفض للنساء كالختان للرجال وفي مادة«نهك» وفي حديث الخافضة قال لها أشمى ولاتنهكي أي لاتبالغي في استقصاء الختان ا هـ؟»
فاستقصاء الختان كان للعرب عادة قال جرير

والتغلبية في ثنيي عباءتها		بظر طويل وفي باع ابنها قصر

لأنها من قوم نصارى ذمهم جرير بأن نساءهم لا يخفضن فجعله سبة:
وقال الفرزدق:

وما وجعت ازدية من ختانة		ولا شربت في جلد حوب معلب

يجعل الختانة الموجعة كشرب اللبن من اناء الجلد أمرا خصت به العرب. والحوب عني به البعير لأنه يزجر بحوب. والختانة الموجعة استقصاء ولكنه لايبلغ به من الفساد ما زعم الطهطاوي إلا في حالات تشذ وليس الشذوذ بما يصح تعميمه وما منعت ختانة من افتضاض طبيعي ولا منعت من نفاس، وليس في هذا تزكية لها فالوجه ما أمر به صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم وما أمر إلا بالإشمام. وقد يبالغ في بعض البلاد، (وليس قطرنا ولاأحسبه في قطر افريقي) في ختانة الرجال وفي الكتاب المقدس في خبر غيرة أبناء يعقوب على سباء وقع لنسائهم أن ختانة بني اسرائيل لرجالهم كانت يبالغ فيها حتى يلزم المختون الفراش من وجع الجراح.
ومن تعب النظم في هذا البيت قطع همزة الانسداد.

وإكراه الفتاة على بغاء		مع النهى ارتضوه باتحاد

هذا باطل. ولعله أنكر أن يكون لبعضهم مملوكات وأن يهدي المملوكة فهذا قبل أن يمنع الافرنج بيع الرقيق وملك المملوكين بدعوى التحرير، وإنما منعوا ضربا وأبقوا ضروبا لعلها شر مما منعوا، وفي قول الله تعالى«فك رقبة» مذهب واضح لمن كان يرغب في محض التقوى، وما سوى ذلك فما يعتذر به بعض من يدعون التفكير من معاصرينا

إلى مطاعن الافرنج ليس بكبير شيء فتأمل. وقال أبو الطيب في مدحته للملوك :

من كل مـوهـوبـة مـولـولـة   كـاسرة زيـرهـا ومثنـاهـا

فلعل من أهـدى مملوكـة ممن عسى أن يكـون رفاعـة شهد ذلـك منه مـا خرج بـه عن مذاهب العلية وأهل الثـراء. وقد كان أخذ الرقيق من مـرتبات الموظفين أول أيام حكم محمد علي باشـا ثم نهى عنه احتراما لفرنسة وبـريطانيا ذكر ذلك الـدكتور مكي شبيكة رحمه الله في تأريخة، وقول الطهطاوي«ارتضوه باتحاد» لا يخفى ضعف القافية منه.

لهم شغـف بتعليـم الجواري   على شبق مجاذبـة السفـاد

وهذا أمر خاص بـالنساء ومعروف عند العرب منه شكـوى الذي شكا إلى علي انه كلما دنا إلى امـرأته قالـت قتلتني وما كان أغنى رفـاعة عن ذكـره. قال أحد المادحين يـذكر الصوفية وإقامتهم الليالي يذكرون الله ويسبحون بسبحات خرزها من ثمر«اللالوب» في كل سبحـة ألف حبة يعد بها المسبـح مثلا١٢٩x١٢٩ من عدد «يالطيـف»، فهذ قد يقضى فيه ليلة بأكملها :

يـــاليلى النـــوم تـــركـــوه
يـــاليلى الـــلالـــوب بكـــوه

«ليلى» اسم الحضرة العلوية الصوفية النبوية، جعل«اللالوب» كالعرائس يبكين تغنجا ودلالا فافهم حفظك الله :

قـوله رحمه اللـه "لهم شغف" أبـدة، إذ كثير من الشبـان ربما فاجأهـم هذا من تـدبير اللـواتي وصفهن الكتـاب المحكم بالكيـد العظيم في ليلـة الـدخلة ويـذكـر ان الشيخ الدردير رضي الله عنـه أهدى له بعض مريديه مملوكة لقنت هـذا العلم ففزع من امرها أول الأمر ثم أحبه حبا فالله أعلم أي ذلك كان من خبر الرواة.
ولا يلام الشيخ رفاعـة على انكاره ما أنكر وتفرنجه بالـزعم ان اهداء الجواري من البغاء المنهي عنه في قـوله تعـالى : " ولا تكرهوا فتيـاتكم على البغاء إن أردن تحصنـا " وكانت قريش في جاهليتها تفعـله. فقد بلغ من رقة التأثر بها فتنه من حضارة مبلغـا، ولعـل ما أصابه من ذلك في زمانه دون ما أصابنا من ذلك في هذا الزمان.
وقال الحارث بن أبي ربيعة وكان في وجه الحرب عاملا لابن الزبير رضي الله عنهما يزجر أخاه عمر إذ بعث اليه يطلب منه جارية :

بعثت إلي تستهـدي الجواري   لقـد انعظت من بلـد بعيـد

ثم يقول الشيخ رفاعة :

وشرح الحال عنـــه يضيق صـــدري ... ولا يحصيـــه طـــرسي أو مـــدادي
وضبط القـــول بـــالأخبـــار يـــزري ... وشر النـــــــاس منتشر الجراد

أي هذا قليل من كثير وليس الخبر كالعيان والشر الذي رأيناه كالجراد المنتشر

ولولا البعض من عـرب لكانوا ... ســوادا في ســواد في ســواد

أي سواد وجوه وقلوب وعيون فالعياذ بالله من ذلك . وهذا البعض الذي أشار اليه كثير قديم يرجع زمان أوائله إلى ما قبل الجاهلية والله اعلم

وحسبي فتكهـا بنصيف صحبي ... كـــأن وظيفتـي لبـــس الحداد

وسخطته ههنا لا تخفى وتداخل ذلك مع الأسى روح النكتة القاهرية

وقـــد فـــارقت اطفـــالا صغـــارا ... بطنطـــا دون عـــودي واعتيـــادي
افكـــــر فيهم سرا وجهـــــرا ... ولا سمـــــري يطيب ولا رقـــادي
وطـــالت مـــدة التغـــريب عنهم ... ولا غنم لـــدى ســـوى الكســـاد

وهل تجارة اكسد من أن يغادر القاهرة إلى خرطوم ذلك الزمان

ومـا خلت العـزيز يـريـد ذلى ... ولا يصغي لأخصـــام لـــداد

فصرح هنا بما كان يحسه قلبـه من أن بعثه للسودان ضرب من النفي ومنبيء عن سخط عليه من الخديوي عزيز مصر أو جفوة «وتلك التي يهتم منها وينصب» كما قال النابغة وفي الابيات التي ذكـر فيها أطفـاله وأسرتـه صدق حنين واسماح أسلـوب . وعلى طول القصيـدة لم تجده عنـد العزيـز . فعـدل إلى الإستغـاثة فنظم تخميسا لقصيـدة الشيخ عبدالرحيم البرعي :

خل الغـرام لصب دمعـه دمـه ... حيران توجده الذكـرى وتعدمه

وعسى أن يكون توسل بالسيد البدوي حامي طنطا قدس الله سره . فكان ذلك أجدى عليه من :

ومـا السـودان فيـه مقـام مثلي ... ولا سلمـاى فيـه ولا سعــادي

فاستجيب له وعاد رحمه الله إلى مصر.

وفي معجم البلدان لياقوت حيث ذكر بلاد النـوبة شبهها ببلاد اليمن وذكر أن في عيش أهلها شدة .

وقال العباسي رحمه الله :

أحبتي هـذي الـدمـو ... ع بعدكم غيث همي
صيرت عن كـره قـري السـ ... ـودان لي مخيما
ولي بمصر شجـن ... أجـري الـدمـوع عنـدمـا
فـارقـت مصر ذاكـرا ... أرجـاءهـا والهرمـا
والنيـل والجزيـرة الـ ... فيحـاء والمقطما
ربـوع خير طـالما ... أسـدت إلي أنعما
مصر وأيـام الشبـا ... ب الغـض مـن لي بهما
للـه محبـوب رأي ... حبـة قلبي فـرمى
أعيـذه مـن جـائر ... حكمتـه فـاحتكما
مـررت بـالحي ضحى ... أروض مهـرا أدهما
مـرتـديـا من الشبـا ... ب ضـافيـا منمنما
لقيتـه في أربـع ... بيـض كـأمثـال الـدمى
شـابَهْن ازهـار الـربيـ ... ـع وحكين الأنجما

قولـه " صيرت عن كره " أي غير اختيـار لا يعني عن بغض ، وقد عـرضت في " ذكرى صديقين "[1] لهذه الأبيات ثم قلت : " ورب آخذ على العباسي قوله :

صيرت عن كـره قـرى السـ ... ـودان لي مخيما

ولا آخـذه عليـه فان قلب الشعـر كما وصفـه أبـو الطيب ــ وهذا من آيـات الصـدق والصفاء . الإشارة إلى قوله :

وبي مـا يـذود الشعـر عني أقلـه ... ولكن قلبي يـابنـة القـوم قلب

هذا ، والاستاذ محمد عبد القـادر كرف(١٩١٢ـ١٩٨٩م)ممن ينبغي التنبيه على مكانه في الرصانـة وكان معاصرا للتجاني يوسف بشير رحمهما الله من أديبين كبيرين وقـرينا له

(١) ذكرى صديقين، صدر سنة ١٤٠٨هـ=١٩٨٧م، الطليعة، الكويت انظر ص ١٤

في درس جامع أم درمان وصديقا وشاعرا موهوبا مثله مؤثرا للجزالة شديد الأسر وكان عالما ومعلما محسنا متقنا وجميل الخط اريحي النفس كريم الخلق جوادا برا بالاقربين والإخوان نزيها محبوبا عز فقده وقل في الناس نده توفى رحمه الله يوم ١٣ من المحرم سنة ١٤١٠هـ=١٥ من أغسطس ١٩٨٩ م .

كتب الى منذ تسعة عشر عاما قصيدة من المتقارب إخوانية نونية علائية رنة الروى أثبتها ههنا كما جاءني نصها البديع البارع منه الى الأخ الفذ حامل لواء الفصحى وصاحب المرشد الدكتورعبدالله الطيب أقدم هذه القافية العسية له ولمن أحبه وعرف قدره .

عطفت فلم ألو عنك الأعنة ... وكم لى من حنة بعد حنة

وعجت ومن لوعتي مزهر ... له نبرات القوافي المرنة

وهشت لي الدار واستبشرت ... مقاصيرها والرياض المغنة

واذ جئتها خلتني مذنبا ... صليت بنار وبدلت جنة

وكائن دلفت إلى ظلة ... لديها وروض انيق وكنة

وقد وشت الجدر المشرقات ... بنان قريز لدا وهي المفنة

وقد اشربت من ضروب الوفا ... ء حتى غدت وهي أخت وحنة

تبادر ما أوجبته الحقوق ... عليها وتلزم ما العرف سنه

ولم نلق الا الندى عندها ... والا فتى آثر الدهر فنه

اقام على الجد لا ينثني ... ومن قدم جنب اللهو سنه

وشتان ما واهن عزمه ... وذو ثقة واعتزام ومنة

وأتحفنا وهو طلق الجبين ... بما ليس تلفيه إلا لدنه[1]

وعندي لك الود أخلصته ... نقيا وناهيك ما القلب كنه

(١) بضم الدال وتشديد النون لغة في لدنه بتسكينها كما يجوز تسكين الدال واعراب النون في غير هذا الموضع .

وانك دهقان هذا القريض ... سبقت الندامى وافرغت دنه
لصدرك زمزمة تستجيب ... الى جرسه أو بغام وغنة
وكالشنفري اذ يرود الشعاف ... وإذ هو حلس لكهف اجنه
وفي النفس شنشنة من عكاظ ... ومن ذى المجاز ومن ذى المجنة
نثرت فجاوزت شأو البيان ... ولم تأت قافية ذات ظنة
وجاهدت في الله لا في الطماع ... وذلك فضل حباه ومنه
وطاعنت حتى انزوى الأرذلون ... وبوأتهم من بوار أكنة
وأرزمت تخطف ألبابهم ... كما ترزم الغيمة المرجحنة
وظن امرؤ السوء أن يدعى ... عليك الشنار فكذبت ظنه
الى أن غدوت وأنت الفرند ... له فوق هام الأعادي دنة
وأنت المجلى اذا أخرت ... هوادى الفحول الخناذيذ عنه[2]
وما إن ينوشك سهم الدعي ... ودونك من عصمة الله جنة
ألا حي بالشاطىء الدامرى ... ربوعا على حجره مطمئنة[3]
بني نقر اذ هم المتقون ... واذ دأبهم في كتاب وسنة[4]
اذا أطفأ الدهر نار القرى ... فنار المجاذيب نار مبنة
وما ضنكت أو عفا قدرها ... اذا ألف النكس لوما وضنة
وتالين من حولها يجأرون ... لهم أرج مستطاب وبنة
وحي أخا الرشد واصدح له ... بقافية ذات ردف ضفنة
وقل للفتى العبقري السما ... ت وابن الثقات وعلق المضنه
تولت سني الصبا الحافلات ... ولم تبق الا العجاف المسنة[5]
فليتن في النعف نعف الرباب ... وفي كاهلي فضل حبل وشنة[6]

(١ بتشديد النون ـ لغة
(٢) نسبة الى الدامر بلدنا
(٣) بنو نقر من قبيلة المجاذيب ومنهم الشاعر محمد المهدي مجذوب رحمه الله نصب بني نقر بفعل محذوف أي اذكرهم والاشارة الى الشاعر محمد المهدي رحمه الله وديوان شعره الأول نار المجاذيب .
(٤ سني بتشديد الياء مفتوحة أي سنوات عمري أنا والصبا عطف بيان وقال أيضا (سنين الصبا) مضاف ومضاف اليه والنون ثابتة ، كلاهما قاله رحمه الله .
(٥)الرباب بكسر الراء قبائل من العرب معروفة ونعف الرباب موضع والنعف أصله جزء من الجبل .

أصادي النجوم فإما خبت   غمست لها أعيني في الدجنة
طليق الجناحين أغشى الوهاد   وأعلو الذرى قنة بعد قنة
وألقاك في زمر الأولين   على شارف أو قلوص زفنة[٧] [١]
وتختال تحتي ذات البغام   لها خطرات وللنسع أنة
ونضرب في التيه لا نرعوي   جموحا ونصحب في الدو جنة[٨] [٢]
أو أني ذو صولة فاتك   أغير وحولي الطبول المطنة
ودوني من خثعم فيلق   يغمغم تحت الظبا والأسنة
فذرني والمقرفين الغواة   أولى الضغن و الفتكات المجنة[٩] [٣]
عسى الدهر يحسر من كيدهم   ويفلق هام العبدى الأقنة
فأوجههم كالحات قباح   وأبدانهم منتنات مصنة
وإنهم مذ أصابوا الحياة   خساس النفوس ومذ هم أجنة
وأنهم قذر لو دنت   أكفهم من طعام تسنه

محمد عبدالقادر كرف

العاشر من ذي الحجة ١٣٩١هـ

السادس والعشرين من يناير١٩٧٢م

هذا والعلامات المشروح عليها الهامش من صنع مؤلف هذا الكتاب

وجلي واضح ما في هذه القصيدة من برهان واضح على ما أوتى صاحبها من الفصاحة وقوةالشاعرية وسحر البيان. قوله « وقد وشت الجدر المشرقات» يمدح به لوحات رسم السيدة قريزلدا زوج المؤلف، وقوله « ودوني من خثعم فيلق » يشير به إلى أصول نسبه في شرق السودان بأقطار جبال البحر الأحمر وسواكن وما بين شاطىء البحر الأحمر الغربي والشرقي من شوابك الأرحام والنسب نبه عليه من قبل الرحالة ابن بطوطة في صفة رحلته إذ زار ذلك الإقليم في المائة التاسعة. وصفة الشنفرى التى وصف بها نفسه فيها شبه شديد بما عليه مظهر فتيان البجاة أهل الحروب، قال:

ويوم من الشعري يذوب لوابه   أفاعيه في رمضائه تتململ
نصبت له وجهى ولا كن دونه   ولا ستر إلا الأتحمى المرعبل
وضاف إذا هبت له الريح طيرت   لبائد من أعطافه ما ترجل
بعيد بمس الدهن والفلى عهده   له عبس عاف من الغسل محول

(١) الشارف من الابل كبيرة والقلوص شابة.
(٢) الدو: الصحراء.
(٣) المجنة بضم الميم وفتح الجيم أي الخفية.

هـذا وكنت وعـدت نفسى أن أجيب الأستاذ كـرفـا رحمه اللـه بكلمة على روى كلمتـه ووزنها. أردت شيئا شبيها بما صنعـه أبو العلاء حين وافته قصيدة لأحـد معاصريه من الشرفاء أهداها إليه مطلعها:

غير مستحسن وداد الغـــوانـي   بعـــد سبعين حجـــة وثمان

فأجاب أبو العلاء بالكلمة السقطية المشهورة:

علـــلانـي فإن بيـض الأمــــاني   فنيت والظـــلام ليس بفـــاني

عنى ظلام عينيه وظلام الزمان حوله بالفتن والحروب وقال فيها:

قــد أجبنــا لفـظ الشريف بلفظ   وأثبنـــا الحصى من المرجـــان

أى بدلا من المرجان وفي مكانه. ولعمري لقد كانت أبيات المعري من نفس المرجان لا بدلا منه، ولم أكن أشك أن نونية كرف رحمه الله

عطفت فلـم ألــو عنك الأعنــة   وكم لى مـن حنـة بعــد حنــة

هى المرجان. وكأن قد خشيت أن تكون الإجابة عنها بمعارضة لها في البحر والروى إنما ذلك حصى. فأخـرنى هـذا التهيب عن المسـارعـة بجـوابها. ثم إن السنين تعـاقبت وتعـرضت للنونيـة المذكورة بإلماع وحسن ثنـاء في ذكرى صـديقين[1] وتحدثت عنهـا من مذيـاع أم درمان وعلمت أن ذلك وقع من الأستاذ كـرف رحمه الله موقعـا حسنا وكنت أزوره من حين الى حين فعقدت العزم أن أنظم نونية جوابه حصى أو مرجانا وإذا بالمنية تبادر إليه. ناداني أستاذ العربية الـدكتور بابكر دشين وأنا أجتاز بعض الطريق فقص على النبأ الحزين. لكل أجـل كتـاب، وإذا بهذه المرثيـة تنثـال على مع الـدمــوع:-

سقت قبرك الـــديمـــة المرجحنـــة   يـــاكـــرف الخير والموت سنـــة
وأسكنك اللــــه دار المقـــامــــ   ــة تـــرضى بها نفسـك المطمئنـــة
كما لغـــة للكتـــاب العـــزيـــز   عـــراهـــا بـــدرسـك وثقتهنـــه
وتصبر حتى عقـــول التـــلاميـــ   ـــذ بـــالفهم تلفى إليهـــا ركنـــه
وقـــد كنت في الشعـر تعطى الغـــريب   معـــانيـــه واضحـــا شرحهنـــة
وتنشـــــده عـــربي السليقــــ   ـــة والصـــوت ذو نبرات وغنـــة
بهيـــا بـــه وشجيـــا بـــه   وأشجـــانـــه عن ســـواه شجنـــه[2]

(١) نفسه ص٢١
(٢) أي أحزان الشعر قد حبسته عن كل شيء سواه - شجنته عنه (من باب نصر)

وتكتبـــه مثل خط ابـن مقلـــــ ـــة تشرق أسطـــار نسخ ضمنـــه
وللنحـــو عنـــدك إتقـــانـــه اذا مـــا البـــديهيـات فيـــه امتحنـــه
وتحفـظ آي الكتـــــاب الحكيـم وفيـك مع الحفـظ تجويـــدهنـــه
وفقـــه المشـــايخ أحـــرزتـــه وتلك المتـــون تـــدبـــرتهنـــه[٣]
ومع عـــزة النفس فيك القنـــاعـــ ـــة إن القنـــاعـــة كَنْـــزٌ وَجُنَّـــة
وذاك بـــلا كلفـــة منـك تأتيــــ ـــــه إن التكلف لا أحمدنـــــه[٤]
ومـن تخذ الكبر سمتـــا فـــرب عـــزيـــز بكبر خطـــوب أهنـــه
وكنت امـرأ صـدره قـد حـوى الــ ـــعلوم وحـــاز مـن الشعـــر فنّـــه
وصنـــو التجـــاني ديبـــاجـــة معـــا لكما القـــول مـــرخى الأعنـــة
وشرفتما قـــومنـــا بـــالبيـــا ن الـــذي ليس فيـــه عيـــوب يشنـــه
وخلـــدتما معهـــدا ســـوحـــه بـــذكـــر كماخـــالـــد ذكـــرهنـــه[٥]
وهبت الفصـــاحـــة ثم البـــديـــ ـــع أبيـــاتـــه الغـــر حبرتهنـــه
وأغـــراض شعـــر الـــزمـــان الحديث تنـــاولتهـــا بضروب رصنـــه[٦]
أسيت لفقـــــدك كنت امـــــرأ صحيح المودة مـــا فيـــه ظنـــة
وكـم من سجيـــة بـــر لـــه وكم مـن عطـــاء لـــه لم يمنـــه
وقـــد ذقـت في دارك الطيبـــات وشـــاهـــدت مـن فضلك الجم قنـــة[٧]
وألفيـت فيـك الأديـب اللبيـــــ ـــب الـــذي ليس كالضعفـاء الأظنـة[٨]
ومن قلبـــه فيـــه ضـــوء البصير ة ذرهـم قلـــوبهم في أكنـــة
عـــرفتك في عنفـــوان الشبـــا ب والضـــاد عنـــدي علق المضنـــة
إذ الحرب نيرانها مشعـــــلات وهتلـــر غـــاراتـــه شنهنـــه
وإذ وضعت حـــرب أهـل الصليـــ ـــب أوزارهـــا المشرعـــات الأسنـــة[٩]
وأعجبنـــى منـــك حـــب الأصيـــل وعبـك من منطـق العـــرب دنـــه
كأن العنطنطـــة العنس بـــالـــد و تحتك بـــارت زفـــوفـــا زفنـــة[١٠]

(٣) أي متون العلوم كألفية ابن مالك ومختصر خليل والشاطبية وجوهرة التوحيد والخريدة

(٤) أي لا أحمدنه والنون للتوكيد قال تعالى « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » أي لا تصيبهم

(٥) هو المعهد العلمي بأم درمان ومنه تخرج الأستاذ كرف وفيه درس الأستاذ التجانى يوسف بشير رحمهما الله تعالى. ولدا كلاهما في سنة ١٩١٢ وتوفي التجاني سنة ١٩٣٧م.

(٦) أي بأنواع ذات رصانة والها للسكت.

(٧) قنه أي ذروة وقمة عالية.

(٨) الأظنة جمع الظنين أي المتهم.

(٩) كان ذلك سنة ١٩٤٥م لما استسلمت ألمانيا بلا قيد ولا شرط.

(١٠) العنطنطة من غريب الحديث أي الناقة الشابة الجيدة الخلق وتوصف المرأة الشابة كـذلك، العنس القوية. والدو الصحراء. الزفوف الناقة التى تتبختر في مشيها وكذلك الزفنة وزفوف من كلمات معلقة الحارث اليشكرى.

كأنك بــالنعـف نعف الـــربـــاب ولم تلـف ثم الضعيـف الضفنـــة(١١)

ولم تفـــد رجليك يـــوم الكـــلاب بأميـك والجرى حـاذى حــذنــة(١٢)

نبـــذت جـــوار الـــدنيـــة نبـــذا كنبـــذ أبي بكـــر ابن الـــدغنـة(١٣)

ونبــــذ ابن مظعــــون ابـن المغير ة لا يبتغى لســـوى اللـــه منـــة(١٤)

وجنـــــات روض السهيلي ردت وروضـات جنـات اخـرى كهنـه(١٥)

ورمت الـــوجـادات في الخرد العيـــ ـــن أي عين نشـــوان إذ هن عنـه(١٦)

وشيـخ أبي روف الطيـب الفــــــ ـــد والشرد الحوش ممـــا فتنـــه(١٧)

أجلك قـــد كـــان دأبـــا لـــه ويقـــرع غيرك إن زار سنــــه(١٨)

تـــذكـــرت لما دعـــانـــا معـــا ومجلســـــه ذاك لا أنسينــــــه

تهلـل منبلجـــا كـــالغمامـــا ت بـــرق الخريف سرى بينهنـــه

وكـــان جميـل المحيـــا نبيـــلا لـــه لمم كيـــزيـــد يـــزنـــه(١٩)

ولحيتـــــه كثـــــة زانـت الخـ ـــد والأنف يـاشـــؤم يـــوم أطنـــه

ومـــا كـــان بعـــد بنـى قصره ولكـن لـــــه دار طين زونـــــة

وكـل المســـاكـن فى أم درمـــا ن كن مـــداميك طين يطنـــه(٢٠)

(١١) الضفنه بـوزن فعلة : أي الضعيف الاحمق ـ هـو ضفن بكسر الضاد وفتح الفاء وتشديـد النون مفتوحـه وهى صفـه وهنا للمبالغة .

(١٢) هنا اشارة لقول الحارث بن وعلة الجرمى :

فـــــدى لكما رجلى أمـي وخـــــالتي غـــــداة الكـــلاب إذ تحز الـــــدوابـــــر

كأنـــا وقـــد حـــالـت حـــذنـــة دوننـــا نعـــام تـــلاه فـــارس متـــواتـــر

وانظر القصيدة (٣٢) من المفضليات البيت الأول والبيت الرابع وخبر القصيدة في الشرح .

(١٣) بتنوين راء أبي بكـر وهو الصـديق رضي الله عنـه رد على ابن الدغنـه بضم الدال والغين مضمـومة مشـددة ونون مفتوحة مشددة .

(١٤) هو عثمان بن مظعون رضي الله عنه رد جوار الوليد بن المغيرة وصبر للأذى .

(١٥) الروض الأنف للسهيلي كهنه أي مثلهنه والهاء للسكت وتاء جنات منونة وهمزة أخرى منقولة .

(١٦) الوجادات العلوم والنفائس منها ، الخرد العين الكتب ولنشوان بن سعيد كتاب اسمه الحور العين أراد الكتب ، عنه من عانه يعينه اذا نظر اليه .

(١٧) هو الشيخ الطيب السراج رحمه الله وأبوروف حي بأم درمان .

(١٨) سنه مفعول ليقرع الرباعي .

(١٩) هو يزيد بن الطثرية الشاعر .

(٢٠) أي يصنعن طينا من مداميك طين جمع مدماك والكلمة معروفة فصيحة بكسر الميم وفي العامية بضمها . زونة بكسر ففتح فنون مشددة مفتوحة أي قصيرة حسنة .

وفي جـــانب الحوش كـــانت لــــه | من الشعـــر خيمــة بـــدو وشنــة[٢١]
ويـــا ربها ارتبط الصــافنـــات | وسيف لـــه وسنـــان أسنـــة[٢٢]
وقـــد كـــان يلبس زيـــا سريـــا | يسر العيـــون اذا مـــا شفنـــه[٢٣]
ومـــدت سماطـــا لنـــا أريحيـــ | ـــته بجفـــان مـــلاء مفنـــة
وأنشـــدنـــا كلمات حســـانـــا | رصـــانـــا بـــوشي بـــديع وزنـــه[٢٤]
ولحن طـــويس بها بـــال هـمـ | ـــك أنشـده يـا طـويس تغنـه[٢٥]
وجـــاذبنـــا من كـــلام الأوائـ | ـــل أخبـار إنس وأخبـار جنـة
وأمـــر الخلافـــة والأمـــر من بعـــ | ـــد حين العصـائب للملك دنـه[٢٦]
وأنشـــدتـــه أنـــا بـــائيـــة | فَسرَّ وَهَـمَّ لبيت بـــزنـــة[٢٧]
وعنـــدك نصر لما قلتـــه | شـــواهـــد في ابـن عقيل مبنـــة
ويـــا نعم ســـاعـــات ذاك اللقـــاء | ويـــا طيبهـن ويـــا حسنهنـــه
ظللنـــا نسـاقى , ســـلاف القـريـــ | ـــض , صرفا وكـاسـاتـه ما صبنـه[٢٨]
لـــدن غـــدوة ذاك حتـى دنـــا الـــ | ـــعشاء واذان بـــر اذنـــه[٢٩]
ومـــا زالت النـاس عنـد السـذاجــ | ـــة عـــاداتها فيهـم لم يخنـــه
ولم تكـن اللغـــة المجتبـــاة | تصـــدت لها شبهـــات رطنـــه
وكيـــد الشعـــوبيـــة المحـــدثين | أولاك أولـــو عتكـــات مصنـــة[٣٠]

(٢١) شنة: قربة بفتح الشين.
(٢٢) كان له فرسان ماتا فرثاهما فقال:

فـــرســـان مـــاتـــا للفتـى السراج | من شـــدة الإبكـــار والادلاج
كـــانـــا لـــه حصنـــا حصينـــا مثلما | سكـن السمـــوأل شـــامخ الأبـــراج

(٢٣) شفنه أي نظرن بطرف العين والهاء للسكت.
(٢٤) بديع بالتنوين وبالاضافة اذ كان رحمه الله يحب البديع.
(٢٥) اشارة الى خبر الأغاني لطويس حيث تغنى:

مـــا بـــال همك ليس عنك بعـــازب | يمـــري ســـوابق دمعك المتســـاكب

يا طويس لك تنوينها
(٢٦) دنه: أي خضعت - دانت
(٢٧) بزنة باتهام وعيب وذلك أنني أنشدت: لهم شرف عالي الذرا والمناكب فذكر الشيخ الطيب أن المناكب ضخمة لا عالية وقال كرف (رحمهما الله) هذا مثل وزججن الحواجب والعيونا وهو من الشواهد فقبل الشيخ ذلك.
(٢٨) لم تصرف عنا.
(٢٩) أذنه أي أذنت اليه أي سمعته
(٣٠) عتكات: أرجاس وسخ ذات صنان.

أولاك هم المقـــرفـــون الغــــواة ... أولـــو الضغن والفتكـــات المجنــة[٣١]

وتلك لقــــاءات فكــــر وذكـــــر ... سعــــدت بها في فـــؤادي خـــزنـــه

عــــرفتك في فتيــــة كــــالنجــــوم ... وكـــانْ سنـــاك يضـيء الـــدجنــة

نعـــــاك الي صـــــديق حبيب ... درى أنْ قلبـي لك الحب كنـــــه[٣٢]

رءاني أبــــادر عــــرض الطــــريق ... مغـــــــذا فألمع لي أن تـأنـــــه

نعــــــــــاه الي فللنبـــإ المـ ... ـــر أحسست أغـوار قلبي حـــزنـه

لقـــد كنت أنـــوي زيـــارتـه أمــ ... ـــس حنت اليـــه من النفس حنــة

سبقت إليـــــه . قضـــــاء المهيمـــ ... ــن يمضي ونحن العبيــد الأقنــة[٣٣]

وفي عـــــالم الــــذر كـــــان الكتـــا ... ب من قبـل أن في البطــون الأجنـــة

تــذكــرت إنشـــاده الشعـــر حتى ... لـــه في الشغــــاف من القلب رنـــة

اذا أنشــــد الشعــــر ألفيتـــــه ... تكشـف أسراره المستكنـــــــــة[٣٤]

لمعـــرفــــة عنـــده بـــالبيـــان ... اذا مـــا خفـــايـــاه لم يستبنـــه

أسيت على فقـــــده إنــــــه ... لقـــد كـــان ريحانـــة ذات بنـــة[٣٥]

ومــــات ومـــا قـــدرتـــه بـــلاد ... كم العبقـــريـــات فيهـــا دفنـــه

وكـم من نفـــوس وهـن النفيســـا ... ت فيهـــا لعمـــرى غبنـــا غبنـــه

---

(٣١) مجنة بضم الميم أي مستورة مخفية للاغتيال وهذا من نصف بيت للفقيد رحمه الله بل أكثر من نصفه وهو قوله:

فـــــذرني والمقـــــرفين الغـــــواة ... أولي الضغـن والفتكـــــات المجنـــــه

(٣٢) كنه وأكنه أي أخفاه وحفظه.

(٣٣) الأقنة أي لهم قدم في العبودية، وعبد قن أي قديم العبودية ورثه عن آبائه.

(٣٤) تكشف: أي تتكشف بحذف التاء الأولى.

(٣٥) بنة أي رائحة فائحة والكلمة معروفة في عاميتنا واشتقاق لفظ البن الذي يصنع منه القهوة من هذا الأصل لأن رائحته تفوح.

أخي هاك مني هذى الدموع دموعي هذى القوافي المرنة
لمثلك فلتنح الباكيات بأدمعهن غزارا هتنه
وكم لك عندي من عهد ود وكم لك من ذكريات يصنه
ونونية لك طوقتنيها لشدتها الجزلة الأسر طنة
فهذا جوابي ولكن عدت سماعك أقضية قد أحنه [36]
سقت قبرك الديمة المرجحنة وأسكنك الله في الخلد جنة [37]*

(٣٦) أي أحانها الله وقضاها.

(٣٧) المرجحنة: الثقيلة الممطرة.

* العلامات والشروح من عمل المؤلف.

رحم الله كرفا فقد كان شاعرا فحلا

ولمحمد المهدى مجذوب رحمه الله تعالى (١٩١٨ ـ ١٩٨٢) قصيدة بعنوان "اللغة حجاب[١]" نوردها هنا كاملة لأنها تتناول موقفا له بها نال من ثقافة عصرية من درسه الانجليزية والمنهج الحديث في المدارس العصرية إلى كلية غوردون وقد كان والده الأستاذ محمد مجذوب جلال الدين من كبار أساتذة العربية فيها، وبها نشأ عليه من ثقافة دينية عربية عريقة في أهل بيته ـ قال:

سئمت من لغة الإعراب قيدني ... فيها بياني من حفظ وإملاء[٢]

لم يشفها الزيت غرافا وما برحت ... تذري المدامع في أطلال أسماء[٣]

أرح قوافلها الحسرى بمنزلة ... لا في الجزيرة أو في تيه سيناء

جرحي ينوح وراء الروح منتظرا ... إطلاق نفسي من أمسي وإبرائي

أشتاق صوتي لا ما كنت آخذه ... من صوت غيري لا يدري بأنبائي[٤]

اجهر بنفسك وانفض ما شعرت به ... ولا تبال بأفعال وأسماء

واسمع بسمعك صوتا تستريح له ... كما تبسم وجه البدر في الماء

هل يمسك الشعر ميزان يكيل به ... مقلدون بلا وحي وإصغاء

مضى ابن أحمد محمودا ومن ورثوا ... أوزانه الآن مثلي غير أكفاء[٥]

سمى البحور تعالى البحر عن صفة ... وعن قواف تحاكي عى فأفاء

حتام أذهل في آثار شاردة ... وكيف أعقد آفاقا بإرشاء

إني وثبت مع العميان أحسبني ... لا أستقر على أحضان ظلماء

(١) ديوانه «تلك الأشياء»، بيروت، ١٩٨١ ص٢٨٢.

(٢) الإعراب بكسر الهمزة وفي الديوان الهمزة فوق الألف وهو خطأ مطبعي.

(٣) غرافا بالغين المعجمة ولو كانت بالمهملة لكان المعنى أيضا مستقيما كقول عروة بن حزام.

جعلت لعراف اليمامة حكمه ... وعراف نجد ان هما شفياني

ولو كان الشاعر رحمه الله أراد المهملة لكان قد جعل القافية عفراء مكان أسماء لانها صاحبة عروة.

(٤) أشتاق لازم ومتعد، اشتقت الشيء والى الشيء.

(٥) أكفاء أي نظراء أهل لأن يكونوا ازواجا للأوزان وايقاعها وكفء مثلثة الكاف وبضمها وكأمير وسفينة وكساء، ذكر ذلك في هامش القاموس وقريب منه في تفسير سورة الاخلاص عند الطبري.

نـاد العبيـد عبيـد الشعـر هل حصـدوا … إلا نـــدامـــة مـــداح وهجــــاء [1]
يلقى الــــربيع روايــــات وعنعنــــة … عميــــاء تسأل في آثـــار عنقــــاء [2]
هـــومير ينشـــد مسحـــورا مـــلاحمه … وينشـــدون مـــديح الإبل والشــــاء
من مغرب الشمس جاء الصبح منطلقا … يمسى مضيئــــا ومــا يسعى لإمســــاء
يحيـا بـه النـاس أفـراحـا سـواسيـة … كأســــا بكـأس وإغــــراء بإغــــراء
يعبرون كما شــاؤوا ومــا عــرفــوا … متنــــــا يعـــــالـج أدواء بـأدواء
أتعــرف الشرق كــان الشرق في بلــد … قــــد استراح إلى يـأس وإرجــــاء
خــان الحضــارة في صفين من بخلــوا … على ابن فــاطمــة الــزهــراء بـالماء
أم أنت تسخـــر مني ليس في وتـــري … إلا قـــوافل أوزان وضـــوضـــاء
هـــون عليـك جـزاك اللـــه صـالحة … إن بـت أتبع إقـــواء بـإيطـــــاء
أزريت بـالشعـر والفصحـى مقـدسـة … فـــاحمل على ومــا يعــدوك إزرائي [3]
أمـا سمعـت بعبـدان العصـا طـربـوا … لما أخل عبيـــد الشيخ بـــالبـــاء
أصـابـــر اللـــوم أحيـانـــا وأغفـره … ولا أنــــام على هـــون وإغضــــاء
هــاتـوا ابن أحمد تـرضيني حكـومتـه … إذا تملأ مـن نقلي وصهبـــــــائي [4]
يطـــوى الموازين في بغـــداد منتجعـــا … بـــاريس عـــالم إيقـــاع وأزيـــاء
تنسيـه صيحتـه في البئـر قيـدهـا … في دفتر نـــدب الأطـــلال بكــــاء

(١) عبيد الشعر زهير والنابغة والحطيئة ومن تبع طريقتهم وله أيضا دلالة عامة.
(٢) العنقاء طائر خرافي، ويشير الشاعر هنا إلى سؤال الشعراء الأطلال، يسألونها عن أمر مبهم مستحيل كالعنقاء.
(٣) لك أن تجعل والفصحى مقدسة جملة معترضة أو تعطف وتجعل مقدسة حالا منصوبة وأزريت الضمير تاء الفاعل، أي احمل على أيها المعتقد أني أسأت إلى الفصحى وتكون قد أنتقمت لها ولم يقع الإزراء عليها ولكن عليك.
(٤) ابن أحمد عنى به الخليل (١٦٠هـ).

بيكـــاس جـــرد أشكـــالا حقيقتـــه لم يخفهـــا بين أظـــلال وأضـــواء [1]
يـــرنـــو ويخرج في عينيـــه من أبـــد كـــالموميـــات بألـــوان وأصـــداء
كم شق نفســا كســاهــا لحم لــذتــه بها يعـــود إلى بـــوح وإفضـــاء
إن كانت اللغـة الفصحى فهل سمعت سحـــر الطبيعـــة من صمت وإيماء
ضحكت منطلق الأنفـــاس مبتهجـا مـع الحيـــاة أحبتني وأهـــوائي
سكـرت حبـا على صحـو يـلازمني في ظلمـــة الخمـــر حب غير نســاء
أصــارع الشعـــر كي تبـدو حقيقتـه فيهـــا حقيقـة ميــلادي وإنشــائي
قيـــد بنفسي لا أنفـك أضربـــه حتـى أســالم في جنبـى أعـــدائي
نشأت في اللغـــة الفصحى مقـدسـة حتى اكتهلت ومــا فــارقت صحــرائي
أتعـــرف العـــرب الأمجاد في بلـــد فيـــه تحطـم معـــراجـي وإسرائي

نسج هذه القصـدة متين محكم، وقال شـاعرها يخاطب نفسـه بثورة العصر على قيود اللغة وإعرابها "ولا تبال بأفعال وأسماء" وقد بالى هو بذلك فقوله «أشتاق صوتي» أدق تعبيرا مما لـو قـال «أشتـاق إلى صـوتي» وكـلا الـوجهين صحيح والتمييـز بين الصحيحين أدخل في ملكة البيان. ولله المثل الأعلى، جاء بالفعلين مضارعـا وماضيا في سورة الكهف (اسطاع واستطاع) قـال تعالى: «ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا» وهـذا يتضمن معنى إشارة الخضر عليـه السلام إلى مـا كان من عجلـة موسى علـيه السلام ـ لم تسطع تتضمن معنى العجلة عن تـريث للصبر حتى يتبين ما هناك. وقال تعالى: «فما اسطاعـوا أن يظهروه وما استطاعـوا له نقبا» فالظهـور ومحاولة الصعود، في ذلك تعجل يتضمنـه معنى التعبير بـ (اسطـاعوا) والنقب ومـا فيه من أداة وعمل فيـه بطء يتضمنه معنى التعبير بـ (استطاعوا) ـ والله تعالى أعلم نعوذ به أن نقول في كتابه بما لا نعلم.

وقال شاعرنا «وعن قواف تحاكي عى فأفاء» يعتذر عن التزامه القافية وكأن تكرار الـروى برتـابتـه فيها فـأفأة من غير فصيح اللسان. وهـذا النعت صحيح حين تكـون القافيـة مغتصبة متكلفـة وإيقاع الشعـر غير رنان. وهنـا تواضع تـواضع به كـالمعتذر للخليل أن نظامه المحكم نعجـز عنه الآن ونضعف عنه. سمى الوزن بحـرا لأنه عنده ذو سعة ممتدة النغم، ونحن إنما نـدركه الآن بتضييق مجاله في حدود وصفنا لـه بالأوتاد

(1) أي بيكاسو الفنان المعروف.

والأسباب والفواصل والأعاريض والضروب. ونحن الذين ورثنا أوزانه غير أكفاء لهن، ومن شواهد انعدام الكفاءة[1] بيننا وبينها أننا نتصيد القوافي، نذهل عن المعنى وعن أنفسنا في طلب قافية شاردة شرود ـ شاردة إذ كلما طلبناها أمعنت في الفرار، شرود أي جيدة، إذ كذلك نريدها، فلا نظفر بها إلا ضعيفة، ذلك بأن إيقاع بحر الشعر واسع كالبحر وآفاقه ونحن نمد بحبال تصيدنا نريد أن نعقد الأفق البعيد بقافية. الكلمة التي في آخر البيت «نعقد آفاقا بإرشاء» كلمة إرشاء، مصدر بكسر أولها الرباعي أرشى الدلو يرشيها أي جعل لها رشاء بكسر الراء وهو حبل البئر والجمع أرشية وفي طبع الديوان خطأ، إذ الهمزة تحت الألف دالة على الكسرة وقد طبعت فوق الألف في الديوان.

وزعم شاعرنا لنفسه أنه يتبع "إقواء بإيطاء" وقد مر تعريف الإقواء والإيطاء في الجزء الأول من هذا الكتاب، وليس في هذه القصيدة إيطاء أو إقواء. قوله "في أطلال أسماء" وبعده بثلاثة أبيات «بأفعال وأسماء» ليس بإيطاء لاختلاف الكلمتين معنى ولفظا، الأولى علم مؤنث أصله "وسماء" أي جميلة قلبت واوه ألفا والثانية جمع «اسم» وليس في القصيدة إقواء. قوله:

إلا قوافل أوزان وضوضاء

ان عطفت ضوضاء على قوافل رفعتها فكان هذا إقواء ولكن ضوضاء معطوفة على أوزان، وتوهم الشاعر الإقواء لأن ههنا إشارة إلى الحارث بن حلزة حيث قال:

أجمعــوا أمــرهم عشـــاء فلما	أصبحــوا أصبحت لهم ضــوضــاء
من منــاد ومن مجيب ومـن تصـــ	ـــهال خيل خــلال ذاك رغـــاء

وفي القصيدة بيت الإقواء المشهور الذي آخره «ملك المنذر بن ماء السماء» والروى كله مرفوع.

قول محمد المهدي رحمه الله: "أما سمعت بعبدان العصا البيت" ـ منع "عبيد" من الصرف جائز ويجوز أن يكون الشاعر قد نون اسم عبيد [هو عبيد بن الأبرص]

(١) أى الشبه والمناظرة والمكافأة التى تكون في الزواج مثلا.

وأدغم التنوين في الشين المشددة تبعا لقراءة أبي عمرو في «أهلك عادا الأولى» [عاد أولا][1] وبها قرأ المهدي رحمه الله في صباه.

المهدي في هذه القصيدة صاحب ثورة ومحافظة معا، وقد اجتهد في معاني الثورة ولكنه كأنه غيرمقتنع بصحتها كما هو مقتنع بالقيد والمحافظة. من أجل هذا في أداء الأجزاء الثائرة من القصيدة نوع من عناء فكري وغموض مع جهارة المنحى الخطابي ووضوحه. الشاعر مقدام جريء على التعبير الثوري، ولكنه في نفس الوقت فزع الروح من هذه الجراءة نفسها غير مقتنع حقا بها ـ خذ مثلا قوله :ـ

ناد العبيد عبيد الشعر هل حصدوا	إلا ندامة مداح وهجاء
يلقى الربيع روايات وعنعنة	عمياء تسأل في آثار عنقاء
هومير ينشد مسحورا ملاحمه	وينشدون مديح الإبل والشاء

هنا شيء من روح «عاج الشقى على رسم يسائله» وقد بينا أن هذا من مذهب الشعراء قديم ضجر قريب الأمد.

من مغرب الشمس جاء الصبح منطلقا	يمسي مضيئا وما يسعي لإمساء
يحيا به الناس أفراحا سواسية	كأسا بكأس وإغراء بإغراء

هل هنا إعجاب مفرط بأساليب الأدب وبالمدنية الحديثة والحضارة الغربية؟ نعم ولكنه إعجاب مشوب بخوف فقراء "الدامر" وعلماء الإسلام المغروس في النفوس منذ النشأة الأولى.

قال الفكي ود دوليب من علماء السودان في القرن التاسع عشر الميلادي (الثالث عشر الهجري) (٢)

واختلفوا في رابع القرون   هل ناقص أو كامل التكوين

أي هل تقوم الساعة في أوله وقبل أن يكتمل

(١) عاد الأولى قوم هود عليه السلام والآخرة قوم صالح عليه السلام ذكره في الجلالين وهذا مرتب على أنهم خلفوا عادا كما في سورة الأعراف. والله تعالى أعلم.

(٢) قصيدة "ود دوليب" مشهورة، والذي قرأناه منها على أنه هو هي في الصغر لم يبلغ عشرين بيتا، ثم قد وجدنا منها ما جاوز المائة ـ وداخلته تنبؤات سياسية، فهل ذلك من الأصل أو زيد فيه؟ بعضه زيد بلا ريب إذ ليست فيه روح أسلوب الشيخ وسمته رحمه الله تعالى.

ثم خروج الدابة الغريبة من الصفا بهيئة عجيبة

وهي المذكورة في سورة النمل «وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم»

ثم طلـــوع الشمس من مغـــربها صـــاعـــدة قـــاصـــدة مشرقهـــا

وقالـوا فى تفسير قوله تعالى: «هل ينظـرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض ءايـات ربك» [فى آخر سـورة الأنعـام] ـ قيـل طلوع الشمس من مغـربها وحين ذلك لا تقبل التوبة ممن لم يكن تاب من قبل.

كانت قصيدة " ود دوليب " يعرفها فقراء الدامر وغيرهم ويحفظها من يعقل من الصغار وتكتب فى الألواح أحيـانا. وفى وصف علامات السـاعة أن القرءان يـرفع من السطور ومن الصدور وأن الناس يعيشـون كالأنعام يأكلون ويشربـون ويتسافدون. أم ليس فى قول الشاعر: ـ

يحيـا بـه النـاس أفـراحـا سـواسيـة كأسـا بكـأس وإغـراء بإغـراء

بعض الإشارة إلى هـذا المعنى. هذه القبـلات العلانية فى السينما. هـذه المادية التى لا تهاب

يعبرون كما شـاؤوا ومـا عـرفـوا متنـا يعـالـج أدواء بـأدواء

داءالأنانية والمادية بخوف المجهول،

ثم خـروج الـدابـة الغـريبـة مـن الصفـا بهيئـة عجيبـة

هذا أحد المتون مما كان وما زالت تتداوى به البقية الباقية من تراث الفقراء.

هاهنا عند شاعرنا مع الإعجاب (يعبرون كما شاؤوا خوف الساعة وعلاماتها ـ تأمل قوله (وما يسعى لإمساء) لكفر هذا الغـرب لا ينتظر ظلام «إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت» وتأمل قـوله «وإغـراء بإغراء». هل الـدابة الغريبـة هى هذا النـاس بعد أن تمسخهم الماديـة قـردة وخنـازيـر ثم يقـع بهم الخسف، خسف بـالمشرق وخسف بالمغرب؟ حتى الغـربيون أنفسهم منهم من فزع من مادية حضارة عصره وسماهـا الدابة The Animal

والذى يـدلنا على فزع شـاعرنا من جـراءته وثـورته التى كأنها شعوبيـة يسارية الظـاهر التجاؤه إلى تراث العقيدة السنية القديم العميق:

أتعـرف الشرق كـان الشرق فى بلـد قـد استراح إلى يـأس وإرجـاء

الشرق الأولى هى العبارة المعاصرة التى يراد بها دار الإسلام كما مر فى شعر أحمد محرم والشرق الثانية بمعنى الشروق والضوء . جاء الصبح الآن من الغرب ولكنه من قبل كان هاهنا ونحن صرفناه عن دارنا يوم استرحنا إلى اليأس وفرضنا التحكيم على على وهو له كاره، ثم داهنا وأدهنا من بعده وصرنا مرجئين وأطلق العنان للدهاة وللملوك وللجبارين.

خان الحضارة فى صفين إلخ

أى صلة بين هذا وبين قضايا اللغة والشعر الحديث والثورة الجرئية اللسان ـ نعم الشك والفزع وجذور الإيمان التى فى الجنان

أم أنت تسخـــــــــر منى إلـخ

الشاعر يخاطب محافظه ثائره، الذى نسى العصر ودابته وثار مع عمار بن ياسر ومع الحسين بن على رضى الله عنهم ـ نعم "أنا" المحافظ أسخر منى أنا الثائر، والثائر المعترف فى بمحافظته يسخر من ذلك أيضا ـ وترى ما هو إلا تكرار للغناء القديم، قوافل الأوزان الخليلية التى تقف على الأطلال وتسائلها

هل غـــادر الشعـــراء مـن متردم

وعبدان العصا هم هذه الشراذم التى تطرب لتهديم الأوزان واضطرابها، هؤلاء هم عبيد العصا . "عبيد الشيخ" رمز به الشاعر لنفسه حين حاول التحرر من الوزن، مضطربا به عن عمد، كاضطراب عبيد بن الأبرص فى :

أقفـــر مـن أهلـــه ملحـــوب

هذا وفى الثلث الأخير من القصيدة يعرض الشاعر لثلاثة أغراض، أحدها بقية ثورة وتهييب ولا يخلو من غموض وهو قوله :

هـاتوا ابن أحمد تـرضينى حكـومتـه ... إذا تملأ مـن نقلى وصهبـــــــائى
يطـوى الموازين فى بغـداد منتجعـا ... بـاريس عـالم إيقـاع وأزيـاء
تنسيـه صيحتـه فى البئـر قيـدهـا ... فى دفتر نــدب الأطـلال بكـاء

وفى هذا نفس من مقاربة الشعوبية والثورة على قديم التراث باسم العصر الحديث . وفى قوله "حكومته" صدى من صفين وتحكيمها وفى خطب على وردت «الحكومة» بمعنى التحكيم وأراد شاعرنا : «يرضينى حكمه» ولكن بشرط أن يتملأ من فتنة العصر

الحديث ويطوى موازين عصر بغداد ـ إذ كان الخليل بالبصرة وكانت بغداد قصبة الدنيا آنئذ ـ منتجعا باريس بما فيها من فن وموسيقا واوبرا وترف مادى وأدبى. إذن لأنسته فتنتها عمل العروض واستعانته بسماع صدى صيحته فى البئر وتقييده ذلك فى الأعاريض

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
ماذا وقوفى على رسم عفا مخلولق دارس مستعجم
وهلم جرا

الغرض الثانى الاستدلال بثورة بيكاسو الفنان وتجديده، وزعم شاعرنا أنه كان ينظر ثم لا يجعل فنه بعد ذلك مستعبدا لقوانين الظلال والرؤية والضوء، بل يجرد انفعاله إزاء ما يرى فى هيئة أشكال، يحنط فيها أشباح لذته كما تحنط الموميات فهو بدلا من أن يرسم الجميلة بظلال وأضواء تبين ظاهر ملامحها، يشق هذا المنظر الجميل بمبضع تشريحى، فلا يبقى إلا الهيكل العظمى، فيكسو هذا الهيكل لحما مومياثيا معبرا عما أصاب هو من لذة. عمل وتعب تأوله الشاعر الرسام أنه هو مذهب بيكاسو. ولعل أمر ما صنعه بيكاسو لم يكن أكثر من محاولة يائسة للتجديد، إذ مع ما كان له من مهارة، قد سبقه الفنانون الأولون واللاحقون بهم من بعدهم، وكان يعلم فى نفسه تقصير ما يستطيعه من إبداع، أقصى ما كان يستطيعه من إبداع، عن مدي غوية (١٧٤٦ ـ ١٨٢٨م) والغريكو من فنانى قطره، بله من سبقوه فى عصر قريب من التأثيريين ومن إليهم ومن تقدمهم وهلم جرا.
ثم يقول المهدى رحمه الله:

إن كانت اللغة الفصحى فهل سمعت سحر الطبيعة من صمت وإيماء

هل ههنا يوازن الفنان المهدى بين مقدرة صاحب الريشة المصورة وصاحب القلم المبين، هل هو ثائر على أن ضحى الأول من نفسه هو من أجل الإخلاد إلى الثانى ـ التصوير حرام، والبيت الذى فيه الصور لا تدخله الملائكة، إلا أن يكون شىء غير ذى حيوية أو بمنزلة اللعب للأطفال كالخيل المجنحة التى ذكر بعض رواة الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رآها عند عائشة رضى الله عنها مرجعه من تبوك فقالت إنها خيل الملائكة؟

والغرض الثالث وهو ختام القصيدة وزبدة معناها، اعتراف صريح بتمرد على ما أحاط به من بيئة محافظة من نفسه ونشأته ولغته وثقافة آبائه الفقراء فقراء الدامر المجاذيب ومجدهم وأورادهم واحتفالهم بالمولد :

صلينا مشتاقين لسيد الكونين
صلينا مشتاقين لقرة العينين

وبرجبية المعراج :

ردف السلام للنبي الإمام
صاحب المقام يوم الازدحام
وجهه كالسراج نوره وهاج
ليلة المعراج كبروا له التاج

ومن أخريات نماذجهم وكبرياتها والده الأستاذ العلامة الحافظ الشاعر المثقف أستاذ العربية بكلية غوردون وقد تخرج منها من قبل فى أول دفعة كما تخرج ابنه هذا الشاعر من بعد، بارعا فى معارفها وفى اللغة الانجليزية وآدابها وأفنديا مبنطلا من صميم الجيل المتحرر الواعد الحديث .

ومع التمرد انتماء عميق وقيد بالانتماء عتيق :

ضحكت منطلق الأنفاس مبتهجا مع الحياة أحبتنى وأهوائى
سكرت حبا على صحو يلازمنى فى ظلمة الخمر حبا غير نساء

فى التعبير هنا عناء حبيبى المعدن . سكر الشاعر بحب العصر وفتنته ومع هذا السكر صحو ملازم هو الشعور بالانتماء والقديم ـ ولأمر ما حين شبه الشاعر افتتانه بحب التحرر الحديث بسكر الخمر ولذتها، جعل الخمر والسكر ظلمة ــ ولا يخفى أن الصحو الذى هو نور هو هذه المحافظة وهذا الانتماء .

أصارع الشعر كى تبدو حقيقته فيها حقيقة ميلادى وإنشائى

الرسم ذوبان فى فتنة العصر الحديث . الشعر يتيح لى عرض الصراع الذى فى نفسى بين الثورة والمحافظة . عدوى هذه الثورة وهى أنا . لابد من القيد لترويضها وتذليلها . أنا ابن اللغة الفصحى وقيودها . لعنة على هذه الحركات العربية الثورية التى تمزق عنى ثوب مجدى القديم . مجد فقرائى علماء السيرة أهل الأوراد والأذكار والإسراء والمعراج

قيــــد بنفسى لا أنفـك أضربــــه حتـى أســـالم فى جنبـى أعـــدائى
نشأت فى اللغــة الفصحى مقـدسـة حتى اكتهلت ومـا فـارقت صحــرائى

مقدسـة، لبدئهـا بحفظ القرآن وحرصهـا على قيم بلاغتـه. وما فـارقت صحرائي أى *بلدى الدامر التى وصفها* بوركهاردت وبروس وأعجبوا بما فيها من سخاء وعلم وفضل وشيم نبيلات

أتعـرف العــرب الأمجاد فى بلـد بــه تحطم معـــراجى وإسرائى

الأمجاد صفة للعرب أى هل تحس من عـربى ماجد في هذه العاصمة الكـافرة، فى هذا العصر الحديث؟

القصيدة رصينة ولكن انفعال عاطفة الشاعر فيها غير شاف لما خالطه من شك وتهيب وجسـارة يخالطها غمـوض. بهذا هـذه القصيـدة من أجود أنـواع التعبير عن مشكلـة العارف بهذه اللغة المتذوق لروائعها إزاء ما يحيط به من فتنة محاربتها والتنكر لأساليبها ـ هذا الذى قارب شاعرنا المهدى التصريح به فى قوله:

(أتعرف العرب الأمجاد إلـخ) قد صرح به تصريحا فيه حمية أهلـه الجعليين حيث قال فى قصيدة عنوانها «يوم الماهية»: (١)

وقفت إلى الصراف والـدين واقف بكشف كحبل البئر أهوى إلى الورد

(كان الناس إلى عهد قريب لا يعرفون الماء عندنا إلا من الآبار)

ســــلام على الصراف أضحى أصابعا تـراقـص بين الخضر والحمـر والــربـد

كان المهـدى محاسبا فنظره إلى الصراف عن مـراقبة عارفة والخضر أوراق الجنيـة والحمر والربد ما دونها إلى قطع البرونز

أوقـع فى كشـف المواهـى فليتهـم وقد نقدوا صانـوا حيائى من النقد

أى وقد أعطونى النقـد، والنقد الثانية أى الطعن والوخـز والعيب لأن فى فرض التوقيع نوعا من إذلال

أقلب أوراقـــا وصفـــرا وفضـــة أعـد فلـوسـى كم خسرن على العـد
صكـوك بلـونـاهـا طــويـلا وضيعت هـداى وسمانى أولـو الـرشـد بـالمهـدى
أكل غنـى بـــات فى النـــاس آمـــرا يجوز لـــه أكل الجهــود بــلا جهـــد
ورب جنيــــه بـــات عنـــدى أصره يطير إلى البنيـــان طـــاروا إلى الهنـــد

البنيان طائفة من الهندوس كان منهم بالسودان تجار كثيرون وما زالت منهم بقية ويظهر أن صلتهم بهذه البلاد ضاربة في القدم.

(١) تلك الأشياء ص ١٦٨ ـ ١٧١.

أجـــور ألفنـــاهـــا وورد مكـــــدر وحمد لــرب النـــاس أشبـه بـالجحـد
فليتن بعـت المش فى الحى كـــاسبـــا وأعليت من أطبـــاقـه شرف المجـــد
لأن الطبق لـه حافـة ناتئـة تظلل رأس من يحملـه وتبدو كأنها شرفـة بالنسبـة إلى جسم حاملها ـ فليتنى بتخفيف كسرة نون الوقاية بلا إتباع لها بياء المتكلم

عجبت لنفسى كيف أصبحت جالسا إلى مكتب أبلى حيـــاتـى بـــالجرد
وصـاحـوا أتـى الصراف أهـلا بطـائف يــزور على طــول الترقـب والــوعـــد
وأمسى أبـــو حيــان عنـــدى مقلبـا كتــابا وأقــلامـا حــرثن بـلا حصــد

وقد أحرق أبوحيان كتبه واعتذر عن ذلك فى رسالة له حزينة

تجردت إلا من خـــلال كـــريمـــة خشيت عليهـا الصبر فقـدا على فقـد
يعلمنى الإيثـــار قـــومى ثـــراؤهم من الـدين والأحسـاب والكـرم العـد

أى الغزير الكثير كعد الماء الذى لاينقطع مدد عينه

ومـرت ضحـى سيـارة ذات غبرة وزهـو على الـدنيـا مصعـرة الخد

أى صاحبها يصعر خده زهوا وغرورا

من الحلـب الأشرار فيهـا مغـــامـــر رآنى فحيـــانى حـــريصـــا على ردى
وأعـــرض عنـــه حــاقــرا منـه نفخـة ألم يــدر أن الـــزيف محتقـــر عنـــدى

الحلب أصل معناها الأخلاط من الناس لا أصل لهم وتطلق في العامية على الغجر ومن هم كالغجر من نابتة العصر الطارئين على البلاد .

هذه الأبيات من قصيدة طويلة آثـر الشاعر فيهـا كما قدمنا البيان الصـارح مع حرارة نفس وانفعالـة ثورة أصالـة ليس معها شك أو تـردد ـ ومع ذلك تصويـر بليغ وأنفاس سخرية وفكاهة .

وشعر المهدى الجيد كثير لا تتسع لـه صفحات هذا المجال المحدود ودونك نمـوذجا أخيرا هذه الأبيات من قصيـدة له بعنوان " غارة طليانيـة " يصف بعض تجاربه إذ تطوع فى الجندية الإضافية بالعاصمة سنة ١٩٤١م إلى حين :

يقـــول البريطـــانـى دافع ولا أرى دفــاعـــا ومـــالى فى بــلادى مـــوطن
وراطنتـــه حينـــا وأصغيـت معجبـــا لصــوتـى كأنى كــافـــر متمـــدن
يقـــول تطـــوع قلـت لا ثم ردنـى أخ ضيـق العينين كـــــالتيس أرعـن
يخوفنى مكـــر الخواجـة حـــاقـــدا على وسجنــــى إن تمردت ممكـــــن

ولى إن تعلمت السـلاح وسيلة بها يشتفى حقد أعانيه مزمن
وأصبحت جنديا فجاءت مغيرة وزامرة صاحت ففر المؤذن[1]
الزامرة صفارة الإنذار - وأغارت طائرة طليانية

أمد حبالا من شواظ متينة وأمسك أقطار السماء وأطعن

هذا وصف جيد وكان المهدى رحمه الله يطلق النار من مدفعه الرشاش بالخرطوم البحرية حين أغارت الطائرات الطليانية ذات عشاء

عجبت لهذا الإنجليزى لابدا بخندقه والطير فوقى تدندن

لبد يلبد من بابى نصر وفرح

وألقت رعودا قاصفات ولذنى من الخوف موت فيه من خاف يأمن

لذ من باب فرح لذنى الشىء ولذذته ، وجهان

ومالى إلا موطن ليس حكمه إلى ولكنى أسير مسجن
ومن فوق رأسى خوذة مستديرة وكمامة بلعومها ليس يؤمن
الخوذة بضم الخاء لا فتحها كما ضبط خطأ في الديوان. وكانت الكمامة للوقاية من الغاز السام ولم يستعمل فى معارك الحرب الثانية، وقوله "ليس يؤمن" لأن الكمامات التي صرفت للمطوعة كانت قديمة يخشى ألا تقى مما جعلت وقاية منه

وأطلق نيرانا تعاوى وترتقى لها شعل بالليل تهذى وترطن
هى الحرب جاءتنا ونصلى أوارها وما بلدى روما ولا هى لندن
والطائرات المغيرة بأمر روما والمدافع ترميها بأمر لندن وضلع الشاعر مع الألمان غيظا على الاستعمار البريطاني، وكذلك كان كثير من العرب

سلام على الألمان ذقنا هزيمة معا وأتى روميل فالثأر ممكن

وصف الشاعر لحبال الذخيرة حى دقيق.
وتعجب الشاعر من نفسه كيف تطوع ليدافع كما قيل وزعم عن الوطن والوطن ما زال تحت المستعمر، وذلك قصر السردار، الحاكم العام البريطانى يشرف على النيل ببياضه من شاطىء الخرطوم المقابل، إذكان هو عند مدفعه بالخرطوم البحرية على الشاطىء الشمالى من النيل الأزرق، ألا يوجه مدفعه إليه فيدكه دكا - نسى الشاعر رحمه الله أنه

(١) ديوان الشرافه والهجرة للشاعر السودانى محمد المهدى المجذوب بيروت ١٤٠٢هـ ١٩٨٢ ص١٨.

مدفع رشاش لن يصنع فى الجدران الضخمة كبير شيء ولكن عسى أن تصيب طلقة منه السردار نفسه. وفى الصبح جاء الضابط المسئول وهو برتبة ميجر [1] فطلب عهدة الذخيرة وعدها كما يتطلب ذلك نظام الفرنجة الدقيق، فغضب الشاعر على الصاغ البريطانى غضبه مضرية - قال وهو قصص جيد ذو حيوية وروح فكاهة ساخرة مع النمط العربي الرصين

عجبت لنفسي في قيودي محاربا   على النيل والسردار فى القصر يكمن
ويا مدفعى الصخاب لو درت دورة   عليه شفانى قصره وهو مثخن
ألم نحتمل غوردون رأسا بحربة   لها صيحة بالنصر والفخر تعلن
ويا كسلا صبرا ولا بأس إنها   حروب وإنى بالمقادير مؤمن

وقعت كسلا فى قبضة الطليان، فقوله "ولا فرق" أى كله استعمار،

ولا بأس أن نشقى بحرب لعلها   تدك بلاد الانجليز وتدفن
وصبحنى فى أول الصبح ميجر   يعد رصاصى وهو للعد محسن

هذه شهادة المحاسب والشاعر المراقب

فصحت به حاربت عنك فهل ترى   أبيع رصاصى وهو صنف مدون

وهذه غضبه وطنى وحجة مدنى إدارى، وما حارب هو عن البريطانى حقا ولكن عن وطنه

فقام ولم يغضب وسلمت عهدتى   إليه وحيانى الكدوس المدخن

كان رئيس المصلحة التي كان يعمل فيها المهدي الميجر«فلي» فيجوز أنه كان الميجر الذي عد الرصاصات المائة وخمسين رصاصة كما بين الشاعر من بعد، ويجوز أنه يكون قد جاء«ميجر» حربي وعدها بحضرة الميجر«فلى» ولكن السياق يدل على أن الذي تولى ذلك هو«فلى» وكان إداريا حازما ووصفه الشاعر هنا ببرود وتعال ومظهر تهذيب - حياه، ولكن بنزع غليونه من فمه حينا يسيرا

ليسقط«فلى» وليعل في الحرب هتلر   فقوموا بني السودان فادعوا وأمنوا

كما كان يدعو فقراء الدامر ويؤمنون كلما حزبهم أمر يخشونه، يقرأون يس أربعين ومائة وألفا - آمين آمين آمين كل منهم يؤمن بعدد ما قرأ ثم إذا اكتمل العدد أذن«الفكى» الكبير ءآمين

(١) أى صاغ أورانذ كما يقال الآن.

ومـن يـــرد شرا لنـــا يقـــود   فكيـــده في نحـــره يعـــود
ومـن يـــرد شرا لنـــا يجر   فسقفـــه مـن فـــوقـــه يخر

حياه فلى بالغليـون المدخن وأعفاه من التطوع، أنف أن يكون دفاعا عنـه هو، وأعطاه
مكافأة وبرر تصرف إعفائه له بتقرير إداري

وأبعـدني من خـدمـة الجيش صـارفا   مكـافـأه عن خـدمتي ليس تسمن
جنيـه ونصف كـل قـرش بطلقـة   ومـالحيـاتي عنـده مـن يثمن

لا يخفى ما ههنا من مرارة

وسجل في التقريـر أني مشـاغب   وأسعـدني أني طليق ملجـن

التلجين هو أن تجتمع لجنة وتصدر تقريرا بالاستغنـاء عن كذا وكذا واكثر ما كان يطلق
التلجين على الأشياء والمعـدات التي يستغنى عنها، فالملجن كأنه غير صـالح ليستفاد
منه.

وهذا وقد طال هذا الكتاب ولا أريد أن أخـرج به عن جادة ما وضع له من تتبع قضايا
الوزن والجرس والبيـان وأشكال تقصيـد القصيدة وأطـوارها ومـا طرأ عليهـا من معاني
العصر الحديث وهزاته وتحدياته وهي عبارة لا تعجبني، أعدها من هذا الجند الغريب
الذي طرأ على لغتنا وأساليبنا. لا أريـد أن أخرج إلى باب من التراجم والاختيار فذلك
يصيربنا إلى بحر لا سـاحل له. والمحسنون ممن لايـزال يؤثر مذاهب الجزالـة قد جعلوا
بحمد الله يكثرون في بلدنا وفي سائر البلاد العـربية، كما أن بدعة الشعر الذي يقال له
حر قد جعلت كبرى غمراتها توشك أن تنحسر والله المستعان وبه التوفيق.
وقد كـان الشيخ مصطفى السقا رحمه الله أشـار على حين تولت شركـة مصطفى البابي
الحلبي طبع الجزئين الأول والثاني ونشرهما سنة١٩٥٥م١٩٥٦م ذكر لي أنه يستحسن أن
أكتب عن الموشحات، وحسن مـا أشار به رحمه الله وجزاه خيرا عـن كل ما أسدى إلى
من خير ولكن الموشحات بـاب قائم بنفسه، تدخل فيـه مع عامية الأنـدلس أساليب
المورسكيين وما يصل ذلـك بما تطور منه في بـروفنس وأقاليم فـرنسة وأوربـا في العصور
التي يقال لها الـوسطى، فهذا يطلب تخصصـا وانصرافا جـديدا إلى بابـه من البحث،
ولعل غيري أن يكون أجدى كفاية وأدري دراية بذلك مني في هذا المضمار، وكل ميسر
لما خلق له وليس من الحكمـة أن يقدم المرء على ما عسى ألا يكـون له محسنا ــ إن الله
يحب المتقن عمله.
وفي النفس شيء من باب من أبـواب الشعر الحديث لايسمح الطـول الذي طالـه هذا
الكتـاب والجهـد الذي كلفنيـه من الإقبـال على شيء منـه الآن ــ وذلك هـو الجانب

المسرحى فإن نسأ الله في العمر سبحانه عز وجل، وأعان بمدد منه من صبر وصحة وعمل وتوفيق فآمل أن أفرد لذلك بحثا. رحم الله أحمد شوقي فهو أول من جود المسرحية العربية وروض الأوزان والديباجة الناصعة عليها. ونظرت عرضا في أوائل مسرحية مجنون ليلى:

وأنت إذا ما ذكرنا الحسين تصاممت

«بشر هامسا ومتلفتا كأنما يخشى أن يسمعه أحد»

	لا جـاهـلا مـوضعه
ولكن أخـاف امـرأ أن يـرى	على التشيـع أو يسمعـه
حبست لسـاني عن مـدحـه	حـذار أميـة أن تقطعـه
إذا الفتنـة اضطـرمت في البـلاد	ورمت النجـاة فكن إمعـة

«ليلى»

ابـن ذريح نحـن في عـزلـة	فهل على مستفهم منك بـاس
دار النبـي كيـف خلفتهـا	كيف تـركت الأمـر فيهـا يسـاس

«ابن ذريح»

تـركتهـا يـاليـل مضبـوطـة	يحكمهـا وال شـديـد المراس
إن حـديث النـاس في يثـرب	همس وخطـو النـاس فيهـا احتراس

«ليلى»

ابـن ذريـح لا تجر واقتصـد	أحـلام مـروان جبـال رواس
يـؤسسـون الملك في بيتهم	والعنف والشـدة عنـد الأسـاس

«تتضاحك الفتيات وتقول إحداهن للأخرى»

«فتاة»

ليلى على ديـن قيـس	فحيـث مـال تميـل
وكـل مـا سر قيسـا	فعنـد ليلى جميـل

«ابن ذريح»

مـا الـذي اضحـك مني الظـ	ـبيات العـامـريـة
ألأنـي أنـا شيعيـ	ـى وليلى أمـويـة
اختـلاف الـرأي لا يفـ	ـسد للـود قضيـة

«الخ إلخ . ا . هـ
أحسن أبوالعباس محمد بن يزيد المبرد إذ يقول في الكـامل في معرض تقديمه أبياتا دالية لابن مناذر رثى بها عبـد المجيد بن عبد الوهـاب الثقفي قال : «فله في شعره شـدة كلام العرب بروايته وأدبه وحلاوة كلام المحدثين بعصره ومشاهدته ، ولايزال قد رمى في شعره بالمثل السائر والمعنى اللطيف واللفظ الفخم الجليل والقـول المتسق النبيل وقصيدته لها امتـداد وطول» ـ وكـذلك مسرحية مجنـون ليلى وما جمع شـوقي رحمه الله من تجديـد إلى حسن صياغة وصفـاء ديباجة ومحافظة على الوزن والفصاحـة وتعبير عن معان عصرية بروح حضرية ـ هذا ولنجعل ما ألمعنا إليه وما نسأل الله أن يعيننا على أن نفي ببعض ما وعدنا فيه خاتمة لصفحات هذا الكتاب . . . .
والمرء مظنة الزلل ونعوذ بالله من شرور أنفسنـا وسيئات أعمالنا ونسأله القبول وله الحمد أولا وأخيرا وكان الفـراغ منه في الليلة الخامسـة عشرة من ربيع الأول، سنة١٤١١هـ (أي مساء٣ من نوفمبر سنة١٩٩٠م) في مدينـة الخرطوم أعني الفراغ من الفصل الأخير بعد مراجعتـه كما تقدم من ذكر ذلك وصلى اللـه على سيدنا محمد وعلى آلـه وصحبه وسلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

مؤلفه عبدالله بن الشيخ الطيب بن عبدالله بن الطيب بن محمد بن أحمد بن الفقيه محمد المجذوب
رضي الله عنه

فهرست الجزء الرابع ـ القسم الثاني

الموضوع :   الصفحة

وزارة الاعلام
مطبعة حكومة الكويت